مكتبة

Hellen Keller | Story Of My life | ترجمات عالمية

هيلين كيلر

قصة حياتي

خِطاباتُها بين عامَيْ (1901-1887)
وخِطاباتُ مُعلِّمَتِها، وتَقاريرُ مِن مَعْهَدِ
بيركنس عَن حَياتِها

ترجمة وتقديم: باسم محمود

المحروسة

هيلين كيلر

قصّةُ حَياتي

لن ننسى تشرين . . 23

لن ننسى غزة والشهداء

انضم لـ مكتبة .. امسح الكود

telegram @soramnqraa

عنوان الكتاب: قِصَّةُ حَياتي

مع خِطاباتها بين عامَيْ (1887-1901)

وخِطابات مُعلِّمَتِها، وتَقارير مِن مَعْهَد بيركنس عَن حَياتِها

The Story of My Life

المؤلفة: هيلين كيلر HELEN KELLER

ترجمة: باسم محمود

مراجعة لغوية: محمود شرف

مركز المحروسة

للنشر و الخدمات الصحفية و المعلومات

قطعة رقم 7399 ش 28 من ش 9 - المقطم - القاهرة

ت، ف:- 28432157 02 002

mahrousaeg

almahrosacenter

almahrosacenter

www.mahrousaeg.com

info@mahrousaeg.com

mahrosacenter@gmail.com

رئيس مجلس الإدارة: فريد زهران

مدير النشر: عبدالله صقر

رقم الإيداع: ٢٠٨٠٥/ ٢٠٢٠

الترقيم الدولي: 978-977-313-825-7

جميع حقوق الطبع والنشر باللغة العربية

محفوظة لمركز المحروسة

2020

هيلين كيلر

قِصَّةُ حَياتي

مع خِطاباتها بين عامَيْ (1887-1901) وخِطابات مُعلِّمَتِها، وتَقارير مِن مَعْهَدِ بيركنس عَن حَياتِها

ترجمة

باسم محمود

مكتبة
t.me/soramnqraa

الطبعة الأولى 2020

مكتبة

t.me/soramnqraa

18 11 23

دار الكتب والوثائق القومية

بطاقة فهرسة

فهرسة أثناء النشر إعداد إدارة الشئون الفنية

كيلر، هيلين ادامز، 1880-1968.

قِصَّةُ حَياتي مع خِطاباتها بين عامَيْ (1887-1901) وخِطابات مُعلِّمَتِها،

وتَقارير مِن مَعْهَدِ بيركنس عَن حَياتِها/ هيلين كيلر؛ ترجمة: باسم محمود.-ط1

القاهرة: مركز المحروسة للنشر والخدمات الصحفية والمعلومات، 2020

595 ص؛ 21.5×14.5 سم

تدمك 978-977-313-825-7

1 - كيلر، هيلين ادامز؛ 1880-1968.- المذكرات

-2 الادباء الامريكين

أ-محمود، باسم (مترجم ومقدم)

ب- العنوان

920

رقم الإيداع 2020/20805

إهداء المؤلفة

إلى

أليكسندر غرهام بِلْ،

الذي علَّم الأصمَّ أن يتكلَّم،

ومَكَّنَ الأُذُنَ المستجيبَةَ أن تَسْتَمِعَ إلى حديثٍ

قادمٍ من الأَطْلَسيِّ،

إلى جِبالِ روكي-

أهدي كتابي هذا...

إهداء المترجِم

إلى كلّ مَـن قـضى ليـالي سَرمَديّـة، يقـاسي عتمـةَ البـصَر، أو ظُلمـةَ ظـروفٍ لا يـدَ لـه فيهـا، أو أحـوالًا ظَـنّ أنهـا قـدَرُه ولا فِـكاكَ لـه منهـا: أنـتَ تعلـم أنـكَ، كلّـما جلَـوتَ المـرآة أكـثر، ازدَتَّ رؤيـةً للبحـر الكائـن بداخلـك، وتبـصُّرًا بمـا يقبـع فيـما تحــت الســطح، فلتتذكّــر أصلــك، أنــت تُــدرِكُ أنــه، كلـما ازداد الليـلُ حلكـةً وعَلَـتْ أمـواجُ الكَـون؛ تأجَّـجَ لهيـبُ النجـمِ ونَضَـج جوهـرُه، وعليـه، صـار كـما المنـارة؛ فبتوَقُّـدِه يـزداد ألَقًـا

المحتويات

مُقدّمة المترجِم 11
الجزء الأول: قصّة حياتي 31
الفصل الأول 33
الفصل الثاني 39
الفصل الثالث 49
الفصل الرابع 53
الفصل الخامس 57
الفصل السادس 61
الفصل السابع 67
الفصل الثامن 77
الفصل التاسع 81
الفصل العاشر 87
الفصل الحادي عشر 91
الفصل الثاني عشر 97
الفصل الثالث عشر 101
الفصل الرابع عشر 107
الفصل الخامس عشر 117

الفصل السّادس عشر 123
الفصل السابع عشر 127
الفصل الثامن عشر 131
الفصل التاسع عشر 139
الفصل العشرون 145
الفصل الحادي والعشرون 155
الفصل الثاني والعشرون 169
الفصل الثالث والعشرون 183

الجُزءُ الثّاني: الخِطابات (1887-1901) 193
مُقدّمة 195
الخِطابات (1887-1901) 199

الجزء الثالث: تَقريرٌ إضافيٌّ عن حَياةِ هيلين كِيلَر وعَن تَعليمِها 343
الفصل الأول: كِتابَةُ الكِتابِ 345
الفصل الثاني: شخصيَّتُها 351
الفصل الثالث: تعليمُها 369
الفصل الرابع: مرحلة الكلام 499
الفصل الخامس: أُسلُوبُها الأَدَبِيُّ 513

ملحق الصور 571
نبذة عن المترجم 595

مكتبة
t.me/soramnqraa

مُقدّمة المترجِم

في مديح الشَّغَف

فِي البَـدءِ كَانَ الشَّـغَف، والشَّـغف كان الفضـول، وكان مـن الفُضـولِ السُّـؤال، وكلُّ اكتشـافٍ بـه كان، فـإنْ أحسَـنتَ السُّـؤال؛ وُهِبْـتَ قَبسًـا مـن نـارِ برومثيـوس، وإن تعَامَيْـتَ، وعـن مشـكاةِ المعرفـةِ ضربـتَ صَفحًـا؛ فليـس بـصرُكَ بمُسـعِفِك.

"لماذا هيلين كيلر؟" جيِّد، أحسنتَ السؤال[1].

هَـبْ أنـكَ، مُـذ أن وعيـتَ عـلى كوكـب الأرض، لم تَـعِ مـن الدنيا سـوى وجـودك داخــل ســجنٍ مظلِـم، لا تــدري أيَّ نفــعٍ ليدَيْــكَ ولا لقدمَيْــك، ولا لوجــودكَ بالأصــل -إن كنــتَ تــدري حتــى مــا الوجــود- ولأنَّ البــشر

(1) تنويـه: تحـوي هـذه المقدِّمـة بعضَ الأسئلة؛ فـإن كنـتَ مـن هـواة اللغـة التقريريَّـة، أو تخـشى التسـاؤلات -فربَّمـا التسـاؤلاتُ تُسـبِّب لـك في العمـوم بعـض القلـق النفسيِّ أو الرُّوحـيِّ- وتـرومُ إجابـاتٍ مُعلَّبَـة، فبـدلًا مـن أن تسـتثقلها، أو تتـبرَّمَ مـن طولهـا -أو ربَّمـا تصـبَّ اللعنـات عـلى كاتبهـا- فيمكنـكَ، بالطَّبـع، أن تتجاوَزَهـا. (المترجـم)

يخشـون كُلَّ مـا هـو مجهـول، صرتَ سـاعتها -إن كنـتَ تـدري أصـلًا مـا الزمـن- تتخبَّـط في جـدران المحبـس، تُعمِـل فيهـا مخالِبَـك، ومـا من وسـيلةٍ بعـدُ ولا لغـة تُبـينُ بهـا عـمَّا يعتمـلُ في صـدركَ مـن كـربٍ وكَمَـد، تجـري هنـا وهنـاك. يسـتعلِنُ فيـكَ الطَّابـعُ الجاهـليُّ الزَّاحِـف؛ تـركل وترفـس مَـن يقـترب منـك، تمـزِّق مَـن/ مـا يلمسُـكَ، أو أيًّـا مـا تطالُـه يـداك، وحـشٌ جامـح لا يوقِفُـه شيءٌ، إلى أن -عـبر جـدران المَحْبِـس- تستشـعر نَقْـرًا مـن الجانــب الآخـر، حيــث هنــاك عالَــمٌ غــير عالَمِـك، فتُمسِــكَ بنَسَــقٍ مــن النقـرات، يتزامَـنُ مـع تجربـةٍ حِسِّـيَّة، فيتوهَّـجَ لهيـبُ الفضـولِ في مشـكاة الشَّـغف.

في هكذا سِجنٍ وُلِدَت هيلين كيلر، و"مُعلِّمة" هي مَن حرَّرها.

لكن، كيف تعلَّمت هيلين اللغة؟

قصــة هيلــين كيلــر بــدأت بوالِدَيــن مُحِبَّــيْن، طافــا بهــا البــلادَ طلبًــا لتعليمهـا؛ إيمانًـا واحترامًـا لكيانهـا البـشَريِّ، حتـى انتهـى بهـم المطـاف أن التقــوا بالدكتــور أليكســندر غرهــام بــل، تقــول هيلــين:

"عمـلًا بنصيحـة دكتـور تشيشـولم ذهبنـا في الحـال إلى واشـنطن للقـاء دكتـور بِـل، كان والـدي يعتمِـلُ في قلبـه الحـزنُ، وكثـيرٌ مـن الوسـاوس - لم أكـن أدركُ تمامًـا بمـا يُثقِـلُ عـلى نفسـه مـن ألم- وكنـتُ أتحـرَّى السـعادة في شـعور الإثـارة الـذي يرافـق السـفر مـن مـكانٍ إلى مـكان. وباعتبـاري طفلـةً آنَئِـذٍ، استشـعرتُ عـلى الفـور مشـاعر التعاطـف والطِّيبـة التـي جعلـت دكتـور بِـل محبَّبًـا إلى قلـوب الكثيريـن؛ فإنجازاتُـه المدهشـة قـد اسـتمالَت إعجـاب النَّـاس بـه. أجلسـني عـلى ركبتيـه، بينـما كنـتُ أنـا أتفحَّـصُ سـاعَتَه، وجعلهـا تـرنُّ لأجـلي. لقـد كان يفهـم إشـاراتي، وأدركـتُ هـذا وقتهـا، وأحببتـه عـلى الفـور. لكـن، لم أكـن أحلـم أنَّ ذلـك اللقـاءَ كان هـو البـاب الـذي يتعـيَّن عـليَّ أن أمـرق منـه مـن العَتَمَـةِ إلى النُّـور، مـن العُزْلَـة إلى الأُلْفَـةِ، إلى الأُنْـسِ، إلى المعرفـة.. وإلى المحبَّـة".

لقد ظلَّت هيلين في عَتَمَتِها قابِعَةً: السجنُ مظلمٌ، والقنديل مُنطفئ، ما من أنيسٍ، والليل سَرمديٌّ، حتى أتت "مُعَلِّمَةٌ" فنقَرَت على جدران مَحْبِسِها، ومسحت على زجاجها الدُّرِّيِّ، ومن كُوَّةٍ أسقَطَت لها مِعولًا، بطرفه الآخر مِفتاحٌ، فأمسكت -تلك التي كانت ساعَتَها مَكفوفَةً- بالمِعْوَلِ، وطَفِقَت تُكسِّرُ الجدران الصَّمَّاء، ربما هو المعول نفسه الذي يقول عنه كافكا فيما بعد: "ينبغي للكتاب الذي نقرأه أن يكون كما المعول الذي يكسِّر البحر المتجمِّد في دواخلنا". أفلَت الأصنام، وأشرق النُّور، عندها شَبَّ لهيبُ القِنديل، واستنار المكان؛ فاستبانت المفتاح، فإذا هو مفتاح اللغة، وبه، وَلَجَت من الأبواب ما لا يُحصى.

"كنتُ أعْمَى والآنَ أُبْصِر"[1].

لماذا كانت هيلين على وشك أن تتسبَّبَ في موت أُختها الصُّغرى؟

كان مجيء الآنسة ساليڤان في حياة هيلين بمثابة معول آخر، فجَّر ينبوع الماء من تحت قدميها، وكان التحدِّي الواقع عليها هو أن تُعيد هذا الوحش الجامح إلى طابعه البشريِّ، ثمَّ تُهذِّبه وتُعَلِّمه؛ ليكون قادرًا على أن يفهم ويتواصل ويُبين، وقد لَقِيَت من المعارضة وعدم الإيمان من جانب كثيرٍ من التربويِّين، تقول في إحدى رسائلها:

"الطَّقسُ الحار مُتواصل. وهيلين على نفس الحال تقريبًا: شاحبة، ونحيلة، غيرَ أنَّه لا يجب أن تَظُنِّي أنَّها مريضةٌ في الحقيقة. أنا على يقينٍ أنَّ الجو الحار هو السبب، وليس النَّشاط الطبيعي البارع لعقلها هو المسؤول عن حالتها تلك. ومن جانبي لن أُثقل طبعًا على ذِهنها. فيكفينا ما نلقاه من كَمٍّ الإزعاج من قِبَل أُناسٍ يُلقون التَّبِعةَ على العالَم عندما يُهمِلهم الله. هؤلاء يخبروننا أنَّ هيلين (تُحمَّل بما يفوق طاقتها من عمل)؛ لهذا السبب عقلها نَشِطٌ للغاية (هؤلاء هم نفس الأشخاص الذين كانوا يعتقدون أنَّها بلا عقلٍ تمامًا قبل بضعة أشهُر!)،

(1) يوحنَّا (25:9)

وكانـوا يقترحـون وسـائل سـخيفةً وتعجيزيَّـةً للتَّـداوي. لكـن حتَّـى الآن، لا يظهـر أنَّ أحدهـم قـد فكَّـر بتخديرهـا بالكلوروفـورم، والـذي -حسـب مـا أعتقـد- هـو أنجـعُ وسـيلةٍ فحسـب لأجـل كبـح مُمارسـتها الطبيعيَّـة لقُدُراتِهـا! كـم هـو غريـبٌ اسـتعداد النـاسِ دومًـا لإسـداء النُّصـح في أيَّـة حالـةٍ طارئـة! -واقعيَّـةً كانـت تلـك الحالـة أو خياليَّـة -ولا يهـمُّ كـم مـن المـرَّات قـد أظهـرت التجربـة أنَّهـم يكونـون عـلى خطـأ، فهُـم يُواصِلـون اسـتعراض آرائِهـم، كـما لـو أنَّهـم قـد تلقَّوهـا مـن الإلـه القديـر!".

أقـسى مـا يمكـن أن يتعـرَّض إليـه كاتـب -أو مترجـم- أن يكـون يـرى: شـيئًا، صـورًا، أشـخاصًا، وحـركات- تكـون فيـه، كـما الحلـم، يسـمع أصواتًـا، ولا يسـمع في الوقـت نفسـه، لكنـه يفهـم كلَّ شيء، ومـع هـذا، لا يسـتطِيع لاسـتعباره حرفًـا. تُـرى، كيـف يكـون حـال مَـن حُـرِمَ النِّعمتَـين اللتـين تُغذِّيـان أرض الأحـلام بالمـاء والبـذور، ومـن نعمـة القـدرة عـلى الإبانـة؟ لطالمـا تعـرَّض المكفوفـون والصُّـمُّ إلى الإقصـاء -ومـا يزالـون- حَـدَّ أن تبلـغَ عُنصريَّـةُ البـشريِّ باقـتراح بنـاء مُسـتعمراتٍ لإيوائهـم. في كتابهـما "تكيُّـف الكفيـف"، يقـول المؤلِّفـان: "ومـع أنَّ المكفـوف يسـتطيعُ أكـثر مـن معظـم النـاس أن يُقـدِّرَ المميـزات الرُّوحيـة والماديـة الموجـودة في العـصر الحـاضر، فهـو يسـتطيع أن يميِّـزَ أكـثر مـن غـيره المفارَقـاتِ التـي تتخلَّـل الحيـاة في عصرنـا هـذا. وقليلـون هـم الذيـن يدركـون -كـما يـدرك المكفـوف- مقـدارَ فشـلنا الرُّوحـي في التَّـماشي مـع التقـدُّم العظيـم الـذي أحرزنـاه في الميـدان العلمـيِّ والآليِّ. فلقـد كان يُنتَظَـر أن تجعـل الآلـةُ الكفيـفَ في مركـزٍ يختلـفُ اختلافًـا كُليًـا عـن المـاضي. فـلا يـزال يُعـاني في مجتمعـه صعوبـاتٍ اجتماعيَّـةً، لا بسـبب فقدانـه البـصر، بـل بسـبب تأثـير حالتـه هـذه عـلى المبصريـن. فـلا يـزال هنـاك حاجـزٌ عاطفـيٌّ بينـه وبينهـم، وهذا الحاجـز مـن بقايـا المـاضي، حـين كان كلُّ مَـن لمـس يـد المكفـوف يُصـلِّي لله في صمـتٍ أن يُبقـي عليـه نعمـةَ البـصر. ولا يـزال النـاس يعتقـدون أنَّ التَّـبرُّعَ لجمعيـة المكفوفـين أفضـل مـن إيجـاد عمـلٍ لواحـدٍ منهـم. ومـا

زال البعض إلى الآن يتقدَّمون باقتراحٍ يرمي إلى حلِّ هذه المشاكل، عن طريق وضع المكفوفين في مستعمراتٍ منعزلة، يكوِّنون فيها مُجتمعهم الخاص"[1]. لعلَّ الدَّافع لذلك هو ما شرَّحه ساراماجو في المستعمرة التي شَيَّدها في روايته "العمى"، وكان مُحِقًّا حين قال: "خبز الآخرين هو الذي يُثْقِلُ كاهِلَ المرْءِ دَوْمًا".

لقد وصل الأمر إلى درجة تجريمِ لُغةِ الإشارة في بعض البلدان، بل واعتبار تعليم الكفيف جريمة. ثمَّة نموذجٌ مُعاصِر، أصيب بالصَّمَم، ورغم ذلك، استمع لنداء ذاتِه، إلى أن صار أُمثولةً على النِّضال: إيمانول لابوري، ممثِّلةٌ فِرنسيَّةٌ صمَّاء، حين كانت طِفلة، كانت تُطلقُ صرخاتٍ تشبه صرخات النورَس، اعتقد الطبيب الذي كشف عليها أنَّها مجنونة. كان أوَّل مَن نبَّه عائلتها أنَّها صمَّاء هو عَمُّها "إيمانول تصرخ لأنَّها لا تسمعُ نفسها". تقول في سيرتها "صرخة النورس": "يقولون إنَّ المرء يصرخ بما لا يريد أن يُفصِحَ عنه، أمَّا أنا فأصرخُ لأحاول أن أسمع الفرق بين صمتي وصرخاتي؛ لأعوِّض كلَّ هذه الكلمات التي أراها تتحرَّك فوق شفاه أمِّي وأبي، والتي كنتُ أجهلُ معناها"[2]. وقد سعى والداها كذلك -حتى بعد انفصالهما- إلى تعليمها. أُلحِقَت بإحدى المدارس، التي كانت تحوي فصلًا وحيدًا لتعليم الصُّم في باريس، ورغم أنَّه مكانٌ لتعليم الصُّم، فقد كان استخدامُ لغة الإشارة محظورًا على المعلِّمين والطلبة على حدٍّ سواء، وعِلَّةُ المعلِّمين وكبار الخبراء وقتها للآباء: "أَجْبِروهم على الكلام، وسوف يتكلَّمون". وهو على النقيض مما قالته الآنسة ساليڤان قبل 126 سنة: "علِّموهم أن يفكِّروا وأن يقرؤوا وأن يتكلَّموا دون كَبتِهم، وسوف يكتبون لأنَّه لن يسعهم سوى فِعلِ هذا". فدائمًا ما يُكيِّفُ البشريُّ أوضاع الآخرين وِفق أهوائه هو إن تقلَّدَ سُلطة- حتى وإن كانت سُلطةَ العِلم.

---

(1) "تكيُّف الكفيف" هكتور تشيفني، سيدل بريفرمان. ترجمة: د. محمد عبد المنعم نور.

(2) "صرخة النورس" إيمانول لابوري- ترجمة: دينا مندور.

هل مارست هيلين الترجمة عن اللاتينية أو اليونانية؟

هـل الآنسـة ساليـڤـان، مُعَلِّمـةُ هيلـين، هـي أوّلُ مَـن ابتـدع طريقـةً للـكلام مـع الصُّـم المكفوفـين؟

في محاضرتـه عـن كيفيَّـة اكتسـاب اللغـة، في ثمانينيّـات القـرن المـاضي، وقـف المحـاضر أمـام الجمهـور وابتـدأ حديثـه بالألمانيـة، بينـما اللغـة التـي يفهمهـا الجمهـور الحـاضر هـي الإنجليزيَّـة، وبعـد أن انتهـى مـن كلامـه المبْهَـم بالنسـبة لهـم، طـرح سـؤاله: "مـا رأيكـم؟ درسٌ جيِّـد إلى أبعـد الحـدود؟ هـل تظنـون لـو أنِّي واصلـتُ الحديـث عـلى هـذا المنـوال، بهـذا سـوف تتعلَّمـون الألمانيَّـة؟ في الغالـب لا. طَيِّـب، مـاذا لـو أعـدتُ سَرْدَ كلامـي؟ أسـيكون ذلـك ذا عـونٍ؟ ربَّمـا لا. مـاذا لـو قلتُـه بصـوتٍ أعـلى قليـلًا، أَسَيُسْـعِفُ الأمـر؟ ربَّمـا لا. مـاذا لـو أعـدتُ سَرْدَ كلامـي بالعكـس؟ مـاذا لـو رأيتمـوه معروضًـا عـلى شاشـةٍ تلفزيونيَّـة؟ ربَّمـا كذلـك لا. مـاذا لـو قرأتُـه عليكـم وكتبتمـوه ورائي؟ مـاذا لـو قرأتـه عليكـم وكتبتمـوه، وقـد حذفـتُ الكلمـة الخامسـة مـن كُلِّ جملـة، وتركتكـم تُخَمِّنـون مـا هـي الكلمـة؟ الحقيقـةُ أنَّـه، لا شيء مـن هـذه الأمـر سـيفيد، لا شيء مـن هـذا يعنـي أيَّ شيء. إليكـم الـدرس: ...". ثـمَّ عـاود المحـاضر سَردَ كلامـه بالألمانيَّة، مُتمثِّـلًا بيـده معـاني الكلـمات التـي كان يقصدهـا عـن طريـق الإشـارة إلى وجهـه وأُذُنَيـه وعينَيـه، حيـث كان يقصـد مـا قالـه بالألمانيـة أنّ الإنسـان لـه وجـهٌ واحـد وأُذنـان وعينـان، عندهـا فهِـم الجمهـور مقصـده. ثـم بـدأ تفسـير الموقـف: "إنَّنـا نكتسـبُ اللغـة بطريقـة واحـدة، طريقـة وحيـدة فحسـب: حـين نفهـم الرسـائل المقصـودة. نطلـق عـلى هـذا: الــمُدخَل [العقـليَّ] المفهـوم [الممكـن إدراكـه وفهمـه]. إنَّنـا نكتسـبُ اللغـة حـين نفهـم مـا يخبرنـا بـه النَّـاس، لا كيـف يقولونـه. لـذا، فـأيُّ شيءٍ يسـاعد في جَعـلِ أيِّ مُدخَـلٍ [عقـليٍّ] مفهومًـا وقابـلًا لـلإدراك، كالصُّـور، أو معرفـة الكلـمات... إلى آخـره؛ فإنَّـه يسـاعد في اكتسـاب اللغـة".

كان المحاضِر هو البروفيسور ستيفن كراشِن، الذي يجيد عددًا من اللغات، والمشغول في أغلب أبحاثه بكيفيَّة اكتسابِ الإنسانِ اللُّغةَ. وكما يُبيِّن، فالإنسان "يكتسب" اللغة -وهي اللفظة التي تكرَّرت غير مرَّةٍ في الجزء الثالث من هذا الكتاب، وتُباينُ لفظة "يتعلَّم" في الدلالة- إن فَهِم الرسالة من الكلام، يعني أن تترافق الكلمات مع رسالة حِسِّيَّة، إشارة، وهو ما يتشابه مع ما أرست قواعدَه الآنسةُ ساليڤان، ويُفسِّر لحظة التنوير التي على إثرها فَهِمَت هيلين كيف تتواصَلُ مع العالَم. يستعرض چون ألبرت ماسي -محرِّرُ الجزء الثالث من الكتاب- النَّهجَ الذي سارت عليه الآنسة ساليڤان فيقول:

"لقد بدأت الآنسة ساليڤان من حيث انتهى الدكتور هاو؛ فهو ابتكَر الأداة، أي الوسيلة المادية للتنفيذ، غير أنَّ تعليمَ اللغة لهو أمرٌ مُغايرٌ تمامًا عن الوسائل الآلية التي ربَّما تُعلَّمُ بها اللغة. وبفضل التجربة، ومن خلال دراسة أطفالٍ آخرين؛ اهتدَت الآنسة ساليڤان إلى الطريقة العملية لتعليم اللغة بالطريقة الفِطريّة. (الطريقة الفطرية) تلك هي ما كان يسعى الدكتور هاو للوصول إليه، لكنَّه لم يتوصَّل إطلاقًا إلى تلك الفكرة؛ وهي أنَّ الطفل الأصمَّ لا ينبغي تعليمه كلَّ كلمةٍ على حَدَةٍ من خلال تعريف الكلمة، بل ينبغي أن يُمنَح اللغة بواسطة التكرارات التي لا تنتهي لِلُغَة التي لا يفهمها. وكان ذلك هو اكتشاف الآنسة ساليڤان العظيم. فعلى مدار اليوم، طوال وقت لعبهما ووقت العمل، كانت الآنسة ساليڤان تواصِل تهجئة الكلمات في يد تلميذتها، وبهذه الطريقة، كانت هيلين تتشرَّبُ الكلمات، تمامًا كما يتشرَّبُ الطِّفلُ في مهدِه الكلمات عن طريق سَماعها آلاف المرَّات، وذلك قبل أن يستخدم حتَّى كلمةً واحدةً منها، وكذلك عن طريق الرَّبط بين الكلمات المنطوقة ومناسَبة التفوُّه بها. وبهذا يُدرِكُ الطِّفلُ أنَّ الكلمات تخلعُ أسماءً على الأشياء والأفعال والمشاعر. وعليه، هذا هو المبدأ الأول في طريقة الآنسة ساليڤان، وهو مبدأٌ كانت له نتائج

عمليـة، وبقـدر مـا أسـتطيعُ أن أكتشـف، فهـي فكـرةٌ لم توضَـع أبـدًا موضع الاختبـار العمـلي في تعليـم طِفـلٍ أصَـمّ -ناهيـكَ عـن طفلـةٍ كفيفـةٍ صَـمّاء- إلى أن جرَّبتهـا الآنسـة ساليـڤـان مـع هيلـين كِيلَـر. ولم يكـن هـذا المبـدأ مصوغًـا بوضـوح حتَّـى كتبـت الآنسـة ساليـڤـان خطاباتهـا.

المبـدأ الثـاني في طريقتهـا: هـو ألَّا يُتكلَّـمُ مـع الطِّفـل أبـدًا عـن أشـياء مـن شـأنها أن تثـيرَ ضجـرَه أو اشـمئزازه. ففـي المدرسـة الأولى لتعليـم الصُّمِّ، التـي زارتهـا قَبـلًا الآنسـةُ ساليـڤـان، كانـت المعلمـة مشـغولَةً على السـبورة بإخبـار الأطفـال، عـن طريـق كلـماتٍ مكتوبـة، بـشيء لم تكـن بهـم رغبـة في معرفتـه، بينـما كانـوا يتزاحمـون حـول زائرتهـم بفضـولٍ نَهِـمٍ، مُظرهـين أنَّ هنـاك آلافَ الأشـياء التـي يرغبـون فعـلًا أن يعرفوهـا. (لِـم لا نصنـعُ درسًـا في اللغـة مِـمَّا يثـير اهتمامهـم؟): هكـذا تقول الآنسـة ساليـڤـان".

أكثر ما يلفتُ النَّظر هو الفقرة التالية:

"كانـت تحـثُّ كلَّ إنسـانٍ عـلى التحـدُّث مـع هيلـين بشـكلٍ طبيعـي؛ يعنـي أن يُحدِّثوهـا بجُمـلٍ تامَّـةٍ وبأفـكارٍ عاقِلـة، ولا يهـمُّ إن كانـت هيلـين تسـتوعبها أم لا. وهكـذا أدركَـت الآنسـة ساليـڤـان مـا لا يفهمـه الكثـير مـن النـاس، حيـث بعـد التعريفـات الأوَّليَّـة لكلـمات مثـل: قُبَّعـة، فنجـان، يذهـب، يجلـس، تكـون الوحـدة في اللغـة -كـما يتعلَّمُهـا الطِّفـل- هـي الجملـة، والتـي هـي كذلـك وحـدةُ اللغـة في خِبرة الشـخص البالـغ. نحـن لا نتنـاول الجملـة كلمـةً بكلمـة، إنَّمـا كوحـدةٍ واحـدة". يعنـي أن تتعلَّـم اللغـة، ليـس عـن طريـق كلمـةٍ بكلمـة، ولا إعـادةِ سَردٍ عقيـمٍ وتسـميعٍ للقواعـد، إنَّمـا، تُفهَـم الكلـماتُ وسـط سـياق. وهـو مـا يوافـق كثـيرًا مـن طرائـق تعليـم اللغـة الحديثـة، كالطريقـة الشـهيرة التـي ابتدعهـا ﭘـول بيمزلـر- غـير أنَّـه يعيبـه طـول الوقـت المسـتغرَق، وترديـد الجمـل عـلى نحـوٍ قـد يثـير الملـل. وقـد سـار عـلى نهجـه ميشـيل تومـاس، الـذي يقـول إنَّـه قـد ابتـدع طريقتـه الخاصَّـة؛ ففـي جميـع تسـجيلاته لكورسـات تعليم

مختلف اللغات التي يُتقنها، ينطلقُ في تعليم اللغة عن طريق تبنِّي الجملة كوحدةٍ واحدة، لا الكلمة مُفرَدة. هل هو اقتباسٌ لفكرتها؟ لا أحد يعلم؛ ربَّما هو تَوارُدُ خواطر.

ما علاقة هيلين كيلر بـ طه حسين؟

هل كانت هيلين كيلر تكره الدراسة في الكلية؟

أزمةُ المبدع، أو المتفرِّد، أو الفنَّان، تكون دومًا مع ما هو مفروض. مع ما عليه أن يتجرَّعه من ثوابِت، معارِفَ جامِدة، مسارِدَ تواريخ وأحداث، يُراكِمها بعقله مؤقَّتًا، لا غرض منها سوى أن تُوضَع في ورقةٍ، لتحصيل رقمٍ من خانةٍ أو اثنتين أو أكثر، يكون دلالةً على تفوُّقه. حُلم هيلين كان هو الذِّهاب إلى الكلِّيَّة، لقد كانت مُتيَّمةً بالإلياذة وبالأودِيسَّا، بهوميروس وبالأساطير اليونانية، حتى أنَّها كانت لَتُحاكي في بعض كتاباتها أُسلوبَ الملاحم، بيدَ أنَّها، مع تقدُّمها في مسارها التعليميِّ، بدأت الأشياء تستوضِحُ بالتجربة، أي: ماهيَّة التعليم النِّظاميِّ على الحقيقة. تقول عن تلك الفترة: "لكنَّ الكلية ليست هي أثينا الكونيَّة كما ظننتُ أنها كذلك. فيها لا يلتقي المرء بالعظيم والحكيم وجهًا لوجه، ولا يشعر حتَّى بأثرهم الحَيِّ. إنهم يكونون حاضرين، هذا صحيح، لكنَّهم يبدون مُحنَّطين كموميا‌وات. يُخيَّلُ إليَّ أنَّ كثيراً من أحبارِ الأدب يتناسَون أنَّ استمتاعَنا بالأعمال الأدبيَّة العظيمة إنما يعتمدُ على مدى عمق تعاطفنا معها وجدانيًّا، أكثر من مقدار فَهمنا لمغزاها الفلسفيِّ. الإشكال هو أنَّ قليلًا للغاية من شروحاتِهم الشاقَّة يعلَقُ بالأذهان. أنا لا أقصد أن أُوَجِّه اعتراضًا على المعرفة العميقة التي نُحصِّلها من الأعمال ذائعة الصيت التي نقرأها. بل اعتراضي هو على التعليقات المطوَّلةِ حدَّ السأم، وعلى الكِتابات النَّقدية التي تُثير الحَيرة، ولا تُعلِّمُ سوى شيءٍ واحد: أنَّ العالم يعجُّ بالكثير من الآراء بقدر ما فيه من بشر.

لكـنّ الامتحانـات هـي (البُعبُـع) الرئيـسيُّ بالنسـبة لحيـاتي في الكليـة، رغـم أنَّنـي تواجهـتُ معهـا مـرَّاتٍ كثـيرة، وكُـسِرَت شَـوْكَتُها بالنسـبة لي. الأيَّـامُ التـي تسـبق حلـول هـذه المِحَـنِ عليـكَ تُقـضى في حَشـو عقلِـك بالصِّيَـغ الغامضـة، وبالتَّواريـخ العسـيرة عـلى الهضـم، وهـي وجبـات غذائيَّـة غـير مُستسـاغة، حتـى أنَّـك لتتمنَّـى أَنْ لـو دُفِنَـتَ -أنـتَ، والكُتـب، والعلـوم جميعًـا- في أعـماق البحـر".

فـما كان مُسـتقِرًّا في نفـس هيلـين عـن التعليـم في أوَّل الأمـر هـو أنَّـه لُعبـة، لهـوٌ مُمتِـع، يدفعـه الولـعُ الطُّفـوليُّ بالاستكشـاف، أمَّـا بعـد أن وُضِعَـت أسـيرةَ المفـروض والواجـب؛ اختلـف الأمـر. فحـين يُثْقَـلُ العقـل بالتفاسـير المسبقة، عندهـا، قـد يـوأدُ الخيـال داخـل البـشريِّ؛ لهـذا، فربَّمـا بعـد أن تنتهـي مـن جميـع مراحلـك التعليميَّـة النظاميَّـة، تبـدأ المرحلـة الأهـم مـن حياتـك، وهـي مرحلـة: إصـلاح مـا أفسـده نظـام التعليمِ فيـك.

هـل الطرائـقُ التعليميـة المنْتَهَجَـةُ في كثـيرٍ مـن تلـك البـلاد التـي تنطـقُ بلغـة الضَّـاد -أو مـا سـواها- تكبـتُ روح الإبـداع؟ كأن تُدفَـع إلى قضـاء سـنواتٍ طِـوالٍ في دراسـة الصيدلـة، مثـلًا، وشَـغَفُكَ.. هـو شيءٌ آخـر؟- مَـن يـدري! فربَّمـا لـو وُلِـدَت هيلـين في واحـدةٍ مـن تلـك البـلاد التـي تفـوق لغتُهـا كثـيرًا مـن لغـات الأرض، وبـثراء تراثهـا تُفاخِـر -رغـم أنَّـه مَـن أبطـأ بـه عملُـه، لم يُـسرِع بـه نَسَبُه- وتنطـق أبجديَّتُهـا ثمانيـةً وعشريـن حرفًـا، أن يكـون قدرهـا أن تُوصَـمَ فحسـب بكونهـا "مُعاقَـةً ذهنيًّـا"، أو "مـن ذوي الاحتياجـات الخاصَّـة" (مـع إظهـار عظيـم مشـاعر الشـفقة والتعاطُـف بالطَّبـع)- هـل تلـك العقـول الخارجـة عـن المألـوف، التـي تسـتعصي عـلى أن يسـعها قالَـب، هـي في الأصـل عقـولٌ مجنونـة لا نفـع منهـا؟ أمجانـينُ بـين عُقـلاء، أم عُقـلاءٌ هـم بـين مجانـين؟ لـذا، ذلـك المتمـرِّد -كاتبًـا كان، أو موسـيقيًّا، فيزيائيًّـا، عـلى اختـلاف المسـمَّيات؛ فطبيعـةُ النُّـور واحـدة، بيـدَ أنَّـه تتعـدَّد طُـرُقُ الإبانـة- يكـون هـو المنبـوذ، الـذي ينبَغـي أن يُصنَّـف، حتـى يكـون في مُسـتطاع المقَوْلِبـين/ المقَوْلَبـين التعامُـلَ معـه، وهـو مـا

يُفسِّرُ ما قابَلَته الآنسة ساليڤان من عدم إيمان بطرائقها في البداية. غير أنَّ ذلك اللامنتمي، مثله في كَونِه لا يُقَوْلَب، بل يصنعُ قوانينه، وشعاره في هذا: "اتْرُكْ زمام أمرِكَ للطِّفل الذي كُنْتَه". لعلَّ ما جعل من هيلين أعجوبةً بحقٍّ -جانب أبويها ومُعَلِّمتها، وجهود الدكتور هاو والدكتور غرهام بِل وأصدقائها غيرهم- هو انقيادها لشغفها الفِطريّ، وربَّما هو ما مَسحَ على كلماتها من الفتنةِ والسحر؛ لذا احتفظت دومًا ببكورة الدَّهشة.

ما انطباع هيلين عن شِعر عُمر الخيَّام؟

إن كانت قِصة هيلين قد ألهَمَت الكثيرين من صحيحي الجسد أو مَن أصابه اعتلال، فلم يقف الحد عند نصِّها المقروء؛ فقد اقتُبِسَت في أعمالٍ سنمائيَّة، أشهرها فيلم Black، إلَّا إنَّه أُجري بعض التغيير على القِصَّة؛ مثلًا: بُدِّلَت شخصيةُ المعلِّمة؛ الآنسة ساليڤان، واستُبْدِلَ بها رجلٌ -الذي كان الممثل الشهير: أميتاب باتشان- ربَّما لضروراتٍ دراميَّة؛ كإبراز بعض الصفات النفسية جرَّاءَ التَّفاعُل ما بين ذكرٍ وأُنثى- مثل الحاجةِ إلى عاطفة الحبِّ مثلًا، وخلافه.

الأمرُ المثير للدهشة والتساؤل: ما الذي يدفع امرأةً تُرافقُ طِفلةً غير مروَّضة، لا تسمع ولا ترى ولا تتكلَّم، فتعلِّمها اللغة؟ علاقة هيلين كيلر والآنسة ساليڤان علاقةٌ استثنائيَّة، وتبعثُ على التأمُّل. هل كان دافعها، هو التَّحدِّي؟ إثبات الذات؟ أكل العَيْش؟ ما الذي يدور داخل عقل الطرف القادر والفاعِل في تلك الثُنائيَّات؟ فما الذي يدفع مثلًا امرأة فرنسيَّةً جميلة إلى الارتباطِ بشابٍّ مكفوفٍ -وبمعايير البعض: يختلِفُ عنها في اللغة والدِّين؟- "أوَّلُ مرةٍ التقينا فيها كانت في 12 مايو، 1915. لم يكن ثمة شيء في ذلك اليوم يُنبئني بأنَّ مصيري كان يتقرَّر. وكنتُ على شيءٍ من الحيرة؛ إذ لم يسبق لي في حياتي أن كلَّمتُ أعمى. لقد عُدتُ إليه أزوره بين الحين والأخرى في غرفته التي كانت

غرفةَ طالبٍ جامعيٍّ. كُنَّا نتحدَّثُ، وكنتُ أقرأ له بعض الفصول من كتابٍ فرنسيٍّ. ولعلَّ القدَر قد أصدر قراره بالفعل. فقد كان هناك أعمى آخر، هو الأستاذ الإيطاليُّ الذي كان يُدرِّسه اللاتينية، وقد أدرك ذلك وقال له: سيِّدي، هذه الفتاة ستكون زوجَتَكَ". ذلك المكفوف الذي أصبح فيما بعد وزيرًا للمعارف، صار بصيرًا يقود مكفوفين يهديهم الطريق، وهو الشخص ذاته، الذي تشوَّقَت هيلين إلى لقائه. في مُذكَّراتها، تحكي سوزان عن زيارة هيلين إلى مِصر فتقول: "في مايو 1952، كانت هيلين كيلر تزور القاهرة. وطلبت أن تلتقي بِـ طَه. كانت قد قالت عن هذا اللقاء: سيكون لقائي مع طه حسين أجمل يوم في حياتي. وكُنَّا نشعر بانفعال شديد حين ذهبنا -طه ومُؤْنِس وأنا- إلى فندق سميراميس، ونتساءل كيف سيدور الحديث مع امرأةٍ لم تكن عَمياءَ فقط، وإنَّما صمَّاء بَكْمَاء. والحق أنَّ ذلك لم يكن صعبًا على نحو ما انتظرنا؛ أوَّلًا لأنَّه كان بالقرب منها سكرتيرة مُدهِشَة، كانت تُسمَّى فيما أذكر مس طومسون. لقد كانت تقوم بكلِّ ما يمكن لإخلاص لبِقٍ مستنيرٍ أن يقومَ به. كانت تنقل الأسئلة والأجوبة بسرعة من طرفٍ إلى آخر، وذلك بضغطةٍ تقوم بها على حنجرة هيلين، أو بمسِّ قبضتها. تحدَّث مؤنس كثيرًا، وكان مبهورًا. وفي الغداة، ألقت هيلين كيلر خطبة. وعندما سمع مؤنس هذا الصوت المبحوح، هذا التتابع المتعب المفهوم برغم كلِّ شيء، من الأصوات المبتورة التي كانت تعبِّر عن إرادةٍ عزمَت على الوصول إلى الآخرين بأيِّ ثمن؛ فإنَّ حماسته لم تعرف لها حدودًا، ونَظَمَ على الفور قصيدةً أهداها إليها. والتُقِطَت لنا صُوَرٌ معها، بدت فيها هيلين كيلر من المرح بحيث لا أسمح لنفسي أن أنظر إليها بحزن"[1].

(1) "معك" سوزان طه حسين، ترجمة: بدر الدين عرودكي.

في إحـدى رسـائلها، تعلِّـقُ هيلـين عـلى لقائهـا بــ طـه حسـين، وعـن تلك الزيارة:

"لسـنوات، كنـتُ أقـرأ عـن طـه حسـين باشـا، ولسـتُ أسـتطيعُ التعبـير عــن مــدى ســعادتي في ذلــك اليــوم الــذي أتى فيــه لزيــارتي في فنــدق سـميراميس، بصحبـة زوجتـه وابنـه، وقـد مكـث معـي سـاعةً كاملـة. لقـد حظيـتُ بامتيـاز لمـسِ وجهـه، وكَـم كان وجهـه وسـيمًا ينضـحُ بسِـعة العِلم، ويمتلـئ بنـورٍ باطِنـيٍّ! لقـد مـلأت رِقَّتُـه وسرعـةُ بديهتـه قلبـي بالـدِّفء، وكنــتُ أشـعرُ كـما لـو أنِّي آلَفُـه وأعرفـه منـذ وقـتٍ طويـل. تناقشـنا في مواضيـع عديـدة: عــن هومـيروس، أخيليـوس، يوربيـدس، عــن أفلاطـون وســقراط، عــن ســطوةِ الفلســفةِ الدَّافعــة إلى التحــرُّر، وعــن دراســات طـه حسـين عـن فيلسـوف العـرب العظيـم في القـرن العـاشر، الفيلسـوف المكفـوف[1]، وتحدَّثنـا عـن جهـوده مـن أجـل المكفوفـين. أخـبرني أنَّـه، في الفـترة التـي كان فيهـا وزيـرًا للتعليـم، كان يعمـلُ دون انقطـاعٍ في سـبيل تمكـين القادريـن مـن المكفوفـين مـن الذَّهـاب إلى الجامعـات والكُلِّيَّـات، وهــو مـا يـزال مهتـمًّا بعُمْـقٍ بتحقيـق هـذا الغـرض".

لطالمـا لعبـت الأسـئلة دورًا كبـيرًا في حيـاة هيلـين -كـما هـو شـأنها ودورهـا في تطـوُّر الإنسـانيَّة- يُعلِّـقُ چــون ألـبرت مـاسي عـلى تلـك النُّقطة، فيـما يتعلَّـق بقضيـة التعليـم بوجـهٍ عـام فيقـول: "يُماثِـلُ فكـرةَ التحـدُّثِ إلى الطِّفـل عـمَّا يثـير اهتمامـه، المبـدأُ الـذي ينُـصَّ عـلى ألَّا يُدفَـع الطِّفـل الـذي يطـرحُ أسـئلةً إلى السـكوت، إنَّمـا يُجـاب عـن الأسـئلة بصـدقٍ قـدرَ المسـتطاع، حيـث تقـول الآنسـة ساليڤـان إنَّ السـؤال هـو البـاب المؤدِّي إلى عقـل الطِّفـل".

"لـن يتمكَّـن جيـل الألفيـة في العـام 2020 مـن الاحتفـاظ بالمعلومـات؛ فهـم يقضـون معظـم طاقتهـم في تبـادُل الرسـائل الاجتماعيـة القصـيرة،

(1) المقصود هنا هو أبو العلاء المعرِّي.

والاستمتاع بالترفيه، كما يُشَتِّتُ انتباههم بعيدًا عن الانخراط العميق مع الناس والمعرفة. وهم يفتقرون إلى مَلَكاتِ التفكير العميق؛ ويفتقرون إلى المهارات الاجتماعية المباشرة؛ ويعتمدون بطرقٍ غير صِحِّيَّة على الإنترنت والأجهزة النَّقَّالة من أجل أداء مَهامِّهم". كان هذا تعليق مجموعة من خبراء التكنولوجيا المثبت في استطلاع رأي لمركز بَيُو للأبحاث، والذي استعانت به عالِمَةُ الأعصاب سوزان غرينفيلد، في كتابها البديع -والمخيف- الذي تقول فيه: "إذا وضعنا دماغًا بشريًّا، تتمثَّل مَهمَّتُه التطوُّريَّة في التكيُّف مع بيئته، في بيئةٍ لا يوجد فيها تَسَلْسُلٌ خَطِّيٌّ واضح، حيث يمكن الوصول إلى الحقائق بشكلٍ عشوائي، وحيث كلُّ شيء قابل للعكس، وحيث تبلغ الفجوة بين المحفِّز والاستجابة حَدَّها الأدنى، وقبل كُلِّ شيء: حيث الوقت قصير؛ فمن الممكن تحويل قطار الأفكار عن مساره. وعند إضافة المشتِّتات الحِسِّيَّة لكونٍ حيٍّ ومرئي ومسموع وواسع الشمول، والذي يعزِّز مدًى أقصرَ من الانتباه؛ فقد تصبح أنتَ نفسك حاسوبًا. إذا صحَّ التعبير: نظام يستجيب بكفاءة ويعالج المعلومات بشكل جيِّدٍ للغاية، لكنَّه يخلو من التفكير العميق"[1].

إذن: كيف كان حال هيلين ليكون لو وُلِدَت في زمنٍ غير الذي وُلِدَت فيه؟ في عصرٍ كهذا، مُنِحَ الإنسان فيه سهولة الوصول إلى المعلومة دون نَصَب -حتى دون أن يطرح أسئلة- كيف كانت ستكون قِصَّتها؟ كيف كان سيكون حال عقلها؟ وتلقِّيها للمعرفة؟ بل، موقفها منها؟ من الكُلِّيَّة؟ كيف كان سيكون تأثير ذلك التطوُّر في تلك الآلة عليها؟ تلك الآلة التي ربَّما يصدُق ما قاله عنها السيد أومبرتو إيكو، في رائعته "بندول فوكو": "إذا أعطتك تلك الآلة الإجابة بسهولة، فعلى الفور لن تتعرَّفها؛ لأنَّ قلبك لن يكون قد تنقَّى بعدُ بواسطة

(1) "تغيرُّ العقل" سوزان غرينفيلد، ترجمة: إيهاب عبد الرحيم علي.

التساؤلات العميقة". غيرَ أنَّه، لعلَّه من الأنفع أن نتساءل عن المصير الذي، قد تؤول إليه في المستقبل القريب عقولُنا نحن.

"كيفَ أخبرَ الله النَّاسَ أنَّ بيته في السماء؟".

ما هو مفهوم هيلين عن الروح؟

ما هو تصوُّرها عن الله؟ عن الإله؟

- عن الله؟! عن الإله؟!!

لا.. لا، لا عيبَ في أن تسأل؛ فالسؤال أوَّلُ المعرفة. فإن كان الجواب اللازم على السؤال مُوحَّدًا؛ يعني، إجابة نموذجية، فلن تُنتجَ مَفرخةُ التلقين عقولًا جامحة -يدفعها الظمأُ إلى الفَهم بحثًا عن واحات المعرفة، تَرْتَكِنُ إلى نبعٍ ظَليلٍ يروي ظمأ شغفها- بل، قوالِبَ جامدة، تخشى السؤال؛ ربَّما لأنَّها قد تخشى التوبيخ، أو ربَّما تخشى العقاب -انتبِه: الأخ الكبير يراقبك- لأنَّ تلك العقول المتسائلة، على الجَهَلة -وربَّما بعض ذوي السُّلطة- إنَّما هي؛ عقولٌ خَطِرَة.

ما هي فكرة هيلين عن الموت؟

ما هي تجربتها مع قراءة الكتاب المقدَّس؟

هل ما وصلت إليه هيلين هو نجاحٌ حقيقيٌّ؟

أَنْتِصَارٌ آخر لما هو إنسانيٌّ؟ أم كما يُزعَم أنَّه محضُ نجاحٍ زائف؟

هل حقًّا ارتكَبَت هيلين كيلر سرقةً أدبية؟

دُونَكَ النَّص، إن شِئت فاقرأ، أوِّلْهُ كما تشاء، و... أجِب بنفسك.

اعتمدنا في ترجمتنا على الطبعة الصَّادرة عن Doubleday, Page & Company، والتي ظهرت عام 1914. وبهذا يضمُّ هذا السِّفرُ ثلاثةَ أجزاء: كتابها قصةُ حياتي، ورسائلها على مدار خمسة عشر عامًا، وسردًا إضافيًّا عن حياتها، به رسائل كتبتها، ورسائل لمعلِّمتها، الآنسة

ساليڤـان، تحـكي تفاصيـل مراحـل نموِّهـا، ومراحلهـا التعليميَّـة، وهـو مـا يُعطـي مزيـدًا مـن الإضـاءات الكاشـفة عـلى حياتهـا وحيـاة مُعلِّمتهـا، والظـروف التـي مـرَّت بهـما معًـا. فليـس كلُّ مَـن قبـع في ظلمـة الصَّمَـمِ والعـماء مقطـوعَ الصِّلـة عـن العالَـم، أو، لا يسـتطيعُ الرؤيـة؛ فربَّمـا يتجلَّى لـك النـور في صـورةٍ لا تعهدهـا. فليـس كلُّ مَـن مَلـكَ عينًـا يُبـصِر، فبعـضُ النُّـورِ لا يُبـصَر، إنمـا، يُـدرَك، غـير أنَّـه، ليسـت كُلُّ عـينٍ تـرى.

كانـت هيلـين تـرى بأصابعهـا، وبهـم أيضًـا كانـت تُخاطِـبُ العالَـم، بمحـض نقـراتٍ عـلى آلـةٍ صـمَّاء، عليهـا تعـزف، فوُهِبَـت كلماتها صوتًـا، صار لحنهـا مسـموعًا للعالَـم أجمَـع. ربَّمـا تلـك إحـدى منافع فِعـل الكتابـة -وكذا القـراءة- أن تتجـاوز ذاتـك، وتتماهـى في الآخـر، فتشـعر بمـا يشـعر، وتُعايـن طَرفًـا مـن تجربتِـه، ذلـك الآخـر الـذي تتشـاركُ أنـتَ وإيَّـاه نَفس الطبيعـة الإنسـانيَّة، فربَّمـا يهبـكَ بعـضُ مـا قالـه أو سـطَّرَه مـا قـد يُلمِـع في عقلـكَ فِكـرةً. غـير أنَّـك، يمكنـكَ كذلـك أن تبقـى قابعًـا في ظُلمتِـك الموهومـة، نادبًـا العـالم الـذي تحيـا فيـه، راغبًـا عـن العيـش وسـط التَّيَّـار؛ خـارجَ العَتَمَـة، ربَّمـا لأنَّـك قـد صرتَ عالقًـا، تألـفُ ظلمتـك والنـور في الوقـت ذاتـه -النـور المجهـول بالنسـبة إليـك- ربمـا لأنَّـكَ عَـدُوُّ مـا تجهـل؛ لـذا فأنـتَ تخـشى الظُّلمـة -وتخـشى المـوت؛ فهـو المجهـول الأكـبر- غـير أنَّ المـوتَ الحقيقـي ليـس هـو فَنـاءُ الجسـد، إنمـا المـوت الحقيقـيّ، هـو النسـيان.

ومـا يـزال لصـوص النـار يتناقلـون الشـعلةَ قبَسًـا عـن قَبَـس، يبـدِّدون بهـا عَتَمَـة الجهالـة، ولأنـه مـن رَحِـم الظلمـة قـد يَولَـد النـور، فتتكشَّـف الأشـياء؛ فـما يـزالُ سـوادُ حـبرٍ قاتـمٍ حـين ينثـال عـلى بيـاض الـورق، يغـذِّي جـذوة برومثيـوس؛ فينـير عقـولًا بالمعرفـةِ قـد شـغفها حُبًّـا، ويهـدي أرواحًـا تائهـة، ولا عجـب؛ ففِـي البَـدْءِ كَانَ الكَلِمَـة.

باسم محمود

23 أبريل 2018

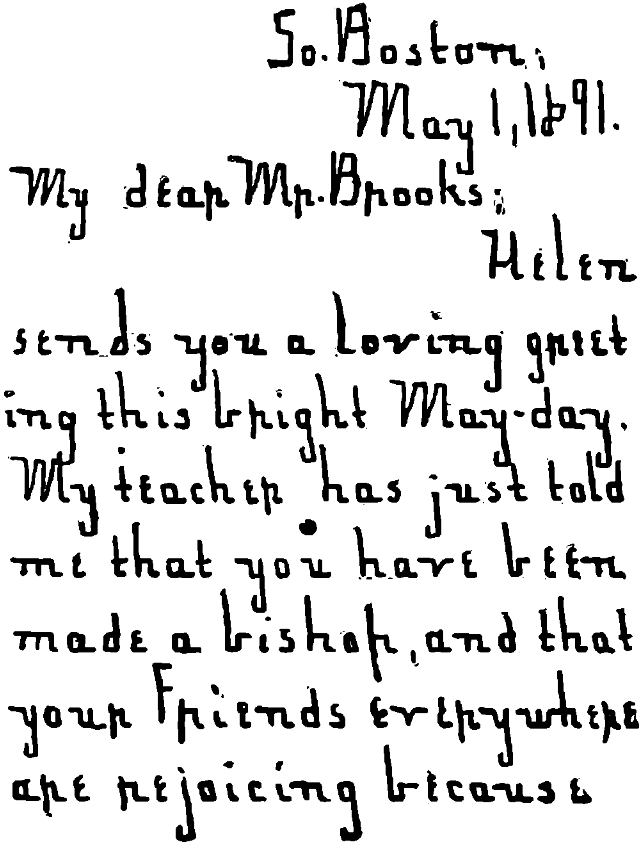
So. Boston,
May 1, 1891.
My dear Mr. Brooks:
Helen
sends you a loving greet
ing this bright May-day.
My teacher has just told
me that you have been
made a bishop, and that
your friends everywhere
are rejoicing because

خط هيلين كيلر

one whom they love
has been greatly honor-
ed. I do not understand
very well what a
bishop's work is, but
I am sure it must be
good and helpful, and
I am glad that my
dear friend is brave,
and wise, and loving
enough to do it. It is
very beautiful to think
that you can tell so

هيلين كيلر والآنسة ساليڤان 1905

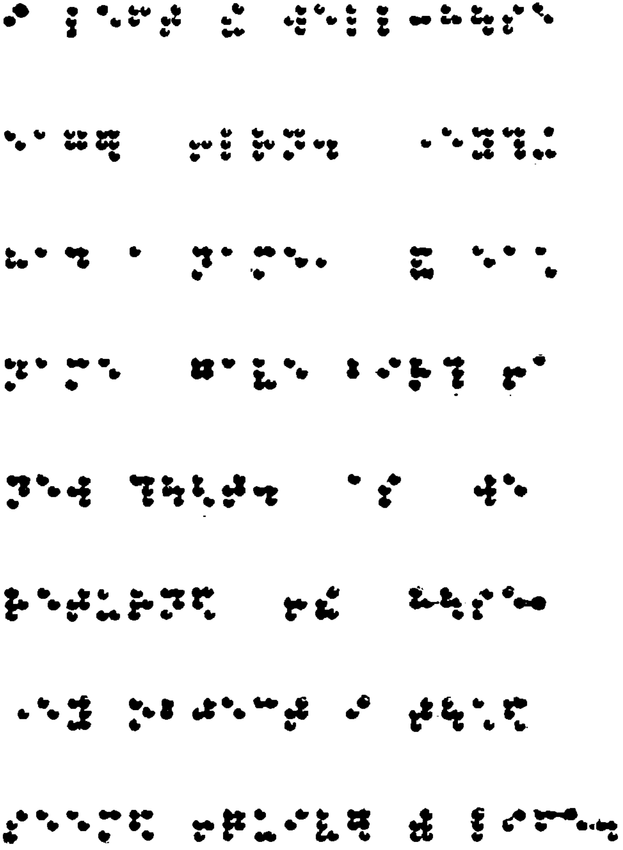

غادرتُ نافورة المنزل يملأني الشَّغف للتعلُّم. لقد كان لكلِّ شيءٍ اسم، وكلُّ اسمٍ يلِدُ فِكرةً جديدة. ونحن في طريقنا إلى المنزل، بدا أنَّ كلَّ شيءٍ كنتُ ألمسه ينضحُ بالحياة.

الجزء الأول

قصّة حياتي

الفصل الأول

إنَّنـي، وبـشيءٍ مـن الرَّهبـة، أسـتَفتِحُ كتابـةَ تاريـخِ حيـاتي. يخامـرني شـعورٌ بالـتردُّد -وكأنَّ باعثَـه اعتقـادٌ خُـرافيٌّ- حيـال أمـر كَشـف الحجـاب الـذي يُخفـي مرحلـة طُفولتـي، كـما لـو كان غِلالـةً مـن ذهـب. مَهَمَّـةٌ أن يكتـبَ المـرءُ سـيرةً ذاتيَّـةً لَهِـيَ أمـرٌ عسـير. حـين أحـاول فَـرزَ انطباعتـيَ الأولى، عـبر السِّـنين التـي تربـط مـا بـين المـاضي والحـاضر؛ فإنَّنـي أجـدُ أنَّ كِلا الحقيقـةِ والوهـم يبـدوان متشـابهين. إنَّ المـرأة التـي هـي أنـا الآن لَتَرسُـمُ في مُخيِّلَتِهـا تجـاربَ الطِّفلـة التـي كانَتْهـا ذات يـوم. مـن سـنوات حيـاتي الأولى؛ تبـزغُ جَليًّـا انطباعـاتٌ قليلـة، ولكـنَّ "ظـلالَ الـمَحْبس مـا زالـت باقِيَـةً". وفـوق ذلـك، فعديـدٌ مـن مـسرَّات الطفولـة وأحزانهـا قـد فقـدت كَدَرَهـا، وعديـدٌ مـن الحـوادث التـي كانـت عـلى قَـدرٍ كبـيرٍ مـن الأهميـة في مراحـل تعليمـي الأولى، في غمـرة حـماس الاكتشـافات العظيمـة- قـد صـارت نسـيًّا منسـيًّا. ورغـم هـذا، لأجـل ألَّا يصـير حديثـي

مُضجِـرًا؛ سـأحاول أن أسـتعرض -في سلسـلةٍ مـن المشـاهد- الوقائـعَ التـي تبـدو لي الأكـثر أهميـةً، والأكـثر إثـارةً للاهتـمام فحسـب.

وُلِـدْتُ في السـابع والعشريـن مـن يونيـو، عـام 1880، في بلـدة توسـكامبيا؛ مدينـة صغـيرة في الجـزء الشـماليِّ مـن ولايـة آلاباما.

يعـود أصـل عائلتـي مـن جهـة أبي إلى كاسـبار كيلـر؛ مواطـنٌ سـويديٌّ، اسـتقرَّ في ميريلانـد. أحـدُ أسـلافي السُّـويديِّين كان أوَّلَ مُعلِّـمٍ للصُّـمِّ في زيـورِخ، وقـد كتـب كتابًـا عـن قضيَّـة تعليـم الصُّـمِّ- وهـي بالأحـرى، مُصادفـةٌ فريـدة؛ كـما لـو كان مـن الثَّابـت أنَّـه مـا مـن مَلِـكٍ إلّا وبـين أسـلافه عَبْـدٌ، ومـا مـن عَبْـدٍ إلّا وبـين أسـلافِه مَلِـك.

جَـدِّي؛ الـذي هـو ابـنُ كاسـبار كيلـر، "غَـزَا" بِقاعًـا واسـعةً مـن آلاباما، واسـتقرَّ هنـاك أخـيراً. رُوِيَ لي أنَّـه في إحـدى السـنوات، ذهـب جَـدِّي مـن توسـكامبيا إلى فيلادلفيـا عـلى ظهـر حصانـه كي يتـزوَّد بالمؤَن لأجـل مسـتعمرته، وفي حَـوزة عمَّتـي كثـيرٌ مـن الخطابـات التـي قـد بعـث بهـا إلى عائلتـه. إنَّ تلـك الخطابـاتِ تُقـدِّم لنـا تسـجيلًا حيًّـا وفاتِنًـا عـلى تلـك الرَّحـلات.

جَـدَّتي؛ السـيدة كيلـر، كانـت ابنـةَ أحـد الضُّبَّـاط المعاونـين لــ لافايـت، وهـو أليكسـندر مـور، وهـي حفيـدة أليكسـندر سـبوتوود، الـذي كان حاكـمَ الاسـتعمار السَّـابق لولايـة فيرجينيـا. كانـت أيضًـا حفيـدة أخـي روبـرت إ. لي.

أبي؛ آرثـر هــ كيلـير كان ضابطًـا برتبـة نقيـب في جيـش الولايـات الكونفدراليَّـة، وأُمِّـي؛ كاتي آدامـز كانـت هـي زوجتـه الثانيـة، وكانـت أصغر منـه بأعـوامٍ عديـدة. جَدُّهـا؛ بنيامـين آدامـز تـزوَّج مـن سـوزانا إ. غوذْهـو، وعاشـا في نيوبيـوري بــ ماساتشوسـتس لأعـوامٍ عديـدة. ابنهـما؛ تشـارلز آدامـز، وُلِـد في نيوبيـوري بـورت، بــماساتشوستس، وانتقـل إلى هيلينـا، في

أركانســاس. حــين اندلعــت الحــرب الأهليَّــة[1]، قاتَــلَ في صَــفِّ الجنــوب، وترقَّــى إلى رتبــة لــواء. تــزوَّج مــن لــوسي هيلــين إيــڤــريت، التــي تنتسِــبُ إلى آل إيــڤــريت، وهــي نفــس العائلــة التي ينتمي إليها إدوارد إيــڤــريت، والدكتــور إدوارد إيــڤــريت هــال. بعــد انتهــاء الحــرب، انتقلــت العائلــة إلى مَمْفِــس، في تينيــسي.

كنــتُ أعيــش -حتــى وقــت إصابتــي بالمــرض الــذي جــرَّدَني مــن ســمعي وبــصري- في منــزلٍ صغــير، يتألَّــفُ مــن حجــرةٍ مُربَّعــة كبــيرة، وأُخــرى صغــيرة، وفي تلــك الأخــيرة كانــت تنــام الخادمــة. أن يبنــي المــرءُ منــزلًا صغيراً بالقــرب مــن بيــت الآبــاء والأجــداد هــو عُــرفٌ في منطقــة الجنــوب؛ وذلــك كجنــاحٍ مُلحَــقٍ بالبيــت، يُمكــن اســتخدامه مــن حــين لأُخــرى عندمــا تقتــضي الحاجــة. البيــت الــذي بنــاه أبي بعــد الحــرب كان على هــذه الشَّــاكلة، وحين تــزوَّج بأُمِّــي ذهبــا ليعيشــا فيــه. كان المنــزل مُغطًّــى تمامًــا بأشــجار الكــروم، وبالــورود المتســلِّقة وأشــجار صريمــة الجــدي. كان البيــت يبــدو عنــد النظــر إليــه مــن الحديقــة كأنــه سَــقِيفَة. كانــت الشرفــة الصغــيرة تحتجــبُ عــن الرؤيــة بفعــل حاجــزٍ مــن الــورود الصفــراء ونبتــة الفُشَّــاغ الجنــوبيِّ. لقــد كانــت المــلاذ المفضَّــلَ بالنســبة للنَّحــل وللطيــور المغــرِّدة.

بيــتُ الأجــداد هــذا، الــذي كانــت تعيــش فيــه عائلــة كيلــر، كان عــلى بُعــد خطــواتٍ قليلــةٍ مــن عريشــة الــورود الصغــيرة خاصَّتنــا. كان يُطلــق عليهــا اســم اللِّبلابــة الخــضراء (آيــڤــي غريــن)؛ لأنَّ المنــزل ومــا حولــه مــن أشــجارٍ، وســياجٍ، كانــت كلهــا مكســوَّةً باللبــلاب الإنجليــزيِّ البديــع. حديقتُــه قديمــةُ الطِّــرازِ تلــك كانــت فِــردوسَ طفولتــي.

---

(1) الحــرب الأهليــة الأميركيَّــة هــي صراعــات داخليــة حدثــت داخــل الولايــات المتحــدة في الفــترة مــن عــام 1861 إلى 1865، أحــد أســبابها هــو الــرِّقُّ؛ وكان الرئيــس إبراهــام لِنْكِــن ومــا شَــنَّه مــن حــربٍ ضــد العبوديَّــة أحــد الأســباب الجوهريَّــة. في ينايــر 1861، أعلنــت ســبع ولايــات جنوبيَّــة للرقيــق اســتقلالها وتشــكيل الولايــات الكونفدراليَّــة. (المترجــم)

حتـى في تلـك الأيـام قبـل مجـيء مُعلِّمَتـي، اعتـدتُ أن أتحسَّـس السِّـياج الخشـن الـذي يحيـط بالأشـجار، وبقيـادة حاسَّـة الشَّـمِّ؛ تمكَّنـتُ مـن اكتشـاف أول زهـور لَيْلَـك وزهـور البنفسـج. وهنـاك أيضًـا، بعـد أيِّ سَورةِ غضـب، كنـتُ أذهـب ناشِـدةً الرَّاحـة، وأدفـن وجهـي، الـذي يكـون وقتهـا يستشـيطُ غضبًـا، وسـط العُشـب والأوراق البـاردة. يـا لهـا مـن متعـةٍ كانـت؛ أن أفقـدَ ذاتي في روضـةِ الزُّهـور تلـك، أن أهيـم في سـعادةٍ مـن بقعـةٍ إلى أُخـرى إلى أن.. التقيـتُ في طريقـي بالمصادفـة كَرمـةً بديعـة، تعرَّفـتُ عليهـا مـن خـلال أوراقهـا وبراعمهـا، وعرفـت أنهـا كانـت تلـك الشـجرة التـي كانـت تغطِّـي المنـزل الصَّيفـيَّ الآيِـلَ للسـقوط في مـا وراء نهايـة الحديقـة! هنـا أيضًـا كانـت نبتـة ياسـمين الـبَرِّ (الظَّيَّـان)، وزهـور الياسـمين المتسـاقطة، وبعـضٌ مـن الزُّهـور النَّديَّـة النَّـادرة، كانـت تُدعـى فَراشـاتُ الَّليالـك؛ لأنَّ بَتَلاتِهـا الهشَّـةَ كانـت تُشـبُه أجنحـة الفراشـات. أمَّـا بالنسـبة للـورود فلقـد كانـت الأثـيرةَ عنـدي مـن بـين الجميـع. لم أرَ أبـدًا في البيـوت الزُّجاجيَّـة التـي تـزرع النباتـات في الشـمال مثـل هـذه الـورود التـي تـسرُّ الفـؤاد، كتلـك الـورود المتسـلِّقة التـي كانـت في بيتـي الجنـوبيِّ. لقـد اعتـادوا أن يُعلِّقوهـا في أكاليـل طويلـة مـن شُرفتنـا، نـاشرةً أريجهـا في الأنحـاء، إنَّـه شـذًى غـير مُدنَّـسٍ بـأيِّ رائحـةٍ أرضيَّـة، وفي الصبـاح الباكـر، بعـد أن تغتسـل في النَّـدى، تصبـح جِـدَّ نقيَّـةٍ، ويكـون ملمسُـها ناعـمًا للغايـة، لا أسـتطيع أن أمتنـع عـن التسـاؤل مـا إذا كانـت تلـك الـورود تُشـبه زنابـق الـبَرْوَقِ التـي توجـد في جنَّـة الله.

بدايـةُ حيـاتي كانـت بسـيطة، وتشـبه كثـيرًا أيَّ حيـاةٍ أخـرى بسـيطة. إلى الدُّنيـا جِئـت، أبـصرت، وباهتـمام الجميـع اسـتأثَرتُ؛ كـما يحـدثُ دومًـا مـع أوَّل مولـودٍ في العائلـة. وقـد جـرى القَـدْرُ المعتـادُ مـن النِّقـاش بخصـوص اختيـار اسـمٍ لي. فلـم يكـن للمولـودِ الأول في العائلـة أن يُسـمَّى بسـهولة، فلقـد كان الجميـع متشـدِّدين حيـال هـذا الأمـر. اقـترح أبي أن يكـون اسـمي عـلى اسـم ميلـدرد كامبـل، وهـو اسـم إحـدى أسـلافِه، كان

يُجِلُّها على نحوٍ عظيم، وقد امتنعَ عن خَوضِ مزيدٍ من الجدال بشأن هذا الموضوع. إلا أنَّ أُمِّي قامت بفَضِّ النِّزاع، واقترحت -وكأنَّه على سبيل التَّمنِّي- أن أُسَمَّى على اسم والدتها، والذي كان اسمها قبل الزواج هو: هيلين إيڤيرِت. غيرَ أنَّه في غمرة حماسته وهو ماضٍ بي إلى الكنيسة نَسِيَ الاسم في الطريق، وهذا أمر طبيعي جدًّا؛ فهو قد رفَضَ ذات مرة أن يشارك في النِّقاش. حين سأله الكاهن عن الاسم، تذكَّر فقط أنَّه قد اتُّفِقَ على أن أُسمَّى على اسم جَدَّتي، وخَلَع عليها اسم هيلين آدامز.

أُخبرتُ أنَّني عندما كنت ما أزالُ صغيرة، كنتُ أُظِهرُ أماراتٍ عديدة لطَبعٍ يميل إلى الحماسة وتأكيد الذَّات. فكلُّ شيء كنتُ أرى الناس يفعلونه كنت أصرُّ أن أُحاكيه. وأنا عمري ستة أشهر، استطعتُ أن أنطق وأقول "كيف حالُك"، وذات يوم، لَفَتُّ انتباه الجميع بقولي "شاي، شاي، شاي"، وكان قولي ذلك وقتَها بشيءٍ من الوضوح. حتى بعد مرضي، تذكَّرتُ إحدى تلك الكلمات التي تَعلَّمتها خلال تلك الشهور. كانت كلمة "ماء"، وواصلتُ إصدار صوتٍ ما بنُطق تلك الكلمة بعد أن توقَّفتُ عن النطق. وقد كَفَفْتُ عن قول "ماا-ماا" فقط حين تعلَّمتُ أن أتهجَّى الكلمة.

أخبروني أنني استطعتُ أن أمشي عندما صار عمري عامًا واحدًا. ذات مرَّةٍ، بعدما كانت أمِّي قد أخرجتني لتوِّها من حوض الاستحمام، وكانت تضمُّني إلى حِضْنِها، حدث حينما أن استهواني فجأةً خفقانُ ظلال الأوراق المتراقصة في ضوء الشمس، والتي كانت تسقط ظلالها على الأرضية الملساء. انزلقتُ من حضن أمي وكنت أهروِل تقريبًا وأنا أتجه نحوها. ثمَّ ذهَبَت عنِّي الرغبة؛ فقد وقعتُ على الأرض وبكيت لها كي تأخذني بين ذراعيها.

تلك الأيام السعيدة لم تدُم طويلًا. ربيعٌ واحدٌ قصير، على أنغام شدو طائر أبي الحِنَّاء وطائر المُحاكي، فصيفٌ واحد ثريٌّ بالفاكهة والورد، ثمَّ خريفٌ مليءٌ بلون ذهبيٍّ وقرمزيٍّ يُعجِّل بتبديد قُدرات الطفلة المتحمِّسة المبتهجة. ثمَّ.. في شهر فبراير الموحش، حَلَّ المرض، الذي أغلق عينيَّ، وصَمَّ أُذُنيَّ، وغمرني في لا وعي طفلٍ حديث الولادة. كانوا يسمُّونه الاحتقان الحادَّ في المعدة والدِّماغ. والطبيبُ كان يظنُّ أنَّني لن أعيش. ورغم هذا، باكرًا ذات صباح، ذهبَت عنِّي الحُمَّى على نحوٍ غامضٍ ومُفاجئ- تمامًا كما أَتَت. عَمَّ العائِلَةَ شعورٌ عظيم بالبهجة في ذاك الصَّباح، لكن، لا أحد -ولا حتى الطبيب- كان يعرف أنني لن أرى أو أسمع مُجدَّدًا.

أتصوَّر أنَّني أمتلكُ ذكرياتٍ مُشوَّشة عن هذا المرض. إنَّني لأتذكَّر تحديدًا تلك الهشاشة التي كانت أُمِّي تحاول أن تُهوِّن بها عليَّ الساعات القاسية من الوجع والهياج، والألم المبرِّح والذهول الذي كنت أستيقظ به بعد نومٍ متقلقِل، وأُوَجِّه عينيَّ، اللَّتين صارتا جافَّتَيْن وملتهبتين، نحو الحائط، بعيدًا عن النور الذي قد أحبَّته عيناي ذات يوم، والذي كان يأتيني حينها باهتًا، ويأفُلُ كُلَّ يومٍ أكثر فأكثر. لكن، باستثناء تلك الذكريات التي تتلاشى سريعًا -لو أنها، فعلًا.. ذكريات- فهي تبدو لي جميعًا غير حقيقةٍ، كأنَّها كابوس. تعوَّدتُ الصَّمْتَ والظلام المحيطَيْن بي بالتدريج، وتناسَيْتُ أنَّ الوضع كان مختلفًا فيما قبل، إلى أن أَتَت هي -مُعلِّمتي- التي حملت على عاتقها أن تُحرِّر روحي. غير أنه، أثناء الشهور التسعة عشر الأولى من حياتي، استطعتُ أن أقبضَ على لمحاتٍ خاطفةٍ ممَّا حولي: مروج خضراء، سماء مُنيرة، أشجار وزهور لم تتمكَّن العَتَمَةُ التي تبِعَتها أن تمحوها بشكلٍ كامل. فلو أننا كُنَّا قد أبصرنا ذات مرَّة ؛ "فالنَّهارُ، وما أرانا إيَّاه ضوؤه.. لهوَ مِلكُنا".

الفصل الثاني

لا أستطيع تذكُّرَ ما حدث بعد الشهور الأولى من مَرَضي. أنا أعرف فقط أنني كنتُ أجلسُ في حضن أمي أو أتشبَّث بفستانها بينما هي تقوم بواجباتها المنزلية. كانت يداي تتحسَّسان كُلَّ شيءٍ وتترصَّد كل حركة، وبهذه الطريقة تعلَّمتُ أن أعرف العديد من الأشياء. أحسستُ من فوري بالحاجة لبعض التواصل مع آخرين، وبدأتُ أقوم بمحض إشارات. هِزَّة من رأسي تعني "لا"، وإيماءةٌ تعني "نعم"، سحبةٌ بيدي للخلف تعني "تعال"، دفعةٌ للأمام تعني "اذهبْ". أكان هو الخبز ما أريده؟ ثمَّ كنت أُحاكي فِعْلَ تقطيع شرائح الخبز ودَهْنِها بالزبدة. لو رغبتُ أن تصنع لي أمي آيس كريم على العشاء؛ كنت أقوم بإشارةٍ تُحاكي صوت المجمِّد وأرتعش، قاصدةً التعبير عن الصقيع. علاوةً على ذلك، فلقد نجحت أمي في جَعلي أفهم الأشياء بقدر كبير. كنتُ دائمًا أفهم حين كانت تريدني أن أجلب لها شيئًا ما؛ وكنتُ أعدو إلى

الطابق الأعلى أو إلى أيٍّ مكان آخر كانت تشير إليه. إنَّني مَدينَةٌ لها حقًّا لأجل فِعالِها الحكيمةِ الحنون، فلقد كانت هي الخير والجانب المشرق في ليلي الطويل.

كنت أفهم قَدرًا كبيرًا ممَّا كان يدور حولي. في سِنِّ الخامسة، تعلَّمتُ أن أطوي الملابس النَّظيفة وأحفظها حينما كان يُؤتى بها من حجرة الغسيل، وكنتُ أُميِّز ملابسي من البقيَّة. حين كنتُ أعرف بالمصادفة أنَّ أمي وخالتي قد ارتديتا ملابسهما حينما تكونان عازِمَتَيْن على الخروج، كنت أتوسَّل بإصرارٍ كي أذهب معهما. دائمًا ما كان يُرسَلُ في طلبي حينما تُوجد صُحبة، وعندما كان يستأذن الضيوف للانصراف كنت أُلوِّح بيدي لأودِّعهم، أظنُّ أني كنت أفعل ذلك بذاكرة ضبابيَّةٍ عمَّا كانت تعنيه الإشارة. ذات يوم زار أُمِّي بعضُ الرجال المحترمين، وقد أحسستُ بصوت إغلاق الباب الخلفيِّ وأصواتٍ أُخرى تشير إلى أنَّهم قد وصلوا. وبنيَّةٍ مفاجئة، هرعتُ وصعدتُ إلى الطابق الأعلى قبل أن يتمكَّن أحدٌ من إيقافي؛ كي أرتدي -حسب تفكيري- الفستان المخصَّص للصُّحبة. حين وقفتُ أمام المرآة -كما كنت أرى الآخرين يفعلون- دهنتُ رأسي بالزيت، وكسوتُ وجهي بالبودرة على نحوٍ كثيف. ثم بدبُّوسٍ قمت بتثبيت وشاحٍ فوق رأسي غطَّى وجهي ونزل في ثنيَّاتٍ على كتفَيَّ، وعقدتُ رباطًا ضخمًا حول خَصْريَ النحيل، حتَّى أنَّه كان يتدلَّى خلفي مُلامسًا تقريبًا حاشيةَ التَّنُّورة. وهكذا، بهذه الهيئة المبهرجة، هبطتُ إليهم كي أساعد في تسلية الصُّحبة.

لا أذكر متى أدركتُ لأول مرة أنني أختلف عن البشر الآخرين، لكنني تبيَّنتُ هذا قبل أن تأتيني مُعَلِّمتي. لقد لاحظتُ أنَّ أمي وأصدقائي لا يستخدمون الإشارات عندما كانوا يريدون شيئًا ما أن يُنَفَّذ، مثلما كنت أستخدمها، إنَّما كانوا يتحدَّثون بأفواههم. كنت أقف أحيانًا ما بين شخصَيْن يتحاوران وأتحسَّس شفاههما. لم أكن أتمكَّن من استيعاب الأمر، وكنتُ أتميَّز من الغيظ بسبب هذا. كنت

أُحـرِّك شـفتَيَّ وأومـئ كمـن يتحـدَّث وأفعـل هـذا عـلى نحـوٍ مسـعور دون نتيجـة. لقـد جعلنـي هـذا جِـدَّ غاضِبَـةٍ؛ حتـى إننـي في بعـض الأوقـات كنـت أرفـس بقدمـي وأصرخ إلى أن تُسـتنفد قـواي.

أظـنُّ أنني كنـت أدرك أننـي أتـصرَّف بشـغب، فقـد تبيَّنتُ أنَّ هـذا كان يـؤذي إلَّـلا؛ مُربِّيتـي، حيـث كنـت أقـوم بركلها، وحـين كانـت تـزول نوبـة غضبـي كنـت أشـعر بمـا يشـبه النـدم. غـير أنِّي لا أسـتطيع أن أتذكَّـر أيًّـا من تلـك اللحظـات التـي كان يمنعنـي فيهـا هـذا الإحسـاس مـن تكـرار سـوء سـلوكي حينـما كنـتُ أخفـق في الحصـول عـلى مـا أريـد.

في تلـك الأيـام، كانـت مارتـا واشـنطن -وهـي فتـاةٌ صغـيرةٌ مُلوَّنـة البـشرة، وابنـةُ الطَّبَّـاخ الـذي يعمـل لدينـا- وبِـلْ؛ كلـبُ صيـدٍ عجـوز -وهـو صيَّـادٌ ماهـر- كانـا هُـما رفيقـيَّ الدَّائمـين. كانـت مارتـا تفهـم إشـاراتي، ونـادرًا مـا كنـتُ أجـد أيَّـة صعوبـةٍ في جَعلهـا تفعـل مـا كنـت أريـده تمامًـا. كان قيامـي بممارسـة اسـتبدادي عليهـا يبعـث السرور في نفـسي- وهـذا بـدلًا مـن العـراك يـدًا بيـد. فأنـا كنـت قويـةً ونشـيطة، ولا أُبـالي بالعواقـب. كنـت أدرك أنَّ عقـلي جيِّـدٌ بمـا يكفـي، ودائمًـا مـا كان لي أسـلوبي الخـاص، حتـى لـو تعيَّنَ عـليَّ أن أقاتـل مـن أجـل هـذا بيـدي وأسـناني. كُنَّـا نقـضي وقتًـا طويـلًا في المطبـخ؛ نفـرك كُـراتِ العجـين، نسـاعد في صُنـع الآيـس كريـم، نطحـن حبـوب القهـوة، نتشـاجر عـلى صحـن الكعـك، ونُطعـم الدجـاج والدِّيَكَـة الرُّوميَّـة التـي كانـت تحتشـد عـلى دَرَج المطبـخ. كثـيرٌ مـن تلـك الدواجـن كانـت أليفـةً جـدًّا، لدرجـةِ أنهـم كانـوا لَيأكُلـون مـن يـدي ويَدَعوننـي أتحسَّـس أجسـادهم. ذات يـومٍ خطـف منِّـي ديـكٌ رومـيٌّ كبـيرٌ حبَّـةَ طماطـم وهـرب بهـا. لربَّمـا بإلهـام مـن نجـاح السَّـيِّد ديـك رومـي؛ أخذنـا خِلسـةً كعكـةً كان الطَّبَّـاخ قـد ثلَّجهـا للتَّـوِّ، وحملناهـا إلى كومـة مـن الحطـب حتـى نسـخِّنها، وأكلناهـا حتـى آخـر قطعـةٍ منهـا. أصبحـتُ مريضـةً جـدًّا بعدهـا، وتسـاءَلتُ إن كان العقـاب قـد حـاق أيضًـا بالديـك الرومـي.

كان الدجاج الغيني [الدجاج الحبشيُّ] يحبُّ أن يخبِّئ عُشَّه في الأماكن البعيدة عن الأنظار، وكانت إحدى مباهجي العُظمى هي أن أصطاد البيض من بين الأعشاب السَّامقة. لم يكن باستطاعتي أن أخبر مارتا برغبتي هذه حين كنت أريد أن أذهب لاصطياد البيض، لكنني كنت أشبِّك يديَّ وأضعهما على الأرض، وتلك كانت إشارةً إلى شيءٍ يتعلَّق بالعشب، ودائمًا كانت مارتا تفهم قصدي. عندما نكون محظوظين بما يكفي لنجد عُشًّا، كنت لا أسمح لمارتا أبدًا أن تحمل البيض إلى البيت، وكنت أجعلها تفهم هذا بإشاراتٍ صارمة؛ بأنها قد تقع في الطريق وتكسر البيض.

السَّقيفة، حيثُ كانت تُخزَّن الذرة، واسطبل الخيول، والفناء الذي كانت تُحلَب فيه الأبقار في الصباح والمساء؛ كانت تلك الأشياء مَعينًا لا يُملُّ ولا ينضب من الأشياء المثيرة للفضول بالنسبة لمارتا وبالنسبة لي. كان حَلَّابو الأبقار يتركونني أضع يديَّ على الأبقار وهم يحلبونها، وكانت حالتي غالبًا ما تتحسَّن جرَّاءَ ما كانت تثيره فيَّ الأبقار من فضول.

كان الاستعداد للكريسماس دومًا شيئًا مُبهجًا بالنسبة لي. أنا بالطبع لم أكن أعرف ما كانت تعنيه المناسبة، لكنني كنت أستمتع بالرَّوائح الزَّكيَّة التي كانت تملأ البيت وبالطعام الشهيِّ الذي كُنَّا نُعطاه أنا ومارتا كي نلتزم الهدوء. كان هذا التَّصرُّف يثير سخطنا على نحوٍ ما، لكنَّه لم يكن ليعكِّر صفو مُتْعَتِنا على الإطلاق. كانوا يسمحون لنا أن نطحن التوابل، وننتقي الأفضل من حبَّات الزَّبيب، وأن نلحس الملاعق التي كانت تُستخدم في تقليب العجين. كنت أُعلِّق جِرابي لأنَّ الآخرين كانوا يفعلون هذا، لكن رغم ذلك، لا أذكر أنَّ تلك المناسبة كانت تثير اهتمامي على وجه الخصوص؛ ولا كان فضولي يجعلني أستيقظ قبل طلوع الشمس كي أبحث عن هداياي.

كان لـدى مارتـا ميـلٌ لإثـارة الشـغب مثـلي تمامًـا. مـرَّةً كان هنـاك طفلتـان صغيرتـان تجلسـان عـلى دَرَج المصطبـة ذات ظهـيرةٍ قائظـة مـن شـهر يوليـو. إحداهـما كانـت سـوداء البـشرة كـما الأبنـوس، ولديهـا عناقيـد صغـيرة مـن الشـعر المجعَّـد، كانـت تلـك العناقيـد مربوطـة بشرائـط تَـبْرُزُ وتتـدلَّى مـن رأسـها، كل شريطـةٍ وكأنهـا تشـبه المِـبرام. الطفلـة الأُخـرى كانـت بيضـاء، وشـعرها كان معقوصًـا في ضفائـر ذهبيـة. الطفلـة الصُّغـرى مـن بينهـنَّ كانـت عميـاء -والتـي هـي أنـا- والأخـرى كانـت مارتـا. كُنَّـا مشـغولتَيْن بتقطيـع الـورق عـلى شـكل عرائـس، لكـن مـا لبـث أن أصابنـا الضجـر مـن تلـك التسـلية، وبعـد تقطيـع شرائـط الأحذيـة وتقطيـع أوراق شـجرة صريمـة الجـدي التـي كانـت قريبـة المنـال، حوَّلـتُ انتباهـي إلى ضفائـر مارتـا. في البدايـة رَفَضَـت، لكنهـا امتثلَـت للأمـر في النهايـة. وبينـما ظَنَنـتُ أنـه بعـد أن تجـري اللعبـة -مـرَّة دوري ومـرَّة دورهـا- أنهـا سـوف تكـون لعبـة عادلـة، اسـتولت عـلى المقـصِّ وقامـت بقطـع إحـداى ضفائـر شـعري، وكانـت لتقطـع ضفائـري كلهـا لـولا أن تدخَّلَـت أمـي في الوقـت المناسـب.

بيـلِّي؛ كلبتُنـا، والتـي كانـت رفيقـي الآخـر، كانـت عجـوزًا وكسـولًا، وكانـت تحـب أن تنـام بالقُـرب مـن المدفـأة الموقَـدة بـدلًا مـن أن تمـرح معـي وتلعـب. حاولـتُ جاهـدةً أن أُعلِّمهـا لغتـي؛ لغـة الإشـارة، لكنَّهـا كانـت بليـدةً وغـير مسـتجيبة. كانـت أحيانًـا تلعـب وتنتفض من الحماسـة، ثـم تتحـوَّل وتصبـح فَطِّـةً تمامًـا، كـما تفعل الـكلاب حينـما يطـاردون طائرًا. لم أكـن أعـرف وقتئـذٍ لِـمَ كانـت بيـلِّي تتـصرَّف عـلى هـذا النَّحـو، لكنـي كنـت أدرك أنهـا لم تكـن لتفعـل الأمـر كـما أرغـب بـه. كان هـذا يثـير غيظـي، ودائمًـا مـا ينتهـي الـدرس بمبـاراة ملاكمـة مـن طـرفٍ واحـد. كانـت تسـتيقظ، وهـي تمـطُّ جسـدها في كسـل، وتطلـق تلـك النَّشـقَة المتهكِّمـة مـن أنفهـا، ثـم تذهـب إلى الجانـب المقابـل مـن المدفـأة وترقـد مُجـدَّدًا، وأنـا، في ضجـرٍ وإحبـاطٍ كنـت أذهـب للبحـث عـن مارتـا.

العديد من حوادث السنوات الأولى تلك ما تزالُ ماثلةً في ذاكرتي، وإن تكن على نحوٍ غير مُتَّصل؛ غير أنَّ صورها جَلِيَّةٌ وراسخة، وهي تضفي المعنى على حياتي الصامتة تلك، التي كانت خالية تمامًا من الهدف ومن الأيام.

حدث ذات يوم أن سكبتُ الماء على مريلتي، فنشرتُ المريلة أمام النار -التي كانت مُلتَهِبَةً في مدفأة حجرة الجلوس- وذلك كي تجفَّ. غير أنَّ المريلة لم تجفَّ بسرعة بما يكفي كما كنت أريد؛ لذا اقتربتُ أكثر وألقيتُ بها فوق الرماد الملتهب. دبَّت الحياة في النَّار، وحاصرتني اللُّهُب؛ فاستعرت النَّار في ملابسي بلمح البصر. أثرتُ بذعري ضجَّةً جاءت على إثرها ڤيني؛ مُربِّيَتي القديمة؛ كي تُنقذني. حين ألقت فوقي ببطَّانية، كادت أن تخنقني، لكنها كانت سببًا في إخماد النَّار. باستثناء شعري ويديَّ، لم أُصب بحروقٍ خطيرة.

إبَّان هذا الوقت، تمكَّنتُ من استيعاب الغرض الذي لأجله يُستخدَم المفتاح. وذات صباح، أغلقتُ بالمفتاح على أمي في الكَرار، فأُجبِرَت على أن تمكث في الحجرة لثلاث ساعات، حيث كان الخَدَمُ يعيشون في مكانٍ منفصل عن البيت. ظلَّت تقرع الباب بشدَّة، بينما جلستُ أنا على دَرَج الرُّواق أضحك طَرَبًا كلَّما أحسستُ بخبطٍ على الباب. هذا المقلب المشاغب الذي قمتُ به جعل والديَّ على قناعةٍ بأنه يجب أن أتلقَّى تعليمًا بأسرع وقتٍ ممكن. بعد أن أتت مُعَلِّمتي الآنسة ساليڤان، تحيَّنتُ فرصةً سانحة كي أغلق عليها بالمفتاح وهي في حجرتها. صعدتُ إلى الطابق الأعلى بشيءٍ جعلتني أمي أفهم أنَّ عليَّ إعطاءَه إلى الآنسة ساليڤان، لكن، ما كدتُ أُعطيها إيَّاه، حتَّى صفقتُ الباب، وأغلقته بالمفتاح، وخبَّأته تحت الخِزانة في الصالة. لم يفلحوا في استمالتي كي أخبرهم بمكانه. أُجبِر والدي على استخدام سُلَّمٍ كي يُخرِجَ الآنسة ساليڤان من الشُّبَّاك- الأمر الذي أبهجني كثيرًا. بعد شهور، أظهرتُ لهم المفتاح.

عندما كنتُ في عمر الخامسة تقريبًا، انتقلنا من البيت الصغير المغطّى بالكَرْم إلى العيش في بيتٍ جديد أكثر اتساعًا. كانت العائلة تتألّف من: أبي وأمّي، أخوَيْن غير شقيقَيْن أكبر منّي، وتليهما أختي الصغيرة؛ ميلْدرد. أقدم ذكرياتي الراسخة عن أبي هي حين كنت أشقُّ طريقي وسط عدد هائل من مُسوَّدات الصُّحُف التي كانت تركن بجانبه، وكنت أجده وحده؛ ممسكًا بورقةٍ من صحيفة أمام وجهه. كنت في حيرةٍ من أمري بشكلٍ كبير بشأن ما كان يفعله. كنتُ أُحاكي هيئته وفِعله، حتّى أنني كنت أرتدي عُويناتِه ظانَّةً أنَّ هذا سوف يُسعِف في حلِّ اللغز. ولكنّني لم أتبيَّن السِّرَّ لأعوامٍ عديدة. بعدها، فهمتُ ماذا كانت تلك الأوراق، وعرفتُ أنَّ والدي كان يعمل مُحرِّرًا في إحدى هذه الصُّحف.

كان والدي متسامحًا ومُحبًّا إلى أقصى الحدود، وكان مُخلِصًا لبيته، نادرًا ما كان يتركنا وحدنا ويغادر، باستثناء في موسم الصيد. لقد أخبروني أنه كان صيّادًا عظيمًا، وراميًا ذائع الصيت. بجانب حُبِّه لعائلته كان يحب بُندقيته وكلابه. لقد كان مِضيافًا جوادًا إلى حدٍّ بعيد أكثر من اللازم، ونادرًا ما كان يعود إلى المنزل دون أن يجلب معه ضَيفًا. كانت حديقته الكبيرة هي مصدر فخره العظيم، والتي يُقال إنَّ فيها كانت تنمو أجود ثمار الفراولة والبطيخ في البلاد، وكان يجلب لي بِكْرَ القِطاف من العنب النَّاضج والتوت الـمُختار بعناية. إنِّي لأتذكَّر لمسته الحانية حينما كان يقودني ويطوف بي من شجرةٍ إلى شجرة، من كَرْمةٍ إلى كَرْمة، وأتذكَّرُ حماسته وبهجته بما كان يُبهجني.

ولقد كان حكّاءً عظيمًا؛ فبعد أن اكتسبتُ اللغة، كان ينطق الكلمات في يدي على نحوٍ مُضحِك، ويروي لي أذكى نوادره، ولا شيء كان يسرُّه أكثر من أن يتحيَّن الفرصة كي يعيد لي حكايتها.

كنتُ مقيمةً بالمنطقة الشمالية، أستمتع بالأيام الأخيرة من صيف 1896، حينما سمعتُ خبر موت والدي. لقد كان يعاني من داءٍ استمرَّ لفترةٍ قصيرة؛ لذا فقد عانى وقتًا قصيراً من مُكابَدات المرض الشديدة، وبعدها، انتهى كلُّ شيء. كان هذا هو حُزني العظيم الأول- تجربتي الشخصية الأولى مع الموت.

كيف لي أن أكتب عن أمِّي؟ إنها جِدُّ مُقرَّبة منِّي؛ حتَّى أنه يكاد يبدو من غير اللائق أن أتحدَّث عنها.

كنتُ لوقتٍ طويل أعتبر أختي الصغيرة مُتطفِّلَة. لقد كففتُ عن الاعتقاد بكوني أنا الأثيرة لدى أمي، وكان هذا يملأني بالغيرة. كانت أختي تجلس في حضْنِ أمِّي على الدوام، حيث اعتدتُ أنا أن أكون، وكان يبدو أنها تستأثر بجُلِّ وقتها ورعايتها. ذات يوم حدث شيءٌ يبدو لي أنه قد زاد الطين بلَّةً.

كان عندي في ذلك الوقت دُمية، كانت هي دميتي الأثيرة، وكنت أُسيء معاملتها كثيراً، وقد سَمَّيتها فيما بعد: نانسي. لقد كانت -ويا للأسف- الضحيةَ المغلوبة على أمرها لثورات غضبي ونزواتي، والتي كانت أسوأَ من أن تُحتَمل. كنت أملكُ دُمًى لها القدرة على الكلام والبكاء، وكانت تستطيع أن تُغلق عيونها وتفتحها، حتى الآن لم أُحبَّ دميةً أكثر مِمّا قد أحببتُ نانسي. كان عندها مَهْدٌ، وكنت أقضي غالبًا ساعةً من الوقت أو أكثر وأنا أُهدهِدُها. كنت أحوط الدُّمية والمهد بأقصى درجات الغيرة من الاهتمام والرعاية، ولكنني اكتشفتُ ذات مرَّة أنَّ أختي الصغيرة كانت تنام هادئةً مستغرقةً في هذا المهد. ولدى اكتشافي هذه القرينة بشأن الشخص الذي لم تكن تربطني به أي صِلاتٍ مَحبَّةٍ بعد؛ استشطتُ غضبًا. هرعتُ إلى المهد وقَلَبْتُه رأسًا على عقب، وكان من الممكن للطفلة أن تُزهَق رُوحها إن لم تلتقطها أمي قبل أن تسقط. هكذا يكون الأمر حين نتحدَّث من وادٍ تحوطه

جـدرانٌ مُضاعَفـةٌ مـن العُزْلَـة؛ فإنَّنـا نعلـم القليـل عـن تلـك العواطـف الرقيقـة، التـي تنشـأ عـن الكلـمات ومـن الأفعـال ومـن الصحبـة المحِبَّـة. غـير أنـه فيـما بعـد، عندمـا شُـفيتُ وعـدتُ إلى سَـجِيَّتيَ البشريـة، كـبُرَت كلٌّ مِنَّـا؛ أنـا وميلدريـد، في قلـب الأُخـرى، حيـث كُنَّـا نذهـبُ في سـعادةٍ يـدًا بِيَـدٍ أينـما تقودنـا نزوتنـا، رغـم أنَّهـا لم تكـن تفهـم لغـة أصابعـي، ولا أنـا كنـت أجاريهـا في ثرثـرات الطفولـة.

مكتبة
t.me/soramnqraa

الفصل الثالث

في ذلـك الوقـت بزغـتْ الرغبـة في أن أُعـبِّر عـن نفـسي. الإشـارات القليلـة التـي كنـتُ أسـتخدمها أصبحـت أقـلَّ، وصـارت أقـلَّ مـمَّا يكفـي، وإخفاقـاتي بـأن أجعـل نفـسي مفهومـةً كان يتبعهـا ثـوراتٌ مـن الانفعـال العاطفـيِّ الـذي لا يتغـيَّر. كنـتُ أشـعر كـما لـو أنَّ أيـدٍ خفِيَّـةً تقبـضُ عـليَّ، وكنـتُ أبـذل جهـودًا عـلى نحـوٍ مسـعور كي أحـرِّر نفـسي منهـا. لقـد كنـتُ أصـارع- ولم يكُـن ذاك النضـال يُسـعف في تحسـين الأمـور كثـيراً، لكـنَّ رُوح المقاومـة بداخـلي كانـت راسِـخَة؛ كنـتُ غالبًـا مـا أنهـارُ وأنخـرط في البـكاء وقـد اسـتُنْزِفْتُ عـلى المسـتوى الجسـدي. لـو تصـادَف وكانـت أُمِّـي قريبـةً منِّـي في تلـك الأثنـاء، كنـتُ أزحـفُ وأسـتكين بـين ذراعيهـا، وحـالي مـن البـؤس مـا لا يجعلنـي أتذكَّـر حتَّـى سَـبَبَ عاصفـة الغضـب التـي كانـت. بعـد فـترة، صـارت حاجتـي إلى بعـض وسـائل التواصـل مـع الآخريـن

حاجةً مُلِحَّة؛ حتى أنَّ ثورات الغضب كانت تحدثُ كلَّ يومٍ، وأحيانًا كلَّ ساعة.

كان والدايَ في حُزنٍ وحيرةٍ عظيمَين. فقد كنَّا نعيش بعيدًا تمامًا عن أيِّ مدرسة لتعليم الصُّمِّ أو المكفوفين، وبدا من الـمُستَبْعَد أن يأتي شخصٌ إلى مكان مثل توسكامبيا، ذلك المكان المقطوع عن العالم، لأجل أن يقوم بتعليم طفلة كفيفةٍ وصمَّاء. في الواقع، كان أصدقائي وأقاربي متشكِّكين أحيانًا حيال إمكانية أن أتلقّى تعليمًا. بارقةُ الأمل الوحيد الذي كان يراود أُمِّي قد أتى من كتاب ديكِنز "مُذكِّرات أميركيّ". لقد قَرَأَت ما سجَّله عن لورا بريدچمَن، وتذكَّرَت على نحوٍ ضبابيٍّ أنها كانت عمياءَ وصمَّاء، ومع ذلك جرى تعليمها. ولكنَّها تذكَّرت أيضًا -وقد اعتراها الألمُ من فقد الأمل- أنَّ الدكتور "هاو"، الذي اكتشف الطريقة لتعليم الصُّمِّ والعميان.. قد مات منذ سنواتٍ عديدة. وربَّما كذلك الطُّرق التي اكتشفها قد ذَهَبَت معه إلى القبر، وإن لم يكن الأمر كذلك: فكيف لفتاةٍ صغيرةٍ تحيا في بلدةٍ نائية في آلاباما أن تحظى بمنافع طرائق التعليم تلك؟

حين كنتُ في عمر السادسة تقريبًا، سمع أبي بأنَّ في بالتيمور طبيبَ عيون، نجح في شفاء العديد من الحالات التي يبدو أنَّها كانت حالات ميؤوسًا منها. صَمَّم والدَيَّ في الحال أن يأخذاني إلى بالتيمور كي يتبيَّنا إن كان بالإمكان فعل أيِّ شيء في سبيل شفاء عيني.

الرحلة التي أتذكَّرها جيدًا كان مبهجةً للغاية. لقد اكتسبتُ أصدقاء عديدين على متن القطار. أهدتني امرأةٌ صندوقًا مليئًا بالقواقع. صنع أبي ثقوبًا في تلك القواقع كي أتمكَّن أن أخيطها بخيط، وأبقتني تلك القواقع لفترةٍ طويلة سعيدةً ومسالمة. كان كُمسري القطار كذلك لطيفًا جدًّا معي. عندما كان يقوم بجولاته، كثيراً ما كنتُ أتشبَّثُ بذيل معطفه بينما كان يتحقَّق من التذاكر ويثقبها. مِثقابُه الذي

كان يستخدمه، والذي كان تركني أعبثُ به، كان لعبةً مُسلِّية. كنتُ أتكوَّر في زاوية المقعد، وأُسلِّي نفسي لساعاتٍ بصُنع ثقوبٍ صغيرةٍ تثير الضحك، في أجزاءٍ صغيرة من الورق المقوَّى.

صَنَعَت لي عَمَّتي من المناشف دُمْيَةً كبيرة. تلك الدُّمية التي لا أنفَ لها، لا فم لها ولا آذان ولا عيون- كانت أكثر الأشياء الظريفة التي دون ملامح، ولا كانت مخيلةُ طفلٍ حتَّى يمكنها أن تُحوِّلها إلى وجهٍ ما. الأمر كان مثيرًا للفضول إلى حدٍّ كبير؛ فغيابُ العينين في الوجه قد صدمني أكثر ممَّا سَبَّبَتْه التَّشوُّهاتُ الأخرى مجتَمِعة. أَبَنْتُ عن ذلك في تصميمٍ مُستفزّ، لكن لم يبدُ أنَّ أحدًا كُفؤ بما يكفي حتى يضطلع بمهمَّة تزويد الدُّمية بعينين. رغم ذلك خطرت في بالي فكرةٌ لامعة؛ وبذا قد حُلَّت المشكلة. تشقلبتُ من فوق المقعد إلى الأرض وبحثتُ تحته عن رداء عَمَّتي الذي كان مُزيَّنًا بخرزاتٍ كبيرة. انتزعتُ اثنتين منه وأشرتُ لها أنَّني أريدهما أن يُخاطا في دُميتي. رفعَت يدي إلى عينيها في هيئةٍ متسائلة، وأومأتُ أنا بالموافقةِ في حماس. خَيَّطَت الخرزتَيْن في المكان المناسب، ولم أتمالك نفسي ساعتها من السعادة، لكنِّي على الفور فقدتُ اهتمامي بالدُّميَة. لم تصدر منِّي أثناء الرحلة أيَّة نوبةِ غضب؛ فلقد كان لديّ الكثير من الأشياء التي جَعَلَت عقلي وأصابعي في انشغالٍ دائم.

حين وصلنا بالتيمور التقانا دكتور تشيشولم في حفاوَةٍ، لكنه لم يتمكَّن من القيام بأيِّ شيء. رغم ذلك قال إنَّه بالإمكان أن أُعلَّم، ونصح والدِي أن يستشير الدكتور غرهام بِل في واشنطن، فقد يستطيع الدكتور بل أن يزوّده بمعلوماتٍ عن المدارس والمعلِّمين المختصِّين بالأطفال الصُّمِّ والمكفوفين. وعملًا بنصيحة دكتور تشيشولم ذهبنا في الحال إلى واشنطن للقاء دكتور بِل، كان والدي يعتمِلُ في قلبه الحزن وكثيرٌ من الوساوس -لم أكن أدركُ تمامًا بما يُثقِلُ على نفسه من ألم- وكنتُ أتحرَّى السعادة في شعور الإثارة الذي يرافق السفر من

مكانٍ إلى مكان. وباعتباري طفلةً آنَئِذٍ، استشعرتُ على الفور مشاعر التعاطف والطِّيبة التي جَعَلَت دكتور بِل مُحبَّبًا إلى قلوب الكثيرين؛ فإنجازاتُه المدهشة قد استمالَت إعجاب النَّاس به. أجلسني على ركبتيه بينما كنتُ أنا أتفحَّصُ ساعته، وجعلها تَرِنُّ لأجلي. لقد كان يفهم إشاراتي، وأدركتُ هذا وقتها وأحببته على الفور. لكن، لم أكن أحلم أنَّ ذلك اللقاءَ كان هو الباب الذي يتعيَّن عليَّ أن أمرق منه من العَتمَةِ إلى النُّور، من العُزْلَةِ إلى الأُلفة، إلى الصُّحبة، إلى المعرفة.. وإلى المحبَّة.

نصح الدكتور بِل والدي بأن يُكاتِبَ السيِّد أناجنوس، مدير معهد بيركنس في بوسطن، حيث المسرح الذي شهد جهود الدكتور هاو العظيمة لأجل الصُّمِّ، وأن يستعلمَ منه إذا ما كان يعرف أحد المعلِّمين المؤهَّلين حتى يبدأ في تعليمي. وهذا ما فعله أبي من فوره، وبعد بضعة أسابيع وصل خطابٌ رقيق من الدكتور أناجنوس، بتأكيدٍ بثَّ الطمأنينة في النفوس، بأنَّه قد عُثِرَ على مُعلِّمٍ. كان ذاك في صيف 1886، لكنَّ الآنسة ساليڤان لم تصل إلا في شهر مارس التالي.

وهكذا، لكأنِّي قد تجلَّيتُ في مِصر، ووقفتُ بأرض سيناء، وقوَّةٌ إلهيَّة مَسَّت روحي، ووهبَتها البَصَر، وبه، قد شهدتُ الكثيرَ من العجائب. ومن جانب الجبل المقدَّس سمعتُ صوتًا يتلو: "المعرفة، هي المحبَّة.. والنُّور.. والبصيرة".

الفصل الرابع

إنَّ أهمَّ يومٍ في حياتي هو اليوم الذي أتتني فيه مُعَلِّمتي؛ آنْ مانسفيلد ساليڤان. إنَّه لتغمرني الدَّهشة حين أتفكَّر مَلِيًّا في التفاوتات التي لا حدَّ لها بين الحياتين، اللتين يصل بينهما هذا اليوم. كان هذا اليوم هو الثالث من مارس، عام 1887؛ قبل أن أبلغ سِنَّ السابعة بثلاثة أشهر.

في ظهر ذاك اليوم الحافل بالأحداث، وقفتُ في الشُّرفة صامتةً وأنا كُلِّي لهفة. ومن خلال إشارات أُمِّي ومن الهرولة هنا وهناك، خمَّنتُ على نحوٍ ضبابي أنَّ حَدَثًا غير عادي على وشك الحدوث؛ لذا قصدتُ الباب وانتظرتُ على السلالم. كانت شمسُ الهجيرة تخترق شجرة صريمة الجدي الكثيفة التي كانت تغطي السَّقيفة، لتسقطَ على وجهي. كانت أصابعي -دون وعيٍ تقريبًا- تتحسَّس الأوراق الغَضَّة والبراعم التي قد انبثقت لتَوِّها لتُحيِّي الشتاء الجنوبي العذب. لم أكن

أعلم ما يخبِّئه لي المستقبل من عجائب أو مفاجآت. لقد كان ينهشني الغضب والمرارة لأسابيع على الدَّوام، وأعقَبَ ذلك الصراعَ النَّفسيَّ وَهَنٌ عظيم.

هل حدث وكنتَ يومًا وسط بحرٍ يَعُمُّه ضبابٌ كثيف، بينما عتمةٌ بيضاء، عتمةٌ حقيقيَّةٌ ملموسة، كان يبدو أنَّها تحتجزك بداخلها، بينما السفينة العظيمة، في قلقٍ وارتياب، تتلمَّس طريقها نحو الشاطئ، مُخلِّفَةً الشاقول[1] من ورائها في الماء وحبلَ السَّبرْ، وأنتَ، وبقلبٍ خافق، تنتظر شيئًا ما كي يحدث؟ لقد كنتُ أنا في مثل حال تلك السفينة قبل أن يُبتَدأ في تعليمي، كنتُ فقط دون بوصلة أو حبل السَّبر، ولم يكن لديَّ أي وسيلة حتى أدرك كم كان الميناء قريبًا. "النور، فلتهبَني النُّور!"، تلك كانت هي الصرخة الصامتة لروحي، وفي تلك اللحظة بالذَّات، تجلَّى نور المحبَّة وأشرق على روحي.

أحسستُ بخُطواتٍ تقترب، بسطتُ يدِي لأنني حسِبتُ أنها أمي. التقطها أحدهم، وتلقَّفتني يدٌ، وضمَّتني بين ذراعيها تلك التي قد جاءت لتكشف لي سِرَّ كُلِّ الأشياء، وأكثر من هذا: لتحبَّني.

في الصباح التالي لمجيء مُعلِّمتي قادتني إلى حجرتها وأعطتني دُمية. تلك الدمية قد بعث بها إليّ الأطفالُ الصغار في معهد بيركنس، ولورا بردچمَن هي مَن ألبسها، تهجَّتْ الآنسة ساليڤان في يدي ببطءٍ كلمة: "دُ-مْ-يَ-ة". استثارت اهتمامي على الفور لعبةُ الأصابع تلك، وحاولتُ أن أُحاكيها. حين نجحتُ أخيراً في أن أصيغ الكلمات بشكلٍ صحيح تَورَّدَ وجهي بفرحٍ وزهوٍ طفوليٍّ. هرعتُ إلى أمِّي في الطابق الأسفل، وأمسكتُ بيدي وتهجَّيتُ حروف كلمة دُمية. أنا لم أكن أعرف أنني كنتُ أتهجَّى كلمة أو أنَّ تلك الكلمات موجودة؛ كنتُ ببساطة أستخدم أصابعي مثل قردٍ يحاكي حركات. في الأيام التي تَلَت هذا الحدث،

(1) Plummet الشاقول، أو الفادن، أو البلوميت: أداة تستخدم في قياس عمق المياه. (المترجِم)

وبواسطة تلك الطريقة غير المفهومة تعلَّمتُ أن أتهجَّى الكثير والكثير من الكلمات، من بينها كلمة قلم، قُبَّعة، كوب، وبعض الأفعال مثل: يجلس، يقف، يمشي. لكنَّ معلِّمتي ظلَّت ورائي أسابيع عديدة قبل أن أتمكن من إدراك أنَّ لكلِ شيءٍ اسمًا.

ذاتَ يوم، بينما كنتُ ألهو بدميتي الجديدة، وضعت الآنسة ساليفان الدمية الكبيرة المصنوعة من المناشف في حضْني، وتهجَّت أيضًا "دُ-مْ-يَ-ة"، وحاوَلَت إفهامي أنَّ "دُ-مْ-يَ-ة" تنطبق على الاثنتين. كان قد جرت بيننا سابقًا في هذا اليوم مُشادَّة على كلمتَيْ "ك-و-ب"، و"م-ا-ء". حاولت الآنسة ساليفان أن تُعلِّمني بالإكراه أنَّ هجاء "ك-و-ب" تعني كوب، وأنَّ "م-ا-ء" تعني ماء، لكنَّني صمَّمتُ على الخَلط بينهما. أهمَلَت الموضوع يائسةً بعض الوقت، على أن تُجدِّدَ الخوضَ في الأمر فقط عند أول فرصة. صِرتُ ضجِرةً من محاولاتها المتكرِّرة، وأمسكتُ بالدُّمية الجديدة، وقذفتها لتتحطَّم على الأرض. لقد كنتُ مسرورةً قَطعًا وأنا أتحسَّسُ شظيات الدمية المهشَّمة على قدميَّ. لم يكن يتلو ثورتي العاطفية تلك لا الأسف ولا النَّدم على ما أفعل. فأنا لم أكن أحبُّ هذه الدمية. في عالمي المظلم الذي كان ما يزال كائنًا، والذي كنتُ أحيا فيه؛ لم يكن به وجودٌ لعاطفةٍ حارَّةٍ، أو للرحمة. أحسستُ بمُعلمتي وهي تكنس الشظيات المكسورة إلى أحد جوانب المدفأة، وشعرتُ بالرِّضا بأنَّ الشيء الذي كان يتسبَّب في إزعاجي قد زال. جَلَبَت لي قُبَّعتي، فعلمتُ أنَّنا ماضيتان للخروج كي ننعمَ بضوء الشمس الدافئ. تلك الفكرة -إن كان لشعورٍ أَبْكَمَ أن يُسمَّى فِكرة- كانت تجعلني أحجلُ وأطفر في سعادة.

سِرتُ في الممشى نحو بئر البيت، بينما كان يقودني شذى شجرة صريمة الجدي التي كانت تُغطِّيها. شخصٌ ما كان يغترفُ من البئر، ووضَعَتْ معلِّمتي يدي تحت التيار الدَّافِق. وبينما كان تيار الماء البارد يندفع فوق إحدى يديَّ، تهجَّتْ في الأخرى كلمة "ماء"، في

البدايـة، تهجَّتهـا عـلى نحـوٍ بطـيء، ومـن ثـمَّ تهجَّتهـا بسرعـة. كنـتُ مـا أزال واقِفَـةً؛ وكامـل انتباهـي كان مصروفًـا إلى أصابعهـا. أحسسـتُ فجـأةً بوعـيٍ غامـض، كـما لـو أنِّي قـد تذكَّـرتُ شـيئًا كان مَنسـيًّا، رعشـةً ترافـق فكـرةً عائـدة، وعـلى نحـوٍ مـا؛ انكشـف لي سرُّ اللغـة. أدركـتُ حينئـذٍ أنَّ "م-ا-ء" كانـت تعنـي ذلـك الـشيء المدهـش البـارد، ذلـك الـشيء الـذي كان يتدفَّـق فـوق يـدي. تلـك الكلمـة الحيَّـة أيقظَـت روحـي، وهبتهـا النُّـور، ومنحتهـا الأمـل والغِبطـة، وأطلقتهـا حُـرَّةً! مـا تـزالُ بالطريـق عوائـق، هـذا صحيـح، لكـن، مـع الوقـت، بالإمـكان لتلـك العوائـق أن تُكتَسَـح.

غـادرتُ نافـورة المنـزل يمـلأني الشَّـغف للتعلُّـم. لقـد كان لـكلِّ شيءٍ اسـم، وكلُّ اسـمٍ يلِـدُ فِكـرةً جديـدة. ونحـن في طريقنـا إلى المنـزل، بـدا أنَّ كلَّ شيءٍ كنـتُ ألمسـه ينضـحُ بالحيـاة. كان هـذا بسـبب أنَّنـي رأيـتُ كُلَّ شيءٍ بحاسَّـة الإبصـار العجيبـة الجديـدة تلـك التـي قـد واتَتنـي. مـا إن ولجـتُ البـاب حتَّـى تذكَّـرتُ الدُّميـة التـي كنـتُ قـد كسَّرتُهـا. تحسَّسـتُ طريقـي نحـو المدفـأة والتقطـتُ أجـزاء الدُّميـة. حاولـت عبثًـا أن أعيدهـا كـما كانـت. عندهـا اغرورَقَـت عينـاي بالدمـوع؛ لأننـي أدركـتُ مـا قـد صنعَتْـه يـداي، وللمـرَّة الأولى، أحسسـتُ بالأسـف والنَّـدم.

في ذاك اليـوم تعلمـتُ قـدرًا كبـيرًا مـن الكلـمات. لا أتذكـر مـاذا كانـت تلـك الكلـمات، لكنِّـي أتذكَّـر أنَّ: "أب، أُمّ، أُخـت، مُعَلِّمـة" كانـت مـن بينهـا- إنَّهـا كلـماتٌ كان مـن شـأنها أن جعلـت العـالم يُزهـر لأجـلي، كعصا هـارون التـي "أَزْهَـرَت زهـرًا وأَنْضَجَـت لَـوْزًا"[1].كان مـن الصعـب أن يكـون طفـلٌ أسـعدَ منِّـي حـين يـأوي إلى فراشـه في أُفـول نهايـة ذاك اليـوم الحافـل، أو يكـون قـد عـاش في خِضَـمِّ تلـك المباهـج التـي قـد وَهَبْنِيهـا ذاك اليـومُ، ولأوَّل مـرَّة، كنـتُ أتـوق إلى مجـيء يـومٍ جديـد.

(1) الآية من سِفر العدد 17:8 (المترجم)

الفصل الخامس

إنِّي لأتذكَّر العديد من حوادث صيف 1887، التي تَبعَثْ اليقظة المفاجئة لروحي. ومن ساعتها لم أكن أفعلُ شيئًا سوى ممارسة الاستكشاف عبر يدَيَّ وأتعلَّم اسمَ كلِّ شيءٍ ألمسه، وكلَّما تعاملتُ مع الأشياء وتعلَّمتُ أسماءها واستخداماتها؛ كُلَّما توَّلد في نفسي مزيدٌ من المتعة والثقة، ما يجعل نوعًا من القرابة والنَّسَب ينمو بيني وبين بقية العالم.

وحين حلَّ وقت تفتُّح أزهار الربيع، ونَمَت أعشاب الحوذان؛ أخذتني الآنسة ساليفان من يدي وسارت بي بين الحقول، حيث كان الفلَّاحون يُعِدُّون الأرض للبَذْر، لنصل إلى ضفاف نهر تينِّيسي، وهناك، حيث جلسنا على الحشائش الدافئة، تلقَّيتُ أول دروسي عن كَرَم الطَّبيعة. تعلَّمتُ كيف أنَّ الشمس والمطر يجعلان كلَّ شجرةٍ تنبثقُ من الأرض؛ فإذا هي صالحةٌ للأكل تسرُّ النَّاظرين، تعلَّمتُ كيف أنَّ

الطيـور تبنـي أعشاشـها وتعيـش وتترعـرعُ متنقِّلـةً مـن أرضٍ إلى أرض، كيـف يتمكَّـن السـنجاب، والغـزال، والأسـد وجميـع المخلوقـات الأخـرى مـن الحصـول عـلى الطعـام والمـأوى. بينـما كانـت معرفتـي بالأشـياء تتعاظـم كنـتُ أشـعر بالمزيـد والمزيـد مـن البهجـة تجـاه العـالم الـذي أحيـا فيـه. قبـل أن أتعلَّـم إجـراء أيٍّ عمليـةٍ حسـابية، أو أن أصـف شـكل كوكـب الأرض، علَّمَتنـي الآنسـة ساليـڤـان أن أَنْشُـدَ الجـمال في شـذى الغابـات، في كلِّ نَصْلٍ مـن أوراق العشـب، وفي الخطـوط والتعاريـج التـي في يـد أختـي الرضيعـة. لقـد قامـت بربـط أفـكاري الأولى بالطبيعـة، وجعلتنـي أشـعر أنَّ "الطيـور والأزهـار وأنـا؛ كُنَّـا رفقـاء سـعداء".

لكـن، إبَّـان ذلـك الوقـت، خُضـتُ تجربـةً علَّمتنـي أنَّ الطبيعـة ليسـت طيبـةً عـلى الـدَّوام. ذاتَ يـوم، مُعَلِّمتـي وأنـا كُنَّـا عائِدَتَـيْن مـن نزهـةٍ استمرَّت وقتًـا طويـلًا. كان الجـوُّ عـلى مـا يـرام، لكـنَّ الطَّقـس تَبَـدَّل وصـار أكـثر حـرارةً ورطوبـة؛ مـا جعلنـا في نهايـة الأمـر نعـود أدراجنـا إلى البيـت. توقَّفنـا مـرَّةً أو مرَّتَـيْن كي نسـتريح إلى ظـلِّ شـجرةٍ عـلى جانـب الطريـق. اسـتراحتنا الأخـيرة كانـت تحـت شـجرة كَـرْزٍ بَـرِّيّ، عـلى بُعـد مسـافةٍ قصـيرة مـن المنـزل. اسْـتَطَبْنا الجلـوسَ إلى الظِّـل، وكان تسـلُّق الشـجرة سـهلَ المنـال جـدًّا، حتـى أنَّـه بمسـاعدة مُعَلِّمتـي تمكَّنـتُ مـن تَسَـلُّقها، واتخـذتُ لنفسـي مقعـدًا بـين الغصـون. كان الوضـع فـوق الشـجرة لطيفًـا جـدًّا؛ مـا جعـل الآنسـة ساليـڤـان تقـترح أن نتنـاول غداءنـا هنـاك. قطعتُ لهـا وعـدًا بـأن أبقـى مـكاني إلى أن تذهـب هـي إلى البيـت وتحـضر الغـداء.

وفجـأةً، طـرأ تغـيُّرٌ مـا عـلى الشـجرة. تبـدَّدَ كلُّ الـدفء الـذي كان في الأجـواء. أدركـتُ أنَّ السـماء قـد غَيَّمـت؛ لأنَّ كلَّ الحـرارة -والتـي كانـت دلالـةً عـلى النـور بالنسـبة لي- قـد تلاشَـت مـن الجـو. هَلَّـت مـن الأرض رائحـةٌ غريبـة. ميَّـزتُ تلـك الرائحـة؛ لقـد كانـت هـي تلـك الرائحـة التـي تسـبق هبـوب عاصفـةٍ رعديَّـة، واسـتبدَّ بقلبـي خَـوفٌ غـير مفهـوم. أحسسـتُ أنِّي وحـدي تمامًـا، وقـد قُطـع الاتصـال بينـي وبـين أصدقـائي

وبين الأرض الراسخة من تحتي. لقد طوَّقني شعورٌ بالهَول والمجهول. ظللتُ مكاني أترقَّب، سَرَتْ في جسدي قشعريرةٌ من الخوف. كنتُ أصبو لعودة مُعَلِّمتي، لكنني قبل كلِّ شيء كنت أريد أن أنزل من فوق تلك الشجرة.

مرَّ وقتٌ من الصمت المنحوس، ثمَّ حدث اضطرامٌ عظيم لأوراق الشجر. سَرَت رجفةٌ عبر الشجرة، ثمَّ أرسلت الرياح عاصفةً كادت تُسقطني إن لم أكن تشبَّثتُ بالغصن بكلِّ ما أوتيتُ من قوَّة. كانت الشجرة تتمايل وتتلوَّى. تقصَّفَت الأغصان الصغيرة وانهمرت فوقي وابلًا. استحوذَت عَليَّ رغبةٌ جامحةٌ في القفز، غير أنَّ الخوف ردَّني على الفور. جثمتُ على فرع الشجرة. كانت الأغصان تجلدني بسياطِها. كنتُ أحسُّ بِهِزَّةٍ متقطِّعة بين الفينة والفينة، كما لو أنَّ شيئًا عظيمًا قد سقط وامتدَّ أثرُ الاصطدام نحو الأعلى إلى أن بلغ الغصن الرئيسي الذي فوقه كنت أربض. صعَّدَ ذلك في نفسي القَلَقَ إلى ذروته، وبينما كنتُ أتخيَّلُ أنَّ الشجرة وأنا كلانا سيسقط معًا في وقتٍ واحد- تلقَّفت مُعلِّمَتي يدي وأعانتني على النزول. تشبَّثتُ بها وجسدي ينتفضُ من السعادة حين شعرتُ بالأرض من تحت قدميَّ مجدَّدًا. لقد تعلَّمتُ درسًا جديدًا، وهو أنَّ الطبيعة تشنُّ دومًا حربًا عَلَنيَّةً على أبنائها، وأنَّه، خلف أكثر لمساتها رقَّةً، تحتجبُ مخالبُ غادرة.

بعد هذه التجربة، مرَّ وقتٌ طويل قبل أن أصعد شجرةً أخرى. فمجرَّد التفكير في الأمر كان يملأني خوفًا. كان الإغواء اللذيذ لشجرة الميموزا وهي في كامل تَفَتُّح أزهارها هو ما جعلني أخيرًا أتغلَّب على مخاوفي. ذاتَ صباحٍ ربيعيٍّ جميل، حينما كنتُ وحدي في البيت أقرأ، تنسَّمتُ عبيرًا رقيقًا عجيبًا يسري في الهواء. وَثَبْتُ من مكاني وبسطتُ يدي بدافعٍ غريزيّ. بدا لي أنَّ طيف الربيع قد مرَّ بالمنزل. "ما هذا؟"، تساءلتُ، وفي اللحظة التالية، أدركتُ أنَّها رائحة أزهار شجرة الميموزا. تحسَّستُ طريقي إلى نهاية الحديقة، حيث كنتُ أعرف أنَّ شجرة

الميموزا كانت بقرب السِّياج عند منعطَف الممرِّ. أجل، لقد كانت هناك؛ تهتزُّ تحت ضوء الشمس الدافئ، تكاد براعم أغصانها تلامس الحشائش السَّامقة. تُرى، هل وُجِدَ في العالم من قبل شيءٌ، كان شديد الجمال بشكلٍ استثنائي هكذا! إنَّ براعمها الرقيقةَ كانت تنكمش من أقلِّ لمسةٍ أرضيَّةٍ، بدا وكأنَّما شجرةٌ من الجنَّة قد استُزرِعَت على الأرض. شَقَقتُ طريقي عبر وابلٍ من البتَلّات المنهمرة على جذعها الكبير، ثمَّ وقفتُ دقيقةً في تردُّد، عندئذٍ وضعتُ قدمي في الفضاء الواسع بين مفرق فرعين، واجتذبتُ نفسي إلى الشجرة نحو الأعلى. كنتُ أجد بعض العُسْر في التشبُّث بالأغصان؛ لأنَّها كانت كبيرةً جدًّا، ولأنَّ لُحاء الشجرة جرح يديَّ. غير أنَّه كان يعتريني شعورٌ لذيذٌ بأنَّني كنتُ أقوم بعمل مدهشٍ غير عادي؛ لذا واصلتُ التسلُّق نحو الأعلى أكثر فأكثر، إلى أن بلغتُ موضعًا للجلوس، كان أحدهم قد بناه قبلًا منذ عهدٍ بعيد، وقد نما وصار جزءًا من الشجرة ذاتها. جلستُ هناك طويلًا طويلًا، أشعر وكأنَّني جِنِّيَّةٌ تستلقي فوق سحابةٍ ورديَّة. بعدها، كنتُ أقضي ساعاتٍ طويلةً سعيدة، فوق شجرتي؛ شجرة الجنَّة، أفكِّر في أفكارٍ صافية، وأحلم أحلامًا مشرقة.

الفصل السادس

لقد امتلكتُ الآن المِفتاحَ الجامِع للغة، وكنتُ في لهفةٍ لأن أتعلَّمَ استخدامه. إنَّ الأطفال الذين لديهم القدرة على السماع يكتسبون اللغة دون عناءٍ يُذكَر؛ فهم يلتقطون الكلمات التي تنسابُ من أفواه الآخرين في بهجةٍ على وجه السرعة كما هي، بينما يتعيَّن على الطفل الأَصَمِّ أن يقبض عليها عبر عمليةٍ بطيئة، ومُؤلمةٍ في غالب الأحيان. لكن مهما يكن من أمر هذه العملية؛ فالنتيجةُ تكون دومًا رائعة. إنَّنا نتقدَّمُ بالتدريج؛ فابتداءً من تسمية الأشياء، نتقدَّم خطوةً خطوة، إلى أن نجتاز البَون الشاسع بين تأتأتنا الأولى لأول مقطَعٍ ننطِقه، وفِكرةٍ في بيتٍ لشيكسبير يغزوه المرء بالفَهم.

في البداية، حينما كانت تخبرني مُعلِّمتي عن شيءٍ جديد كنتُ أطرح أسئلةً قليلة. كانت أفكاري غير واضحة، وحصيلتي من المفردات لم تكن كافية، بَيْدَ أنَّني، بينما كانت معرفتي بالأشياء تتطوَّر، وقد

تعلَّمتُ الكثير والكثير من الكلمات؛ اتَّسع نطاق تساؤلاتي، وكنتُ لأعود مرارًا وتكرارًا إلى نفس الموضوع وأنا في تَوْقٍ لمعرفة المزيد من المعلومات عنه. أحيانًا، كانت كلمةٌ جديدةٌ كفيلة بأن تعيد إحياءَ صورةٍ لخبرةٍ ذهنية قديمة كانت قد انطبعت في ذهني.

إنَّني لأتذكَّرُ ذلك الصَّباح الذي تساءَلتُ في المرة الأولى عن معنى كلمة "محبَّة". كان ذلك قبل أن أعرف الكثير من الكلمات. كنتُ قد وقعتُ على بعض زهور البنفسج اليانعة في الحديقة وأتيتُ بها إلى مُعَلِّمتي. حاوَلَت أن تُقبِّلني، لكنَّني في ذلك العهد لم أكن أحبُّ لأحدٍ أن يُقبِّلَني إلا أُمِّي. أحاطتني الآنسة ساليڤان بذراعها في لطف، وتهجَّتْ في يدي: "أنا، أحبُّ، هيلين".

"ما هي المحبَّة؟"، سألتُها.

ضمَّتني إليها أكثر وقالت: "إنَّها هنا"، وهي تشير بيدها إلى قلبي، ذلك القلب الذي قد صِرتُ أعي نبضاتِه للمرَّة الأولى. لقد تسبَّبَت كلماتها في حيرةٍ كبيرةٍ لي؛ لأنَّني وقتئذٍ لم أكن أفهم أيَّ شيءٍ ما لم ألمسه.

تنسَّمتُ شذى البنفسج في يدها وسَألتُ؛ بمزيجٍ من الكلمات، ومزيجٍ من الإشارات، سألتها سؤالًا فيما معناه: "هل المحبَّة، هي عذوبةُ الزهور؟".

"لا"، أجابتني مُعلِّمتي.

أعملتُ فِكري مرَّةً أخرى. لقد كانت الشمس الدافئة ترسل علينا أشعتها.

"هل هذه ليست محبَّةً؟". تساءلتُ بينما أشيرُ في الاتجاه الذي تأتي منه الحرارة.

فلقد كان يُخيَّلُ إليَّ أنَّه ليس بالإمكان أن يوجد شيءٌ أكثر جمالًا من الشمس، الشمس التي كان دِفْئها يجعل كُلَّ الأشياء تنمو. لكنَّ الآنسة

ساليـڤــان هــزَّت يدهــا نافيــةً، وكنــتُ أنــا في حــيرةٍ وإحبــاطٍ عظيمَــيْن. فكَّـرتُ بأنَّــه لمـن الغريـب ألَّا يكـون في اسـتطاعةِ مُعلِّمتـي أن تُبـيِّنَ لي مـا هــي المحبَّــة.

بعـد يـومٍ أو يومـين مـن هــذا الموقــف، كنــتُ أخيــطُ خــرزاتٍ مــن أحجــام مختلفــة في مجموعــاتٍ متماثلــة: حرزتــان كبيرتــان، ثــمَّ ثــلاث خـرزاتٍ صغـيرة، وهكـذا. كنـتُ قـد ارتكبـتُ أخطـاءً أثنـاء تنظيمهـا، وكانت الآنسـة ساليـڤــان تُخرجهـا مـرَّةً بعـد مـرَّةٍ في لُطـفٍ وصبر. لاحظـتُ أخـيرًا خطـأً واضحًـا في ترتيـب أنسـاق الحـرزات، ولوهلـة، وجَّهـتُ كلَّ تركيـزي عـلى تعلُّـم الـدرس، وحاولـتُ أن أفكِّـر كيـف كان ينبغـي أن أُرتِّبهـا. ربَّتَـت الآنسـة ساليـڤــان عـلى جبهتـي وتهجَّـت في تأكيـد حاسـم: "فَكِّـري".

أومضـت في رأسي الكلمـةُ وأدركـتُ أنَّهـا كانـت تـدل عـلى اسـم العمليـة التـي تجـري في رأسي. كان ذلـك أوَّلَ إدراكٍ واعٍ أُعاينـه لفكـرةٍ مُجـرَّدة.

ظللــتُ ســاكنةً لوقــتٍ طويــل، لم أكــن أفكِّــر في الخــرزات التــي بــين يــديَّ، إنمــا كنــتُ أحــاول أن أتبـيَّن معنًــى لكلمــة "المحبَّــة" في ضــوء هــذه الفكـرة الجديـدة. كانـت الشـمس محتجبـةً خلـف سـحابة طـوال اليـوم، وكانـت تظهـر في لمحـاتٍ سريعـة، لكنَّهـا انبلجـت فجـأةً وتجلَّـت وهـي في كامـل بهائهـا الجنـوبيِّ.

سألتُ مُعَلِّمتي مُجدَّدًا: "هل هذه ليست المحبَّة؟".

"المحبَّـة، هــي شيء يُشـبه تلـك السُّـحب التـي كانـت في السـماء، قبـل أن تتجـلَّى الشـمس"، هكـذا ردَّت. ثـمَّ، في كلـماتٍ أكـثر يُـسرًا مـن هــذه، وهـي كلـمات لم أكـن أفهمهـا في ذلـك الوقـت، شرحـت لي: "لـيس بإمكانـكِ أن تلمــسي السُّــحب كـما تعلمـين، لكـن، تسـتطيعين أن تتحسَّـسي المطـر، وأن تـدركي كـم تكـون الزهـور سـعيدة، وكـم تكـون الأرض ظامئـةً لِتَلَقِّـي حبَّـات المطـر في يـومٍ حـار. لا يمكنـكِ أن تلمـسي المحبَّـة هـي الأخـرى، إلَّا

أنَّكِ تشعرينَ بالعذوبةِ التي تبثُّها في الأشياء. دون المحبَّة، لم يكن لكِ أن تكوني سعيدة، ولا أن ترغبي في اللعب".

لقد تدفَّقت الحقيقة الجميلة فوق رأسي. أحسستُ أنَّ خيوطًا لا مرئيَّة قد امتدَّت بين روحي وأرواح الآخرين.

منذ بَدء عملية تعليمي، كانت الآنسة ساليڤان تدرِّبني على أن تتحدَّث إليَّ كما كانت لتتحدَّث إلى طفلٍ بإمكانه أن يسمع، الفارق الوحيد هو أنَّها كانت تتهجَّى الكلمات في يدي بدلًا من أن تتلفَّظ بها حديثًا. وإن لم أعرف الكلمات والتعبيرات الضرورية كي أُبينَ عن أفكاري كانت تزوِّدُني بها، حتَّى أنَّها كانت تشاركني في محاورةٍ حينما لا يكون باستطاعتي أن أواصل كلامي حتَّى نهاية المحادثة.

تواصَلَت هذه العملية لعدَّة سنوات؛ فالطفلُ الأصمُّ ليس يتعلَّم التعبيرات والمصطلحات التي لا تُحصى، المستخدمة في أبسط أشكال التواصُل اليومي، في شهر، أو حتى في عامين أو ثلاثة أعوام. إنَّ الطفل القادر على السماع يتعلَّم هذه الأمور عبر التكرار الدائم والمحاكاة. فالمحادثة التي يسمعها في بيته تحفِّزُ عقله، وتقترح عليه مواضيع، وتستدعي للذهن التعبيرات العفويَّة لأفكاره الخاصَّة. وتبادلُ الأفكار العفَويُّ هذا هو شيء ممتنِعٌ على الطفل الأصمِّ. كانت مُعَلِّمتي -وهي تدرك هذه النقطة- تُصمِّم على تزويدي بأنواع المحفِّزات التي تنقصني. كانت تفعل هذا بأن تُرَدِّدَ لي حَرْفيًّا ما كانت تسمعه بقدر ما يكون ممكنًا، وكذا بأن تعلِّمني كيف أتمكَّن من المشاركة في الحوار. لكنَّ الأمر تطلَّب وقتًا طويلًا قبل أن أجازف وآخذ زمام المبادرة، وتطلَّب الأمر وقتًا أطول قبل أن أتمكَّن من إيجادِ شيءٍ مناسبٍ كي أقوله في الوقت المناسب.

يجد الصُّمُّ والمكفوفون صعوبةً شديدةً في اكتساب اللباقة في الحديث. كم هو هائلٌ ذلك العُسر الذي، لا بُدَّ يتعاظم، في حالة

أولئـك الذيـن هـم صُـمٌّ ومكفوفـون في الوقـت ذاتـه! فليـس باسـتطاعتهم أن يميِّـزوا طبقـة الصـوت، أو أن يرتفعـوا ويهبطـوا في سُـلَّم النغـمات التـي تُضفـي الدلالـة عـلى للكلـمات، وذلـك دونمـا مسـاعدة، وليـس في وسـعهم أن يشـاهدوا تعبـير وجـه المتحـدِّث؛ فالنظـرة، غالبًـا، هـي الجَوهـرُ المجـرَّد لمـا يقولـه الإنسـان.

الفصل السابع

الخطوة المهمَّة التالية في عملية تعليمي كانت تعلُّمَ القراءة.

ما إن صار بإمكاني أن أتهجَّى كلماتٍ قلائل حتَّى أعطتني مُعلِّمتي قُصاصاتٍ من الورق المقوَّى، كانت الكلماتُ مطبوعةً عليها بحروفٍ بارزة. تعلَّمتُ سَريعًا أنَّ كلَّ كلمةٍ من الكلمات المطبوعة كانت تُمثِّل شيئًا، فِعلًا، أو خاصِّيَّةً. كان لديَّ إطارٌ، فيه كان يمكنني أن أُرتِّب الكلمات في جُمَلٍ يسيرة، لكن قبل أن أضع جُملًا داخل الإطار اعتدتُ أن أمثِّلها في صورة أشياء. فكنت أبحث عن القصاصات التي تمثِّل -على سبيل المثال- الكلمات الآتية: "دُمية"، "على"، "سرير"، وأضع كلَّ اسمٍ على الشيء الذي يمثِّله، ثم أضع دُميتي على السرير مع كلمة: على، سرير، مُرتَّبةً بجانب الدُّمية، وبهذا أكون قد صنعتُ من الكلمات جملة، وفي الوقت نفسه، أكون قد جسَّدتُ الفكرة التي تقصدها الجملة بالأشياء نفسها التي تمثِّلها.

ذات يوم، طَلَبَت منِّي الآنسة ساليڤان أن أُعلِّق كلمة "بنت" على مئزري، وأن أقِفَ وسط خزانة الملابس. قمت بترتيب الكلمات على الرَّفِّ، "في"، "خزانة الملابس"، لا شيء كان يُبهجني أكثر ممَّا كانت تثيره تلك اللعبة. مُعلِّمتي وأنا كنَّا نلعبها لساعاتٍ في كلِّ مَرَّة. كلُّ شيءٍ في الحجرة كان غالبًا مُرتَّبًا في جُملٍ تتألَّفُ من أسماء الأشياء.

بدأ الأمر بالقصاصة المطبوعة، غير أنَّها لم تكن سوى خطوة نحو الكتاب المطبوع. كنتُ آخذ نسختي من كتاب "القارئ للمُبتدئين"، وأتصيَّد الكلمات التي كنت أعرفها، حين كنت أجدها فإنَّ سعادتي كانت تماثل ما يحدث أثناء لعبة الغُمَّيْضَة. وبهذا بدأتُ أقرأ. سأتحدَّثُ لاحقًا عن الفترة التي بدأتُ فيها أقرأ قصصًا مُتَّصلة الأحداث.

لم أكن أحظى بدروسٍ منتظمة لوقتٍ طويل. حتى حين كنتُ أدرس وأكِدُّ بأقصى ما يُمكِن، كان يبدو الأمر بالنسبة لي مثلَ لهوٍ أكثرَ منه عملًا. كلُّ شيء كانت تُعلِّمني إيَّاه الآنسة ساليڤان كانت تشرحه في صورة قصَّةٍ جَذَّابةٍ أو قصيدة. متى ما يُعجبني شيءٌ أو يثير اهتمامي كانت تتحدَّث معي بالمزيد عنه كما لو كانت هي نفسها فتاةً صغيرة. ما كان يشغل تفكير الأطفال على أنَّه مخيف، ويُمثِّلُ مجهودًا كادحًا مؤلمًا بالنسبة لهم، فيما يتعلَّقُ بالقواعد، بالمسائل الحسابية الصعبة، وبالتعريفات الأصعب، تلك الأمور بالنسبة لي الآن هي إحدى الذكريات الغالية.

ليس باستطاعتي أن أُفسِّر التعاطف الغريب الذي كانت تتصرَّفُ به الآنسة ساليڤان معي، بخصوص مباهجي ورغباتي. لربَّما كان الأمر نتاجَ مرافقتها الطويلة للمكفوفين. إضافةً إلى ما سبق، كانت لدى الآنسة ساليڤان قُدرة رائعة على الوصف. كانت تَمُرُّ لِمامًا على التفاصيل الغير المثيرة للاهتمام، ولم تكن تضايقني أبدًا بأيِّ أسئلةٍ كي تتبيَّن إن كنتُ أتذكَّر درس اليوم قبل الأمس. كانت تُقدِّمُ لي تقنياتٍ

العلـوم الجامـدة شـيئًا فشـيئًا، جاعلـةً مـن كلِّ شيءٍ أمـرًا حقيقيًـا، لدرجـة أنَّنـي لا يسـعني سـوى أن أتذكَّـر مـا كانـت تُعلِّمنـي إيَّـاه.

كُنَّـا نقـرأ ونـدرس خـارج البيـت، مُؤْثِرَتَـيْن الغابـاتِ المشمِسَـةَ عـلى المكـوث بالمنـزل. جميـعُ دروسي الأولى تتـلازمُ في ذاكـرتي برائحـة الغابـات: الرائحـة الراتنجيَّـة الرقيقـة لأوراق الصنوبـر الإِبَريَّـة، التـي تمتـزج بعطـر العنـب الـبرِّي. بينـما كُنَّـا نجلـس في ظـل شـجرة الخزامـى الوارفـة، تعلَّمـتُ أنَّ كلَّ شيءٍ يحمـل دَرسًـا وإيحـاءً. "لقـد علَّمتنـي عذوبـةُ الأشـياء جميـع منافعهـا". في الواقـع؛ كلُّ شيءٍ يطِـنُّ، أو يَئِـزُّ أو يغـرِّد أو يُزهـر كان يشـارك بـدورٍ في تعليمـي: الضفـادع التـي كانـت تضـجُّ بنقيقِهـا، والجنـادِب الأميركيَّـة، وصراصـير الليـل التـي كانـت تتشـبَّثُ بيـدي، إلى أن تسـهو عـن حيائِهـا؛ فترجُـفَ بألحانهـا المزماريَّـة، وكذلـك الكتاكيـتُ الصغـيرة الحبُّوبـة، والزهـور البرِّيَّـة، وبراعـم القرانيـا، مـروج الليالِـك وأشـجار الفاكهـة التـي طرحـت براعِمَهـا. كنـتُ أتحسَّـسُ زهـور القطـن المتفتِّحـة، وأتلمَّـسُ بأصابعـي زغـبَ بذورهـا وتِيلَهـا النَّاعـم، كنـتُ أشـعرُ بوسوسـةِ الريـح الخفيضـة وهـي تـسري بـين عيـدان الـذُّرة، بخشخشـة الأوراق الطويلـة، وبصهيـل مُهْـرِي الغاضِـب عندمـا كُنَّـا نعقـدُ لجامـه في المرعـى ونضـع في فمـه الشَّـكيمة- آه... يـاه! كـم أتذكَّـر جليًّـا رائحـة فَمِـه اللاذعـة التـي تفـوح بخَـمِّ البرسـيم!

كنـتُ أنهـض أحيانًـا وقـت الفجـر وأتسـلَّلُ إلى الحديقـة، حينـما يكـون النَّـدى الثقيـل مسـتكينًا فـوق العُشـب والأزهـار. قليلـون هُـم مَـن يعـون تلـك البهجـة التـي يشـعر بهـا المـرء حـين يتحسَّـس الـورود، ويضغـط عليهـا بلطـفٍ في يديـه، أو تلـك الحركـة البديعـة للَّيالِـكِ حـين تتمايـل مـن لمسـات نسـمات الصبـاح. يحـدث أحيانًـا أن أُمسـك بحـشرةٍ في الزهـرة التي أقطفهـا، وأشـعرَ بالرَّفيـف الخافـت لجناحَـيْ الحـشرةِ اللذيـن يخفقـان معًـا في خـوفٍ مباغـت؛ فالكائـن الصغـير قـد صـار واعيًـا بضغـطٍ مـا يأتيـه مـن العـالم الخارجـي.

شيءٌ آخرُ من الأشياء الـمُفضَّلة بالنسبة لي، ممَّا يستحوذ على تفكيري، هـو: زهـور الأوركيـد؛ حيـث ينضـج الثمـر في أوائـل شـهر يوليـو. تصـيرُ وقتها ثمار الخوخ الكبيرة المكسوَّة بالزغب في متناول يدي، والنسمات التي تبعثُ المرح تسري بين الأشجار، فتُسقِط حبَّات التُّفاح على قدميَّ. ياه! يا لتلك البهجة التي أستقبل بها الفاكهة التي تسَّاقط في مئزري، وأضغط وجهي ليُلامس خدود التُّفاح الناعم، وهو بعدُ ما يزال دافئًا من الشمس، وأنصرفُ وأنا أحجلُ مَرَحًا عائدةً إلى البيت!

كانت نُزهتنا المفضلة إلى مَهبَطِ كيلر؛ وهو مكان قديم متداعٍ ومرفأ فائضة عن الحاجة، يقع على ضفاف نهر تينِّيسي، كان يُستخدم أثناء الحرب الأهليَّة لإنزال الجنود. كُنَّا نقضي هُناك الكثير من السَّاعاتِ في سعادة، ونلهو ونحنُ نتعلَّم الجغرافيا. كنتُ أبني سدودًا من الحَصَى، وأصنع جُزرًا وبحيرات، وأحفر مِهادًا للأنهار، كلُّ هذا كنتُ أفعله لأجل المتعة، ولم أكن أتصوَّر حينها أنَّني كنتُ أتعلَّمُ درسًا. كانت دهشتي تتعاظم وأنا أستمعُ إلى وصف الآنسة ساليڤان للكوكب الكرويِّ العظيم، بجباله المحترقة، بمدنه المقبورة، وأنهار الجليد الزاحفة، والكثير من الأشياء الأخرى التي كانت على نفس القدر من الغرابة. كانت تصنع في الطين خرائِطَ بارزةً؛ وبهذا كان بإمكاني أن أتحسَّسَ حواف الجبل ووديانه، وأتتبَّع بأصابعي المسارات المراوغة للأنهار. كان هذا يروقني أيضًا، لكنَّ تقسيم كوكب الأرض إلى مناطق وأقطاب كان يضايقني ويتسبَّب في حيرتي. فالخطوط التوضيحيَّة والعصا البرتقالية التي كانت تُمثِّل القُطبَين بدت حقيقيَّةً تمامًا لدرجةِ حتَّى أنَّه وإلى اليوم؛ مُجرَّد ذِكر المنطقة الحارَّة يستدعي لذهني سلسلةً من الدوائر المتشابكة، وأوقنُ أنَّه لو تولَّى أحدهم تلك المهمة، فباستطاعته أن يقنعني أنَّ الدِّبَبة البيضاء تتسلَّق حقًّا القُطْبَ الشماليَّ.

يبدو أنَّ علم الحساب هو فرع الدراسة الوحيد الذي لم أكن أحبُّه. فمنذ البداية أنا لم أكن مهتمَّةً بعلم الأرقام. حاولت الآنسة ساليڤان أن تُعلِّمَني العَدَّ باستخدام الخرزات المُخاطةِ في مجموعات، وبترتيب كُريّات المِعداد المستخدم في رياض الأطفال، تعلَّمتُ الجمع والطرح[1]. لم يكن عندي صبرٌ على ترتيب أكثر من خمس أو ستٍّ مجموعات في المرَّة الواحدة. حين كنت أُتِمُّ المجموعة؛ يكون ضميري مرتاحًا بقيَّة اليوم، وكنت أخرج سريعًا كي ألحق برفاقي في اللعب.

بنفس هذا النَّهج المتباطئ درستُ علم النَّبات وعلم الحيوان.

أرسل لي رجلٌ لطيف -قد نسيتُ اسمه- مجموعة من الحفريَّات: صَدفات رخويَّة صغيرة عليها علاماتٌ فاتنة، قطع من الحجارة الرملية مطبوعٌ عليها آثار مخالبَ لطيورٍ، وسرخس جميل مرسوم على نحتٍ بارز. كانت تلك الأشياء بالنِّسبة لي هي المفاتيح التي فكَّت أقفال كنوز العالم العتيق. كنتُ أستمع إلى الآنسة ساليڤان وهي تتحدَّث عن وصف الوحوش المخيفة وأنا أرتعش، كانت لها أسماء جامدة عَصِيَّة على النُّطق، وتلك الوحوش التي كانت تجوس عبر الغابات البدائية ذات يوم، ممزِّقةً الأشجار العملاقة بحثًا عن الطَّعام، قد ماتت في المستنقات العطِنة في عصرٍ غير معلوم. استحوذت تلك الكائنات الغريبة على أحلامي لوقتٍ طويل، وقد شكَّلَت تلك الفترةُ المظلمةُ الخلفيَّةَ الكئيبة للفترة السعيدة للوقت الحاضر؛ حيث يغمرني الآن ضوء الشمس وتهطل فوقي الورود، وهي تُردِّدُ صدى الدَّقَّات الناعمة لحوافر جوادي.

أُعطيتُ صَدَفةً جميلة في مناسبة أخرى، وبدهشةِ طفلٍ تغمره البهجة، تعلَّمتُ كيف يتمكَّن كائنٌ رخويٌّ صغير من تشييد التفافٍ

(1) المِعْدَادُ: أداة تتكوّن من إطار بداخله قضبان تتحرك عليها كُريَّات إلى أعلى وإلى أسفل، يستخدمها الأطفال في الحساب. (المترجم)

بـرّاق حـول ذاتـه، ليصنـع منـه مكمنًـا ومسـكنًا لـه، وكيـف أنَّـه، في الليـالي الهادئـة، حـين لا يحـرّك الهـواء الأمـواج، يسـافر النوتيـلاس محمـولًا فـوق المياه الزرقـاء للمحيـط الهنـدي في سـفينته "سـفينة اللؤلـؤ". بعـد أن تعلَّمـتُ قـدرًا عظيـمًا مـن الأشـياء حـول حيـاة، وعـن عـادات أطفـال البحـر- كيـف أنـه، وسـط الأمـواج المتلاطمـة، يبنـي البوليـب[1] الصغـيرُ جـزر المرجـان الفاتنـة في المحيـط الهـادي، كيـف صنعـت المنخربـاتُ[2] في إحـدى الأراضي التـلالَ الكَلسـيَّة. قـرَأت عـليَّ مُعلِّمتـي كتـاب "النوتيـلاس ذو الحُجـيرات"، وأرتنـي أنَّ عمليـة بنـاء القوقعـة مـن قِبَـلِ الرخويـات، هـي شـبيهةٌ رمزيًّـا بعمليـة تطـوُّر العقـل. فكـما أنَّ عبـاءة النوتيـلاس العجيبـة تغيِّر المـادة التـي تمتصُّهـا مـن المـاء، لتجعلهـا جـزءًا منهـا؛ كذلـك الأجـزء الصغـيرة مـن المعرفـة، تتجمَّـع مـع بعضهـا البعـض، ويطـرأُ عليهـا تغـيُّرٌ مماثـل، لتصبـح أفـكارًا شـبيهةً باللؤلـؤ.

مـرَّةً أخـرى، كان نمـوُّ نبتـةٍ هـو مـا أمـدَّ الحِصَّـة بنـصّ محتواهـا. حيـث اشـترينا زهـرة ليْلَـك ووضعناهـا في نافـذةٍ تطـلُّ عـلى الشـمس. وسريعًـا مـا أظهـرت البراعـم الخـضراء المسـنَّنَةُ علامـاتِ التَّفَتُّـح. كانـت الأوراق النحيلـة، التـي تشـبه أصابـع اليـد في حوافهـا، تتفتَّـحُ، ببطء، في ممانَعـة؛ كي تكشـفَ -حسـب مـا تخيَّلـتُ- عـن العذوبـة التـي كانـت تخفيهـا، ومـا إن تبـدأ عمليـة التفتـح حتـى تتواصـلَ وتصـير أسرع، إلا أنَّهـا تجـري عـلى وتـيرةٍ منتظمـةٍ وعـلى نحـوٍ متناسـق. دائمًـا مـا تُوجَـد بُرْعُمَـةٌ تكـون أكـبر وأكـثر جـمالًا مـن البقيـة، فيـبرز ظهرهـا الخارجـيُّ المكسـوُّ بمزيـدٍ مـن الأُبَّهـة عـن بقيتهـا، كـما لـو كانـت تلـك البراعـم البهيَّـة وهـي في ثيابهـا الحريريـة الرَّقيقـة، تعـرف بحـدسٍ حقيقـيٍّ، أنَّ تلـك البرعمـة، هـي ملكـة

---

(1) هـي الطـور اللاجنـسي لأحـد الحيونـات البحريـة المعروفـة باسـم الهدريـات، تتبـع شُـعبة اللاسِعات، وإحـدى الرُّتَـب التـي تنـدرج تحتهـا: المرجانيّـات، شـقائق النعـمان، وقنديـل البحـر. (المترجـم)

(2) أو الفورامينيفيرا، هي كائنات أولية ذات قواقع. (المترجم)

الليالك، بينما أخواتها الخجولات يخلعن قلسنواتهنَّ الخضراء احترامًا في خَفَر، حتَّى يصير النَّبات بأكمله غصنًا أوحدَ يتمايل بأريجه وعذوبته.

ذات مرَّة، كان هناك أحد عشر شُرْغوفًا[1] في صندوقٍ على شكل وعاء من الزجاج، كان الصندوق قد وُضِعَ في نافذة تملأها نباتات. إنِّي لأذكُرُ تلك اللهفة التي كنت أشعر بها حين كنتُ أستكشفهم. يا لها من بهجةٍ عظيمةٍ كانت حين كنتُ أغمر يدي عبر تجويف الكرة الزجاجية، فأشعر بأفراخ الضفادع وهم يصطخبون ويتراقصون حولها في مرح، وأتركهم ينزلقون وينسلُّون بين أصابعي. ذات يوم، قفز أحدُ الشَّراغف الطَّموحين من فوق حافة الوعاء الزجاجي وسقط على الأرضية، فوجدتُ أنَّه أقرَب إلى الموت منه إلى الحياة. علامةُ الحياة الوحيدة الظاهرة عليه كانت حركةً خفيفة من ذيله المتلوِّي. غير أنه ما كاد يعودُ إلى وعيه حتَّى اندفع إلى قعر الوعاء يحوم هنا وهناك في نشاطٍ مرِح. لقد قفز قفزته، واطَّلع على العالم العظيم، وآثر أن يبقى في بيته الزجاجيِّ البديع، في ظلِّ شجرة الفوشيَّة الكبيرة، إلى أن ينال رتبة الضفدعيَّة. ثمَّ ينطلقُ للعيش في البِركة المحاطة بالأشجار، الواقعةِ عند نهاية البستان، حيث يملأ ليالي الصيف نغمًا بأغنيته؛ أغنية الحب العجيبة.

وهكذا كنتُ أتعلَّمُ من الحياة ذاتها. في البداية، كنتُ عبارة عن كتلة صغيرة من الإمكانيَّات. كانت مُعلِّمتي هي مَن جَلَّاها وطوَّر منها. فحين أتت؛ صار كلُّ شيءٍ حولي زاخرًا بالمعنى ويتنفَّسُ مرحًا وحبًّا. ومن ساعتها لم تكن تفوِّتُ فرصةً إلَّا كانت تُظْهِرُني على الجمال

(1) Tadepole أو أبو ذنيبة: حيوان برمائي يشبه الضفدع. يكون في بداية حياته أعمى، وفمه غير مكتمل؛ لذلك في المرحلة الأولى من حياته، يتغذَّى الشرغوف على الملح المحفوظ في جسمه، لفترة تستمرُّ حوالي 10 أيام، في هذه الفترة، تنمو وتكتمل عيونه وفمه، وتبدأ الرئة في النمو والتطور، ثم تبدأ الخياشيم في التلاشي، وعند اكتمال أعضائه، يبدأ في افتراس طعامه، من صغار الحشرات، ثم يخرج لليابسة ويمارس حياته الطبيعية، كحيوان برمائي. (المترجم)

الكامـن في كلِّ شيء، ولم تكـفَّ عـن المحاولـة -سـواء بالفكـر وبالفعـل وعـبر الأُمثولـة- لأجـل أن تجعـل حيـاتي عذبـةً ونافعـة.

كانـت عبقريـة مُعلِّمتـي، اسـتجابتها العاطفيـة السريعـة، كياسـتها الـودودة- هـي مـا جعـل مـن أعوامـي الأولى في التعليـم جِـدَّ فاتِنَـةٍ. كان ذلـك لأنَّهـا كانـت تتحـيَّنُ اللحظـات المناسـبة، حتَّـى تنقـل إليَّ المعرفـة بطريقـةٍ تجعـل منهـا أمـرًا مقبـولًا ويبعـث عـلى الـسرور للغايـة. لقـد كانـت تـدركُ أنَّ عقـل الطفـل يشـبه غديـرًا ضحـلًا؛ حيـث يترقـرقُ فيـه الماءُ ويرقُـصُ جـذِلًا وهـو يجـري فـوق المسـار الصخـري الـذي يمثِّـلُ التعليـم، وتبـصر زهـرةً هـا هنـا، وشُـجيرةً هـا هنـاك، وفي البعيـد تلـوحُ غيمـةٌ بيضاء، فتحـاول أن تقـود عقـلي في طريقـه، وهـي عالمـةٌ بـأنَّ العقـل كـما غديـر المـاء؛ ينبغـي أن يُغَـذَّى مـن جـداول الجبـل ومـن عيونـه الخَفيَّـة، إلى أن يتَّسِـع ويصـير نهـرًا عميقًـا، قـادرًا عـلى أن يعكـس في صفحتـه الرائقـة صـور التـلال المتماوجـة، وظـلال الأشـجار الزَّاهـرة، والسـموات الزرقـاء، وكذلـك المحيَّـا الفاتـن لزهـرةٍ صغـيرة.

في وسـع أيِّ مُعلِّـمٍ أن يصحـبَ الطفـل إلى الفصـل، غـير أنَّـه ليـس كلُّ معلِّـمٍ يسـتطيع جعلـه يتعلَّـم. فلـن يبـاشر الطفـل عملـه مـا لم يشـعر بأنَّـه يملـك الحرِّيَّـة، وسـواء كان وقـت الشـغل أو وقـت الراحـة، فـلا بُـدَّ وأن يشـعر بحـماس النَّـصر، وبقلبـه وهـو غائـصٌ في الإحبـاط، وذلـك قبـل أن يحمـل عـلى كاهلـه، بإرادتـه، أداءَ المهـامِّ الكريهـة بالنسـبة إليـه، وأن يصمِّـمَ عـلى الرَّقـص بشـجاعةٍ عـلى طريقتـه الخاصَّـة، طـوال طريقـه الرَّتيـب المضجـر بـين نصـوص الكتـب.

إنّ مُعلِّمتـي مُقرَّبـةٌ منِّـي لدرجـة أنَّنـي نـادرًا مـا أفكِّـرُ في نفسـي بمعـزلٍ عنهـا. كـم هـو مقـدار البهجـةِ الموجـودة في الأشـياء الجميلـة، التـي هـي فِطريَّـةٌ الآن بالنسـبة لي، وكـم مقـدار البهجـة التـي يعـودُ الفضـل فيهـا إليهـا؟ أبـدًا لسـتُ أدري. إنَّنـي أشـعرُ بـأنَّ كيانهـا ليـس منفصـلًا عنِّـي،

فخطـواتي التـي أخطوهـا في حيـاتي تمـاثـلُ خُطاهـا. وكلُّ مناقِبـي إنمـا تعـودُ إليهـا؛ فليـس بي مـن موهبـةٍ، أو مـن مطمـحٍ أو شـعورٍ بالفـرح، إلا وهـي مَـن أيقظَـه في نفـسي بلمسـتها الحنـون.

الفصل الثامن

الكريسماس الأوَّل الذي حلَّ بعد أن جاءت الآنسة ساليڤان إلى توسكامبيا كان حدثًا عظيمًا. أعدَّ لي كلُّ فَردٍ في العائلة مفاجآت، لكن ما سَرَّني أكثر، هو أنَّ الآنسة ساليڤان وأنا أعددنا مفاجآت لجميع الآخرين. الغموضُ الذي كان يحيط بالهدايا كان أعظمَ بهجتي وأجمل تسليةٍ لي. فلقد بذَلَ أصدقائي كلَّ ما كان في مستطاعهم كي يستثيروا فضولي؛ وذلك من خلال التلميحات، وأنصَافِ الجُمل المنطوقة، التي كانوا يتظاهَرون بقَطْعها وعدم إكمالِها في أواخرها. واصلنا؛ الآنسة ساليڤان وأنا، لعبةَ تخمينٍ علَّمَتْني المزيدَ عن استخدام اللغة أكثر مما أمكَن لأيِّ تشكيلةٍ من الدروس أن تفعل. كلّ مساء، كُنَّا نتحلَّقُ حول نار حطبٍ نُوقِده، ونلعبُ لُعبتنا، لعبة التخمين، كانت تتصاعد إثارتُها أكثر فأكثر كُلَّما اقترَبَ حلول الكريسماس.

كان لـدى أطفـال مدرسـة توسـكامبيا عشـيَّةَ الكريسـماس شـجرتهم الخاصَّـة، حيـثُ دَعَـوْني لأشـهدها. في وسـط حجـرة الدِّراسـة كانـت تنتصِبُ شـجرةٌ بهيَّـةٌ متوهِّجـةٌ تتـلألأُ وسـط الضـوء الرقيـق، كانـت أغصانهـا مُحمَّلـةً بفاكهـةٍ عجيبـةٍ بديعـة. لقـد كانـت تلـك لحظـةَ سـعادةٍ قُصـوى. كنـتُ أرقـصُ وأمـرحُ حـول الشـجرة يملـؤني الوَجْـد. حـين عرفـتُ أنَّ لـكلِّ طِفـل هديّـة؛ كنـتُ مبتهجـة، وسـمح لي الأشـخاص الُّلطفـاء الذيـن قامـوا بتجهيـز الشـجرة، بـأن أُسـلِّمَ الهدايـا إلى الأطفـال. في غمـرة متعـةِ القيـام بذلـك، لم أتوقَّـف كي أطَّلِـعَ عـلى الهدايـا التـي أُعطيتُهـا، لكـن حـين كنـتُ متأهِّبـةً لفتحهـا، فـإنَّ نفـادَ صـبري لأجـل أن يبـدأ الكريسـماس الحقيقـي غالبًـا مـا كان يتجـاوز سـيطرتي. كنـتُ أعلـم أنَّ الهدايـا التـي أُعطيتُهـا، لم تكـن مـن تلـك التـي كان يُقـول لي أصدقـائي عنهـا تلميحـات مُشـوِّقَة، ومُعلِّمتـي قالـت إنَّ الهدايـا التـي سـأُعطاها سـتكون أجمـلَ منهـا. قنعـتُ رغـم ذلـك بـأن أطمـئِنَ نفـسي بالهدايـا التـي أخذتُهـا مـن الشـجرة، وأن أتـركَ الهدايـا الأُخـرى حتّـى الصَّبـاح.

في تلـك الليلـة، بعـد أن علَّقـتُ جـرابي، رقـدتُ في السريـر مُـدَّةً طويلـة، متظاهـرةً بأنَّنـي نائمـة، وظللـتُ متأهِّبـةً كي أرى مـا كان سـيفعله بابـا نويـل حـين يـأتي. وفي النهايـة رُحـت في النَّـوم وفي حضنـي دُميـةٌ جديـدة ودُبٌّ أبيـض. في الصبـاح التـالي كنـتُ أنـا هـي مَـن أيقظـت جميـع العائلـة، وكنـتُ أولَ المهنِّئين بالعيـد "كريسـماس مجيـد!". لقـد وجـدتُ مفاجـآت، ليـس بداخـل الجِـراب فحسْـب؛ إنَّمـا فـوق الطَّاولـة، عـلى جميـع الكـراسي، عنـد البـاب، عنـد عتبـة الشُّـبَّاك، لم يكـن باسـتطاعتي فعـلًا أن أمـشي إلا وتعـثَّرتُ في هديـة كريسـماس صغـيرة ملفوفـة في ورق التغليـف. لكـن، حـين أهدتنـي مُعلِّمتـي طائِـرَ كنـاري، أترِعَـت كأسُ سـعادتي وفاضـت.

كان الصَّغـير "تيـم" أليفًـا للغايـة، لدرجـة أنَّـه كان يقفـز إلى إصبعـي ويـأكل الفطائـر الـمُحلَّاة ويلتقمهـا مـن يـدي. علَّمَتنـي الآنسـة ساليـڤـان أَنْ أُولي كلَّ العنايـة لطائـري الـمُدلَّل الجديـد. كنـتُ كلَّ صبـاح، بعـد

الإفطـار، أجهِّـز لـه حمَّامـه، وأجعـل قفصَـه نظيفًـا وجميـلًا، وأمـلأ أكوابـه بحبـوبٍ طازجـة ومـاءٍ جديـد مـن بـئر المنـزل، وأُعلِّـق حِزمـةً مـن العُشـب عـلى أُرجوحتِـه.

ذاتَ صبـاح، تركـتُ القفـص عـلى المقعـد المجـاور للنافـذة حـين ذهبـتُ كي أُجهِّـزَ المـاء لأجـل اسـتحمامه. حـين عُـدت، شـعرتُ بذيـل قـطٍّ لمسَـني وتجـاوزني حـين فتحـتُ البـاب. في البدايـة لم أُدرِك مـا قـد حـدَث، لكـن، حـين وضعـتُ يـدي داخـل القفـص ولم تُلاقـي أجنحـةُ "تيـم" الجميلـةُ يـدي، أو قبَضَـتْ مخالِبـهُ المدبَّبـةُ الصغـيرة عـلى أصابعـي، علمـتُ أنَّنـي لـن أرَى أبـدًا طائـري الـمُغرِّدَ الصغـيرَ الجميـلَ مُجـدَّدًا.

الفصل التاسع

الحدثُ المهم التَّالي في حياتي هو زيارتي لبوسطن، في مايو عام 1888. إنِّي لأتذكَّرُ استعداداتِ السَّفر كما لو كان الأمر قد حدث البارحة؛ المغادرة برفقة مُعلِّمتي وأُمِّي، الرِّحلة، وأخيرًا الوصول إلى بوسطن. كم كانت مختلِفةً هي هذه الرحلة عن تلك التي قمتُ بها إلى بالتيمور منذ عامين قبل هذا! لم أعُد كائنًا ضئيلًا مستثارًا متململًا؛ أنشدُ انتباهَ جميعِ مَن بالقِطار كي يُبقوني في حالةٍ من اللهو والتسلية. كنتُ أجلس بهدوءٍ بجانب الآنسة ساليڤان، أتلقَّى باهتمامٍ متلهِّفٍ كلَّ ما كانت تخبرني به عمَّا كانت تراه من خارج نافذة السيَّارة: نهر تينيسي الجميل، حقول القُطن الفسيحة، التِّلال والغابات، حشود الزُّنوج الضَّاحكين في المحطَّات، حيث كانوا يلوِّحون للنَّاس الذين في القطار وكانوا يجلبون حلوى لذيذة وكرات الفشار عبر شبابيك القاطرة. أمامي على المقعد المقابل كانت تجلس دُميتي

الكبيرة التي صُنِعت من الخرقة؛ نانسي، وهي ترتدي فستانًا جديدًا من الجنجهام[1] وتعتمر قلسنوةً ذات كَشْكشاتٍ، وتنظر إليَّ عبر عينين من الخرز. أحيانًا، حينما لا أكون مُستغرِقةً فيما تصِفه لي الآنسة ساليڤان عمَّا تراه، كنتُ أتذكَّرُ وجود نانسي وأرفعها بين ذراعيَّ، لكنِّي كنتُ أريحُ ضميري بأن أجعل نفسي أؤمن أنَّها كانت نائمة.

ولأنَّني لن أجد مناسبة أخرى كي آتي على ذِكر نانسي مُجدَّدًا، أرغبُ أن أحكي هنا تجربة أليمة حدثت لها بعد وصولنا تمامًا إلى بوسطن. نانسي كانت مُغطَّاةً بالوَسَخ: بقايا فضلات الفطائر التي أجبرتُها أنا أن تأكلها، رغم أنَّها لم تُظهر أبدًا أيَّ علامة استثنائيَّةٍ لاستطابتها إيَّاها. أخذتها الغسَّالة التي في معهد بيركنس سِرًّا كي تُحمِّمها. لقد كان ذلك كثيرًا على أن تتحمَّله المسكينة نانسي. حين رأيتُها في المرَّة التالية كانت عبارة عن كومة من القطن دون معالِم، حيث لم أستطع أن أتعرَّفها مُطلَقًا إلَّا من خلال العينين المصنوعتين من الخَرز اللَّتَيْن كانتا تنظران إليَّ في تأنيب.

حين توقَّف القِطار أخيرًا بالمحطَّة في بوسطن كان الأمرُ، كما لو أنَّ واحدةً من تلك الحكايات الخياليّة قد صارت حقيقة. الحكايات التي كانت تُستَهَلُّ بـ"كان يا ما كان" صارت تحدث الآن، وتلك "البلاد البعيدة" كانت هنا.

لقد وصلنا بشِقِّ الأنفُس إلى معهد بيركنس للمكفوفين، حيثُ بدأتُ أُقيمُ صداقاتٍ مع الأطفال الصِّغار المكفوفين. لقد أبهجني على نحوٍ لا يمكن وصفه أن أجدَ أنَّهم يعرفون هجاء الأصابع. يا لها من متعةٍ أن أتحدَّث مع أطفالٍ آخرين عبْرَ لُغتي! لقد كنتُ حتَّى هذا الوقت كغريبٍ يتحدَّثُ عبر مترجِمٍ فَوريّ. كنت في المدرسة التي تعلَّمَت فيها لورا بريدچمَن وكأنَّني في مَوطني. استلزمَ الأمرُ بعضَ

(1) نسيج قطني مُخطط. (المترجم)

الوقـت كي أُقـدِّرَ واقـع أنَّ أصدقـائي الجُـدُد كانـوا مكفوفـين. أنـا كنـتُ أعلـمُ أنَّنـي لا أسـتطيعُ أن أرى، لكـن لم أتصـوَّر أنّ كلّ الأطفـال الــمُحبِّين المتلهِّفـين- الذيـن تجمَّعـوا حـولي، وتَشـارَكوا بمحبَّـةٍ في جلسـاتِ سَـمري وأُنـسي- كانـوا أيضًـا مكفوفـين. أتذكَّـرُ مـا أحسسـتُ بـه مـن دهشـةٍ وألم عندمـا لاحظـتُ أنَّهـم يضعـون أيديهـم عـلى يـدي حـين كنـتُ أتحـدَّثُ إليهـم، وأنَّهـم كانـوا يقـرؤون الكتـب عـبر أصابعهـم. رغـم أنَّنـي قـد أُخـبرتُ بهـذا مـن قَبـل، ورغـم أنَّنـي أتفهَّـمُ أمـارات عجـزي وحرمـاني، كنـتُ أعتقـد بشـكلٍ ضبـابيٍّ وقتهـا أنَّـه، مـا دام باسـتطاعتهم أن يسـمعوا، فـلا بـدَّ أنَّهـم يملكـون "حاسَّـةً أخـرى للرؤيـة"، ولم أكـن مُهيَّـأَةً بعـدُ لملاقـاةِ طفـلٍ واحـدٍ وطفـلٍ ثـانٍ، وآخـر يكـون محرومًـا مـن نفـس النِّعمـةِ الغالية. لكنَّهـم كانـوا سُـعداء للغايـة مُطمئنِّـين بأنَّنـي بَـدَّدتُ كلَّ إحسـاسٍ بـالألم وسـط مُتعـةِ صُحبتِهـم.

يـومٌ واحـدٌ قضيتُـه بصُحبـة الأطفـال المكفوفـين جعلنـي أشـعر وأنـا في مُحيطـي الجديـد كـما لـو أنَّنـي تمامًـا في بيتـي، وكنـت أتشـوَّفُ بلهفـةٍ لـكلِّ تجربـةٍ وأخـرى، بينـما كانـت الأيَّـامُ سِراعًـا تمُـرُّ. لم أتمكَّـن مـن إقنـاع نفـسي أنَّنـي قـد تركـتُ جـزءًا كبـيرًا مـن العالَـم خلفـي، فقـد كنـتُ أعتـبر بوسـطن هـي بدايـة الخَلْـقِ ومُنتهـاه.

حـين كُنَّـا في بوسـطن زُرنـا بانكـر هِـل، وهنـاك تلقَّيـتُ أوَّلَ درسٍ لي في مـادَّة التاريـخ. قِصَّـةُ الرِّجـال الشُّـجعان الذيـن قـد قاتلـوا دِفاعًـا عـن البُقعـةِ التـي كُنـا نقـفُ فيهـا قـد أثـارت اهتمامـي عـلى نحـوٍ عظيـم. تسـلَّقتُ الــمَعْلَمَ العتيـق، وأنـا أُحـصي خُطـواتي، وأتسـاءَلُ بعـدُ كلَّـما ارتفعـتُ أكـثر وأكـثر، إن كان الجنـود قـد صعـدوا هـذا الطريـق الشَّـاهِق، وصوَّبـوا أسلِحَتهم نحـو العـدوِّ الـذي كان يقـف عـلى الأرض مـن تحتهـم.

ذهبنـا في اليـوم التـالي بحـرًا إلى پـليماوث. كانـت تلـك أوَّلَ نُزهـةٍ لي عـبر المحيـط، وأوَّل رحلـةٍ لي عـلى مـتن باخـرة. كـم كانـت الباخـرةُ تعُـجُّ

بالحركة والحياة! غيرَ أنَّ قرقرةَ الـمُحرِّك جعلتني أظنُّ أنَّ الجو يُرعِد، وبدأتُ في البكاء؛ لأنَّني كنتُ أخشى أنَّها لو أمطرَت فلن نتمكَّن من الاستمتاع بنُزهتنا خارج أبواب السَّفينة. أظنُّ أنَّ أعظم ما كان يثير فضولي أكثر من أيِّ شيءٍ في پليماوث، هو الصَّخرة الكبيرة التي كان يقف عليها الحُجَّاجُ. كان باستطاعتي أن ألمسها، وربَّما ذلك هو ما جعل من مجيء الحُجَّاج، ومن مآثِرَهم، والمشقَّات التي تكبَّدوها تبدو لي حقيقيَّةً أكثر. كنتُ قد أمسكتُ بيدي مِرارًا عيِّنَةً صغيرةً من صخرة پليماوث، أعطاني إيَّاها رجلٌ مُحترَمٌ طيِّبٌ في قاعة الحَجِّ، وتلمَّستُ حوافَّها بأصابعي، وتحسَّستُ الشَّقَ الذي في منتصفِها والأرقامَ البارزة عليها: "1620"، وقلَّبتُ في رأسي كلَّ ما كنت أعرفه عن قصَّة الحُجَّاج المدهشة.

كم أشرَقَت مُخيِّلتي الطفوليَّة تأثُّرًا بعظَمةِ جراءتِهم. كنتُ أفكِّرُ فيهم من منظورٍ مثاليٍّ؛ على أنَّهم أشجعُ الرِّجال وأكثرهم شهامةً على الإطلاق؛ فقد انطلقوا يَنشدون وطنًا في أرضٍ غريبة. ظننتُ أنَّهم كانوا يرغبون في الحرِّيَّة لأجل رفقائهم الرجال كما هو من أجلِهم. لَشَدَّ ما كانت دهشتي وإحباطي بعد سنواتٍ لاحقًا، حين علمتُ بأعمال الاضطهاد التي لحِقت بهم، وجعلتنا مكلَّلين بالعار، حتَّى ونحن نفخرُ بالبسالة وبالقوَّة التي وهبَتنا ما نطلق عليه "وطننا الجميل".

من بين عديدٍ من الأصدقاء الذين اكتسبتهم في بوسطن، كان هناك السيِّد وليام إنديكوت وابنته. سلوكهما الطَّيِّب معي كان هو الغَرسَ الذي نبتت منه الكثيرُ من الذكريات السَّارَّة منذ ذلك الحين. ذات يوم، زُرناهما في بيتهما الجميل في بيڤيرلي فارمز. أتذكَّر ببهجةٍ كيف كنتُ أمشي وسط حديقة الورود التي يملكونها، كيف أنَّ جَرْوَيْهما؛ الكبير ليو والصغير فريتْز ذا الشعر المجعَّدِ والأُذنين الطويلتين، أَتَيا كي يلتقياني، وكيف أنَّ نيمْرود؛ أسرعَ الأحصنة، كان ينخسُ بأنفه في يديَّ حتى أُربِّتَ عليه وأعطيه قِطعةً كبيرة من السُّكَّر. أتذكَّرُ كذلك

الشـاطئ؛ حيـثُ لعبـتُ في الرَّمـل للمـرَّة الأولى. كان الرمـل غزيـرًا وناعـمًا، مختلفًـا للغايـةِ عـن الرمـل الـمُهَلْهَل القـاسي الـذي يمتـزجُ بعُشـبِ البحـر وبالقواقـع في بريوسـتر. حـكى لي السَّـيِّد إنديكـوت عـن السُّـفن العملاقـة التـي أبحـرت مـن بوسـطن قاصـدة أوروبًـا. رأيتُـه كثـيرًا بعـد هـذه الزيـارة، ولطالمـا كان لي صديقًـا صالحًـا، في الواقـع، حينـما أطلقـتُ عـلى بوسـطن "مدينـة القلـوب الطَّيِّبـة"، كنـتُ أفكِّـرُ فيـه.

الفصل العاشر

تمامًا قبل أن يُغلقَ معهد بيركنس أبوابَه لأجل إجازة الصيف، رُتِّب الأمرُ بأنَّه ينبغي أن نقضي الإجازة، مُعَلِّمتي وأنا، في بريوِستر، في كيب كود، بصُحبة صديقتنا العزيزة مدام هوبكنز. لقد كنتُ سعيدةً؛ فعقلي كان مشغولًا بالـمُتَع الـموعودة ومُدْهِشِ القَصص التي قد سمعتُها عن البحر.

أكثرُ ذكرياتي جلاءً عن هذا الصَّيف هي بخصوص المحيط. لقد كنتُ أحيا دومًا على اليابسة في أماكنَ داخل البلاد، ولم أُعاين مُطلقًا مثل هذا القَدر من نَفَحات الهواء المالح، لكنِّي قرأتُ في كتابٍ كبير عنوانه "عالمنا" وصفًا للمحيط ملأني دهشةً وتَوْقًا عظيمًا لأن ألمس البحر الهائل وأن أستشعرَ هديرَه؛ لذا تقافزَ قلبي بحماسةٍ فرحًا ولهفًا حين علمتُ أنَّ أُمنيتي أخيرًا سوف تصيرُ حقيقةً.

ما إن أُعِنْتُ على ارتداء بدلة السِّباحة حتَّى انطلقتُ أعدو فوق الرملة الدَّافئة، دون أن تشغل بالي أفكار الخوف من الغَطس في الماء البارد. شعرتُ بتلاطُم الأمواج العاتية تُهدهِدُني وتغور. حركةُ الماء المِعوامِ ملأت نفسي انتفاضةً شديدةً من البهجة. وفجأة، أفسَحت نشوتي مكانًا لحلول الخوف؛ فقد اصطَدَمَت قدمي بحَجر، وفي اللحظة التي تَبِعَت هذا انقضَّ عليَّ الماء فوق رأسي. دَفعتُ يديَّ خارج الماء كي تتشبَّث بأيِّ عَون؛ فقَبَضَت يدي على الماء وعلى أعشاب البحر التي كان الموج يقذفها في وجهي. لكن، كلُّ جهودي المسعورة للخلاص كانت عَبَثًا. بدا أنَّ الأمواج تلعب معي لعبة، وتتقاذفني من موجةٍ إلى أخرى في مرحِها العاصِف. لقد كان الوضعُ مُخيفًا! فقد انزلقت الأرضُ الثَّابتةُ تمامًا من تحت قدميَّ، وبدا أنَّ كلَّ شيءٍ يتلاشى من هذا الكيان الغريب المحيط بي، كلّ شيء؛ الحياة، الهواء، الدِّفء والمحبَّة. في نهاية الأمر رغم هذا، فالبحرُ، كما لو أنَّه قد سَئِمَ دُميته الجديدة؛ لفِظَني وأعادني إلى الشَّاطئ، وفي لحظةٍ أُخرى احتُضِنْتُ بين ذراعَيْ مُعلِّمتي. ياه! يا لراحةِ هذا العناق الحنونِ المديد! ما إن أفقتُ من ذُعري بما يكفي حتى يكون باستطاعتي قول أيِّ شيءٍ حتَّى تساءلتُ: "مَن الذي وضع الملح في الماء؟".

بعد أن تعافيتُ من تجربتي الأولى في البحر، كنتُ أجد متعةً عظيمةً في الجلوس فوق صخرةٍ كبيرة، وأنا أرتدي بدلة السباحة، وأتحسَّسُ الموجةَ تِلوَ الموجة، وهي تندفِعُ على الصَّخر وتُطرطِش، مُرسلةً من فوقي وابلًا من رذاذ الماء الذي يكسو جسدي بأكمله. كنتُ أتحسَّسُ الحَصَى وهي تُصلصلُ عندما يُلقي الموج بثِقَلِه على الشاطئ، فيتراءى لي الساحل بأكمله وهو يهتزُّ جَرَّاء غاراتها الجنونيَّة، وينبضُ الهواء من خفقانها. تجرُّ الأمواجُ المنكسرةُ أذيالها كي تجمع شملها لأجل وثبةٍ أضخم، وأعتصمُ أنا بالصَّخرة، متشنِّجةً ومفتونة، وأنا أشعر بفَقيقِ ماء البحر واندفاعه المباغِت!

لم أتمكَّن من البقاء على الشاطئ طويلًا بما يكفي. نكهةُ هواء البحر الطَّليق المُنعِش غيرِ الملوَّث كانت كفكرةٍ رطبةٍ مُهدِّئة، والقواقع والحصباء وأعشاب البحر بكائناتِه الدَّقيقة التي تحيا مُلتصِقةً به لم يتبدَّد سحرها في نفسي. ذات يوم، لفتت الآنسة ساليڤان انتباهي لكائنٍ غريب كانت قد أمسكت به وهو يتشمَّسُ فوق سطح الماء الضَّحل. كان ملِكَ السَّراطين، كان عظيم الحجم، وهو أوَّلُ ملك سراطين أراه في حياتي على الإطلاق. تحسَّستُه ووجدتُ أنَّه من الغريب أنَّ عليه حَمْلَ منزله فوق ظهره. خطرَ لي فجأةً أنَّه لربَّما يتغنَّجُ على نحوٍ لذيذ؛ لذا أمسكتُه من ذيله بكِلتا يديَّ وحملتُه معي إلى البيت. إنَّ ذلك العملَ البطوليَّ الذي قُمتُ به قد بعث في نفسي السرور على نحوٍ عظيم؛ فجسدُه كان ثقيلًا جدًّا، وقد استنفد مِنِّي كلَّ طاقتي أن أسحبه مسافة نصف ميل. لم أترك الآنسة ساليڤان في سلامٍ حتَّى وضعت السرطان في حوضٍ قُربَ البئر، حيث كنت على تمام الثِّقة أنَّه سوف يكون آمِنًا. لكن في اليوم التالي ذهبتُ إلى الحوض، ووجدتُ أنَّه، ويا للعجب، قد اختفى! لا أحد كان يعلم أين ذهب، أو كيف هرب. شعوري بالإحباط كان ثقيل الوطأةِ في ذلك الحين، لكن شيئًا فشيئًا؛ عَنَّ لي أن أدركَ أنَّه لم يكن من الطِّيبةِ أو الحكمةِ إجبارُ كائنٍ أَبْكَمَ مسكينٍ على أن يفارق عالَمَه، وبعد فترةٍ قصيرة أحسستُ بالفرحِ حين فكَّرتُ بأنَّه، ربَّما يكون قد عاد إلى البحر.

الفصل الحادي عشر

عُدتُ إلى بيتي الجنوبيِّ في الخريف وقلبي مُترعٌ بذكرياتٍ سعيدة. وعندما أتذكَّر زيارتي للشمال تلك؛ تغمرني الدَّهشةُ لتنوُّعِ وثراء التجارب التي اتَّفق أن تجمَّعَت وحدثت لي هناك. يبدو أنها كانت بدايةَ كلِّ شيء. كنوزُ عالمٍ جديدٍ بهيٍّ قد انطرحت تحت قدميَّ، وكنتُ أتلقَّى باطِّرادٍ معلوماتٍ ومُتعًا عند كل منعطَف. تماهيتُ بنفسي في كلِّ شيء. حياتي لم تعد تُمثِّلُ هَمَّ اللحظة الآنية؛ لقد كانت مليئةً بالحركة؛ كتلك الحشرات الصَّغيرة، تتجمَّعُ وتُشكِّلُ من ذواتِها كيانًا واحدًا في يومٍ قصير الأمد. قابلتُ عديدًا من البشر، كانوا يتحدَّثون إليَّ بأن يتلفَّظوا الكلمات في يدي، وفكرةٌ تتقافز في انسجامٍ بهيجٍ لتلتقي فكرَةً، وبعدها، انظُروا! لقد حدثت معجزة! تلك الأصقاع القاحلةُ التي كانت تحولُ بين عقلي وعقول الآخرين قد أزهَرَت وردًا.

قضيتُ أشهر الخريف برفقةِ عائلتي في كوخنا الصَّيفي، كان الكوخ يقعُ فوق جبلٍ، يفصله عن توسكامبيا حوالي أربعون ميلًا. كان المكان

يُسمَّى Quarry Fern (محجَر السرخس)؛ لأنَّه كان هناك بالقرب منه محْجَر لأحجار الكَلْس، كان محجرًا مهجورًا منذ زمنٍ بعيد. تجري خلاله ثلاثة جداولَ صغيرة آتية من ينابيع تتدفَّق بين الصخور في أعلى الجبل، وتتقافزُ ها هنا وتتعثَّرُ ها هناك في شلشالاتٍ تمرحُ أينما حاولت الصخور اعتراض سبيلها. كانت الفتحةُ مليئةً بالسَّراخس، والتي كانت تُغطِّي تمامًا مِهادَ حجارة الكلس في مواضع، وتُخفي الجداول في أخرى. كان الجزء المتبقِّي من الجبل تسيطر عليه الغابات بكثافة. فهنا أشجار السنديان العظيمة، يُشرِقُ كلُّ أخضرَ فيها بجذوعٍ بها دعائم تشبه الطَّحالب، من أغصانٍ تتشابك فيها أكاليل أشجار الكروم والدِّبْق وثمار الكاكا يتخلَّلُ شذاها كلَّ زاويةٍ ورُكنٍ بالغابة؛ إنَّه أريجٌ خلَّابٌ يجعل القلبَ يفيضُ بالسعادة. وفي مواضع يمتدُّ العنب المِسكيُّ البرّيّ وعنب سْكابيرنونج من شجرةٍ إلى شجرة، لتصنعَ ظُلِّيلاتٍ لطالما تعجُّ بالفراشات والحشرات الطَّنَّانة. لقد كان من المُبهِج أن نفقد ذواتِنا في التجاويف الخضراء الغائرة من تلك الغابةِ المتحابِكة في أواخر الظَّهيرة، وأن نتنسَّمَ الرَّوائح المنعشة الشَّهيَّة التي تهلُّ من الأرض عند أفول اليوم.[1]

كوخُنا كان مُخيَّمًا يَسِمُه شظفُ العيش نوعًا ما، يتموضعُ ببهاءٍ فوق قِمَّة الجبل بين أشجار السنديان وأشجار الصَّنوبَر. كانت حُجيراتُه تنتظمُ على كِلا الجانبين وتمتدُّ من فتحةِ صالة طويلة. يحيطُ بالبيت ساحةٌ فسيحة، حيث فيها تهبُّ من الجبل الرياحُ التي تعبقُ بكلِّ عطور الغابة. كُنَّا نقيمُ في فناء البيت معظم الوقت- هناك كنَّا نعمل، ونأكل ونلعب. عند الباب الخلفيِّ كانت تنتصبُ شجرةٌ كبيرة من جوز الأرمد، وحولها فصاعدًا قد شُيِّدَ الدَّرج، وفي الواجهة كانت تنتصبُ الأشجار على مقربةٍ جدًّا من البيت، لدرجة أنَّه كان في

(1) (الدبق): نبات طُفيلي. (عنب سْكابيرنونج): نوع من العنب في جنوب الولايات المتحدة، يغلب على لونه الأخضر والبرونزي. (المترجم)

استطاعتي أن ألمسها وأن أحسَّ بالرِّياح وهي تهزُّ أغصانها، أو بالأوراقِ وقد صارت مبرومةً ومائلةً نحو الأسفل حال هبَّةٍ من هواء الخريف.

كان يأتي إلى محجر السَّرْخَس العديد من الزَّائرين. في المساء، بجانب نار المخيَّم، كان الرجال يلعبون الورق ويقتلون الوقت في الحديث أو الرياضة. كانوا يروون حكاياتٍ عن مآثرهم المدهشة في اصطياد السَّمك والطيور وذواتِ الأربع- كَمْ من بطٍّ ودِيَكةٍ روميَّة قد اصطادوا، كَمْ من "تروتة متوحِّشة" قد اقتنصوا، وكَمْ ثعلبًا من أمكر الثَّعالب قد قتلوا، وكم قصُّوا من أثرٍ لأكثر كائنات الأُبوسُوم ذكاءً[1]، وتجاوَزوا أكثر الغزلان سرعةً، إلى أن صِرتُ أعتقد أنَّ الأسدَ والنَّمرَ والدُّبَّ وبقيَّةَ عشيرتهم من المفترسين لم يكن لهم بالتأكيد أن يتصدَّوا لهؤلاء الصَّيَّادين الماكرين. "إلى المطاردة غدًا!". كانت هذه هي الصَّيحةَ التي تعلنُ انتهاء المساء، بينما كانت تنفضُّ حلقةُ الأصدقاء المرِحين عند حلول الليل. كان الرجال ينامون في باحة البيت بالخارج، وكنتُ أتمكَّنُ من سماع الأنفاس العميقة للكلاب والصيَّادين وهم راقدون في أسرَّتِهم المرتجَلة.

كنتُ أستيقظُ في الفجر على رائحة القهوة، وعلى صلصلة البنادق، ووقع الأقدام الثقيلة للرجال الذين كانوا يفشخون الخُطى، يمنُّون أنفسهم بأعظم حظوظ الموسم. كنتُ أستطيع أن أستشعر وقع سنابك الخيل كذلك، تلك الخيل التي كانوا يركبونها من المدينة ويعقدون لجامها تحت الشَّجر، وهناك كانت تمكث طول الليل؛ تصهل في صخب، ولا تطيق الانتظار حتَّى يُطلَق لها العنان. وأخيرًا امتطى الرجال خيولهم، و -كما يقولون في الأغاني القديمة: بعيدًا ذهبت الجياد، تَطِنُّ أجراس لِجامها، والسياط تُطَقْطِق من فوقها، تتراكض

(1) الأُبوسوم، أو الفأر الجيبي أو الفأر الكيسي: حيوان ثديي، يُشبه الفأر، يستطيع أن يتظاهر بالموت عندما يحيط به خطر. (المترجم)

يتقدَّمهـم كلابُ الصَّيـد، وبعيـدًا ذهـب الصيَّـادون الأبطـال "بالصيـاح وبالهُتـاف الهـادِر، وبالنـداءات الجامحـة المسـعورة!".

لاحقًـا في الصبـاح أعددنـا لحفـلِ شِـواء. أُضرِمَـت نـارٌ في قعـر حفـرةٍ عميقـة في الأرض، وُضِعـت أعـواد الخشـب الكبـيرة مـن فـوق فتحـة الحفـرة عـلى نحـوٍ مسـتعرَض، وعُلِّـقَ منهـا اللحـمُ وبـدأت السَّـفافيد تُـدار. وحـول النـار تحلَّـق الزنـوج، يهشُّـون الحـشرات الطائـرة بعيـدًا عـن اللحـم بأغصـان الأشـجار. لقـد أثـارت رائحـةُ اللحـم المتبَّـل جوعـي طويـلًا قبـل أن تُمَـدَّ الموائـد.

عندمـا كان النَّشـاط الصَّاخـب وحـماس التجهيـز للمائـدة في أَوْجِـه، وقـد مثُلَـت مظاهـر حفـل الصيـد، كان الصيَّـادون يشـقُّون طريقهـم مثنـى وثُـلاث في صعوبـة، والرِّجـال متحمِّسـين ومترقِّبـين، والخيـل يعلـو أفواههـا الزَّبـد، وكلاب الصَّيـد المنهكَـة تركـض لاهثـةً وقـد وهـنَ منهـا العـزم- ومـا مـن قَنيـصٍ واحـد! زعـمَ كلُّ رجـلٍ أنَّـه قـد لمح ظبيًـا واحـدًا عـلى الأقـل، وأنَّ الحيـوان كان جِـدَّ دانٍ، ومهـما تابعـت الـكِلابُ المتحمِّسـة الُّلعبـة، مهـما كانـت البنـادقُ مصوَّبـةً خـير تصويـب، والأيـدي عـلى كبَّـاس الزِّنـاد؛ لم يكـن في مرمـى البَـصر غـزال. لقـد كانـوا محظوظـين مثـل حـظِّ الفتـى الصغـير، الـذي قـال إنَّـه رأى أرنبًـا عـلى مقربـة منـه- إنَّمـا هـو في الحقيقـة قـد رأى آثـار أقدامـه. رغـم ذلـك نـسِيَ الجَمـعُ خيبـة أملهـم، وجلسـنا، ليـس لِنَطْعَـمَ لحـمَ الطَّرائـد، إنمـا إلى مأدبـةٍ مـن لحـوم حيوانـاتٍ أكـثر ترويضًـا؛ مأدبـة مـن لحـم العجـل ولحـم الخنزيـر المشـويِّ.

ذات صَيـفٍ، صِرتُ أمتلِـكُ مُهـرًا في محجـر السرخـس. سَـمَّيتُه: الجميـل الأسـود؛ لأنَّنـي كنـتُ قـد قـرأتُ الروايـة لتـوِّي، وهـو يُطابـق سَـميَّه في كلِّ صِفاتـه؛ بَـدءًا مـن صوفِـه الأسـود اللامِـع، وحتَّـى النَّجمـة البيضـاء عـلى غُرَّتِـه. لقـد كنـتُ أقـضي أسـعدَ السَّـاعات وأنـا فـوق صهوتِـه. وبـين وقـتٍ وآخـر، عندمـا يكـون الجـوُّ آمنًـا؛ كانـت مُعلِّمتـي لتـترك لي الِّلجـام

للقيـادة، وكان الفـرس يمـشي الهوينـى، أو يتوقَّـف عـلى هـواه، كي يطعـمَ مـن الحشـائش أو يقضـم أوراق الأشـجار التـي تنمـو عـلى جانـب الممـشى الضَّيـق.

في الصباحـات التـي لم تكـن بي رغبـة لركـوب الخيـل، مُعلِّمَتـي وأنـا كُنَّـا لنبـدأ بعـد وجبـة الإفطـار نزهـةً وسـط الغابـات، ونـترك أنفسـنا نتـوه بـين الأشـجار والكَـرم، دونمـا طريـقٍ معيَّنـة نتبعُهـا- اللهـمَّ إلا المسـارات التـي كانـت تصنعهـا الأبقـار والأحصنـة. كُنَّـا نصـادف في طريقنـا أحيانًـا أدغـالًا يُتَعَـذَّرُ اجتيازهـا؛ فكانـت تجبرنـا عـلى اتِّخـاذ طريـقٍ ملتويـة. كنـا نعـود دومًـا إلى المخيَّـم حاملـين مِـلءَ أذرعتنـا مـن إكليـل الغـار، عصـا الذَّهـب، سراخِـسَ وأزهـار الـبَرَكِ البهيَّـة، مثـل تلـك التـي تنمـو في الجنـوب فحسـب.

كنـتُ لأذهـبُ أحيانًـا مـع ملـدرد وبعـض أبنـاء عمومتـي الصِّغـار كي نجمـع ثمـار فاكهـة الـكاكا. لم أكـن آكلهـا، لكنِّـي كنـتُ أحـبُّ أريجهـا، وكنـتُ أسـتمتعُ باقتناصِهـا مـن بـين الأوراق والـكلأ. كنَّـا نذهـب أيضًـا لجمـع الجـوز، وكنـتُ أسـاعدهم في فتـح ثمـار الكسـتناء ذات الحـواف المشـوِّكة وأكـسر قشـور الجوزيَّـة وحبَّـات عـين الجمـل- حبَّـات عـين الجمـل الكبـيرة اللذيـذة!

عنـد سـفح الجبـل، كان هنـاك خـط سِـكَّة حديديَّـة، وكان الأطفـال يشـاهدون القِطـار وهـو يمـرُّ مُحدِثًـا طنينـه. كنَّـا نسـمع أحيانًـا صفَّـارةً مرعبـة تجعلنـا نهـرع إلى الـدَّرَج، وقـد أخبرتنـي ملـدرد في لحظـاتٍ حماسـيَّةٍ عظيمـة سـبب هـذا، وهـو أنَّ بقـرة أو حصانًـا يكـون قـد شردَ عـن طريقـه إلى خـطِّ السِّـكَّة. عـلى بُعـد ميـلٍ تقريبًـا كان هنـاك جسرٌ يمتـدُّ فـوق مضيـقٍ بعيـدٌ غَـوره. كان مـن الصَّعـب أن نسـير فوقـه؛ فالمسـافة بـين قُضبـان الرَّبـط كانـت متباعِـدة، وبِنْيَتهـا كانـت نحيلـةً جـدًّا، لدرجـة أنَّ المـرءَ يشـعر كـما لـو كان يسـير فـوق سـكاكين. لم أكـن قـد عبرتـه إطلاقًـا،

إلى أن جاء يـومٌ تُهنا فيـه في الغابـات؛ ملـدرد والآنسـة ساليـڤـان وأنـا، هِمنـا لسـاعاتٍ دون أن نتوصَّـل إلى مسـار للعـودة.

أشـارت ملـدرد فجـأةً بيدهـا الصغـيرة وصرخـت: "الجِـسر هنـاك!". كنـا لنأخـذ أيَّ مسـارٍ إلَّا هـذا، لكـنَّ الوقـت كان قـد تأخَّـر، وبـدأ الظـلام يخيِّـم، والجِـسرُ كان طريقًـا مختـصَرَة إلى البيـت.كان عـليَّ أن أتحسَّـسَ القُضبـان بأصابـع أقدامـي، غـير أنَّنـي لم أكـن خائفـة، وواصلـتُ تقدُّمـي، إلى أن فجـأةً، تـراءى لنـا مـن عـلى بعـد مسـافةٍ "بفففـف... بفففـف" نَفـثُ دُخَـانٍ خافـت.

"إنَّنـي أرى القِطـار!"، صرخـت ملـدرد، دقيقـة أخـرى وكان سـيمرُّ فـوق أجسـادِنا إن لم نكـن قـد نزلنـا إلى الدعامـة المتصالِبـة أسـفل الجسر، بينـما كان هـو ينطلـق مسرعًـا فـوق رؤوسـنا. شـعرتُ بنَفْـثِ المحـرِّك السَّـاخن عـلى وجهـي، والدخـان ورمـاد الاحـتراق كادا يخنقانِنـا. بينـما كان القِطـار يدمـدم فوقنـا، كان الجِـسر يهتـزُّ ويتمايـل؛ حتـى ظننـتُ أنّنـا، ولا بُـدَّ، سـنُدفَع إلى الهـوَّة مـن تحتنـا. عُدنـا بصعوبـةٍ بالغـة إلى المسـار. وصلنـا المنـزل بعـد وقـتٍ طويـل مـن حلـول الظـلام، ووجدنـا المخيَّـمَ خاليًـا؛ فلقـد كان أفـراد العائلـة بأكملهـا يبحثـون عنَّـا.

الفصل الثاني عشر

بعد زيارتي الأولى لبوسطن، صرتُ أقضي كلَّ شتاءٍ تقريبًا في الشمال. ذات مرَّة ذهبتُ في زيارةٍ لقرية نيو إنغلاند، وشهدتُ بُحيراتها المتجمِّدة وحقولها الفسيحة المليئة بالجليد. حدث وقتئذٍ أن تسنَّت لي فُرصٌ لم أَفُزْ بمثلها أبدًا من قبل كي ألِجَ إلى كنوز الجليد.

إنِّي لأتذكَّرُ الدَّهشةَ التي اعترتني حال اكتشافي أنَّ يدًا خَفيَّة قد سلَخَت الأشجار والشُّجيرات، مُخلِّفةً ورقًا مغضَّنًا هُنا وهُناك. لقد رحلت الطيور، وأعشاشُها الخالية فوق الأشجار العارية قد امتلَأت بالجليد. آثارُ الشتاء كانت فوق التلال والحقول. بدَت الأرض وقد صارت خَدِرَةً جرَّاء لمستِه الجليديَّة، وأرواحُ الأشجار قد تراجعت إلى جَذورِها، وها هي معقودةٌ ومتحابكةٌ وسط الظلام، وسريعًا قد

غطَّت في النوم. بدا أنَّ كلَّ أشكال الحياة قد تقلَّصت وذوَت، وحتى عندما كانت الشمس تضيء؛ كان اليومُ:

ذاويًا وباردًا،

كما لو قد بلغ من أوردتها الوهنُ والكِبَر

كما لو كانت تشرقُ، وهي مُقعَدَة في محلِّها

وتلقي نظرةً أخيرة باهتة، على الأرضِ والبحر.

لقد تحوَّلَت الشُجيرات والعُشب الذَّاوي إلى غاباتٍ من الكُتل الثلجيَّة المُدلَّاة.

ثم حلَّ بعد ذلك يومٌ، كان الهواء البارد فيه يُنذرُ بهبوب عاصفةٍ ثلجيَّة. هرعنا خارج البيوت كي نلمس بواكير النُّدَف الثلجية الضئيلة القليلة المتساقطة. وساعةً فساعة، صارت النُّدف تسَّاقطُ بنعومةٍ، في سكون، من عليائها الهوائيِّ إلى الأرض، وصارت أرض الرِّيف منبسِطةً أكثر فأكثر. غيَّمت على العالم ليلةٌ ثلجيَّةٌ، وفي الصباح كان المرءُ بالكاد يتعرَّفُ معالِمَ الأرض. فجميعُ الطُّرق قد احتجبَت، ولم تكن ثُرى علامةٌ واحدة ظاهرة يُستَدَلُّ بها على الطريق؛ كان هناك بقايا جليدٍ فحسب، تنبثِقُ من قلبه الأشجار.

هبَّت في المساء رياحٌ قادمة من أقصى الشمال، وكانت نُدَفُ الثلج تندفع هنا وهناك في عراكٍ صاخب. وحول النَّار الكبيرة جلسنا وروينا حكاياتٍ ماتِعَة، وائتنسنا ونسينا تمامًا أنَّنا كُنَّا وسط عُزلةٍ مقفرة، مقطوعةٍ عن جميع أشكال التواصل مع العالم الخارجيِّ. لكن أثناء الليل اشتَدَّ غضب الريح لدرجة أنَّها أرعبتنا وتسبَّبت لنا بخوفٍ مبهَم. وكلَّما عربَدَت الرِّياح في أنحاء الريف صعودًا وهبوطًا، كانت روافد السَّقف الخشبيَّة تلتوي وتحدث صريرًا، وفروع الأشجار التي تحيطُ البيتَ كانت تتخابَطُ وتصطدم بالنَّوافذ.

في اليـوم الثالـث مـن بَـدء العاصفـة كَـفَّ هطـولُ الثلـوج. شـقَّت أشـعَّةُ الشـمس طريقهـا عـبر السُّـحب وأشرقَـت عـلى سـهلٍ متمـوِّجٍ أبيـضَ شاسـع. تكوَّمَـت روابٍ عاليـة وأشـكالٌ هرميَّـة في هيئـاتٍ فاتنـة، وكان ركام السَّـفي المنيـع يتـوزَّع في كلِّ اتِّجـاه.

شُـقَّت مسـاراتٌ ضيِّقـةٌ وسـط الـرُّكام. ارتديـتُ شَـملتي ووشـاحي وخرجـت. كان الهـواء يلسـع خـدَّيَّ مثـل النَّـار. بينـما كُنَّـا نمـشي بصعوبـةٍ في المسـارات، شـاقِّين طريقنـا بعـض الـشيء وسـط أكـثر الأكـوام المتراكمـة ضحالـةً؛ تمكَّنَّـا مـن بلـوغ أيكـة صنوبـر، تمامًـا خـارج حـدود مرعًـى فسـيح. كانـت الأشـجار تنتصـبُ بيضـاء دون حـراك، كـما الأشـكال التـي تكـون مـن الإفريـز داخـل البِـلي الرخامـيِّ. لم تكـن لأشـواك الصنوبـر رائحـة. كانـت أشـعَّةُ الشـمس تسـقطُ فـوق الأشـجار؛ لهـذا كانـت الغُصينـاتُ تتـلألأُ كالمـاس وتسَّـاقط في وابـلٍ حـال أن نلمسـها. كـم هـو جِـدُّ باهـر هـذا الضـوء؛ إنَّـه يختـرقُ حتّـى العتمـة التـي تَغـشى عَينـيَّ.

بينـما كانـت الأيَّـام تمـضي متثاقلـةً في خُطاهـا، كان رُكام الثلـوج يتقلَّـص تدريجيًّـا، غـير أنَّـه قبـل أن يتـلاشى تمامًـا هبَّـت عاصفـةٌ أخـرى؛ لـذا فـأكاد لم أشـعر بـالأرض مـن تحـت قدمـيَّ إلَّا مـرَّة وحيـدة طـوال فصـل الشـتاء. في الفـترات الفاصلـة بـين هبـوب العواصـف وانقضائهـا كانـت الأشـجار تتخلَّـص مـن غِطائهـا الجليـديِّ، وأعشـاب التِّيفـا والشُّـجيرات الدُّنيـا تكـون عاريـة، لكـنَّ البحـيرة كانـت تبقـى متجمِّـدة وصلبـة تحـت وطأة الشَّـمس.

سِـلوُنا المفضَّـل أثنـاء ذاك الصَّيـف كان التزحلُـق عـلى الجليـد. كان شـاطئُ البحـيرة يظهـرُ في أماكـن بشـكلٍ متقطِّـع متمايـزًا عـن حافَّـةِ المـاء. وسـط تلـك المنحـدرات الوعـرة اعتدنـا أن نبحـر بمحـاذاة السـاحل. كنَّـا نرتقـي زلَّاجتنـا، ويعطينـا أحـد الفتيـان الصِّغـار دَفعَـةً، ومـن المغـرز نكـون قـد خرجنـا! ونحـن نغطـس عـبر الـرُّكام، ونقفـزُ فـوق الحُفَـر، منطلِقـين بسرعـة فـوق سـطح البحـيرة، كُنَّـا لننطلِـق عـبر سَـطحها اللامـع إلى الضَّفَّـة

الأخـرى. يـا لهـا مـن متعـة! يـا لـه مـن جنـونٍ يُطـرِب! فللحظـةٍ جامحـةٍ سـعيدة تخلَّصنـا مـن قيودنـا الأرضيَّـة، وعندمـا كُنَّـا نوثِـق أيدينـا إلى الرِّيـاح، كنَّـا نشـعر بأنفسـنا وقـد صِرنـا سَـماويِّين!

الفصل الثالث عشر

حدث ذلك في الربيع من عام 1890 عندما تعلَّمتُ أن أتكلَّم. كانت الرَّغبةُ في أن أَفُوهَ بأصواتٍ مسموعة كامنةً بقوَّةٍ بداخلي. اعتدتُ أن أثير الضَّجيج؛ كنتُ أضعُ يدًا على حَلقي بينما اليدُ الأخرى كانت تتحسَّسُ حركاتِ شِفاهي. أكون مسرورةً بأيِّ شيءٍ يصنع ضجيجًا، وكان يروقني أن أشعرَ بخرخرةِ القِطِّ ونُباح الكلب. كان يروقُني أيضًا أن أضع يدي على حَلْقِ مُغَنٍّ، أو على بيانو حين كان يُعزَف عليه. قبل أن أفقد سَمعي وبصري، كنتُ سريعةَ التعلُّم للكلام، لكن بعد إصابتي بدائي تبيَّنَ أنِّي قد كففتُ عن الحديث؛ لأنَّني لم أكن أستطيع أن أسمع. اعتدتُ الجلوس في حضن أُمِّي طول اليوم، وأُبقي يديَّ على وجهها؛ لأنَّه كان يُسلِّيني أن أشعرَ بحركات شِفاهها، وكنتُ أُحرِّك شَفَتيَّ أيضًا- رغم أنَّني كنتُ قد نسيتُ ماهيَّةَ فِعل التكلُّم. يقول أصدقائي إنَّني كنتُ أضحكُ وأبكي بشكلٍ طبيعيٍّ، ولبعض الوقت

كنـتُ أصـدر أصواتًـا وعنـاصر مـن الكلـمات، ليـس لأنَّهـا كانـت وسـيلة للتواصـل؛ بَـلْ لأنَّ الحاجـة لتمريـن أعضـاء جهـازي الصـوتيِّ كانـت شـيئًا مفروضًـا. كلمـة واحـدة رغـم ذلـك، معناهـا مـا زلـتُ أذكُـرُه: مـاء. كنـتُ أنطِقُهـا "ما-مـا". حتَّـى هـذه قـد صـارت أقـلَّ وضوحًـا أكـثرَ فأكـثر، إلى أن جـاء الوقـت الـذي بـدأت فيـه الآنسـة ساليـڤـان تُعلِّمنـي. توقَّفـتُ عـن اسـتخدامها فقـط بعـد أن قـد تعلَّمـتُ أن ألفِـظَ الكلمـة عـلى أصابـع يـدي.

لقـد كنـتُ أعلـمُ لوقـتٍ طويـل أنَّ النـاس مـن حـولي يسـتخدمون وسيلةً للتواصـل تُبايِـنُ مـا أسـتخدمه، وحتَّـى قبـل أن أدرك أنَّ طِفـلًا أصـمَّ بإمكانـه أن يتعلَّـم الـكلام، كنـتُ عـلى وعـيٍ فِعـلًا بقصـور وسـائل التواصـل التـي كنـتُ أملِكُهـا. فالشـخص الـذي يعتمـد بالكُلِّيَّـة عـلى هجـاء الأصابـع يكـون دومًـا مَغلـولًا بنـوعٍ مـن القَيـد، بضيـق الأُفـق. كان ذلـك الشـعور يثـير فيَّ إحساسًـا بالنَّكَـد وبدَفـعٍ للأمـام لبلـوغِ إحسـاسٍ بنَقـصٍ يلـزمُ أن يُسـدَّ. كانـت أفـكاري في الغالـب تُحلِّـقُ وتـضرب بأجنحتهـا كـما تفعـل الطيـور في مواجهـة الرِّيـح، وكنـتُ أصرُّ عـلى اسـتخدام صـوتي وشَـفَتيَّ. حـاول بعـض الأصدقـاء إثنـائي عـن هـذا الجنـوح؛ كانـوا يخشـون أنَّ هـذا -في أقـلِّ الأحـوال سـوءًا- سـوف يقـودني إلى الإحبـاط. لكنِّـي أصرَرَتُ عـلى سـلوكي هـذا، وحدثـت وقتهـا مصادفـة أسـفرت عـن انهيـار هـذا العائـق: لقـد سـمِعتُ قِصَّـةَ راينِهالـد كاتـا.

في عـام 1890، السـيِّدة لامسـن؛ التـي كانـت إحـداى مُعلِّـمات لـورا بريدچـمَن، والتـي كانـت قـد عـادت لتوِّهـا مـن زيـارةٍ لــ نورواي وللسـويد، أتـت كي تـراني، وأخبَرَتنـي عـن راينهالـد كاتـا؛ فتـاة عميـاء وصـمَّاء في نورواي قـد عُلِّمَـت فِعـلًا أن تتكلَّـم. مـا كادت السـيِّدة لامسـن تنتهـي مـن إخبـاري بقصـة نجـاح هـذه الفتـاة حتَّـى صـار التَّـوقُ للـكلام فيَّ مشـتعِلًا. فلقـد اسـتنتجتُ أنَّنـي أنـا أيضًـا سـوف أتعلَّـم أن أتكلَّـم. ولم أكُـن لأرتـاح وأرضى حتَّـى أخذتنـي مُعلِّمتـي إلى الآنسـة سـاره فولـر؛ مديـرة مدرسـة هـوراس

مـانّ؛ لأجـل المسـاعدة والمشـورة. تلـك السَّـيِّدة الحَبُّوبـة، الحلـوة المعـشر، عرضـت أن تُعلِّمنـي بنفسـها، وبدأنـا هـذا في السـادس والعشريـن مـن مـارس، عـام 1890.

كانـت طريقـة الآنسـة فولـر في التعاليـم كالتـالي: كانـت تُمـرِّرُ يـدي على وجههـا بخِفَّـةٍ، وتجعلنـي أتحسَّـسُ وضـع لسـانها وشـفتيها عندمـا تُصـدِرُ صوتًـا. كنـتُ مُتَحمِّسـة لمحـاكاة كُلِّ حركـة، وتعلَّمـتُ في سـاعةٍ واحـدة سـتَّة أحـرُفٍ مـن حـروف الـكلام المنطـوق: M، P، A، S، T، I. أعطتنـي الآنسـة فولـر في المجمـل أحـدَ عـشرَ درسًـا. لـن أنـسى أبـدًا الدهشـةَ والبهجـة التـي أحسسـتُ بهـما عندمـا نطقـتُ جُملتـي الأولى التَّامَّـة: "إنَّ الجـوَّ دافِـئ". صحيـح أنَّ مقاطِعهـا كان مكـسَّرة ومُتَلجلِجـة، لكنَّهـا كانـت كلامًـا ذا صِفـةٍ بشريَّـة. أمَّـا روحـي، بعـد أن وَعَـت قُوَّتهـا الجديدة، انسـلَّت مـن قيـد العبوديَّـة، وعـبر تلـك الرُّمـوز المكـسَّرة مـن الحديـث، كانـت تبلُـغ كلَّ المعرفـة واليقـين.

لا طفـلَ أصـمَّ يحـاول جِدِّيًـا أن ينطِـق بالكلـمات التـي لم يكـن قـد سـمعها أبـدًا -كي يخـرج مـن سـجن الصَّمـت؛ حيـث لا نغمـةَ حُـبٍّ، لا شَـدو طَـير، لا صـوت نغَـمٍ ينفـذُ أبـدًا إلى هـذا السُّـكون- وبعـد أن يتمكّـن مـن فِعـل هـذا ينـسى تلـك الرعشـةَ التـي ترافـق الدهشـة، أو متعـةَ الاكتشـاف التـي حلَّـت عليـه حـين نطـق كلمتـه الأولى. مثـلُ هـذا الكائـن هـو وحـدُه مَـن باسـتطاعته أن يقـدِّر قيمـة اللهفـة التـي كنـت أتحـدَّثُ بهـا إلى دُمـاي، إلى الأحجـار، إلى الأشـجار، إلى الطيـور والحيوانـات الخرسـاء، ويقـدِّر البهجـة التـي أشـعر بهـا عندمـا تسـتجيب ملـدرد لندائي، وتجـري نحـوي، أو جِـرائي حـين تطيـع أوامـري. إنَّهـا لمِنَّـةٌ بالنسـبة لي لا توصَـف؛ أن أكـون قـادرةً عـلى التَّحـدُّثِ بكلـماتٍ ذات أجنحـة[1] لا تحتـاج إلى تفسـير.

(1) يتبـدَّى هنـا اسـتخدام هيلـين للكلـمات التـي تُحصِّلهـا مـن قراءاتهـا، كنـوع مـن التدريـب. يظهـر تعبير"الكلـمات المجنَّحـة" في أكـثر مـن وضـع مـن الكتـاب، وهـو تعبـير ربَّمـا اسـتعارته في غالـب الأحـوال مـن الإليـاذة، التـي كانـت متيَّمَـةً بهـا، حيـث يـورِده هومـيروس كثـيرًا عنـد تحدُّثـه

كـما قلـت؛ كان ثمَّـة أفـكارٌ سـعيدةٌ ترفـرف بأجنحتها وتخـرج مـن كلـماتي، ربمـا كانـت تلـك الكلـمات تجاهـد لتهـرب مـن أصابعـي دون طائـل.

لكـن ينبغـي أن لا يُفـترَض أنَّـه كان باسـتطاعتي التكلُّـم حقًّـا في تلـك المـدَّة القصـيرة. لقـد تعلَّمـتُ فقـط مبـادئ الـكلام. كان بإمـكان الآنسـة فولـر والآنسـة ساليـڤـان أن تَفْهَـماني، لكـنَّ أغلـبَ النّاس لم يكونـوا ليفهموا كلمـةً واحـد وسـط مائـة كلمـة مـن حديثـي. ولا صحيـحٌ كذلـك أنَّنـي بعـد أن تعلَّمـتُ تلـك المبـادئ أنجـزتُ بقيَّـة الــمَهَمَّةِ وحـدي. بـل لـولا عبقريَّـة الآنسـة ساليـڤـان، وإخلاصهـا ومثابرتهـا التـي لا تـكِلُّ؛ مـا كنـتُ أحـرزتُ تقدُّمًـا، وصـولًا إلى التحـدُّث بشـكلٍ طبيعـيٍّ بقـدر مـا فعلتُـه. أولًا، لقـد كنـتُ أجتهـد صبـاحَ مسـاء قبـل أن أتمكَّـن مـن جَعـل نفسـي مفهومـة- حتَّـى مـن جانـب أغلـب الأصدقـاء المقرَّبـين، ثانيًـا، أنـا كنـتُ في حاجـةٍ لعـون الآنسـة ساليـڤـان بشـكلٍ مسـتمرّ أثنـاء جهـودي المبذولـة؛ حتَّـى أفـوهَ كلَّ صـوتٍ عـلى نحـوٍ واضـح، وكي أجمـع كلَّ الأصـوات الصـادرة في ألـف وضـع. وإلى الآن، هـي تلفِـتُ انتباهـي يوميًّـا للكلـمات التـي لا أنطقهـا عـلى النحـو الصحيـح.

جميـع مُعلِّمـي الصُّـمِّ يدركـون مـا يعنيـه هـذا، وهـم وحدهـم عـلى الإطـلاق مَـن يسـتطيعون تقديـر الصعوبـات العجيبـة التـي تَعَـيَّن عـليَّ أن أُجابهها. أثنـاء قـراءة شـفتيَّ مُعلِّمتـي، كنـت أعتمـدُ كليَّـةً عـلى أصابـع يـدي: حيـث كان عـليَّ أن أسـتخدم حاسَّـة اللمـس كي ألتقِـطَ الاهتـزازات الحادثـة في الحلـق، وحـركات الفَـم وتعبـيرات الوجـه، وكانـت تلـك الحاسَّـة كثـيرًا مـا تكـون عـلى خطـأ. في تلـك الأحـوال، كنـت أُجـبَر عـلى ترديـد الكلـمات والجُمَـل، أحيانًـا لسـاعات، إلى أن أشـعر برنينهـا الصحيـح في صـوتي أنـا. كان عمـلي عبـارة عـن: تدريـب، تدريـب، تدريـب. كان الإحباط والسـأم بـين حـين وأخـرى يُثَبِّطـان عزيمتـي، لكـن في اللحظـة التاليـة لهـذا،

عن أحد أبطال الملحمة بقوله: "تحدّث بكلماتٍ مُجنَّحَة". (المترجِم)

لـدى التفكـير بأنَّنـي سـوف أكـون في البيـت عـمَّا قريـب وأُشـهِدُ أحبـابي علـى مـا قـد أنجزتُـه؛ كان ذلـك يسـتحثُّني ويدفعنـي للمـضي قُدمًـا، وكنـتُ أتشـوَّفُ بلهفـةٍ لإدخـال الـسرور عليهـم بإنجـازي.

"سـوف تفهمنـي الآن أختـي الصغـيرة"، كانـت تلـك فِكـرةً أقـوى مـن جميـع العقبـات. اعتـدتُ أن أُردِّدَ بوَجْـدٍ: "أنـا الآن لسـتُ خرسـاء". لم أسـتطع أن أكـون جَزِعَـةً بينـما أنـا أسـتبِقُ بهجـةَ التحـدُّث إلى أمـي وقـراءة ردودهـا عـبر شَـفتيها. لقـد أذهلنـي كـم هـو أسـهل أن أتحـدَّث عـلى أن أتهجَّـى الكلـمات عـبر الأصابـع، وقـد نبـذتُ مـن جانبـي هجـاء الأصابـع كوسـيط للتواصُـل، غـير أنَّ الآنسـة ساليـڤـان، وقليـلًا مـن الأصدقـاء، مـا زالـوا يسـتخدمون تلـك الطريقـة في التحـدُّث إليَّ؛ لكَونهـا مريحـةً أكـثر وأسرع مـن قـراءة الشِّـفاه.

إلى هنـا، ربَّمـا، مـن الأفضـل أن أشرح استخدامنا لهجـاء الأصابـع، وهـي الطريقـة التـي يبـدو أنَّهـا تُحـيِّرُ الأشـخاص الذيـن لا يعرفوننـا. الشـخص الـذي يقـرأ عـليَّ أو يتحـدَّثُ إليَّ يلفـظ كلامـه في يـديَّ؛ مسـتعينًا بحـروف الأبجديَّـة اليدويَّـة (هجـاء الأصابـع) المسـتخدَمة عمومًـا مـن قِبـل الصُّـمِّ عـن طريـق التواصـل بيـدٍ واحـدة. أضـعُ أنـا يـدي على يـد المتحـدِّث -بخِفَّة للغايـة؛ لئـلَّا أعـوق حركتهـا. عندهـا يسـهل استشـعارُ وضـع اليـد كأنـك تراهـا. أنـا لا أشـعر بـكلِّ حـرفٍ كـما تـرى أنـت كلَّ حـرفٍ بصـورة منفصلـة عندمـا تقـرأ. المـران المتواصـل يجعـل أصابـع اليـد أكـثر انسـيابيَّةً، وبعـضٌ مـن أصدقـائي يتلفَّظـون بكلامهـم بسرعـة- تمامًـا مثـل خبـيرٍ مُتمَـرِّس ينقـر عـلى آلـة كاتبـة. طبعًـا التلفُّـظ في حَـدِّ ذاتـه ليـس أكـثر مـن كونـه فِعـلًا واعيًـا عـمَّا هـو الحـال في عمليـة الكتابـة.

عندمـا حـدث وتكلَّمـت، لم أُطِـق صَـبرًا حتـى أعـودَ للبيـت. وأخـيرًا حان موعـدُ أعظـم اللحظـات السـعيدة. قُمـتُ برحلـة العـودة إلى البيـت، وكنـتُ أواصـل الـكلام مـع الآنسـة ساليـڤـان باسـتمرار، ليـس لأجـل التحـدُّث في

حـدِّ ذاتـه؛ إنَّمـا كي أتحسَّــن في كلامـي حتـى آخـر لحظـة. توقَّـف القِطـار في محطَّـة توسـكامبيا، تقريبًـا قبـل أن أدرك ذلـك، وعـلى الرصيـف، كانـت العائلـة بأكملهـا واقِفَـةً تنتظرنـا. إنَّ عينـيَّ الآن لتمتلِئـان بالدَّمـع حـين أتذكَّـر كيـف شَـدَّت عـليَّ أُمِّـي وأنـا في حضْنِهـا دون أن تنطـق بكلمـة، وهـي تنتفِـضُ مـن البهجـة منتبهـةً إلى كلِّ مقطـعٍ كنـتُ أنطِقـه، بينـما الصغيرة ملـدرد قبضـت عـلى يـدي الطَّليقـة تُقَبِّلهـا وأخـذت ترقـص، وأبان أبي عـن فَخـرِه وعاطفتِـه عـبر صمـتٍ مهيـب. لقـد كان الأمـر كـما لـو أنَّ نبـوءَةَ إشـعياء قـد تحقَّقَـتْ فيَّ، حيـث: "الْجِبَـالُ وَالآكَامُ تُشِـيدُ أَمَامَكُـمْ تَرَنُّمًـا، وَكُلُّ شَـجَرِ الْحَقْـلِ تُصَفِّـقُ بِالأَيَـادِي"[1].

(1) الآيـة مـن سِـفر إشـعياء (55): 11. هكَـذَا تَكُـونُ كَلِمَتِـي الَّتِـي تَخْرُجُ مِـنْ فَمِـي. لاَ تَرْجِـعُ إِلَيَّ فَارِغَـةً، بَـلْ تَعْمَـلُ مَـا سُرِرْتُ بِـهِ وَتَنْجَـحُ فِي مَـا أَرْسَـلْتُهَا لَـهُ. 12 لأَنَّكُـمْ بِفَـرَحٍ تَخْرُجُـونَ وَبِسَـلاَمٍ تُحْـضَرُونَ. الْجِبَـالُ وَالآكَامُ تُشِـيدُ أَمَامَكُـمْ تَرَنُّمًـا، وَكُلُّ شَـجَرِ الْحَقْـلِ تُصَفِّـقُ بِالأَيَـادِي. (المترجِـم)

الفصل الرابع عشر

شتاءُ 1892، عمَّتْه الظُّلمة؛ بفعل سحابةٍ واحدة بزغت في سماء طفولتي المشرقة. لقد أقْفَرَ قلبي من البهجة، ولوقتٍ طويلٍ طويل، عشتُ أصارع الشّكّ، القلق، والخوف. فَقَدَت الكُتبُ فِتنتَها في عيني، وحتَّى أنَّ التفكير الآن في تلك الأيام الكئيبة يجعل قلبي يرتجف فزعًا. قِصَّةٌ صغيرة اسمها "ملِك الصَّقيع"، كتبتُها وأرسلتُها إلى السيد أناجنوس، بمعهد بيركنس للمكفوفين، كانت هي أصل المشكلة. وحتَّى أوضِّح الأمر؛ لِزامٌ عليَّ أن أُبَيِّنَ الحقائق التي ترتبط بهذا الحدَث، والذي يفرضُه الإنصافُ على معلِّمتي وعليَّ أن أقُصَّه.

لقد كتبتُ القِصَّةَ عندما كنتُ موجودةً في البيت؛ في الخريف الذي تَبِع تعلُّمي الكلام. وقد مكثنا في "محجر السرخس" أطول من المعتاد. عندما كُنَّا هناك، كانت الآنسة ساليڤان قد وصفت لي أوراق الأشجار والنباتات في المكان السَّالف ذِكره، ويبدو أنَّ وُصوفاتِها قد أحيَتْ ذِكرى

قِصـةٍ مـا في ذاكـرتي، والتـي لا بـدَّ قـد قُرِئَـت عـليَّ، وأنَّنـي لا بُـدَّ قـد احتفظـتُ بتفاصيلهـا في ذاكـرتي. كنـتُ أظـنُّ وقتئـذٍ أنَّنـي "أؤلِّـفُ قِصَّـة" كـما يقـول الأطفـال، وجلسـتُ وكُلِّي شـوقٌ كي أسجِّلها كِتابـةً قبـل أن تفِـرَّ الأفـكارُ مِنِّـي. كانـت الأفـكار تتدفَّـقُ بسلاسـة، كنـتُ أشـعرُ بإحسـاسٍ مـن البهجـة في عمليـة الإنشـاء والتأليـف. كانـت الكلـماتُ والتشـبيهاتُ تأتينـي وهـي تمشي بخِفَّـةٍ إلى أطـراف أصابـع يـديَّ، وبينـما أنـا أدوِّنُ وأُفكِّـرُ في الجملـة تِلـو الجملـة، سَـوَّدتُها عـلى لـوح برايـل الـذي أمتلكـه. حاليًـا، حـين تأتينـي الكلـماتُ والصـور دون مجهـودٍ مِنِّـي، تكـون تلـك علامـةً ذات دلالـة أكيـدة عـلى أنَّهـا لا تنبـع مـن عقـلي ذاتـه؛ إنمـا هـي أفـكارٌ شـاردة تائِهـة أصرفهـا مـن عقـلي يملـؤني النَّـدم. كنـتُ في ذلـك الوقـت أتـشرَّبُ أيَّ شيءٍ أقـرَؤه دون الأخـذ في الاعتبـار مؤلِّفـه الأصـليّ، وأنـا الآن لا أسـتطيع حتَّـى أن أتبـيَّنَ بيقـينٍ الحـدَّ الفاصـلَ بـين أفـكاري أنـا وتلـك التـي أقـع عليهـا في الكُتـب. أحسـبُ أنَّ ذلـك لأنَّ الكثـيرَ مـن انطباعـاتي عـن الأمـور قـد تكوَّنـت لـديَّ عـبر وسـيطٍ هـو عيـون الآخريـن وآذانهـم.

حـين فرغـتُ مـن كِتابـة القِصَّـة، قرأتُهـا عـلى مُعلِّمتـي، وأتذكَّـرُ الآن بجَـلاءٍ النشـوةَ التـي كنـتُ أشـعر بهـا في المقاطـع الأكـثر جَـمالًا- وضيقـي عندمـا كنـتُ أُقاطَـع كي يُصحَّـحَ لي نُطـقُ إحـدى الكلـمات. قُرِئَـت القصَّـةُ عـلى العائلـة المجتمعـة عـلى طاولـة العَشـاء، وكانـوا مندهشـين بكـوني اسـتطعتُ الكِتابـةَ بمثـل هـذا الإتقـان. سـألني أحدهـم إن كنـتُ قـد قرأتُهـا قَبـلًا في كتـابٍ مـا.

لقـد أدهشـني كثـيراً هـذا السـؤال؛ فلـم يكـن لـديَّ ولـو ذِكـرى ضبابيّـة عـن كونهـا قـد قُرِئَـت عـليَّ مـن قَبـل. تكلَّمـتُ وقُلـت: "أوه، لا، إنَّهـا قِصَّتي أنـا، ولقـد كتبتُهـا لأجـل السـيد أناجنـوس".

ووفقًـا لهـذا استنسـختُ القِصَّـة وبعثـتُ بهـا إليـه بمناسـبة عيـد ميـلادِه. كان مـن المقـترَح أن أُغـيِّر العُنـوان مـن "أوراق الخريـف" ليصبـح:

"ملِك الصَّقيع"، وهو ما فعلتُه. حملتُ القِصَّة الصغيرة إلى مكتب البريد بنفسي، كنتُ أشعر كما لو أنِّي أسير على الهواء من الخِفَّة ومن الفرح. كم هو باهظٌ الثَّمن الذي كان عليَّ أن أدفعه عن هدية عيد الميلاد تلك، كان أمرًا لم أتصوَّره بأحلامي.

لقد ابتهجَ السيد أناجنوس بقصَّة "ملِك الصَّقيع"، ونشرها في أحد تقارير معهد بيركنس. كانت تلك هي ذروة برج سعادتي، والذي منه، بعد فترة قصيرةٍ هويتُ إلى الأرض. كنتُ في بوسطن لوقتٍ قصيرٍ فحسب عندما اكتُشِفَ أنَّ قِصَّةً مشابِهة لـ"ملِك الصَّقيع" تُسمَّى: "جِنُّ الصَّقيع" كتبتها الآنسة مارغرِت ت. كانباي، قد ظَهَرَت قبل أن أُولَدَ أنا في كتابٍ اسمه: "برِدِي وأصدقاؤه". كانت القِصَّتان متشابهتَيْن تمامًا في الفِكرة وفي اللغة، حتى غدا من المَقطوعِ به أنَّ قِصَّة الآنسة كانباي قد قُرِئت عليَّ، وأنَّ قِصَّتي كانت: سرقةً أدبيَّةً. كان من الصَّعب إفهامي هذا، لكن حين استوعبْتُ الأمر صِرتُ في كَمَدٍ وذهول. لا طفلَ قد تجرَّعَ أبدًا من كأس المرارةِ أكثر ممَّا قد فَعَلتُ. لقد ألحقتُ العار بنفسي، لقد جررتُ الشُّكوك على أولئك الذين قد أحبَبتُ. وبعدُ، كيف من الممكن أن يكون الأمر قد حدث؟ أجهدتُ عقلي لأتذكَّر؛ حتى صِرتُ في ريبةٍ من تذكُّر أيِّ شيءٍ عن "الصقيع" الذي قد قرأتُ عنه قبل أن كتبتُ "ملِك الصَّقيع"، غير أنِّي لم أتذكَّر أيَّ شيء، ما عدا إحالة دارِجة على چاك فروست، وقصيدة للأطفال "عجائب الصقيع"، وكنتُ أعرف أنَّني لم أستخدم ذلك في ما ألَّفت.

في بداية الأمر، السيد أناجنوس -رغم أنَّه انزعج بشدَّة- بدا أنه يُصدِّقني. لقد كان طيِّبًا وحنونًا عليَّ بشكلٍ استثنائيٍّ، ولفترةٍ قصيرة الأمد انقَشَعَت الظُّلمة. وكي أُبهجه حاولتُ ألَّا أكونَ تعيسةً، وأن أجعلَ نفسي أنيقةً بقدر الإمكان لأجل احتفاليَّة عيد الميلاد في واشنطن، والتي أُقيمَت بعد وقتٍ قصيرٍ من تلقِّيَّ النَّبأ المشؤوم.

كنتُ سأصبح مثل سيرس[1]: محتجبةً خلف قِناعٍ أعطتني إيَّاه الفتيات. كم أتذكَّرُ جليًّا ستائر الجوخ الفاخرة التي كانت تحيط بي، أوراق الخريف الباهرةِ التي كانت تكلِّلُ رأسي، والحبوب والفاكهة في يديَّ ومن تحت قدمَيَّ، وخلف مباهج الحفلة التنكُّريَّة، كان ثمَّة شعور ثقيل الوطأة، بأنِّي سوف أمرَض، جعل قلبي مُثْقَلًا بالكآبة.

في الليلة التي كانت قبل الاحتفال، سألتني مُعلِّمةٌ بمعهد بيركنس سؤالًا يتعلَّق بقضية "ملِك الصَّقيع"، وكنتُ أردُّ بأنَّ الآنسة ساليڤان كانت قد حدَّثتني عن چاك فروست وعن أعمالِه المدهشة. شيءٌ ما قُلتُه جعلها تظنُّ أنَّها وقعت على اعترافٍ ضِمنيٍّ من كلماتي، يفيد بأنَّني فعلًا كنتُ أعرف قصَّةَ الآنسة كانباي؛ "جِنُّ الصقيع"، وأبلَغَت استنتاجاتِها إلى السيد أناجنوس، رغم أنِّي قد أخبرتُها، مُشَدِّدَةً، بأقصى ما استطعت، أنَّها أقد أساءَتْ الفَهم.

السيد أناجنوس، الذي كان يحبُّني ويحنو عليَّ، ظانًّا أنَّه قد خُدِع؛ صَمَّ أُذنيه عن دفاعات المحبَّة والبراءة. لقد كان يؤمن -أو على الأقل، كان مُتَشكِّكًا- أنَّ الآنسة ساليڤان وأنا قد تعمَّدنا سرقةَ الأفكار النيِّرة من شخصٍ آخر، وأننا قد استغلَّينا ذلك بالحيلة كي نفوز بإعجابه. اسْتُدعِيتُ أمام لجنة التحقيق، كانت تتألَّفُ من مُعلِّميَّ والمسؤولين بالمعهد، وطُلب من الآنسة ساليڤان أن تتركني وتغادر. ثمَّ سُئِلتُ واستُجْوِبتُ تفصيليًّا، بما بدا لي أنَّه تصميمٌ من جانب القاضين في أمري، حتى يجبروني على الاعتراف بأنَّني أتذكَّرُ أنَّ قصة "جِنُّ الصقيع" قد قُرِأت عليَّ من قبل. مع كلِّ سؤال، كنتُ أستشعرُ التشكُّكَ والارتياب الذي كان يملأ عقولهم، وأحسستُ أيضًا، أنَّ صديقًا عزيزًا كان ينظر لي مُوبِّخًا، رغم أنَّني لم أستطع أن أصوغ كلَّ ذلك في كلمات. كان الدَّمُ يندفع بقوَّةٍ في قلبي الخافِق، وبالكاد لم أستطع أن أتحدَّث سوى

(1) إلهة الخصوبة والأمومة والمحاصيل في الأساطير الرومانية. (المترجم)

بكلماتٍ متقطِّعة. حتى وعيي بأنَّ ما حدث كان خطأً كريهًا لم يخفِّف من معاناتي، وحين سُمِحَ لي أخيراً بالانصراف من الحجرة، كنتُ في حالة ذهول، ولم أنتبِه لتربيتات مُعلِّمتي، ولا الكلمات المواسية من جانب أصدقائي، الذين قالوا إنَّني كنتُ فتاةً شجاعة، وأنَّهم فخورون بي.

عندما رقدتُ في سريري تلك الليلة، بكيتُ وأنا آمُل أنَّ قليلًا من الأطفال قد بكوا لبُكائي. أحسستُ ببرودةٍ شديدةٍ تسري في جسدي، كنتُ أتصوَّرُ أنَّني سوف أموت قبل طلوع الصبح، وتلك الفِكرةُ أراحَتني. أعتقدُ إن كان ذاك الحزن قد حلَّ بي وأنا أكبَرُ عُمرًا؛ لكان قد أصاب روحي بشَرخٍ، وبعدها يكون قد التأم. لكنَّ ملاكَ النِّسيان قد لملمَ أشتات الكثير من بؤس ومرارة تلك الأيَّام الكئيبة، وحملها إلى مكانٍ بعيد.

لم تسمع الآنسة ساليڤان أبدًا بقصَّة "جِنُّ الصقيع"، ولا بالكتاب الذي قد نُشِرَت فيه. بمساعدة الدكتور ألِكسندر غرهام بِلْ، قامت بالتحقُّق من الأمر بعناية، وتبيَّن في الأخير أنَّ السيِّدة صوفيا س. هوبكنز كان في حَوزتِها نسخة من كتاب الآنسة كانباي "برِدِي وأصدقاؤه" في عام 1888؛ وهي تلك السَّنة التي قضينا فيها الصيف معها في بريوستر. لم تستطع السيدة هوبكنز العثورَ على نُسختِها، لكنَّها قد أخبرتْني أنَّها في تلك الفترة، عندما كانت الآنسة ساليڤان ترحل لقضاء إجازة، كانت هي تُسلِّيني بأن تقرأ عليَّ من كُتبٍ مُتعَدِّدة، ورغم أنَّها لم تتمكَّن إطلاقًا أن تتذكَّر قراءتها لقصة "جِنّ الصقيع" أكثر منِّي، ومع ذلك، فهي تشعر أنَّها متأكِّدة أنَّ "برِدِي وأصدقاؤه" كان واحدًا من ضمن هذه الكتب. برَّرَت اختفاءَ الكِتاب من عندها بأنَّها قد باعت بيتها قبل وقتٍ قصير، وتخلَّصت من العديد من كُتب اليافعين؛ مثل كتب الدِّراسة القديمة والحكايات الخرافيَّة، وأنَّ "برِدِي وأصدقاؤه" ربما كان بين هذه الكتب.

كانـت القَصـص بالنسـبة لي وقتَئِـذٍ غـيرَ ذاتِ معنـى أو تـكاد، لكـنَّ مُجـرَّدَ تهجِّـي غريـبِ الكلـمات كان كافيًـا لتسـليةِ طفلـةٍ صغـيرة لم يكـن باسـتطاعتها تقريبًـا فعـلُ أيِّ شيء كي تُسـلِّي نفسـها، ورغـم أنَّنـي لا أذكُـر حدثًـا واحـدًا مـن الملابسـات المرتبطِـة بقـراءة القصـص، فلسـتُ أسـتطيعُ حتـى الآن الاعتقـاد بـأنِّي كنـتُ أبـذل مجهـودًا عظيـمًا كي أتذكَّـر الكلـمات، بقَصـدِ أن أجعـل مُعلِّمتـي تشرحهـا لي عندمـا تعـود. شيءٌ واحـدٌ مقطـوعٌ بيقينِـه؛ وهـو أنَّ الأسـلوب اللغـويَّ كان قـد انطبـع في ذهنـي عـلى نحـوٍ ليـس بالإمـكان مَحْـوه، وهـذا مـا لم يعرفْـه أحـدٌ لوقـتٍ طويـل- حتـى أنـا نفـسي عـلى الأقـل.

عندمـا عـادت الآنسـة ساليـڤـان، لم أتحـدَّث معهـا عـن "جِـنّ الصقيع"، ربَّمـا لأنَّهـا قـد شرعـت لَتَوِّهـا في قـراءة "اللـورد فونتلـيروي الصغـير" عـليَّ، وهـو مـا جعـلَ عقـلي مشـغولًا إلى حـدٍّ إقصـاءِ أيِّ شيءٍ آخـر. لكـن تظـلُّ الحقيقـةُ هـي أنَّ قِصَّـة الآنسـة كانبـاي قُرِئَـت عـليَّ ذاتَ مـرَّة، وبعـد وقـتٍ طويـل -بعـد أن كنـتُ قـد نسـيتُها- عاودتنـي القِصَّـةُ بصـورةٍ عفويّـة، فـما كنـتُ أشـكُّ وقتهـا إطلاقًـا أنَّهـا كانـت مـن بنـات أفـكار عقـل طِفـلٍ آخـر.

تلقَّيـتُ أثنـاء فـترة مِحنتـي الكثـيرَ مـن رسـائل المحبَّـة والتعاطـف. وصلتنـي رسـائل مـن جميـع الأصدقـاءِ الذيـن كنـتُ أحبُّهـم كثـيرًا، باسـتثناء شـخصٍ واحـد؛ بقـي هـو المفضَّـل لـديَّ إلى الآن. فالآنسـة كانبـاي نفسـها كتبـت لي بلُطـفٍ تقـول: "يومًـا مـا، سـوف تكتبـين قِصَّـةً عظيمـة مُبتكَـرَة مـن بنـات أفـكارك، ولسـوف يكـون ذلـك مُشـجِّعًا وعَونًـا للكثيريـن". لكـنَّ تلـك النبـوءةَ أبـدًا لم تتحقَّـق. لم أتلاعـب بالكلـمات مُجـدَّدًا لأجـل متعـة الَّلعِـب الخالصـة. في الحقيقـة، لقـد كنـتُ مُعذَّبـةً بالخـوف منـذ ذلـك الحـين؛ الخـوف مـن أن يكـون مـا أكتُبُـه ليـس لي. ولوقـتٍ طويـل، عندمـا كنـتُ أكتُـب خِطابًـا -خطابًـا حتـى إلى أُمِّـي- كان يسـتحوذ عـليَّ إحسـاسٌ مباغـتٌ بالذُّعـر، وكنـتُ أنطـق الجُمـلَ مِـرارًا وتَكـرارًا؛ كي أتثبَّـت أنَّنـي

لم أقرأها من قَبلُ في كِتابٍ ما. ولولا التشجيع المتواصل من جانب الآنسة ساليفان؛ أظنُّ أنِّي كنتُ لأتخلَّى كليَّةً عن محاولة الكِتابة.

لقد قرأتُ "جنّ الصَّقيع" بعدَئِذٍ، وقرأتُ كذلك الخِطابات التي كتبتُها واستعملتُ فيها أفكارًا تخصُّ الآنسة كانباي. وجدتُ في خِطابٍ منها -وهو أحد الخطابات الذي كان موجَّهًا إلى السيد أناجنوس- بتاريخ 29 سبتمبر، 1891، وجدتُ كلماتٍ وجُملًا مشابهةً تمامًا لتِلك التي في الكتاب. في الوقت الذي كنتُ أكتب فيه "ملِك الصَّقيع" وذاك الخِطاب، مِثلُ الكثيرِ من الخِطابات؛ كان يحوي جُملًا تُظهِرُ أنَّ عقلي كان مُتشبِّعًا بالقِصة. أتمثَّلُ مُعلِّمتي أمامي وهي تقول لي عن أوراق الخريف الذهبيَّة: "نعم، إنَّها جميلةٌ بما يكفي لجعلنا نشعر بالرَّاحة كي نستعدَّ لزيارة الصيف"- وهي فكرة صريحة موجودة في قِصة الآنسة كانباي.

تلك العادة -بشأن استيعاب ما يسرُّني وإعادةِ إنتاجِه في صورةٍ أخرى- كانت تتبدَّى في كثيرٍ من بواكير مُراسلاتي وفي محاولاتي الأولى للكتابة. في نصٍّ أنشأتُه، كتبتُ فيه عن المدن القديمة في إيطاليا واليونان؛ استعرتُ وُصُوفاتي اللامعة -مع إجراء تنويعات- من مصادرَ قد نسيتُها. كنتُ على دِرايةٍ بعِشق السَّيِّد أناجنوس لكلِّ ما هو عتيق، وبتقديره الحماسيِّ لكلِّ معالم اليونان وإيطاليا القديمة. وتَبعًا لذلك فقد جَمَّعتُ طَرفًا من جميع الكُتب التي قد قرأتُها؛ كلَّ قُصاصةٍ لقصيدة، أو حدثٍ تاريخيٍّ، ما ظننتُ أنَّه سوف يهبه البهجة. قال السَّيِّد أناجنوس، مُتحدِّثًا بشأن ما ألَّفتُه عن المدن: "إنَّ تلك الأفكار في جَوهرها إنما هي ذاتُ طبيعةٍ شاعريَّة". لكنِّي لستُ أفهم أبدًا كيف ظنَّ أنَّ باستطاعةِ طِفلةٍ عمياء وصمَّاء في الحادية عشرة من العمر أن تؤلِّف ذلك. وإلى الآن، لا أستطيعُ الاعتقاد بأنه، بسبب كوني لم أُنشِئ أفكارًا مُبتكَرَة، فإنَّ إنشائي القصير -تبعًا لهذا- يصيرُ أقلَّ عُرضة تمامًا لِلَفْتِ الانتباه. إنَّ ذلك ليُظهر لي أنَّه كان باستطاعتي الإفصاح

عـن تقديـري للأفـكار الجميلـة والشـاعريَّة باسـتخدامِ لُغـةٍ ناصعـةٍ مُفعَمـةٍ بالحيـاة.

مقاطعـي الإنشـائيَّة الأولى تلـك كانـت هـي التماريـن الذِّهنيـة بالنسـبة لي. فأنـا كنـتُ أتعلَّـمُ -كـما يتعلَّـمُ جميـع اليافعـين والأشـخاص عديمـو الخِـبرة- عـبر الاسـتيعابِ والمحـاكاة؛ كي أصـوغَ الأفـكار في كلـمات. كلُّ شيءٍ وقعـتُ عليـه في كتـابٍ أعجبنـي كنـتُ أحتفـظ بـه في ذاكـرتي، بوعـيٍ منِّـي أو دونمـا وعـي، وكنـتُ أقـوم بتعديلـه وأُعيـد صياغتـه. الكاتـب الشـاب - يقـول ستفِنسُـن- يحـاول بدَفـعٍ مـن غريزتـه استنسـاخَ مـا بـدا لـه أنَّـه يسـتحقُّ الإعجـاب، ثـمَّ يتبـدَّلُ الإعجـاب ويُصبِـح تفنُّنًـا مثـيراً للدهشـة. وبعـد سـنين مـن ذلـك النـوع مـن الممارسـة فحسـب، يتعلَّـمُ المـرءُ -حتَّـى الرِّجـال العُظـماء- قيـادةَ جيـشِ الكلـمات الـذي يتدفَّـقُ مـن كلِّ طريـقٍ مجهولـةٍ إلى سـاحة العقـل.

أخـشى أننـي لم أُتِـمَّ هـذه العمليَّـةَ بعـد. ليـس بإمـكاني يقينًـا تمييـز أفـكاري الذاتيَّـة مـن تلـك التـي قرأتُهـا؛ لأنَّ مـا أقـرؤه يصـيرُ النَّسـيجَ والمـادةَ الجوهـر لعقـلي. وبنـاءً عـلى هـذا؛ ففـي جُـلِّ مـا أكتُبُـه تقريبًـا، أُنتِـجُ شـيئًا هـو يشـبه كثـيراً جـدًّا القِطَـع الـمُرَقَّعة المجنونـة التـي اعتـدتُ صُنعهـا عندمـا كنـتُ في بواكـير تعلُّمـي للحياكـة. تلـك الـمُرقَّعات كانـت مصنوعـةً مـن جميـع أنـواع الأقمشـة؛ الكاملـة والقُصاصـات- مثـل قِطَـعٍ صغـيرة مـن الحريـر وقِطـعٍ مـن المخمـل، لكـنَّ القِطـعَ الخَشِـنَة التـي كانـت غـيرَ مُحبَّـبٍ لمسُـها دائمًـا مـا تسـودُ المنتـج النهـائي. كذلـك هـو الحـال مـع إنشـاءاتي الكِتابيَّـة؛ فهـي مصنوعـةٌ مـن أفـكارٍ خـام تنتمـي لي، مُرصَّعـة بالأفـكار الأكـثر تألُّقًـا، وبـالآراء الأكـثر نُضجًـا، التـي تعـود للمؤلِّفين الذيـن قـرأتُ لهـم. يُخيَّـلُ إليَّ أنَّ الصعوبـة العُظمـى لعمليـة الكِتابـة هـي جَعـل لغـة العقـل المتعلِّـم تعـبِّر عـن أفكارنـا المشوَّشـة، عـن مشـاعرنا الغـير الواضحـة، أفكارنـا النَّاقصـة، عندمـا لا نعـدو نحـن أن نكـون إلا حِزَمًـا مـن النزعـات الغريزيَّـة. محاولـة الكتابـة تُشـبه كثـيراً محاولـة حـلِّ أُحجيـةٍ

صينيَّة. فنحن لدينا نسقٌ ما داخل عُقولنا نأمل أن نتمثَّلَهُ ونُجسِّدَه في كلمات، لكنَّ الكلمات لن تملأ الفراغات، أو، إن فعلَت، فإنَّها لن تتماشى مع التَّصميم. لكنَّنا نواصل المحاولة لأنَّنا نعرف أنَّ آخرين قد نجحوا، ولسنا نشاءُ الاعتراف بالهزيمة.

"ما من سبيلٍ كي تكون كاتبًا مبدعًا؛ عدا أن تُولَدَ كذلك"، هكذا يقول ستفنسن، ورغم أنَّني لستُ كاتبةً مبدعة؛ أتمنَّى أن أشبَّ عن الطَّوق وأتجاوز تأليفاتي المصطنَعة المستعارَة. عندئذٍ، ربَّما، أفكاري الذَّاتيَّة وتجاربي، سوف تظهر للعيان. أمَّا في الوقت الحالي فأنا أثِقُ وأتمنَّى وأثابر، وأجاهد ألَّا أَدَعَ ذكرى "ملك الصقيع" المريرة تعوق جهودي.

لذا فهذه التجربة المأساويَّة لربَّما كانت ذات نفعٍ لي، وربَّما تحثُّني على التفكير في بعض إشكاليَّات التأليف. ندمي الوحيد هو أنَّها تسبَّبت بخسارتي واحدًا من أعَزّ أصدقائي؛ السَّيِّد أناجنوس.

وقتَ نشر "قِصة حياتي" في مجلة Ladies' Home Journal، كتبَ السَّيِّد أناجنوس تصريحًا، في خِطابٍ له إلى السَّيِّد ماسي، أنَّه في الفترة التي استغرقتها قضيَّة "ملك الصقيع"، كان يؤمن أنَّني بريئة. ويقول، إنَّ لجنة التحقيق التي مَثُلْتُ أمامها كانت تتألَّف من ثمانية أشخاص: أربعة من المكفوفين، وأربعة من غير المكفوفين. ويقول، إنَّ أربعةً منهم كانوا يعتقدون أنَّني كنتُ أعرفُ أنَّ قِصة الآنسة كانباي قد قُرِئَت عليَّ من قَبل، والآخرين لم يتبنَّوا هذه الرؤية. صرَّح السَّيِّد أناجنوس بأنَّه أعطى صوته لهؤلاء الذي كانوا في صَفِّي.

لكن، رغمَ أنَّ القضية قد كانت لأيٍّ من الجانبَيْن ينبغي عليه أن يصوِّت، عندما ولجتُ الحجرة التي لطالما كان السَّيِّد أناجنوس يُجلسُني فيها على حِجرِه، حيث كان يشاركني مَسرَّاتي، مُتناسيًا أمرَ الكثير ممَّا يشغَلُه، وعندما وجدتُ أنَّ بالمكان أشخاص بدا أنَّهم

يشُكُّون فيَّ، شعرتُ أنَّ شيئًا عدائيًّا ومتوعِّدًا يشيعُ في الأجواء، وقد ولَّدَت هذا الانطباعَ أحداثٌ لاحقة. كان يبدو طوال سنتين، أنَّه يضمرُ اعتقادًا بأنَّ الآنسة ساليڤان وأنا كُنَّا أبرياء. ثم تراجع على نحوٍ بَيِّن عن حُكمِه المُؤيِّد، لماذا؟ لستُ أعلم. ولا حتَّى أعلمُ تفاصيل دواخِل التحقيق. لم أعرف أبدًا أسماء أعضاء "المحكمة" الذين لم يتحدَّثوا معي. لقد كنتُ وقتها جِدّ متأهِّبَةٍ لملاحظة أيِّ شيء، جِدّ مرتَعِبَةٍ من أن أطرح أسئلة. في الواقع، كنتُ أستطيعُ بالكاد التفكير فيما أقول، أو فيما كان يُقالُ لي.

لقد فَصَّلتُ بيانَ قضيةِ "ملِك الصَّقيع" لأنَّها كانت حدثًا هامًّا بالنسبة لحياتي ولمرحلة تعليمي، وكذلك لِئلَّا يحصل التباس؛ فقد استعرَضتُ كلَّ الحقائق كما تتراءى لي، دون اعتبارٍ للذَّودِ عن نفسي أو إلقاء اللوم على أيِّ شخص.

مكتبة
t.me/soramnqraa

الفصل الخامس عشر

قضيتُ فصلَيْ الصيف والرَّبيع اللذين تَبِعا واقِعة "ملِك الصَّقيع" بصحبة عائلتي في ألاباما. إنَّني لأذكُر -وكُلِّي بهجة- رحلة عودتي إلى بيتي تِلك. كلُّ شيءٍ كان ناضِجًا ومُزهِرًا. كنتُ سعيدة. فحكاية "ملِك الصَّقيع" صارت طيَّ النسيان.

عندما صارت الأرض مكسوَّةً بأوراق الخريف القُرمزيَّة والذَّهبيَّة، والعِنَبُ مِسْكِيٌّ الأريج الذي يغطِّي التعريشة الواقعة في نهاية الحديقة بالبيت، كان يستحيل لَونُه إلى البُنِّيِّ المذهَّب في أشعة الشمس؛ بدأتُ كِتابة مُسوَّدَةٍ عن قِصة حياتي- كان ذلك بعد عامٍ من كِتابتي "ملِك الصَّقيع".

كنتُ ما أزالُ شديدةَ التَّفحُّص والوسوسةِ بصورةٍ مُبالَغٍ فيها بشأن كلِّ ما أكتُبه. فكرةُ أن يكون ما أكتُبه ربَّما لا ينتمي لي مُطلقًا كانت تُعذِّبني. لا أحد كان على عِلمٍ بتلك المخاوِف إلَّا مُعلِّمتي. حساسيةٌ

غريبـةٌ حالـت دون أن أشـير لواقعـة "مِلِـك الصَّقيـع"، وعندمـا كانـت تلمَـعُ بذهنـي فكـرةٌ عـلى نحـوٍ مفاجِـئ أثنـاء سـير مُحادثـة، فغالبًـا مـا كنـت أتلفَّـظُ بهـا برَويَّـةٍ إليهـا وأقـول: "لسـتُ متأكِّـدةً أنَّهـا فكـرتي أنـا". في أحيـانٍ أُخـرى، أثنـاء تدوينـي لقِطعـةٍ كتابيَّـة، كنـتُ أحـادِث نفـسي "تخيَّـلي لـو كان ذلـك قـد كُتِـب بقلـم أحدِهـم منـذ وقـتٍ بعيـد!". خَـوفٌ شـيطانيٌّ كان يسـتحوذ عـلى عقـلي؛ وعندهـا لا يكـون باسـتطاعتي كتابـة المزيـد في ذاك اليـوم. إنَّنـي أشـعرُ إلى الآن أحيانًـا بـذاتِ العُـسر، وأُعايـش نفـس حالـة القلـق. كانـت الآنسـة ساليـڤـان تُسـاعدني وتُـسرِّي عنِّـي بـكلِّ طريقـةٍ اسـتطاعت أن تتدبَّرهـا، لكـنَّ التجربـة الرهيبـة التـي قـد مَـرَرتُ بهـا خَلَّفَـت في ذِهنـي انطباعًـا دائمًـا؛ دلالاتُـه هـي مـا بـدأتُ أفهمـهُ لتـوِّي. كان بدافـع الأمـل في اسـتعادتي الثِّقـة بالنَّفـس أن أقنَعَتنـي بالكتابـةِ لمجلَّـة Youth's Companion سَردًا مُختصـرًا عـن حيـاتي. كنـتُ وقتئـذٍ في الثانيـة عـشرة مـن العمـر. عندمـا أعـودُ بذاكـرتي وأُلقـي نظـرةً عـلى حالـة الـصراع الـذي كان يعتمـل في نفـسي كي أكتـب تلـك القصـة الصغـيرة؛ يـتراءى لي أنَّنـي ولا بـدَّ كان لـديَّ اسـتشرافٌ ذو طَبيعـةٍ تنبُّئِيَّـة، للخـير الـذي كان ليـأتي نِتـاج اضطلاعـي بتـك المهمَّـة- وإلَّا لكنـتُ يقينًـا قـد أخفقـت.

كنـتُ أكتـبُ عـلى اسـتحياء، يلمـؤني الخـوف، لكنِّـي كنـتُ موطَّـدةَ العَـزم، مَدفوعـةً بتشـجيعِ مُعلِّمتـي التـي كانـت تُـدرِكُ أنَّنـي إن ثابَـرتُ؛ فلسـوف أتبـيَّنُ موقعـي العقـليَّ الـمَكين مُجـدَّدًا، وأُمسِـكَ بزمـام قُـدراتي. حتَّـى أثنـاء فـترة واقعـة "مِلِـك الصَّقيـع"، كنـتُ أعيـش الحيـاة الغـير الواعيـة لطِفـلٍ صغـير، تحوَّلَـت أفـكاري الآن إلى النَّظَـر نحـو الداخـل، وكنـتُ أشـهدُ الأشـياء وقـد صـارت مرئيَّـةً. خرجـتُ، تدريجيًّـا، مـن غَبَـش تلـك التجربـة بذهـنٍ أكـثر صفـاءً، بفِعـل المحاولـة، ونتـاج معرفـةٍ أكـثر واقعيَّـةٍ بالحيـاة.

الأحـداث الأبـرز في عـام 1893 كانـت: رحلتـي إلى واشـنطن أثنـاء مراسـم تنصيـب الرئيـس كليڤـلاند، وزيـارتي لنياغـرا، وللمعـرض العالمـي. ونظـرًا إلى هـذه الظـروف فقـط كانـت دراسـتي تنقطـع دومًـا، وكنـتُ

أُنحِّيها جانبًا في الغالب لعدَّة أسابيع؛ لذا كان من المستحيل أن ألتفِت للدراسة بانتباهٍ لا ينقطع.

ذهبنا إلى نياغرا في مارس، 1893. من الصَّعب أن أصِفَ أحاسيسي عندما وقفتُ عند البقعة التي تُشرف على الشَّلَّالات الأميركيَّة وأنا أشعر بالهواء يتذبذبُ من حولي والأرض من تحت قدميَّ تهتَز.

يبدو أنَّه من الغريب بالنسبة لكثيرٍ من الناس أنَّني قد تأثَّرتُ بفِعل عجائب وجمال نياغرا. إنَّهم يسألونني دومًا: "ما الذي يعنيه هذا الجمال أو تلك الموسيقى بالنسبة لكِ؟ أنتِ لا تستطيعين رؤية الأمواج التي تبلغ الشاطئ وتتراكم عليه أو تسمعي هديرها. ما الذي تعنيه بالنسبة لكِ؟"، هي على أحسن تقدير تعني لي كلَّ شيء. أنا لا أستطيعُ سَبْرَ غورها ولا تحديد معناها أكثر مما بإمكاني فَهم أو تعريف المحبَّة أو الدِّين أو الحُسن.

أثناء صيف 1893، الآنسة ساليڤان وأنا زُرنا المعرض العالمي رفقة الدكتور ألكسندر غرهام بل. إنِّي لأذكُر ببهجةٍ خالصةٍ تلك الأيَّامَ التي فيها صارت آلاف الخيالات الطُّفوليَّةُ حقائقَ جميلةً واقعة. كلَّ يومٍ يمرُّ في خيالي كنت أقوم فيه برحلةٍ حول العالم، ورأيتُ الكثير من العجائب من أقصى بقاع الأرض: عجائب الاختراعات، ثروات الصناعة والبراعة، وجميع مظاهر أنشطة الحياة الإنسانية- كانت تمرُّ حقيقةً من تحت أطراف أصابعي.

أحببتُ أن أزور Midway Plaisance. كان يبدو لي كما في حكايات "ألف ليلة وليلة"؛ مكتظًّا بكثيرٍ من الأشياء المبتكرة وبما يثير الاهتمام. فيه كانت الهند كما تُصوِّرها كُتبي؛ بدكاكينِها الغامضة وتماثيل شيڤا والآلهة التي على شكل فِيَلَةٍ، هُناك كانت أرض الأهرامات تتوسَّطُ مُجسَّمًا للقاهرة، بمساجدها، بمواكِبها الطويلة من الجِمال، وهنالك كانت أهوار مدينة البندقيَّة؛ حيث كنا نبحر كلَّ مساء عندما تكون

المدينـة ونوافيرهـا المائيـة مضيئـةً. ذهبـتُ كذلـك عـلى مـتن إحـدى سـفن الـڤـايكنج التـي ترسـو عـلى بُعْـدِ مسـافةٍ قصـيرة مـن المركـب الصغـير. لقد ركبـتُ مـن قبـل سـفينة حربيَّـةً، في بوسـطن، شـهدتُ كيـف كان النـوتي هـو الـكلُّ في الـكلِّ- لقـد كان يُبحِـر وهـو يُواجـه وقـت الهـدوء ووقـت هبـوب العاصفـة عـلى حـدٍّ سـواء، غـيرَ هيَّـاب، ويُلاحـق أيًّـا مَـن كان وهـو يُـردِّدُ صيحتـه: "إنَّنـا مـن البحـر!"، ويُقاتـل بقـوة العقـل وبـأس العضـلات، مُعـوِّلًا عـلى نَفسـه، مُكتفيًـا بذاتِـه، عِوضًـا عـن أن يكـون محشـورًا متواريًـا خلـف ماكينـةٍ غـير عاقلـة، كالتـي تُـدار اليـوم بقابِـسٍ؛ لـذا "فالبَـشَريُّ وحـده يسـتثير اهتمامَـه بـشريٌّ مثلـه" عـلى الـدَّوام.

عـلى بُعـد مسـافةٍ قصـيرة مـن السـفينة كان هنـاك مُجسَّـم لسـانتا ماريـا، وقـد تفحَّصتُـه كذلـك. أراني القُبطـانُ قُمـرة كولمبـوس والمكتـب الـذي تنتصـبُ فوقـه سـاعةٌ رمليَّـةٌ. لقـد أثَّـرَت فيَّ هـذه الآلـة الصغـيرة؛ حيـث جعلتنـي أفكِّـر كـم هـو غريـب ذلـك الـذي لا بُـدَّ كان يشـعر بـه الملَّاح البطـل وهـو يُطالِـع الرمـل يسَّـاقَطُ.. حبـَّةً.. حَبَّـة، بينـما اليائسـون مـن الرجـال كانـوا يدبِّـرون المكائـد كي يتخلَّصـوا منـه.

تكـرَّمَ السَّـيد هيغينبوثـام؛ رئيـس المعرض العالمـيِّ، ومنحَنـي الإذْنَ بلمس المعروضـات، وبِنَهَـمٍ لا يشـبع -كـما كان هـو الحـال مـع پـيثارُّو[1] حينـما اسـتولى عـلى كنـوز پـيرو- كنـتُ أضـمُّ إليَّ بأصابعـي مفاخِـر المعـرِض. لقـد كان ذلـك يشـبه عـلى نحـوٍ مـا مِشـكالًا[2] حقيقيًّـا، هكـذا كانـت تبـدو تلـك المدينـة الغربيَّـة البيضـاء. لقـد فتننـي كلُّ شيء، خاصَّـةً التماثيـل الفرنسـية المصنوعـة مـن البرونـز. كانـت جِـدَّ نابِضَـةٍ بالحيـاة، لقـد ظننـتُ أنَّهـا كانـت رؤًى ملائِكيَّـةً قَبَـضَ عليهـا الفنَّانـون وقيَّدوهـا إلى أشـكالٍ أرضيَّـة.

---

(1) Francisco Pizarro فرانثيسـكو پـيثارّو: قائـد إسـباني، أنشـأ مدينـة ليـما، عاصمـة دولـة بـيرو حاليًـا، قُتِـلَ ودُفِـن فيهـا. (المترجـم)

(2) المِشـكال (كليدوسـكوب): أداة عندمـا تتغـير أوضاعهـا تعكـس مجموعـة لا نهايـة لهـا مـن الأشـكال الهندسـية مختلفـة الألـوان. (المترجـم)

من معروضة مجسَّم رأس الرجاء الصالح تعلَّمتُ الكثير عن عمليّات التنقيب عن الماس. متى ما كان الأمر مُمكِنًا؛ كنتُ أتحسَّسُ الآلة وهي دائرة، كي أستكنِهُ فكرةً أكثر وُضوحًا عن كيف تُكَيَّلُ الأحجار، وتُقطَّع، وتُصقَل. لقد بحثتُ في ماء الغسل عن ماسةٍ ووقعتُ بنفسي على واحدةٍ، كانت كما يقولون: هي الماسة الحقيقيَّة الوحيدة التي عُثِرَ عليها في الولايات المتحدة.

طاف معنا دكتور بِلْ كلَّ مكان، وبطريقته المرِحة التي تُمَيِّزه، كان يصف لنا أكثرَ الأشياء أهميَّةً. في مبنى الكهرباء تفحَّصنا التليفونات، وأجهزة الأوتوفون، والفونوغرافات، واختراعاتٍ أُخرى، وجعلني أستوعب كيف هو ممكنٌ أن يُرسل المرء رسالة عبر الأسلاك التي تتحدَّى المسافات وتتجاوز الزمن، و -كما بروميثيوس- تنتزع النَّارَ من السَّماء. نحن زُرنا أيضًا قِسم الأنثروبولوجيا، وأكثر ما أثار اهتمامي هي وثائق المكسيك القديمة، حيث الأدوات الحجريَّة البِدائيَّة التي كانت في الغالب هي الشَّاهد الأوحد على عصرٍ ما- إنَّها الآثار البسيطة بالنسبة لأطفالِ الطبيعة الأُمِّيِّين (هذا ما خطر ببالي وأنا ألمسها بأصابعي) تلك التي كانت ترتبط باللحظة الأخيرة لشواهد الملوك والحُكَماء تتفتَّت وذَرَتْها الرياح- والمومياوات المِصريّة، التي كنتُ أجفل وأنقبضُ حال لمسِها. تعلَّمتُ من تلك الشَّواهد مزيدًا عن تطوُّرِ الإنسان أكثر مما قد سَمِعتُه قَبلًا أو قرأتُه.

إنَّ كلَّ تِلك الخِبرات قد أضافت إلى مُفرداتي الُّلغويَّة قَدرًا عظيمًا من المصطلحات، وخلال الأسابيع الثلاثة تلك، التي قضيتُها في المعرِض، تحوَّلتُ عبر قفزةٍ طويلةٍ؛ من اهتمام الطِّفل المتواضع بالحكايات الخرافيَّة والألعاب، إلى تقديرِ ما هو حقيقيٌّ وجِدِّيٌّ في عالم الحياة اليوميَّة.

الفصل السّادس عشر

قبـل أكتوبـر عـام 1893، كنـتُ قـد درسـتُ العديـد من المـواد الدِّراسـيَّة بمجهـودٍ فـرديٍّ بأسـلوبٍ غـير منهجـيٍّ بعـض الـشيء. طالعـتُ تاريـخ اليونـان وروما، وتاريخ الولايات المتحـدة. كان عنـدي كتـاب قواعِـدَ لِلُغَـةِ الفرنسـية مطبـوعٌ برَسـمٍ بـارز، ولأنَّنـي بالفعـل كنـت عـلى علـمٍ بقليـل مـن الفرنسـيَّة؛ كنـتُ غالبًـا أُسـلِّي نفسي أحيانًـا وأمـارس في رأسي تمريناتٍ قصيرة، مُستخدِمةً الكلـمات الجديـدة كلَّـما صادفتُهـا، ومُتجاهِلَـةً القواعـد قـدر الإمـكان وفنِّيَّـاتٍ أُخـرى. أنـا حاولـتُ حتَّـى -دون مساعدة- أن أُتقِـنَ النُّطْـقَ الفرنـسيَّ؛ فقـد وجـدتُ جميـع الحـروف والأصـوات موصوفـةً في الكتـاب. كان ذلـك بالطَّبـع يسـتهدفُ القـدرات الضعيفـة لأجـل أن تقـوى، غـير أنَّ القيـام بهـذا قـد وهبنـي شـيئًا مـا لأشـغل بـه نفسي في الأيَّـام المطـيرة، واكتسـبتُ مـا يكفـي مـن معرفـة الفرنسـيَّة مـا يجعلنـي

أقرأ بمُتعةٍ حكايات لافونتين الخرافيَّة الرمزيَّة، و"طبيب رغم أنفه"، ومقاطِع من مسرحيَّة "أثاليه".

لقد صرفتُ كذلك وقتًا لأجل التحسين من قدرتي على الكلام. كنتُ أقرأُ بصوتٍ مرتفعٍ على الآنسة ساليڤان، وأتلو عليها مقاطِع لشُعرائي المفضَّلين الذين كنتُ أحفظُ قصائد لهم في ذاكرتي، وكانت هي تُصحِّحُ لي نُطقي وتساعدني في صياغة الجمل وفي تصريف الأفعال. رغم ذلك، لم يحدث أن بدأتُ أتلقَّى دروسًا في مُقرَّرات دراسيَّةٍ بعينها في ساعاتٍ ثابتة، إلَّا في شهر أكتوبر من عام 1893؛ بعد أن استعدتُ حماسي وتعافيتُ من إرهاق زيارتي للمعرض العالمي.

الآنسة ساليڤان وأنا كُنَّا في هالتون، بپنسِلڤانيا في ذلك الوقت؛ نزور عائلة السيد وليام وايد. السيد أيرونز -وهو جارٌ لهم- كان معلِّمًا جيدًا للغة اللاتينيَّة؛ وقد أفضى الأمر بأنَّه ينبغي أن أدرس تحت إشرافه. إنِّي لأتذكَّره كرجلٍ حلو المعشر ذي طبيعةٍ نادرة وواسع التجربة. دَرَّسَني أُسسَ قواعد اللغة اللاتينيَّة، لكنَّه كثيراً ما كان يُساعدني في الحساب- وهي التي وجدتُ أنَّها مادةً شاقَّة، بقدر ما هي مملَّة. تدارس معي السيد أيرونز أيضًا قصيدة تينيسن (1)In Memoriam (تخليدٌ للذِكرى). لقد قرأتُ الكثير من الكُتب قبلاً، لكن لم أقرأ مُطلقًا كُتبًا تتناول الأمور من وجهة نظرٍ نقديَّة. تعلَّمتُ -وللمرَّة الأولى- كيف أفهم الكاتب، كيف أتعرَّف أسلوبه كما أتعرَّفُ قبضةَ يدِ صديق.

كنتُ في بداية الأمر لا أشاء بالأحرى أن أدرس قواعد اللاتينيَّة. لقد بدا لي أنَّه لمن العَبَث أن أضيع الوقت في تحليل كلِّ كلمةٍ أصادفها في طريقي: اسم، مُضاف إليه، مُفرَد، مُؤنَّث- بينما معناها بالنسبة

---

(1) In Memoriam A.H.H "تخليدٌ لذكرى آرثر هنري هالَّم": هي قصيدة كتبها الشاعر البريطاني ألفرد تِنيسون كمرثيَّةٍ لصديقه آرثر هالَّم. (المترجم)

لي جـليٌّ عـلى نحـوٍ تـام. لقـد ظننـتُ أنَّ عـليَّ ربَّمـا أن أصِـف كذلـك حيـواني الأليـف لأجـل أن أتعـرَّف إليـه: الرُّتبـة: الفقَّارِيَّـات، الشُّـعبة: ذوات الأربـع، الطَّائفـة: الثدييَّـات، الجنـس: السِّـنَّوْريَّات، النـوع: القِطَـط، النـوع الفـردي: الهِـرُّ العَتَّـابي. غـير أنَّنـي كُلَّـما توغَّلـتُ أكـثر في الموضـوع؛ أُصبـح أكـثرَ شَـغفًا، ويفتنُنـي جـمالُ اللغـة. كثـيرًا مـا كنـتُ أُسـلِّي نفـسي بقـراءة مقاطـعَ باللاتينيـة، وألتقـطُ الكلـمات التـي وعيتُهـا وأحـاول أن أتعقَّلهـا وأصنـع جملـة. لم أَكُـفَّ أبـدًا عـن الاسـتمتاع بتلـك التسـلية.

حسـبَ مـا أعتقـد، لا شيء أكـثر فِتنـة مـن المشـاعر والأخيلـة التـي سريعًـا مـا تتـلاشى، تلـك التـي تثيرهـا لغـةٌ مـا قـد صـار المـرء لتـوّهِ ضليعًـا بهـا، إنَّهـا أفـكارٌ ترفـرف في سـماء العقـل، حيـث تُشـكِّله، وتصبـغ نزواتـه المتقلِّبـة. كانـت الآنسـة ساليـڤـان تجلـس بجانبـي أثنـاء الحِصـص؛ تتلفَّـظُ في يـدي أيًّـا مـا كان السَّـيِّد أيرونـز ينطـق بـه، وتبحـث لي في القامـوس عـن الكلـمات الجديـدة. كنـتُ قـد بـدأتُ لتـوِّي قـراءة كتـاب يوليـوس قيـصر: "الحـروب الغالِيَّـة"، عندمـا عُـدتُ إلى بيتـي بألابامـا.

الفصل السابع عشر

في صيف 1894، حضرتُ اجتماع الرابطة الأميركيَّة لتطوير وسائل تعليم الصُّمِّ الكلامَ في تشاتاكوا. رُتِّب هناك أن أذهب إلى مدرسة رايت هامسن الخاصة بالصُّمِّ في مدينة نيويورك. ذهبت لهُناك في أكتوبر، من عام 1894، تصحبني الآنسة ساليڤان. اخْتيرَت تلك المدرسة خِصِّيصًا لغرض التحصُّل على أعلى المنافع في التثقيف الصوتي، والتدريب على قراءة الشفاه. بالإضافة لاشتغالي على هذه الموضوعات، كنتُ أدرسُ: علم الحساب، الفيزيوجغرافيا، واللغة الفرنسية والألمانيَّة أثناء السَّنتَيْن اللتين قضيتُهما في المدرسة.

كان باستطاعة الآنسة ريمي -مُعلِّمتي في الُّلغَة الألمانيَّة- أن تستعمل هجاء الأصابع، وبعد أن اكتسبتُ قدرًا صغيراً من المفردات؛ كُنَّا نتحدَّث معًا بالألمانيَّة متى ما سنحت لنا الفرصة لذلك، وخلال بضعة شهورٍ كان بإمكاني تقريبًا فَهم كلِّ شيءٍ كانت تقوله. قبل انتهاء السَّنة الأولى

قرأتُ "ڤِلْهِلم تِلْ" بعظيمِ بهجةٍ. في الواقع، أعتقد أنِّي قد أحرزُ تقدُّمًا أكثر في اللغة الألمانيَّة أكثر من أيِّ مادة دِراسيَّةٍ أُخرى. وجدتُ أنَّ الفرنسيَّة أكثر صعوبة. درستُها مع مدام أوليڤيه، التي كانت مُرغمةً على إعطاء توجيهاتها بصورةٍ شفهيَّةٍ. لم أتمكَّن من قراءة شِفاهها بسهولة؛ لذا كان تقدُّمي فيها أكثر بُطأً عن الألمانيَّة. ورغم ذلك، تمكَّنتُ من قراءة "طبيب رغم أنفه" مرَّةً ثانية. لقد كانت قراءتُها شيئًا مُسلِّيًا، غير أنَّها تقريبًا لم تُعجبني كما أعجبتني "ڤِلْهِلْم تِلْ".

تقدُّمي في قراءة الشفاه وفي الكلام لم يجرِ كما كان يأمل مُعلِّميَّ وما توقَّعوا له أن يكون. لقد كان طموحي أن أتكلَّمَ مثل البشر الآخرين، وكان مُعلِّميَّ يؤمنون بأن بالإمكان تحقيقَ هذا، لكن، رغم أنَّنا عملنا بجِدٍّ وبإخلاص، لم نبلغ بعدُ مأرِبنا تمامًا. إخالُ أنَّ سقف طموحاتنا كان مرتفعًا للغاية؛ لذا كان إحباطُنا تَبعًا لذلك أمرًا لا فرار منه. كنتُ ما أزال أعتبر مادة الحساب نظامًا يختصُّ بالشُّرْكِ الخفيَّة؛ فكنتُ أتسكَّعُ على حدود منطقة "التخمين" الخَطِرة، أتفادى -بمشاكل لا تنتهي معي ومع آخرين- حدودَ وادي المنطِق. وعندما لم أكن أستخدم التخمين، كنتُ أقفزُ إلى الاستنتاجات، وذلك الخطأ -يزيد عليه بَلادَتي- كان يفاقِم الصعوبات التي تعترضني أكثر مما كان مناسبًا أو ضروريًّا.

لكن رغم أنَّ تلك الإحباطات كانت تُصيبُني باكتئابٍ عظيم في أحيانٍ، كنتُ أتابعُ مذاكرة موادِّي الدراسيَّة الأُخرى باهتمامٍ لا يفتَر؛ خاصة الفيزيوجغرافيا. فلقد كانت معرفةُ أسرار الطبيعة شيئًا يبعثُ على المرح: كيف أنَّه -في اللغة التصويريَّة للعهد القديم- جُعِلَت الرِّياح أن تهبَّ من أركان السَّماوات الأربعة، كيف كان البخار يصَّاعد من أطراف الأرض، كيف كفَّت الأنهار عن الجريان بين الصخور، وكيف اقتُلِعت الجبال من قواعدها وبأيِّ سبيلٍ يستطيع الإنسان التغلُّبَ على الكثير من القوى التي تفوق قدراته نفسها. العامان

المقضيَّان في نيويورك كانا عامين سعيدين، وحين أسترجعهما أتذكَّرُهما بمُتعةٍ خالصة.

أذكُرُ على وجه الخصوص التمشيات التي كُنَّا نقوم بها معًا كلَّ يوم في سنترال بارك؛ المكان الوحيد الذي كنتُ أشعرُ بالأُنس فيه. لم أفقد أبدًا مِثقالَ ذَرَّةٍ من بهجتي في هذا المتنزَّه العظيم. كنتُ أحبُّ أن يُوصَفَ لي في كلِّ مرَّةٍ أدخله؛ فقد كان بديعًا بجميع أركانِه، وأركانُه تلك كانت كثيرةً للغاية؛ لذا كان بهيًّا بشكلٍ مُغاير عن كلِّ يومٍ من أيَّام التسعة أشهر التي قضيتُها في نيويورك.

قمنا برحلات في الربيع إلى العديد من الأماكن المثيرة للفضول. أبحرنا فوق نهر هادسن وتجوَّلنا على ضِفافِه الخضراء، تلك الضفاف التي أحبَّ برايانت[1] أن يتغنَّى بها. لقد أعجبتني المهابة المفرطة التي تسِمُ منحدراته الصخريَّة. من بين الأماكن التي زُرتُها كانت وست بوينت[2]، تاريتاون؛ موطنُ واشنطن إرڤِنغ؛ فيها تجوَّلتُ عبر "سيليبي هولو".

كان المدرِّسون في مدرسة رايت هيوماسن منشغلين دومًا بالتخطيط للكيفيَّة التي سيوفِّرون للطلاب كلَّ مزيَّةٍ كان يتمتَّعُ بها الذين يسمعون -كيف يمكنهم أن يستثيروا بعض الميول والذكريات الكامنة في حالات هؤلاء الصِّغار- ويرشدوهم للخروج والتحرُّر من تلك الظروف المقيِّدَة التي أُوثِقت إليها حيواتهم.

قبل أن أغادر نيويورك، تلك الأيام السَّاطعةُ قد غَشِيَتها الظُّلمة بفعل أعظم نكبةٍ حدثت لي على الإطلاق باستثناء وفاة أبي: السيِّد چون پ. بولدنغ، الذي هو من بوسطن، مات في فبراير، 1896.

(1) ويليام كولين برايانت: شاعر أميركيٌّ، وُلِدَ في ولاية ماساتشوستس. (المترجم)

(2) هي الأكاديمية العسكرية الأمريكية، وتسمَّى بهذا نسبةً إلى المنطقة التي توجد بها. (المترجم)

وحدُهــم مَــن عرفــوه وأحبُــوه كثـيرًا باســتطاعتهم أن يفهمــوا مــا كانــت تعنيــه صداقتُــه بالنســبة لي. هــو الــذي كان بأســلوبه اللطيــف الخَفــيِّ، يجعــلُ كلَّ فَــردٍ ســعيدًا، لقــد كان ألطــفَ وأعــذبَ مــا يكــون مــع الآنســة ساليـڤــان. كنَّــا مــا دُمنــا نستشــعر حضــوره اللطيــف، ونعــرف أنَّــه يتابــع عملنــا باهتــمام -عملنــا الــذي كان محفوفًــا بالكثــير مــن الصعوبــات- عندئــذٍ لم يكــن لعزيمتنــا أن تُثَبَّــط. رحيلــه قــد خلَّــف في حيواتنــا فراغًــا لم يُمــلأ إلى الأبــد.

الفصل الثامن عشر

في شـهر أكتوبـر، 1896، دخلـتُ مدرسـة كيمـبردج للشَّـابَّات؛ كي أُهيَّـأ للالتحـاق برادكليـف.

عندمـا كنـتُ فتـاةً صغـيرة، زرتُ جامعـة ويليـزلي وفاجـأتُ أصدقـائي بتصريحـي هـذا: "يومًـا مـا سـوف أذهـب إلى الكُلِّيَّـة، لكنـي سـوف أذهـب إلى هارڤـارد!". عندمـا كُنـتُ أُسـألُ لمـاذا لـن أذهـب إلى ويليـزلي، كنـتُ أردُّ وأقـول إنَّـه لا يوجـد فيهـا سـوى الفتيـات. لقـد تأصَّلَـت فِكـرةُ الذهـاب إلى الكلِّيَّـة وترسَّـخت في نفـسي وأصبحـت رغبـةً جِدِّيَّـة، ودفعتنـي لأن أخـوض منافسـةً عـلى درجـةٍ دراسـيَّةٍ مـع فتيـاتٍ مُبـصرات وقـادراتٍ عـلى السَّـماع، مواجِهـةً مُعارضـةً شـديدةً مـن جانـب أصدقـائي المخلصـين وذوي العقـول الراجحـة. عندمـا غـادرتُ نيويـورك صـارت الفِكـرةُ هدفًـا راسـخًا، وتَقـرَّرَ أنـه ينبغـي أن أذهـب إلى كيمـبردج. كان ذلـك أقـرب دُنـوٍّ اسـتطعتُه مـن هارڤـارد، ولأجـل الوفـاء بتصريحـي الطُّفـوليّ.

كانـت الخطَّـةُ في مدرسـة كيمـبردج هـي أن تحـضر معـي الآنسـة ساليـڤـان الحِصـص الدراسـيَّةَ وتترجـم لي الـدروس الـمُعطاة.

مُـدرِّسيَّ بالطَّبـع لم يكـن لديهـم أيُّ خـبرة سـوى في تعليـم التلاميـذ الطبيعيّـين، ووسـيلتي الوحيـدة في المشـاركةِ معهـم في الحديـث كانـت هـي قـراءة شِـفاههم. مُقـرراتي الدراسـية في السـنةِ الأولى كانـت: التاريـخ الإنجليـزي، الأدب الإنجليـزي، اللغـة الألمانيَّـة، اللاتينيَّـة، علـم الحسـاب، أسـلوب الإنشـاء اللاتينـي ومـا اقتضـاه مـن مواضيـع. حتَّـى ذلـك الوقـت لم أكـن قـد تلقَّيـتُ منهجًـا دراسـيًّا أساسـه وهدفـه الإعـداد لدخـول الكلِّيَّـة، غـير أنِّي كنـتُ عـلى قـدرٍ جيِّـدٍ مـن الرسـوخ في اللغـة الإنجليزيَّـة بعـون الآنسـة ساليـڤـان، وأصبـح مـن الثَّابـت أمـره بالنسـبة لمـدرِّسيَّ أنني لسـتُ في حاجـةٍ إلى درسٍ خـاص في هـذه المـادة، باسـتثناء دراسـة نقديَّـةٍ للكتـب المقـرَّرة في هـذه المـادة مـن قِبـل الكلِّيَّـة. عـلاوة عـلى أنِّي قـد بـدأتُ بدايـةً جيِّـدةً في الفرنسـيَّة، وتلقَّيـتُ دروسًـا في اللاتينيَّـة اسـتمرَّت سـتةَ أشـهر، لكـنَّ مـادَّةَ اللغـة الألمانيَّـة كانـت هـي أكـثر مـا كنـتُ ضليعـةً بـه.

رغـم هـذه المميِّـزات، كثـير مـن العقبـات كانـت تعـوقُ تقدُّمـي. لم تكـن الآنسـة ساليـڤـان تقـدر عـلى أن تتهجّـى في يـدي كلَّ مـا كانـت تتطلَّبَـْه الكتـب، وكان مـن العسـير الحصـول عـلى كتـبٍ مطبوعـة بحـروفٍ بـارزةٍ لأجـلي في الوقـت المحـدَّد كي أسـتخدمها، رغـم أنَّ أصدقـائي في لنـدن وفي فلادلفيـا كانـوا يوصـون باسـتعجال إتمـام الكتـب. اضطـررتُ فعـلًا لفترة لاستنسـاخ مـادة اللاتينيـة بكتابـة برايـل؛ حتـى أتمكَّـن وأُسـمِّعَ الـدرس مـع الفتيـات الأُخريـات. سُرعـان مـا أَلِـفَ مُعلِّمـيَّ طريقـة كلامـي غـير المتقَنـة، بمـا يكفـي كي يُجيبـوا عـن أسـئلتي عـن طيـب خاطـر ويُصوِّبـوا الأخطـاء. لم يكـن يتسـنّى لي تدويـن ملاحظـاتٍ في الحِصَّـة أو القيـام بكتابـة التدريبـات، لكنِّـي كنـتُ أدوِّنُ كلَّ كتابـاتي الإنشـائيَّة وترجـماتي في البيـت عـلى آلتـي الكاتبـة.

كل يـومٍ كانـت الآنسـة ساليـڤـان تذهـب معـي لحضـور الحصـص وتتهجّـى في يـدي بصـبرٍ لا ينتهـي كلَّ مـا كان المعلِّمـون يقولونـه. في ساعات المذاكـرة كان عليهـا أن تسـتخرج لي معـاني الكلـمات الجديـدة مـن القامـوس، وتقـرأ، وتُعيـد عـليَّ قـراءة الملاحظـات، وقـراءة الكتـب التـي لم أتمكَّـن مـن الحصـول عليهـا في طباعـة بـارزة. الضَّجـر الـذي يُسـبِّبُه هـذا العمـل كان صعبًـا احتمالـه. "فْرُو غـروت"؛ مُعلِّمـة اللغـة الألمانيَّة، والسَّـيِّد غليـمان؛ المديـر، كانـا المدرِّسَـين الوحيديـن اللذيـن تعلَّـما هجـاء الأصابـع كي يتمكَّنـا مـن تدريـسي. لا أحـد تمامًـا كان يُـدرك أكـثر مـن العزيـزة فْـرُو غـروت كـم بطـيء نُطقهـا وكـم هـو غـير وافٍ. رغـم ذلـك، مـن طيبـة قلبهـا، كانـت تتكبَّـدُ مشـقَّة التلفُّـظِ بدروسـها في يـدي في حصـصٍ خاصَّـةٍ لي مرَّتـين بالأسـبوع؛ كي تُفسـح بعـض الرَّاحـة للآنسـة ساليـڤـان. لكـن رغـم أنَّ الجميـع كانـوا لُطفـاء معـي ومسـتعدِّين لتقديـم العَـون، يـدٌ واحـدة فحسـب كان باسـتطاعتها أن تحـوِّلَ العمـلَ الشـاقَّ إلى متعـة.

في تلـك السـنة أنهيـتُ دراسـة مُقـرَّر علـم الحسـاب، وراجعـتُ عـلى قواعـد اللاتينيَّـة، وقـرأتُ ثلاثـة فصـول مـن كتاب يوليـوس قيـصر "الحـروب الغالِيَّـة". أمـا باللغـة الألمانيَّـة[1] فكنـتُ أقـرأ -أحيانًـا باسـتخدام أصابعـي، وأحيانًـا بمسـاعدة الآنسـة ساليـڤـان- "أغنيـة النَّاقـوس"، و"الغطَّـاس" لشـيلر، و"رحلـة إلى جبـال هارتـس" لهاينِـه، و"مـن دولـة فريدريـك الأكـبر" لفرايتـاج، و"لعنـة الجـمال" لـڤـيلهِلْم ريهـل، و"سـعادة الجنـدي لجوتفريـد" لليسِّـنغ، و"مـن حيـاتي: شِـعر وحقيقـة" لغوتـه. لقـد خلُصـتُ مـن قـراءة تلـك الكتـب الألمانيَّـة بأعظـم متعـة، خاصـة قصائـد شـيلر الغنائيـة، تاريـخ الإنجـازات الباهـرة لفريـدرك الأكـبر وسـيرة حيـاة غوتـه. لقـد أسِـفتُ لانتهـائي مـن "رحلـة هارتـز"؛ فقـد كان زاخـرًا باللطائـف المبهجـة والأوصـاف السـاحرة للهضـاب المكسـوَّة بالكَـرم، وجـداول المـاء التـي تنسـابُ وتترقـرق كأنهـا تشـدو في ضـوء الشـمس، والمناطـق البَريَّـة،

(1) الكتب المذكورة في هذه الفقرة أوردتها هيلين في الأصل بالألمانيَّة. (المترجِم)

المقدَّسة بفعل التراث والأساطير، كالأخوَات الرَّماديَّات، القادمات من عصرٍ خياليٍّ قد اندثر منذ زمنٍ سَحيق- وصف كذلك الذي يُكتَب فحسب من قِبل أولئك الذين تمثِّل لهم الطبيعة "إحساسًا، وشغفًا، ونزوعًا فِطريًّا".

دَرَّسني السَّيِّد غليمان الأدب الإنجليزيَّ شَطرًا من العام. تدارسنا معًا كتاب "كما تحبُّها"، كتاب "خطاب في التصالح مع أميركا" لبورك، و"حياة صامول چونسون" لماكوالي. أمَّا عن اطِّلاع السَّيِّد غليمان الواسع على التاريخ والأدب وشُروحاتِه الماهرة، فقد جعل عملي أسهل، وأكثر متعةً مما كان له أن يكون إنْ أنا قرأتُ التدوينات بشكلٍ آليٍّ، بما اقتضته من الشروحات الموجَزة التي كانت تُقالُ في الحِصص.

كان كتاب بروك أكثر تثقيفًا من أيِّ كتابٍ آخر يتناول موضوعًا سياسيًّا قرأتُه على الإطلاق. دار عقلي مع الوقت الدائر، والشخصيات التي حولها كانت تتمحور حياة أُمَّتين متصارعتَين تراءت لي وكأنَّها تتحَرك أمامي تمامًا. كنتُ أتساءَل كثيرًا كثيرًا، بينما يتواصل حديثُ بورك بحذاقةٍ في تدفُّقاتٍ بلاغية عظيمة: كيف حدث واستطاع الملك چورج ووُزراؤه، أن جعلوا أصابعهم في آذانهم عن تنبُّئِه المُطَمئِن بانتصارنا نحن وخِزيهم هم. ثمَّ خُضتُ في التفاصيل السوداويَّة فيما يتعلَّق بالمسائل التي تصدَّى لها رجل الدولة العظيمة عن حِزبه وعن ممثِّلي الشَّعب. تفكَّرتُ أنَّه، كم هو غريبٌ أنَّ بذور الحقِّ والحِكمة تلك قد وقعت في أيدي عاهات الجهل والفساد.

على صعيدٍ آخر، كتاب ماكوالي "حياة صامول چونسون" كان مثيرًا للاهتمام. لقد انخلع قلبي تأثُّرًا بذلك الرجل الوحيد الذي يطعمُ قوته حُزنًا في جراب ستريت، وآنذاك، في غمرات المعاناة القاسية الكادحة لروحه وجسده، لطالما كان عنده كلمة طيِّبة يقولها، وكان يمدُّ يدَ العون للمساكين والوضيعين. لقد ابتهجتُ لكلِّ نجاحاتِه،

وغضضتُ الطَّرفَ عن أخطائه، وكنتُ أتساءل، ليس بشأن أنَّ عنده أخطاء؛ بل عن كونها لم تؤثِّر عليه وتسحق روحه وتعوق تَرقِّيها. لكن رغم ذكاء ماكيوالي وقُدرته المثيرة للإعجاب على جَعْلِ الأماكن المألوفة تبدو جديدةً نضِرة ومثيرة للخيال، كان مَسلكُه الإيجابيُّ يثير استغرابي في بعض الأحيان، وتضحياته المتكررة في سبيل تفعيل الحقِّ أبقتني في موقفٍ متسائل غير مشابهٍ تمامًا لموقف التبجيل الذي كنتُ أستمع به إلى ديموستيني[1] بريطانيا العُظمى هذا.

في مدرسة كيمبردج -ولأوَّل مرّةٍ في حياتي- استمتعتُ بصحبة فتياتٍ مُبصراتٍ وسامعات من نفس عُمري. سكنتُ مع العديد من الأخريات في واحدٍ من المنازل البهيجة المُلحَقةِ بالمدرسة، وهو المنزل الذي اعتاد السَّيِّد هاولز أن يعيش فيه، وجميعنا تمتّع بالعيش في المكان كأننا في بيوتنا. شاركتُهنَّ في الكثير من ألعابِهنَّ، حتَّى دعابات الرجل ذي السترة العسكريَّة المصنوع من الثلج، قطعتُ معهنَّ تَمْشِيَاتٍ طويلة، تناقشنا حول دراستنا وقرأنا بصوتٍ عالٍ أشياءَ تثير اهتمامنا. بعض الفتيات تعلَّمنَ أن يتحدَّثنَ إليَّ؛ لذا لم تكن الآنسة ساليفان مضطَّرة لإعادة سرد حواراتِهنَّ.

في الكريسماس، قضت أمِّي وأختي الصغيرة أيَّام الإجازة في صحبتي، وفي لطفٍ منه عرض السَّيِّد غليمان أن يسمح لـمِلدرد بالدراسة في مدرستِه؛ لذا بقيت ملدرد معي في كيمبردج، وطوال ستة أشهرٍ سعيدة، تقريبًا لم نكن أبدًا نتفرَّق. إنَّ أكثر ما يجعلني سعيدة هو حين أتذكَّرُ السَّاعات التي قضيناها معًا، تُساعد إحدانا الأخرى في الدراسة ونتشارك أوقات استجمامنا معًا.

خُضتُ امتحاناتي التمهيديَّة لأجل الالتحاق برادكليف بدءًا من التاسع والعشرين من يونيو حتَّى الثالث من يوليو من عام 1897.

---

(1) كان خطيبًا بارزًا في أثينا القديمة. (المترجم)

المـواد التـي اختـبرت فيهـا كانـت المرحلـة التمهيديـة والمتقدِّمـة للألمانيَّـة، الفرنسـيَّة، اللاتينيَّـة، الإنجليزيَّـة، والتاريـخ اليونـاني والرومـاني، اسـتغرقت مجتمِعـةً تسـع سـاعات. اجتـزتُ كلَّ الامتحانـات، وتلقَّيـتُ "شـهادات تكريـم" في مُقـرَّرَيْ: الألمانيَّـة والإنجليزيَّـة.

ربمـا حـين أقـدِّم توضيحًـا بشـأن المنهـج الـذي كان مُسـتَخْدَمًا، في الوقت الـذي خضـتُ فيـه امتحانـاتي فلابـد سـيكون نافعًـا عرضُـه هُنـا. كان عـلى الطالـب أن يجتـاز امتحانًـا عـن مقـررٍ دراسي بنظـام السـاعات، مدّته سِـتَّ عـشرة سـاعة- اثنتـا عـشرة منهـا كانـت تُسـمَّى مرحلـة التمهيـدي، وأربـع سـاعات للمتقـدِّم. يكـون لزامًـا عليـه أن يجتـاز امتحانًـا عن خمس سـاعاتٍ دراسـية كي تُحتَسـبَ لـه بقيّـة السّـاعات. أوراق الامتحانـات كانت تُـوزَّعُ في التاسـعةِ صباحًـا في هارڤــارد، وكان يـؤتَى بهـا إلى رادكليـف بواسـطة مِرسـالٍ خـاصٍّ. كلُّ مُتقـدِّمٍ للامتحـان كان معروفًـا، ليـس باسـمه؛ إنَّمـا مـن خـلال رقـم. كنـتُ رقـم: 233، لكـن، لأنّـني كنـتُ في حاجـةٍ لاسـتخدام آلـة كاتبـة؛ لم يكـن في المسـتطاع إخفـاء هُويتـي.

ارتـأوا أنَّـه مـن المستحسَـن بالنسـبة لي أن أُجـري امتحانـاتي في حُجـرةٍ بمفـردي؛ لأنَّ الضوضـاء التـي سـتنجم عـن الآلـة الكاتبـة ربَّمـا تُشـوِّشُ عـلى الفتيـات الأُخريـات. قـرأ لي السَّـيِّد غليـمان كلَّ أوراق الامتحـان بواسـطة هجـاء الأصابـع. نُصِّـبَ عـلى بـاب الغرفـة حـارسٌ كي يحـول دون مقاطعـة الامتحـان.

كان عنـدي في اليـوم الأول امتحـان اللغـة الألمانيَّـة. جلـس السَّـيِّد غليـمان بجانبـي وقـرأ عـليَّ الـورق قـراءةً مبدئيـة سريعـة، ثـمَّ قـرأه جُملـةً جُملـة، بينـما كنـتُ أنـا أردِّدُ الكلـمات بصـوتٍ مرتفـع، كي أتيقَّـن مـن أنَّنـي اسـتوعبتُها بشـكلٍ كامـل. كانـت الأسـئلة صعبـة، وشـعرتُ أنَّنـي كنـتُ مضطرِبـةً للغايـة وأنـا أدوِّنُ إجابـاتي عـلى الآلـة الكاتبـة. نطـق لي السَّـيِّد غليـمان مـا قـد كتبتُـه، وأجريـتُ بعـض التغيـيرات عـلى الإجابـات أينـما

ارتأيتُ ذلك ضروريًّا، ثم اعتمَدَها. أودُّ هنا أن أقول إنَّني لم أحُز هذا الامتياز في أيٍّ من امتحاناتي سابقًا. ففي رادكليف، ما من أحدٍ يقرأ لي أوراق الإجابات بعد أن تُكتَب، ولم يكن عندي فرصة كي أصوِّبَ أخطاءً ما لم أفرغ من الإجابات قبل انتهاء الوقت. في تلك الحالة، كنتُ أصحِّحُ تلك الأخطاء التي أقعُ عليها في الدقائق القليلة المسموح بها، وأسرد ملاحظاتٍ بهذه التصحيحات في آخر الورق. إن كنتُ قد اجتزتُ الامتحانات التمهيديَّة بتقديراتٍ أعلى من الامتحانات النهائيَّة؛ فذلك راجعٌ لسببين: في الامتحانات النهائية، لا أحدَ كان يقرأ عليَّ إجاباتي، وفي الامتحانات التمهيديَّة اختُبِرتُ في مُقرّرات كنتُ آلَفُها بعض الشيء- قياسًا بعملي قبل الالتحاق بمدرسة كيمبردج؛ ففي بداية العام الدراسي اجتزتُ الامتحانات في الإنجليزيَّة، والتاريخ، والفرنسية، والألمانيَّة التي كان السَّيِّد غليمان قد أعطاني امتحاناتٍ سابِقَةً لها لهارفارد.

أرسل السَّيِّد غليمان أوراق إجاباتي إلى واضعي الامتحان بشهادةٍ تفيد أنَّني؛ المتقدم رقم: 233، قد أدَّى الامتحانات.

جميع الامتحانات التمهيديَّة الأُخرى أُجريَت على نفس المنوال. لم يكن أيٌّ منها صعبًا كما الامتحانات الأولى. أتذكَّرُ أنَّه يوم أن وُزِّعَت علينا أوراق امتحان اللاتينيَّة، دخل بروفيسور شيلينغ وأعلَمني أنَّني قد اجتزتُ امتحان الألمانية على نحوٍ مُرضٍ. لقد شجَّعني ذلك بشكلٍ عظيم، ووُفِّقتُ للخروج من المحنة بعزمٍ راسخٍ وقلبٍ مستنير.

الفصل التاسع عشر

عندما بدأتُ عامي الدِّراسيَّ الثاني في مدرسة غليمان؛ كان كُلِّي أمل وتصميم أن أنجَح. لكنِّي لاقيتُ أثناء الأسابيع القليلة الأولى تحدِّياتٍ غيرَ متوقَّعة. كان السَّيِّد غليمان قد اتَّفقَ على أنَّه ينبغي عليَّ في المقام الأوَّل هذا العام أن أدرسَ الرياضيَّات. كان عليَّ دراسة الفيزياء، الجبر، الهندسة، الفلك، واليونانيَّة واللاتينيَّة. ولسوء الحظِّ، عديدٌ من الكتب التي كنتُ في احتياجٍ لها لم تكن توفَّرَتْ بالحَرف البارز في الوقت المحدَّد كي أبدأ الالتحاق بالحِصص، وكانت تنقُصُني لوازمُ هامَّةٌ لأجل بعض ما أدرسه. الفصول التي كنتُ فيها كانت كبيرةً للغاية، وكان من المستحيل بالنسبة للمدرِّسين أن يُعطوني درسًا خصوصيًّا. كانت الآنسة ساليڤان مُجبَرة أن تقرأ لي كلَّ الكُتب، وأن تترجِم للمُعلِّمين، وللمرَّة الأولى طوال إحدى عشرة سنة، بدا كما لو أنَّ يدها العزيزة لن تكون مؤهَّلةً بما يكفي للقيام بالمهمَّة.

كان مـن الـضروري بالنسـبة لي أن أدوِّنَ دروسَ الجـبر والهندسـة في الحِصَّـة، وأن أحـلَّ مسـائلَ في الفيزيـاء، وهـذا مـا لم يكن باسـتطاعتي القيام بـه حتـى اشـترينا آلـة كاتبـة بنظـام برايـل، وبعَونهـا تمكَّنـتُ مـن تدويـن خُطـوات وإجـراءات عمـلي. لم أكـن أسـتطيع إدراك الأشـكال الهندسـيَّة المرسـومة عـلى السَّـبُّورة بعينـيَّ، ووسـيلتي الوحيـدة في الحصـول عـلى فكـرةٍ جَليَّـةٍ بشـأنها كانـت أن أقـوم بتصميمهـا عـلى لوحـة بهـا أسـلاك مسـتقيمة ومنحنيـة، ولهـا نهايـاتٌ غليظـة ومُسـنَّنة. تعـيَّنَ عـليَّ أن أُجـري في عقـلي -كـما يقـول السَّـيِّد كيـث في تقريـره- أبجَـدةَ الأشـكال الهندسـيَّة، وضـع الفرضيَّـات والخلـوص بالاسـتنتاجات، تسـجيل سَـير عمليـة البرهَنـةِ وترتيبهـا. باختصـار؛ لقـد كان لـكلِّ مـادَّةٍ دراسـيَّةٍ عقباتُهـا. أحيانًـا كنـتُ أفقـدُ كلَّ شـجاعتي، وتخوننـي مشـاعري لدرجـةٍ تجعلنـي أشـعر بالخـزي مـن نفسـي حـين أتذكَّـر ذلـك، خاصَّـة عندمـا كانـت تُسـتخدَم مظاهـر إعاقتـي فيـما بعـد ضِـدَّ الآنسـة ساليـڤـان؛ الشـخص الوحيـد الـذي كان لـديَّ مـن بـين جميـع أصدقـائي، هـي التـي كان باسـتطاعتها أن تجعـل المحتالـين أصدقـاءً صالحـين، وتجعـل الأماكـن الوعِـرَة مُمهَّـدَة.

رغـم هـذا، بـدأت مصاعبـي تختفـي شـيئًا فشـيئًا. وصلـت الكتـبُ بالحـرف البـارز، وصلـت اللـوازم الأُخـرى، وغمـرتُ نفـسي وسـط العمـل بثقـةٍ متجـدِّدة. كان الجبر والهندسـة هـما المادَّتـين الَّلتَـيْن واصلتـا تحـدِّي مجهـوداتي كي أسـتوعبهما. كـما أسـلَفتُ وقُلـت؛ ليـس عنـدي مَلَكَـةُ الرياضيَّـات، المسـائل المختلفـة لم تكـن تُـشرح لي بشـكلٍ وافٍ كـما كنـتُ أتمنَّـى. كانـت الرسـوم الهندسـيَّةُ مثـيرةً للحـيرة عـلى وجـه الخصـوص لأنِّي لم أسـتطع مُعاينـة الروابـط بـين أجزائهـا المختلفـة وبعضهـا البعـض- حتـى عـلى اللـوح. هكـذا كان يسـير الأمـر، إلى أن علَّمنـي السَّـيِّد كيـث أنَّنـي كنـتُ أمتلـكُ فَهـمًا واضحًـا عـن الرياضيَّـات.

كنـتُ قـد بـدأتُ التغلُّـب عـلى تلـك المصاعـب حـين وقـع حـدثٌ غـيَّر كلَّ شيء.

تمامًا قبل أن تصل الكُتب، كان السَّيِّد غليمان قد احتَجَّ على الآنسة ساليڤان، من مُنطَلَقِ أنَّني كنتُ أبذلُ مجهودًا جِدّ عظيمٍ بما يفوق طاقتي، ورُغم مُعارضتي القُصوى له؛ خَفَّض عدد مرَّات تَسميعي الدروس في الحِصص. كُنَّا قد اتفقنا في البداية أنَّني ينبغي -إن كان هذا ضروريًّا- أن أتلقَّى خمس سنوات من الدراسة لأجل الإعداد لدخول الكلِّيَّة، لكن بنهاية العالم الأوَّل، أظهر نجاحي في امتحانات السَّنة للآنسة ساليڤان، وللآنسة هارباغ (المعلِّمة رئيسة السَّيِّد غليمان)، ولمسؤول آخر، أنَّه باستطاعتي بالإضافة لهذا إتمام سنتين من سِنِي الإعداد دون كثيرٍ من العناء. وافق السَّيِّد غليمان على هذا في البداية، لكن عندما صارت مَهامِّي مُثيرةً للتشوُّش على نحوٍ ما، اعترضَ بأنَّني أُرهَقُ بالعمل على نحوٍ مُفرِط، وأنَّني يجب أن أبقى أنا وهي في مدرستِه لفترةٍ أطول مدَّة ثلاث سنوات. لم تُعجبني خُطَّتُه؛ لأنَّني كنتُ أتمنَّى أن أدخل الكلِّيَّة مع دُفعتي.

في السادس عشر من نوفمبر لم أكُن على ما يُرام، ولم أكن أذهب إلى المدرسة. رغم أنَّ الآنسة ساليڤان كان تعي أن توَعُّكي لم يكن بالشيء الخطير، إلَّا أنَّ السيد غليمان لدى سَماعِه هذا أعلنَ أنَّني كنتُ أنهار، وأجرى تغييراتٍ على دروسي صَيَّرت الأمرَ مستحيلًا أن أدخل امتحاناتي النهائيَّة مع دُفعتي. الخِلاف في الرأي بين السيد غليمان، والآنسة ساليڤان، انتهى في الأخير بأن سحبت أمي تسجيل ملدرد وسحبتني من مدرسة كيمبردج.

بعد فترة من التأخير، اتُّفِقَ بأنَّه ينبغي أن أدرس تحت إشراف مُدرِّس خصوصي؛ وهو السيد ميرتُن س. كيث، من كيمبردج. قضينا أنا والآنسة ساليڤان ما تبقَّى من الشتاء بصحبة أصدقائِنا؛ آل تشامبرلِن في رينتهام، على بُعد خمسةٍ وعشرين ميلًا من بوسطن.

مـن فبرايـر إلى يوليـو، مـن عـام 1898، كان السـيد كيث يـأتي إلى رينتهام مرَّتَـيْن في الأسـبوع، وكان يُدرِّسُـني الجـبر، الهندسـة، اليونانيَّـة واللاتينيَّـة. وكانـت الآنسـة ساليـڤـان تُترجِـم لي دُروسَـه.

في أكتوبـر، 1898، عُدنـا إلى بُوسـطن. وعـلى مـدى ثمانيـة أشـهر، كان السـيد كيـث يُعطينـي دروسًـا خمــس مــرَّاتٍ في الأســبوع، كلُّ حِصَّـةٍ كانـت تسـتغرق سـاعة. كان يـشرح لي في كلِّ مـرَّةٍ مـا لم أفهمـه في الـدرس الـذي يسـبقه، ويحـدِّد لي واجبًـا جديـدًا، ويأخـذ معـه إلى بيتـه تدريبـات اليونانيَّـة التـي أنجزتُهـا خـلال الأسـبوع عـلى آلتـي الكاتبـة؛ فيصحِّحهـا كلَّهـا، ويُعيدهـا إليَّ.

اسـتمرَّت مرحلـة إعـدادي لدخـول الكلِّيَّـة عـلى هـذا النَّهـج دون انقطـاع. وتبـيَّنَ أنَّـه مـن الأسـهل كثـيرًا، والأكـثر جلبًـا للمتعـة، هـو أن أُعلِّـم نفـسي بنفـسي، عـلى أن أتلقَّـى دروسًـا في الفصـل. فبهـذه الطريقـة لا وجـود للعَجلـة، ولا للتشـوُّش. كان عنـد مُـدرِّسي الخصـوصيِّ وَفْـرَةٌ مـن الوقـت كي يـشرح لي مـا لم أكـن أسـتوعبه؛ لـذا كنـتُ أتقـدَّمُ أسرعَ، وأنجـزتُ عمـلًا أفضـل مـمَّا قمـتُ بـه في المدرسـة عـلى الإطـلاق. كنـتُ مـا أزالُ أجـدُ صعوبـةً في إتقـان حَـلِّ المسـائل في الرياضيـات أكـثر مِـمَّا وجـدتُ في مـوادِّي الدراسـية الأخـرى. أتمنَّـى أن لـو كان الجـبر والهندسـة بنصـف سـهولة اللغـات والأدب. لكـن حتَّـى الرياضيـات جعـل منهـا السـيد كيـث شـيئًا مثـيرًا؛ لقـد نجـح في تبسـيط المسـائل بمـا يكفـي كي يسـتوعبها عقـلي. كان يُبقـي عقـلي يقِظًـا ومُتلهِّفًـا، ويُدرِّبـه عـلى أن يفكِّـر تفكـيرًا منطقيًّـا وعـلى نحـوٍ واضـح، ويصـل إلى الاسـتنتاجات بهـدوءٍ وبتسلسُـلٍ منطقـيّ، عِوضًـا عـن القَفـز بجمـوحٍ في الفـراغ والوصـول إلى الـلا مـكان. كان دومًـا لطيفًـا معـي وصَبـورًا، لا يهـمُّ كـم أكـون بليـدة العقـل أحيانًـا، وصدِّقـوني، إنَّ غبـائي غالبًـا كان لِيَسْـتَنْفِدَ صَـبرَ أيُّـوب.

في اليـوم التاسـع والعشريـن واليـوم الثلاثـين مـن شـهر يونيـو، 1899، خُضـتُ امتحانـاتي النهائيـة لأجـل دخـول كليـة رادكليـف. في اليـوم الأول امتحنـتُ في اليونانيَّـة (مسـتوى تمهيـدي)، واللاتينيَّـة (مسـتوى متقـدِّم)، وفي اليـوم الثـاني امتحنـتُ في الهندسـة، الجـبر واليونانيَّـة (مسـتوى متقدِّم).

لم يسـمح المسـئولون بالكلِّيَّـة للآنسـة ساليـڤـان أن تقـرأ عـليَّ أوراق الامتحـان؛ لذا أُوكِلَ إلى السَّـيِّد إيوجـين س. ڤـينينغ؛ أحـد المعلِّمين في معهد بيركنـس للمكفوفـين، أن ينسـخ لي أوراق الامتحـان ببرايـل عـلى الطريقـة الأميركيَّـة. كان السـيد ڤـينينغ غريبًـا عنِّـي، ولم يتمكَّـن مـن التواصـل معـي إلا عـبر الكتابـة ببرايـل. مُراقـب الامتحـان أيضًـا كان غريبًـا، ولم يُحـاول التواصـلَ معـي بـأيِّ طريقـةٍ كانـت.

مـا نُسِـخَ ببرايـل جـرى أمـره عـلى نحـوٍ طيِّـب في اللغـات بمـا يكفـي، لكـن حـين وصلـتُ للهندسـة والجـبر؛ ظهـرت المشـاكل. كنـتُ مرتبكـةً عـلى نحـوٍ مريـر، وأحسسـتُ بعزمـي يخـور وأنـا أُضيِّـعُ الكثـير مـن الوقـت الثمـين، خاصَّـةً في الجـبر. كان صحيحًـا أنَّ جميـع الأشـكال الأدبيَّـة المكتوبـة ببرايـل المتاحـة للاطِّـلاع العـام في هـذا البلـد كانـت مألوفـةً بالنسـبة لي- سـواء بالنظـام الإنجليـزيِّ، والأمـيرِكيِّ، ونظـام نَقْـطِ نيويـورك، لكـنَّ العلامات والرمـوز المتعـدِّدة في الهندسـة والجـبر في الأنظمـة الثـلاث جِـدّ مُتبايِنَـةٍ، ولقـد كنـتُ أسـتخدم برايـل بالنظـام الإنجليـزيِّ فقـط في مـادة الجـبر.

قبـل يومـين مـن الامتحانـات، بعث لي السـيد ڤـينينغ بأحـد الامتحانات القديمـة بهارڤـارد في الجـبر منسـوخًا ببرايـل. ولذُعـري وجـدتُ أنَّهـا كانـت بالتَّنويـت الأمـيرِكيِّ. جلسـتُ في التـوِّ وكاتبـتُ السَّـيِّد ڤـينينغ وطلبـتُ منـه أن يُفـسِّر لي الرمـوز. تلقَّيـتُ ورقـةً أخـرى وجـدولًا بتفسـير الرمـوز في رسـالة الـرَّد، وبـدأتُ العمـل كي أتعلَّـم هـذا التنويـت. ولكـن في الليلـة التـي سـبقت امتحـان الجـبر، عندمـا كنـتُ أجاهـد لأفهـم بعـض الأمثلـة شـديدة التَّعْقيـد، لم أسـتطع أن أسـتوعب المجموعـات المكوَّنـة مـن

الأقـواس والحـاصرات والجـذور التربيعيَّـة. السـيد كيـث وأنـا كلانـا كان كَرِبًـا، وعقلـه يعـجُّ بتوجُّسـاتٍ بشـأن يـوم الغـد، لكنَّنـا ذهبنـا إلى الكُلِّيَّـة قبـل أن يبـدأ الامتحـان بقليـل، وشرح لي السَّـيِّد ڤـينينغ مزيـدًا عـن نظـام الرمـوز الأميرِكيَّـة شرحًـا وافيًـا.

الصعوبـة الرئيسـيَّة التـي كنـتُ أواجههـا في الجـبر هـي أنَّنـي كنـتُ قـد تعـوَّدتُ دومًـا عـلى قـراءة حـروف الجـرِّ بخـطٍّ مطبـوع، أو أن تُنطَـق لي في يـدي، وعـلى نحـوٍ مـا، رغـم أنَّ حـروف الجـرِّ كانـت أمامـي، وجـدتُ أنَّ المكتـوب ببرايـل يثـير الحـيرة، ولم يسـتقِم في عقـلي بوضـوحٍ مـا كنـتُ أقـرؤه. لكـن حـين دخلـت امتحـان الجـبر كنـتُ مـا أزال أعايـش وقتًـا عصيبًـا. فالعلامـات التـي قـد تعلَّمتُهـا مؤخَّـرًا، ومـا ظننتُنـي أعرِفـه، أصابتنـي بالتشـوُّش. بجانـب، أنـا لم يكـن بإمـكاني أن أرى مـا كتبتُـه عـلى آلتـي الكاتبـة. كنـتُ دومًـا أنجـزُ عمـلي ببرايـل أو في عقـلي. كان السَّـيِّد كيـث يُعـوِّلُ كثـيرًا عـلى قُـدرتي في حَـلِّ المسـائل ذِهنيًّـا، ولم يُدرِّبنـي عـلى التدويـن في أوراق الامتحـان؛ وتبعًـا لهـذا، كان أدائي بطيئًـا عـلى نحـوٍ مـؤلم، وكان عـليَّ أن أقـرأ الأمثلـة مِـرارًا وتكـرارًا كي أسـتطيعَ أن أُكـوِّنَ أيَّ فِكـرة عـمَّا كان مطلوبًـا مِنـي القيـام بـه. في الواقـع، لسـتُ عـلى يقـينٍ الآن إن كنـتُ قـرأتُ كلَّ الرمـوز عـلى النحـو الصحيـح. فقـد وجـدتُ أنَّـه كان مـن العسـير جـدًّا عـلى فِطنتـي أن تُحيـط بهـذا.

لكنِّـي لا ألـومُ أحـدًا. لم تكـن الهيئـة الإداريَّـة في رادكليـف تُـدرك كـم كانـوا يُصعِّبـون عـليَّ الامتحانـات، ولا كانـوا يسـتوعبون المصاعـب العجيبـة التـي كان عـليَّ أن أتغلَّـبَ عليهـا. لكـن إن كانـوا قـد وضعـوا عقبـاتٍ في طريقـي عـن غـير قَصـدٍ منهـم، فعَـزائي أنِّي أعـرف أنَّنـي عليهـا جميعًـا قـد تغلَّبـت.

الفصل العشرون

لقد انتهى النِّضالُ لأجل القَبول في الكلية، وصار بإمكاني الآن أن أدخل رادكليف متى ما شِئت. رغم هذا، فقبل أن أدخل الكلية، ساد الاعتقاد بأنَّه من الأفضل لي أن أدرس سنةً دراسيَّةً أخرى تحت إشراف السَّيِّد كيث. على كلِّ حال، لم يتحقّق الأمر حتَّى انتهاء عام 1900، عندما كان حُلمي بالذَّهاب إلى الكلية قد صار حقيقة.

أتذكَّرُ أوَّلَ يومٍ لي في رادكليف. لقد كان يومًا حافلًا بكثير مِمَّا أثار اهتمامي. كنتُ أتشوَّفُ إليه طوال أعوام. قوَّةٌ كامنةٌ فيَّ، أقوى من محاولات إقناع أصدقائي، أقوى حتَّى من مُحاججات قلبي؛ قد سَيَّرتْني نحو محاولة استخدام قُدراتي بمعايير هؤلاء القادرين على الرؤية والسَّماع. كنتُ أعلمُ أنَّه سوف تعترضني عقباتٌ في الطريق، لكنِّي كنتُ توَّاقةً للتغلُّبِ عليها. لقد كنتُ أربطُ على قلبي بكلمات الحكيم الروماني الذي قال: "أن تُنفى من روما هو أمرٌ لا يعني سوى

أن تعيشَ خارج روما". أما وقد حُرِمتُ من سلوك الطُّرق الرئيسيَّة لبلوغ المعرفة؛ كان عليَّ أن أقوم بالرِّحلة عبر القُطر باتِّخاذ سُبُلٍ غير مَطروقة- كان هذا هو كلُّ شيء، وأدركتُ أنَّ في الكلِّيَّة الكثيرَ من الطُّرق الفرعيَّة، حيث فيها يكون باستطاعتي أن أتواصل عن قُربٍ مع فتياتٍ يُفكِّرن، يُحبِبن، ويُناضِلنَ مِثلي.

بدأتُ دروسي وكُلِّي لهفة. وأمامي شَهِدتُ عالـمًا جديدًا ينفتح ويُفضي إلى جَمالٍ ونور، وأنا أستشعرُ في نفسي المقدرة على أن أُدرِكَ كلَّ الأشياء. في أرض العجاب الكائنة بعقلي، ينبغي لي أن أكون طَليقةً كما في عالمٍ غيره. أُناسُ ذاك العالم ومناظِرُه، وعاداتُه، مَسرّاته ومآسيه، ينبغي أن تنضح بالحياة، أن تكون تَراجِمَ مُجسَّدةً حقيقيَّةً لعالَم الواقع. بدت قاعاتُ المحاضرات مُعبَّأةً بروح العَظَمةِ والحكمة، وكنتُ أعتقد أنَّ أساتذة الكلِّيَّة كانوا تجسُّدًا للحِكمة. إن كنتُ أفهم الأمور وقتها على نحوٍ مُغاير، فلستُ أنتوي إخبار أيِّ شخص عنها.

لكنِّي سريعًا ما اكتشفتُ أنَّ الكُلِّيَّة ليست تمامًا هي اللِّيسيوم[1] ذا الصِّبغة الرُّومانتيكيَّة التي كنتُ أتصوَّرُها. كثيرٌ من الأحلام التي كانت تُضفي البهجةَ على فترة جَهلي المبكِّرة قد خَفُتَت بهاؤها، و"ذَوَى ضوؤها، وتَحوَّل إلى ضوء يومٍ عادي". وبدأتُ أكتشفُ تدريجيًّا أنَّ أمر الذَّهاب إلى الكليَّة تشوبه مثالبَ.

الأمر السيِّئُ الذي كنتُ أشعرُ به أكثر -وما زلت- هو عدم كفاية الوقت. كنتُ متعوِّدةً أن يكون عندي وقت كي أفكِّر، كي أتأمَّل أفكاري وأتبصَّرَ في ذاتي. كُنَّا لَنَجلسُ سَويًّا ذات مساءٍ ونستَمِعُ إلى الأنغام الباطنيَّة للروح؛ تلك التي يسمعُها المرءُ فقط في لحظات الفراغ، عندما تلمس كلماتُ شاعرٍ مُحبَّبٍ إلى النَّفس وترًا عذبًا عميقًا داخل الرُّوح،

---

(1) ويُنطَق ليقيون، كان معبدًا مُكرَّسًا لأبوللو، واشتُهر بالمدرسة المشائية للفلسفة التي أسسها أرسطو. (المترجم)

وتـرًا كان حتَّـى حـدوث هـذا سـاكِنًا. لكـن في الكلِّيَّـة لا وجـود لوقـتٍ كي يتطـارح الإنسـانُ الأفـكار والعواطـف مـع ذاتـه. إنَّ المـرء يذهـب إلى الكُلِّيَّـة كي يتلقَّـى العلم عـلى مـا يبـدو، لا ليُفكِّـر. حـين يلِـجُ المـرءُ أبـوابَ العِلـم، يـتركُ خَلفـه أعـزَّ مسرَّاتِـه: الانفـراد بالـذَّات، والكتـب، والـمُخَيِّلة- يتركهـا بالخـارج جانـب أشـجار الصنوبـر الهامِسـة. أفـترضُ أنَّـه يجـدر بي أن أنشـد بعـض الرَّاحـة في فكـرة أنَّنـي أدَّخِـرُ كنـوزًا لأجـل اسـتمتاعٍ مُسـتَقبليّ، لكنَّـي قصـيرةُ النَّظـرِ بمـا يكفـي كي أفضِّـلَ المتعـةَ الحـاضرة، عـلى الاحتيـاط بذخـيرةٍ مـن الـثروات في مواجهـة يـومٍ ماطـر.

مـوادِّي الدِّراسـية في السـنة الأولى كانـت: الفرنسـيَّة، الألمانيَّـة، التاريـخ، الإنشـاء الإنجليـزيّ والأدب الإنجليـزيّ. في منهـج الفرنسـية كنـتُ أقـرأ بعضًا مـن أعـمال: كورنييـل، موليـير، راسِـن، آلفـرِد دي موسـيه وسـان بـوف، وفي الألمانيـة كنـتُ أقـرأ أعـمالًا لغوتـه وشـيلر. راجعـتُ عـلى عجـلٍ الحقبـة التاريخيـة الكاملـة التـي تغطِّـي سُـقوط الإمبراطوريَّـة الرومانيّـة، وانتهـاءً بالقـرن الثامـن عـشر، وفي الأدب الإنجليـزيّ درسـتُ نقديًّـا قصائِـدَ ميلتـون و"آريوباغاتيـكا"[1].

أتسـاءلُ بـين الحـين والأخـرى: كيـف تسـنَّى لي أن أتغلَّـب عـلى الظروف العجيبـة التـي كنـتُ أعمـل تحـت وطأتِهـا في الكليَّـة. فأنـا في حُجـرة الدِّراسـة، عمليًّـا، أكـون بالطَّبـع وحـدي. يكـون البروفيسـور متباعـدًا عنِّـي كـما لـو كان يتحـدَّث عـبر هاتـف. تُنطَـق المحـاضرات في يـدي بسرعـةٍ قـدر المسـتطاع، وكثـيرٌ مـن السِّـمات الفرديَّـة للمُحـاضر تتـلاشى بالنسـبة لي في محاولـةٍ لِلَّحـاق بالسِّـباق. تندفـع الكلـمات عـبر يـدي ككلاب صيـدٍ تفتِّـشُ عـن أرنـبٍ وحـشيٍّ قـد فقـدوا أثـره. لكنِّـي في هـذا الصَّـدَدِ لا أظنُّنـي أسـوأ حـالًا أكـثر مـن الفتيـات الـلائي يُـدَوِّنَّ مُلاحظـات. إن كان العقـل مُنشـغِلًا بالعمليَّـة الأتوماتيكيَّـة للسَّـماع أو بتدويـن الكلـمات عـلى الـورق بسرعـةٍ

(1) خطـاب وجَّهـه ميلتـون إلى أعضـاء البرلمـان بخصـوص الحَظـر الـذي كان مفروضًـا وقتهـا عـلى صناعـة النـشر. (المترجـم)

ودون نظـام، فـلا ينبغـي أن أفكِّـر بـأنَّ المـرء باسـتطاعته أن يـولي الكثـير مـن الانتبـاه للـمادة الواقعـة تحـت الملاحظـة، ولا للنَّهـجِ المقدَّمـة مـن خلالـه. ليـس باسـتطاعتي أن أدوِّنَ ملاحظـاتٍ أثنـاء المحـاضرات؛ لأنَّ يـدَيَّ تكونـان مشـغولتَيْن بالاسـتماع. في العـادة أدوِّن باختصـارٍ وعـلى عجـلٍ مـا أسـتطيع تذكُّـره منهـا عنـد عـودتي إلى البيـت. أكتـب التدريبـات، مواضيـع الإنشـاء اليوميَّـة، مواضيـع النَّقـد، وأهـب سـاعة للتدريـب عـلى الامتحانـات، امتحانـات منتصـف العـام والامتحانـات النهائيَّـة، يكـون ذلـك عـلى آلتـي الكاتبـة، وبهـذا لـن يتجشَّـم الأسـاتذةُ عنـاءَ اكتشـاف كـم هـو قليـلٌ مـا أعرِفُـه. عندمـا بـدأتُ دراسـة علـم العَـروض في اللغـة اللاتينيَّـة، اسـتنبَطتُ وشرحـتُ لأسـتاذي نظامًـا مـن العلامـات التـي تُبـيِّنُ الأوزان الشِّـعريَّة المختلفـة وتفعيلاتِهـا.

أنـا أسـتخدم آلـة كاتبـة ماركـة هامُّنـد Hammond. كنـتُ قـد جرَّبـتُ الكثـير مـن الأنـواع، ووجـدتُ أنَّ هامُّنـد هـي أفضـلُ مـا يتـلاءمُ مـع الاحتياجـات الخاصَّـة لعمـلي. مـع هـذا النـوع يُمكـن اسـتخدام نـوعٍ مـن الوشـائع[1] القابلـة للتبديـل، ويمكـن للمـرء الحصـول عـلى العديـد منهـا؛ يكـون لـكلِّ وَشـيعَةٍ مجموعـة مختلفـة مـن الرمـوز: اليونانيـة، الفرنسـيَّة أو الرياضيَّـات؛ كيفـما يقتضيـه نـوعُ الكتابـة الـذي يرغـب المـرء أن يؤدِّيـه عـلى الآلـة الكاتبـة. دونهـا؛ أشـكُّ أنِّي كنـتُ اسـتطعتُ الذَّهـاب أصـلًا إلى الكلِّيَّـة.

قليلـةٌ للغايـةِ كانـت هـي الكُتـب المطبوعـة خِصِّيصًـا للمكفوفين مـن التـي كانـت مطلوبـة في العديـد مـن المناهـج الدِّراسـيَّة، وكنـتُ مُجبَرة أن أتلقَّاهـا مَنطوقـةً في يـدي. وبالتَّـالي كنـتُ أحتـاجُ مزيـدًا مـن الوقـت كي

---

(1) في الأصـل هـي Shuttles، والوشـيعة هـي مكُّـوك؛ خشـبة يُلـفُّ عليهـا ألـوان الغـزل في آلـة النـوُّل، وتُطلـق لفظـة "وشـيعة" عـلى الملِفَّـات الكهرومغناطيسـيَّة في الكهربـاء والإلكترونيَّـات، والمقصـود هُنـا هـو الجـزء الأسـطواني المرقـوم عليـه الحـروف، وهـو جـزء قابـل للتبديـل، حسـب العنـاصر المـراد تدوينهـا. (المترجِـم).

أُعِـدَّ لـدروسي أكـثر مـن الفتيـات الأخريـات. الجـزء اليـدويُّ مـن العمليـة كان يسـتغرق وقتًـا أطـول، وكانـت تصادفنـي الكثـير مـن العقبـات لم تكـن تواجـه الفتيـات الأخريـات. تمـرُّ أيَّـامٌ، يكـون الانتبـاه المركَّـز المفـروض علـيَّ أن أهبـه للتفاصيـل يبعـث الـدِّفء في روحـي، وفكـرة أنَّـه لِـزامٌ علـيَّ أن أقـضي سـاعاتٍ في قـراءة فصـولٍ قليلـة، بينـما أنـا في عـالمٍ دون فتيـاتٍ أُخريـات يضحكـنَ ويغنِّـينَ ويرقُصـنَ، كان يجعلنـي حَـرونًا، لكنـي إن عاجـلًا أسـتعيد إحسـاس الابتهـاج والخِفَّـة وأهـزأ مـن اسـتيائي وأطـرده خارِجًـا مـن قلبـي. حيـث أنَّـه رغـم ذلـك، علـى كلِّ إنسـانٍ يرغـب تحصيـلَ معرفـةٍ حقيقيَّـةٍ؛ لِـزامٌ عليـه أن يتسـلَّقَ رابيـةَ المصاعـب وحـده، ولأنَّـه مـا مـن طريـقٍ مَلَكيَّـةٍ توصِـلُ إلى الـذُّروَة؛ فـكان لا بُـدَّ أن أسـلُك إليهـا سـبيلًا ملتويـة علـى طريقتـي. أكبـو مـرَّات عِـدَّة، أسـقُط، مـا زلـتُ أصمـد، أهرول نحـو حافَّـة العقبـات الخَفيَّـة، أفقـد صـوابي وأعـودُ إلى رُشـدي وأُبقـي علـى مزاجـي في حـالٍ أفضـل، أقطـعُ مشـيًا طويـلًا مُجهِـدًا، أجنـي القليـل، أشـعر بالتَّأييـد، أصـيرُ أكـثر لهفـةً وأصعـدُ أعلـى وأبـدأ أرى الأفـق المتَّسِـع. كلُّ نِضـالٍ هـو انتصـار. مزيـدٌ مـن المجهـود وسـأبلُغ السَّـحابة المضيئـة، سـأبلُغ أغـوارَ السَّـماء الزرقـاء، سـأبلغ نجـود[1] أرض رغبتـي. ورغـم هـذا فلسـتُ وحـدي دومًـا في تلـك الصِّراعـات. فالسَّـيِّد وليـام وايـد والسَّـيِّد أَلِـن؛ مديـر معهـد بنسلـڤـانيا لتعليـم المكفوفـين، جميعـم يتحصَّلـون لي علـى الكثـير مـن الكتـب التـي أحتاجهـا في إصـدارٍ بحـرف بـارز. لقـد كان اكتراثهـم لأمـري عَونًـا وتشـجيعًا أكـثر مـما كان باسـتطاعتهم أن يدركـوا علـى الإطـلاق.

السـنة الماضيـة؛ سـنتي الثانيـة في رادكليـف، درسـتُ الإنشـاء الإنجليزيَّ، ودرسـتُ الكتـاب المقـدَّس باعتبـاره داخـلًا ضمـن الأدب الإنجليـزيّ، والأنظمـة الحاكمـة في أمـيركا وأوروبـا، والقصائـد الغنائيـة مـن شِـعر هـوراس، والكوميديـا اللاتينيَّـة. حصـة علـم الإنشـاء كانـت أكـثر مـا يبـثُّ

(1) النَّجد: الطريق الواضحة المتَّصلة، والمكان النَّجد، هو المكان المُشِرف، المرتفِع. (المترجم)

فيَّ البهجة. كانت شيئًا جِدَّ نابضٍ بالحياة. المحاضراتُ كانت دومًا مثيرة للاهتمام، مَرِحة، فَكِهَة، مع المعلم؛ السَّيِّد تشارلز تاونسِند كوبلاند، أكثر من أيِّ مُعلِّمٍ آخر حضرتُ معه حتى هذا العام؛ إنَّه يجعلُ الأدبَ يمثُلُ أمامكَ بكلِّ نضارتِه الأصيلة وسَطوَتِه. ولفترةٍ قصيرةٍ من الزَّمن، يُتاحُ لكَ أن تُحدِّق وتستمِع وتلتهِم في ابتهاجٍ ذلك الجمال الخالد للسَّادة القُدماء، دون تأويلٍ لا حاجة إليه أو توضيح. تمرحُ بين أفكارهم الرَّفيعة. تستمتعُ بكلِّ روحِكَ بالنَّبرة المتوعِّدة الوقورةِ للعهد القديم، متناسيًا وجود"يهوَه" و"إلوهيم"[1]، وتعودُ إلى البيت وأنتَ تشعرُ أنَّكَ قد حُزتَ "نظرةً خاطفةً على ذاك الكمال الذي فيه تستكين الرُّوحُ والمادَّةُ في تناغمٍ سَرمديٍّ، حيث الحقُّ والجمال يحملان نَبتًا جديدًا على ساق الزَّمن العتيق".

هذه السنة هي السنة الأسعد بالنسبة لي لأنَّني أدرسُ موادَّ تثير اهتمامي على وجه الخصوص: علم الاقتصاد، الأدب في العصر الإليزابِثِّي، شيكسبير، وذلك تحت إشراف البروفيسور چورچ ل. كيتردچ، وتاريخ الفلسفة تحت إشراف البروفيسور چوزيه رويس. عبر الفلسفة، ينغمس المرء بما يهبه الفَهمُ إيَّاه من تعاطفٍ، وهو يغوص في معرفة الأعراف القديمة للعصور السحيقة ولأنساق التفكير الأخرى، التي كانت تبدو له غريبةً وغيرَ منطقيَّةٍ قبل فترةٍ وجيزةٍ من اطِّلاعه عليها.

لكنَّ الكلية ليست هي أثينا الكونيَّة كما ظننتُ أنها كذلك. فيها لا يلتقي المرء بالعظيم والحكيم وجهًا لوجه، ولا يشعر حتَّى بأثرهم الحَيِّ. إنهم يكونون حاضرين، هذا صحيح، لكنَّهم يبدون مُحنَّطين كمومياوات. وعلينا أن نستخرجهم من حائط التعليم المتصدِّع، ونفحصهم بدقَّةٍ ونُحلِّلهم، قبل أن نتمكَّن من التَّثَبُّتِ أنَّ عندنا ميلتون أو إشعياء، وليس مجرَّد محاكاةٍ ماهرة. يُخيَّلُ إليَّ أنَّ كثيرًا

(1) يهوه، إلوهيم: اسم الله المذكور في التوراة. (المترجم)

مـن أحبـارِ الأدب يتناسَـون أنَّ اسـتمتاعَنا بالأعـمال الأدبيَّـة العظيمـة إنمـا يعتمـدُ عـلى مـدى عُمـق تعاطفنـا معهـا وجدانيًّـا، أكـثر مـن قَـدْر فَهمنـا مغزاهـا الفلسـفيّ. الإشـكال هـو أنَّ قليـلًا جـدًّا مـن شروحاتهِـم الشـاقَّة يعلَـقُ بالأذهـان. إنَّ العقـل يُسـقِطُها كـما يُسـقِطُ فـرعُ شـجرةٍ الفاكهـةَ التـي جـاوزت النُّضـج. مـن الممكـن أن تتعـرَّف عـلى زهـرة، عـلى جِـذرٍ وسـاقٍ وعـلى كلِّ شيء، عـلى كلِّ عمليَّـات النُّمـوِّ التـي تمـرُّ بهـا النَّبْتَـة، وأنـتَ بعـدُ لا تُقـدِّرُ الزهـرة النَّضِرة التـي نعِمت بالاغتسـال بندى السـماء. أعـاود التسـاؤل مـرارًا وتكـرارًا في نفـاد صَـبر: "لمـاذا أنـا، أشـغَلُ نفـسي، بهـذه الشروحـات، وهـذه الفرضيَّـات؟". فهـي تُحلِّـق بـين أفـكاري هُنـا وهُنـاك، مثـل طيـورٍ عميـاء تـضرب الهـواء بأجنحـةٍ عقيمـةٍ لا نفـع منهـا. أنـا لا أقصـد أن أوجِّـه اعتراضًـا عـلى المعرفـة العميقـة التـي نُحصِّلها مـن الأعـمال ذائعـة الصيـت التـي نقرؤهـا. بـل اعـتراضي هـو عـلى التعليقـات المطوَّلـةِ حـدَّ السـأم، وعـلى الكِتابـات النَّقديـة التـي تُثـير الحَـيرة، ولا تُعلِّـمُ سـوى شيءٍ واحـد: أنَّ العـالم يعـجُّ بالكثـير مـن الآراء بقـدر مـا فيـه مـن بـشر. لكـن عندمـا يُقـدِّمُ عالِـمٌ عظيـمٌ كالبروفيسـور كيـتردج تأويـلًا لمـا قالـه الحكيـم، يكـون الأمـر "كـما لـو أن قـد أُنعِـمَ عـلى الأعمـى ببـصرٍ جديـد"؛ فيُبعـث شيكسـبيرُ الشـاعرُ للحيـاة مُجـدَّدًا.

رغـم ذلـك، تمـرُّ أوقـاتٌ أتـوقُ فيهـا لأنْ أصرِفَ عنِّـي نِصـف الأشـياء المنتَظـر لي أن أتعلَّمهـا؛ ذلـك لأنَّ العقـل الـمجهَد بدفـع الضرائـب ليـس باسـتطاعته أن ينعـمَ بالكَنـز الـذي أمَّنَـهُ بأعـلى كُلفـة. وأعتقـد أنَّـه مـن المسـتحيل أن تقـرأ في اليـوم الواحـد أربعـة أو خمسـة كُتـبٍ مُختلفـة في لغـاتٍ مختلفـة، وأن تُعالِـجَ مواضيـع متباينـةً عـلى نحـوٍ واسـع، وأن تُخطِـئَ في تحديـد الحـدود القصـوى التـي عندهـا يتوقَّـف المـرء. عندمـا يقـرأ الإنسـان وهـو عَجِـلٌ ومتململ، وهـو يضـع نصـب عينيـه الامتحانـات التحريريـة والاختبـارات؛ فـإنَّ عقلَـه يصبـح مُثقـلًا بتشـكيلةٍ مُختـارة مـن الخـردوات التـي يبـدو أنَّهـا ذاتُ نَفْـعٍ ضئيـل. إنَّ عقـلي في الوقـت

الحاضر حافلٌ بأشياء غير متجانسة، حتى أنِّي فقدتُ الأمل في قُدرتي على أن أجعلها في هيئةٍ مُنظَّمة. عندما أَلِجُ المنطَقة التي كانت هي مملكة عقلي، أشعر كأني ثورٌ في محلٍّ لبيع الخزف. تفيض بداخله ألفُ شاردةٍ وواردة من المعرفة وتقرعُ رأسي كالبَرَد، وحين أحاول الفرار منها، تُلاحقني عفاريتُ الأفكار ونكسيَّات[1] الكُلِّيَّة من كل الأصناف، إلى أن أتمنَّى -آه! فلتُغفَر لي أمنيتي الملعونة!- أن لو حطَّمتُ كل الأصنام التي انتهى بي الحال إلى تقديسِها.

لكنَّ الامتحانات هي "البُعبُع" الأكبر بالنسبة لحياتي في الكلية. رغم أنَّني تواجهتُ معها مرَّاتٍ كثيرة، وكُسِرَت شوكتها بالنسبة لي، وجعلتها تسفُّ التراب، ومع ذلك تُبعَثُ مُجدَّدًا وتتوعَّدُني بنظراتٍ ممتَقعة، إلى أن أصيرَ مثل بوب أكرِس[2] وأشعرَ بشجاعتي تنزُّ من أطراف أصابعي. الأيَّامُ التي تسبق حلول هذه المِحنِ عليك، تُقْضَى في حَشو عقلِك بالصِّيَغ الغامضة وبالتَّواريخ العسيرة على الهضم- وهي وجبات غذائيَّةٌ غير مُستساغة، حتى أنَّك لتتمنَّى أن لو دُفِنَتَ أنتَ والكُتب والعلوم جميعًا في أعماق البحر.

تحلُّ في الأخير ساعةُ الفَزَع، وتكونُ أنتَ كائنًا موهوبًا إن كنت تشعر أنَّكَ مستعدٌّ لمواجهتها، وأنَّك قادرٌ على استدعاء أفكارك القَيِّمةِ في الوقت المناسب، تلك التي ستُعينُكَ في مَسعاكَ الأسمى. في غالب الأحيان، يحدُثُ كثيرًا ألَّا يُلتَفَتَ لنَفير ندائِك. ويكون أكثر ما يثير الحيرة وأكثر ما يثير السُّخط، هو أنَّك في اللحظة التي تكون في حاجةٍ تمامًا إلى ذاكِرَاتِك وإحساسٍ ألْمَعِيٍّ بُحسن التمييز، تُركِّب تلك القُدرات لنفسها أجنحةً وتطير. والمعلومات التي كَدَّستَها بعناءٍ لا ينتهي، تخذلُكَ مع أوَّلِ أزمة.

---

(1) Nixie: فتاة تخرج من البحر طبقًا للأساطير، تماثل تقريبًا السيرينا في الميثولوجيا الإغريقيَّة. (المترجم)

(2) شخصية في مسرحية "الغُرماء" من تأليف الكاتب الأيرلندي ريتشارد شيريدان. (المترجم)

"اكتب نبذة مُختصرة عن هاس وعن أعمالِه". هاس؟ مَن كان هذا وماذا عمِل؟ يبدو الاسمُ مألوفًا بشكلٍ عجيب. وأنتَ تُفتِّشُ في كيس الحقائق التاريخيَّة الذي تحمله يُشبه كثيراً أن تبحث عن إبرة في كومة قَشّ. أنتَ تعرفُ أنَّ المعلومة موجودة بمكانٍ ما داخل عقلك، على مقرُبةٍ من القِمَّة- كنتَ تراها هُناك في اليوم قبل السابق، حين كنت تبحث عن بدايات حركة الإصلاح الدِّيني. لكن أين هي الآن؟ تبحثُ دَقيقًا في نمط كلِّ شاردةٍ وواردة من المعرفة: في الثَّوَرات، في الانشقاقات، في المذابِح، في الأنظمة الحاكِمة- لكن هاس... أين هو؟ تُدهَشُ لكلِّ الأشياء التي أنتَ تعرفها وليستَ مَوضع سؤال في ورقة الامتحان. وفي يأسٍ منك، تمسك بالكيس وتُفرِغُ كلَّ شيء، وهناك، في رُكنٍ، يقبع الرجل الذي تبحث عنه، هامِدًا، يتأمَّلُ أفكاره الباطنيَّة الخاصَّة، غير مُدرِكٍ للنَّكبة التي قد جلبها عليك.

عندئذٍ تمامًا يُعلِمُكَ المراقب أنَّ وقتَ الامتحان انتهى. تخرج بينما يملؤك شعورٌ حادٌّ بالقَرف فتركل كومة القِمامة التي في الزاوية وتعود إلى البيت، ورأسُكَ يصطَخِبُ بمُخططَّاتٍ ثَوريَّة لأجل نَزع القَداسَةِ تمامًا عن أساتذة الجامعة؛ كي تتمكَّن من طرح الأسئلة دون أن تكون على خِلافٍ مع المسؤول.

يستبِدُّ بي شعورٌ بأنَّني في آخر صفحتَيْن أو ثلاث صفحاتٍ من هذا الفصل قد استخدمتُ استعاراتٍ سوف تثير السخرية مِنِّي. آه، ها هي- إنها تلك الاستعارات المختلطة السَّاخرة التي تتبخترُ أمامي، التي تُشير إلى الثور في محل بيع الخزف المُغارِ عليه من جانبِ حبَّات البَرَد، وكائنات البُعبُع ذواتِ النظراتِ المتوعِّدة، إنَّها أصنافٌ من الاستعارة غير قابلةٍ للتحليل! دعهم يواصلوا سُخريَّتَهم. إنَّ تلك الكلماتِ تصِفُ بِدقَّةٍ بالغة أجواءَ الأفكار المتدافِعة المتداعيةِ التي أعيش فيها، حتَّى أنَّني في مرَّةٍ سوف أغمزُ بطَرف عيني، وأتكلَّف سيماء المتروِّي وأقول: إنَّ أفكاري عن الجامعة قد تغيَّرت.

بينـما كانـت أيَّامـي في رادكليـف مـا تـزالُ وقتهـا في عِـداد المسـتقبَل، تلـك الأيَّـامُ التـي كانـت مُطوَّقـةً بهالـة مـن الرومانسـيَّة، تلـك الهالـة التـي قـد فقدتهـا، بَيْـدَ أنَّـه في فـترة التحـوُّل مـن الرومانسـيَّة إلى الواقعيَّـة تعلَّمـتُ الكثـير مـن الأشـياء التـي لم أكـن لأتعلَّمهـا مـا لم أخُـض التَّجربـة. أحـدُ هـذه الأشـياء هـو الإدراكُ الثمـين بقيمـة الصَّـبر؛ فالصـبرُ يُعلِّمُنـا أن نخـوض عمليـة تعليمنـا كـما لـو كُنَّـا تقـوم بتمشـيةٍ في الرِّيـف؛ عـلى مهـلٍ، وعقولنـا مُنفتحـةٌ بحُسـن تقبُّـلٍ عـلى كلِّ الانفعـالات النفسـية مـن كلٍّ صنـف. مثـلُ تلـك المعرفـةِ تغمـر الـرُّوح خِفيَـةً بموجـةٍ "مَدِّجَزريَّـةٍ" صامتـة مـن التفكـير العميـق. "المعرفـةُ قُـوَّة". بـل الأحـرى: المعرفـةُ سـعادة؛ فـأن تحـوزَ المعرفـة -معرفـةً عميقـة، واسـعة الأفـق- يعنـي أن تَميـزَ الحقيقـيَّ مـن الزَّائـف، وتميـزَ الأشـياءَ السَّـاميةَ مـن تلـك الوَضيعـة. أن تعـرف الأفكار والصنائـع التـي وَسَـمَت مسـيرةَ البَـشريِّ يعنـي أن تشـعرَ بالقلـب النَّابـض للإنسـانية عـلى مَـرِّ القُـرون، وإن لم يستشـعر المـرءُ في تلـك النَّبضـات السَّـعيَ نحـو الأعـالي؛ فـلا بُـدَّ وأنَّـه قـد حَجَـبَ وَقْـرٌ سَـمْعَه عـن تناغُـماتِ الحيـاة.

مكتبة
t.me/soramnqraa

الفصل الحادي والعشرون

بهـذا أكـون قـد ذهبـتُ بعيـدًا في وصـف أحـداث حيـاتي، لكنِّـي لم أُبـيِّن كيـف كنـتُ أعتمـدُ كثـيرًا عـلى الكُتـب، ليـس فقـط لأجـل المتعـة والحكمة التـي تهبهـا لجميـع مَـن يقرَؤنهـا؛ إنَّما كذلـك بسـبب المعرفة التـي يتحصَّلها الآخـرون منهـا عـبر آذانِهـم وعُيونِهـم. في الواقـع لقـد كانـت الكتـب تُمثِّـلُ لي أهميـةً فائقـة في تعليمـي، أكـثر مـمَّا كانـت بالنسـبة للآخريـن؛ ولهـذا عـليَّ أن أعـود أدراجـي إلى العهـد الـذي بـدأتُ فيـه القـراءة.

قـرأتُ قِصَّتـي الأولى الكاملـة في مايـو، 1887، عندمـا كنـتُ في السَّـابعة مـن العُمـر، وبَـدءًا مـن ذاك اليـوم إلى الآن، صِرتُ ألتهِـمُ كلَّ شيءٍ موجـودٍ في صـورة صفحـةٍ مطبوعـة يقـع في منـال أطـراف أصابعـي الشَّرِهـة. وكـما قُلْـت؛ لم أكـن أدرس بشـكلٍ منتظـم في الأعـوام الأولى مـن عمليـة تعليمـي- ولا حتَّـى كنـتُ أقـرأ كـما تقتـضي التعليـمات.

كان عنـدي في بدايـة الأمـر عـددٌ قليـلٌ مـن الكتـب المطبوعـة بالحـرف البـارز، مثـل كتـاب: "القارِئـون" للمبتدئـين، مجموعـة مـن قصـص الأطفـال، وكتـاب عـن كوكـب الأرض يُسـمَّى "عالـمُنا". أظـنُّ أنَّ هـذه كانـت هـي كل الكتـب التـي لـديَّ، غـير أنِّي كنـتُ أقرؤهـا مِرارًا وتكـرارًا، حتـى تصـير الكلـمات جـدَّ باليـةٍ ومتكدِّسـة وأسـتطيعُ بالـكاد أن أتبيَّنَهـا. كانـت الآنسـة ساليـڤـان أحيانـًا تقـرأ لي، تنطـق في يـدي بالقصـص القصـيرة والقصائـد التـي تعلـم أنَّنـي سـوف أفهمهـا، لكنِّـي كنـتُ أفضِّـلُ أن أقـرأ بنفسـي عـلى أن يُقـرأ لي، لأنَّنـي كنـتُ أحـبُّ أن أقـرأ الأشـياء التـي تُدخـل الـسرور عـليَّ مـرارًا وتكـرارًا.

كان ذلـك في أول زيـارةٍ لي لبوسـطن عندمـا بـدأتُ فِعـلًا أن أقـرأ بجِدِّيَّـةٍ بالغـة. سُـمِحَ لي بقضـاءِ شـطرٍ مـن كلِّ يـومٍ في مكتبـة المعهـد، وبـأن أهيـم مــن حاويــةِ كتــبٍ إلى أُخــرى، أنتَــزِعُ أيَّ كتــابٍ كان يقـع عليـه اختيـارُ أصابعـي. وكنــتُ أقــرأ؛ ســواءٌ كنــتُ أفهــم كلمــةً واحــدة مــن كلِّ عــشر كلـمات، أو كلمتـين مـن كلِّ صفحـة. الكلـماتُ نفسـها كانـت تفتِنُنـي، لكنِّـي لم أكـن أُحصِّـل فَهـمًا واعيًـا بمـا كنـتُ أقـرؤه. رغـم ذلـك، لا بُـدَّ أنَّ عقـلي كان سـهل القَولبـةِ في تلـك الفـترة؛ فقـد كان يحتفِـظُ بالكثـير مـن الكلـمات وبجُمـلٍ كاملــة -والتــي لم يكــن عنــدي أدنى فِكــرة عــن معانيهــا- وتــلا ذلـك، حـين بـدأتُ أتكلَّـمُ وأكتُـب، كانـت تلـك الكلـمات تلمـع عـلى نحـوٍ خاطـفٍ في ذهنـي عـلى نحـوٍ عَفَـويٍّ تمامًـا؛ لـذا كان أصدقـائي يَعجَبـون مـن ثَـراء حصيلـة مُفـردَاتي. لا بـدَّ وأنِّي قـد قـرأتُ أجـزاءً مـن الكثـير مـن الكتـب (في تلـك الأيـام الأولى أظـنُّ أنِّي لم أقـرأ كتابًـا كامـلًا بمعنـى الكلمـة) وقـرأتُ قَـدرًا كبـيرًا مـن الشِّـعر عـلى هـذا المنـوال مـن القـراءة الغـير الواعيـة، إلى أن اكتشـفتُ "اللـورد فونتليـوري الصَّغـير"، الـذي كان الكتـاب الأوَّل بالنسـبة لي- بنـاءً عـلى أنِّي قرأتُـه وفَهِمتُـه.

ذات يـومٍ وجدَتنـي مُعلِّمتـي في رُكـنٍ مـن المكتبـة وأنـا مُنكَبَّـةٌ فـوق صفحـات "الحـرف القُرمُـزيّ". كنـتُ وقتئـذٍ في الثامنـة مـن العمـر تقريبًـا. أتذكَّـرُ أنَّهـا سـألَتْني إن كانـت أعجبتنـي شـخصية الصغـيرة پـيرل، وشرحـت لي بعـض الكلـمات التـي كانـت تُحـيِّرُني. ثـمَّ أخبرتنـي أنَّ عندهـا قصـة جميلـة تحـكي عـن ولـد صغـير، وأنَّهـا عـلى يقـينٍ أنَّهـا سـوف تُعجبنـي أكـثر مـن "الحـرف القرمـزي". كان اسـم القِصـة "اللـورد فونتلـيروي الصغـير"، ووعدتنـي بأنَّهـا سـوف تقرؤهـا لي في الصيـف التـالي. لكنَّنـا لم نبـدأ قـراءة القصـة حتـى شـهر أغسـطس؛ فالأسـابيع القلائـل الأولى مـن إقامتـي عـلى شـاطئ البحـر كانـت حافلـةً بالاكتشـافات وبالإثـارة؛ مـا جعلنـي أنـسى حتـى وجـود الكُتـب. ثـمَّ ذهبـت مُعلِّمتـي لزيـارة بعـض الأصدقـاء في بوسـطن، وتركتنـي لفـترةٍ قصـيرة.

عندمـا عـادت كان أوَّل شيء فعلنـاه تقريبًـا هـو أن بدأنـا قـراءة "اللـورد فونتيلـوري الصَّغـير". إنِّي لأتذكَّـرُ بجَـلاءٍ الزمـانَ والمـكان حيـث قرأنـا الفصـول الأولى مـن قصـة الطِّفـل الفاتنـة. حـدث هـذا بعـد ظهـيرةٍ دافئـة مـن شـهر أغسـطس. كنَّـا نجلـس سَـويًّا في أرجوحـةٍ شَـبَكيَّة، كانـت مُعلَّقـةً بـين شـجرَتَيْ صنوبـر كبيرتَـيْن، عـلى بُعـد مسـافةٍ قصـيرة مـن المنـزل. وقـد أسرعنـا في غسـيل المواعـين بعـد مأدبـة الغـداء؛ كي يتوفَّـر لنـا أطـول وقـت ممكـن مـن الظهـيرة لأجـل القصـة. بينـما نحـن نتعجَّـل السَّـير بـين الحشـائش السَّـامقة نحـو الأُرجوحـة، كانـت الجنـادب تقفـزُ نحونـا بشـكلٍ جماعـي وتوثـقُ أنفسـها بملابسـنا، وأتذكَّـرُ أن مُعلِّمتـي أصرَّت عـلى أن نلتقِطَهـم جميعًـا ونتخلَّـص منهـا قبـل أن نجلـس في الأرجوحـة، وهـو مـا بـدا لي تبديـدًا غـير ضروريًّـا للوقـت. كانـت الأرجوحـة مُغطَّـاةً بإبـر الصنوبـر؛ لأنَّهـا لم تكـن قـد استُخدِمَت عندمـا سـافرت مُعلِّمتـي. كانـت الشـمس الدافئـة تبعـثُ بأشـعَّتِها عـلى أشـجار الصنوبـر، وتسـتلُّ كلَّ أريجهـا خارجًـا. كان الهـواء ذا تأثـير بَلسَـميٍّ شـافٍ، تتخلَّلـه نكهـة البحـر. قبـل أن نـشرع في قـراءة القصـة شرحـت لي الآنسـة ساليـڤـان الأشـياء التي

كانت تعلم أنَّني سوف لن أفهمها، وبينما نحن ماضيتان في القراءة كانت تشرح لي غريبَ الكلمات. في البداية كانت تقابلني الكثير من الكلمات التي لم أكن أعرفها، ومسيرة القراءة كانت تُقاطَعُ دومًا، لكن ما إن أدركتُ الموقف تمامًا، صرتُ جِدَّ متلهِّفة للاستغراق في القصَّة بهدف ملاحظة الكلمات وحدها، وأخشى أنَّني كنتُ أستمع في نفاد صَبر إلى شروحات الآنسة ساليڤان التي كانت تشعر أنَّها ضرورية. عندما كَلَّت أصابعُها عن المواصلة؛ أحسستُ وللمرَّة الأولى بشعورٍ أليمٍ بمظاهر إعاقتي. أخذتُ بالكتاب بين يديَّ، وجاهدتُ لأتحسَّسَ الحروف بلهفةٍ شديدةٍ لن أستطيع نسيانها إلى الأبد.

فيما بعد، نزولًا على طلبي اللحوح، جعل السَّيِّد أناجنوس هذه القِصَّة مُقرَّرَة، وكنتُ أقرؤها مرارًا وتكرارًا، حتى حفِظتُها تقريبًا عن ظَهر قَلب، وطوال فترة طفولتي، كان "اللورد فونتليوري الصغير" هو رفيقي الأنيس اللطيف. لقد أوردتُ تلك التفاصيل مُخاطِرةً بأن تكون مُضجِرة، لأنَّها بمثل هذا التباين الظاهر المرافق لوضعي الضبابي، وذكرياتي المتقلِّبة الملتبِسة عن قراءاتي الأولى.

ابتداءً من "اللورد فونتليوري الصغير" أؤرِّخُ لبداية اهتمامي الحقيقيِّ بالكُتب. أثناء السَّنتَيْن التاليتَيْن قرأتُ الكثير من الكتب في بيتي وأثناء زياراتي لبوسطن. لا أستطيعُ تذكُّر ماذا كانت جميع تلك الكتب، ولا بأيِّ ترتيبٍ قرأتُها، لكنِّي أعرف أنَّ من بينها كان كتاب: "الأبطال اليونانيُّون"، "حكايات لافونتين الخرافيَّة"، "كتاب العجائب" لهوثورن، "قَصصُ الكتاب المقدَّس"، "حكايات من شيكسبير" لـ لامب، "تاريخ إنجلترا للأطفال" لديكنز، "ألف ليلة وليلة"، "عائلة روبنسون السويسريَّة"، "مسيرة الحاجِّ"، "روبنسون كروزو"، "امرأةٌ صغيرة"، و"هايدي"؛ وهي قِصةٌ صغيرة جميلة قرأتُها فيما بعد بالألمانيَّة. كنتُ أقرأ هذه الكتب في الفترات ما بين الدراسة واللهو بإحساسٍ عميقٍ مُطلَقٍ بالمتعة. لم أكُن أدرسها ولا أتناولها بالتحليل -أنا لم أكن أُدركُ

حتَّى إن كانت مكتوبة على نحوٍ مُتقَن أم غير ذلك- لم أفكِّر مُطلقًا بأمر الأسلوب الأدبي ولا بنسبتها إلى كاتبها. لقد طَرحَت تلك الكتبُ كُنوزَها تحت قَدَمَيَّ، وأنا قبِلتُها كما نتقبَّلُ شُعاع الشمس والمحبَّة من أصدقائنا. أحببتُ "امرأة صغيرة" لأنَّها وهبتني إحساسًا بالقَرابة مع الأولاد والبنات الذين كان باستطاعتهم الرؤية والسَّماع. وحيثُ أنِّي مُقيَّدَةٌ كما هو حال حياتي في الكثير من النَّواحي؛ كان عليَّ أن أبحثَ بين دفَّتي الكُتب عن أخبار العالم الذي يقع خارج عالمي.

لم آبه كثيرًا على وجه الخصوص بـ "مسيرة الحاجّ"، وأظنُ أنِّي لم أُنهِ قِراءتها، ولا حتَّى للـ "الحكايات الخرافيَّة". قرأتُ "حكايات" لافونتين للمرَّة الأولى في ترجمةٍ إنجليزيَّة، واستمتعتُ بها فقط إلى حدٍّ ما بشعورٍ يفتقر إلى الحَماسة. أعدتُ قراءة الكتاب فيما بعد بالفرنسيَّة، وتبيَّنتُ أنَّه، رغم الكلمات المثيرة للخيال، والإتقان اللغويِّ المدهش، لم يزد إعجابي بها. أنا لا أعرف لماذا هي كذلك معي، لكنَّ القَصص التي تُجعلُ فيها الحيوانات تتكلَّمُ وتتصرَّفُ كما الكائنات البشريَّة لم تكن تُغريني بقوَّة أبدًا. التصويرات الكاريكاتوريَّة السَّخيفة للحيوانات تُفضي بعقلي إلى إقصاء الحكمة الأخلاقية من القصص.

إذن، مرَّة أخرى، لافونتين نادرًا ما يستميل حِسَّنا الأخلاقيَّ الأسمى. أقصى ما يبلغه هو لَعِبُه على أوتار المنطق وحبِّ الذَّات. تتخلَّلُ جميعُ الحكايات فكرة أنَّ الأخلاق الإنسانيَّة تنبعُ بأجمعها من حبِّ الذَّات، وأنَّ حبَّ الذَّات هذا لو قُمِعَ ووُجِّهَ بفعل المنطق، فلا بُدَّ سوف يتبع ذلك سعادة. الآن، بقدر ما أستطيعُ أن أحكم على الأمر، حبُّ الذَّات هو أصل كلِّ شَرٍّ -لكن، بالطَّبع، ربَّما أكون على خطأ- فقد كان عند لافونتين فرص أعظم لملاحظة البشر أكثر مما يتوفَّر لديَّ تقريبًا على الإطلاق. أنا لا أعترضُ كثيرًا على الحكايات الهجائيَّة والساخرة، كتلك الحقائق الهامّة التي تُلقَّن من قِبل القرود والذِّئاب.

لكنّـي أُحـبُّ "كتـاب الغابـة" و"حيوانـات بَريَّـة عرفتُهـا". أشـعرُ باهتـمامٍ أصيـلٍ بالحيوانـات نفسـها، لأنَّهـا حيوانـاتٌ حقيقيَّـةٌ وليسـت تصويـراتٍ سـاخرةً للبـشر. إنَّ المـرء ليتعاطـفُ مـع مشـاعر المحبَّـة فيهـا ومـع ضغائِنهـا، يضحـك عـلى ملاهيهـا، ويـذرفُ الدمـع عـلى مآسـيها. وإن كانـت تلـك القصـص تلفـت الانتبـاه لفضيلـة أخلاقيّـة؛ فمـن الحذاقـة أننـا لا ننتبـه لهـا.

تفتَّـح ذهنـي بعَفويَّـةٍ وباسـتمتاعٍ عـلى مفهـوم العِتْـق (القِـدَم). اليونانيُّـون؛ اليونانيُّـون القُدامـى، لقـد مارسـوا عـليَّ سِـحرًا غامضًـا. مـا تـزال الآلهـةُ الوثنيَّـةُ والإلهـات يسـيرون في خيـالي فـوق الأرض، ويتحدَّثـون وجهًـا لوجـه مـع البـشر، وفي قلبـي، أقمـتُ سِرًّا أقداسًـا لأولئـك الذيـن هـم أفضـل مَـن أحببـت. عرفـتُ وعشـقتُ عشـيرة الحوريَّـات بأجمعِهـنَّ والأبطـال وأنصـاف الآلهـة- لا... ليـس جميعهـم بالضَّبـط؛ فجَشـعُ ووحشـيَّةُ ميديـا وجاسـون بَلَغَـا مـن القسـوة مـا لا يُغتَفَـر، وكنـت أتسـاءَل: لمـاذا كانـت الآلهـة تتركهـم يُفسِـدون ومِـن ثَـمَّ تُعاقِبهـم عـلى فسـادِهم. ومـا زال اللغـز غـير محلـول. كثـيرًا مـا أتسـاءل كيـف

للإله أن يظلَّ عن هذا أبكَمَ

والخطيئةُ في حظيرة عهده تعترشُ وتبتسمُ مِلء شدقيها[1].

كانـت الإليـاذة هـي مَـن جَعلـت مـن اليونانيـين فِـردَوسي. فقِصَّـةُ طـروادة كانـت مألوفـةً بالنسـبة لي قبـل أن أقرأهـا في لُغتِهـا الأصليَّـة، وبالتـالي واجهـتُ صعوبـةً قليلـة في جَعـل الكلـمات اليونانيَّـة تُسـلِّم لي كُنوزَهـا، وذلـك بعـد أن جُـزتُ مِنطَقـة الحـدود الخاصـة بالقواعـد. الشِّـعرُ العظيـمُ؛ سـواءٌ كُتـبَ باليونانيَّـة أو بالإنجليزيَّـة لا يحتـاجُ مُـؤوِّلًا أكـثر مـن قَلـبٍ مُسـتجيب. ألم يَـئِن للذيـن يجعلـون مـن أعـمال الشـعراء الفطاحـلِ

(1) مَقطـع مـن قصيـدة "اعـتراف" للشـاعر الأمـيركيِّ سـيدني لانيـار، كان شـاعرًا وموسـيقيًّا، أُصيـب بالسُّـل أثنـاء سَـجنِه في سـفينة، مـات في السـابع مـن سـبتمبر، عـام 1881. (المترجِـم).

كريهـةً بتحليلاتهـم، بفرضيَّاتهـم، وحواشـيهِم الشَّـاقَّة، أن يعـوا تلـك الحقيقـة البسـيطة! ليـس مـن الـضروري إلـزام المـرء بـأن يكـون قـادرًا عـلى إعطـاءٍ تعريـفٍ لـكلِّ كلمـة، ويُقسِّـمها إلى أجزائهـا الأساسـيَّة، ويحـدِّد موقعهـا الإعـرابيَّ في الجملـةِ كي يفهمهـا؛ حتـى يُقـدِّرَ قيمـة القَصيـدة. أعلـمُ أنَّ أسـاتذتي النَّابهـين قـد وقعـوا عـلى ثـرواتٍ أعظـمَ في الإليـاذة أكـثر مـما باسـتطاعتي أن أجـده فيهـا عـلى الإطـلاق، لكنَّنـي لسـتُ مُحِبَّـةً للكَنْـز. يُطمئِنُنـي أنَّـه يوجـد آخريـن أكـثر منِّـي حِكمـةً. لكـن مـع كلِّ معرفتِهـم الواسـعة والواعيـة، ليـس بإمكانهـم أن يقيسـوا بالمسـطرة مدى اسـتمتاعهم بتلـك الملحمـة المدهشـة. حـين أقـرأ أرقـى المقاطِـع مـن الإليـاذة، أُعايـنُ إحساسًـا رُوحيًّـا يسـمو بي ويرفعُنـي علِيًّـا فـوق أحـوال حيـاتي الضيِّقـة المقيِّـدَة. فتُغفَـل قُيُـودي الجسـديّة- حيـث يكـون موقـع عالمـي في الأعـالي، وطُـولُ السـماوات وعرضهـا ومداهـا يكـون مِلـك يـدي!

إعجـابي بالإنيـادة ليـس عظيـمًا إلى هـذه الدرجـة، لكنَّـه رغـم ذلـك أمـرٌ واقـع. لقـد قرأتُهـا كثـيرًا بقـدر مـا اسـتطعتُ دون عـون الملاحظـات ولا القامـوس، وكان يروقُنـي دومًـا أن أترجِـمَ الفصـول التـي تعجبنـي على وجه الخصـوص. أسـلوب الرَّسـم بالكلـمات المميِّـز بـڤيرچـيل يكـون مدهشًـا في بعـض الأحيـان، لكـنَّ آلهتَـه وأُناسَـه يتحرَّكـون في مشـاهد مشـحونةٍ بالشَّـغف والشِّـقاق والشـفقة والحـبِّ كمثـلِ قامـاتٍ أنيقـةٍ ترتـدي قناعًـا إليزيبِثِّيًّـا، في حـين أنَّهـم في الإليـاذة، ثلاثـة قَفـزاتٍ وينطلِقـون في الغنـاء. إنَّ ڤـيرچـيل رائـقٌ ومحبـوبٌ، كتمثـالٍ مَرمـريٍّ لأبوللـو يلتمِـع تحـت ضـوء القمـر، أمَّـا هومـيروس، فهـو الفتـوَّةُ الفَتَّانَـةُ المفعمـة بالحيـاة في تمام ضـوء الشـمس، والريـح في شَـعرِه تـسري.

كـم هـو سـهلٌ أن تُحلِّـقَ عـلى ظَهـر أجنحـةٍ مـن ورق! مـن "أبطـال اليونـان" إلى "الإليـاذة"، لم يمـرّ يـومٌ دون رحلـة، ولم تكـن جميعهـا رحـلاتٍ بهيجـة. باسـتطاعة أحدهـم أن يسـافر حـول العـالم مـرَّاتٍ كثيرة، بينـما أنـا أمـضي في طريقـي العجيبـة بتثاقُـلٍ، وسـط المتاهـات المحـيِّرة لقواعـد اللغـة

والقواميس، أو أهوِي في تلك الـشُّرُكِ المروِّعة التي تُسمَّى الامتحانات، تلك التي تضعها المدارس والكُلِّيَّات لأجل إصابة أولئك الذين ينشدون المعرفة بالخَبَل. أفترضُ أنَّ هذه "مسيرة حاجّ" من هذا النَّوع لتكون مُبَرَّرة بفعل النهاية، لكنها بَدَت لي لا تنتهي، رغم المفاجآت السَّارَّة التي صادفتني الآن، ومن ثمَّ عند منعطَف الطريق.

بدأتُ قراءة الكتاب المقدَّس ولم أكن أستطيع فَهمه لوقتٍ طويل. يبدو لي الآن أنَّه من الغريب أنَّه قد مرَّ زمنٌ كانت روحي فيه صمَّاءَ عن تناغماتِه المدهشة، لكنِّي أتذكَّرُ صباح يوم أحدٍ ماطِر، حينما لم يكن عندي أيُّ شيءٍ آخر لأقوم به، توسَّلتُ إلى ابنة عمِّي أن تقرأ لي قِصَّةً من الكتاب المقدَّس. رغم أنَّها لم تكن تظنُّ أنِّي سوف أفهم، شرعت تتهجَّى في يدي قِصَّة يوسف وإخوتِه. لسببٍ ما فشِلت القِصة في إثارة اهتمامي. اللغة غير المعتادة والتكرارات جعلت القصة تبدو لي غير حقيقيةٍ وبعيدةً عن الحدوث في أرض كنعان، ورُحتُ في النوم وهِمتُ نحو أرض "نود"، قبل أن يأتي الإخوةُ بالقميص الملطَّخ بفَيض الألوان حتَّى خَيمةِ يعقوب ويخبروه بكَذبتِهم الآثِمة! لا أستطيعُ أن أفهم لماذا قصص اليونانيين كانت جِدَّ حافلةٍ بالسِّحر بالنسبة لي، بينما تلك التي في الكتاب المقدَّس خالية تمامًا من إثارةِ الاهتمام- إلَّا إذا كان السببُ هو أنَّني قد تعرَّفتُ إلى العديد من اليونانيين في بوسطن وألهمَتني حَميَّتُهم لقَصص بلدهم، في حين أنَّني لم ألتَقِ بعِبرانيٍّ أو مِصريٍّ واحد؛ وتبعًا لهذا استنجتُ وقتها أنَّهم لم يكونوا أكثر من هَمَجٍ، وأنَّ القصص التي تتحدَّثُ عنهم ربَّما تكون جَميعُها مَنْحولَة، وتلك الفرضيَّةُ تُفسِّرُها التكرارات والأسماء الشَّاذَّة عن المألوف. إنَّ قولي هذا بذيءٌ بما يكفي؛ لم يحدث أبدًا أن أطلقتُ على أسماء الآباء والأمهات لليونانيين أنَّها "شاذَّة" عن المألوف.

لكن كيف لي أن أتحدَّث عن الأمجاد التي حقَّقتُها منذ أن اكتشفتُ الكتاب المقدَّس؟ لقد قرأتُه لسنواتٍ بشعورٍ متزايد من

المتعة والإلهام، وأنا أحِبُّه كما لم أحبَّ كتابًا آخر. ما يزال في الكتاب المقدَّس الكثير تتمرَّدُ عليه كلُّ غريزةٍ في كياني، جِدّ كثيرةٍ لدرجة أنَّني أندمُ على الضرورة التي ساقتني لقراءتِه من البدايةِ إلى النهاية. لا أظنُّ أنَّ المعرفةَ التي حَصَّلتُها من تاريخه ومن المصادر تُعوِّضُني عن التفاصيل البغيضة التي قد فُرِضَت على انتباهي. من جانبي، أتمنَّى مع السَّيِّد هولز، أن تُطهَّرَ آثار الماضي من كلِّ ما هو قبيحٌ وهمجيٌّ فيها، رغم أنَّني لسوف أعترض، مثلي مثل أيِّ شخص، سأعترضُ أن تُتناوَل تلك الأعمال العظيمةُ بالتخريب والتشويه.

ثمَّة شيءٌ مُؤثِّر، فظيع، في بساطة سِفْر أستير ومُبَاشَرتِه الرهيبة. أبِالإمكان أن يوجد حدَثٌ أكثر دراميَّةً من المشهد الذي تَمثُلُ فيه أستير أمام سيِّدها الأثيم؟ هي تعلم أنَّ حياتها بين يديه، ما من أحدٍ يحميها من عِقابِه. عندئذٍ، حيث تتغلَّبُ على شعور المرأة بداخلها، تقتربُ منه، تُحرِّكُها الوطنيَّةُ النبيلة، لا تشغلها سوى فكرة واحدة: "فإذا هلكتُ، هلكتُ، وإن نجوت؛ فسينجو قومي".[1]

قِصة راعوث أيضًا- كم شرقيَّةِ الطَّابع هي! وهكذا كم مغايرة هي حياة شعوبُ الريف البسيطة عن تلك في العاصمة الفارسيَّة! راعوث جِدّ مُخلِصة وذات قلب رحيم، لا نملك إلا أن نُحبَّها حين نشهدها وهي تقف مع الحاصدين بين أعواد الذرة المتماوجة. روحها الجميلة، المؤْثِرَة تشعُّ ألقًا كمثل نجمٍ ساطع في ليلةٍ ظلماء وعصرٍ وحشيٍّ. أحِبُّوا مثل راعوث، فالمحبَّة التي باستطاعتها أن تسمو فوق العقائد المتصارِعة ونزعاتِ الكبرياء العنصرية المتأصِّلة؛ لَهِيَ أمرٌ يصعب العثورُ عليها في العالم أجمع.

---

(1) الآية المُسْتَشْهَد بها من سِفر أستير، بالإصحاح الرابع، تقف هنا عند "فإذا هلكتُ، هلكت". (المترجِم)

إنَّ الكتاب المقدَّس يهَبُني إحساسًا عميقًا مريحًا بأنَّ الأشياء "التي تُرى وَقْتِيَّةٌ، وأمَّا الأشياء التي لا تُرى أبَديَّةٌ"[1].

منذ أن صِرتُ أحبُّ الكتب لا أذكر مرَّة لم أكن فيها أحبُّ شيكسبير. لا أستطيعُ أن أُحدِّدَ متى بالضَّبط بدأتُ قراءة "حكايات من شيكسبير" للامب، لكنِّي أعلمُ أنَّني كنتُ أقرؤهم في البداية بإدراكِ طِفلٍ وبدهشةِ طِفل. يبدو أنَّ "ماكبث" كانت أكثر ما أثَّرَ بي. قراءةٌ واحدةٌ لها كانت كافية لتنطبِعَ كلُّ تفصيلةٍ من القِصَّة في ذاكرتي إلى الأبد. لقد كانت الأشباحُ والسَّاحراتُ يُلاحقونني منذ زمن طويل حتى في أرض الأحلام. كان بإمكاني أن أرى.. أن أرى تمامًا الخنجر ويد الليدي ماكبث الصغيرة البيضاء- إنَّ الصبغة الكريهة كانت حقيقيَّةً بالنسبة لي كما هي بالنسبة للملكة التي حلَّت بها المصيبة.

سريعًا ما قرأتُ "الملك لير" بعد "ماكبث"، ولن أنسى أبدًا شعورَ الرعب الذي شعرتُ به حين بلغتُ المشهد الذي خرجت فيه عينا غلوستر. لقد استحوذ عليَّ الغضب، رفضت أصابعي أن تتحرَّك، وجلستُ جامدةً لفترة طويلة، كان الدَّمُ يفور في عروقي، وكُلُّ الكراهية التي بإمكان طفلٍ أن يشعر بها احتشَدَت داخل قلبي.

لا بُدَّ وأنِّي قد تعرَّفتُ إلى شيلوك وإلى إبليس نحو هذا الوقت؛ فلقد كانت الشَّخصيَّتان مترابطتَيْن في ذهني لوقتٍ طويل. كنتُ أشعرُ على نحوٍ غامض أنَّه ليس بإمكانهما أن يكونا صالحَيْن حتَّى وإن رغبا؛ فلقد كان يبدو ألَّا أحدَ كان يرغب في مساعدتِهما أو إعطائهما فُرصةً مُنصِفَة. لا أستطيعُ حتى الآن أن أجد في قلبي ما يجعلني أدينهما تمامًا. تمرُّ لحظاتٌ أشعر فيها أنَّ شيلوك، ويهوذا -وحتَّى الشيطان- إنَّما هم القضبان المكسورة في عجلة الخير العظيمة، والتي ستصيرُ بأكملها مكسورة في الوقت المناسب.

---

(1) رسالة كورنثوس الثانية، آية 18. (المترجم)

يبدو من الغريب أنَّ قراءتي الأولى لشيكسبير قد خَلَّفت في ذِهني ذكرياتٍ غير محمودة. فالمسرحيَّات المتألِّقة، النبيلة، المليئة بالخيال الجامح -تلك التي هي أفضل ما أحبُّه الآن- يظهر أنَّها لم تُؤثِّر بي في البداية؛ ربَّما لأنَّها كانت تعكس ضوء الشمس المعتاد وكذا مسرَّات حياة طفل. لكن "لا شيءَ أكثر تقلُّبًا من ذاكرة طِفل: سواءٌ ما تحفظُه، أو ما سوف تُضيِّعُه".

لقد قرأتُ لشيكسبير منذ ذلك الحين مسرحياتٍ عديدًا من المرات، وأحفظ منها أجزاءً عن ظَهر قَلب، لكنِّي لا أستطيع أن أُحدِّدَ أيُّها هو المفضَّل عندي. ما يُبهجني فيها يتفاوت كما تتفاوت وتتغيَّرُ أمزِجَتي. إنَّ الأناشيد القصيرة والسُّونيتات هي بالنِّسبة لي عذبةٌ ومُدهشةٌ بقَدر الأعمال الدِّراميَّة. لكن، مع كلِّ حبِّي لشيكسبير، قراءةُ كلِّ المعانى الكامنة في أبياتِه التي يخلعها عليها النُّقَّادُ والشُّرَّاح هي في غالب الأحوال عملٌ مُنهِك. كنتُ أحاول تذكُّرَ تأويلاتِهم، لكنَّها كانت تصيبني بالحيرة والإحباط؛ لذا أبرمتُ اتِّفاقًا سِرِّيًّا مع نفسي بألَّا أحاول القيام بهذا بعد الآن. ولقد أخللتُ بهذا العهد فقط أثناء دراستي لشيكسبير تحت إشراف البروفيسور كيتردج. أنا أعلمُ أنَّه يوجد الكثير من المعاني الخبيئة في ما كتب شيكسبير، وفي العالم، ما لا أفهمُه، وأنا سعيدةٌ برؤيتي الحِجابَ يُرفَعُ تِلوَ الحجاب؛ كاشفًا عن ممالكَ جديدةٍ من الفِكر والجمال.

بجانب الشِّعر، أنا أُحبُّ التاريخ. لقد قرأتُ كلَّ عملٍ تاريخيٍّ استطعتُ أن أضع يدي عليه، بَدءًا من كتابٍ مُصوَّر يحوي حقائقَ جامدة وتواريخَ أكثر جُمودًا، وانتهاءً بكتاب غرين، الكتاب المُنصِف ذي الأسلوب التصويريِّ "تاريخ الأُمَّة الإنجليزيَّة"، ومن كتاب فريمان "تاريخُ أوروبا" إلى كتاب إميرتون "العصور الوسطى". أوَّلُ كتابٍ وهبني إحساسًا حقيقيًّا بقيمة التاريخ كان كتاب سوينتون "تاريخ العالَم"، وقد تلقَّيتُه كهديَّةٍ في عيد ميلادي الثالث عشر. رغم أنَّني

لم أعد أؤمن بأنَّه كتابٌ ذو قيمة مُعتبَرة، إلَّا أنَّني ما زلتُ أحتفظُ به منذ ذلك الحين كواحد من كُنوزي. منه تعلَّمتُ كيف كانت تسيحُ سُلالاتُ البَشَر من أرضٍ إلى أرضٍ، وتُشيِّدُ مدنًا عظيمة، كيف تسنَّى لحِفنةٍ من الحُكَّام العظماء، تيتان[1] أرضيُّون، أن يضعوا كلَّ شيءٍ تحت أقدامهم، وبكلمةٍ قاطعة؛ كانوا يفتحون أبواب السَّعادة في وجه الملايين، ويسدُّونها في وجه ملايين آخرين، كيف ارتقت أُممٌ مختلفةٌ في العِلم والفَنِّ، وعبَّدت الطريق من أجل تطوُّراتٍ أعظم للعهود القادمة، كيف عانت الحضارةُ إبادةً جماعيَّةً لعصرٍ مُنحَلٍّ، ونهضت مرَّةً أخرى، كما العنقاء، بين أبناء الشمال النبلاء، كيف أنَّه بالحريَّة، بالأَنَاةِ، وبالعِلم- قد مهَّد العظماءُ والحكماء السبيلَ لأجل خلاص العالم أجمَع.

أثناء قراءاتي في مرحلة الكلِّيَّة صِرتُ آلَفُ نوعًا ما قراءةَ الأدب الفرنسي والألمانيِّ. إنَّ الألمانيَّ يُقدِّمُ القوَّة على الجمال، والحقَّ على العُرف، في كِلا الحياة والأدب. ثمَّة قوَّة صارخة عارمة بشأن كلِّ شيءٍ يقومُ به. فعندما يتحدَّثُ الألمانيُّ، لا يفعل ذلك كي يؤثِّر بالآخرين؛ بل لأنَّ قلبه لينفجِر إن لم يجد مُتنفَّسًا للأفكار التي تضطرِمُ نارها داخل روحه.

علاوة على هذا، في الأدب الألمانيِّ أيضًا تحفُّظٌ ظريفٌ يُعجبني، لكنَّ مفخرته الرئيسةُ هو ما وقعتُ عليه فيه من إقرارٍ بالقوَّةِ الـمُخلِّصة، لتضحية المرأة بحبِّها في سبيل الآخرين. تلك الفكرة تتخلَّلُ كلَّ نواحي الأدب الألماني ويُعبَّرُ عنَّها بإلغازٍ في "فاوست" غوته:

كلُّ فانٍ هو رمزٌ فحسب

وكل ما لا يمكن الوصول إليه

(1) Titans، أو الجبابرة، عرق من الآلهة الذين حكموا الأرض طبقًا للميثولوجيا الإغريقيَّة. (المترجم)

سيصير هُنا حادِثًا

وما لا يمكن وصفه

قد جرى ها هنا فِعله

إنَّ الأنوثة الخالدة تجذبنا إلى الأعلى[1]

من بين جميع الكُتَّاب الفرنسيين الذين قد قرأتُهم، موليير وراسين هما الأفضل بالنسبة لي. لبلزاك أعمال لطيفة، وفقرات عند ميرميه تضرب المرءَ كهَبَّة هواء بحرٍ عنيفة. أمَّا ألفريد دي موسييه فهو لا يُطاق! يُعجبني ڤيكتور هوغو- إنَّني أقدِّر عبقريَّته، ألمعيَّته، إبداعيَّته، رغم أنَّه ليس واحدًا من القامات الأدبيَّة الـمُتيَّمةُ أنا بها. لكن هوغو وغوته وشيلر وكلّ الشعراء من جميع الأمم العظيمة، إنَّما هم مترجمون عن الأشياء الخالدة، وإنَّ روحي لتتبعهم بتبجيلٍ في البِقاع التي يتوحَّدُ فيها الحقُّ والخيرُ والجمال.

أخشى أنَّني قد أسرفتُ في الكتابة عن أصدقائي الكُتب، لقد ذكرتُ حتَّى الآن أكثرَ المؤلِّفين الذين أُحبُّهم، واستنادًا لهذه الحقيقة، من السهل على المرء الافتراضُ بأنَّ دائرة أصدقائي كانت محدودةً ودكتاتوريَّةَ النَّزعة، وهو ما سوف يكون انطباعًا خاطئًا تمامًا. إنَّني يُعجبني العديد من الكُتَّاب لأسبابٍ عديدة- فكارلايل يُعجبني لحِدَّتِه ولازدرائه الزَّيْف، يُعجبني وردسوورث، الذي يدعو للتوحُّد بين الطبيعة والإنسان، أجدُ مُتعةً استثنائيَّةً في غرائب وعجائب هوود، في أريج هيريك المحسوس الفاتن للَّيْلَكِ والورد المنثور في ثنايا أبياتِه، يُعجبني وايتيير لحماستِه وسداد رأيه الأخلاقيِّ. أنا أعرفُه شخصيًّا، وحين أتذكَّرُ صداقتنا الحميمة يُضاعف ذلك من بهجتي عند قراءتي لقصائده. أنا أحبُّ مارك توين- ومَن ليس يحبُّه؟ إنَّ الآلهة هي

(1) آثرنا الاعتماد في نقل هذا البيت على ترجمة د. عبد الرحمن بدوي لمسرحية فاوست، والتي هي عن الأصل الألماني، وقد صدرت عن دار المدى. (المترجم)

الأخـرى تحبُّـه، ولقـد وَضَعَـت في قلبـه كلَّ صنـوف الحكمـة، ثـمَّ بعدهـا، وخشـيةً منهـا أن يصـير متشـائمًا- بَسَـطت حـول رأسـه قـوسَ قـزحٍ قوامُـه المحبَّـةُ والإيمـان. أحـبُّ سـكْوتْ لعذوبتـه، لرشـاقتِه عبارتـه ولِصِدقِـه الكبـير. إنَّنـي أحـبُّ جميـع الكتـاب الذيـن عقولهـم كعقـل لويـل؛ تفـور في ضـوء شـمس التفـاؤل- ينابيـع مـن البهجـة وقـوَّة الإرادة، بدفقـةٍ مـن الغضـب بـين حـينٍ وأخـرى، وتنـشر هنـا وهنـاك رذاذًا مُبْرِئًـا، مـن الشَّـفقة والتعاطـف.

باختصـار، الأدب هـو يوتوبيـاي. في صحبتـه، لا أكون محرومـةً من الإدلاء بصـوتي. لا حوائِـلَ مـن الحـواس تمنعنـي عـن المحادثـة المؤنِسـة الفاتنـة مع أصدقـائي الكتـب. إنهـم يتحدَّثـون إليَّ دونمـا ارتبـاكٍ أو حَـرَج. إنَّ الأشـياء التـي قـد تعلَّمتُهـا، والأشـياء التـي قـد عُلِّمتُهـا تبـدو أقـلَّ أهمِّيَّـةً عـلى نحوٍ يبعـثُ عـلى الضَّحـك، إذا مـا قورِنَـت بمـا تهبُـه الكتـب مـن "صِلات محبَّـةٍ عظيمـة وهِبـاتٍ سَـماويَّة".

الفصل الثاني والعشرون

إنّـي أثـقُ أنَّ القُـرَّاءَ لم يخلصـوا باسـتنتاجٍ مِـمَّا تقـدَّمَ ذِكـرُه في الفصـل السـابق عـن الكُتـب، بـأنَّ القـراءةَ هـي بهجتـي الوحيـدة؛ فمباهجـي وسـلواتي كثـيرة ومتنوِّعـة.

لقـد أشرتُ أكـثر مـن مـرَّةٍ -في مسـار سَردي لقِصَّتـي- إلى حُبِّـي للرِّيـف وللرياضـات التـي تُمـارَسُ خـارج البيـت. عندمـا كنـتُ فتـاةً صغـيرة، تعلَّمتُ أن أجـذِّفَ وأن أعـوم، وأثنـاء فصـل الصَّيـف، عندمـا أكـون في رينتهـام، بماساتشوسـتس، كان قـارِبي تقريبًـا هـو مسـكني. لا شيءَ كان يهبني سـعادةً أعظـم مـن أن أخـرج مـع أصدقـائي لممارسـة التجذيـف عندمـا يزورونـي. بالطَّبـع أنـا لا أسـتطيعُ قيـادة القـارب جيِّـدًا. ففـي العـادة يجلـس أحدُهـم في الكَوثَـل ويقـود الدَّفَّـة بينـما أنـا أجـذِّف. رغـم ذلـك، أذهـبُ أحيانًـا للتجذيـف دون دَفَّـة. ممتـعٌ هـو أن تحـاول القيـادة عـبر تَنسُّـمِ أريـج أعشـاب البحـر والليالِـك، وتسـير بجانـب الشُّـجيرات التـي تنمـو عـلى

الشاطئ. أستخدِمُ مجاذيف بشرائط من الجِلد، تُبقيها الشرائط في مكانها بمسند المجذاف، وأتبيَّنُ عبر مقاومة تيَّار الماء متى يتوازن المجذافان بالتساوي. أستطيعُ بنفس الطريقة أن أتبيَّنَ أيضًا متى أكون أسحب القارب ضِدَّ التيَّار. يروقُني التَّباري مع الرِّيح والموَج. أيُّ شيءٍ يبعث على النَّشوة أكثر من أن تجعل قاربك الصغير المتين طَوعَ يديك ومشيئتِك؛ تنزلِق بخِفَّةٍ فوق الأمواج المتلألِئة المتلاطِمة، وتشعر بمَوْر الماء الوطيدِ المتأمِّر!

أستمتعُ أيضًا بركوب الكَنْو[1]، وأعتقد أنَّكم سوف تبتسمون حينما أقول إنَّني أحبُّ أن أركب الكَنْو في الليالي المقمِرة. أنا لا أستطيع -وهذا صحيح- أن أرى القمر وهو يتسلَّق السماء ويرتفع فيما وراء أشجار الصنوبر، وينسلُّ خِلسة عبر السماوات، صانعًا مسارًا متألِّقًا من أجلنا كي نتبعه، لكنِّي أعلم أنَّ القمر موجود، وبينما أنا أرقدُ بين الوسائد، وأضع يدي في الماء، أتخيَّلُ أنَّني أستشعرُ وميض سِرباله وهو يمرُّ. أحيانًا تنزلق سمكةٌ جريئة بين أصابعي، وكثيرًا ما تضغط على يدي زنبقةٌ من زنابق الماء على استحياء. بين الحين والأخرى، حينما نخرج من جُون[2] أو من ممرٍّ ضَيِّق، أعي فجأةً رحابة الهواء الذي يُطوِّقُني. شعورٌ واضحٌ بالدِّفء يبدو أنَّه يُحيط بي. سواءٌ وهو آتٍ من الأشجار التي قد أُلهِبَت بفِعل الشمس، أو من الماء، لا أستطيعُ أبدًا أن أكتشف المصدر. كان يعتريني نفس الشعور الغريب حتى وأنا في قلب المدينة. لقد أحسستُ بذلك في الأيَّام الباردة والعاصفة وأثناء الليل. إنَّه يُشبه إحساس أن تنطَبعَ قُبلةٌ على وجهي من شفاهٍ دافئة.

سلواي المفضَّلة هي الإبحار. في صيف 1901 زُرتُ نوفا سكوتيا، وسنحت لي بعض الفُرص، مثل أنَّني لم أنعم قَبلًا بالتعرُّف إلى المحيط. بعد قضاء بضعة أيَّامٍ في ريف إيڤانغلين، والتي عنها نَسَجَت حولها

(1) زورق طويل خفيف يُقاد بمجذاف واحد أو أكثر. (المترجم)

(2) الخليج الصغير. (المترجم)

قصيدةُ لونغفيلو[1] البديعة تميمةً سِحريّة، الآنسة ساليڤان وأنا ذهبنا إلى هاليفكس، فيها قضينا الشَّطر الأكبر من الصَّيف. مرفأها كان هو متعتنا، جنَّتنا. يا لها من رحلات بحريَّة مجيدةٍ تلك التي قمنا بها إلى بيدفورد باسن، إلى جزيرة ماكناب، إلى حِصن يورك، وإلى نورثوست آرم! ويا لها من ساعاتٍ مُدهِشةٍ مُهدِّئةٍ تلك التي كنا نقضيها في الليل في ظلِّ رجال الحرب العظماء الصامتين. ياه! لقد كانت كلُّ تلك الأشياء مثيرة جدًّا، فاتنةً جدًّا! تذكُّرها هو شيءٌ يبعث على البهجة إلى الأبد.

ذاتَ يومٍ خُضنا تجربةً مخيفة. أُقيمَ سباقٌ للزَّوارق في نورثويست آرم، وفيه كانت تُشارك قوارب من مُختلف السُّفن الحربيَّة. ذهبنا في قارب إبحارٍ مع عديدين آخرين كي نشاهد السِّباقات. مئاتٌ من قوارب الإبحار الصغيرة كانت تتمايل جيئةً وذِهابًا بالقُرب منَّا، وكان البحر هادئًا. عندما انتهت السِّباقات، وولَّينا وجوهنا شطر بيوتنا، لاحظَ أحدُ الجَمع سحابةً سوداء تطفو قادمةً من عُرض البحر تسوقها الرِّياح، كانت تتعاظَمُ وتتَّسِع وتتكاثف حتَّى غَطَّت البحر بأكمله. هَبَّت الريح، وكانت الأمواجُ كأنَّها تضرب بغضبٍ حواجزَ غير مَرئيَّة. كان قاربُنا الصَّغير يجابِه الريح الهوجاء بجسارة، بدا القارب بأشرعته المبسوطة وحِباله المشدودة أنَّه هو مَن يهاجم الرِّيح. إنَّه الآن يدومُ[2] وسط الموج المتلاطِم، هو الآن يطفر عاليًا فوق موجةٍ عِملاقة؛ كي يُساق نحو الأسفل تصحبه الهسهسةُ وعزيف الريح الغاضبة. راح الشِّراعُ الرئيس نحو الأسفل. وعندما ثبَّتنا شراعًا بالسارية، وحرفنا ذِراع الرافعة من جانب إلى آخر؛ كُنَّا نُصارع الرِّياح العكسيَّة التي كانت تسوقُنا من جانبٍ إلى جانب بضراوةٍ عنيفة. تسارعت دقَّاتُ قلوبنا، وأيدينا كانت ترتعش من الإثارة، وليس من الخوف؛ فقد كنَّا نملك

(1) هنري وادزورث لونغفيلو: شاعر أميركيّ، هو أوَّلُ أميركي يترجم الكوميديا الإلهية، تُوفيّ في ماساتشوستس. (المترجم)

(2) يسير مُلتفًّا كالدوّامة. (المترجم)

قلوب الڤايكنج، وكنَّا ندرك أنَّ الرُّبَّان كان مسيطرًا على الموقف. لقد قاد وسط العديد من العواصف بِيَدٍ راسخةٍ وبعينٍ بالبَحر عارفة. عندما مرَّت بجانبنا المراكب الكبيرة والزوارق الحربيَّة، حيَّتنا في المرفأ بالتحيَّة العسكرية بإطلاق النَّار في الهواء، وأطلق النوتيَّةُ صيحات الاستحسان تحيَّةً لقائد القارب البحريِّ الصغير الوحيد الذي جازف وخرج من العاصفة. وفي الأخير، بلغنا رصيفنا البحري ونحن بردانين، جائعين ومُرهَقين.

قضيتُ الصيف الماضي في إحدى أحبِّ الخلواتِ إليَّ في واحدةٍ من أكثر القُرى سِحرًا في نيو إنغلاند. ترتبط رينتهام وماساتشوستس تقريبًا بكلِّ أفراحي وأتراحي. فـ ريد فارم، لصاحبها الملك فيليب بوند، موطنُ السَّيِّد چاك تشامبرلين وعائلتِه- كانت هي موطني لسنواتٍ طويلة. إنِّي لأتذكَّر بأعمق مشاعر العرفانِ طيبةَ هؤلاء الأصدقاء الأعزَّاء، والأيَّام السعيدة التي قضيتُها بصُحبتهم. الصُّحبة الماتِعة لأطفالهم كانت تعني الكثير بالنسبة لي. كنتُ أشاركهم في كل الرياضات والجولات وسط الغابات ودعاباتِهم في البحر. ثرثرة الصِّغار منهم واستمتاعهم بالقصص التي كنتُ أرويها لهم عن الآلف والنُّوم[(1)]، عن البطل والدُّبِّ المخادِع، هي أشياءُ يُبهجُ المرءَ تذكُّرُها. أدخلني السَّيِّد تشامبرلين إلى عوالم الأشجار الغامضة والزهور البَرِّيَّة، إلى أن صِرتُ، بأُذنٍ تُصغي بمحبَّة؛ صرتُ أسمع سريان النَّسغ في عروق شجرة السنديان، وأشهد الشمس تتلألأ في صفحة ورقة شجرةٍ إلى أخرى. وبهذا؛

كمثل الجذور؛ خَبيئةٌ حتَّى في ظلمات الأرض،

تُشارك قِمَّة الشجرة بهجتها، وتُدرِكُ الأشياء

عبر ضوء الشمس والهواء الرَّحب والكائنات الـمُجنَّحة،

بالتناغم مع الطبيعة، كذلك أنا

(1) الآلف: جِنِّي صغير، النُّوم: قزم خرافي يحرس كنوز باطن الأرض. (المترجم)

صار في حوزتي بُرهانٌ على وجود الأشياء اللامرئيّة.

يخيَّلُ إليّ أنَّ في كلٍّ مِنَّا المقدرة على استيعاب الانطباعات النفسية والمشاعر التي قد أُبينَ عنها من جانب الجِنس البشري منذ النُّشوء. كلُّ فَردٍ يملكُ ذاكرةً لا واعية عن الأرض الخضراء وعن خرير المياه الهامسة، وليس في إمكان العمى والصَّمَم أن يسلبه هذه الهبةَ بدءًا من الأجيال السالفة. تلك المقدِرة المتوارَثة هي نوعٌ من حاسَّةٍ سادسة- حاسَّة تملكها الروح؛ ترى، تسمع، تشعر؛ جميعُها في حاسَّةٍ واحدة.

لديَّ الكثير من الأصدقاء الأشجار في رينتهام. شجرةٌ منها؛ شجرة سنديان جليلة، عزيزةٌ على قلبي على وجه الخصوص. إنَّني آخذ جميع أصدقائي الآخرين وأُريهم تلك الشجرة الملكة[1]. إنَّها تنتصبُ فوق جُرفٍ عالٍ يُشرفُ على بِركةِ الملك فيليب، وهؤلاء العارفون بالشجرة، يقولون إنَّها ولا بُدَّ كانت تنتصبُ هُناك منذ ثمانمئة عامٍ أو ألف. تقول مَرويَّاتٌ أنَّ تحت هذه الشَّجرة؛ الملك فيليب، الزَّعيم الهنديُّ البطل، ألقى آخر نظرةٍ له على الأرض والسَّماء.

عندي شجرة صديقة أخرى، لطيفة وسهلٌ الوصول إليها أكثر من شجرة السنديان الكبيرة -زيزفونة- تلك التي تنمو أمام باحة الباب في ريد فارم. ذات يوم بعد الظَّهيرة، أثناء هبوب عاصفةٍ رعديَّةٍ مرعبة، أحسستُ بانهيارٍ مروِّع حدث على جانب البيت، وأدركتُ دون حتَّى أن يخبروني أنَّ الزيزفونة قد سقطت. خرجنا لكي نرى البطلة التي صمدت في وجه الكثير من الزوابع، ولقد أوجع قلبي أن أراها منبطِحةً أرضًا، تلك التي قد ناضلَت من قبل بقوَّة، والآن سقطت بقوَّة.

(1) في الأصل هي تُعاملها معاملة المذكَّر، وتخلع عليها لقب "ملِك"، أي "الشجرة الملِك"، ولأنَّ الشجرةَ في العربيَّة داخلةٌ في حُكم المؤنَّث؛ استبدلنا بلفظة "ملِك"، لفظة "ملكة"؛ فدلالة التعبير بـ "ملِك" هو الاصطفاء والفردانيَّة؛ فاصطفينا ما تستقيم دلالتُه ولُغته. (المترجِم)

لكـن لا بُـدَّ ألَّا أنـسى أنَّـي كنـتُ عازمـةً عـلى الكتابـة عـن الصيـف الفائـت عـلى وجـه الخصـوص. مـا إن انتهـت امتحانـاتي، أسرعنا أنا والآنسـة ساليـڤـان إلى تلـك الخلـوة الخـضراء، حيـث كان عندنـا فيهـا بيـتٌ ريفـيٌّ يقـع عـلى سـاحل إحـدى البُحـيرات المشـهورة بهـا رينتهـام. هُنـا، الأيَّـام المشمسـةُ الطويلـة تكـون لي، وكلُّ الأفـكار التـي تخـصُّ العمـل والكُلِّيَّـة والمدينـة الصَّاخبـة تنـزاح وتتباعـد إلى الخلـف. كُنَّـا في رينتهـام نتلقَّـى أصـداءً عـمَّا كان يحـدث في العـالم- الحـرب، التَّحالُـف، الـصِّراع الطَّبقـي. سـمعنا بالقِتـال الوحـشيِّ الدَّائـر في منطقـة المحيـط الهـادئ البعيـدة، الـصِّراع الـذي لا فائـدة تُرجـى منـه، وعلمنـا أنَّ الصراعـات دائـرةٌ مـا بـين أصحـاب رأس المـال والطَّبقـة الكادِحـة. علمنـا أنَّـه فيـما وراء حُـدود جنَّتِنـا كان هنـاك رجـالٌ يصنعـون التاريـخ بعـرق جبينهـم- فيـما كان ربَّمـا مـن الأفضـل بالنسـبة لهـم قضـاء عُطلـة. لكـن قليـلًا مـا كُنَّـا نلتفـت لتلـك الأشـياء. تلـك الأشـياء كانـت لتنقـضي؛ فهُنـا كانـت البحـيرات والغابـات، وحقـول الأُقحـوان الفسـيحة المتلألِئـة، والمـروج الخـضراء الشَّـذيَّة، والتـي سـوف تـدومُ إلى الأبـد.مكتبة سُر مَن قرأ

النـاس الذيـن يظنُّـون أنَّ جميـع الإحساسـات تصلنـا عـبر العـين والأُذن قـد أبـدوا اندهاشًـا لكـوني ألاحـظُ أيَّ اختـلاف يطـرأ، باسـتثناء غيـاب حجـارة الرَّصـف ربَّمـا، بـين المـشي في شـوارع المدينـة والمـشي في طُرقـات الرِّيـف. لقـد نسـوا أنَّ جسـدي بأكملـه واعٍ بالأحـوالِ المحيطـة بي. فالثرثـرة وهديـر الأصـوات في المدينـة ليصيـب الأعصـاب التـي في وجهـي؛ فأشـعر بوَقـعِ أقـدام الحشـود اللامرئيَّـة الـذي لا ينقطـع، وأنَّ صخـب النَّشـاز لَيَحِـتُّ في روحـي. صـوتُ انسـحاق عجـلات العربـات المثقَلـة عـلى حجـارة الرَّصـف بالطُّرقـات، وقعقعـة الماكينـات الرَّتيبـة كُلُّهـا هـي أكـثر مـا يُعـذِّب الأعصـاب- مـا لم يُلْـهِ المـرءُ انتباهَـه عـن المشـهد البانورامـي الماثـل في الشـوارع الصَّاخبـة عـلى الـدَّوام بالنـاس الذيـن يسـتطيع أن يُبصِرَهـم.

إنَّ المرء ليرى في الريف صنائع الطبيعة الرائقة فحسب، ولا تُفاجَأ رُوحه بالنِّضال القاسي المتواصل في المدينة المزدحمة لأجل مُجرَّد الوجود. لقد زرتُ الشوارع الضَّيِّقة القذِرة حيث يعيش الفقراء مرَّاتٍ عديدة، وإنَّه لَيثقُلُ عليَّ وأصير ناقمةً حين أفكِّر في أنَّ الناس الطيبين ينبغي وأن يعيشوا راضين في منازل فاخرة، وأن يكونوا أصحَّاءَ وحَسَني الهيئة، بينما الآخرون محكومٌ عليهم بأن يحيَوا في الشُّقَق البشعة التي لا ترى الشمس، ويكبروا وهم دميمو الهيئة، ذابلين وضامرة أجسادهم. إنَّ الأطفال الذين يملؤون الأزقَّة التي يكسوهم السُّخام، وهم شبه عرايا ويبدو عليهم سوء التغذية، ليجفلون وينفرون من يديك المبسوطة إليهم كما لو كانت هبَّة ريح. يا للكائنات العزيزة الصَّغيرة، إنَّ صورتهم في قلبي ماثلة وهم ينحنون تذلُّلًا فيستحوذ عليَّ إحساسٌ متواصلٌ بالألم. بالعالَم رجالٌ ونسوةٌ أيضًا، يعوون ألمًا وأشكال أجسادِهم منحنية شاذَّة عن المألوف. لقد تحسَّستُ أيديهم الخشنة الصُّلبة، وأدركتُ كيف هو لا بُدَّ نضالٌ لا ينتهي أن يظلُّوا على قيد الحياة- حيث العيش لا يكون سوى سلسلة متواصلة من المناوشات، ومحاولات مُحبَطة لفعل شيءٍ ما ليس أكثر. حياتهم تبدو عبارة عن تبايُنٍ شاسع ما بين الجهد المبذول والفرصة المتاحة. إنَّ الشمس والهواء لهي هِباتُ الله للجميع، هكذا نقول، لكن أهي كذلك فعلًا؟ في أبعد الأزقَّة القذرة من المدينة لا تُشرق شَمسٌ، والهواء فيها عَطِن. عجَبًا أيُّها الإنسان، كيف تنسى وتتعامَى عن أخيك الإنسان، ثمَّ تقول "أعطِنا خُبْزَنا كفافَ يَوْمِنا"، بينما أخوك الآخر لا يملك شيئًا! ياه، ليت هؤلاء البشر يتركون المدينة، بِرَوْعَتِها وصخبِها وذَهبها، ويعودون إلى الغابة والحقل ونهجِ الحياة البسيط المتواضع! ثمَّ يا ليت الأطفال يكبرون كما تكبر الأشجار الشريفة بجلالٍ، وتكون أفكارهم عذبةً ونقيَّةً كما الزهور التي تنمو على جنبات الطريق. من

المستحيل ألَّا أفكِّر في كلِّ هذا عندما أعود إلى الريف بعد عامٍ مقضيٍّ في العمل بالمدينة.

يا لها من بهجةٍ أن أستشعرَ الأرض الغَضَّة المليئة بالينابيع من تحت قدميَّ مُجدَّدًا، أن أسير في الطرقات المُعْشَوشبة التي تُفضي إلى البرك المليئة بالسراخس، حيث أستطيع أن أُحمِّم أصابعي في شلالٍ من الأنغام المترقرقة، أو أرتقي سورًا حجريًّا وأعبره إلى حقولٍ خضراء فأتسلَّق وأتمايل وأتشقلب في مرحٍ مشاغب!

بعد جولة تمشية برويَّةٍ أستمتعُ بـ "لفَّة" على درَّاجتي الترادُفيَّة. يكون من الرَّائع أن أشعر بالريح وهي تهبُّ على وجهي وأنا فوق جوادي الحديديّ. الاندفاع السريع عبر الهواء يَهَبُني إحساسًا لذيذًا بالقوَّة والمتعة، والتمرين يجعل قَلبي يشدو، ويجعل من نبضاته إيقاعًا راقِصًا.

يرافقني كلبي أثناء التمشية أو الركوبة أو الإبحار متى ما كان ذلك مُمكِنًا. لقد كان عندي الكثير من الأصدقاء الجِراء- ضخمة من نوع الدرواس، رقيقة النظرة من نوع السبنيلي، عارفة بالغابة من نوع ساطر، أمينة وبيتوتيَّة من نوع التِّرْيَر الضَّخم. مليكُ قلبي في الوقت الحاضر هو التِّرير الضَّخم. إنه ينتسب إلى شجرة نسبٍ طويلةٍ جيِّدة، وله ذيلٌ معقوف وأكثر "مُحيًّا" إثارةً للضحك في مملكة الكلاب. أصدقائي الكلاب يبدو أنَّهم يتفهَّمون مظاهر إعاقتي، ودائمًا ما يظلُّون بقُربي عندما أكون وحيدة. إنَّني لأحبُّ أساليبهم العاطفيَّة والطريقة البليغة المعبِّرة في هِزَّة ذيولهم.

حين يحتجزُني يومٌ ماطر داخل جدران البيت، أُسَلِّي نفسي على غرار ما تفعل الفتيات. أحبُّ أن أمارس الخياطة والكروشيه، أقرأ في صفحة قراءة الطالع التي أحبها سطرًا هنا وهناك، أو ربَّما ألعب دور داما أو اثنين، أو ألعب الشطرنج مع صديق. عندي لوحة خاصة

عليها ألعب هذه الألعاب. تُخلَعُ المربَّعات، حتي يقف الرِّجال فيها بثبات. قِطع الداما السوداء مُسطَّحة والبيضاء تكون معقوفةً عند القمَّة. كلُّ قطعة عندها ثقب في المنتصَف، حيثُ فيها يُمكِنُ وَضع حلية نُحاسيَّة لتمييز الملك من العامَّة. البَيادِق تكون في حَجمَيْن؛ البيضاء تكون أكبر من السوداء، لهذا ليس عندي مُشكلة في تتبُّع مناورات الخصم، حيث أحرِّك يدي بخِفَّةٍ فوق لوحة اللعب بعد كُلِّ حركة. الرَّجَّة التي تحدث بفِعل إزاحة بَيدقٍ من حفرةٍ إلى أخرى تُعلِمني عندما يحينُ دوري.

لو حدث وكنتُ وحيدة وفي مِزاجٍ مثاليٍّ، ألعب دور سلتير[1]، وهي اللعبة المتيَّمةُ أنا بها. أستخدمُ أوراقَ لعب مُعلَّمَةٍ برموز برايل عند الزاوية اليُمنى العُليا من الورقة، والتي تُعرِّف قيمة الورقة.

عندما يكون حولي أطفال؛ فلا شيء يُسعدنُي للغاية أكثر من أن أتمازَح وإيَّاهم. إنّني أجد حتَّى أنَّ صُحبة أصغر طفل هي صحبة ممتازة، وأسعدُ حين أقول إنَّ الأطفال الصِّغار يحبُّونني في عادة الأمر. هم يُرشدونني أثناء سيري، ويجعلونني أرى الأشياء التي يهتمُّون بها. الصِّغارُ منهم بالطَّبع لا يستطيعون نُطق الأشياء على الأصابع، لكنَّني أتمكَّنُ من قراءة شِفاههم. وإن لم أُفلِح يلجؤون إلى العرض الصَّامت. أحيانًا أرتكِبُ خطأً أو أفعل شيئًا بشكلٍ غير صحيح. انفجارٌ من الضحك الطفولي يستقبل لهوَجَتي، ويبدأ البانتومَيْم[2] كُلُّه من البداية مجدَّدًا. كثيرًا ما أروي لهم قَصصًا أو أُعلِّمُهم لعبة، وتطير السَّاعاتُ سِراعًا وتنصرف تاركةً إيَّانا سُعداء وبخير حال.

المتاحف والمعارض الفنِّيَّة كذلك من مصادر البهجة والإلهام بالنسبة لي. لا ريب أنَّه سوف يبدو من الغريب للكثيرين أن تكون

---

(1) نوع من ألعاب الورق، يلعبه المرء مع نفسه. (المترجِم)

(2) هو أحد أنواع فَنِّ التمثيل الصامت. (المترجم)

اليد التي لا يُؤازِرُها البَصرُ في وُسعِها أن تشعر بالحركات، بالعواطف، بالجمال الكامن في قِطعة مرمرٍ باردة، وبهذا يكون حقيقيًّا أنَّني أستمِدُّ مُتعةً خالِصةً من تحسُّس الأعمال الفنيَّة العظيمة. فبينما أطرافُ أصابعي تقتفي الخطوط والتعاريج؛ فإنَّها تستكشف الفكرة والشعور الذي قد صَوَّرهما الفنَّان. باستطاعتي أن أستشعر المَقتَ والشَّجاعةَ والمحبَّة وهي تتجلّى في تماثيل أوجه الآلهة والأبطال، تمامًا كما باستطاعتي أن أتعرَّفها في أوجه الكائنات الحيَّة التي يُتاح لي لَمسُها. إنَّني أتمثَّلُ في وقفة ديانا سُموَّ واستقلاليَّة الغابة، والرُّوح التي تروِّضُ أسد الجبل وتقهر أشدَّ الأهواء ضراوَةً. إنَّ روحي لتبتهج لرباطة جأش ڤينوس وبتلمُّس تضاريس جسدها السَّخيَّة، وفي تماثيل باريه البرونزية؛ تتكشَّف لي أسرار الأدغال.

عندي رصيعةٌ لصورة هوميروس مُعلَّقَة على حائط غُرفة المذاكرة، وهي منخفضة بما يجعلها في المتناول؛ لذا أستطيع أن أصل إليها بسهولةٍ وألمس الوجه الجميل الحزين بتوقيرٍ مُحِبٍّ. كم أعرفُ كلَّ خطٍّ في ذلك الرمش المهيب تمامَ المعرفة؛ ففيه ترتسِمُ مسارات الحياة والبراهين المريرة عن الكَرْب والنِّضال، تلك العيون الضريرة التي تغطِّيها عُصابةٌ باردة تبحثُ عن النُّور والسماوات الزرقاء لمحبوبتِه هيلَّاس[1]، لكنَّه بحثٌ لا طائل من ورائه، إنَّ ذلك الفم الجميل، غضٌّ وراسخٌ وحقيقيّ. إنَّه وجهٌ لشاعر، ولإنسانٍ قد خَبِر الحُزن. آه، كم أتفهَّمُ عجزه على نحوٍ حميم -تلك الليلة السَّرمديَّة التي كان يعيشها-

أيا ظلامًا في ظلامٍ في ظلام، وسط لظى الظَّهيرة،
ظلامٌ واصِب، خسوفٌ تامٌّ، لا خلاص منه
دونما رجاءٍ في طلوع نهار![2]

(1) الاسم القديم لبلاد اليونان. (المترجِم)

(2) الاقتباس من قصيدة "عذاب شمشون" للشاعر الإنجليزي جون ميلتون. (المترجم)

إنَّنـي أسـتطيعُ سـماع هومـيرس في خيـالي وهـو يُنشِـد ملحمتـه، بينـما هـو يَغُـذُّ الخطـى المتزعزِعـة المـتردِّدة؛ يتلمَّـسُ طريقـه مـن مُعسـكرٍ إلى مُعسـكَر- يتغنَّـى بالحيـاة، بالحـبِّ، بالحَـرب، بالصَّنائـع المدهشـة لعِـرقٍ نبيـل. لقـد كانـت ترنيمـةً بديعـةً مجيـدةً، وقـد خَلَعَـتْ عـلى الشَّـاعر الضريـر تاجًـا خالـدًا، وجعلتـه موضـع إعجـاب كلِّ العصـور.

إنَّنـي أتسـاءلُ أحيانًـا إذا مـا كانـت اليـد أكـثرُ تحسُّسًـا مـن العـين لمظاهـر الجـمال في الأعـمال المنحوتـة. أظـنُّ أنَّ فيـض الخطـوط والتعاريـج المتناغِمـة يمكـن لهـا أن تكـون أكـثر إتقانًـا حـين تُستَشـعَر باليـد لا حـين تُـرَى. فلتكـن كـما تكـون، إنَّنـي أعلـمُ أنَّ باسـتطاعتي استشـعار خفقـات قلـوب اليونانيـين الأقدمـين في تماثيـل آلِهتِهـم وإلهاتِهـم المرمريَّـة.

سـبيلٌ أخـرى للبَهجـة، وحدوثهـا لهـو أكـثر نـدرة عـن المباهـج الأخـرى: إنَّــه الذَّهــابُ إلى المــسرح. إنَّنــي لأســتمتعُ بالمسرحيــةِ حــين تُوصَــفُ لي أحداثُهـا آن تمثيلهـا عـلى المنصَّـة أكـثر مـن قِـراءتي لهـا؛ لأنَّنـي حينئـذ يبـدو حـالي كـما لـو أنِّي أعيـشُ في قلـب الأحـداث المفعمـة بالحيـاة. مـن بـين مـا قـد حُزتُـه مـن شَرفٍ كان لقـاء بعـض الممثِّلـين العُظـماء والممثِّلات، أولئـك الذيـن يملكـون سَـطوةَ أن يفتنـوك بسـحرهم، لدرجـة أن تنـسى الزمـان والمـكان وتعيـش مُجـدَّدًا في المـاضي الرومانـسيِّ. لقـد أُذِنَ لي في تحسُّـسِ وجـه الآنسـة إلـين تـيرِّي[1] ولمـس فسـاتينها، فقـد كانـت تُجسِّـدُ مثلنـا الأعـلى عـن الملكـة، وكان يكتنفهـا ذاك الطَّابـع الإلهـيُّ الـذي يُطوِّقُهـا بأسـمى مخايـل الحُـزن. بجانبهـا كان يقـف السِّـير هـنري إرفـينغ، يتقلَّـدُ الشَّــارات الــمَلَكيَّة، وفي سـلوكه وفي كلِّ إيمـاءةٍ منــه كان يتجـلَّى بهـاءُ حِكمتِـه، وأمـاراتُ مَلَكِيَّتِـه الطَّاغيـة التـي تغلـب عـلى قَسَـماتِ وجهـه الــمُرهَف. ففـي وجـه الملِـك، الـذي كان يرتديـه كقنـاع، كان يتبـدَّى فيـه نـأيٌ عـن العـالم وحُـزنٌ لا يُمكـن سَـبرُ غـوره؛ مـا جلعنـي أبـدًا لا أنسـاه.

---

(1) ممثلة بريطانية، لُقِّبَت بلقب: "سيدة الصليب الأكبر" تُوُفِّيَت عام 1928. (المترجم)

أنـا أعـرفُ أيضًا السَّـيِّد چـيفرسون. أفخـرُ باعتبـاره واحدًا مـن أصدقائي. أذهـبُ لرؤيتـه متـى مـا حـدث وكنـتُ في مـكان يـؤدِّي فيـه عـرضَ تمثيـل. المرَّةُ الأولى التـي رأيتُـه فيهـا يُمثِّـل كانـت أثناء مرحلـة المدرسـة في نيويورك. أدَّى في مسرحيَّـة "رِب ڤـان وِنْـكِلْ"[1]. قـرأتُ القِصَّـة كثـيًرا، لكنِّـي لم أشـعر أبـدًا بسِـحر أسـاليب "رِب" البطيئـة، الظَّريفـة، الحميمـة كـما حـدث معـي في المسرحيـة. عـرضُ السَّـيِّد چـيفرسون البديـع الشَّـجِيُّ جلعنـي تقريبًـا أرتحِـلُ معـه بعيـدًا وكُلِّي بهجـة. لـدى أصابعـي صـورة عـن العجـوز "رِب" لـن تنسـاها أبـدًا. أخذتنـي الآنسـة ساليـڤـان بعـد عـرض المسرحيَّـة كي أراه خلـف الكواليـس، وتحسَّـستُ قبضـةَ يـده المثـيرة للفضـول، وتلمَّسـتُ شـعره المنسـاب وكـذا لِحيتَـه. سـمح لي السَّـيِّد چـيفرسون أن أتحسَّـسَ وجهـه؛ كي أسـتطيعَ تصـوُّرَ كيـف يبـدو لـدى خروجـه سـيرًا مـن ذلـك النَّـوم الغريـب الـذي دام عشريـن عامًـا، وأراني كيـف كان العجـوز "رِب" يتخبَّـطُ في مِشـيَتِه عـلى قدمَيـه.

لقـد رأيتُـه كذلـك في "الغُرمـاء". ذات مـرَّةٍ حـين عَرَّجـتُ عليـه في بوسـطن، قـدَّمَ أداءً تمثيليًّـا لأكـثر الأجـزاء الصَّادِمـة في "الغُرمـاء" بالنسـبة لي. حجـرة الاسـتقبال حيـث كُنَّـا نجلـس كانـت مُخصَّصـةً لأعـراض منصَّـة العـرض. جلـس هـو وابنـه إلى الطاولـة الكبـيرة، وبـوب أكـرِس كان يُـدوِّنُ اعتراضَـه. كنـتُ أتتبَّـعُ كلَّ حركاتِـه بيـديَّ، وأقبِـضُ عـلى المضحِـك مـن تخبُّطاتِـه وإيماءاتِـه بطريقـةٍ كانـت لتكـون مسـتحيلة لـو نُطـق كلُّ شيء في يـدي. ثـمَّ هبُّـوا للمبـارزة، وتابعـتُ الطَّعنـات الخاطِفـة والحـركات الدِّفاعيَّـة للسُّـيوف ولتهدُّجـات المسـكين بـوب بينـما شـجاعتُه تِنـزُّ مـن أطـراف أصابِعـه. ثـمَّ حانـت مـن الممثـل العظيـم عـلى مِعطَفِـه قبضـة، وعـلى فمِـه اختلاجَـة، وفي لحظـة كنـتُ في قريـة Falling Water (المياه المتسـاقِطة)، وشـعرتُ بـرأس شـنايدر الشَّـعثاء وهـي تسـقط عـلى ركبتـي. تـلا السَّـيِّد چـيفرسون أفضـل محـاورات "رِب ڤـان وِنْـكِلْ" التـي فيهـا،

(1) عن قصة قصيرة للكاتب الأميركيِّ واشنطن إرڤينغ (المترجم)

كانـت الدَّمعـةُ تُخالِـطُ الابتسـامة. لقـد طلـب منِّـي أن أحـدِّد قـدر مـا أسـتطيع الإيمـاءات والحـركات التـي تتـماشى مـع الجمـل الحواريَّـة. لسـتُ أملـكُ بالطَّبـع أدنى حِـسٍّ بالحـركات الدِّراميَّـة، وكان بإمـكاني فقـط أن أقـدِّم تخمينـاتٍ عشـوائيَّةً، لكـن حـين يحـدث الأمـر مـع فنَّـانٍ بـارع، فإنَّـه يختـار الحركـة بمـا يُناسـب الكلمـة. تنهيـدةُ "رِب" وهـو يدمـدم قائـلًا: "أيُنـسى الإنسـان فـورَ أن يرحـل ويقـضي نحْبَـه؟"، إحسـاس القنـوط الـذي كان يشـعر بـه وهـو يبحـث عـن الكلـب والمسـدس بعـد رُقـادِه الطَّويـل، وتـردُّده المضحـك لـدى توقيـع المعاهـدة مـع ديـرِك- كلُّ تلـك المشـاهد تبـدو لي مُقتطَعـة مـن الحيـاة نفسـها، إنَّ هـذه هـي الحيـاة المِثاليَّـة؛ حيـث تحـدث الأشـياء فيهـا كـما نظـنُّ أنَّهـا يجـب أن تحـدث.

أتذكَّـرُ جيِّـدًا أوَّلَ مـرَّة ذهبـتُ فيهـا إلى المـسرح. كان هـذا قبـل اثنـي عـشر عامًـا. إلـزي لـزلي[1]، الممثلـة الصغـيرة، كانـت في بوسـطن، وأخذتنـي الآنسـة ساليـڤـان لأراهـا في مسرحيَّـة "الأمـير والفقـير". لـن أنـسى أبـدًا موجـات الفـرح والحُـزن المتناوبـة التـي كانـت تخلَّـلُ هـذه المسرحيَّـة الصغـيرة البديعـة، ولا الطِّفلـة الصغـيرة التـي أدَّت فيهـا. بعـد انتهـاء العـرض سُـمِح لي أن أذهـب إلى مـا وراء الكواليـس وألتقـي بهـا وهـي في رِدائِهـا الملَكِيِّ. يـكاد يكـون مـن العسـير أن يجـد المـرء طفلـةً تكـون ألطَـف وجديـرة بالمحبَّـة أكـثر مـن إلـزِي، وهـي تقـف وعـلى كتِفَيهـا تفيـضُ غمامةٌ مـن الشـعر الذَّهبـيِّ، مُشرِقـةٌ بَسـمَتُها، ولا تُظهـر أيَّ علامَـةٍ عـلى الخجـل أو التَّعَـب، رغـم أنَّهـا كانـت تُمثِّـلُ أمـام جُمهـورٍ كبـير. كنـتُ قـد تعلَّمـتُ الـكلام لتـوِّي، وقـد كَـرَّرتُ اسـمها قَبْـلًا حتَّـى تمكَّنـتُ مـن نُطقِـه عـلى نحـوٍ مثـاليٍّ. ولكـم أن تتصـوَّروا سـعادتي حـين فهِمَـتْ الكلـمات القليلـة التـي فُهـتُ بهـا إليهـا، ودون تـردُّدٍ مَـدَّت إليَّ يدَهـا كي تُحيِّينـي.

---

(1) ممثلة أميركيّة، توفِّيت عام 1966. (المترجم)

أليس صحيحًا إذن، أنَّ حياتي رغم كلِّ قُيودِها كانت تمَسُّ في مواطن عديدةٍ حياة العالم الجميل؟ لكلِّ شيءٍ عجائبه، حتَّى الظلام والصَّمت، وقد تعلَّمتُ أنَّه، مهما كان الوضع الذي أنا فيه، فعليَّ أن أكون به راضية.

أحيانًا، يُطوِّقُني إحساسٌ بالعُزلة، كأنَّني وسط سديمٍ بارد، وأنا أجلسُ وحدي وأنتظرُ على أبواب الحياة المُوصَدَة، هذا صحيح. ففيما وراءها هُناك النُّور، والموسيقى، والصُّحبة الحلوة، لكن ربَّما لن يؤذَن لي في الدخول. يا له من قَدَرٍ أخرَس، عديم الرَّحمة، ذلك الذي يسدُّ الطَّريق. هباءٌ أن أُسائِلَ قضاءَه المستبِدَّ، فقلبي ما يزال غريرًا سريعَ الغضب، لكنَّ لِساني لن ينطِق بالكلمات العقيمة المريرة التي تصعد إلى شفاهي؛ فتهوي عائدةً إلى قلبي كدمعٍ غير مذروف. إنَّ الصَّمتَ ليجثمُ ثقيلًا فوق رُوحي. ثمَّ يأتي الأمل، ويهمسُ لي باسمًا: "ثمَّة أُنسٌ في الذهول عن الذَّات". عندها، أحاول أن أجعل من النور الماثل في عُيون الآخرين شَمسي، ومن الموسيقى الوالجة في آذانِ الآخرين سيمفونيَّتي، وأنشد سعادتي في البسمة المرتسمة على شِفاه الآخرين.

الفصل الثالث والعشرون

يـا لَيْتَـهُ كان باسـتطاعتي أن أُثـري هـذا الكِتـاب بأسـماء جميـع أولئـك الذيـن تولّـوا أسـبابَ سـعادتي! بعـضٌ منهـم لتُطالَـعُ أسـماؤهم في أدَبِنـا المكتـوب، وهـم عزيـزون عـلى قلـوب الكثيريـن، بينـما آخـرون مجهولـون بالكُلِّيَّـة لأغلـب قُـرَّائي. لكـنَّ تأثيرهـم -رغـم أنَّهـم بعيـدون عـن أضـواء الشُّـهرة- سـوف يبقـى خالـدًا في حيـوات هـؤلاء الذيـن حلَّـوا مُرَّهـا وسـمَوا بهـا. مثـلُ أولئـك يكـون لِقاؤهـم يومًـا مَشـهودًا في حيواتِنـا، حـين نلتقـي هـؤلاء النَّـاس الذيـن يجعلوننـا نهتـزُّ طَرَبًـا، كحالنـا لـدى سَـماع قَصيـدةٍ بديعـة، إنهـم أُنـاس تكـون يدُهـم عنـد المصافَحـة مُترعـةً بتعاطُـفٍ غـيرِ مَنطـوق، وطبائعهـم الغنيَّـة العَذبـة تنقِـلُ إلى أرواحنـا التوَّاقـةِ الـمُتَعطِّشةِ ثـراءً مُدهِشًـا؛ هـو في جَوهـرِهِ يكـون ذا طابـعٍ إلهـيٍّ. أمَّـا الأمـور التـي كانـت تُسـبِّبُ لنـا القلـق، والانزعـاج، وبلبلَـة العقـل، تلـك التـي كانـت تسـتغرقنا، فإنَّهـا سـاعة لقائهـم تنقـضى كأنَّهـا أحـلامٌ مُزعِجـة؛ فنسـتيقظ

ونـرى بعيـونٍ جديـدة، ونسـمع بـآذانٍ جديـدة جـمالَ وتناغُـمَ عالَـم الله الحقيقـيِّ. أمَّـا التَّوافِـه المهيبـة التـي كانـت تملأ كلَّ يـومٍ مـن أيَّـام حياتنـا فتُزهِـر فجـأةً وتصـير احتماليَّـاتٍ مُشرِقـة. باختصـار، عندمـا يكـون مثـل هـؤلاء الأصدقـاء بقُربنـا نشـعر أنَّ كلَّ شيء بخـير. ربَّمـا نحـنُ لم نرهـم مـن قَبـل أبـدًا، وربَّمـا لـن تتقاطـع مسـاراتُ حيواتِهـم مـع مسـاراتنا مُجـدَّدًا أبـدًا، لكـنَّ تأثـير طبائعهـم الهادِئـة الرقيقـة، تكـون هـي الـشَّرابُ الـمُراقُ فـوق سُـخطِنا ليُلطِّفَـه، ونحـن نُحـسُّ بلَمسَـتِه الشـافية، كـما يشـعر الجبـل بفيضـانٍ يُعـذِّبُ أُجاجَـه.

لطالمـا كنـتُ أُسـأل: "ألا يُضجِـرُكِ البَـشَر؟". لسـتُ أفهـم تمامًـا مـا يعنيـه هـذا. أفـترضُ أنَّ ادِّعـاءات الفضوليـين والحمقـى -خاصَّـة مـن مُراسـلي الصحافـة- تكـون دومًـا في غـير محلِّهـا. أكـرهُ كذلـك النـاس الذيـن يُحاولون أن يتبسَّـطوا في الحديـث في محاولـةٍ منهـم للنـزول إلى مسـتوى إدراكي. إنَّهم كالأشـخاص الذيـن يُقـصِّرون خَطوَهـم أثنـاء سَـيرِهم كي تُسـاير خُطواتِـك، إنَّ النِّفـاقَ في كِلتـا الحالتـين عـلى نَفـس القَـدر مـن تسـبُّبه لإثـارة السُّـخط.

أيـدي هـؤلاء الذيـن ألتقيهـم تكـون فصيحـةَ الإبانـةِ عـلى نحـوٍ صامـت. ولمسـةُ بعـض الأيـدي تُبِـينُ عـن صَفَاقـة. لقـد التقيـتُ الكثـير مـن النـاس الخاويـن مـن البهجـة؛ فحـين أقبـض عـلى أطـراف أصابعهـم المتجمِّـدة، يُخيَّـلُ إليَّ أنَّنـي أصافـحُ أيـدي عبـارة عـن عاصفـة شـمال شرقيَّـة. آخـرون تنبعـث مـن أيديهـم أشـعَّةٌ شمسـيَّة؛ لهـذا فقبضتُهـم تُدَفِّـئُ قَلبـي. ربَّمـا وحدهـا اللمسـة المتشـبِّثة مـن يـدِ طفـلٍ هـي مـا تسـبِّبُ هـذا، غـير أنَّـه يكـونُ بهـا قَـدرٌ غامـرٌ مـن إشـعاع الشَّـمس بالنسـبة لي، كمَثـلِ نظـرةٍ خاطفـةٍ تطفـر بالمحبَّـة مـن آخريـن. إنَّ مُصافحـةً مـن القلـب أو خِطابًـا ودودًا لتنفَحُنـي متعـةً خالصـة.

عنـدي أصدقـاءٌ كُـثُر بعيـدون لم أرَهُـم أبـدًا. إنَّهـم فِعـلًا كثـيرون جـدًّا لدرجـة أنِّي لا أسـتطيعُ غالبًـا أن أرُدَّ عـلى خِطاباتِهـم كلِّهـا، غـير أنِّي أبتغـي

هُنا أن أقول إنَّني مُمتنَّةٌ لهم على الدَّوام لأجل كلماتِهم اللطيفة، غير أنِّي لن أستطيع أن أعبِّر عن شُكري لهم بما يكفي.

إنَّني أعتبر أنَّها لأعذبُ امتيازٍ في حياتي أنِّي قد عرفتُ وتحادَثتُ مع الكثيرين من الأشخاص العباقرة. وحدهم مَن عرفوا القِسَّ بروكس، باستطاعتِهم أن يُقدِّروا قدر بهجة صداقتِه بالنِّسبة لأولئك الذين قد حازوها. كَطِفلة، اعتدتُ أن أجلسَ على رُكبتيه وأمسكَ بيده الجليلة بإحدى يدَيَّ، بينما الآنسة ساليفان تنطقُ في اليد الأخرى كلماتِه الجميلةَ عن الله وعن العالم الرُّوحانيِّ. كنتُ أسمعه ببهجةِ ودهشةِ طِفل. روحي لم تكن تستطيع أن تَبلُغَ علياءَ رُوحه، لكنَّه وهبني إحساسًا حقيقيًّا بالبهجة في الحياة، ولم أكن أبرحه أبدًا إلَّا وأنا أحملُ معي فِكرةً رائقة، تكبُرُ بِذرتُها في جمال وعُمق المعنى كما أكبُرُ أنا. ذات مرَّة، عندما كنتُ في حيرةٍ من أمري عندما علمتُ أنَّ بالعالم الكثير والكثير من الأديان، قال لي: "يوجد دِينٌ كونيٌّ واحد يا هيلين- دينُ الحبِّ. أحِبِّي أباكِ الذي في السماء بكلِّ قلبكِ ورُوحِك، أحبِّي كلَّ ابنٍ للرَّب كثيرًا بقدر ما تستطيعين، وتذكَّري أنَّ احتمالات حدوث الخير أعظم من احتمالات حدوث الشَّر، وأنتِ تملكين مِفتاحَ ملكوت السَّماء". ولقد كانت حياتُه تجسيدًا سعيدًا لتلك الحقيقة العظيمة. ففي رُوحه النَّبيلة، تتآلفُ المعرفةُ الرَّحبةُ والمحبَّة، وتتمازَجان مع الإيمان الذي قد صار بَصيرة. إنَّه يرى

الله حاضِرًا في كلِّ ما يُخلِّصُ ويسمو بالإنسان

في قلب كلِّ ما يخشَع، ما يهوِّن، وكل ما يُقدِّمُ السُّلوان

لم يُلقِّنِّي القِسُّ بروكس أيَّ مُعتَقدٍ خاصٍّ أو تعاليمَ، إنَّما تركَ أثره على تفكيري بفِكرتين عظيمتين: أُبوَّةُ الله وأخَويَّةُ بني البَشر، وجعلني أشعر أنَّ تلك الحقائق تشكِّلُ الأساس لجميع العقائد وكلِّ أشكال

المقدَّسـات. الله محبَّـة، الله هـو أبونـا، ونحـنُ أبنـاؤه، وبهـذا سـوف تنقشـعُ أحلَـكُ الغمامـات، ورغـم أنَّ الحـقَّ يُزيَّـف، فالباطِـلُ لـن تكـون لـه الغَلَبَـة.

إنّنـي أملـكُ مـن أسـباب السـعادة في هـذا العـالم مـا يكفينـي ويجعلنـي أتحـاشى القلـق فيـما يتعلّق بالمسـتقبَل، باسـتثناء حـين أتذكَّـر أنَّ لي أصدقاءً مُتعلِّقـةٌ أنـا بهـم ينتظروننـي بمـكانٍ جميـلٍ مـا بعـالم الله. رغـم انقضـاء السـنين، يُخيَّـلُ إليَّ أنَّهـم جِـدُّ قريبـين، لدرجـة أنَّنـي لـن أجـده غريبًـا إن حـدث في أيِّ لحظـة وأحسسـتُ بهـم وقـد أمسـكوا بيـدي، وتحدَّثـوا إليَّ بكلـماتِ تـودُّدٍ كـما اعتـادوا أن يفعلـوا قبـل أن يرحلـوا.

منـذُ أن مـات القِـسُّ بروكـس واظبـتُ عـلى قِـراءة الكتـاب المقـدَّس، وكذلـك بعـض الأعـمال الفلسـفيَّة التـي تتنـاول الدِّيـن، مـن بينهـا كتـاب سـويدنبيرغ "الجنَّـة والجحيـم"، وكتـاب درامُّونـد "ارتقـاء الإنسـان"، ولم أجد مُعتَقَـدًا أو نِظامًـا أكـثر إشـباعًا للـرُّوح مـن مُعتقـد القِـسِّ بروكـس؛ عقيـدة المحبَّـة. عرفـتُ السَّـيِّد هـنري درامُّونـد، وذِكـرى قبضـةِ يـده القويَّـة، الدَّافِئـة تُشـبه طقـوس الـمُبارَكة. لقـد كان أكـثر الأشـخاص تعاطُفًـا مـع أصحابـه. إنَّـه مـن العارفـين، ولقـد كان مُؤنِسًـا للغايـة إلى الدَّرجـة التـي يسـتحيلُ معهـا أن تشـعرَ بالكآبـةِ في حضرتِـه.

أتذكَّـرُ أوَّلَ مـرَّة رأيـتُ فيهـا دكتـور أولـڤـار وينـدِل هولمـز. دعـاني أنـا والآنسـة ساليـڤـان لنُعـرِّجَ عليـه ذات يـوم أحـد بعـد الظهـيرة. كان الوقتُ بواكـير الرَّبيـع، تمامًـا بعـد أن قـد تعلَّمـتُ الـكلام. أُظهرنـا في الحـال عـلى مكتبتِـه، حيـث وجدنـاه جالسًـا عـلى كُـرسيٍّ ضخـم ذي ذراعـين أمـام نـار المدفـأة الموقَـدَة، والتـي كانـت تلتمـعُ وتُطَقْطِـق فـوق المصطَـلى، "مُتفكِّرًا"، هكـذا قـال، "في الأيَّـام التـي قـد مضـت".

"ومسُتمِعًا إلى خرير نهر تشارلز" هكذا اقترحتُ.

"نعـم" ردَّ عـليَّ، "نهـر تشـارلز لـه الكثـير مـن الارتباطـات في الذاكـرة بالنسـبة لي". كانـت الحجـرة تعبـقُ برائحـة الطباعـة وبرائحـة جلـد مدبـوغ

، وهـو مـا كشـف لي أنَّ المـكان يعُـجُّ بالكُتـب، فبسـطتُ يـدي غريزيًّـا بحثًّـا عنهـا. اسـتقرَّت أصابعـي فـوق مُجلَّـدٍ جميـل لقصائـد تينسـون، وحين أخبرتنـي الآنسـة ساليـڤـان عنـه بـدأتُ أتلـو:

تَكَسَّر، تَكَسَّر، تَكَسَّر

على صخورك الرماديَّة الباردة، أيُّها البحر!

لكنَّنـي توقَّفـتُ فجـأة. شـعرتُ بدمـوعٍ فـوق يـدي. لقـد كنـتُ سـببًا في بـكاء شـاعري المحبـوب، فتعاظَـمَ ألمـي. أجلَسَـني عـلى كُرسـيِّه، وأتى لي بأشـياء مختلفـة مثـيرةٍ للفضـول كي أتفحَّصهـا، وبنـاءً عـلى طَلبـه ألقيـتُ قصيـدة "النوتيـلاس ذو الحجـيرات"، والتـي صـارت مُنذئـذٍ قَصيـدتي المفضَّلـة. بعدهـا رأيـتُ السـيد هوملـز مـرّاتٍ عـدّة، وتعلَّمـتُ أن أُحـبَّ فيـه الإنسـان، تمامًـا كـما أحببـتُ الشَّـاعر فيـه.

ذات يـومٍ صَيفـيٍّ بهـيٍّ، لم يكـن قـد مـرَّ وقـتٌ طويـلٌ عـلى لقـائي بالدكتـور هولمـز، حتَّـى زُرنـا أنـا والآنسـة ساليـڤـان السـيد وايتيـير في بيتـه الهـادئ القائـم عـلى الميريمـاك[1]. مُجاملتُـه اللطيفـة وحديثُـه الطريـف مَلَـكَا عـليَّ قلبـي. كان عنـده إصـدار مـن كتـاب لقصائـده في حَـرفٍ بـارز، وهـو مـا منـه قـرأتُ "في أيَّـام المدرسـة". لقـد كان فَرِحًـا بأنَّـه كان في اسـتطاعتي أن أفـوه بالكلـمات بنُطـقٍ سـليمٍ للغايـة، وقـال إنَّـه لم يجـد صعوبـةً في فَهمـي. ثـمَّ طرحـتُ أسـئلةً عديـدة عـن القصيـدة، وقـرأتُ إجاباتِـه مـن خـلال وَضـع أصابعـي عـلى شـفتيه. لقـد قـال إنَّـه هـو الفتـى الصَّغير الـمَعنِيُّ في القصيـدة، وأن اسـمَ الفتـاة كان سـالي، وأخـبر بالمزيـد مِـمَّا قـد نسـيتُه. ألقيـتُ كذلـك "Laus Deo" (فليتمجَّـد الله)، وبينـما أنـا أتلـو الأبيـات الخِتاميَّـة، وضـع في يـدي تمثـالًا لعَبْـدٍ كان يبـدو مـن هيئتِـه أن أغلالَـه قـد سـقطت، تمامًـا كـما سـقطت الأغـلال مـن أطـراف بُطـرس حـين قـادَه المـلاك إلى خـارج السِّـجن. بعـد هـذا دَلفنـا إلى حُجـرة الدراسـة

---

(1) نهرٌ يمرُّ بـ ماساتشوستس، ويصبُّ في النهاية بالمحيط الأطلنطي. (المترجم)

الخاصة بـه، وكتـبَ أوتوغرافَـه لمعلِّمتـي وعـبَّر عـن إعجابِـه بصَنيعِهـا مُوجِّهًا خِطابه لي: "إنّها مَـن أعتَـق روحـك". ثـمَّ قـادني إلى البوَّابـة وطبـعَ قُبلـةً حنونًـا عـلى جَبهتـي. وعدتُـه بزيارتِـه مُـرَّةً أخـرى في الصَّيـف القـادم، لكنَّـه مـات قبـل أن يُـوفِّ بالوعـد.

دكتـور إدوارد إيـڤــريت هـال هـو مـن أقـدم أصدقـائي. لقـد كنـتُ أعرفُـه منـذ كنـتُ بعُمـر الثامنـة، ومَحبَّتـي لـه قـد تعاظَمَـت بتعاقُـب سـنوات عمـري. فحِكمتُـه، وتعاطُفـه الـرَّؤوم كانـا هـما العـون للآنسـة ساليـڤــان، وكذلـك لي، في أوقـات المِحَـن والأحـزان، وتنفُّـذُه الشـديد قـد سـاعدنا في الكثـير مـن الأماكـن القاسـية، ومـا فعلـه لأجلنـا قـد فعلـه لأجـل آلافٍ مـن أولئـك الذيـن يُواجهـون مهـامَّ صعبـة مطلـوبٌ إنجازُهـا. لقـد أفـاض عـلى قشـور المعتقـدات القديمـة بالنَّبيـذ الجديـد المصنـوع مـن المحبَّـة، وبَـيَّنَ للبَـشر مـا معنـى أن تؤمـن، أن تعيـشَ، وأن تكـون حُـرًّا. مـا علَّمنـا إيَّـاه رأينـاه مُجسَّـدًا ببهـاءٍ في حياتِـه الخاصَّـة- حُبُّـه للوطـن، طِيبتـه مـع أقـلِّ إخوتِـه في الدِّيـن شـأنًا، ورغبتـه المخلِصـة في أن يحيـا وهـو يتقـدَّمُ للأمـام ويتَّجـه نحـو الأعـالي. لقـد كان نَبيًّـا ومُلهِـمًا للإنسـان، ومُنفِّـذًا قديـرًا للكلمـة[1]، وصديقًـا لـكلِّ أبنـاء جِنسِـه- فليُباركْـهُ الله!

لقـد كتبـتُ بالفِعـل عـن لقـائي الأوَّل مـع دكتـور ألكسـندر غرهـام بِـلْ. قضيـتُ منـذ ذلـك الحـين الكثـير مـن الأيَّـام السـعيدة بُصحبتِـه في واشـنطن، وفي بيتِـه الجميـل، في قلـب جزيـرة كيـب بريتـون قريبًـا مـن بـادِّك، القريـة التـي اشـتُهِرَت بكتـاب تشـارلز دودلي وارنـر. هنـا في معمـل دكتـور بِـلْ، أو في الحقـول القائمـة عـلى شـاطئ بـراس دي أور العظيـم، أمضيـتُ الكثـير مـن السَّـاعات البهيجـة، أسـتمِعُ لمـا كان يتعـيَّنُ عليـه أن يُخـبرني بـه بشـأن تجاربـه، وأعينُـه في تطيـير الطائـرات الورقيـة بوسـائل يتوقَّـعُ لهـا أن تستكشـف القوانـين التـي سـوف تحكُـمُ المركبـات الهوائيَّـة

(1) إحالة على "في البدء كان الكلمة" (يوحنّا 1:1). (المترجم)

المستقبَليّة. إنَّ الدكتور بِلْ خبيرٌ بالعديد من ميادِين العلوم، ولديه مهارةٌ في جَعلِ أيِّ شيءٍ تمسُّه يدُه يتحوَّل إلى شيءٍ مثيرٍ للفضول، حتى مع أكثر النَّظريات العويصة. إنَّه يجعلك تشعر أنَّكَ إن سنح لك مزيدٌ من الوقت القليل فحسب، فأنت أيضًا، ربَّما تصبح مُخترِعًا. لديه كذلك في شخصيَّتِه جانبٌ فُكاهيٌّ وشاعريٌّ. شَغَفُه المهيمِنُ عليه هو مَحبَّتُه للأطفال. لا يكون جِدَّ سعيدٍ أبدًا كحاله حين يكون بين يديه طفلٌ صغيرٌ أصَمُّ. ثمار عمله المضني دِفاعًا عن الصُّمِّ لسوف تُخلَّدُ وتشملُ برَكتُها أجيالَ الأطفال التي سوف تأتي في المستقبل، وإنَّنا لنُحبُّه بالمِثل لأجل ما أنجزه بنفسِه ولأجل ما قد بَثَّه في نفوس الآخرين.

أثناء العامَين الَّلذَين قضيتُهما في نيويورك، كان عندي الكثير من فُرص الحديث مع أشخاصٍ مُميَّزين لطالما كنتُ أسمعُ أسماءَهم، ولكنِّي لم أكن أتوقَّعُ أبدًا أن ألتقيَهُم. التقيتُ مُعظمهم في منزل صديقي الطَّيب؛ السيد لورانس هاتُّون. كان شَرَفًا لي أن أزوره وزوجته السيِّدة هاتُّون في بيتهما الجميل، وأن أرى مكتبتهما وأعرف بالمشاعر الجميلة والأفكار المشرقة التي كتبها الأصدقاء الموهوبون من أجلِهما. حقيقةً لقد قيل إنَّ لدى السيد هاتُّون المقدرة على أن يجعل أيَّ شخصٍ يُفصح عمّا بقرارة نفسه من أفضل الأفكار وأعذب العواطِف. ليس المرء في حاجة لقراءة "طفلٌ عرفتُه" كي يفهمَه- إنَّه أكرمُ، وأرقُّ طفلٍ عرفتُه على الإطلاق، صديقٌ مخلِص في كلِّ الأحوال، يقتفي آثار المحبَّة في حياة كلابِه كما يفعل مع رفقائه من البَشَر.

السيِّدة هاتُّون صديقةٌ حقيقيَّةٌ وموثوقة. كثيرٌ من أعذبِ ما أؤمن به، كثيرٌ من أغلى ما أعتزُّ به، أدينُ به لها. لطالما كانت تُقدِّمُ لي النُّصح وتُعينُني في مساري أثناء فترة الكُلِّيَّة. فعندما أجد عملي عسيراً ومُحبِطًا على نحوٍ بَيِّنٍ، تكتبُ لي خِطاباتٍ تجعلني أشعر أنِّي سعيدةٌ وشُجاعة، إنَّها واحدةٌ من هؤلاء الذين نتعلَّمُ منهم أنَّ فريضةً واحدة مؤلِمة تُنجَز، تجعل ما يتبعها أبسطَ وأيسَر.

قَدَّمني السَّيِّد هاتُّون للكثير من أصدقائه من الأدباء، من بين أعظمهم كان السَّيِّد وليام دين هاولز ومارك توين. التقيتُ كذلك السَّيِّد ريتشارد واتسون غيلدر والسَّيِّد إدموند كلارينس ستدمان. تعرفتُ أيضًا على السَّيِّد تشارلز دودلي وارنر؛ أمتَع حَكَّاءٍ وأكثر صديقٍ محبوب، إنَّ مشاعره بالتعاطُف جِدُّ رحبة، حتى أنه لربَّما يصدُق عليه القولُ إنَّه يحبُّ كلَّ الكائنات الحيَّة وكلَّ جيرانِه كما يحبُّ نفسه. ذات مرَّةٍ استدعاني السيد وارنر كي أتعرَّفَ إلى شاعر الغابات العزيز- السيد چون بورافس. جميعهم كان مُحترمين ومتلطِّفين، ولقد استشعرتُ سِحر سلوكِهم بقدر ما كنتُ أشعر بألمعيَّةِ مقالاتِهم وقصائدهم. لم أكن أستطيع ملاحقة هذا الجمع الأدبيِّ؛ فقد كانوا يقفزون من موضوعٍ إلى موضوع، وينخرطون في مناظراتٍ عميقة، أو يجعلون الحوار يتَّقِدُ بقصائد الإبيغرام[1] وباللطائف. كنتُ مثل أسكانيوس الصَّغير، الذي تبِع بخطواتٍ غير منتظمة خُطى آينياس[2] البطوليَّة أثناء زحفه لملاقاة الأقدار العظيمة. لكنَّهم توجَّهوا إليَّ بالحديث ببعض الكلمات اللَّبِقة. فلقد حكى لي السيد غيلدر عن رحلاته التي خاضها أثناء الليالي المقمِرة عبر الصحراء الشاسعة إلى الأهرامات، وفي خِطابٍ له، كاتَبَني مخبرًا أنَّه قد جعل شعاره فيما تحت توقيعه غائرًا في الورقة؛ كيما يكون بإمكاني أن أتحسَّسها. يُذكِّرُني ذاك بما اعتاد عليه الدكتور هال من إضفاء لَمستِه الشَّخصيَّة على خِطاباتِه إليَّ بوخز توقيعه بطريقة برايل. قرأتُ من شفاه مارك توين واحدةً أو اثنتين من قَصصه الجميلة. لقد كانت لديه طريقته الخاصَّة في التفكير، وفي التحَّدث وفي القيام بأيِّ شيء. إنِّي لأشعرُ بتلألُئ عينه عند مُصافحتِه. حتى وهو ينطق بحِكَمِه السَّاخرة بصوت مُهرِّجٍ لا يُمكن وصفه، يجعلك تشعر أنَّ قلبَه كمثل إلياذة رقيقة من التعاطُف الإنسانيِّ.

(1) فَنٌّ شعري، يعتمد على الإيجاز والتكثيف والاستعارة والتناصّ. (المترجم)

(2) بطل طروادة، وابن الإلهة أفروديت. (المترجم)

السيِّدة ماري مابس دودج، محرِّر مجلة القديس نيكولاس المحبوب، وهي مُضيفٌ لأشخاصٍ آخرين ممتعةٌ صحبتهم، والسيدة ريجس (كاتي دوغلاس ويغين) مؤلِّفة "باتسي" الجميلة، التقيتُهما في نيويورك.، والسيدة ريجس (كاتي دوغلاس ويغين) مؤلِّفة "باتسي" الجميلة. تلقَّيتُ منهما هدايا كان وقعها على قلبي مُحبَّبًا؛ كُتُبًا تحوي أفكارهما الخاصَّة، خِطابات تُنوِّر الرُّوح، وصورًا أحبُّ أن تُوصَف لي مرارًا وتكرارًا. غير أنَّه ما من مساحةٍ كي أذكر جميع أصدقائي، وتوجد بالطَّبع أمورٌ بشأنِهم تختبِئ خلف أجنحة الملائكة، أشياء جِدُّ مُقدَّسةٍ لا تُستَعلَن على صفحات مطبوعٍ لا حياة فيه. لقد جرى أمرُ الإفصاح عن ذلك بتردُّدٍ حين تحدَّثتُ حتَّى عن السيد لورانس هاتُّون.

سوف أذكر فقط صديقَيْن آخرَيْن: الأول هو مدام وليام ثاو، من بتسبيرغ، كنتُ أزورها كثيرًا في بيتها، بـ ليندهارست. دائمًا ما كانت تقوم بفعلِ شيءٍ ما لتجعل شخصًا ما سعيدًا، وكَرمُها ومشورتُها السَّديدة لم تخذل أبدًا الآنسة ساليفان ولم تخذلني طوال السنوات التي عرفناها فيها.

وللصديق الآخر المعنيِّ، أنا دومًا مدينةٌ له بشكلٍ عميق. إنَّه مشهورٌ بيدِه الـمَكينَة، والتي بها يقود مشروعاتٍ ضخمة، وقُدراته المدهشة قد أكسَبَتْه احترام الجميع. هو.. طيِّبٌ مع كلِّ إنسان، يُداوِم على فِعل الخير، مُستخفِيًا مُغفِلًا ذِكره. أُقارِبُ مجدَّدًا دائرة الأسماء المبَجَّلة التي لا ينبغي أن أذكرها، لكن يسرُّني الاعتراف بكَرمِه وباهتمامه الرقيق، فهو الذي جعل ذِهابي إلى الكُلِّيةِ أمرًا مُمكِنًا.

وبهذا فإنَّ أصدقائي هم مَن صنعوا قِصَّة حياتي. وبآلاف الطرائق قد أحالوا مظاهر إعاقَتي امتيازاتٍ فاتنة، ومكَّنوني من السير سعيدةً مطمئنَّة، في فَيء الظلِّ المنطرح المتاخم لبحر حرماني.

الجُزءُ الثَّاني

الخِطابات (1887-1901)

مُقدّمة

خطابـاتُ هيلـين كيلـر وثيقـةٌ لهـا أهمِّيتهـا؛ ليـس فقـط باعتبارِهـا قِصَّـةً مُكمِّلـةً لحياتهـا، لكـن كتِبيـانٍ لمسـيرة نموِّهـا الفِكـريِّ وطريقتهـا في التعبـير- وهـو الـشيء نفسُـه الـذي جعلهـا شـخصًا مميَّـزًا.

رغـم ذلـك، فليسـت تلـك الخطابـاتُ مُجـرَّدَ شيءٍ لافـتٍ للنَّظـر، باعتبارهـا إنتـاج فتـاةٍ كفيفـةٍ وصـمَّاء؛ مـا يجعلهـا تُقـرأُ بفضـول واندهـاش؛ إنَّمـا هـي في غالـب الأمـر خطابـاتٌ لطيفـةٌ منـذ البدايـة. أَفْضـلُ المقاطِـع هـي تلـك التـي تتحـدَّثُ فيهـا هيلـين عـن نفسـها، وتخلـعُ عـلى عالَمِهـا اصطلاحـاتٍ مـن واقـع تجربتهـا معـه وخبرتهـا عنـه. تصوُّراتُهـا عـن تقـدُّم موعـد الاعتـدال الربيعـيِّ ليـس بـشيءٍ ذي بـال، لكـن أكـثر مـا يهـمُّ هـو مـا ذكَرَتـهُ بخصـوص مشـاعرها حـين كانـت تتحسَّـسُ التماثيـل والـكلاب والدجـاج في معـرض الدَّواجـن، وكيـف أنَّهـا وقفـت في ممـشى شـارع بارثولوميـو، وأحسَّـت بدمدمـة الأُورغـن. هـذه هـي المقاطـع التـي ينبغـي

على المرء أن ينشد مزيدًا منها. والسبب في أنَّ تلك المقاطع قليلةٌ نِسبيًّا؛ هو أنَّها، وطوال حياتها، كانت هيلين تحاول أن تكون "مثل الناس الآخرين"، وعليه، فغالبًا ما كانت تصفُ الأشياء ليس كما تتجلّى بالنسبةِ لها، بل كما تظهر بالنسبة لشخصٍ يتمتّعُ بنعمتَي السمع والبصر.

أحدُ الأسباب الذي يجعل من خِطاباتها شيئًا مميَّزًا هو عددها الكبير. فهذه الخطابات بالنسبة لها هي التمارين التي درَّبتها على أن تكتب. لقد عاشت في أزمنةٍ متباينةٍ وفي أماكنَ مختلفةٍ من القُطر، وبهذا، فقد أقامت بعيدةً عن أغلب أصدقائها وأقاربها. من بين جميع أصدقائها، كان عندها العديد من الأشخاص المميَّزين في حياتها، كانت هيلين تشعر حيالَهم بضرورة أن تكتبَ بشكلٍ جيِّدٍ -وليس من مُنطلَق التخلّي عن تلقائيَّتها كما أعتِقد غالبًا- فإليهم، وإلى قِلَّةٍ من الأصدقاء -الذين كان يربطها بهم أقوى روابط القُرب والانسجام- كانت تكتب بصراحةٍ حميمة أيًّا ما كانت تفكِّر به. حين كانت تُعيد سَردَ حكايةٍ من حكاياتٍ الأطفال التي قد سمِعَتها، وترويها على نحوٍ بريءٍ ساذج -مثل حكاية "چاكي الصغير"، حيث كانت تعيدها على مسامِع الدكتور هولمز والأُسقُف بروكس- يكون أداؤها لهذا أمرًا فاتنًا، وكذلك إعادة الصياغة الوقورة لدرس الجغرافيا اليومي أو لدرس علم النبات، وترديدها لما قد سَمِعَته كما يفعل الببَّغاء، واستظهارها الواعي للكلمات الجديدة، إنَّما هي أشياءُ مُبهِجةٌ وذات دلالة؛ حيث لم تكن تلك الأشياء تُظهر ما كانت تتعلَّمه فحَسْب، إنَّما تُبيِّنُ أيضًا كيف أنَّها بنَسْجِها تلك الكلمات معًا في الخطابات قد صنعت معرفتها الجديدة وكلماتها الـمُستجَدَّة التي تخصُّها.

لذا فهذه الـمُنتخَباتُ من مراسلات الآنسة كيلر قد أُنجِزت لأجل غرضين اثنين: أن تُظهر مدى تطوُّرِها، وأن تحفظَ أكثر المقاطع إمتاعًا ودلالةً من بين العديد من مئات الخِطابات. كثيرٌ من تلك الخِطاباتِ

قد كُتِبَ قبل عام 1892، ونُشِرَ في تقارير معهد بيركنس للمكفوفين. جميع الخطابات المنشورة حتَّى هذه السنة نُشرت دون أن يمسَّها تعديل؛ وهو ما يخوِّل للمرء أن يكون مهتمًّا بمستوى المهارة الذي أظهَرَتْه الطِّفلة في الكتابة، حتَّى بالنِّسبة للنَّقْط وعلامات الترقيم؛ لهذا من الجيد الاحتفاظ بنسخة حَرفيَّةٍ كاملة طِبْقَ الأصل من الخطابات. أمَّا بدءًا من الخطابات بعد العام 1892 فقد نَزَعتُ إلى انتهاج مسلَك المختارات الأدبيَّة؛ مُنتخِبًا المقاطِع الأفضلَ في أسلوبها والأهمَّ بالنسبة لسيرة حياتها. ولمَّا كان في استطاعتي أن أتفحَّصَ الخطابات الأصليَّة؛ فقد أبقيتُ على كلِّ شيء كتَبَته الآنسة كيلر؛ بلَفْظِهِ ونَقْطِهِ وبعلامات الترقيم. وأنا لم أفعل شيئًا سوى الانتقاء والإدراج.

تأتي الخطاباتُ مرتَّبةً وفقًا لتسلسُلٍ زَمنيٍّ. خطابٌ أو اثنين من الأُسقُف بروكس والدكتور هولمز ووايتير قد وُضِع مباشرةً بعد الخطابات التي قاما بالرَّدِّ عليها. باستثناء خطابين مهمَّين أو ثلاثة من عام 1900. ففي تلك السَّنة، الآنسةُ كيلر، دخلت الجامعة. وصارت الآن امرأةً بالغة، وينبغي الحُكم على خِطاباتِها النَّاضجة كما يكون لخطاباتِ أيِّ شخصٍ آخر، ويتراءى لي أنَّه لم يكن لأيٍّ من مراسلاتِها أن تُنشَر إن لم تكن مميَّزة، علاوةً على حقيقةِ كَونها الشَّخص الكفيف الأصمَّ الأوحد في العالم، الذي نال تعليمًا رفيعًا.

الخِطابات (1887-1901)

بـدأت الآنسـة ساليـڤـان بتعليـم هيلـين كيلـر في الثالـث مـن مـارس عـام 1887. بعـد ثلاثـةِ أشـهرٍ ونِصـف مـن التلفُّـظِ بـأوَّلِ كلمـةٍ في يدهـا، كتبـت هـذا الخِطـاب باسـتخدامِ قلـمٍ رَصـاص.

إلى ابنةِ خالتها، آنّا (حَرَم السيِّد چـورچ ت. تيرنر)

[توسكامبيا، ألاباما، 17 يونيو، 1887]

هيلـين تكتـب آنـا چورچ سـوف يعطـي هيلـين تفاحـة سيمبسـون سـوف يقتـل عصفـور جـاك سـوف يعطـي هيلـين مصاصـه طبيـب سـوف يعطـي ملـدرد دواء مامـا سـوف يعطـي ملـدرد فسـتان جديـد[1]

[بلا توقيع]

(1) يُلاحَـظ وجـود أخطـاء إملائيّـة ونحويّـة وأسـلوبيّة متعمَّـدة في النقـل إلى العربيـة في رسـائلها الأولى، وكذلـك في الضمائـر ومـا سـواها -وتقـلُّ تلـك الأخطـاء تدريجيًّـا- وذلـك محـاكاةً للأخطـاء في النَّـص الأصـلي؛ فهـي كانـت مـا تـزالُ بعـد تتعلَّـم اللغـة وقواعدهـا. (المترجـم).

بعد خمسةٍ وعشرين يومًا، عندما كانت في زيارةٍ قصيرةٍ بعيدًا عن بيتها، كتبت هيلين الخطاب التالي إلى والدتها. بالخطاب كلمتان غير مقروأتَين تقريبًا، وزاوية مَيْل الكلمات تنحرفُ في كلِّ اتِّجاه:

إلى السيِّدة كاتي آدمز كيلر

[هانتسفل، ألاباما، 12 يوليو، 1887]

هيلين سوف يكتب إلى ماما خطاب بابا فعل أعطى هيلين دواء ملدرد سوف يجلس في أرجوحه ملدرد قبّل هيلين معلّمه سوف تفعل تعطي هيلين خوخ چورچ مريض في السرير ذراعه مجروح آنا أعطت هيلين عصير ليمون الكلب وقف كمسري ثقب تذاكر بابا أعطى هيلين مشروب من ماء في سيارة

كارلوتا فعلت أعطت هيلين زهور آنا سوف تشتري لهيلين قبعة جديدة جميلة هيلين سوف تحضن ماما وتقبّل ماما هيلين سوف تعود إلى بيت الجَدّة تحب هيلين

إلي اللقا

[بلا توقيع]

بحلول سبتمبر التالي، أظهرت هيلين تطوُّرًا في رَسم الكلمات في الجمل على نحوٍ تامّ، وأظهرت أيضًا مزيدًا من الترابط بين الأفكار.

إلى الفتيات المكفوفات في معهد بيركنس بشمال بوسطن

[توسكامبيا، سبتمبر، 1887]

سـوف تكتـب هيلـين إلى فتيـات صغـيرات مكفوفـات خطـاب هيلـين ومعلمـه سـوف تـأتي لرؤيـة فتيـات هيلـين ومعلمـه سـوف تذهـب إلى بوسـطن في سـيّارة بخاريّـة هيلـين وفتيـات مكفوفـات سـوف تقـضي وقـت ممتـع فتيـات مكفوفـات سـوف يتحدّثـون في أصابـع هيلـين سـوف تـرى السـيد أناجنـوس السـيد أناجنـوس سـوف يحـب وسـوف يقبّـل هيلـن هيلـين سـوف تذهـب إلى مدرسـة مـع فتيـات مكفوفـات هيلـين تسـتطيع أن تقـرأ وتعـد عـلى أصابعهـا وتتهجـى كلـمات وتكتـب مثـل فتيـات مكفوفـات ملـدرد سـوف لـن تـأتي إلى بوسـطن ميلـدرد تبـكي برِنـس و چـامبو سـوف يذهبـون إلى بوسـطن بابـا سـوف يصطـاد بـط ببندقيـة و بـط سـوف يسـقط في المـاء وچـامبو وماميـى سـوف يسـبحون في المـكان وسـوف يجلبـون البـط مـن فمـه خـارج المـاء إلى بابـا هيلـين تلعـب مـع كلاب هيلـين تركـب عـلى ظهـر حصـان مـع معلمـة هيلـين سـوف تعطـي هانـدي عشـب في يديهـا معلمـة تـضرب هانـدي بالسـوط كي يذهـب بسرعـة هيلـين سـوف تضـع خطـاب في مظـروف وترسـله إلى فتيـات مكفوفـات

إلى اللقا

هيلين كيلر

بعـد أسـابيع قليلـةٍ مـن هـذا، صـار أسـلوبها في الكتابـة قويمًـا تقريبًـا وأكـثرَ انسـيابيّةً وانطلاقًـا في التعبـير. فهـي تحسّـن أسـلوبها التعبـيريَّ، رغـم أنَّهـا مـا زالـت تُسـقِطُ أدوات التعريـف وتسـتخدم صيغـة الفعـل "فعـل/

قـام" وتُسـبقه عـلى الأفعـال عنـد اسـتخدام المـاضي البسـيط. هذا الأسـلوب شـائع بـين الأطفـال.

إلى الفتيات المكفوفات في معهد بيركنس

[توسكامبيا، 24 أكتوبر، 1887]

عزيزاتي فتيات مكفوفات صغيرات

سـوف أكتـب لَكُـنَّ خطابًـا أنـا أشـكركنً لأجْـل مكتـب جميـل أنـا فعلـت كتبـتُ عليـه إلى مامـا في مَمفِـس أتـت مامـا و ملْـدرد إلى بيـت يـوم الأربعـاء مامـا جلبـت لي معهـا فسـتان جميـل و قبّعـة بابـا فعـل وذهـب إلى هانتسـڤـل هـو جلـب لي معـه تفّـاح وحلـوى أنـا و مُعلّمـة سـوف نذهـب إلى بوسـطن وسـوف نراكـم نانـسي هـي دُميتـي أنـا هـي تبـكي أنـا أفعـل وأُهدهـد نانـسي كي تنـام ملـدرد مريضـة طبيـب سـوف يعطيهـا دواء كي يجعلهـا بخـير. أنـا ومعلّمـة فعلنـا ذهبنـا إلى كنسـية يـوم الأحـد سـيِّد لان كان يقـرأ في كتـاب وكان يتحـدث سـيدة كانـت تفعـل تعـزف عـلى أرغـن. أنـا فعلـت أعطيـت رجـل مـال في سـلّة. أنـا سـوف أكـون فتـاة مطيعـة و معلّمـة سـوف تمشّـط لي شـعري بشـكل جميـل. أنـا سـوف أعانـق و سـوف أقبّـل فتيـات مكفوفـات صغـيرات السـيد أناجنـوس سـوف يـأتي كي يـراني.

إلى اللقا

هيلين كيلر.

إلى السيد مايكل أناجنوس، مدير معهد بيركنس

[توسكامبيا، نوفمبر، 1887]

عزيـزي السـيد أناجنـوس أنـا سـوف أكتـب لـك خطـاب. أنـا و معلمـة فعلنـا التقطنـا صـور. معلّمـة سـوف ترسـلها إليـك. المصـوّر يقـوم بصناعـة صُـور. النجّـار يقـوم ببنـاء منـازل جديـدة. البسـتاني يقـوم بحفـر البسـتان ويرعـى الأرض والنباتـات والخضـروات. دُميتـي نانـسي نائمـة. إنهـا مريضـة. ملـدرد الآن بخـير عمّـي فرانـك راح يصطـاد غـزال. نحـن سـوف نسـتضيف قِـنْشِن عـلى الإفطـار حـين يـأتي إلى بيـت. أنـا فعلتُ ركبـتُ عجلـة ومعلمة كانـت تدفعهـا. سيمبسـون فعـل أعطـاني فشـار وحبـات مـن الجـوز. ابنـة العـمّ روزا قـد رحلـت كي تـرى أمّهـا. النـاس يفعلـون يذهبـون إلى كنيسـة في يـوم الأحـد. أنـا فعلـتُ قـرأتُ في كتـابي عـن ثعلـب وصنـدوق. ثعلـب يسـتطيع أن يجلـس في صنـدوق. أنـا أحـب أن أقـرأ في كتـابي. أنـتَ تُحبُّنـي. أنـا أحبُّـك.

إلى اللقا

هيلين كيلر.

إلى الدكتور أليكسندر غرهام بِل

[توسكامبيا، نوفمبر، 1887]

عزيزي السيِّد بِل.

أنـا سـعيدة أن أكتـب إليـك خطـاب. والـدي سـوف يرسـل لـك صـورة. أنـا وأبي وعمتـي ذهبنـا كي نـراك في واشـنطن. أنـا قمـتُ باللعب في سـاعتك. أنـا أحبّـك. أنـا زرت طبيـب في واشـنطن. هـو فحـص عيـوني. أنـا أسـتطيع أن أقـرأ قصـص في كتـابي. أنـا أسـتطيع أن أكتـب وأتهجّـى وأعـدَّ عـلى أصابعـي. أنـا فتـاة بارعـة. أختـي تسـتطيع أن تمـشي و تجـري. نحـن نفعـل

ونسـتمتع بوقتنـا مـع چـامبو. پـرنس ليـس كلـب بـارع. هـو لا يسـتطيع أن يحصـل عـلى العصافـير. فـأر فعـل وقتـل حـمام رضيـع. أنـا حزينـة. فـأر لا يعـرف أن هـذا شيء غلـط. أنـا و أمـي و معلمـة سـوف نذهـب إلى بوسـطن في شـهر يونيـو. أنـا سـوف أرى فتيـات مكفوفـات صغـيرات. نانـسي سـوف تـأتي معـي. إنهـا دميـة مطيعـة. أبي سـوف يشـتري لي سـاعة جديـدة جميلـة. ابنـة الخـال آنّـا فعلـت وأعطـت لي دُميـة جميلـة. اسـمها آليـه.

إلى اللقا

هيلين كيلر.

مـع بدايـة العـام الجديـد صـارت مُفرداتهـا راسـخةً أكـثر. يتجـلّى في محتواهـا مزيـدٌ مـن اسـتخدام الصِّفـات، بمـا فيهـا صفـات الألـوان. رغـم أنَّهـا لا تسـتطيع أن تُكـوِّن معرفـةً حِسِّـيَّةً بالألـوان؛ فهـي تسـتطيع أن تسـتخدم الكلـمات كـما نسـتخدمُ نحـن أغلـب مُفرداتنـا، فمـن الناحيـة العقليـة، هـي تسـتخدمُ الكلـمات مـن واقـع الحقيقـةِ الـمُعايَنةِ، وليـس مـن خـلال الانطبـاع النفـسي المتولّـد، بـل مـن خـلال الواقـع. هـذا الخطاب مُوجَّـه إلى زميلـة دراسـة في معهـد بيركنـس.

إلى الآنسة ساره تومِلسُن

توسكامبيا، ألاباما، الثاني من يناير، 1888.

عزيزتي ساره

أنـا سـعيدة بـأن أكتـب إليـكِ في هـذا الصَّبـاح. أتمنّـى أن يـأتي السـيد أناجنـوس لزيـارتي قريبًـا. سـوف أذهـب إلى بوسـطن في شـهر يونيـو وسأشـتري لأبي قُفّـازات، ولـچـيمس قـلادة جميلـة، ولسيمبسـون أصفـادًا.

لقد رأيتُ آنسة بِتّي وزملاءها في الدراسة. كان عندهم شجرة كريسماس جميلة، وكان عليها كثير من هدايا جميلة من أجل أطفال صِغار. تلقَّيتُ قدح خزفيّ، وعصفور صغير وحلوى. تلقّيتُ كثير من الأشياء في الكريسماس. فالعمّةُ أعطتني بنطلون قصير وملابس من أجل نانسي. ذهبتُ إلى حفل بصحبة معلّمة و أمي. رقصنا ولعِبنا وأكلنا بندق و حلوى وكيك وبرتقال ولهَوتُ مع البنات والفتيان الأولاد الصِّغار. مدام هوبكنز أرسلت لي خاتمًا جميلًا. أنا أحبُّها وأحبُّ الفتيات المكفوفات الصغيرات.

رِجال و فِتيان يقومون بصُنع بُسُط في مَشاغِل. الصوف ينمو على جسد الخروف. الرجال يقومون بجَزّ الصُّوف بمقصات كبيرة، ويرسلونه إلى مشاغل.

ينمو القُطن على سيقانٍ كبيرة في الحقول. رِجال و فِتيان و نِساء وفتيات يقومون بجَمع القطن. نحن نصنع خيوط و فساتين قطنية من القطن. القطن له زهراتٌ بيضاء وحمراءُ اللون تنمو عليه. مُدرِّسة قطعت فستانها. ملدرد تبكي. أنا سوف أُمرِّضُ نانسي. أمي سوف تشتري لي مَريلة جديدة جميلة و فُستان كي آخذهما معي إلى بوسطن. ذهبتُ إلى كنوكسفِل مع أبي و العمّة. بيسي هزيلةُ الجَسد وصغيرة. فراخ مدام ثومسون قتلت فراخ ليلى. إيڤا تنام في سريري. أنا أحبُّ الفتيات المطيعات.

إلى اللقا

هيلين كيلر.

في خطابَيها الاثنين التاليين، تأتي هيلين على ذِكر زيارتها التي قامت بها إلى أقاربها في ممفِس، تينيسي، في يناير. حيثُ أُخِذَت إلى الجمعية التعاونيَّة للقُطن. عندما تحسَّست الخرائط والسَّبُّورة تساءَلَت: "هل

يذهب الرِّجال إلى المدرسة؟". لقد كتبت على السَّبُّورة أسماء جميع الرِّجال المحترمين الحاضرين. حين كانت في ممفِس، سافرت على ظهر إحدى أكبر البواخر في المسسبِّي.

إلى الدكتور إدوارد إيفِرت هال

توسكامبيا، ألاباما، الخامس عشر من فبراير [1888]

العزيز دكتور هال

أنا سعيدة بأن أكتب لك خِطابًا في هذا الصَّباح. مُعلِّمة أخبرتني عن الرِّجال المحترمين الطَّيبين سوف أكون سعيدة بأن أقرأ قصّة جميلة أنا أقرأ قَصص في كتابي عن الأُسود والنُّمور والخِراف.

أنا سوف آتي إلى بوسطن في يونيو كي أرى الفتيات المكفوفات الصغيرات وسوف آتي كي أراك. أنا ذهبتُ إلى مَمفِس كي أرى الجَدّة والخالة نانّي. مُعلّمة اشترت لي فُستان جديد جميل وقُبّعة ومريلة. الصغيرة نتالي طفلةٌ ضئيلة الجسد ومعتلّةُ الصِّحّة. أبي أخذنا لنرى القارب البخاري. القارب كان يطفو فوق نهر كبير. قارب هو مثل المنزل. ملدرد طفلة مطيعة. أنا أحبّ أن ألعب مع أختي صغيرة. نانسي لم تكن طفلة مطيعة عندما ذهبتُ إلى مَمفِس. كانت تبكي بصوت عالي. لن أكتب المزيد اليوم. أنا متعَبة.

إلى اللقا

هيلين كيلر.

إلى السيد مايكل أناجنوس

توسكامبيا، ألاباما، الرابع والعشرون من فبراير، 1888.

عزيـزي دكتـور أناجنـوس- أنـا سـعيدة بـأن أكتـب إليـك خطـاب بطريقـة برايـل. هـذا الصَّبـاح أرسـل لي لوسـيان ثومسـون باقـة جميلـة مـن ورود البنفسـج و النَّرجـس و الزّعفـران. في يـوم الأحـد أتتنـي آدلِـن مـوزس بدُميـة فاتِنـة. مـن نيويـورك. اسـمها آدلِـن كيلـر. تسـتطيع أن تغلق عينيهـا وتثنـي ذراعيهـا وتجلـس وتنتصـب واقفـة. هـي ترتـدي فسـتان أحمـر زاهـي. إنّهـا أخـت نانـسي وأنـا أمّهـما. آليـه هـي ابنـةُ خالتهـم. كانـت نانـسي فتـاة مزعجـة حـين ذهبـتُ إلى مَمفِـس كانـت تبـكي بصـوت عـالي، أنـا ضربتهـا بعصايـة.

ملـدرد تُطعـم الفـراخ الصغـيرة بفُتـات الخبـز. أنـا أحـب أن ألعـب مـع أختـي الصغـيرة.

مُعلِّمـة وأنـا ذهبنـا إلى مَمفِـس كي نـزور الخالـة نـانّي والجّـدّة. لويـس هـو ابـن الخالـة نـانّي. مُعلِّمـة جلبـت لي فسـتان جديـد بهيـج و قُفّـازات وشرابـات وقـلادات، الجَـدّة صنعـت لي ملابـس تحتيّـة تبعـثُ عـلى الـدِّفء، و الخالـة نـانّي صنعـت لي مريلـة. صنعـت لي سـيّدة قُبّعـة جميلـة. أنـا ذهبـتُ لزيـارة روبـرت والسـيد جراڤـز و مـدام جراڤـز و الصغـيرة نتـالي، و السـيِّد فـارس و السـيِّد مايـو ومـاري والجميـع. أنـا أحـبُّ روبـرت و مُعلِّمـة. إنهـا لا ترغـب أن أكتـب المزيـد اليـوم. أنـا أشـعر بالتَّعـب.

أنـا وجـدتُ علبـة مـن الحلـوى في جيـب السـيِّد جراڤـز. أبي أخذنـا كي نـرى القـارب البخـاري إنّـه يشـبه المنـزل. القـارب كان يطفـو فـوق نهـرٍ كبـيرٍ جـدًّا. ياتـس كان يحـرث الحقـل اليـوم كي يـزرع العُشـب. مَـلْ كان يجـرّ محـراث. أمـي سـوف تعمـل حديقـة مـن الخضـراوات. أبي سـوف يـزرع بطيـخ و بازيـلاء و فاصوليـاء.

ابـن الخـال بِـل سـوف يـأتي لزيارتنـا يـوم السـبت. أمـي سـوف تصنـع آيـس كريـم عـلى العَشـاء، سـوف نحظـى بأيـس كريـم و كعـك عـلى العَشـاء. لوسـيان ثومسـون مريـض. أنـا حزينـة عليـه.

مُعلّمـة و أنـا ذهبنـا لنتمـشّى في الحقـل، و تعلّمـت كيـف أنّ الزهـور والأشـجار تنمـو. الشـمس تُـشرِق مـن الـشرق وتغـرب في الغـرب. شـيفيلد تقـع في الشـمال و توسـكامبيا تقـع في الجنـوب. نحـن سـوف نذهـب إلى بوسـطن في شـهر يونيـو. سـوف أقـضي وقـت ممتـع مـع الفتيـات المكفوفـات الصغـيرات.

إلى اللقاء

هيلين كيلر.

"العـمُّ مـوري" المذكـور في الخطـاب التـالي هـو السَّـيِّد مورِسـون هيـدي، مـن نورمانـدي، بكنتـاكي، فقـدَ سَـمعَه وبَصَرَه حـين كان صبيًّـا. وهـو مؤلِّفٌ لبعـض الشِّـعر الـذي يسـتحقُّ الثناء.

إلى السيّد مورِسون هيدي

توسكامبيا، ألاباما، الأول من مارس عام 1888.

عمّـي العزيـز مـوري- أنـا سـعيدة بـأن أكتـب لـك خِطابًـا، أنـا أحبّـك، وحـين أراك سـوف أُعانقـك و أقبِّلُـك.

السـيد أناجنـوس سـوف يـأتي لزيـارتي يـوم الاثنـين. أنـا أحـبّ أن أجـري و أقفـز وأحجِـل بصُحبـة روبـرت في ضـوء الشـمس السـاطعة الدافِـئ. أنـا أعـرف فتـاة صغـيرة في لِكْسِـنتون بكنتـاكي. اسـمها كاثريـن هوبسُـن.

أنا سوف أذهب إلى بوسطن في شهر يونيو مع أمّي ومع مُعلِّمة، سوف ألهو مع الفتيات المكفوفات الصغيرات، و سوف يرسل لي السيد هْال قِصة جميلة. أنا أقرأ قصصًا في كتابي عن أُسود و نمور و دِببَة.

ملدرد سوف لن تذهب إلى بوسطن، فهي تبكي. أنا أحبّ أن ألعب مع أختي الصغيرة، إنّها طفلة صغيرة و جسدها ضعيف. إيڤا أفضل حالًا منها.

ياتس قتل النمل، النمل لدغ ياتس. ياتس يحفر في الحديقة. السيد أناجنوس رأى برتقالات، إنّها تبدو مثل تفاحات ذهبية.

روبرت سوف يأتي لزيارتي يوم الأحد حين تتألّق الشمس و سوف ألهو معه. ابن عمّي فرانك يعيش في لوتْسڤل. أنا سوف أعود إلى مَمفِس مرّة أخرى كي أزور السيد فارس و مدام جراڤز و السيد مايو والسيد جراڤز. نتالي فتاة مطيعة ولا تبكي، هي سوف تصبح كبيرة ومدام جراڤز تصنع فساتين قصيرة من أجلها. نتالي لها عَرَبة صغيرة. السيِّد مايو قد ذهب إلى دَك هِل و سوف يجلب معه زهورًا رائعة إلى البيت.

مع الكثير من المحبّة، و قُبلة

هيلين آ. كيلر.

في هذا الكلام المذكور عن النُّزهة القصيرة نأخذ نظرةً سريعةً كاشِفة عن مهارات الآنسة ساليڤان في تعليم تلميذتها أثناء ساعات الَّلهو. كان ذلك يومًا ازدادت فيه مُفرداتُ الطِّفلة.

إلى السيد مايكل أناجنوس

توسكامبيا، ألاباما، الثالث من مايو 1888.

عزيـزي السيِّد أناجنـوس- أنـا سـعيدة بـأن أكتـب إليـك هـذا الصَّبـاح، لأنّنـي أحبّـكَ كثـيراً جـدًّا. لقـد كنـتُ سـعيدة حـين تلقّيـتُ منـكَ كتابًـا جميـلًا وحلـوى لذيـذة و خطابَـين. سـوف آتي لزيارتـك قريبًـا وسـوف أطـرح عليـكَ العديـد مـن الأسـئلة عـن البُلـدان وسـوف تحبّنـي أنـا الفتـاة المطيعـة.

أمـي تصنـع لي فسـاتين جديـدة جميلـة كي أرتديهـا، في بوسـطن سـوف أبـدو جميلـة حـين ألتقـي الفتيـات الصغـيرات والفتيـان وحـين ألتقـي. يـوم الجمعـة المعلِّمـة وأنـا ذهبنـا في نزهـةٍ قصـيرة مـع أطفـالٍ صِغـار. لعبنـا ألعابًـا وتناولنـا العشـاء تحـت الأشـجار، ولاقينـا سراخِـس وزّهـور بَريّـة. سرتُ في الغابـات وتعلمـتُ أسـماء العديـد مـن الأشـجار. فهنـاك أشـجار الحـور والأَرز والصّنوبـر و البَلّـوط و الـدَّردار والجَوزيـة والقَبقَـب. كانـت الأشـجار تُضفـي ظِـلًّا بهيجًـا، والعصافـير الصغـيرة تحـبُّ أن تتمايـل هنـا وهنـاك وتُغـرِّدَ بعُذوبـة عاليًـا فـوق الأشـجار. الأرانـب تقفـز والسـناجبُ تجـري والثعابـين البَشِـعة تزحـف في الغابـات. أزهـار إبـرة الراعـي وورود اليَاسَـمين والـچـابونيكا هـي أزهـارٌ تُـزرَع. أنـا أسـاعد أمـي ومُعلِّمـة في رَيِّهـم كلّ مسـاء قبـل العَشـاء.

ابـن العـمّ آرثـر صنـع لي أرجوحـة في شـجرة الـدردار. العمّـة إيـڤ قـد ذهبـت إلى مَمفِـس. العـمّ فرانـك هنـا. هـو يجمـع الفراولـة مـن أجـل العشـاء. نانـسي مريضـة مـرّة أخـرى، سِـنّة جديـدة تطلـع لهـا مخلَّياهـا تعبانـة. أدلِـن بخـير وتسـتطيع أن تذهـب معـي إلى سنسـنّاتي يـوم الاثنـين. العمّـة إيـڤ سـوف ترسـل لي دُميـة عـلى شـكل ولـد، هـاري سـوف يصبـح أخًـا لنانـسي وأدلِـن. أختـي الصغـيرة بنـت مطيعـة. أنـا متعَبـة الآن وأريـد

أن أنـزل إلى الطابـق الأسـفل. أرسـل إليـك الكثـير مـن الأحضـان والقُبـلات مـع الخطـاب.

طفلتك الأثيرة

هيلين كيلر.

إبَّـان انتهـاء شـهر مايـو، انطلقـت مـدام كيلـر، وهيلـين، والآنسـة ساليڤـان إلى بوسـطن. قضَيْن بضعـةَ أيَّـامٍ في واشـنطن وهُـنَّ في طريقهـنَّ لبوسـطن، حيـث التقـينَ بالدكتـور أليسـكندر غرهـام بِـل، وقُمـن بزيـارةٍ قصـيرة للرئيـس كليڤـلاند. في السـادس والعشريـن مـن مايـو وصلـنَ إلى بوسـطن وذهـبنَ إلى معهـد بيركنـس؛ وفيـه التقـت هيلـين الفتيـات المكفوفـات الصغـيرات، واللائي كانـت تتراسَـلُ وإيَّاهُـنَّ قبـل عـامٍ مـضى.

في أوائـل شـهر يوليـو ذهبـت إلى بريوِسْـتر في ماساتشوسـتس، وقضـت فيهـا مـا تبقّـى مـن الصَّيـف. هنـا حدثـت أوَّلُ مواجهـةٍ لهـا مـع البحـر، وهـو مـا قـد كتبـت عنـه وقتئـذٍ.

إلى الآنسة ماري س. مور

شمال بوسطن، ماساتشوستس. سبتمبر 1888.

عزيزتي الآنسة مور

هـل أنـتِ سـعيدة بتلقّـي رسـالة مـن صديقتـك الصغـيرة الحبيبـة؟ أنـا أحبّـك كثـيراً جـدًّا لأنّـكِ صديقتـي. أختـي الصغـيرة الغاليـة بخـير حـالٍ الآن. هـي تحـبّ أن تجلـس في الكـرسي الهـزّاز الصغـير الخـاص بي وتضـع فيـه هُرَيرتهـا كي تنـام. هـل توديِّـن أن تـرَي العزيـزة ملـدرد الصغـيرة؟ إنّهـا طفلـة جميلـة جـدًّا. عيناهـا واسِـعتان جـدًّا ولونهـما أزرق، خدّاهـا ناعـمان ومـدوّران ولونهـماورديّ وشـعرها ذهبـيّ وبـرّاق. إنّهـا طفلـة

رائعـة جـدًّا ولطيفـة حـين لا تكـون تبـكي بصـوت عـالٍ. في الصيـف القـادم، ملـدرد سـوف تخـرج معـي إلى الحديقـة وتقطـف حبّـات الفراولـة الكبـيرة اللذيـذة وحينهـا سـوف تكـون سـعيدة جـدًّا. أتمنّـى ألّا تـأكلَ الكثـير مـن الفاكهـة اللذيـذة وإلا سـوف تجعلهـا مريضـة جـدًّا.

هـلّا أتيـتِ رجـاءً في مـرَّة إلى ألابامـا لتزورينـي؟ عمّـي چـيمس سـوف يشـتري لي مُهـرًا وكَريتّـه، وسـوف يُسـعدني جـدًّا أن آخـذكِ أنـتِ وهـاري في جولـة. أتمنّـى ألّا يخـاف هـاري مـن مُهـري. أنـا أظـنُّ أنّ والـدي سـوف يشـتري لي أخًـا صغـيرًا لطيفًـا يومًـا مـا. ينبغـي علـيّ أن أكـون لطيفـة وصبـورة مـع أخـي الصغـير الجديـد. حـين أزور العديـد مـن البـلاد الغريبة، فـإنّ أخـي وملـدرد سـوف يبقيـان مـع الجـدّة لأنّهـما سـوف يكونـان صغيرَيـن للغايـة علـى أن يريـا الكثـير مـن النـاس، وأعتقـد أنهـما سـوف يبكيـان عنـد رؤيـة المحيـط العظيـم الهائـج.

حـين يصبـح القبطـان بيكـر بصحـةٍ أفضـل سـوف يأخـذني إلى أفريقيـا في سـفينته الكبـيرة. وعندئـذ سـوف أرى الأُسـود والنُّمـور والقـرود. سـوف أحصـل علـي شِـبلٍ رضيـع وقـردٍ أبيـض ودُبٍّ أليـف وأجـيءُ بهـم معـي إلى البيـت. قضيـتُ وقتًـا ممتِعًـا جـدًّا في بريوسـتر. كنـتُ أذهـب للاسـتحمام في الميـاه تقريبًـا كلَّ يـوم و كاري وفرانـك وهيلـين الصغـيرة وأنـا قضينـا وقتًـا ممتعًـا. كُنـا نـرشّ بعضنـا بالميـاه ونقفـز ونخـوض عميقًـا في الميـاه. أنـا لسـتُ أخـشى السـباحة علـى ظهـري الآن. هـل يسـتطيع هـاري أن يسـبح ويطفـو علـى سـطح المـاء؟ نحـن ذهبنـا إلى بوسـطن الخميـس المـاضي، وكان السـيد أناجنـوس مُبتهجًـا لرؤيتـي، وعانقنـي وقبّلنـي. الفتيـات الصغـيرات سـوف يعُـدنَ إلى المدرسـة يـوم الأربعـاء القـادم.

هـلّا تخـبري هـاري أرجـوكِ أن يكتـب لي في القريـب العاجـل خطابًـا طويـلًا جـدًّا؟ أتمنـى حـين تأتـينَ لرؤيتـي في توسـكامبيا أن يكـون عنـد

أبي الكثير مـن التُّفـاح اللذيـذ والكثـير مـن الخوخـات الطريّـة والكُمَّـثرى الفاخـرة والعنـب الذيـذ وبطّيـخ كبـير.

أتمنّى أن تفكّري بي وأن تحبّيني لأنني فتاة صغيرة مُطيعة.

مع الكثير من المحبّة وقُبلتَين

من صديقتك الصغيرة

هيلين آ. كيلر.

أمّـا عـن الـكلام المذكـور هنـا بخصـوص زيـارة بعـض الأصدقـاء؛ فـإنَّ تفكـير هيلـين يُشـبه كثـيراً مـا يتوقَّعـه المـرء مـن طِفـلٍ طبيعـيٍّ في عُمْـر الثامنـة، مـا عـدا ربُّمـا ارتضاؤهـا السـاذج بجـراءة الشَّـباب الصِّغـار المحترمـين.

إلى مدام كاتي آدامز كيلر

جنوب بوسطن، ماساتشوستس، الرابع والعشرون من سبتمبر [1888]

أُمّي العزيزة،

أظـنُّ أنَّـكِ سـوف تسـعَدين بمعرفـة كلّ شيء يخـصّ زيـارتي إلى وسـت نيوتـون. مُعلِّمتـي وأنـا قضينـا وقتًـا جميـلًا بصحبـة العديـد مـن الأصدقـاء الطّيبـين. وسـت نيوتـون ليسـت ببعيـدة عـن بوسـطن، ولقـد ذهبنـا إلى هنـاك بسرعـةٍ تمامًـا عـن طريـق السـيّارات البخاريـة.

مـدام فريمـان و كاري و إيثِـل وفرانـك وهيلـين أتَـوا لاسـتقبالنا في المحطّـة بمَركَبَـة كبـيرة. لقـد كنـتُ مبتهجـة برؤيتـي أصدقـائي الأعـزاء الصِّغـار وعانقتُهـم وقبّلتُهـم. ثُـمَّ انطلقنـا في نزهـة لوقـتٍ طويـل كي نـرى كلّ الأشـياء الجميلـة في وسـت نيوتـون. رأيـتُ العديـد مـن المنـازل الأنيقـة

والمروج الخضراء الفسيحةِ النَّديّة تحيط بها، وأشجارًا وزهورًا مُشرقةً ونوافير. الحصان كان اسمه پرنس (Prince)، كان حصانًا لطيفًا وكان يحبُّ أن ينطلقَ خَببًا بسرعةٍ للغاية. حين عُدنا إلى البيت رأينا ثمانية أرانب و جَرْوَين بدينَيْن، ومُهرًا أبيضَ صغيرًا جميلًا، وهِرَّتَيْن صغيرتين وكلبًا جميلًا مجعَّدٌ شعره يُسمّى دون (Don). المهر الصغير كان اسمه مولي، وقد أخذتُ جولةً لطيفةً وأنا فوق ظهره؛ لم أكن خائفة، أتمنّى أن يحصل لي عمّي على حصان غالي صغير وعلى كارّة صغيرة عمّا قريب.

كليفتون لم يُقبِّلني لأنّه لا يحبّ أن يُقبّلَ البنات الصغيرة. إنّه خجول. أنا سعيدة لأنّ فرانك وكلارِنس وروبّي وإيدّي وتشارلز وچورچ لم يكونوا شديدي الخجل. أنا لعبت مع كثير من البنات الصغيرة وقضينا وقتًا ممتِعًا. أخذتُ جولة بالدّراجة الثلاثية التي تخصُّ كاري وقطفتُ بعض الأزهار وأكلتُ فواكه، وتقافزتُ وحجلتُ ورقصتُ وذهبتُ في نزهة. جاء العديد من السيدات والسّادة المحترمين كي يلتقونا. لوسي ودورا وتشارلز وُلِدوا في الصّين. أنا وُلِدتُ في أميركا، السيِّد أناجنوس وُلِدَ في اليونان. يقول السيِّد درو إنّ البنات الصغيرة في الصين لا يستطعن أن يتحدّثن على أصابعهنّ، لكنّي أظنّ أنّني حين أذهب إلى الصين، فسوف أُعلِّمُهنّ. أتتْ مربِّية صينيّة لزيارتي، كان اسمها آسو. أرتني رداء صغيرًا، اسمه "آتسو"، ترتديه النساء الثريّات جدًّا في الصين لأنّ أقدامهنّ أبدًا لا تنمو وتصبح كبيرة. (آماه) تعني مربِّية] بالصينيّة[. عُدنا للبيت في عرباتٍ تجرُّها الأحصنة لأنّ اليومَ وقتها كان يوم الأحد، والسيّارات البخارية في غالب الأحوال لا تخرج للعمل يوم الأحد. فالمسؤلون والمهندسون يكونون مُرهقين جدًّا ويذهبون لبيوتهم لأجل أن يرتاحوا. رأيت ويلي سوان الصغير في السيارة، وأعطاني حَبّة كُمثرة طريّة. كان له من العمر ستة أعوام. ماذا كنتُ أفعل حين كان لي من العمر ستة أعوام؟ هلّا طلبتِ من أبي لو سمحتِ أن يأتي عند

القطـار كي يسـتقبلني أنـا ومُعلِّمتـي؟ أنـا حزينـة جـدًّا لأن إيـڤـا وبيـسّي مريضتـان. أتمنّـى أن أحظـى بحفلـة جميلـة لعيـد ميـلادي، وأرغـب أن تـأتي كاري وإيثِـل وفرانـك وهيلـين إلى ألاباما ليـزوروني. هـل سـوف تنـام ملـدرد معـي حـين أعـود إلى البيـت؟

مع ألف قُبلة، والكثير من المحبّة.

من ابنتِك الصغيرة العزيزة.

هيلين آ. كيلر.

زيارتهـا الأولى لــ بليـماوث كانـت في شـهر يوليـو. هـذا الخِطـاب، المكتـوب بعـد ثلاثـةِ أشـهرٍ مـن تلـك الزيـارة، يُظهـر كيـف كانـت تتذكَّـر جيِّـدًا درسـها الأوَّلَ في التاريـخ.

إلى السيِّد موريسون هيدي

شمال بوسطن، ماساتشوستس، الأول من أكتوبر، 1888.

عمّـي العزيـز مـوري،- أظـنُّ أنّـكَ سـوف تكـون سـعيدًا جـدًّا حـين تتلقّـى خطابًـا مـن صديقتـك العزيـزة الصغـيرة هيلـين. أنـا سـعيدة جـدًّا بـأن أكتـب إليـكَ لأنّنـي أفكّـر فيـك و أُحبُّـك. أنـا أقـرأ قَصصًـا جميلـة مـن الكتـب التـي أرسـلتها إليّ، عـن تشـارلز و قاربـه، و آرثـر وحُلمِـه، وعـن روزا والخـروف.

لقـد ركبـتُ قاربًـا كبـيراً. كان يُشـبه سـفينة. أمـي والمُعلِّمـة ومـدام هوبكنـز والسـيِّد أناجنـوس والسـيِّد رودوكاناتـشي وعديـدٌ مـن الأصدقـاء الآخريـن ذهبنـا إلى بليـماوث كي نـرى الكثـير مـن الأشـياء العتيقـة. سـوف أحـكي لـك حكايـة صغـيرة عـن بليـماوث.

قبـل العديـد مـن السـنين، كان يعيـش في إنجلـترا، الكثـيرُ مـن النـاس الطيبـين، لكـنّ الملـك وحاشـيته لم يكونـوا طيّبـين، ولا عطوفـين، ولا صبورين مـع هـؤلاء النـاس الطيبـين، لأنّ الملـك، لم يكـن يرغـب، أن يجعـل عليـه النّـاسَ متمرِّديـن. أمّـا عـن ذِهـاب النـاس إلى الكنيسـة مـع الملـك، فلـم يكونـوا يحبّـون، لكنّهـم، لبنـاء كنائـسَ جميلـة جـدًّا، لأجـل أنفسـهم، كانـوا يرغبـون.

كان الملـك عـلى النّـاس مـن الغاضبـين، وكانـوا لغضبـه مـن الآسـفين، وقالـوا، سـوف نرحـل بعيـدًا لنعيـش في بـلادٍ غريبـة، ونـترك وطننـا الحبيـب وأصدقاءنـا ونفـارق الملـك الشِّريـر. لـذا، وضعـوا أشـياءهم في صناديـق كبـيرة، ولـكلِّ شيءٍ كانـوا مودِّعـين. أنـا حزينـة عليهـم لأنّهـم كثـيراً مـا كانـوا يبكـون. حـين ذهبـوا إلى هولنـدا، لم يكونـوا يعرفـون أي إنسـان، ولم يسـتطيعوا أن يعرفـوا عـن أيّ شيءٍ كان النـاس يتحدَّثـون، لأنّهـم باللغـةِ الهولنديـة لم يكونـوا عارفـين. لكنّهـم سريعًـا مـا تعلّمـوا بعـض الكلـمات الهولنديّـة، إلّا أنّهـم، كانـوا للغتهـم الأمّ محبّـين، ولم يرغبـوا لـلأولاد والبنـات الصِّغـار، أن يكونـوا للغـة الهولانديّـة الظريفـة مـن المتحدِّثـين، بينـما يكونـون للُغتِهـم الأصليـة مـن النّاسـين. لذلـك قالـوا، لا بـدَّ أن نرتحـل إلى بلـدٍ جديـد بعيـد، ونشـيِّدَ منـازل ومـدارس و كنائـس، ونبنـي مُدُنًـا جديـدة. لـذا حزمـوا أغراضهـم في صناديـق وودّعـوا أصدقاءهـم الجُـدُد، وفي سـفينةٍ كبـيرةٍ نحـو مـكانٍ بعيـدٍ كانـوا مُبحريـن، ومـن أجـل وطـنٍ جديـدٍ راحـوا يبحثـون. لكنّهـم لم يكونـوا سُـعداء، وبأفـكارٍ حزينـة قلوبهـم كانـت مليئـة هـؤلاء المسـاكين، لأنّهـم عـن أمـيركا، كثـيراً لم يكونـوا يعرفـون. أظـنّ أنّ الأطفـال الصِّغـار لا بـدَّ مـن المحيـط العظيـم كانـوا خائفـين، لأنّ المحيـط عـارمٌ جـدًّا، وبوسـعه أن يجعـل قاربًـا كبـيراً يهتـزّ، وبهـذا قـد يسـقط الأطفـال الصِّغـار، ويكونـوا لرؤوسِـهم مـن المؤذيـن. وبعـد أن قضـوا أسـابيع عديـدة في عُـرض المحيـط الغويـط، ولرؤيـة الأشـجار، والزُّهـور، والعُشـب لم يكونـوا يسـتطيعون، إلا مـن المـاء والسّـماء البديعـة فحسـب،

لهـذا لم يكـن في مقـدرة السُّـفن، أن تُبحـر بسرعـة وقتهـا، لأنّ البـشر، عـن المحـرِّكات وطاقـة البخـار، لم يكونـوا يعلمـون. ذات يـوم، وُلِـد طفـلٌ صغير. كان اسـمه بيريغـرِن وايـت. إننـي حزينـة للغايـة لأنّ المسـكين بيريغـرن الصغـير ميـتٌ الآن. كلّ يـوم، يطلـع النـاس إلى ظهـر مركِـب، و ينطلقـون عـن أرضٍ باحثـين. ذات يـوم، سُـمعت صيحـةٌ عظيمـة فـوق ظهر السَّـفينة، حيـث أنّ النـاس قـد رأوا أرضًـا، وكانـوا بالسَّـعادةِ ممتلئـين، لأنّهـم لوطـنٍ جديـدٍ صـاروا بأمـانٍ بالغـين. البنـات الصِّغـار والأولاد كانـوا يقفـزون وبأيديهـم يصفِّقـون. جميعهـم كانـوا سُـعداء حـين خطـوا فـوق صخـرةٍ عظيمـة. أنـا لم أرَ الصَّخـرة في بليـماوث ولا أيّ سـفينة صغـيرة مثـل مايفلاور ولا المهـد الـذي كان ينـام فيـه الصغـير بيريغـرن، ولا رأيـتُ العديـد مـن الأشـياء القديمـة التـي أتـت محمولـة في سـفينة مايفـلاور. أتـوَدٌّ في مَـرّة أن تـزور بليـماوث وتـرى الكثـير مـن الأشـياء القديمـة؟

أنا الآن مرهقة للغاية وسوف أستريح.

مع الكثير من المحبّة والكثير من القبلات، من صديقتك الصغيرة،

هيلين آ. كيلر.

الكلـماتُ الغريبـة الـواردة في هذَيْـن الخِطابَـيْن -وهـما أوَّل مـا كُتِـب أثنـاء زيارتهـا للريـاض الأطفـال الخـاص بالمكفوفـين- كانـت قـد أُعلِمَـت بأمـره قبـل شـهورٍ مـن ذلـك، وقـد اختزنـت تلـك الكلـمات في ذاكرتهـا. كانـت هيلـين تهضـم الكلـمات وتسـتوعبها وتتـدرَّب عليهـا؛ باسـتخدامها ذِهنيًّـا أحيانًـا، وبترديدهـا إيَّاهـا كـما يفعـلُ الببَّغـاءُ أحيانًـا أخـرى. حتَّـى عندمـا لم تكـن تفهـم الكلـمات أو الأفـكار بشـكلٍ تـامٍّ، كان يروقهـا أن تُدَوِّنها كـما لـو كانـت تفهمهـا. تلـك كانـت هـي الطريقـة التـي تعلَّمَـتْ بهـا أن تسـتخدم كلـماتٍ ذاتَ دلالـةٍ صوتيَّـة وتصويريَّـة بطريقـة صحيحـة؛

كي تعبّر بها عن أفكارٍ خارج خبرتها الذِّهنية. "إيدِث" المذكورة هنا هي إيدِث ثومسون.

إلى السيد مايكل أناجنوس

روكسبيري، ماساتشوستس، السابع عشر من أكتوبر، 1888.

Mon cher Monsieur Anagnos [عزيزي السيّد أناجنوس]

إنّني أجلسُ بجانب النّافذة بينما الشّمس البهيّةُ تُفيضُ عليّ بأشعتها. مُعلّمتي وأنا أتينا أمس إلى رياض الأطفال. يوجد هنا سبعةٌ وعشرون طفلًا صغيرًا، و هم جميعهم من المكفوفين. أنا حزينة لأنّه ليس باستطاعتهم أن يروا الكثير. هل سيكون لديهم عيون بحالٍ جيدة تمامًا يومًا ما؟ المسكينة إيدِث عمياء وصمّاء وبكماء. هل أنتَ حزين لأجل إيدِث ولأجلي؟ سوف أعود قريبًا إلى البيت وأرى أمي وأبي، والعزيزة المطيعة الجميلة أختى الصغيرة. أتمنّى أن تأتي إلى ألاباما كي تزورني وسوف آخذك في نزهة في كارّتي الصغيرة، وأعتقد أنّه سوف يعجبك أن تراني وأنا فوق ظهر مُهري الصّغير. سوف أعتمر قلنسوتي الجميلة وزيّ ركوب الخيل الجديد الخاص بي. لو أنّ الشمس تكون ساطعة وصافية، وقتها سوف آخذك لترى ليلى وإيڤا وبيسّي. أنا أعتزمُ حين أصير في الثالثة عشرة من العمر أن أسافر إلى الكثير من الأماكن العجيبة والبلدان الجميلة. سوف أتسلّقُ جبالًا عالية جدًّا في نورواي وأرى الكثير من الثلوج المتساقطة والجليد، أتمنّى ألّا أسقط وأجرح رأسي، سأزور اللورد فونتليوري الصغير في إنجلترا، ولسوف يسُرُّه أن يُريني قلعته الكبيرة العتيقة جدًّا. وسوف نجري مع الغزلان ونُطعمُ الأرانب ونصطاد السّناجب. أنا لن أخاف من دوغال؛ الكلب الكبير الذي يملكه فونتليوري. أتمنّى أن يأخذني فونتليوري كي أقابل الملكة الطيّبة جدًّا. عندما أذهب إلى فرنسا سأتحدّثُ الفرنسيّة.

سيقول لي ولد صغير: Parlez-vous Francais? [هل حضرتك تتحدّثين الفرنسيّة؟]، وسوف أردّ وأقول: Oui Monsieur, vous aves un joli chapeau. Donnez moi un baiser. [نعم يا سيّدي، حضرتك عندك قبّعة جميلة. أعطني قُبلة]. أتمنّى أن تأتي معي إلى أثينا كي ترى عذراء أثينا. لقد كانت سيّدةً محبوبة وسوف أتكلّمُ معها باليونانيّة. سأقول لها: se agapo [أنا أُحبُّكِ]، و: pas echete، وأظنُّ أنّها سوف تردّ عليّ وتقول: kalos [حسنًا]، وعندها سوف أقول أنا: chaere. هل سوف تأتي أرجوك كي تراني عمّا قريب وتأخذني إلى المسرح؟ حين تأتي سأقول لك: Kale emera [نهارك سعيد]، وحين تعود إلى بيتك سوف أقول: Kale nykta [ليلتك سعيدة]. أنا مرهقة الآن ولا أقدر على كتابة المزيد.

Je vous aime. Au revoir. [أحبُّكَ. إلى اللقاء].

من صديقتك العزيزة الصغيرة.

هيلين آ. كيلر.

إلى الآنسة إيڤيلينا هـ كيلر

[جنوب بوسطن، ماساتشوستس، التاسع والعشرون من أكتوبر 1888]

عمّتي العزيزة،- إنّني عائدةٌ إلى البيت عمّا قريب، وأظنُّ أنّكِ والجميع ستسعدون برؤيتي وبرؤية مُعلّمتي. إنّني سعيدةٌ للغاية لأنّني قد تعلّمتُ الكثير من الأشياء. فأنا أدرس الفرنسيّة والألمانيّة واللاتينية واليونانيّة . Se agapo هي كلمة يونانيّة، و هي تعني أنا أُحِبُّك. J'ai une bonne petite soeur هي جملة فرنسيّة، و تعني: أنا عندي أُخت صغيرة جميلة . Nous avous un bon pere et une bonne mere تعني: نحن عندنا أبٌ صالح وأمٌّ صالحة. Puer معناها

ولـدٌ باللاتينيّـة، وMutter معناهـا أُمّ بالألمانيّـة. سـوف أُعلّـم ملـدرد العديد مـن اللغـات حـين أعـود إلى البيـت.

هيلين آ. كيلر.

إلى مدام صوفيا س. هوبكنز

توسكامبيا، ألاباما. الحادي عشر من ديسمبر 1888.

عزيزتي مدام هوبكنز:-

لقـد أطعمـتُ للتـوّ حمامتـي الصَّغـيرة العزيـزة. أهدانيهـا أخـي سيمسـون يـوم الأحـد الماضي. أسـميتُها آنّ؛ عـلى اسـم مُعلّمتـي. جَـروي قـد تنـاولَ عشـاءَه وراح في النـوم. أرانبـي نائمـةٌ الآن أيضًـا، وسـأنام أنـا أيضًـا بعـد قليـل. مُعلّمتـي تكتـب الآن خطابـاتٍ لأصدقائهـا. أبي وأمّـي وأصدقائهـم قـد ذهبـوا كي يـروا تنُّـورًا كبـيرًا. التنُّـور يُسـتخدم في صناعـة الحديـد. معـدن الحديـد الخـام موجـود في باطـن الأرض، لكنّـه لا يمكـن أن يُسـتخدَم هكـذا إلّا إذا جُلِـب إلى التنّـور وأُذيـب، وتنفصـل عنـه كلّ الشّـوائب، ويبقـى الحديـد الخالـص فحسـب. عندهـا يكـون كلّ الحديـد جاهـزًا، كي يُشـكَّل ويتحـوَّل إلى: محـرِّكات، إلى مواقِـد، إلى غلّايـات وإلى العديـد مـن الأشـياء الأُخـرى.

الفحـم موجـود في باطـن الأرض أيضًـا. قبـل الكثـير مـن السـنين، قبـل أن يـأتي النّـاسُ للعيـش عـلى كوكـب الأرض، كان يغطـي سـطح الأرض أشـجارٌ عظيمـة وأعشـابٌ طويلـة، وسراخـس هائلـة، وجميـع الأزهـار الجميلـة. حـين كانـت تسـقط الأوراق والأشـجار، كان يغطّيهـا المـاء والـتراب، وعندئـذٍ ينمـو المزيـد مـن الأشـجار ويسـقط المزيـد أيضًـا، وكانـت تُدفَـن تحـت المـاء والـتراب. وبعـد أن تنكَبِـسَ جميعُهـا مـع بعضهـا لعديـدٍ مـن آلاف السـنين، يصبـح الخشـب صُلبًـا للغايـة، مثـل الصَّخـر، وعندهـا يكـون مُهيَّئًـا

للنـاس كي يُوقِـدوا بـه النـار. هـل في وسـعك رؤيـة أوراق الشّـجر والسَّراخسَ واللُّحـاء فـوق الفحـم؟ ينـزل الرِّجـال إلى باطـن الأرض ويسـتخرجون الفحم، وتأخـذه السـيّارات التـي تعمـل بالبخـار إلى الــمُدُن الكُـبرى، ويبيعونـه للنـاس كي يُوقـدوا بـه النـار، حتّـى يسـتدفِئوا بـه ويكونـوا سُـعداء حـين يكـون الصقيـع منتـشرًا خـارج البيـوت.

هـل أنـتِ جِـدّ وحيـدةٍ الآن وحزينـة؟ أتمنّـى أن تـأتي وتزورينـي عـمّا قريـب، وتمكثـي معنـا فـترةً طويلـة.

مع الكثير من المحبّة من صديقتك الصّغيرة

هيلين آ. كيلر.

إلى الآنسة ديلّا بِنّتْ

توسكامبيا، ألاباما، 29 يناير، 1889,

عزيـزتي الآنسـة بِنّـت:- إنّنـي مـسرورةٌ بـأنْ أكتـبَ إليـكِ هـذا الصَّباح. لقـد تناولنـا للتـوّ طعـام الإفطـار. ملـدرد تتراكـضُ في أنحـاء الطابق الأسـفل. أنـا كنـتُ أقـرأ في كتابي عـن astronomers (عُلـماء الفَلَـك). Astronomer (عـالم الفلـك) هـي كلمـة لاتينيـة أصلهـا astra، وهـي تعنـي النُّجـوم، وعُلـماء الفَلَـك هـم الأشـخاص الذيـن يدرسـون النُّجـوم، ويخبروننـا عنهـا. حينـما نكـون نحـن نائمـين بأمـانٍ في مضاجعنـا، يكونـون هـم يُطالِعـون السَّـماء البهيّـة عـبر التليسـكوب. التليسـكوب هـو شيءٌ شـبيهٌ بعينٍ حـادَّة الرؤيـة جـدًّا. إنّ النجـومَ بعيـدة جـدًّا لدرجـة أنّ النّـاس لا يسـتطيعون أن يُحيطـوا عِلـمًا بالكثـير عنهـا دون الاسـتعانة بـأدواتٍ مُتقنـةٍ تمامًـا. هـل تحبّـين النّظـرَ مـن نافذتِـك لتُطالِعـي النّجـوم الصغـيرة؟ مُعلِّمتـي تقـول، إنّ باسـتطاعتها أن تـرى كوكـبَ الزُّهـرة مـن نافـذة بيتنـا، وأنّـه نجـمٌ كبـيرٌ وجميـل. إنّ النُّجـوم تُسـمّى: إخـوةُ الأرض وأخواتُهـا.

توجـد الكثـير مـن الـمُعِدَّاتِ العظيمـة- فضـلًا عـن تلـك التـي يسـتخدمها علـماء الفلـك. فالسِّـكِّين، هـي أداةٌ نسـتخدمها كي نُقطِّـع بهـا الأشـياء. أظـنُّ أنّ الجَـرس أداةٌ أيضًـا. سـوف أحـكي لـك مـا أعرفـه عـن الأجـراس.

بعـضُ الأجـراس ذاتُ نغـمٍ موسـيقيّ وأُخـرى غـيرُ ذاتِ نغـمٍ موسـيقيّ. بعضهـا صغـيرٌ جـدًّا وبعضُهـا كبـيرٌ جـدًّا. أنـا رأيـتُ جرسًـا كبـيراً للغايـة في ويلّيـزْلي. أُتِيَ بـه مـن اليابـان. إنّ الأجـراس تُسـتخدمُ لأغـراضٍ عديـدة. فهـي تُعلِمنـا متـى يكـون طعـام الإفطـار جاهـزًا، و متـى ينبغـي أن نذهـب إلى المدرسـة، ومتـى يحـينُ وقـتُ الذِّهـابِ إلى الكنيسـة، وعندمـا يكـون هنـاك حريـق. إنهـا تخـبرُ النـاس بالموعـد الـذي فيـه يتعـيَّنُ عليهـم أن يذهبـوا إلى العمـل، والموعـد الـذي يعـودون فيـه إلى بيوتهـم كي يرتاحـوا. الجـرس الميكانيـكيّ يُعلِـم المسـافرين أنّهـم مُقدِمـون عـلى محطّـة، ويُنبِّـه النـاس أن يبتعـدوا عـن الطريـق. فأحيانـا تقـع حـوادِثُ فظيعـة جـدًّا، وعديـدٌ مـن النّـاس يحترقـون ويغرقـون ويُصابـون. قبـل يـوم أمـس كـسرتُ رأس دُميتـي، لكـنَّ تلـك لم تكـن حادثـةً مُفزِعـة، لأنَّ الدُّمـى لا تعيـش وتحـسّ مثـل النّـاس. حماماتي الصغـيرة عـلى مـا يُـرام، وكذلـك عصافـيري الصَّغـيرة. أودُّ أن يكـون عنـدي طـين صلصـال. مُعلِّمتـي تقـول لي إنّـه حـان الآن موعـدُ المذاكـرة. إلى اللقـاء.

مع الكثير من المحبّة، والكثير من القُبلات،

هيلين آ. كيلر.

مكتبة
t.me/soramnqraa

إلى الدكتور إدوارد إيڤيرت هال

توسكامبيا، ألاباما، الحادي والعشرون من فبراير 1889.

عزيزي السيد هال،

أتخوَّفُ جدًا، أن تظنّ، أنّ الصغيرة هيلين قد نسَيَتكَ أو نسيَت أبناء أخوالها الأعزّاء. لكنّي أعتقدُ أنّكَ ستُسرُّ عندما يصلُكَ هذا الخِطاب لأنّكَ عندئذٍ سوف تعرف أنّني لطالما أفكّرُ فيك وأحبُّك كثيرًا لأنك ابنُ خالي العزيز. مكثتُ في البيت أسابيعَ طوالًا إلى الآن. لقد جعلتني مغادرة بوسطن أشعر بالكآبة، وإنّي لأفتقدُ كثيرًا جميع أصدقائي ، لكنّني بالطَّبع فرحةٌ بعودتي إلى بيتي الحبيب. إنّ أُختي الصَّغيرة الحبيبة تكبر بسرعة للغاية. إنّها أحيانًا تحاول أن تتلفَّظَ بكلماتٍ قصيرةٍ جدًّا على [أصابع] يدها الصَّغيرة، لكنّها صغيرةٌ للغاية على أن تتذكَّرَ الكلمات الصَّعبة. عندما تصبح أكبر فسوف أُعلِّمُها أنا الكثير من الأشياء إن كانت مُطيعةً وصَبورة. مُعلِّمتي تقول، إنْ تعلَّمَ الأطفالُ أن يكونوا مُهذَّبين ومُطيعين وهُم صِغار؛ فعندما يكبرون، ويصيرون شبابًا محترمين وشابَّات محترمات، فلن يسهوا عن أن يكونوا طيِّبين ومُحبِّين وشُجعان. أنا أتمنّى أن أكون دومًا شُجاعة. يُحكى أنّ، كان فيه بنت صغيرة لم تكن شجاعة. كانت تظنّ أنّها قد رأت أقزامًا يعتمرون [قُبّعاتٍ] طويلةً مُدبَّبَة، ويختلسون النَّظر بمكرٍ من بين الشُّجيرات، ويرقصون قُرب الممرّات الطويلة في الغابة، والبنت الصغيرة المسكينة كانت مرعوبة. هل حظيتَ بوقتٍ رائعٍ في الكريسماس؟ لقد أُعطيتُ الكثير من الهدايا الجميلة. قبل أمس كان عندي حفلة فاخرة. جميعُ أصدقائي الصِّغار جاؤوا كي يلتقوني. لعبنا ألعابًا، وأكلنا آيس كريم وكعكًا وفواكه. ثمّ انخرطنا في لهوٍ ممتِع. الشمسُ مُشرقةٌ اليوم على نحوٍ بهيّ، وأأمل أن نتمكّن من الخروج للتنزُّه إن كانت

الطُّرقـات جافّـة. في غضـون بضعـةِ أيّـام سـوف يحـلُّ هنـا فصـل الرَّبيـع. أنـا سـعيدة جـدًّا لأنّنـي أحـبُّ ضيـاء الشَّـمس الدّافـئ والزُّهـور الشَّـذيَّة. أظـنُ أنّ الزّهـور تنمـو كي تجعـل النّـاس سُـعداءَ وأصحّـاء. لـديَّ أربـعُ دُمـى الآن. سِـدْرِكْ هـو ولـدي الصَّغـير، إنّ اسـمَه عـلى اسـمِ اللـورد فونتلـيروي. لديـه عينـان كبيرتـان بُنّيتـان وشـعرٌ ذهبـيٌّ طويـل وخـدّان مسـتديران جميـلان. إيـدا هـي طِفلتـي الرضيعـة. جلبَتْهـا لي إحـدى السـيدات مـن باريـس. بإمكانهـا أن تـشرب اللـبن كأنّهـا طفلـة حقيقيّـة. لـوسي سـيِّدةٌ شـابَّةٌ لطيفـة. ترتـدي فُسـتانًا أنيقًـا لـه شرائـط زينـة تتـدلّى منـه وتلبـس خُفًّـا مـن السّـاتان. العجـوز المسـكينة نانـسي تتقـدَّمُ في العمـر الآن وتصـير واهنـةً للغايـة. إنَّهـا مُقعـدَةٌ تقريبًـا. أنـا عنـدي حمامتـان اثنتـان مُروَّضتـان وطائـر كنـاري صغـير. چـامبو قـويٌّ جِـدًّا ومُخلِـص. إنـه لا يسـمح لأيِّ شيءٍ أن يصيبنـا بـأذى أثنـاء الليـل. أنـا أذهـبُ إلى المدرسـة كل يـوم، أنـا أدرسُ القـراءة، الكتابـة، الرياضيـات، الجغرافيـا واللغـة. أُمّـي ومُعلِّمتـي تُرسـلان إليـكَ وإلى السـيِّدة هـال أطيـب تحيَّاتهـما، وملـدرد تبعـثُ لـك بقُبلـة.

مع الكثير من المحبّة والقُبلات، من ابنة خالتك الـمُحِبَّة

هيلين آ. كيلر.

أثنـاء فصـل الشِّـتاء، كانـت الآنسـة ساليـڤـان وتلميذتُهـا تمارسـان مهامَّهـما في بيـت هيلـين بتوسـكامبيا، وقـد أفضـت تلـك الفـترة إلى نتائِـجَ مُثمِـرَة؛ حيـث بحلـول الرَّبيـع، كانـت هيلـين قـد تعلَّمـت أن تكتـبَ إنجليزيَّـةً سـليمةَ العبـارة. بعـد شـهر مايـو مـن العـام 1889، لم أقـع تقريبًـا عـلى أخطـاءٍ كِتابيَّـة، عـدا الفَلَتـات الحادثـة جـرَّاء اسـتخدام القلـم الرَّصـاص. فقـد صـارت تسـتخدم الكلـمات بدقَّـة، وتصيـغُ جُمـلًا سلِسـةً فصيحـة.

إلى السيد مايكل أناجنوس

توسكامبيا، ألاباما، الثامن عشر من مايو، 1889.

عزيـزي السـيد أناجنـوس:-- لا تتصـوَّر كـم كنـتُ سـعيدةً حـين تلقَّيـتُ منـكَ خِطابًـا مسـاءَ أمـس. إنّنـي حزينـةٌ جـدًّا لأنَّـكَ سـوف ترحـل إلى مكانٍ بعيـد. سـنفتقدكَ كثـيرًا كثـيرًا للغايـة. إنَّنـي لأودُّ أن أزور الكثـير من الـمُدن بصُحبتـك. عندمـا كنـتُ في هانتزڤـل رأيـتُ دكتـور بريسُـن، وأخـبرني أنَّـه قـد زار رومـا وأثينـا وباريـس ولنـدن. لقـد تسـلَّق الجبـال الشَّـاهقة في السُّـويد وزار كنائـسَ بديعـة في إيطاليـا وفرنسـا، ورأى الكثـيرَ مـن القِـلاع العتيقـة. أتمنَّـى أن تكتـبَ لي رجـاءً مـن جميـع البـلاد التـي تزورهـا. عندمـا تذهـب إلى هولنـدا أبلِـغْ محبَّتـي للأمـيرة المحبوبـة ڤـيلهامينا. إنَّهـا صبيَّـةٌ صغـيرةٌ عزيـزة علـيَّ[1]، وعندمـا تصبـح كبـيرة بمـا يكفـي سـوف تصـير هـي ملكـة هولنـدا. إن ذهبـتَ إلى رومانيـا سَـلْ الملكـة الطيِّبـة إليزابـث لـو سـمحت عـن حـال أخيهـا الصغـير العليـل، وأَخْبِرْهـا تعـازِيَّ الحـارَّةَ لوفـاة ابنتهـا الصغـيرة العزيـزة. ينبغـي أن أُرسِـل قُبلـةً إلى ڤِـتُّوريو؛ أمـيرِ نابلـس الصَّغـير، لكـنَّ مُعلِّمتـي تخـشى أنَّـكَ لـن تتذكَّـر كلَّ هـذه الرسـائل الكثـيرة. عندمـا أصـير في الثالثـة عـشرة مـن العمـر سـوف أزورهـم بنفـسي جميعًـا.

أشـكرَكَ شـكرًا جزيـلًا لأجـل القِصَّـة الجميلـة التـي أرسـلتها إليَّ بخصوص اللـورد فونتلـيروي، ومُعلِّمتـي أيضًا تشـكرك.

إنَّنـي جِـدّ سـعيدة لأنَّ إيـڤـا سـوف تـأتي لقضـاء الصَّيـف معـي. سـوف نقـضي معًـا أوقاتًـا رائعــة. أبلِـغ محبّتـي لهُـوارد، وأخـبره أن يـردَّ عـلى خِطـابي. خرجنـا في نزهـةٍ يـوم الخميـس. لقـد كان الأمـرُ مبهجًـا للغايـة قضـاءُ الوقـت وسـط الغابـات الظَّليلـة، وقـد اسـتمتعنا جميعًـا بالنُّزهـة.

---

(1) الملكـة ڤـيلهامينا، ملكـة هولنـدا، مـن مواليـد عـام 1880، لـذا، كانـت في التاسـعة مـن عُمرهـا ومـا تـزال بعـد أمـيرة، في وقـت كتابـة هـذا الخطـاب. (المترجِـم).

ملـدرد تلعـب في فنـاء البيـت بالخـارج، وأمِّـي تقطـف حبَّـاتَ الفراولـة اللذيـذة. أبي وعمِّـي فرانـك في وسـط البلـد. سيمسـون سـوف يعـود للبيـت عـمَّا قريـب. التُقِطـت لنـا صـورٌ أنـا وملـدرد عندمـا كُنَّـا في هانتْزفِـل. سـوف أبعـثُ إليـكَ بصـورة.

لقـد كانـت الـورود بديعـة. لـدى أمِّـي الكثـير مـن الـورود الجميلـة. أزهـار "لا فرانـس" و"لامـارك" هي أكـثر الورود عبقًـا، لكن ورود الـ"مارشـال نِـل"، و"سـولفاتير"، و"چـاكومينو"، "نيفيـوت"، "إيـوال دي ليـون"، "پـاپـا غونتيـر"، "غابرييل دريـڤــى" و"پــيرل ديـز غاردينز"- جميعُهـا ورودٌ رائعة.

بعـد إذنِـك أَبْلِـغْ محبَّتـي لـلأولاد الصِّغـار والبنـات. إنَّنـي أفكِّـرُ فيهـم كلَّ يـوم وأحبُّهـم جـدًّا مـن كلِّ قلبـي. عندمـا تعـودون مـن أوروبـا جميعًـا أتمنَّـى أن تكونـوا بخـير حـالٍ وسـعداء بعودتكـم للوطـن. لا تنـسَ أن تُبلـغ محبَّتـي للآنسـة كالِّيـوپ وللسـيد فرانسـيز ديمـترو كالـيـوثاكس.

محبَّتي، صديقتك الصغيرة،

هيلين آدمز كيلر.

كالكثـير مـن الخطابـات الأولى الجميلـة لهيلـين كيلـر؛ هـذا الخِطـاب الموجَّـه إلى مُعلِّمتهـا معلِّمـة اللغـة الفرنسـيَّة هـو عبـارة عـن إعـادة صياغـة لقِصَّـة. إنَّـه يُظهِـرُ قَـدْرَ مـا تملكـه مـن موهبـة الكتابـة في مراحـل تطوُّرِهـا المبكِّـرة؛ موهبـة المحـاكاة والتقليـد.

إلى الآنسة فانِّي س. مارْتّ

توسكامبيا، ألاباما، 17 مايو، 1889.

عزيـزتي الآنسـة مـارْتّ- إنَّنـي مشـغولةٌ البـال بطفلـةٍ صغـيرةٍ عزيـزة علـيَّ، كانـت تبـكي بحُرقـة. لقـد كانـت تبـكي لأنَّ أخاهـا كان يضايقهـا كثـيرًا. سـوف أقُـصُّ عليـكِ مـا فعلَـه، وأظنُّـكِ سـوف تأسـفين جـدًّا لحـال الطِّفلـة الصغـيرة. كان عندهـا دُميـةٌ جميلـة إلى أبعـد الحـدود، أُهدِيَـت لهـا. يـاه! كانـت دميـةً حَبُّوبـة وبالغـةَ الرِّقَّـة! لكـن، أخـو البنـت الصغـيرة -وهـو عيِّـل طويـل القامـة- قـد اختطـف الدُّميـة، وعلَّقهـا في شـجرة عاليـة بالحديقـة، ثـمَّ هـرب. لم يكـن باسـتطاعة البنـت الصغـيرة أن تصـلَ إلى الدُّميـة، ولم تسـتطع إنزالهـا؛ ولهـذا السـبب كانـت البنـت تبـكي. كانـت الدُّميـة تبـكي أيضًـا، وتمـدُّ ذراعيهـا مـن بـين الأغصـان الخضـراء وقـد بَـدَتْ مكروبـةً. كان الليـل الموحـش سـوف يحـلُّ عـمَّا قريـب- وهـل كانـت الدُّميـة سـتظلُّ فـوق الشـجرة وتبقـى الدُّميـة بمُفردِهـا طـوال الليـل؟ لم تسـتطع البنـت الصغـيرة أن تتحمَّـل هـذه الفكـرة. "سـوف أبقـى معـكِ"، هكـذا قالـت البنـت للدُّميـة، رغـم أنَّهـا لم تكـن شـجاعةً عـلى الإطـلاق. بـدأت فعـلًا تـرى بوضـوحٍ الأقـزامَ الصغـيرة ذات القُبَّعـات الـمُدبَّبة يتراقصـون عنـد الأزقَّـة المعتمـة، وينظـرون خِلسـةً مـن بـين الشـجيرات، وكان يبـدو أنَّهـم يقتربـون أكـثرَ فأكـثر، ومـدَّت يديهـا لأعـلى نحـو الشَّـجرة التـي تسـتكينُ عليهـا الدُّميـة، فضحِكـوا، وأشـاروا بأصابعهـم نحوهـا. كـم كانـت البنـت الصغـيرة فَزِعَـة، لكـن، مـادام المـرء لم يرتكـب أيَّ شيء غلـط؛ فلـن تسـتطيع هـذه الأقـزام الصغـيرة العجيبـة أن تؤذيـه. "هـل أنـا فعلـتُ شـيئًا خاطئًـا؟ آه، نعـم فعلـت!"، قالـت البنـت الصغـيرة. "لقـد سـخِرتُ مـن البطَّـة المسـكينة التـي كانـت سـاقها مربوطـةً بشريطـةٍ حمـراء. كانـت تعـرُج، وذلـك جلعنـي أضحـك، لكـن مـن الخطـأ أن نسـخر مـن الحيوانـات المسـكينة!".

أَلَيسَت قِصَّةً مثيرة للشفقة؟ أتمنى أن يكون الأب قد عاقب الولد الصغير المشاغب. هل ستكونين جِدَّ سعيدة بأن تري مُعلِّمتي يوم الخميس القادم؟ هي سوف تذهب للبيت كي ترتاح، لكنَّها سوف تعودُ إليَّ في فصل الخريف القادم.

محبَّتي، صديقتك الصغيرة،

هيلين آدامز كيلر.

إلى الآنسة ماري إ. ريلاي

توسكامبيا، ألاباما، 27 مايو، 1889.

عزيزتي الآنسة ريلاي:- أتمنَّى أن لو كنتِ اليوم هنا لتَنعمي بجوٍّ الجنوب الدافئ الـمُشمِس. كُنَّا لنأخذكِ أنا وأختي الصغيرة لنزهةٍ بالخارج في الحديقة، ونقطف توت العُلَّيق اللذيذة وقليلًا من حبَّات الفراولة من أجلك. أسوف يعجبكِ هذا؟ لقد نفدت تقريبًا جميع الفراولة. في المساء، عندما يكون الجوُّ معتدلًا ومُبهِجًا، فسوف نخرج إلى الفناء، ونصطاد الجنادِب والفراشات. وسوف نتحدَّث عن الطُّيور والزُّهور والأعشاب وعن چامبو وپيرل. وإن أحببتِ، سوف نجري ونقفز ونحجل ونرقص، ونكون جِدَّ سُعداء. أظنُّ أنَّكِ سوف تستمتعين بالطُّيور المغرِّدة وهي تشدو. سوف يجلس أحد الطيور على غُصَيْنِ شجرة، تحت نافذتنا تمامًا، وسوف يملأ الأجواء بأغانيه البهيجة. لكنِّي أخشى ألَّا تقدرين على المجيء إلى توسكامبيا؛ لذا سوف أكتبُ إليكِ، وأبعثُ لكِ قُبلةً عذبة وأرسلُ إليكِ مَحبَّتي. كيف حال دِك؟ ديزي سعيدة، لكنَّها كانت لتكون سعيدةً أكثر لو كان عندها رفيقٌ صغير. جميع أطفالي الصِّغار بخير حال- إلا نانسي، إنَّها فعلًا واهنة القوى. جَدَّتي وعمَّتي الآن هُنا. سوف تصنع الجدَّةُ فُستانَيْن جديدين لأجلي.

أبلِغـي محبَّتـي إلى جميـع الفتيـات الصغـيرات، وأخبريهـنَّ أنَّ هيلـين تحبهـنَّ كثـيرًا جـدًّا جـدًّا. إيـﭬـا تبعـثُ بمودَّتها للجميـع.

مـع الكثـير مـن المحبَّـة والكثـير مـن القُبلات، مـن صديقتـك الصغـيرة الـمُحِبَّة،

هيلين آدامز كيلر.

كانـت الآنسـة ساليـﭬـان بعيـدةً عـن هيلـين أثنـاء الصَّيـف مـدةَ ثلاثـة أشـهر ونِصْـف، وهـو أول افـتراقٍ بـين الـمُعلِّمةِ والتلميـذة. لمرَّةٍ واحـدةٍ فحسـب فيـما بعـد، خـلال فـترة صُحبتهـما الدائمـة التـي اسـتمرَّت خمسـةَ عـشر عامًـا، كان يتَّفـق أن تنقطـع هـذه الصُّحبـة لما يزيـد عـن بضعـةِ أيَّـامٍ في المـرَّة.

إلى الآنسة آن مانسْفيلد ساليـﭬـان

توسكامبيا، ألاباما، 7 أغسطس، 1889.

مُعلِّمتـي العزيـزة- إنَّنـي مبتهجـةٌ لأنَّنـي أكتـبُ إليـكِ هـذا المسـاء، فقـد كنـتُ أفكِّـرُ فيـكِ كثـيرًا طـوال النّهـار. أنـا أجلـسُ الآن في الشُّرفـة، وحمامتـي البيضـاء الصَّغـيرة جاثمـةٌ عـلى ظهـر كُرسـيِّي؛ تشـاهدني وأنـا أكتـب. رفيقهـا البُنِّـيُّ الصغـيرُ قـد ارتحـل وطـار مـع الطُّيـور الأخـرى، لكـنَّ آن ليسـت حزينـة، فهـي يروقُهـا أن تبقـى في مَعيَّتـي. فونتليـوري نائـمٌ الآن في الطابـق الأعـلى، ونانـسي تضعُ لـوسي في سريرهـا. ربَّمـا الطير الشَّـادي يغنِّـي لهـم كي ينامـوا. كلُّ الزهـور الجميلـة الآن في طَـور التفتُّـح. الهـواءُ يعبـقُ بشـذى أزهـار الياسـمين وأزهـار رقيـب الشَّـمس والـورود. فالجـوُّ يصبـح دافئًـا هنـا في هـذه الفـترة؛ لـذا سـوف يأخذنـا أبي إلى محجـر السرخـس في العشريـن مـن أغسـطس القـادم. أظنُّنـا سـوف نقـضي وقتًـا

ممتِعًا في الهواء الطلق، وسط الغابات الباردة البهيجة. سوف أكتب لكِ وأخبركِ بكلِّ الأشياء المبهجة التي سوف نقوم بها. إنَّني مسرورةٌ بأنَّ لِسْتر وهنري رضيعان مُطيعان. قبِّليهما عنِّي كثيرًا قُبلاتٍ عذبة.

ماذا كان اسمُ الولد الصغير الذي وقع في حبِّ نجمة السَّماء الجميلة؟ إيفا كانت تروي لي قِصَّةً عن فتاةٍ صغيرةٍ حَبُوبة تُدعى هايدي. هلَّا أرسلتِها إليَّ رجاءً؟ سوف أكون مسرورة إن امتلكتُ آلة كاتبة.

الصغير آرثر يكبر بسرعة جدًّا. هو يلبسُ الآن ثيابًا قصيرة. ابنةُ العمِّ ليلى تعتقد أنَّه سوف يمشي بعد وقت قصير. عندها سوف أُمسكُ بيده الغضَّةِ الرَّبيلةِ في يدي، وأخرجُ معه إلى ضوء الشَّمس السَّاطع. سوف يقتلِع أكبرَ الورود، ويطارد أزهى الفراشات. سوف أهتمُّ به وأرعاه جيِّدًا، ولن أدَعَهُ يسقط ويجرح نفسه. أبي وآخرون من بعض الرِّجال المحترمين ذهبوا للصيد أمس. اصطاد أبي ثمانيةً وثلاثين طائرًا. تناولنا بعضًا منها على العَشاء، وكانوا لذيذين للغاية. اصطاد سيمسون طائرَ كُركي جميلًا يوم الاثنين الماضي. طائر الكركي هو طائرٌ قويٌّ وكبيرُ الحجم. جناحاهُ بطول ذراعي، ومِنقارُه بطول قَدمي. إنَّه يأكل الأسماك الصغيرة، ويأكل حيواناتٍ صغيرةً أخرى. أبي يقول إنَّ الكركي، يستطيع أن يطير، طوال اليوم تقريبًا دون توقُّف.

ملدرد هي أعذبُ وأحبُّ بتولٍ صغيرة في العالم. إنَّها لئيمة جدًّا أيضًا. أحيانًا، دون أن تعرف أمِّي، تخرج ملدرد وتذهب إلى حقل الكروم، وتملؤ مئزرها بحبَّات العنب اللذيذة. أظنُّ أنَّها لتودُّ أن تضعَ يديها الرقيقتين حول عُنُقِكِ وتحتضِنُكِ.

يومَ الأحد ذهبتُ إلى الكَنسية. أنا أُحبُّ الذَّهاب للكنيسة؛ لأنَّني أحبُّ أن ألتقي بأصدقائي.

أعطاني رجلٌ مُحترَم بطاقةً جميلة. كانت صورة لطاحونة، تقعُ بالقُرب من غدير ماءٍ بديع. وكان في الصورة قاربٌ يطفو فوق الماء،

والَّليالِـكُ الشَّـذيَّةُ كانـت تنمـو فيـما حـول القـارب. كان هنـاك بيـتٌ قديـمٌ ليـس ببعيـدٍ عــن الطَّاحونـة، وبقُربِـه كانـت تنمـو الكثـير مـن الأشـجار. فـوق سـطح المنـزل كانـت ترقـد ثمـاني حمامـاتٍ، وكلـبٌ كبـيرٌ يجلـس عـلى درجـةِ السُّـلَّم. إنَّ پـيرل أمٌّ مختالـةٌ جـدًّا الآن. فلديهـا ثمانيـة جِـراء، وهـي تعتقـد أنَّـه ليـس هُنـاك جِـراءٌ وسـيمة مثـل جِرائهـا.

أنـا أقـرأ في كتُبـي كلَّ يـوم. أنـا أُحبُّهـا كثـيرًا، جـدًّا، جـدًّا، جـدًّا. أريـدُكِ أن تعـودي إليَّ عـمَّا قريـب. أفتقـدُكِ كثـيرًا جـدًّا جـدًّا جـدًّا. أنـا لا أسـتطيعُ أن أعـرف عـن الكثـير مـن الأشـياء عندمـا لا تُكـون مُعلِّمتـي العزيـزة هُنـا. أبعـثُ لـكِ بخمسـة آلاف قُبلـة، ومزيـدًا مـن المحبَّـة أكـثر مـما باسـتطاعتي أن أعـبِّر عنـه. محبَّتـي إلى مـدام هــ وقُبلـة.

من تلميذتك الصغيرة الـمُحِبَّة،

هيلين آ. كيلر.

في فصـل الخريـف، عـادت هيلـين والآنسـة ساليـڤـان إلى معهـد بيركنس في جنوب بوسـطن.

إلى الآنسة ملدرد كيلر

جنوب بوسطن، الرابع والعشرون من أكتوبر، 1889.

أختـي الصَّغـيرة الغاليـة:- صبـاح الخير. سـوف أرسـل لـكِ هديَّةً بمناسـبة عيـد ميلادِكِ مُرفَقـة مـع هـذا الخطـاب. أتمنَّـى أن تُدخـل عليـكِ الـسرور؛ لأنَّ إرسـالي إيَّاهــا يجعلنــي سـعيدة. الـرِّداءُ أزرقُ اللـون مثـل عينيـكِ، والحلـوى لذيـذة تمامًـا مثلـما أنـتِ كذلـك. أظـنُّ أنَّ ماما سيُسـعِدُها أن تصنـع لـكِ الفسـتان، وحـين ترتدينـه سـوف يبـدو شـكلكِ بهيًّـا تمامًـا مثـل وردة. الكتـاب المصـوَّر المرسَـل سـوف يحـكي لـكِ عـن الكثـير مـن الحيوانات

المفترسـة والغريبـة. ينبغـي ألَّا تخـافي منهـا. إنَّهـا لا تسـتطيع أن تخـرج مـن الصـور وتؤذيَـكِ.

أنـا أذهـبُ إلى المدرسـة كلَّ يـوم، وأتعلَّـمُ الكثـير مـن الأشـياء الجديـدة. في الليـل أذاكـر الرياضيَّـات. أنـا أحـبُّ الرياضيَّـات. في التاسـعة أذهـب إلى صالـة الألعـاب بصُحبـة الفتيـات الصغـيرات، ونقـضي وقتًـا مرِحًـا جـدًّا. كنـتُ أتمنَّـى أن لـو كان باسـتطاعتكِ التواجـدُ هُنـا كي تلعبـي مـع الثلاثـة سـناجِب الصغـيرة، ومـع اليمامتـين اللطيفتـين، ونبنـي عُشًّـا جميـلًا لأجـل طائـر أبي الحنَّـاء العزيـز. هـذا الطائـر المغـرِّدُ لا يعيـشُ في طقـس منطقـة الشـمال البـارد. في السـاعة العـاشرة، أدرسُ عـن الأرض التـي عـلى ظهرهـا جميعًـا نحيـا. في الحاديـة عـشرة أتحـدَّثُ مـع مُعلِّمتـي، في الثانيـة عـشرة أدرس علـمَ الحيـوان. لا أدري بعـدُ مـاذا ينبغـي عـليَّ أن أفعـل في فـترة مـا بعـد الظهـيرة.

والآن، وداعًـا يـا أختـي الصغـيرة العزيـزة. أرسـلي عنِّـي لأبي وأمـي محبَّةً كبـيرة وأحضانًـا وقبـلات كثـيرة. مُعلِّمتـي تبعـثُ إليهـما بمودَّتهـا أيضًا.

من أختِكِ المحِبَّة،

هيلين آ. كيلر.

إلى السيد وليام ويد

جنوب بوسطن، ماساتشوستس، 20 نوفمبر، 1889.

عزيـزي السـيد ويـد:- لقـد اسـتلمتُ للتـوِّ خِطابًـا مـن والـدتي، يُخـبرني أنَّ الكلبـة الـدِّرواس[1] الصغـيرة قـد وصلـت إلى توسـكامبيا بأمـان. شـكرًا جزيـلًا لـكَ عـلى الهديَّـة اللطيفـة. إنَّنـي آسـفةٌ جـدًّا لأنَّنـي لم أكـن بالبيـت كي أُرحِّـبَ بهـا، لكـنَّ أُمـي وأختـي سـوف تكونـان لطيفتـين معهـا للغايـة

(1) كلب ضخم من كلاب الحراسة. (المترجم)

مـا دامـت صاحبتُهـا في مـكان بعيـد. أتمنَّـى ألَّا تكـون الكلبـة شـاعرة الآن بالوحـدة أو التعاسـة. أظـنُّ أنَّ الجـراءَ تشـعرُ بالحنـين إلى الوطـن تمامًـا مثل الفتيـات الصغـيرات. أرغـب أن أُسـمِّيَها لايونِـس[1]؛ عـلى اسـمك كلبَتِـك. هـل يمكننـي ذلـك؟ أتمنَّـى أن تكـون وفيَّـةً جـدًّا- وشُـجاعةً أيضًـا.

أنـا أدرس في بوسـطن، برفقـة معلمتـي العزيـزة. أنـا أتعلَّـمُ الكثـير مـن الأشـياء العظيمـة والرائعـة. إنَّنـي أدرسُ عن كوكب الأرض، وعـن الحيوانات، وأحـبُّ الرياضيـات بإفـراط. أتعلَّـمُ الكثـير مـن الكلـمات الجديـدة أيضًـا. بإفـراط هـي كلمـةٌ جديـدة تعلَّمتُهـا أمـس. عندمـا أرى لايونِـس سـوف أخبرهـا بالعديـد مـن الأشـياء التـي سـوف تُدهِشُـها بشِـدَّة. أعتقـد أنَّهـا سـوف تضحـك حـين أُخبرهـا بأَنَّهـا حيـوانٌ ثديـيٌّ، مـن الفقَّاريَّـات، مـن ذوات الأربَـع، وسـوف آسـفُ لأن أُخبِرهـا بأنّهـا تنتمـي إلى طائفـة اللواحـم. أنـا أيضًـا أدرس الفرَنسـيّةَ. حـين أتحـدَّثُ بالفرنسـيَّة مـع لايونـس سـوف أناديهـا mon beau chien]يـا كلبـي الجميـل[. أخـبِر لايـون لـو سـمحت أنَّنـي سـوف أرعـى لايونِـس جيِّـدًا. سـوف أكـون سـعيدة لـو تلقَّيـتُ منـكَ خِطابًـا عندمـا تشـاءُ أن تكتـبَ إليَّ.

من صديقتكَ الصغيرة الـمُحِبَّة

هيلين آ. كيلر.

ملحوظة: أنا أدرس في المعهد الخاص بالمكفوفين. ه. آ. ك.

هـذا الخِطـاب وقـع في يـد وايتيـر، "هيلـين آ. كيلـر -بنـت مكفوفـة صـمَّاء بكـماء- تبلـغ مـن العمـر تسـعة أعـوام". "صاحبـة البُنيَّـة" هـي زلَّـة مـن القلـم الرصـاص، يُقصـد بهـا "ذات العيـون البُنيَّـة".

(1) يلاحَـظ أنَّ الاسـمَ الـذي اختارتـه للكلبـة هنـا يعنـي لبـؤة (أنثـى الأسَـد)، واسـم كلـب السـيد وليـام -كـما سـوف يتقـدَّم- هـو لايـون، يعنـي أسـد. (المترجِـم)

إلى چون غرينليف وايتير

27 نوفمبر، 1889.

أيُّها الشّاعر العزيز،

أظنُّ أنَّك سوف تُدهش حين يصلكَ خِطابٌ من بنت صغيرة أنتَ لا تعرفها، لكن أعتقدُ أنَّكَ ستكون سعيدًا حين تسمع أنَّ قصائدك البديعة تجعلني جِدَّ سعيدة. كنت أقرأ أمس "في أيَّام المدرسة"، و"رفاقي في اللعب" واستمتعت كثيراً بالقصيدتين. كنتُ حزينة جدًّا أنَّ الفتاة الصغيرة المسكينة صاحبة البُنِّيَّة (ذات العيون البُنيَّة)، وذات "جدائل الشَّعر الذهبيِّ المتحابكة"، قد ماتت. إنَّه لمبهجٌ للغاية أن يحيا المرء ها هُنا في عالمنا الجميل. أنا لا أستطيعُ أن أبصِرَ الأشياء الفاتنة بعينيَّ، لكنَّ عقلي يستطيع أن يُعاينها جميعًا، ولهذا أنا أشعر بالابتهاج طوال اليوم.

حين أخرج وأمشي في حديقتي فأنا لا أستطيع أن أرى الزهور الجميلة، لكن أنا أعلمُ أنَّها جميعًا توجد فيما حولي، أليسَ يكون الجوُّ معطَّرًا بأرائِجها؟ أعلمُ أيضًا أنَّ الزنابق الصغيرة تُفضي إلى رِفاقها همسًا بأسرارٍ بديعة، وإلَّا لما بدَتْ جِدَّ سعيدة هكذا. أنا أحبُّكَ وأُعزُّك جدًّا؛ لأنَّك قد علَّمتني الكثير والكثير من الأشياء الفاتنة عن الزهور، وعن الطيور، وعن البشر. الآن، لا بُدَّ أن أقول وداعًا. أتمنَّى [لكَ] أن تستمتع كثيراً بعيدِ الشُّكر.

من صديقتك الصغيرة المُحِبَّة،

هيلين آ. كيلر

إلى السيِّد چـون غرينليف وايتيير.

الردُّ على وايتيير، الـمُشارُ إليه في الخِطاب التالي، قد فُقِد.

إلى السيدة كاتي آدامز كيلر

جنوب بوسطن، ماساتشوستس، 3 ديسمبر، 1889.

أُمِّـي العزيـزة:- إن ابنتَـكِ الصغـيرة سـعيدةٌ للغايـة بـأن تكتـبَ لـكِ في هـذا الصبـاح الجميـل. إنَّ الجـو هنـا اليـوم بـاردٌ وممطِـر. أمـس، جـاءت كونتيسـةُ ميـث[1] مُجـدَّدًا لأجـل أن تـراني. لقـد أعطتنـي باقـة جميلـة مـن زهـور البنفسـج. ابنتاهـا الصَّغيرتـان تدعيـان ڤـايولِت[2] و مـاي. قـال الإيـرل[3] إنَّـه سيسـعدُ بزيـارة توسـكامبيا في المرة القادمـة التـي يـأتي فيهـا إلى أمـيركا. قالـت سـيدة ميـث [ليـدي ميـث] إنهـا تـودُّ أن تـرى زُهـورك، وتسـمع الطُّيـور المغـرِّدة تشـدو. يريدوننـي أن أذهـب لزيارتِهـم لـمَّا أروح إنجلـترا، وأن أمكـث معهـم بضعـة أسـابيع. سـوف يأخذوننـي لرؤيـة الملِكة.

تلقَّيـتُ خِطابًـا رائعًـا مـن الشَّـاعر وايتيـير. إنَّـه يُحبُّنـي. إنَّ السـيد ويـد يريـد مـن مُعلِّمتـي ومنِّـي أن نذهـب ونـزوره في فصـل الربيـع المقبـل. أيُمكننـا أن نذهـب؟ هـو قـال إنَّـه يجـب عليـكِ أن تُطعمـي لايونِـس بيدَيك؛ لأنَّهـا بهـذا سـوف تُصبـح مُسـالِمةً أكـثر إن لم تـأكل مـع الـكِلاب الأُخـرى.

أتى السـيد وِلسـون لزيارتنـا ذات يـوم خميـس. كنـتُ مـسرورة بـأن تصلنـي الزهـور مـن بيتـي. لقـد وصلـت ونحـن نتنـاول طعـام الإفطـار، وقـد فـرِح أصدقـائي معـي بالزهـور. كان عندنـا عشـاء فاخـر يـوم عيـد الشُّـكر؛ ديـك رومـي وبودنـغ البرقـوق[4]. قمـتُ الأسـبوع الماضي بزيـارةٍ

(1) Meath ميث: مقاطعة في أيرلندا. (المترجم)

(2) يُلاحـظ هُنـا أنَّ الملكـة تُسـمِّي ابنتهـا Violet ونفـس اللفـظ الإنجليـزيُّ يعنـي زهـرة البنفسـج، وهـو الهديَّـة السَّـابق ذكرهـا في الجملـة السـابقة. (المترجِـم).

(3) لقب إنجليزيٌّ أدنى مرتبةً من الماركيز (المترجِم)

(4) طعام يؤكل في ليلة عيد الميلاد. (المترجِم)

لمتجرٍ جميلٍ للفنون. رأيتُ الكثير من التماثيل الكبيرة، وأعطاني رجلٌ محترم تمثالًا لملاك.

ذهبت يوم الأحد إلى الكنيسة على متن سفينةٍ حربيَّة. بعد أن انتهى القُدَّاس طاف الجنود البحَّارةُ بنا في جولة. كان بالسفينة أربعمائة وستون بحَّارًا. لقد كانوا لُطفاء للغاية معي. حملني واحدٌ منهم بين ذراعيه لئلَّا يُلامس الماء قدميَّ. كانوا يرتدون زيًّا موحَّدًا أزرق ويعتمرون قُبَّعاتٍ صغيرةً غريبة الشكل. لقد حدث حريقٌ فظيع يوم الخميس. احترقت محلَّات كثيرة، وأربعةٌ من الرِّجال لقوا حتفهم. إنَّني حزينةٌ عليهم جدًّا. أخبري أبي رجاءً أن يكتبَ لي. كيف حال أختي الصغيرة العزيزة؟ أوصلي لها عنِّي الكثير من القبلات. الآن لا بدَّ أن أختتم الخطاب. مع الكثير من المحبَّة، من طِفلتكِ العزيزة،

هيلين آ. كيلر.

إلى السيدة كاتي آدامز كيلر

جنوب بوسطن، ماساتشوستس، 24 ديسمبر، 1889.

أُمِّي العزيزة،

أرسلتُ إليكِ أمس صُندوقًا صغيرًا هديةً بمناسبة الكريسماس. أنا آسفة جدًّا لأنَّني لم أتمكَّن من إرسالِه قَبلًا كي يصل إليك غدًا، لكنِّي لم أستطع الانتهاء من حافظة السَّاعة أبكَرَ من هذا. لقد صنعتُ جميعَ الهدايا بنفسي، باستثناء وِشاح أبي. كنتُ أتمنَّى أن لو استطعتُ أن أصنعَ لأبي هديَّةً أيضًا، غير أنَّني لم أملك من الوقت ما يكفي. أتمنَّى أن تعجبك حافظةُ الساعة، لقد كنتُ سعيدةً للغاية بأنني أصنعها لأجلك. لا بدَّ أن تحفظي فيها ساعتك[1] الجديدة الفاتنة. إن كان الطقسُ دافئًا جدًّا في توسكامبيا بالنسبة لأختي الصغيرة، ولا تطيق

(1) وردت الكلمة بالفرنسيَّة في الأصل. (المترجم)

أن ترتـدي قُفَّازهـا الجميـل، ففـي وسـعها أن تدَّخِـرَه لأنَّ أختهـا قـد صنعتـه مـن أجلهـا. أتصـوَّر أنَّهـا سـوف تسـتمتع باللهـو بدُميـة الرَّجُـل الصغـير. أخبِريهـا أن تهـزَّه، وعندهـا سـوف ينفـخ في بوقِـه. أشـكرُ أبي العزيـز لأنَّـه أرسـل لي بعـضَ المـال كي أشـتري هدايـا مـن أجـل أصدقـائي. أنـا أحـبُّ أن أجعـل الجميـع سُـعداء. إنَّنـي أودُّ أن أكـون في البيـت يـوم الكريسـماس. إنَّـا لنكـون جِـدَّ سُـعداء معًـا. أُفكِّـرُ في بيتـي الجميـل كلَّ يـوم. لا تنسـوا رجـاءً أن تُرسـلوا لي بعـض الهدايـا الجميلـة كي أُعلِّقهـا عـلى شـجرة العيـد. سـيكون عنـدي شـجرة الكريسـماس، في الـدَّار، وسـوف تُعلَّـقُ عليهـا مُعلِّمتـي كل هدايـاي. سـوف تكـون شـجرة مُثـيرة للضحـك. كلُّ البنـات قـد عُـدنَ إلي بيوتهـنَّ لقضـاء الكريسـماس. مُعلِّمتـي وأنـا هـما الصَّغيرتـان المتبقِّيتـان لـدى السـيدة هوبكنـز كي تعتنـي بهـما. لازَمَـت معلِّمتـي السريرَ لعـدَّة أيَّـام لأنَّهـا كانـت مريضـة. حَلْقُهـا كان متقرِّحًـا جـدًّا وكان الطبيـب يـرى أنَّ عليهـا الذَّهـاب إلى المستشـفى، لكنَّهـا الآن بحـالٍ أفضـل. أنـا لم أمـرض أبـدًا. الفتيـات الصغـيرات بخـير حـال كذلـك. سـوف أقـضي نهـار يـوم الجمعـة بصحبـة أصدقـائي الصِّغـار: كاري، إيثِـل، فرانـك، و هيلـين فريمـان. سـوف نقـضي وقتًـا مرِحًـا أنـا متأكِّـدة.

السَّـيِّد والسـيِّدة إنديكـوت قـد أتيـا لزيـارتي، و ذهبـتُ في نُزهـةٍ بالعربـة. إنهـا ينتويـان إعطـائي هديـةً فاتنـة، لكـن لا أسـتطيع أن أخمِّـن مـاذا سـوف تكـون. سـامي لديـه الآن أخٌ عزيـزٌ صغير. مـا يـزال بعـدُ غضًّـا رقيـقَ العُـود. السـيد أناجنـوس موجـود بأثينـا في الوقـت الحـالي. هـو مـسرورٌ لأنَّنـي هُنـا. الآن، لا بـدَّ أن أقـول وداعًـا. أتمنّـى أن أكـون قـد كتبـتُ خِطـابي عـلى نحـوٍ مُتقَـن، غـير أنَّـه مـن الصَّعـب الكتابـةَ عـلى هـذا الـورق، ومُعلِّمتـي ليسـت هُنـا كي تُعطينـي ورقًـا أفضـل منـه. قَبِّـلي عنِّـي أختـي الصغـيرة قبـلاتٍ كثـيرة، وأبلغـي وافـر محبَّتـي للجميـع.

مَحبَّتي

هيلين.

إلى الدكتور إدوارد إيـڤـيرِت هال

جنوب بوسطن، 8 يناير، 1890.

عزيزي السيِّد دكتور هال:

لقـد وَصَلَـت القواقـعُ الجميلـة الليلـة الماضيـة. أشـكرك كثـيرًا للغايـة عليهـا. سـأظلُّ أحتفِـظُ بهـم دومًـا، وسـيُبهِجُني للغايـةِ حـين أتذكَّـر أنَّـكَ وجدتهـم في تلـك الجزيـرة البعيـدة، التـي أبحـرَ منهـا كولومبـوس كي يكتشـف وطننـا العزيـز. حـين يصبـح عمـري أحـد عـشر عامًـا سـيكون قـد مـرَّ أربعمائـة عـامٍ منـذ أن شرَعَ في اجتيـاز المحيـط الواسـع الغامـض، بمعونـةِ السُّـفن الصغـيرة الثَّلاث. لقـد كان شُـجاعًا جـدًّا. البنـات الصغـيراتُ فرِحـنَ جـدًّا عندمـا رأيـنَ القواقـع الفاتنـة. لقـد أخبرتُهـنَّ بـكلِّ مـا كنـتُ أعرفـه عنهـا. أأنـتَ سـعيدٌ لأنَّـك تمكَّنـتَ مـن جَعـل الكثيريـن سُـعداء؟ إنَّنـي كذلـك. لسـوف أكـون سـعيدةً حـين آتي إليـكَ وأعُلِّمُـكَ طريقـةَ الكتابـة ببرايـل يومًـا مـا- هـذا إن كان لديـكَ الوقـتُ كي تتعلَّـم، لكـن أخـشى أنَّـكَ مشـغولٌ جـدًّا. منـذ بضعـةِ أيَّـامٍ تلقَّيـتُ صندوقًـا صغـيرًا مـن زهـور البنفسـج الإنجليزيـة مـن ليـدي مِيـث. كانـت الزُّهـور ذابلـة، لكـنَّ الشُّـعور الطيِّـبَ الـذي صاحبهـا وتسـبَّب في مجيئهـا كان جميـلًا ونقيًّـا وجعـل الزُّهـور نَـضِرةً كـما البنفسـج المقطـوف للتَّـوّ.

تحيَّـاتي ومحبَّتـي إلى أبنـاء الخـال الصِّغـار، ولمـدام هـال، ومنِّـي إليـكَ قُبلـة،

من صديقتك الصغيرة

هيلين آ. كيلر.

هـذا الخِطـاب -وهـو أوَّلُ الخِطابـات التـي كتبتها هيلـين إلى الدكتـور هولمـز، تمامًـا عقِـبَ زيارتهـا لـه- نـشره في دوريَّـة "Over the Teacups".

إلى الدكتور أوليڤـار وِندِل هولمز

جنوب بوسطن، ماساتشوستس، 1مارس، 1890.

عزيـزي الشـاعر الطَّيِّـب:- لقـد كنـتُ أفكِّـرُ فيـك مـرَّاتٍ عِـدَّة منـذ يـوم الاثنـين البهـيِّ، ذاك حـين لوَّحـتُ لـكَ أنْ "مـع السـلامة"، وإنِّي لماضيـةٌ في كتابـةِ خطـابٍ لـك؛ لأنَّنـي أُحبُّـك. أنـا آسـفة لكونـكَ ليـس لديـكَ أطفـالٌ صِغـارٌ كي تلعـب معهـم في بعـض الأحيـان، لكـن أنـا أظـنُّ أنَّـكَ سـعيدٌ للغايـة بكُتُبِـك، وبأصدقائـك كثيريـن جـدًّا. أتى جَمـعٌ غفـيرٌ مـن النـاس في حفلـة عيـد الميـلاد بواشـنطن كي يـروا الأطفـال المكفوفـين، ولقـد ألقيـتُ عليهـم طَرَفًـا مـن قصائـدك، وأريتُهـم بعضًـا مـن القواقـع الجميلـة، التـي قـد أُتِيَ بهـا مـن جزيـرةٍ صغـيرة بقُـرب جزيـرة پـالوس.

أنـا أقـرأ في الوقـت الحـالي قِصَّـةً حزينـة، اسـمها "چـاكي الصَّغير". چـاكي هـو أعـذبُ صديـقٍ صغـير يمكـن أن تتصـوَّره، إلَّا أنَّـه كان فقـيرًا ومكفوفًـا. كنـتُ أحسـبُ -عندمـا كنـتُ ضئيلـةَ الفِكـر والشـأن، وقبـل أن أتعلَّـم القـراءة- أنَّ جميـع النـاس سُـعداء عـلى الـدَّوام، وقـد جعلنـي هـذا في بـادئ الأمـر تعيسـةً للغايـة بمـا عاينـتُ مـن ألمٍ ومـن كَـربٍ عظيـم، لكنِّـي الآن أُدركُ أنَّنـا لم نكـن لنتعلَّـمَ أبـدًا أن نكـون شُـجعان وحليمـين، إن كان المـرح هـو الـشيء الوحيـد القائـمُ في العـالم.

أدرسُ الآن عـن الحـشرات في علـم الحيـوان، وقـد تعلَّمـتُ الكثـير مـن الأشـياء عـن الفراشـات. إنَّ الفراشـات لا تصنُـع لنـا عسـلًا كـما يفعـل النَّحـل، لكـنَّ كثـيرًا منهـا بهـيٌّ كـما الزُّهـور التـي تصادِفهـا وتحـطُّ فوقهـا، وإنَّهـا لطالمـا تُدخِـلُ الـسُّرورَ عـلى قلـوب الأطفـال الصِّغـار. إنهـا تحيـا حياةً مرِحـة؛ فهـي ترتحِـلُ مُرفرِفَـةً مـن زهـرةٍ إلى زهـرة، ترشُـف قطـرات الـمَنِّ،

دون أن تشغلَ فِكرها بالغد. إنَّها تُشبه تمامًا الأولاد والبنات الصِّغار عندما ينسون أمرَ كُتُبِهم ودراستِهم، ويركضون مُبتعدين نحو الغابات والحقول، كي يجمعوا الزهور البرِّيَّة، أو يخوضوا في البِرَكِ ليحصلوا على اللياليكِ العَطِرَة، وهُم سُعداء ينعمون بضوء الشَّمسِ السَّاطِع.

إن أتت أختي الصغيرة إلى بوسطن في شهر يونيو القادم، هل تسمح لي أن آتي وإيَّاها كي تزورك؟ إنَّها طِفلة حَبُوبة، وأنا متأكِّدة أنَك سوف تُحبُّها.

لا بدَّ أن أقول لك الآن وداعًا يا شاعري النَّبيل؛ فلديَّ خِطابٌ لأهل بيتي عليَّ أن أكتبه قبل أن أخلد إلى النوم.

من صديقتك الصغيرة الـمُحِبَّة،

هيلين آ. كيلر.

إلى الآنسة ساره فولَر[1]

بوسطن، ماساتشوستس، 3 أبريل، 1890.

عزيزتي الآنسة فولَر،

إنَّ قلبي ليفيض بالسَّعادة في هذا الصَّباح الجميل؛ لأنَّني قد تعلَّمتُ أن أنطِق بالكثير من الكلماتِ الجديدة، وأستطيع أن أصيغَ بعض الجُمَل. في الليلة الماضية خرجتُ إلى فناء البيت وأخذتُ أتحدَّثُ إلى القمر. لقد قلت له: "أيا أيُّها القمر، تعال إليَّ!". أتعتقدين أنَّ القمر الفاتن كان سعيدًا، لأنَّني تمكَّنتُ من التحدُّثِ إليه؟ كم ستفرحُ أمي بهذا. إنَّني لأتحرَّقُ شوقًا لمجيء شهر يونيو لأنَّني أتوق إلى التحدُّث إليها وإلى أختي الصغيرة الغالية. لم تتمكَّن ملدرد من

(1) الآنسة فولر هي مَن أعطت هيلين كيلر أول درس في النطق.

فَهمي حين كنتُ أتحدَّث باستخدام أصابعي، لكنَّها الآن سوف تجلس في حضني وسوف أخبرها بالكثير من الأشياء كي أُدخل عليها السرور، سوف نكون سعداء بُصحبة بعضنا بعضا. هل أنتِ سعيدة جدًّا جدًّا لأنه باستطاعتكِ أن تجعلي الكثير من الناس سُعداء؟ أظنُّ أنَّكِ طيِّبةٌ جدًّا و صَبورة، وأنا أحبُّكِ كثيرًا جدًّا. مُعلِّمتي أخبرتني يوم الثلاثاء أنَّكَ ترغبين في معرفة كيف تطوَّرتُ لأصِل إلى أمنية التحدُّث بفمي. سأحكي لكِ كلَّ شيءٍ عن الأمر، فأنا أتذكَّرُ أفكاري كلها كاملة. عندما كنتُ صغيرة جدًّا اعتدتُ أن أجلس في حضْنِ أمي طول الوقت؛ لأنَّني كنتُ جبانة جدًّا، ولم أكن أبتغي أن أُترَكَ وحدي. وكنتُ لأضع يدي على وجهها طول الوقت؛ لأنَّه كان يُسلِّيني أن أتحسَّسَ وجهها وشفتيها وهما تتحرَّكان عندما كانت تتحدَّث مع الناس. لم أكن أعلم ما الذي كانت تفعله- نظرًا إلى أنِّي كنتُ جاهلة تمامًا بكلِّ شيء. ثمَّ عندما صِرتُ أكبَرَ تعلَّمتُ أن ألعب مع مُربِّيَتي ومع الأطفال الصِّغار من الزنوج، ولاحظتُ أنَّهم كانوا يواصلون تحريك شفاههم، كما تفعل أمي تمامًا، لذا كنتُ أحرِّكُ شفتَيّ أنا أيضًا، لكن كان ذلك يجعلني أحيانًا غاضبةً جدًّا وكنتُ لأقبض بخشونة شديدة على شِفاه رفاقي في اللعب. لم أكن أدرك أنّ ما كنتُ أفعله وقتها كان تصرُّفًا سيِّئَ السلوك بشكلٍ بالغ. وبعد فترةٍ طويلة أتتني مُعلِّمتي العزيزة، وعلَّمَتني أن أتواصلَ باستخدام أصابعي وكنتُ بهذا راضيةً وسعيدة. غير أنَّني عندما زُرتُ إحدى المدارس في بوسطن، التقيتُ بعض النَّاس الصُّمِّ الذين كانوا يتحدَّثون من خلال أفواههم مثل جميع البشر الآخرين، وذاتَ يوم، قدِمَتْ لتراني إحدى السيدات ممن أتينَ إلى نوروايِ، وأخبرتْني عن بنت صمَّاء وعمياء[1] كانت قد رأتها في تلك الأراضي البعيدة؛ وقالت لي إنَّها قد عُلِّمَت أن تتحدَّثَ مع الآخرين وتفهمهم عندما كانوا يتحدَّثون إليها. لقد أبهجني ذلك النَّبأ السارُّ السعيد إلى

(1) Rignhild Kaata رينالد كاتا.

أقـصى الحـدود، عندئـذٍ صِرتُ عـلى يقـينٍ أنَّـه ينبغـي عـليَّ أنـا أيضًـا أن أتعلَّـم الـكلام. حاولـتُ أن أُصـدِرَ أصواتًـا كـما يفعـل رفاقـي الصِّغـار في اللعــب، لكـنَّ مُعلِّمتـي أخبرتنـي أنَّ صـوتي كان هزيـلًا جـدًّا وواهنًـا، وأنَّ قيامـي بنطـق الأصـوات عـلى نحـوٍ خاطـئ مـن شـأنه أن يـؤذي صـوتي، ووعدتنـي بـأن تأخـذني إلى سـيِّدةٍ طيِّبـةٍ وحكيمـة، سـتعلِّمني هـي الأمـر عـلى النحـو الصحيـح. تلـكَ السـيِّدة كانـت هـي أنـتِ. إنَّنـي الآن سـعيدةٌ سـعادة الطيـور الصغـيرة، لأنَّنـي أسـتطيع أن أتكلَّـم ورُبمـا حتَّـى أسـتطيع أن أغنِّـي أيضًـا. سـوف يُدهَـشُ ويسـعَدُ كلُّ أصدقـائي بهـذا.

تلميذتكِ الصغيرة الـمُحِبّة.

هيلين آ. كيلر.

عندمـا أغلـق معهـد بيركنـس أبوابـه بسـبب إجـازة الصيـف، ذهبـت هيلـين والآنسـة ساليـڤـان إلى توسـكامبيا. كانـت تلـك أول أوبَـةٍ إلى البيـت بعـد أن قـد تعلَّمَـت أن "تتكلَّـم عـبر فمهـا".

إلى نيافة الأسقف فيلبس بروكس

توسكامبيا، ألاباما، 14 يوليو، 1890.

عزيـزي السـيد بروكـس، إنَّنـي سـعيدةٌ جـدًّا بكتابتـي إليـك في هـذا الصبـاح الجميـل، لأنَّـكَ صديقـي الطَّيِّـب، وأنـا أُحبُّـك، ولأننـي أودُّ أيضًـا أن تعـرف عـن الكثـير مـن الأشـياء. لقـد عُـدتُ إلى البيـت منـذ ثلاثـة أسـابيع، يـاه! كـم أنـا سـعيدة برفقـة أمِّـي العزيـزة وأختـي الصغـيرة الغاليـة. لقـد كنـتُ حزينـة جـدًّا جـدًّا بفراقـي جميـع أصدقـائي في بوسـطن، لكنِّـي كنـتُ أتشـوَّف لرؤيـة أختـي الحبيبـة ولا أطيـقُ صـبراً حتَّـى يـأتي القِطـار ويأخـذني إلى البيـت. غـير أني جاهـدتُ بصعوبـة لأكـون صبـورة لأجـل

خاطـر مُعلمتـي. لقـد كـبرت ملـدرد وصـارت أطـولَ قامـةً وأشـدَّ عـودًا عـمَّا كانـت عليـه عندمـا ذهبـتُ إلى بوسـطن، إنَّهـا أعـزُّ وأحـلى طفلـة صغـيرة في العـالم. لقـد ابتهـجَ والـديَّ عنـد سـماعي وأنـا أتكلَّـم، وكنـتُ أفيـض بالسَّـعادة جـرَّاء مـا وهبتُهـما إيَّـاه مـن مفاجـأةٍ مدهشـةٍ كهاتِـه. أظـنُّ أنَّـه مـن المفـرح جـدًّا أن تجعـل الجميـع سُـعداء. لمـاذا يظـنُّ أبونـا الـذي في السـماء أنَّـه مـن الأصلـح لنـا أن نشـعر بكَـربٍ عظيـمٍ جـدًّا أحيانًا؟ إنَّنـي سـعيدةٌ عـلى الـدَّوام، وكذلـك كان اللـورد فونتليـوري الصَّغـير، لكـنَّ حيـاةَ العزيـز چـاكي الصغـير كانـت تطفـرُ بالحُـزن. إنَّ الله لم يُنعِـم بالنُّـور عـلى عـينِ چـاكي؛ فقـد كان مكفوفًـا، ولم يكـن والـده لطيفًـا معـه ولا مُحبًّا. أتعتقـد أنَّ چـاكي المسـكين كان يحـبُّ أبـاه الـذي في السَّـماء أكـثر لأنَّ أبـاه الآخـر كان فظًّـا معـه؟ كيـفَ أخـبرَ اللهُ النَّـاسَ أنَّ بيتـه في السـماء؟ عندمـا يرتكـبُ النـاس الأخطـاء ويـؤذون الحيوانـات ويعاملـون الأطفـال بفظاظـة فـإنَّ الله ليأسـف لفِعالهـم هـذه، لكـن مـاذا سـوف يفعـل معهـم كي يُعلِّمهـم أن يكونـوا مُحِبِّـين ورُحـماء؟ أظـنُّ أنَّـه سـوف يُحقِّـقُ ذلـك بـأن يُخبرهـم كـم هـو يحبُّهـم ويعزُّهـم وأنَّـه يرغـب لهـم أن يكونـوا صالحـين وسُـعداء، وبهـذا لـن يرغبـوا أن يُغضِبـوا أباهـم الـذي يحبُّهـم كثـيرًا جـدًّا، وسـوف يرغبـون أن يُدخلـوا عليـه الـسرور في كلِّ شيء يفعلونـه، وبهـذا سـوف يحـبُّ بعضُهـم بعضًـا ويُحسـنون إلى بعضهـم البعـض، ويكونـون رُحـماء بالحيوانـات.

أخـبرني رجـاءً شـيئًا أنـتَ تعرفُـه عـن الله. إنَّ ذلـك ليجعلنـي سـعيدةً أن أعـرفَ المزيـد عـن أبي الـمُحبّ، الطَّيب الحكيـم. أتمنَّـى أن تُكاتِب صديقتك الصغـيرة عندمـا يكـون عنـدك وقـت. إنَّنـي أودُّ أن لـو أراكَ اليـوم. هـل حـرارة الشَّـمس عاليـة جـدًّا في بوسـطن هـذه الفـترة؟ إن كان الجـوُّ مناسـبًا ظهـيرة هـذا اليـوم؛ فسـوف آخـذ ملـدرد في نزهـة عـلى ظَهـر حـماري. لقـد أرسـل السـيد ويـد إليَّ نيـدِّي، وهـو أجمـل حـمارٍ يمكنـكَ أن تتخيَّلـه.

كلبتي الكبيرة لايونس تأتي معنا كي تحمينا حين نخرج في نزهة. أخي سيسمون جلب لي أمس ليالِكَ من البِركة- إنَّه أخي المخلِص.

مُعلِّمتي تُرسل إليكَ تحيَّاتها، وأبي وأمِّي يبعثان أيضًا إليك بالسلام.

من صديقتك الصغيرة المحِبَّة

هيلين آ. كيلر.

ردُّ دكتور بروكس

لندن، 3 أغسطس، 1890.

عزيزتي هيلين- سُعدتُ كثيراً حقًّا عندما وصلني خطابك. لقد تعقَّبَني عبر المحيط ووجدني في تلك المدينة الكبيرة الباهرة، والتي سوف أحكي لكِ كلَّ شيءٍ عنها إن استطعتُ توفير الوقت لفِعل هذا، وإن استطعتُ أن أجعل خطابي طويلًا بما يكفي. يومًا ما، عندما تأتين وترينني وأنا في فصلي الدراسي ببوسطن؛ فسوف أكون سعيدًا بأن أتحدَّثَ معكِ عن كلِّ ذلك إن رغبتِ في السَّماع.

لكنِّي الآن أبتغي أن أخبركِ كَم أنا مسرورٌ أنَّكِ سعيدة للغاية وتستمتعين كثيراً بإقامتكِ في بيتِك. يمكنني تقريبًا أن أتخيَّلكِ وأنتِ برفقة والدك ووالدتك وأختك الصغيرة، بكلِّ بهاءِ الريف الجميل ذاك فيما حولك، وإنَّه ليجعلني جِدَّ مسرورٍ أن أعرف كم أنَكِ مسرورة للغاية.

إنَّه ليسرُّني كذلك بأن أعرف -مُستَشِفًّا من الأسئلة التي تسألينني إيَّاها- عمَّا يشغل تفكيرك. لا أدري كيف يسعفنا التفكير بشأن الله عندما يكون هو معنا جِدَّ عطوفٍ طول الوقت. دعيني أُخبركِ كيف يبدو لي الأمر أن نصل إلى المعرفة عن أبينا السماويِّ. إنَّ ذلك يتأتَّى من قوَّة المحبَّة التي هي موجودة داخلَ قلوبنا ذاتها. إنَّ المحبَّة

تسكنُ روحَ كلِّ شيء. أيُّ شيءٍ لا تهيمن عليه قُوَّةُ المحبَّة، مهما كان، لا بُدَّ وأن يحيا فِعلًا حياةً جِدَّ كئيبة. إنَّه ليروقُنا أن نعتقدَ بأنَّ ضوءَ الشمس والرياح والأشجار قادرةٌ بذواتها على أن تُحبَّ بطريقةٍ ما، وهو ما يجعلنا نعرف أنَّها سعيدة إن كُنَّا ندرك أنَّ بإمكانها أن تُحِبَّ. وكذلك هو الله؛ أعظمُ الكائناتِ قاطبةً وأكبرها سعادة لهُوَ أعظمُ المحبِّين أيضًا. إنَّ كلَّ المحبَّة التي تكمنُ في قلوبنا مُستمدَّةٌ منه، تمامًا كما أنَّ النُّورَ الذي يُبْتَعَثُ من الزُّهور يأتي من ضَوءِ الشمس. وكُلَّما أحببنا أكثر، كُلَّما صِرنا أقربَ إلى الله وأدنى إلى حبِّه.

أخبرتُكِ أنَّني كنتُ جِدَّ سعيدٍ بسببِ سعادتك. أنا حقًّا سعيد. وكذلك أبوكِ وأُمُّكِ ومُعَلِّمَتُكِ وجميع أصدقائك. لكن ألا تعتقدينَ أنَّ الله أيضًا سعيدٌ لأنَّكِ سعيدة؟ إنَّني على يقينٍ أنَّه كذلك. وأنَّه أكثرُ سعادةً من أيٍّ منَّا لأنَّه يفوقُ عظَمَةً أيَّ كائنٍ مِنَّا، ولأنَّه أيضًا لا يرى سعادتك فحسب كما نراها نحن أيضًا؛ بَل إنَّه يكون المسبِّب لها. إنَّه يهَبُكِها كما تهبُ الشمسُ النُّورَ واللونَ للوردة. ونحن نكون دومًا في أقصى حالات السعادة ليس لمجرَّد رؤية ما يُسعِدُ أصدقاءنا؛ إنَّما بما نمنحهم إيَّاه كي يسعدوا به. ألسنا كذلك؟

لكنَّ الله لا يرغبُ لنا أن نكونَ سعداءَ فحسب؛ إنَّه يريدنا أن نكون صالحين. إنَّه يريد لنا ذلك أكثر من أيِّ شيء. إنَّه عليمٌ بأنَّنا نستطيعُ أن نكون سعداء حقًّا عندما نكون صالحين. إنَّ في العالم قَدرًا عظيمًا من المشاكل هي في الحقيقةِ علاجٌ من المؤلِم أن نتجرَّعَه، غيرَ أنَّه من الصَّالح لنا أن نأخذه؛ لأنَّه يجعلنا أفضل حالا. إنَّنا نشهدُ كم يكون النَّاس صالحين حال وقوع المشاكل العظيمة، عندما نتذكَّر يسوع الذي كان أعظم مَن عاني مِمَّن عاش على الأرض مُطلقًا، وما يزال بعدُ هو أعظم موجودٍ، وبهذا؛ إنَّني على يقينٍ أنَّه أسعدُ موجودٍ عرفه العالم على الإطلاق.

إنَّني أحبُّ أن أحكي لكِ عن الله. لكنَّه سوف يخبركِ بنفسِه عن ذاتِه عبرَ المحبَّة التي سوف يضعها في قلبك إن سألتِه هذا. وكذلك يسوع، الذي هو ابنه، لكنَّه أقرب إليه منَّا أجمعين، نحن أبناءه الآخرين؛ فقد أتى إلى العالم عن سابق تدبير؛ كي يخبرنا بكلِّ شيءٍ عن محبَّة أبينا. إن تقرئي كلماتِه؛ سترين كم أنَّ قلبَهُ عامرٌ بحبِّ الله. "إنّنا نعلم أنَّه يحبُّنا"، هكذا يُخبِر. وبأنَّه ذاته أحبَّ البَشَر، ورغم ذلك كانوا قاسين معه وقتلوه في نهاية الأمر، لقد كان راغبًا في الموت فِداءً لهم لأنَّه أحبَّهم على هذا النَّحو. و.. يا هيلين، إنَّه ما يزال يحبُّ البشر، ويحبُّنا، ويخبرنا بهذا عسى أن نحبَّه.

وبهذا فالمحبَّة هي كلُّ شيء. وإن سألكِ أيُّ إنسان، وإن ساءَلتِ أنتِ نفسك عن ماهيَّةِ الإله، فالإجابة هي: "الله مَحَبَّة". إنها تلك الإجابة الرائعة التي يقدِّمها لنا الكتاب المقدَّس.

إنَّ كلَّ ذلك هو ما عليكِ أن تفكِّري فيه، ولسوف تستوعبينه أكثرَ وأكثر كلَّما كَبُرتِ. فكِّري فيه الآن، ودعيه يجعل كلَّ بركةٍ وضَّاءةً أكثر؛ لأنَّ أباكِ العزيز هو مَن يُرسِلُها إليكِ.

سوف تعودين إلى بوسطن، أتمنَّى أن يكون ذلك قريبًا قبل أن آتي أنا. سأتواجدُ هناك إبَّان منتصف شهر سبتمبر. إنَّني لأتوقُ أن تُخبريني بكلِّ شيء، ولا تنسَيْ الحِمار.

أبعثُ إلى والدِكِ ووالدتِكِ بتحيَّاتي الحارَّة، وأيضًا إلى معلِّمتِك. أتمنَّى أن لو استطعتُ رؤية أختكِ الصغيرة.

وداعًا يا هيلين العزيزة. اكتبي لي مَرَّةً أخرى عمَّا قريب، ووجِّهي خطابكِ على عنواني ببوسطن.

صديقكِ المُحِبُّ

فيلبس بروكس.

ردٌّ دكتور هولمز

وهو ردٌّ على خِطاب مفقود.

بِـڤـيرلي فارمز، ماساتشوستس، 1 أغسطس، 1890.

صديقتي العزيزة الصغيرة هيلين:

استلمتُ خِطـابَ الترحيـب الـذي أرسـلتِه منـذ عـدة أيَّـام، لكـن عنـدي قَـدرٌ كبـيرٌ مـمَّا يجـب أن يُكتَـب؛ مـا يجعلنـي عُرضـةً لإبقـاء خِطابـاتي في حالـة انتظـار لفـترةٍ طويلـة قبـل أن يُـردَّ عليهـا.

إنَّــه لمِـمَّا يـسرُّني كثـيرًا أن أجـدكَ تتذكَّرينني بمِثــل هــذا اللطــف. خطابـكِ خطـابٌ فاتـن، وقـد أدخـل عـلى نفـسي سرورًا عظيـما. وإنِّي لمبتهـجٌ بمعرفـةِ أنـكِ سـعيدةٌ وبخـير حـال. أنـا جِـدّ مـسرورٍ بسـماعي عـن المهارات الجديـدة التـي اكتسـبتها- بأنَّـكِ "تتكلَّمـين بفمـك" عـلى نفـس القَـدر مـن الإجـادة كـما تفعلـين بأصابعـك. كـم هـو مثـيرٌ للفضـول أمـرُ الـكلام! إنَّ اللسـانَ عضـوٌ جسـديٌّ خَـدوم (فهـو يتَّخـذُ كلَّ التشـكُّلات، تمامًـا كـما هـو مُـرام)- والأسـنان، الشـفاه، سـقف الفَـم، جميعهـا عـلى أهبة الاسـتعداد لأن تقـدِّمَ العَـون، وهكـذا يتجـلَّى رنـين الصـوت في الوحـدات المجسَّـمة، التـي نُطلِـقُ عليهـا السَّـواكن (الحـروف السـاكِنة)، وتهيِّـيءُ حيِّـزًا لأجـل ظهـور الأنفـاس المتشـكِّلة عـلى نحـوٍ يثـير الفضـول فيـما نُطلِـقُ عليـه: الصَّوائـت! (الحـروف المتحرِّكـة). لقـد درسـتِ أنـتِ كلَّ ذلـك، لا شـكَّ عنـدي في هـذا؛ بمـا أنـكِ قـد تدرَّبـتِ عـلى الإبانـة بواسـطة التكلُّـم بصوتـك.

إنَّنــي مندهــشٌ مــن الإتقــان اللُّغــوي الــذي يُظهــره خِطابــك. إنَّ ذلــك يجعلنـي أعتقـد تقريبًـا أنَّ العـالم كان ليمـضي أمـرُه عـلى نحـوٍ جيِّـدٍ دون حاسَّـتَيْ الرؤيـة والسَّـمع، كـما هـو حالـه بهـما. ربمـا كان النَّـاس لِيصبحـوا أحسـن حـالًا في العديـد مـن النَّواحـي؛ فلـن يكـون باسـتطاعتهم أن يتقاتلوا

كـما هـم يفعلـون الآن. فَكِّـري فقـط في جيـش مـن البـشر العميـان، بحوزتِهـم مدافـع وبنـادِق! فكِّـري في قارعـي الطُّبـول المسـاكين! أيُّ فائـدةٍ ستُرجى منهـم ومـن عِـصيِّ طبولهـم؟ فأنـتِ عندئـذٍ تكونـين مسـتثناة مـن ألم الكثـير مـن الأصـوات والمناظـر، حيـث تسـعدين بالـغ السـعادة فقـط بسـبب هروبـك منهـا. ثَـمّ فكِّـري في مقـدار التسـامح الـذي تكونـين عـلى يقـينٍ مـن وجـوده مـا دمـتِ تحيَـيْنَ سيشـعر الجميـع بالاهتـمام تجـاه العزيـزة الصغـيرة هيلـين، سـيرغب الجميـع في فِعـل شيءٍ مـا لأجلهـا، وحـين تصـير امـرأةً عجـوزًا، وقـد اشـتعل الـرأس منهـا شَـيْبًا، سـوف تظـلُّ عـلى يقـينٍ مـن كونهـا شـخصًا يُراعـى أمـرُه بحُسـن اهتـمام.

والـداكِ وأصدقـاؤك لا بُـدَّ وأنَّهـم يشـعرون برضًـا كبـيرٍ عـن تقدُّمِـك. إنَّ ذلـك لـمَفْخَرةٌ عظيمـة، ليـس لـكِ فحسـب، بـل لمعلِّميـكِ، الذيـن بجهودهـم هـذه قـد قوَّضـوا الحوائـط التـي كان يبـدو أنَّهـا تحتجـزُكِ فيـما وراءهـا، وصـارت نظرتـكِ للحيـاةِ الآن تبـدو أكـثر تفـاؤلًا وانشراحًـا عـن كثـيرٍ مـن الأطفـال ذوي السَّـمِع والبَـصر.

وداعًا يا عزيزتي الصغيرة هيلين! كلُّ الأمنيات الطيِّبة، من صديقك،

أوليـڤَـر وِندِل هولمز.

كُتِـبَ هـذا الخِطـابُ إلى بعـض الرجـال المحترمـين في غاردنيـر، بـمين، والذيـن كانـوا قـد أطلقـوا اسـم هيلـين كيلـر عـلى حاويـةٍ قديمـة.

إلى السَّادة في برادستريت

توسكامبيا، ألاباما، 14 يوليو، 1890.

أصدقـائي الأعـزاء الطَّيِّبـون:- إني لأشـكركم جـدًّا جـدًّا لأجـل تسـميتِكُم سـفينتكم الجديـدة الجميلـة عـلى اسـمي. إنـه ليجعلنـي جِـدَّ سعيدةٍ أن أعـرفَ أنَّ لي أصدقـاء مُحِبّـين و طيِّبـين في ولايـة مـين البعيـدة. لم أكـن أتصـوَّر عندمـا كنـتُ أدرس عـن غابـات مـين، أنَّ سـفينةً قويَّـة وجميلـة سـوف تبحـر في أنحـاء العـالم، حاملـةً الخشـب مـن تلـك الغابـات الكثيفـة؛ كي تبنـي بيوتًـا بهيجـة ومـدارس وكنائـس في بـلادٍ نائيـة. أتمنَّـى أن يحـبَّ المحيـطُ العظيـم هيلـين الجديـدة، وأن يسـمحَ لهـا بالإبحـار بأمـان فـوق أمواجـه الزَّرقـاء. أخـبِروا البحَّـارة المسـؤولين عـن سـفينة هيلـين كيلـر لـو سـمحتم، أنَّ هيلـين الصغـيرة التـي تمكـثُ في البيـت سـوف تفكِّـرُ فيهـم بأفـكارٍ مِلؤهـا المحبَّـة عـلى الـدَّوام. أتمنَّـى أن أراكـم وأرى سَـمِيَّتي يومًـا مـا.

مَحبَّتي، من صديقتكم الصغيرة

هيلين آ. كيلر.

مُرسلٌ إلى السَّادة في برادستريت.

عـادت هيلـين والآنسـة ساليـڤـان إلى معهـد بيركنـس في أوائـل شـهر نوفمـبر.

إلى السَّيِّدة كاتي آدامز كيلر

جنوب بوسطن، 10 نوفمبر، 1890.

أمِّـي العزيـزة:- لقـد كان قلبــي منشــغلًا بالتفكـير فيـكِ وفي بيتـي الجميـل مُـذْ أن افترقنـا للأسـف ليلـةَ الأربعاء.كـم أتمنَّـى أن لـو أسـتطيعُ رؤيتـكِ في هــذا الصبـاح الجميـل، وأحـكي لـكِ كلَّ مـا قـد حـدثَ منـذ أن غـادرتُ البيــت! وأختــي الصغـيرة الحبيبــة، كــم أتمنَّــى أن لـو كان باسـتطاعتي أن أُقبِّلهـا مائـة قبلـة! وأبي العزيـز، كـم كان ليسـعد حـين يسـمع عـن رحلتنـا! لكنِّـي الآن لا أسـتطيعُ رؤيتـكِ ولا الحديـثَ إليـكِ؛ لـذا سـوف أُكاتِبُـكِ وأقـول لـكِ كلَّ شيءٍ أسـتطيعُ أن أفكِّـرَ فيـه.

نحـن لم نصـل إلى بوسـطن حتَّـى صبـاح يـوم السَّـبت. يؤسـفُني القـولُ إنَّ قِطارنـا قـد تأخَّـر في عِـدة محطَّـات، وهـو مـا جعلنـا نصـل نيويـورك متأخِّريـن. عندمـا وصلنـا جـيرسي سِـتي في السادسـة مسـاء يـوم الجمعـة كُنَّـا مُجبَريـن عـلى اجتيـاز نهـر هارلِـم عـلى مـتن مَعدِّيَـة. وجدنـا أنَّ السـفر عـلى ظهـر القـارب وحاويـة النَّقـل أقـلّ صعوبـة كثـيرًا عـمَّا توقَّعـت المعلِّمـة. عندمـا وصلنـا إلى المحطَّـة أخبرونـا أنَّ القِطـار لـن يغـادر إلى بوسـطن حتَّـى السـاعة الثامنـة، لكنَّهـم أخبرونـا أنَّ باسـتطاعتنا أن نلحـق بقطـار النـوم في التاسـعة، وهـو مـا فعلنـاه. ذهبنـا للسريـر ونمنـا حتَّـى الصبـاح. وعندمـا اسـتيقظنا كنَّـا قـد وصلنـا بوسـطن. كنـتُ سـعيدة حـين وصلنـا، رغـم ذلـك كنـتُ خائبـة الرَّجـاء لأنَّنـا لم نصـل في موعـد عيـد مـيلاد السـيد أناجنـوس. عـلى كلٍّ، لقـد فاجأْنـا أصدقاءَنـا الأعـزَّاء؛ فهـم لم يكونـوا يتوقَّعـون مجيئنـا يـوم السـبت، لكـن حـين رنَّ جـرس البـاب حـزرت الآنســة مــارِّت مَــن بالبــاب، وهبَّــت مــدام هوبكنــز مــن عــلى مائـدة الإفطـار وهرعـت إلى البـاب كي تقابلنـا. لقـد كانـت فِعـلًا مندهشـةً لرؤيتنـا. بعـد أن تناولنـا شـيئًا مـن وجبـة الإفطـار صعدنـا لـنرى السـيد أناجنـوس. لقـد كنـتُ أطفـر بالفـرح لمـرأى صديقـي الأعـزِّ والأطيـب مـرَّةً

أخـرى. أعطـاني سـاعة جميلـة. إنَّهـا معـي أشـبكها بدبُّـوس في ملابـسي. أسـتطيع أن أخـبرَ الجميـعَ بالوقـتِ عندمـا يسـألونني عنـه. لقـد رأيـتُ السـيد أناجنـوس مرَّتـين فحسـب. عنـدي كثـيرٌ مـن الأسـئلة أودُّ أن أطرحهـا عليـه بخصـوص البـلاد التـي قـد زارهـا. لكنِّـي أعتقـد أنَّـه الآن مشـغولٌ جـدًّا.

المرتفعـات في ڤِرچـينيا جِـدّ فاتنـة. لقـد كسـاها چـاك فروسـت باللون الذَّهبـي والقرمـزيِّ. كان المنظـرُ سـاحِرًا ومُثـيرًا للخيـال إلى أقـصى حـدٍّ. إنَّ پـنسِلـڤـانيا ولايـةٌ بالغـة السِّـحر. العُشـب كان أخـضر، تمامًـا كـما لـو كان الوقـتُ ربيعًـا، وحبَّـات الـذُّرة الذهبـيِّ الشَّـبيهةِ بـالآذانِ التـي تجمَّعت مع بعضهـا البعـض في أكـوامٍ وسـط الحقـول الفسـيحة قـد بـدت فاتنـةً للغاية. رأينـا في هارِسْـبيرغ حـمارًا يشـبه نيـدي. كـم أتمنَّـى أن لـو كنـتُ أسـتطيعُ أن ألمـس حـماري وأن ألــمَسَ عزيـزتي لايونِـس! أيفتقـدان سـيِّدتهما كثـيرًا جـدًّا؟ أخـبري ملـدرد أن تكـون طيبـةً معهـما لأجـل خاطـري.

حُجرتُنا بهيجةٌ ومُريحة.

آلــةُ الكتابـة خاصَّتـي قـد أُصيبـت بـأَذًى وهـي في طريقهـا إليَّ. لقـد كُـسِرت حقيبتهـا، وخرجـت منهـا وتبعـثَرَت جميـع المفاتيـح تقريبًـا. سـوف تــرى مُعلِّمتــي إن كان بالإمــكان إصلاحُهــا.

ثمَّــة العديـد مـن الكتـب الجديـدة في المكتبـة. يـا لـه مـن وقـتٍ لطيـف ذلـك الـذي أقضيـه في قراءتِهـا! لقـد قـرأتُ بالفعـل قِصَّـة سـاره كُـرو. إنَّهـا قصَّـةٌ رائعـةٌ للغايـة، وسـوف أحـكي لـكِ بعضًـا منهـا يومًـا مـا. أمَّـا الآن يـا أمِّـي الحبيبـة، لا بُـدَّ لابنتـك الصغـيرة أن تقـولَ وداعًـا.

مـع الكثـير مـن المحبَّـة لأبي، و لملـدرد، ولـكِ ولـكل الأصدقـاء الأعـزاء، مَحبَّتـي، ابنتـك الصغـيرة،

هيلين آ. كيلر.

إلى چون غرينليف وايتيير

جنوب بوسطن، 17 ديسمبر، 1890.

عزيزي الشاعر الطَّيِّب،

إنَّ اليوم هو يوم عيد ميلادِك؛ تلك كانت أولَ فكرةٍ خطرت على بالي عندما استيقظتُ من النوم هذا الصباح، وقد جعلني هذا سعيدة حين فكَّرتُ أنَّ بإمكاني أن أكتب إليكَ خطابًا وأخبرَك كم يحبُّ أصدقاؤك الصِّغار شاعرهم الجميل ويحبُّون يوم ميلاده. إنَّهم مُقدِمون هذا المساء على أن يُشنِّفوا آذان أصدقائهم بالموسيقى وبقراءاتٍ لقصائدك. كم أتمنَّى أن تكون رُسلُ المحبَّة المجنَّحة الرشيقة ها هنا كي تحملَ إليكَ في قاعة الدراسة في ميرماي بعضًا من تلك الأنغام المبهجة. في بادئ الأمر كنتُ حزينة جدًّا عندما وجدتُ أنَّ الشمس قد حجبت ضوء مُحيَّاها خلف الغماماتِ الكثيفة، لكنِّي فكَّرتُ فيما بعد في سبب فِعلها ذاك، وعندئذٍ كنتُ سعيدة. إنَّ الشَّمسَ تعرف أنَّكَ تحبُّ أن ترى العالم وقد كَسَتْهُ الثلوج البيضاء الجميلة؛ لذا أخفَت كلَّ سطوعها، وسمحت للكريستالات الصغيرة بأن تتشكَّل في السماء. عندما تكون الكريستالات قد تهيَّأت، بوداعةٍ سوف تسَّاقطُ، وبنعومةٍ سوف تغطِّي كلَّ شيء. ومن ثمَّ سوف تتجلَّى الشمسُ وهي في كامل بهائها وتملؤ العالم بالضِّياء. لو كنتُ في معيَّتكَ اليوم لكنتُ أعطيتُكَ ثلاثًا وثمانين قُبلة، قبلة عن كلِّ سنةٍ قد عِشتَها. ثلاثًا وثمانون سنةً تبدو دَهرًا طويلًا بالنسبة لي. أتَبدُو مدَّةً طويلةً بالنسبة لك؟ إنَّني لأتساءل؛ كم هو عدد السنوات سوف يكون عُمرُ الأبديَّة. أخشى أنَّني لا أستطيع التفكير في هذا لوقتٍ طويل. لقد استلمتُ الخِطابَ الذي كتبتَهُ لي الصيف الماضي، وإنِّي لأشكرَك عليه. أنا ماكثةٌ في بوسطن في الوقت الحالي في معهد بيركنس للمكفوفين، لكنِّي لم أُنهِ دراساتي وأَنَلْ شهادةً بعد؛ لأنَّ صديقي الأعزَّ السيد أناجنوس يرغب لي أن أرتاح وأن أنالَ قدرًا كبيرًا من اللهو.

مُعلِّمتي على ما يُرام، وتبعثُ لك أطيب سلاماتِها. لقد حلَّ تقريبًا هنا وقتُ الكريسماس السعيد! لا أتوق الانتظار حتَّى يبدأ المرَح! أتمنى أن يكون يوم كريسماسِكَ يومًا سعيدًا جدًّا، وأن تكون نيويورك مليئةً بكلِّ المتعة والألَق من أجلك ومن أجل كلِّ إنسان.

من صديقتك الصغيرة

هيلين آ. كيلر.

ردُّ وايتيير

صديقتي العزيزة الشَّابَّة- لقد كنتُ مسرورًا جدًّا حين تلقَّيتُ كهكذا خطابٍ بهيج في يوم عيد ميلادي. عندي مائتَان أو ثلاثمائة خطابٍ آخر، وخِطابكِ كان واحدًا من أكثر الخِطابات التي استبشرتُ بقراءتها. لا بُدَّ أن أقُصَّ عليكِ كيف مرَّ اليوم في أوك نول. طبعًا الشمس لم تُشرق، لكن كان عندنا قدر كبير من الحطب موقدٌ في الحُجرات، والتي كانت جميعُها معطَّرةً تمامًا برائحة الزُّهور والورود التي قد أُرسِلَت إليَّ من أصدقاءَ في أماكن بعيدة، وفواكه من كلِّ الأصناف آتية من كاليفورنيا ومن مناطق أُخرى. قضى في صُحبتي اليوم بعض الأقارب والأصدقاء القُدامى. أنا لا أعجبُ حين تفكِّرين في أنَّ ثلاثةً وثمانين عامًا هي عُمرٌ طويل، لكن هي بالنسبة لي ليست سوى وهلةٍ قصيرة مرَّت منذ أن كنتُ صبيًّا لا يتعدَّى عُمرُه عُمرَك، يلهو في الحقل القديم في هافِرهِلْ. إنَّني أشكركِ على كلِّ الأمنياتِ الطيبة التي تمنَّيتِها لي، وأتمنَّى لكِ كمِثلها الكثير. أنا مسرورٌ أنَّك في المعهد؛ إنَّه مكان ممتاز. أبلِغي عنِّي تحيَّاتي إلى الآنسة ساليڤان، وإليكم منِّي الكثير من المحبَّة

صديقكِ العجوز،

چون غ. وايتيير.

تومـي سترنـچـر؛ الـذي يظهـر في الكثـير مـن الخطابـات التاليـة، أصبـح أصـمَّ وأعمـى عندمـا كان في الرابعـة مـن العمـر. أمُّـه كانـت ميِّتـةً وأبـوه كان عـلى حـالٍ مـن الفقـر بمـا لا يُمكِّنُـه أن يكـون في كنـف رعايتـه. بقـي لوقـتٍ قصـير في المستشـفى العـام في أليجينـي. ومنهـا أُرسِـلَ إلى ملجـأ للفقـراء، ففـي ذاك الوقـت لم يكـن له مـكانٌ يأويه في پِـنسِلـڤانيا. سـمِعَت عنـه هيلـين مـن السـيد چ. غ. بـراون مـن بِتسـبيرغ، حيـث كاتَبَهـا يُخبرهـا أنَّـه فشِـل في تأمـين مُعلِّـمٍ لتومـي. أرادت منـه أن يـأتي بـه لبوسـطن، وحـين أُخبِرَت بأنَّهـم سـيحتاجون مـالًا لأجـل توفـير مُـدرِّسٍ، ردَّت: "سـوف نجمـع لـه المـال". شَرَعَـت تسـتعطي المسـاهمات مـن أصدقائهـا، وكانـت تدَّخـر نِكلاتهـا.

نصـح الدكتـور أليكسـندر غرهـام بِـل أصدقـاءَ تومـي بـأن يرسـلوه إلى بوسـطن، والقائمـون عـلى معهـد بيركنـس أجـازوا دخولـه ريـاض الأطفـال للمكفوفـين.

في تلـك الأثنـاء سَـنحت فُرصـةٌ لهيلـين كي تقـوم بمسـاهمةٍ مُعتَـبَرة في عمليـة تعليـم تومـي. في الشـتاء السـابق، قُتِلَـت كلبتهـا لايونـس، وشرع الأصدقـاءُ في جمـع المـال كي يشـتروا كلبـةً أخـرى لأجـل هيلـين. طلبـت هيلـين، أن تكـون المسـاهمات التـي كان يرسـلها النَّـاس مـن كل أنحـاء أمـيركا وإنجلـترا أن تُكـرَّس لتعليـم تومـي. بعـد أن تحـوَّل اسـتخدام المـال إلى هـذا الغـرض الجديـد؛ تضاعَفَـت المصاريـف عـلى وجـه السُّرعـة، ومُـدّ بهـا تومـي. قُبِـلَ في ريـاض الأطفـال في السـادس مـن أبريـل.

منـذ عهـدٍ قريـبٍ، كتبـت الآنسـة كيلـر تقـول: "لـن أنـسى أبـدًا المـال التـي بعـث بـه الكثـير مـن الأطفـال الفقـراء، الذيـن كان في إمـكان العَـوزِ أن يثنيَهـم عـن فِعـل ذلـك، لقـد بعثـوا بهـا (مـن أجـل تومـي الصغـير)، ولـن أنـسى التعاطُـفَ السريـع الـذي تجـاوبَ بـه القـاصي والـدَّاني مـن النَّـاس مـع الصرخـة الخرسـاء لنجـدة روحٍ صغـيرةٍ حبيسـة".

إلى السيد چورچ ر. كريل

معهد المكفوفين،

جنوب بوسطن، ماساتشوستس، 20 مارس، 1891.

صديقي العزيز السيد كريل:- لقد سمعتُ من السيد ويد عن عرضِكَ الكريم بأن تشتري لي كلبًا لطيفًا، وأنا أودُّ أن أشكرَك على هذه اللَّفتة الطَّيِّبة. إنَّه ليجعلني سعيدة جدًا فعلًا حين أعلم بأنَّ لي كهكذا أصدقاء أعزَّاء في أصقاعٍ أُخرى. إنَّ ذلك يدفعني للإيمان بأنَّ جميع النَّاس طيِّبون ومُحبُّون. قرأتُ أنَّ الإنجليز والأمريكان هم أبناء عمومة، إلَّا أنَّني على يقينٍ أنَّ الأصحَّ أكثر، هو أن نقول، إنَّنا إخوةٌ وأخوات. أخبرني أصدقائي عن بلدِكم المدهِش والسَّاحر، وقد قرأتُ قدرًا كبيرًا عن ذلك كَتَبَه رجلٌ إنجليزيٌّ حكيم. بدأتُ في قراءة "إينوخ أردن"، أنا أحفظ عديدًا من قصائد الشُّعراء العظماء عن ظهر قلب. إنِّي لأتوقُ أن أعبر المحيط؛ لأنَّني أرغب في رؤية أصدقائي الإنجليز وأرى ملكتهم الطيِّبة الحكيمة. زارني إيرل منطقة ميث ذات مرَّةٍ، وأخبرني أنَّ الملكة محبوبةٌ كثيرًا من قِبل شعبها؛ وذلك لدماثتها وحِكمتها. سوف تُدهشَ يومًا لمرأى فتاةٍ صغيرةٍ غريبة آتية إلى مكتبك، غير أنَّكَ حين تعرف أنَّها هي تلك الفتاةُ التي تحبُّ الكلاب وجميع الحيواناتِ الأخرى، فإنَّكَ سوف تضحك، وأتمنَّى أنَّكَ ستفعل وتعطيها قُبلةً، تمامًا كما يفعل السيد ويد. إنَّ لديه كلبةً أخرى لأجْلي، وهو يعتقد أنَّها سوف تكون شُجاعةً ووَفِيَّة كما كانت لايونسي الجميلة. والآن أريد أن أخبرك عمَّا سوف يفعله محبُّو الكِلاب في أميركا. سوف يرسلون إليَّ مالًا من أجل طفلٍ صغيرٍ مسكين أعمى وأصمَّ وأبكَم. اسمه تومي، وله من العمر خمسُ سنوات. إنَّ والِدَيْه فقيران للغاية على أن يدفعا المال لأجل إرسال ابنهما الصغير إلى المدرسة، لهذا؛ بدلًا من أن يهَبوني كلبًا، سوف يقوم الرجال المحترمون بمدِّ يد العون كي يجعلوا حياةَ

تومـي مشرقـةً وممتعـةً كـما هـي معـي. أليسـت خُطَّـةً رائعـة؟ سـوف يجلـب العلـمُ النَّغـمَ والنُّـورَ لـروح تومـي، وعندئـذٍ لـن يكـون في وسـعه سـوى أن يكـون سـعيدًا.

من صديقتك الصغير الـمُحِبَّة،

هيلين آ. كيلر.

إلى الدكتور أوليـڤـار وِندِل هولمز

[جنوب بوسطن، ماساتشوستس، أبريل، 1891].

عزيـزي الدكتـور هولمـز:- إن كلماتِـكَ البديعـة عـن الرَّبيـع قـد ولَّـدَت بقلبـي نغـمًا في أيَّـام أبريـل السَّـاطعة هـذه. إنَّنـي أحـبُّ كلَّ كلمـةٍ تـأتي عـلى ذِكـره ككلمـة "الربيـع"، و"لقـد حـلَّ الرَّبيـع". أظنُّـكَ سـتُسَرُّ أن تسـمع بـأنَّ تلـك القصائـد قـد علَّمَتنـي أن أحـبَّ وأسـتمتع بوقـت الربيـع، حتـى ولـو لم يكـن باسـتطاعتي أن أرى براعـم الأزهـار الهشَّـة المعسـولة التـي يُـؤذِنُ ظهورُهـا باقترابـه، أو أسـمعَ الشَّـدو المرِح للطيـور العائـدة إلى أعشاشـها. لكـن حـين قـرأتُ قصيـدة "لقـد أتى الربيـع"؛ فلـكَ أن تتخيَّـل! لم أَعُـدْ عميـاءَ بعدهـا؛ فقـد صرتُ أرى بعينيـكَ وأسـمعُ بأُذُنَيْـك. لا تسـتطيعُ أُمُّنـا الطبيعـة الحلـوة أن تُخفـي عنِّـي أسرارًا عندمـا يكـون شـاعري منِّـي قريبًـا. لقـد وقـع اختيـاري عـلى تلـك الورقـة لأنَّنـي أريـدُ لـرذاذ البنفسـجِ الـذي في الزاويـة منهـا أن يخـبركَ عـن حبِّـي وامتنـاني. أريـدكَ أن تـرى الطفـل تومـي؛ الصغـيرَ الأعمـى والأصـمَّ والأبكـم الـذي حـلَّ برياضنـا الجميلـة لِتَـوِّه. إنَّـه الآن مُعـدَمٌ ووحيـدٌ وبـلا سـند، لكـنَّ ذلـك هـو حالـه قبـل أن يمـرَّ عليـه أبريـل آخـر مـن التعليـم مـا سـيجلب لحيـاة تومـي النُّـورَ والسَّـعادة. لـو فعلـتَ وأتيـت، فسـوف يقتـضي منـك الأمـرُ أن تطلـب مـن الخَيِّريـن مـن أهـل بوسـطن أن يسـاعدوا في جَعـل حيـاة تومـي بأكملهـا مشرقـة. صديقتـك المحبَّـة،

هيلين كيلر.

إلى السِّير چون إيڤرِت مِليس

جنوب بوسطن، ماساتشوستس، 30 أبريل، 1891.

عزيزي السيد مِليس:- أُختك الأميركيَّة الصغيرة سوف تكتبُ إليكَ خِطابًا؛ لأنَّها تودُّ أن تخبركَ كم هي سعيدة بسماعها أنَّكَ مهتمٌّ بصغيرنا تومي المسكين، وبأنَّكَ قد أرسلتَ بعض المال للمساعدة في تعليمه. من الرَّائع جدًّا أن يكتشف المرء أنَّ أشخاصًا بعيدين في إنجلترا يشعرون بالشفقة لأجل طفلٍ صغيرٍ مُعدَم في أميركا. عندما أقرأ في كتبي عن مدينتك العظيمة، تعوَّدتُ أن أفكِّر بأنَّني حينما أزُورها، فلسوف يبدو الناس غُرباء بالنسبة لي، لكنَّ شعوري عن هذا الوضع قد اختلف الآن. يُخيَّلُ إليَّ أنَّ جميع النَّاس من ذوي القلوب الشَّفوقة والـمُحِبَّة ليسوا غُرباء عن بعضهم البعض. لا أطيق صَبرًا حتى يحين الوقت الذي آتي فيه وأرى أصدقائي الإنجليز الأعزاء، وأرى جزيرة وطنهم البديعة. لقد كتب شاعري المفضَّل عن إنجلترا أبياتًا أحببتُها كثيرًا للغاية. أظنُّها ستُعجبك أيضًا؛ لذا سأحاول أن أدوِّنها لأجلك.

"متشبِّثة وسط عناق الموج المتلاطِم

بأهداب عشب البحر ومنها إلى جبل الخلنج؛

تلك السنديانة البريطانيَّة بشُعَبِها المتجذِّرة

تُحكم قبضتها المرهفة عليهم جميعًا، وتضمُّهم معًا،

منحدراتٌ من الأبيض، وظلِّيلاتٌ من الأخضر تغلِّفُها

ويحتضنها المحيط كي يلاطِفها،

وتِلالٌ، تتموضَعُ خيوط الأنهار بينها

إنَّها أمُّنا، الجُزيرَة الصغيرة، فليحفظها الله!".

سيسُّرك حين تسمع أنَّ تومي لديه سيِّدة تُعلِّمُه، وبأنَّه ولد صغير جميل ولطيف. إنَّه يحبُّ أن يتسلَّق الأشياء أكثر من أن يتهجَّي الكلمات على يديه، لكنَّ ذلكَ لأنَّه لا يدرك بعدُ كم هي اللغة شيءٌ فاتن. لا يستطيع أن يتصوَّر كم سيكون سعيدًا جدًّا جدًّا عندما يتمكّن أن يحكي لنا عن أفكاره، ونُخبره نحن كم صِرنا نُحبُّه بشدَّة.

إنَّ أبريلَ سوف يُواري دُموعه وخجله وراء زهور مايو الفاتنة. أتساءَلُ إن كانت أيَّامُ شهر مايو في إنجلترا جميلة كذلك كما هي هُنا.

الآن، لا بدَّ أن أقول وداعًا. فكِّر فيَّ رجاءً باعتباري أختكَ الصغيرة المحبَّة.

هيلين كيلر.

إلى نيافة الأسقف فيلبس بروكس

ج . بوسطن، 1 مايو، 1891.

عزيزي السيد بروكس:

في هذا اليوم المشرق من شهر مايو، تبعثُ إليكَ هيلين بتحيَّاتٍ مُحِبَّة. مُعلمتي أخبرتني لتوِّها أنَّكَ قد رُسِّمْتَ أُسقُفًا، وأنَّ أصدقاءَك يفيضون لهذا فرحًا في كلِّ مكان؛ لأنَّ شخصًا يُحبُّونه قد حاز شَرَفًا عظيمًا. أنا لا أفهمُ بشكلٍ كامل ما هو عمل الأسقف، لكن أظنُّ أنه لا بُدَّ عملٌ صالحٌ ويقدِّم العَون، وإنَّني لسعيدةٌ بكون صديقي العزيز شجاعًا وحكيمًا ومُحِبًّا بما يكفي لينهض بهذا العمل. إنَّه لأمرٌ جدّ مبهجٍ بالنسبة لي حين أفكِّر بأنَّك تستطيعُ إخبار العديد من البَشَر عن المحبَّة الغامرة التي لدى أبينا الذي في السماء نحو أبنائه، حتى في حال انتفاء كَونهم دَمِثِي الأخلاق ونُبلاء كما يرغبهم أن يكونوا.

أتمنَّى لما سوف تخبرهم به من جميلِ نبأ أن يجعلَ دقَّاتَ قلوبهم تتسارع فرحًا ومَحبَّةً. أتمنى أيضًا أن تكون حياةُ الأسقف بروكس بأكملها عامرةً بالسَّعادةِ، كما هو شهر مايو مليءٌ بالبراعم المتفتِّحة والطيور المغرِّدة.

من صديقتك الصغيرة المُحِبَّة،

هيلين كيلر.

قبل أن يُتحَصَّلَ على مُعلِّمٍ من أجل تومي، وبينما كان ما يزال وقتها تحت رعاية هيلين والآنسة ساليڤان، أُقيمَ له حفلُ استقبالٍ في رياض الأطفال. قدَّم الأسقف بروكس خطابًا تلبيةً لطلب هيلين. كتبت هيلين خطاباتٍ موجَّهةً إلى الجرائد أسفرت عن العديد من الردود الكريمة. ردَّت هيلين على جميع هذه الخطابات بنفسها، وبعثت بخطاب شُكرٍ للجمهور في خطاباتٍ مُرسلة إلى الجرائد. هذا الخِطاب موجَّهٌ لمحرر جريدة بوسطن هيرالد، وقد أُرفِقَت معه قائمة كاملة بأسماء جميع المساهمين. بلغ مقدار المساهمات أكثر من ألفٍ وستمائة دولار.

إلى السيد چون هـ هولمز

جنوب بوسطن، 13 مايو، 1891.

إلى محرر جريدة بوسطن هيرالد:

عزيزي السيد هولمز:- هل ممكن لو سمحت أن تتكرَّم، وتطبع القائمة المرفقة مع الخطاب في الهيرالد؟ أعتقدُ أنَّ قُرَّاء جريدتك سيسعدوا حين يعرفون بأن الصغير تومي قد بُذِلَ الكثير لأجله، وبهذا سيتمنَّون جميعًا أن يشاركوا بهجة مساعدتِه. إنَّه حقًّا سعيد

جـدًّا في ريـاض الأطفـال، وهـو يتعلّـم شـيئًا جديـدًا كلَّ يـوم. لقـد اكتشـفَ أنَّ الأبـواب لهـا مغاليـق، وأنَّ العِـصيَّ الصَّـغيرة وفُتـات الـورق يمكـن لهـا أن تلِـجَ داخـل ثقـب المِفتـاح بسـهولةٍ تمامًـا، لكـن لا تظهـرُ عليـه الرغبـة في أن يخرجهـا بعـد أن يكـون قـد أدخلهـا. إنَّـه يفضِّـلُ أن يتسـلَّقَ عُمُـدَ الأسِرَّة، وأن يفـكَّ مصـارِعَ النَّوافـذِ أكـثر مـن أن يتهجَّـى الكلـمات عـلى يديـه، لكـن، هـو يفعـل تلـك الأشـياء لأنَّـه ليـس يـدرك بعـد، أنَّ الكلـمات، سـوف تسـاعده في القيـام باكتشـافاتٍ جديـدةٍ ومثـيرةٍ للاهتـمام. أتمنَّـى أن يواصـل فاعلـو الخـير العمـلَ إلى أن تكتمـل تكاليـف دراسـتِه، ويكـون التعليـم قـد أسـبَغ عـلى حياتـه الصغـيرة نَغـمًا ونـورًا.

من صديقتك الصغيرة،

هيلين كيلر.

إلى الدكتور أوليـڤـار وندِل هولمز

جنوب بوسطن، 27 مايو، 1891.

عزيـزي الشَّـاعر المحـترم:- إنَّنـي لأخـشى أن تظُـنَّ بـأنَّ هيلـين فتـاةٌ صغـيرةٌ مثـيرةٌ للإزعـاج مـا دامـت تكتـبُ إليـكَ كثـيراً عـلى الـدَّوام، لكـن كيـف لهـا أن تكـفَّ عـن إرسـال رسـائلَ تفيـضُ محبَّـةً وامتنانًـا، عندمـا تفعـلُ أنـتَ الكثـير مـن أجلهـا لتجعلهـا هـي سـعيدة؟ لا يسـعُني سـوى أن أشرع في إخبـاركَ كـم كنـتُ مبتهجـة عندمـا أخـبرني السـيد أناجنـوس، بأنَّـك قـد أرسـلتَ إليـه بعـض المـال للمسـاعدة في تعليـم "تـوم الصغـير". ثـمَّ علمـتُ أنَّـكَ لم تنـسَ الطفـل الصغـير العزيـز؛ فالهديَّـة التـي أُرفِقـت مـع المـال تـدلُّ عـلى تعاطـفٍ غامـر. يؤسـفني كثـيراً أن أخـبركَ أنَّ تومـي لم يتعلَّـم كلـماتٍ بعـد. مـا يـزال هـو نفـس الكائـن الصغـير المتململ الـذي كان عندمـا رأيتَـه أنـت. لكـن مـا يبعـثُ عـلى السـعادة هـو أن تعـرفَ أنَّـه سـعيد، كـما أنَّـه في بيتـه الجديـد البهـيِّ طِفـلٌ لَعَّـابٌ، وعـمَّا قريـب، ذلـك

الـشيء الغريـب المدهـش الـذي تُسَـمِّيه الــمُعلِّمة العقـل، سـيبدأ في بَسـطِ أجنحتِـه ويُحلِّـقُ بعيـدًا بحثًـا عـن أرض المعرفـة. إنَّ الكلـمات هــي أجنحـة العقـل، أليسـت هـي كذلـك؟

لقـد زرتُ أندوڤــر بعـد أن رأيتـك، وكنـتُ مهتمـةً كثـيرًا بجميـع مـا أخـبرني بـه أصدقـائي عـن أكاديميَّـة فيلبـس؛ لأنَّنـي كنـتُ أعلـم أنَّـكَ قـد درَسْـتَ في هـذا المـكان، وأحسسـتُ أنـه مـكانٌ عزيـزٌ عليـك. لقـد حاولـتُ أن أتخيَّـل شـاعري النبيـل عندمـا كان صبيًّـا في المدرسـة، وإنِّي لأتسـاءل: هـل تعلَّـمَ شـاعري في أندوڤـر أغـاني الطـير وأسرار أطفـال الغـاب الصغـار الخجولـين. إنَّنـي عـلى يقـينٍ أنَّ قلبـه دومًـا كان مُتْرَعًـا بالنَّغـم، وأنَّـه في عـالم الله الجميـل لا بُـدَّ قـد سـمِع صـدى المحبَّـة العذبـة. عندمـا عـدتُ للبيـت قـرَأَت عـليَّ مُعلِّمتـي "صبـيُّ المدرسـة"؛ لأنَّهـا ليسـت ضمـن الطبعـة المخصَّصـة لنـا.

هــل علمــتَ أنَّ الأطفــال المكفوفـين سـوف يقومــون بالتـدرُّب عــلى مراسـم حفـل التخـرُّج بمعبـد تريمونـت يـوم الثلاثـاء القـادم بعـد الظهـر؟ أرفـقُ لـكَ تذكـرة، أتمنَّــى أن تـأتي. سـنكون فخوريـن وسـعداء باسـتقبال صديقنـا الشـاعر والترحيـب بـه. سـوف أُلقـي خطبـة عـن المـدن الجميلـة الموجـودة في إيطاليـا المشمسـة. أتمنَّــى أن يـأتي أيضًـا صديقنـا الطيــب الدكتـور إيلـز، وأن يضـمَّ تـوم بـين ذراعيـه.

مع قبلة والكثير من المحبَّة، من صديقتك الصغيرة،

هيلين آ. كيلر.

إلى نيافة الأسقف فيلبس بروكس

جنوب بوسطن، 8 يونيو، 1891.

عزيزي السيد بروكس،

أُرسل إليكَ صورتي كما وعدتُك، وأتمنَّى عندما تنظر إليها في هذا الصَّيف أن تطير أفكارك نحو الجنوب وتبلغَ صديقتك الصغيرة السعيدة. لطالما تمنَّيتُ أن أرى الصُّور بيديَّ كما أستطيع وأفعلُ مع التماثيل، لكنِّي الآن لم أعد أفكِّر في هذا في غالب الأحوال؛ لأنَّ أبي العزيز قد ملأ عقلي بصورٍ خلَّابة، حتَّى بالنسبة للأشياء التي لا أستطيعُ رؤيتها. إن لم تكن عيناكَ منيرةً تنعمُ بنور البَصر يا سيد بروكس العزيز، فإنَّكَ سوف تستوعب الأمر على نحوٍ أفضل، حين تعرف كم كانت صغيرتكَ هيلين سعيدة، حين شرحت لها مُعلِّمتُها أنَّ أغلب الأشياء الجميلة وأفضلها في العالم، لا يُمكن رؤيتُها أو حتَّى لمسُها، إنَّما هي تُستَشعَرُ بالقَلب. كلَّ يومٍ أكتشف شيئًا يجعلني سعيدة. فأمس، كنتُ أفكِّر بأنه، يا له من أمرٍ ذي دلالةٍ مدهشة؛ حيث تراءى لي أنَّ كلَّ شيء كان يحاول أن يكونَ أدنى إلى الله، أيبدو الأمر هكذا بالنسبة لك؟ إنه صباح يوم الأحد، وبينما أنا أجلسُ هنا في المكتبة أُسوِّدُ هذا الخطاب، تكون أنتَ في الوقت ذاته تعلِّم مئات البشر بعضًا من الأشياء الجليلة والجميلة عن أبيهم الذي في السماء. ألستَ سعيدًا بهذا جدًّا جدًّا؟ وعندما تكون أُسقفًا فسوف تُلقي عِظَتَكَ على الكثيرين، والكثير والكثير من النَّاس سيصيرون سعداء. مُعلِّمتي تبعثُ لك بأحرِّ سلاماتها، وأبعثُ أنا لك مع خِطابي بمَحبَّتي الغامرة. من صديقتك الصغيرة

هيلين كيلر.

عندمـا أغلـق معهـد بيركنـس أبوابـه في شـهر يونيـو، ذهبـت هيلـين ومُعَلِّمتُهـا جنوبًـا إلى توسـكامبيا، حيـث بقيتـا حتـى شـهر ديسـمبر. ثمَّـة فجـوات مـن الشـهور العديـدة تفصـل بـين الخِطابـات، تسـبَّبَ فيهـا التأثـير المحبِـط عـلى هيلـين والآنسـة ساليـڤـان؛ بسـبب واقعـة "ملـك الصَّقيـع". في ذاك الوقـت، بَـدَت تلـك المشـكلة جِـدَّ مُكْئِبَـةٍ، وجَلَبَـت إليهـما الكثـيرَ مـن التعاسـة. وقـد أُجـري تحليـلٌ لتلـك الحالـة في موضـعٍ مـا مـن هـذا الإصـدار، وقـد كتبـت الآنسـة كيلـر عـن نصيبهـا منـه.

إلى السيد ألبِرت هـ. مانْسِل

بريوِستر، 10 مارس، 1892.

عزيزي السيد مانسِل،

بالتأكيـد أنـا لسـتُ في حاجـةٍ لأن أخـبرك كـم لاقـى منِّـي خِطابـك مـن كثـير ترحيـب. لقـد اسـتمتعتُ بـكلِّ حَـرْفٍ منـه وودِدتُ أن لـو كان أطـول. لقـد أضحكتنـي عندمـا تحدَّثـتَ عـن التقلُّبـات المزاجيَّـة الشرسـة لنِپـتون. في الحقيقـة، لقـد صـار يتـصرَّف عـلى نحـوٍ غريـب منـذُ أن أتينـا إلى بريوِسـتر. مـن الواضـح أنَّ شـيئًا قـد سـاءَ جلالتـه، لكـن ليـس بوُسـعي أن أتصـوَّر مـا هـو. قَسـماتُه قـد صـارت أكـثر عُنفًـا وتمـرُّدًا حتَّـى أنَّنـي خشـيتُ أن أُعطيـه هديَّتـكَ اللطيفـة. مَـن يـدري! لربَّمـا إلـهُ البحـر القديـم وهـو يرقـد نائمًـا عـلى الشـاطئ، قـد سَـمِعَ الموسـيقى النَّاعمـة لأشـياءَ تنمـو -كثـورة الحيـاة في حضـن الأرض- وقـد كان قلبُـه بالغَضَـب ثائـرًا؛ لأنَّـه قـد أدرك أنَّ سُـلطانه وسـلطان الشِّـتاء عـلى وشـك تقريبًـا أن ينتهيـا. فتقاتـل السُّـلطانان معًـا عـلى نحـوٍ يائـس إلى أقـصى الحـدود، ظانَّـيْنِ أنَّ الرَّبيـع اللطيـف سـوف يحـلُّ، وسـيرفرفُ فـوق الخـراب الـذي خلَّفـه بَطشُـهُما. لكـن يـاه! إنَّ العـذراء الفاتنـة تـزداد ابتسـامتها العذبـة، وتنفُـثُ هواءَهـا فـوق أسـوار قِـلاع أعدائهـا الجليديَّـة، وفي لحظـةٍ تتـلاشى، وتنفحهـا الأرضُ

البهيجةُ تحيَّةً مَلَكيَّة. لكن لا بُدَّ لي أن أُرجِئ خيالاتي الفارغةَ تِلكَ حتَّى نلتقي مجدَّدًا. أبلِغْ عنِّي والدتَكَ العزيزة محبَّتي رجاءً. تودُّ مُعلِّمتي أن تقول أنها قد أعجبتها الصُّور كثيرًا للغاية، وسترى سبيلًا كي نقتني بعضًا منها عندما نعود. والآن يا صديقي العزيز، فلتقبَل منِّي رجاءً تلك الكلمات القلائل لخاطِر المحبَّة التي هي على وثاقٍ به.

مُحِبَّتُك

هيلين كيلر.

هذا الخِطاب أُعيد نَشرُ صورةٍ طِبق الأصل منه في مجلة القِدِّيس نيكولاس في مايو عام 1892. وهو غيرُ مُؤرَّخ، لكنَّه لا بُدَّ قد كُتِبَ قبل شهرين أو ثلاثة من تاريخ نشره.

إلى القِدِّيس نيكولاس[1]

أعزائي في القِدِّيس نيكولاس:

إنَّه لـمِمَّا يهبني من عظيمِ سعادةٍ أن أبعث إليكم بأوتوغراف لي؛ لأنَّني أريد أن يعرف الأولاد والبنات الذين يقرؤون المجلَّة كيف يكتب الأطفال المكفوفون. أحسبُ أنَّ بعضهم يتساءل كيف نُبقي السُّطورَ مُستقيمةً ونحن نكتب؛ لذا سأحاول إخبارهم كيف يجري الأمر: عندنا لوحةٌ مُخدَّدَة نضع بين ثناياها الصفحات عندما نرغب أن نكتب. البروز المثلَّمَة الموازية تنطبِق على السطور، وعندما نضغط الورقة فيها بمساعدة النهايات المثلَّمة للقلم يصير من السهل الإبقاء على الكلمات متساويةً ومتناسِبة. تنطبِعُ الحروف الصغرى في الأخاديد،

(1) St. Nicholas مجلة القِدّيس نيكولاس، هي مجلة أطفال أميركيّة، أُسِّسَت عام 1873. (المترجِم)

بينـما الأحـرف الطويلـة تمتـدُّ فيـما فوقهـا وتحتهـا. نُوجِّـه القلـم باليـد اليُمنـى، ونتحسَّـس بحـرصٍ بأطـراف أصابـع اليـد اليـسرى ونتأكَّـدُ أنَّنـا قـد شـكَّلنا الأحـرف وباعَدنـا بينها بشـكلٍ صحيـح. يكـون الأمـر صعبًـا في البدايـة أن نشـكِّلها عـلى نحـوٍ واضـح، غـير أنَّنـا إن واصلنـا المحاولـة يصـير الأمـر أسـهلَ بالتدريـج، وبعـد قـدرٍ كبـيرٍ مـن المِـران، يكـون في مسـتطاعنا أن نكتـب إلى أصدقائنـا خِطابـاتٍ واضحـةً مقـروءة. وعندئـذ نكـون سـعداء جـدًّا جـدًّا. ربَّمـا يـزورون يومًـا مـا مدرسـةً للمكفوفـين. إن يفعلـوا، فأنـا متأكِّـدة أنهـم سـوف يرغبـون في رؤيـة التلاميـذ وهُـم يكتبـون.

صديقتكم الصغيرة المخلصة لكم جدًّا

هيلين كيلر.

في مايـو عـام 1892، أقامـت هيلـين حفـلَ شـايٍ لتقديـم الإعانـة لريـاض الأطفـال المخصَّـص للمكفوفـين. لقـد كانـت فكرتهـا، وقـد أُقيمَـت في منـزل مـدام مالـون سـپـولدِنغ، أخـت السـيد چـون سـپـولدِنغ؛ وهـي واحـدةٌ مـن أكـثر أصدقـاء هيلـين طِيبَـةً وتحـرُّرًا. اسـتجلبَ الحفـلُ مـا يربـو عـن ألفَـيْ دولار مـن أجـل الأطفـال المكفوفـين.

إلى الآنسة كارولِن ديربي

جنوب بوسطن، 9 مايو، 1892.

عزيـزتي الآنسـة كاري:- لقـد سُرِرتُ كثـيرًا حـين تلقَّيـتُ خطابـك اللطيـف. هـل أنـا في حاجـةٍ لأن أخـبركِ أنَّنـي كنـتُ في حالـةٍ تفـوق السـرور لـدى سـماعي أنَّـكِ فِعـلًا مهتمَّـة بحفـل الشـاي المنعقـد؟ بالطبـع لا بُـدَّ ألَّا نيـأس مـن الأمـر. سأسـافر بعيـدًا عـمَّا قريـب؛ إلى بيتـي الحبيـب، إلى الشـمال المشـمس، ولسـوف أسـعدُ حين أتذكَّـرُ أنَّ آخـر شيءٍ فعلـه أصدقائي

الأعـزاء في بوسـطن مـن أجـل إسـعادي، هـو أنَّهـم مـدُّوا يـدَ العـون كي يجعلـوا حيـوات الكثيريـن مـن الأطفـال الضرائـر مَيسـورةً وسـعيدة. أعلـمُ أنَّ الخَيِّريـن مـن البـشر لا يسـعهم سـوى الشـعور بالتعاطُـف العميـق نحـو الأطفـال الصِّغـار، الذيـن لا يسـتطيعون رؤيـة النُّـورِ الجميـل، ولا أيٍّ مـن الأشـياء المدهشـة التـي تهبهـم المتعـة، ويبـدو لي أنَّ كلَّ أشـكال التعاطـف الـرَّؤوم، لا بُـدَّ وأن تُدلِّـلَ عـلى نفسـها بأفعـال الخـير، وعندهـا سـيتفهَّمُ أصدقـاء الأطفـال الصِّغـار العاجزيـن أنَّنـا نعمـل مـن أجـل سـعادتِهم، سـوف يأتـون ويجعلـون مـن "حفـل الشـاي" الـذي أقمنـاه لهـذا الغـرض حدثًـا مُثْمِـرًا، وأنـا عـلى يقـينٍ أنَّنـي سـاعتها سـأكون أسـعدَ بنـت صغـيرة في العـالم بأكملـه. بعـد إذنِـك، أعلِمـي الأسـقف بروكـس بخُططِنـا فلربَّمـا يرتِّـب ظروفـه وينضـمُّ إلينـا. أنـا سـعيدة لأنَّ الآنسـة إليانـور مهتمَّـةٌ بالأمـر. أبلغيهـا عنِّـي محبَّتـي رجـاءً. سـأراكِ غـدًا، وعندئـذٍ نسـتطيع أن نُعِـدَّ مـا تبقَّـى مـن الخُطـط. لـو تسـمحين، أبلغـي عنِّـي محبَّتـي ومحبَّـة مُعَلِّمتـي إلى عمَّتِـك العزيـزة، وأخبريهـا أنَّنـا قـد اسـتمتعنا حقًّـا بزيارتنـا القصـيرة كثـيرًا جـدًّا.

مُحِبَّتُك،

هيلين كيلر.

إلى السيد چون پ. سپبولدِنغ

جنوب بوسطن، الحادي عشر من مايو، 1892.

عزيـزي السـيد سـپـولدِنغ:- إنَّنـي لأخـشى عندمـا تقـرأ هـذا الخِطـاب، أن يسـتبدَّ بـكَ الظَّـنُّ بـأنَّ صديقتـك الصغـيرة، هيلـين، مثـيرة جـدًّا للإزعـاج، لكنِّـي واثقـةٌ أنَّـك لـن تلومَنـي عندمـا أُخـبِرُك أنَّ خطبًـا مـا يثير قلقـي كثيراً. أنـتَ تَذْكُـر أنَّ مُعلِّمتـي وأنـا أخبرنـاك يـوم الأحـد أنَّنـي أرغـب في إقامـة حفـل شـاي لأجـل مسـاعدة ريـاض الأطفـال للمكفوفـين. لقـد ظننَّـا أنَّ كلَّ

شيءٍ كان مُعَدًّا لـه: لكنَّنـا اكتشـفنا يـوم الاثنـين أنَّ مـدام إلِّيـوت سـوف لـن تسـمح لنـا بدعـوة أكـثر مـن خمسـين فـردًا؛ لأنَّ منـزل السـيِّدة هـاو صغـيرٌ جـدًّا. أنـا عـلى يقـين أنَّ الكثـير مـن النـاس يرغبـون في المجـيء إلى الحفـل، وأن يسـاعدوني كي ننـير حيـوات المكفوفـين مـن الأطفـال- لكـنَّ بعضًـا مـن أصدقـائي يقولـون إنَّ عـليَّ التَّخـلِّي عـن فكـرة إقامـة حفـل الشَّـاي إن لم نجـد منـزلًا آخـر. أمـس قالـت مُعَلِّمَتـي إنَّ السـيِّدة سپـولدِنغ مسـتعدَّةٌ أن تـترك منزلهـا الجميـل إلينـا، و[أنـا] حسـبتُ أنَّ في إمـكاني استشـارتَكَ بشـأن هـذا. أتعتقـد أنَّ السـيِّدة سپـبولدِنغ سـوف تسـاعدني، لـو أنَّنـي كاتبْتُهـا؟ لسـوف يخيـب أمـلي جـدًّا إن أخفقَـت خُطَّتـي المتواضعـة؛ لأنَّنـي كنـتُ أرغـب منـذ زمـنٍ طويـل أن أفعـل شـيئًا لأجـل الصِّغـار المسـاكين الذيـن ينتظـرون كي يُقْبَلُـوا في ريـاض الأطفـال. أَعْلِمْنـي رجـاءً برأيـك في فكـرة المنـزل، وحـاوِلْ أن تغفـرَ لي إثـارتي الدائمـة لإزعاجـك.

مَحبَّتي، صديقتك الصغيرة،

هيلين كيلر.

إلى السيد إيدوارد هـ. كليمنت

جنوب بوسطن، الثامن والعشرون من مايو، 1892.

عزيـزي السـيد كليمنـت:- إنَّنـي مُقدِمـةٌ عـلى الكتابـةِ إليـكَ في هـذا الصبـاح الجميـل لأنَّ قلبـي مُـترَعٌ بالسَّـعادة، وأرغـبُ أن تشـاركني أنـتَ هــذا وجميـع أصدقـائي الأعـزَّاء في مكتـب Transcript. لقـد اكتملـت تقريبًـا تجهيـزاتُ حفـلي، وإنِّي لأتشـوَّفُ بفـرحٍ إلى هـذا الحَـدَث. أعلـمُ أنَّـه لا ينبغـي لي أن أفشـل. فاعِلُـو الخـير لـن يخيِّبـوا أمـلي حـين يعرفـون أنِّي أُدافِـعُ عـن الأطفـال الصِّغـار العاجزيـن، الذيـن يعيشـون في العتمـةِ والجهالـة. سـيأتون إلى حفـلي ويبتاعـون النُّـور- نـور المعرفـة الجميـل والمحبَّـة لأجـل العديـد مـن الصِّغـار المكفوفـين والذيـن هـم دون نَصـير.

أتذكَّـرُ بجـلاءٍ يـومَ أن أتتنـي مُعلِّمتـي العزيـزة. وقتهـا كنـتُ كالأطفـال الصِّغـار المكفوفـين الذيـن ينتظـرون أن يُقبَلـوا في ريـاض الأطفـال. لم يكـن بروحـي نـورٌ. إنَّ هـذا العالَـمَ البديـعَ بـكلِّ مـا فيـه مـن ضيـاء الشَّـمس ومـن جـمالٍ كان مُحتَجبًـا عنِّـي، وأنـا لم أكـن قـد حلُمـتُ بعُذوبَتِـه عـلى الإطـلاق. غـير أنَّ مُعلِّمتـي أتتنـي، وعلَّمَـت أصابـعَ يـديَّ الصَّغـيرة أن تسـتخدمَ المِفتـاح، ذلـك المفتـاح المدهـش الـذي قـد فـكَّ مغاليـقَ بـاب سِـجنِ عَتَمَتـي وأطلـق روحـي طليقـة.

إنَّ أخلَـص أمـانيَّ هـي أن أتشـاركَ سـعادتي مـع آخريـن، وإنَّنـي لأناشـدُ أبنـاءَ بوسـطن الطَّيبـين أن يعينـوني عـلى جَعـل حيـوات الأطفـال الصِّغـار المكفوفـين أكـثر إشراقًـا وأكـثرَ سـعادة.

محبتي، صديقتك الصغيرة،

هيلين كيلر.

في نهايـة شـهر مايـو عـادت الآنسـة ساليـﭬـان وهيلـين إلى البيـت بتوسـكامبيا.

إلى الآنسة كارولِن ديربي

توسكامبيا، ألاباما، التاسع من يوليو، 1892.

عزيـزتي كاري- حـين يصلـكِ خطـابي هـذا، فاعلمـي أنَّـه برهـانٌ قاطِـعٌ عـلى محبَّتـي لـكِ. ظـلَّ الطقـسُ في توسـكامبيا طـوال أسـبوعٍ كامـل "بـاردًا ومظلِـمًا وكئيبًـا"، وعـليَّ أن أعـترف بـأنَّ هطـول الأمطـار المتواصـل والجـوَّ الـمُقبِضِ للصَّـدر يمـلآن قلبـي بأفـكار اكتئابيَّـة، وقـد جعـلا مـن كتابـة الخِطابـات، أو أيَّ فِعـلٍ يبعـثُ عـلى الـسرور ليبـدو شـيئًا مسـتحيلًا. رغـم هـذا، لا بُـدَّ أن أخـبركِ أنَّنـا أحيـاء- يعنـي أنَّنـا وصلنـا المنـزل بأمـان، وأنَّنـا

نتكلَّمُ عنك يوميًّا، ونستمتعُ بخِطاباتِك الممتعة كثيرًا جدًّا. لقد قمتُ بزيارةٍ لطيفةٍ إلى هالتون. كلُّ شيءٍ كان نَضرًا ويُشبه وقت الرَّبيع، وقضينا النَّهارَ بطُولِه خارج النُّزل. نحن حتَّى تناولنا إفطارنا بالخارج، في فناء المنزل. جلسنا بعض الوقت في الأُرجوحة الشَّبكيَّة، ومُعَلِّمتي كانت تقرأ لي. كنتُ أركب على ظهر حصان كلَّ مساء، وفي مرَّة قُدتُ الفَرس عَدْوًا مسافةَ خمسة أميال. ياه، كانت متعةً عظيمة! أتحبِّين أن تركبي الحصان؟ أنا عندي الآن كارَّة صغيرة جميلة جدًّا، وإن توقَّف المطر، ننتوي أنا ومُعلِّمتي أن نسوقها كلَّ مساء. وعندي دِرواسٌ[1] جميلٌ آخر -إنَّه أكبر واحد رأيته على الإطلاق- وسوف يصحَبُنا أثناء السير كي يحمينا. اسمه إيومر. هو اسمٌ غير مألوف، أليسَ كذلك؟ أظنُّه اسمًا ساكسونيَّ الأصل. نأمل أن نزور الجبال الأسبوعَ المقبِل. أخي الصَّغير فيلبس ليس بخير، ونحسبُ أنَّ هواء الجبل الرَّائق سوف يفيده. أختي الصغيرة ملدرد بنت حبُّوبة وأنا واثقة أنَّكِ سوف تحبِّينها. أشكركِ كثيرًا على صورك التي أرسلتِها. أنا أحبُّ أن أقتني صور أصدقائي حتى لو لم أكن أستطيع رؤيتها. لقد تسلَّيتُ كثيرًا بفكرتك عن الكتابة في خاناتٍ مُربَّعة. أنا لا أكتب على لوحة برايل كما تظنِّين، لكن أكتب على لوحة مُخدَّدة كما القِطعة التي أُرفقها مع الخِطاب. لستِ تستطيعين قراءة المكتوب ببرايل؛ لأنَّها تُكتَبُ على شكل نِقاط، وليس مثل رسم الحروف المعتادة إطلاقًا. رجاءً أبلغي الآنسة ديربي عنِّي محبَّتي وقولي لها إنَّني أتمنَّى أن تُبلغي عنِّي روث الصَّغيرة مودَّتي الطيبة. ماذا كان الكتاب الذي أرسلتِه إليَّ يومَ عيد ميلادي؟ فأنا استلمتُ العديد من الكتب، ولا أدري أيُّهم كان منكِ. تلقيتُ هديَّةً جعلتني سعيدةً على نحوٍ خاص. كانت الهدية حرملة[2] جميلة مشغولة بالكروشيه، معمولة خصِّيصًا

(1) كلب ضخم من كلاب الحِراسة. (المترجِم)

(2) كِساءٌ قصير واسع، يُحيط بالعُنق، ويقعُ على الكتفَينْ مُتدليًا فوق الظَّهر والذِّراعينْ،

مـن أجـلي أنـا، أهدانيهـا عجـوز محـترَم، يبلـغ مـن العمـر خمسـةً وسـبعين عامـا. وكلُّ غـرزةٍ عقدَهـا -هكـذا كتـب- تمثِّـلُ أُمنيـةً طيِّبـة لأجـل صِحتـي وسـعادتي. أخـبري أبنـاء أعمامـك الصِّغـار أنِّي أعتقـد أنَّهـم مـن الأفضـل لهـم تأجيـل اتخـاذ قـرارٍ بشـأني إلى مـا بعـد الانتخابـات يوجـد الكثـير مـن الأحـزاب والمرشَّـحين، مـا يجعلنـي أشـكُّ بوجـود سياسـيِّين مـن الشـباب يُحسِـنون الاختيـار بحِكمـة. أبلغـي عنِّـي محبَّتـي لـو سـمحتِ إلى روزي عندمـا تُكاتِبينهـا، و، ثِقـي فيَّ.

صديقتك الـمُحِبَّة،

هيلين كيلر.

ملحوظة: ما رأيك في هذا الخِطاب المكتوب بخطِّ اليد؟ هـ ك.

إلى مدام غروڤـر كليـڤلاند

عزيزتي مدام كليـڤلاند،

أعتـزمُ أن أكتـبَ إليـكِ خِطابًـا قصـيرًا هـذا الصبـاح الجميـل؛ لأنَّنـي حقًّـا أُحبُّـكِ، وأحـبُّ الصغـيرة روث كثـيرًا جـدًّا، ولأنَّنـي أودُّ أيضًـا شـكركِ عـلى رسـالة المحبَّـة التـي أرسـلتِها إليَّ مـن خـلال الآنسـة ديـربي. أنـا سـعيدة، سـعيدة جـدًّا أنَّ مثـل تلـك السـيِّدة الجميلـة الطيِّبـة تحبُّنـي. لقـد كنـتُ أحبُّـكِ منـذ وقـت طويـل، لكنِّـي لم أظنَّـك قـد سـمعتِ عنّـي قَبـلًا إلى أن وصلتنـي رسـالتك العذبـة. قَبِّـلي عنِّـي طفلتـك العزيـزة الصغـيرة رجـاءً، وقـولي لهـا إنَّ لي أخًـا صغـيرًا لـه مـن العمـر سـتَّة عـشر شـهرًا. اسـمه فيليـس بروكـس. لقـد سـمَّيتُه بنفسـي، عـلى اسـم صديقـي العزيـز فيلبـس بروكـس. أبعـثُ لـكِ مـع هـذا الخِطـاب كتابًـا تحسـبُ مُعلِّمتـي أنَّـه سـيثير

ويكون مفتوحًا من الأمام. (المترجم)

اهتمامك، وكذا بعثتُ إليكِ صورتي. فلتسمحي وتتقبَّليهما مع المحبَّة والأماني الطيبة من صديقتك،

هيلين كيلر.

توسكامبيا، ألاباما،

الرابع من نوفمبر [1892]

إلى هُنا، ينتهي عرضُ نصوص الخِطابات الكاملة، ومن الآن فصاعِدًا ستُغفَلُ بعضُ فقرات، وسوف تُبيَّنُ مواضع الفقرات المستبعَدة.

إلى السيد چون هِتْز

توسكامبيا، ألاباما، 19 ديسمبر، 1892.

عزيزي السيد هتز،

لا أكادُ أعرفُ كيف أبدأ كتابةَ خطابي إليك، لقد مرَّ وقتٌ طويلٌ منذ أن وصلني خِطابُك الرقيق، وثَمَّ الكثير مِمَّا أودُّ الكتابة عنه لو استطعت. لا بُدَّ أنَّكَ تعجَّبتَ لِمَ لمْ يصلكَ ردٌّ منِّي على خِطابك، وربَّما ظننتَ أنَّ مُعَلِّمَتي وأنا حقًّا شخصان سيِّئا السُّلوك. إن كان الأمر كما ظننتُه، فلسوفَ تأسف كثيراً عندما أخبرَك بالآتي. مُعلِّمتي كانت تؤلمها عيناها؛ لذا لم تكن تستطع أن تُكاتِبَ أيَّ إنسان، وأنا كنتُ أحاول الوفاء بالعهد الذي قطعتُه الصيفَ الماضي. فقَبل أن أغادر بوسطن، طُلِبَ منِّي أن أدوِّن كتابًا عن حياتي لمجلة Youth's Companion. وكنتُ قد عقدتُ النيَّة على كتابته أثناء الإجازة، لكنِّي لم أكن بخير، ولم أشعر بقدرتي على الكتابة ولا حتى إلى أصدقائي. لكن حين حلَّت أيَّامُ الخريف البهيَّة البهيجة، وأحسستُ أنِّي استعدتُ قواي، بدأتُ أفكِّر بشأن التسجيل الكِتابي. استغرق الأمر وقتًا قبل أن

أتمكَّنَ من وضع مخطَّطٍ له بما يناسبني. فكما ترى؛ ليس ممًّا يبعثُ على السرور تمامًا أن يدوِّن المرءُ كلَّ شيءٍ عن نفسه. رغم ذلك، في نهاية الأمر، كنتُ أستلهِم الأمور شيئًا فشيئًا كما ظنَّت مُعلِّمتي أنه سوف يحدث، وشرعتُ أجمِّع القُصاصاتِ معًا -وهي لم تكن مهمَّةً هيِّنة- وعلى هذا، رغم أنَّني كنتُ أعملُ عليها بعض الوقت كلَّ يوم؛ لم أُنْهِها إلا قبل أسبوع، يوم السبت الماضي. أرسلتُ المسوَّدة إلى المجلة ما إن انتهت، لكن لا أعلم إن كانوا سوف يقبلونها. منذ ذلك الحين، لم أَكُنْ على ما يُرام، وقد أُجبِرتُ أن أرتاح وأظلَّ هادئة تمامًا، لكنَّني الآن أفضل حالًا، وغدًا سوف أكون بأفضل حال مجدَّدًا، أتمنَّى هذا.

التقارير التي قد قرأتَها عنِّي في الصُّحف ليست صحيحةً على الإطلاق. استلمنا عددَ Silent Worker الذي أرسلتَه، وكتبتُ إلى المحرِّر من فوري لأخبره أنَّ تلك التقارير مغلوطة. أحيانًا لا أكون على ما يُرام، لكنِّي لا أكون ساعتها "حُطامًا"، ولا شيء "يُقلِقُ" بشأن حالتي.

لقد استمتعتُ كثيرًا جدًّا بقراءة خِطابك اللطيف! إنِّي لأبتهِجُ دومًا حين يُكاتِبُني أيُّ إنسان بفكرةٍ جميلة يكون باستطاعتي أن أدَّخِرَها في ذاكرتي إلى الأبد؛ ذلك لأنَّ كُتبي ملأى بكُنوزٍ يقول عنها السيد رُسْكِن إنَّني أعشق الحديث عنها كثيرًا. لم أدرك ذلك إلا عندما بدأتُ في كتابة الكتاب لصالح Companion، كم هي صُحبةٌ عزيزةٌ على قلبي تلك الكتب[1]، وكم مُباركةٌ هي حياتي، وإنَّني الآن لأكثر سعادةً عن أيِّ وقتٍ مضى؛ لأنَّني صِرتُ أعي أسبابَ السَّعادة التي حلَّت بي. أتمنى أن تكتب إليَّ متى ما استطعتَ هذا. أريد أن أكتب إلى السيد بِلْ وأبعثَ إليه بصورتي. أفترضُ أنَّه جِدّ مشغولٍ على أن يُكاتب صديقتَه

(1) يُلاحَظ هُنا أنَّ هيلين تستخدمُ اسم العَلم Companion -وهو اسم المجلَّة، والذي يعني في العربيَّة: رفيق، زميل، صاحب- في وصف الكتب؛ ربَّما كما أسلَفَت أنَّها تستخدم الكلمات الجديدة عليها في جُمل كنوعٍ من التدريب، كما في رسالتها للآنسة ساره فولر، أو لربَّما هو بسبب التداعي الحرِّ. (المترجم).

الصغـيرة. أسـترجِعُ دومًـا الوقـت البهيـج الـذي قضينـاه جميعًـا معًـا في بوسـطن الربيـعَ المـاضي.

إنَّـي الآن مُقدِمـةٌ عـلى إخبـارِك بـسِرٍّ؛ أظنُّ أنَّنـا -مُعلِّمتـي، وأبي، وأختي الصغـيرة، وأنـا- سـوف نـزور واشـنطن في مـارس المقبـل!!! عندئـذٍ سـوف أراك، وسـوف أرى العزيـز السـيد بِـلْ، وسـأرى إلـزي ودايـزي مجـدَّدًا! ألـن يكـون جميـلًا لـو تمكَّنَـت السـيِّدة پـرات مـن ملاقاتنـا هنـاك؟ أظـنُّ أنَّنـي سـوف أُكاتبُهـا وأخبرهـا بالـسِّر أيضًـا...

مَحبَّتي صديقتك الصغيرة،

هيلين كيلر.

ملحوظـة: مُعلِّمتـي تقـول إنَّـك ترغـب أن تعـرفَ أيَّ نـوعٍ مـن المستأنسـات الصغـيرة أودُّ أن أمتلـك. أنـا أحـبُّ كل الأشـياء الحيَّـة- أحسـبُ أنَّ الجميـع كذلـك، لكـن أنـا بالطَّبـع لا يسـعني أن أملـك معرضًـا للوحوش. أنـا عنـدي مُهـر جميـل، وكلـب كبـير. وأنـا أرغـبُ بكلـبٍ صغـير يجلـس في حضنـي، أو قطَّـة كبـيرة (لا يوجـد في توسـكامبيا قطـط لطيفـة) أو ببغـاء. أودُّ أن أتحسَّـسَ ببغـاءً وهـو يتحـدَّث، لسـوف يكـون ذلـك مَرَحًـا عظيـمًا! لكنّـي سـأحبُّ وسأسـعدُ بـأيِّ كائـنٍ صغـير تُرسِـله لي.

هــ. ك.

إلى الآنسة كارولِن ديربي

توسكامبيا، ألاباما، 18 فبراير، 1893.

لقـد كنـتِ تشـغلين أفـكاري أثنـاء تلـك الأيَّـام الحزينـة، حينـما كان قلبـي يتأسَّـفُ عـلى خسـارتِه صديقـه المحبـوب[1]، ولكـم تمنَّيـتُ مـرَّاتٍ عِديـدةً أن لـو كنـتُ في بوسـطن وسـطَ هـؤلاء الـذي عرفـوه وأحبُّـوه

(1) فيليبس بروكس، مات في 23 يناير، 1893.

كـما عرفتُـه وأحببتُـه... لقـد كان أكـثر مـن صديـقٍ بالنسـبة لي! كان طَيِّبًـا جـدًّا ومُحِبًـا جـدًّا عـلى الـدَّوام! إنَّنـي أُحـاول ألَّا أنـدبَ لموتِـه بهـذا الحـزن العظيـم. أحـاول التفكـير في أنَّـه مـا يـزال قريبًـا، جِـدّ قريـب، لكـن، أحيانًـا، فكـرة أنَّـه ليـس موجـودًا، أنَّنـي سـوف لـن أراه عندمـا أذهـب إلى بوسـطن -أنَّـه قـد رحـل- لتتنـزَّل عـلى روحـي كموجـةٍ عظيمـةٍ مـن الغَـمِّ. لكـن في أحايـين أُخـرى، عندمـا أكـون أكـثر سـعادةً؛ أستشـعر حُضـوره البهـيَّ، وأتمثَّـل يـده الحنونـة وهـي تقـودُني في دروبٍ بهيجـة. أتذكُريـن تلـك السَّـاعة السَّـعيدة التـي قضيناهـا في مَعيَّتِـه شـهرَ يونيـو السـابق، عندمـا أخـذ بيـدي -كـما كان يفعـل دومًـا- وتحـدَّث إلينـا عـن صديقـه تينِّسـون، وعـن عزيزنـا الشـاعر السـيد هولمـز، وحاولـتُ أنـا تعليمـه أبجديَّـةَ هجـاء الأصابـع، وقـد ضحـكَ كثـيراً بجَـذَلٍ عـلى أخطائـه، وبعدهـا، أخبرتُـه عـن حفـل الشَّـاي الـذي نظَّمـتُ لـه، ووعـدني أن يـأتي، أتذكريـن؟ إنِّي لأسـتطيع سـماعه الآن، وهـو يقـول بأسـلوبه البشـوش الحـازِم، ردًّا عـلى أمـلي أن تنجـح مسـاعي حفـل الشـاي: "بالطَّبـع سـوف تنجـح يـا هيلـين. قومـي بالعمـل الجيِّـد بـكلِّ قلبـك يـا طِفلتـي، وحتـمًا لـن يخفـق الأمـر". إنَّنـي سـعيدةٌ أنَّ النـاس عازمـون عـلى صُنـع نُصـبٍ تـذكاريٍّ تخليـدًا لذِكـراه...

***

ذهَبَـت هيلـين والآنسـة ساليـڤـان إلى الشـمال في شـهر مـارس، وأمضيتـا الشـهور التاليـة القليلـة في التِّرحـال وزيـارة الأصدقـاء.

عنـد قـراءة هـذا الخطـاب عـن نياغـرا، لا بُـدَّ للمـرء مـن تذكُّـر أنَّ الآنسـة كيلـر تعـرف المسـافات والأشـكال، وأنَّ حجـم نياغـرا داخـلٌ في خِبرتهـا الذهنيـة عنـه بعـد أن استكشـفَتْه؛ وعـبرت الجِسر، وذهبت للأسـفل في المِصعَـد. الـشيء الأهـمُّ عـلى وجـه الخصوص هـي تلـك التفاصيـل؛ عـن إحساسِـها باندفـاع المـاء حـين وضعـت يدَهـا عـلى النَّافـذة. أعطاهـا الدكتور بِـلْ مَخَـدَّة، وضعتهـا أمامهـا كي تُكـبِّر الاهتـزازات بغـرض الاستشـعار.

إلى السَّيِّدة كاتي آدامز كيلر

جنوب بوسطن، 13 أبريل، 1893.

مُعلِّمتـي، والسـيِّدة بـارت، وأنـا قرَّرنـا عـلى غـير ترتيـب أن نذهـب في رحلـة مـع العزيـز دكتـور بِـلْ... السـيد وِسْتِرِفِـلْت -وهـو رجـلٌ محـترم قابلنـا والـده في واشـنطن- عنـده مَدرسـة خاصـة بالصُّـمّ في روتشيسـتر. وقـد ذهبنـا إلى هُنـاك أوَّلًا...

أقـام لنـا السـيد وِسْتِرِفِـلْت حفـل اسـتقبال بعـد الظُّهـر. حـضره الكثـير مـن النـاس. سـيدة مـن الحضـور كانـت مندهشـة لكـوني أحـبُّ الزهـور بينـما أنـا لا أسـتطيع رُؤيـة ألوانهـا الخلَّابـة، وحـين أكَّـدتُ لهـا أنَّنـي أحـبُّ الزهـور، قالـت: "لا ريـب أنَّـكِ تشـعرين بالألـوان عـبر أصابعـك". لكـن بالطَّبـع؛ ليـس لألوانهـا الزَّاهيـة فحسـب نحـن نحـبُّ الزهـور... سـألني رجـلٌ محـترم عـمَّا يعنيـه الجَـمال مـن وجهـةِ نظـري. لا بُـدَّ أن أعـترف أنَّنـي ارتبكـتُ في أوَّلِ الأمـر. لكـن بعـد مـرور دقيقـةٍ أجبـتُ بـأنَّ الجـمال ضَربٌ مـن الحُسـن- وبعدهـا مـضى.

عندمـا انتهـى حفـلُ الاسـتقبال عُدنـا إلى الفنـدق ونامـت مُعلِّمتـي غـير عارفـةٍ بالمفاجـأة التـي كانـت تنتظرهـا في خزانتهـا. فالسـيد بِـلْ وأنـا قـد أعددناهـا معًـا، وقـام السـيد بِـلْ بجميـع التجهيـزات قبـل أن نُخـبر المعلمـة بـأيِّ شيء عنهـا. كانـت هـذه هـي المفاجـأة: لقـد كنـتُ أنـوي أن أحظـى بالمتعـة بـأن آخـذ مُعلِّمتـي العزيـزة كي تـرى شـلَّالات نياغـرا!...

كان الفنـدق جِـدَّ قريـبٍ مـن النهـر، لدرجة أنَّـه كان بإمكاني الشـعور به وهـو يتدفَّـقُ فيـما وراء النافـذة حـين أضـع يـدي عليهـا. أشرَقَـت الشـمس في الصبـاح التـالي ناصعـةً تبـثُّ الـدِّفء في الأنحـاء، ونهضنـا مـن نومنـا بسرعـة لأنَّ قلوبنـا كانـت مشـغولةً بحـدثٍ مُرتَقَـب يبعـثُ عـلى الـسرور... لا يمكنـكِ أن تتخيَّـلي كيـف شـعرتُ حـين وقفـتُ في حضـور نياغـرا حتَّـى تُعاينـي نفـس الإحسـاس الغامـض الـذي انتابنـي بنفسـك. لقـد اسـتطعتُ

بالـكاد أن أُدرِكَ أنَّـه كان هـو المـاء مـا أحسسـتُ باندفاعـه غامـرًا عـلى قدمـيَّ بعُنـفٍ غاضـب. لقـد بـدا وكأنَّـه كائـن حـيٌّ يندفـع لملاقـاة مصيرٍ رهيـب. بإمـكاني أن أصِـف هـذا الطوفـان كـما هو؛ جمالـه وجلالـه المهيب، والانهـمار المخيـف الـذي لا يُقـاوَمُ لمياهــه فـوق جبـين الجُـرف. إنَّ المـرء ليشـعر بالعجـز والتَّصاغُـر في حضـور كهكـذا قـوةٍ كبـيرة. لقـد أحسسـتُ بنفـس الشـعور ذات مـرَّة قبـل هـذه المـرَّة؛ حينـما وقفـتُ أمـام المحيـط للمـرَّة الأولى، وشـعرت بأمواجـه وهـي تتلاطـم عـلى الشـاطئ. أظُنُّكِ سـوف تشـعرين بهـذا أيضًـا عندمـا تُمعنـين النَّظـر إلى النجـوم في سـكون الليـل، ألا تفعلـين ذلـك؟... نزلنـا نحـو الأسـفل مسـافة مائـة وعشريـن قدمًـا في مِصعـد، حتـى لربَّمـا قـد رأينـا الدَّوَّامـات العنيفـة والتيَّـارات العكسـيَّة في عمـق المضيـق أسـفل الشـلالات. عـلى مسـافة ميلَيْن ينتصِـبُ جسرٌ معلَّـقٌ بديـع. وقـد أُنشِـئَ فـوق المضيـق عـلى ارتفـاع مائتـين وثمـانٍ وعشريـن قدمًـا فـوق سـطح المـاء، وهـو مُدعَّـمٌ عـلى كلتـا الضِّفَّتَـيْن بواسـطة أبـراجٍ مـن الصخـر القـاسي، تفصـل بـين الأبـراج ثمانمائـة قـدم. حـين جُزنـاه إلى الجانـب الكنـديِّ، صِحـتُ أقـول: "فليحـمِ اللهُ الملِكـةَ!". قالـت لي مُعلِّمتـي -هازِلَـةً- إنَّنـي خائنـة صغـيرة. لكـن أنـا لا أظـنُّ ذلـك. أنـا كنـتُ أفعـل مـا يفعلـه الكنديُّـون فحسـب بمـا أنَّنـي كنـتُ أنـا في بلدهـم، إضافـةً إلى أنَّنـي أُعظِّـمُ ملكـة إنجلـترا الصالحـة...

ستُسَرِّين يـا أمِّـي العزيـزة حـين تعرفـين أنَّ امـرأةً طيِّبَـةً اسـمها الآنسـة هـوكار تجِـدُّ معـي كي تُحسِّـنَ مـن مسـتواي في الـكلام. يـاه، إنَّنـي أتمنـى وأبتهِـلُ كثـيرًا حتَّـى أتحـدَّث عـلى نحـوٍ مُتقَـنٍ يومًـا مـا!...

قـضى معنـا السـيد مانْسـل يـوم الأحـد المـاضي. كـم كنـتِ لتسـتمتعين بسـماعه وهـو يحـكي عـن مدينـة البُندقيَّـة! كلامـه البديـع المثير للخيـال جعلنـا نشـعر وكأنَّنـا كُنَّـا نجلـسُ في ظـلال سـان ماركـو، حالمـين، أو مُبحرين عـبر القنـاة المضـاءة بنـور القمـر. ... أتمنَّـى حـين أزور البندقيَّـة -ومؤكَّـدٌ أنَّنـي سـوف أفعلهـا يومًـا مـا- أن يذهـب معنـا السـيد مانسـل. إنني أبنـي

قصـورًا في الهـواء. فكـما تريـن؛ فـلا أحـدَ مـن أصدقـائي يَصِـفُ لي صـورةً بهيَّـةً تنبـضُ بالحيـاة كـما يفعـل هـو. ...

***

لقـد وَصَفَـت وقائِـعَ زيارَتِهـا للمعـرض العالمـيِّ في خطـابٍ إلى السـيد سـبولدنغ، وقـد نُـشِر في مجلـة القِدِّيـس نيكـولاس، وهـو يشـبه كثـيرًا الخطـابَ التـالي. في ملاحظـةٍ تمهيديَّـةٍ كَتَبَتها الآنِسَـةُ ساليـﭭـان إلى المجلَّـة؛ تُخـبِرُ أنَّ النـاس كانـوا يقولـون دومًـا: "إنَّ هيلـين تـرى بأصابعهـا أكـثر مـما نـرى نحـنُ بأعيُننـا". لقـد زكَّاهـا مديـر المعروضـات بهـذا الخطـاب:

إلى رؤساء الأقسام والضُّبَّاط المسؤولين عن المباني والمعروضات

أيُّها الرِّجال المحترمون-

حاملةُ الرِّسـالة؛ الآنسـة هيلـين كيلر، ترافقها الآنسـة ساليـﭭـان، راغبتان في القيـام بجولـةٍ اسـتعراضيَّةٍ للمعروضـات في جميـع الأقسـام. إنَّهـا كفيفـةٌ وصـمَّاءُ، لكنَّهـا قـادِرَةٌ عـلى التحـدُّث، وقـد قُدِّمَـت لي باعتبارهـا شـخصًا لديـه مقـدرة عظيمـة عـلى إدراك الأشـياء التـي تزورهـا، وبكونهـا عـلى درجـة عاليـة مـن الـذكاء ومـن الثقافـة تفـوقُ سِـنَّها. فلتتفَضَّلـوا عليهـا رجـاءً بـكلِّ التسـهيلات حتَّـى تُعايِـنَ المعروضـات في مُختلـف الأقسـام، وعامِلُوهـا بـكلِّ أشـكال اللطـف والكياسـة متـى كان ذلـك في الإمـكان.

أشكركم مُقدَّمًا لتوفيرِكُم ما ذُكِرَ آنِفًا، احترامي

المخلِص لكم

(مُوَقِّعُه) هــ ن. هاينبوثام،

المدير.

إلى الآنسة كارولِن ديربي

هالتون، پـنسِلـڤـانيا، 17 أغسطس، 1893.

كلُّ فـردٍ في المعـرض كان يتـصرَّف معـي بلُطـفٍ. ... بـدا أنَّ جميـع مسـؤولي المعروضـات تقريبًـا مسـتعدُّون أن يجعلـوني ألمـس أكـثر المعروضـات هشاشـةً، وكانـوا لُطَفـاءَ جـدًّا بشـأن إسـهابهم في شرح كلِّ شيءٍ لي. مُحـترَمٌ فرنـسي -لا أتذكَّـر اسـمَه- أراني التماثيـل البرونزيَّـة الفرنسـيَّة العظيمـة. أعتقـدُ أنَّ مُعاينتهـا قـد وهبتنـي متعـةً أكـثر مـن أيِّ شيءٍ آخـر في المعـرض: لقـد كانـت مُذهلـةً عنـد لمـسي إيَّاهـا وتُشبه الأجسـاد الحيَّـة. ذهـب معنـا دكتـور بِـلْ بنفسـه إلى مبنـى الكهربـاء، واسـتعرض لنـا أجهـزة التليفونـات الأثريَّـة. رأيـتُ ذاك الجهـاز الـذي قـد اسـتَمَعَ عَـبْرَه الإمبراطـور دون پِـدرو إلى جملـة: "أكـون، أو لا أكـون" في سـنتنيال. دكتـور غالِّـت، مـن إلّينويـز، أخذنـا إلى المبـاني المخصَّصـة للفنـون والمـرأة. لقـد زرتُ آنفًـا معروضـة تيفـاني، وأمسـكتُ بماسـة تيفـاني الجميلـة التـي تُقـدَّرُ قيمتُهـا بمائـة ألـف دولار، ولمسـتُ الكثـير مـن الأشـياء النـادرة الأخـرى والثَّمينـة. جلسـتُ في كُـرسيِّ الملـك لودوِيـج، وأحسسـتُ وكأنِّي قـد صِرتُ مِلكـةً حـين ذكـر الدكتـور غالِّـت أنَّ لـديَّ الكثـيرَ مـن المقوِّمـات الملكيَّـة. في مبنـى المـرأة التقينـا الأمـيرة ماريـا تشاوڤِـسكوي مـن روسـيا، وسـيِّدةً سـوريَّةً بهيَّـةَ الطلعـة. لقـد أحببـتُ كلتيهـما كثـيرًا. ذهبـتُ إلى القِسْـم اليابـانيِّ برفقـة الدكتـور مـورْس؛ وهـو مُحـاضرٌ ذائـعُ الصِّيـت. لم أكـن أدرك أبـدًا كـم أنَّ اليابانيِّـين قـومٌ مُذهلـون حتَّـى رأيـتُ أكـثرَ معروضـةٍ لهـم إثـارةً للاهتـمام. لهـم الحـق الأطفـال أن يحكمـوا عـلى اليابـان ويقولـوا إنَّهـا بالفِعـل جنَّـةٌ؛ ذلـك نظـرًا إلى العـدد الهائـل مـن حاجيـات الألعـاب التـي تُصنَّـعُ هنـاك. الآلات الموسـيقيَّة اليابانيـة غريبـةُ المنظـر، وأعمالهـم الفنِّيَّـة البديعـة هـي أشـياءُ مثـيرةٌ للانتبـاه. الكتـب اليابانيَّـة غريبـةٌ جـدًّا؛ ففـي أبجديَّتِهـم سـبعةٌ وأربعـون حَرفًـا. إنَّ البروفيسـور مـورس يعلـم الكثـير عـن اليابـان، وهـو شـخصٌ طيِّـبٌ وحكيـم. دعـاني لزيـارة مُتحَفِـه في سـالِم في

المـرة القادمـة التـي أذهـب فيهـا إلى بوسـطن. لكـن، أعتقـد أنِّي اسـتمتعتُ بالرحـلات البحريَّـة التـي خُضناهـا في الهَـوْر[1] السَّـاكن، وبالمناظـر المحبَّبـة إلى النَّفْـسِ كـما وصفهـا لي أصدقـائي أكـثر مـن أيِّ شيءٍ آخـر في المعـرض. ذاتَ مَـرَّة، بينـما كُنَّـا مُبْحِريـن وسـط المـاء، نزلـت الشَّـمسُ فـوق حافَّـة الأرض، مُرسِـلةً ضـوءًا ورديًّـا رقيقًـا فـوق المدينـة البيضـاء، جاعلـةً إيّاهـا تبـدو أكـثر شَـبهًا بـأرض الأحـلام....

نحـن زُرنـا طبعًـا Midway Plaisance. لقـد كان مكانًـا فاتنًـا ومُذهِـلا. فـكأنِّي قـد تجوَّلـتُ في شـوارع القاهـرة، وركبـتُ الجمـل. كان ذلـك لهـوًا لطيفًـا. ركبنـا أيضًـا عجلـة فـيرِّس[2]، وسرِنـا عـلى السِّـكَّة الحديديَّـة المليئـة بالثلـوج، ورُحنـا في رحلـةٍ بحريـة عـلى ظهـر الحـوت...

***

في ربيـع 1893، أُنشِـئَ نـادٍ في تسـوكامبيا، ترأَّسـته السـيدة كيلـر؛ وذلـك لأجـل تشـييد مكتبـةٍ عامَّـةٍ. تقـول الآنسـة كيلـر:

"كتبـتُ إلى أصدقـائي عـن الأمـر واسـتمَلْتُ فيهـم تعاطُفَهـم. وفي غضونِ وقـتٍ قصـيرٍ أُرسِـلَت إليَّ العديـد مـن مئـات الكتـب، مـن بينهـا كُتـبٌ أنيقـة، وزُوِّدْتُ كذلـك بالمـال والتشـجيع. إنَّ هـذه المعونـةَ السَّـخيَّةَ قـد شـجَّعت السَّـيِّدات؛ فانطلقـن يجمعـن ويشـترين الكُتـب منـذ ذلـك الحـين، حتـى صـار عندَهُـنَّ الآن مكتبـةٌ عامَّـةٌ لهـا وزنهـا في المدينـة".

(1) الهور: هي الأرض الرطبة المنخفضة. (المترجم)

(2) عجلـة فـيرِّس أو دولاب الهـواء: عجلـة دوارة مـع عربـات للركـوب (يشـار إليهـا أحيانًـا باسـم الجنـدول أو الكبسـولات) يتـمُّ تعليقهـا عـلى حافَّـة العجلـة وهـي تـدور. (المترجـم)

إلى السَّيِّدة تشارلز إ. إنْتشز

هالتون، پـنسِلـڤـانيا، 21 أكتوبر، 1893.

لقـد قضينـا شـهر سـبتمبر بالبيـت في توسـكامبيا... وكُنَّـا جميعًـا سُـعداء معًـا... فبيتُنـا القائـم فـوق الجبـل كان فاتنًـا وباعثًـا عـلى الاسـترخاء عـلى نحـوٍ مميَّـز، وذلـك بعـد مـا خلَّفتـه فينـا زيارتنـا إلى "معـرض العالَـم" مـن إثـارةٍ وإرهـاق. فقـد اسـتمتعنا بعُزلـة التـلال وبجمالهـا أكـثر مـن أيِّ وقـتٍ مضى .

ونحـن الآن مقيمـون في هالتـون، في پـنسِلـڤـانيا مُجـدَّدًا، حيـث سـوف أدرُسُ هـذا الشـتاء مـع مُعلِّـمٍ ستُسـاعِدُه مُعلِّمتـي العزيـزة. سـوف أدرس علـم الحسـاب، واللغـة اللاتينيَّـة والأدب. إنِّي لأسـتمتعُ كثـيرًا بـدروسي؛ فمـن المبهِـج أن تتعلَّـم عـن أشـياء جديـدة. أتبيَّنُ كلَّ يـومٍ كـم ضئيـلٍ هـو مـا أعرفـه، بَيْـدَ أنَّنـي لا تُثَبَّـطُ هِمَّتـي بمـا أنَّ الله قـد وهبنـي سَرمَـدًا مـن الزَّمـن فيـه سـأتعلَّمُ المزيـد. أدرسُ في الأدب قصيـدة لونغفيلـو. أنـا أحفـظُ قـدرًا عظيـمًا منهـا عـن ظهـر قلـب، لدرجـة أنِّي كنـت أعشـقها ردحًـا طويـلًا مـن الزمـن قبـل أن أميِّـزَ الاسـتعارة مـن المجـاز المرسَـل. اعتـدتُ ترديـد أنِّي لا أحـبُّ الحسـاب كثـيرًا، لكنَّنـي الآن قـد غـيَّرتُ رأيـي. أُدرِكُ الآن كـم جميلـةٍ ومفيـدةٍ هـي دراسـتُه، غـير أنِّي لا بُـدَّ وأن أعـترِفَ أن عقـلي يتـوه بسـببه أحيانًـا! عـلى كَونـه لطيفًـا ومفيـدًا هـو علـم الحسـاب، فليـس مثـيرًا للاهتـمام كـما قصيـدةٍ جميلـة أو قصَّـةٍ لطيفـة. لكـن يـا إلهـي، كـم أنَّ الوقـت يطـير! لـديَّ بضـع دقائـق فحسـب لأُجيـبَ فيهـا عـن أسـئلتِكِ بخصـوص مكتبـة "هيلـين كيلـر" العامَّـة.

1. أعتقـد أنَّ في توسـكامبيا بألاباما يوجـد نحـو ثلاثـة آلاف إنسـان، وربَّمـا نصـف هـذا العـدد هـم مـن ذوي البـشرة الملوَّنـة. 2. لا يوجـد في الوقـت الحـالي مكتبـة في البلـدة مـن أيِّ نـوع. هـذا هـو السـبب في أنَّنـي فكَّـرتُ في إنشـاء واحـدة. أُمِّـي وبعـضٌ مـن صديقـاتي السَّـيِّدات

قُلن إنَّهنَّ سوف يُساعدنَني، وقد أنشأنَ جمعيَّةً، الغايةُ منها هي العمل لأجل إنشاء مكتبة عامَّةٍ مجَّانيَّةٍ في توسكامبيا. لديهنَّ الآن تقريبًا ألفُ كتاب وخمسةٌ وخمسون دولارًا في صندوق جمع المال، وقد وَهَبَنا رجلٌ مُحترَم قِطعةَ أرضٍ عليها سوف نُقيمُ مبنى المكتبة. لكنَّ الجمعيَّةَ في الوقت الحال استأجرَت حجرةً صغيرة بمكانٍ في وسط المدينة، والكتب التي لدينا بالفعل مُتاحةٌ للجميع بالمجَّان. 3. قليلون هم من أصدقائي في بوسطن مَن يعلمون بأمر المكتبة. لم أشأ أن أزعجهم في الوقت الذي كُنتُ فيه أحاول التحصُّل على مالٍ لأجل المسكين الصغير تومي؛ فالحاجةُ لأن ينال قِسطًا من التعليم، هي طبعًا أمرٌ أكثرُ أهمِّيَّةً من أن يحصل قومي على الكتب كي يقرؤوها. 4. لا أعلم ما هي الكتب التي بحوزتنا، لكنِّي أظنُّ أنَّها مجموعة متنوِّعة (أعتقد أنَّ تلك هي الكلمة المناسبة)...

ملحوظة: ترى مُعلِّمتي أنَّه سوف يكون عمليًّا أكثر أن أقول إنَّه سوف يُحتَفَظُ بقائمةٍ من المشاركين في تمويل المكتبة ونشرها في جريدة أبي، جريدة "الألاباميُّ الشَّماليُّ".

هـ . ك.

إلى الآنسة كارولين ديربي

هالتون، پنسِلڤانيا، 28 ديسمبر، 1893.

اشكري لي الآنسة العزيزة ديربي رجاءً لأجل الدِّرع البديع الذي أرسلت لي إيَّاه. إنَّه تِذْكارٌ مهمٌّ جدًّا من كولومبوس، ومن معرض وايت سيتي، لكن ليس باستطاعتي أن أتخيَّل ما قُمتُ به أنا من الاكتشافات- أعني اكتشافاتٍ جديدة. إنَّ جميعَنا مُكتَشِفون بمعنًى من المعاني؛ فقد وُلِدنا جاهلين تقريبًا بكلِّ الأشياء. لكنِّي لا أكاد أعتقد أنَّ هذا هو ما كانت تقصِده. أخبريها أنَّه لِزامٌ عليها أن تشرح لماذا أنا مُكتشِفة...

إلى الدكتور إدوارد إيڤيرت هال

هالتون، پنسِلڤانيا، 14يناير، 1894.

ابن خالي العزيز: لقد فكَّرتُ أن أكتب لك قبل وقتٍ طويل من خطابي هذا ردًّا على خطابِكَ اللطيف الذي قد سُعدتُ للغاية بتلقِّيه، وكي أشكرَكَ أيضًا على الكتاب الجميل الذي أرسلته لي، لكنَّني كنتُ مشغولةً جدًّا من بداية العام الجديد. فنَشرُ قِصَّتي القصيرة في مجلة Youth Campanian قد أسفر عن وصول عددٍ كبيرٍ من الخطابات -الأسبوع الماضي تلقَّيتُ واحدًا وستِّين خِطابًا!- وبجانب الرَّد على بعض هذه الخِطابات، كان عندي الكثير من الدروس لا بُدَّ أن أتعلَّمها، من بينها علم الحِساب واللغة اللاتينيَّة- فكما تعلم؛ فالقيصرُ ما يزال هو القَيصَر؛ مُستَبِدٌّ ومُتَغَطْرِس، وإن كان لفتاةٍ صغيرةٍ أن تفهم رجلًا عظيمًا كهكذا رجل، وأن تستوعِبَ الحروب والغزوات التي يحكي عنها في لُغتِه اللاتينيَّة الفاتنة؛ فلا بُدَّ لها أن تدرس كثيرًا وتفكِّر كثيرًا، والدراسة والتفكير يستلزِمان وقتًا.

إنِّي أعتبر دومًا أنَّ هذا الكتاب الصغير غنيمة، ليس لأجل قِيمَتِه فحسب، بل بسبب ارتباطِه بك. من المبهج أن أتذكَّرَ بأنَّك قد وهبتني واحدًا من كُتُبِك، وأنا على يقينٍ أنَّكَ قد دوَّنتَ فيه أفكارَكَ الخاصَّة ومشاعِرك، وإنِّي لأشكُرُكَ كثيرًا لأنَّكَ تذكَّرتَني بهذه اللفتَة اللطيفة...

* * *

عادت هيلين والآنسة ساليڤان إلى توسكامبيا في فبراير. قَضَيتا ما تبقَّى من الربيع في القراءة والدراسة. وفي فصل الصيف، حضرتا إلى ملتَقى تشاتاكوا(1) للرابطة الأميركيَّة لدعم تعليم الصُّمِّ الكلام، حيث

(1) Chautauqua تشاتاكوا هي بلدة ضمن إقليم تشاتاكوا بنيويورك. واصطلاحًا، هي حركة تعليميَّة بدأت في أواخر القرن التاسع عشر وبدايات القرن العشرين، كانت تعقد مُعسكرات صيفية تعليمية، تُزاوِجُ بين الثقافة والترفيه؛ حيث يُؤتى فيها بمُحاضرين ومُعلِّمين ومُوسيقيِّين

قـرأت الآنسـة ساليـڤـان ورقـةً بحثيَّـةً عـن مسـار عمليـة تعليـم هيلـين كيلـر.

في الشـتاء، دخلـت هيلـين والآنسـة ساليـڤـان مدرسـة رايـت سامسـون بنيويـورك، حيـث فيهـا قِسـمٌ مخصـوصٌ لتعليـم قـراءة الشِّـفاه والتثقيـف الصـوتيِّ. "دروسُ الغِنـاء" كان الهـدفُ منهـا تقويـة صوتهـا. كانـت قـد تلقَّت بضعـة دروسٍ في البيانـو بمعهـد بيركنـس. لقـد كانـت التجربـة مثـيرة، لكنَّهـا أسـفرَت بالطَّبـع عـن نتائِـجَ مُتواضِعَـة.

إلى الآنسة كارولين ديربي

مدرسة رايت هامسون

42 المنطقة الغربية، شارع 76

نيويورك، 23 أكتوبر، 1894.

إنَّ المدرسـة تبعـث عـلى الـسرور، وإنَّهـا كذلـك -وليبـاركك الله!- مـكانٌ فاخـرٌ للغايـة... إنَّنـي أدرس الحسـاب، والأدب الإنجليـزيَّ وتاريـخ الولايـات المتحـدة الأميرِكيَّـة، كـما فعلـتُ في الشـتاء الفائـت. إنّنـي أحتفـظ أيضًـا بدفـتر يوميَّـات. إنَّنـي أسـتمتعُ بـدروس الغنـاء مـع الدكتـور هامسـون أكـثر مـمَّا بإمـكاني أن أعـبِّر لـكِ عـن ذلـك. أترقَّـبُ أن أتلقَّـى دروسًـا في البيانـو بعـض الوقـت...

لقـد رتَّـب لنـا مُعلِّمونـا الطَّيِّبـون رحلـةً مبهجـة إلى جزيـرة بيدلـو يـوم السـبت المـاضي؛ كي نـرى تمثـال الحريـة العظيـم الـذي يُنـوِّر العـالم، الـذي أنجـزه بارتولْـدي.

وغير ذلك من طوائف. (المترجِم).

إنَّ حاملة الشعلة العتيقة، التي تنظر صَوبَ البحر، يغشى وجهَها تعبيرٌ تهديديٌّ شديد، لكنِّي أشكُّ في وجود أيَّة قسوةٍ في بواطِنها الصَّدِئة القديمة.

تمثال الحرية هو مُجسَّمٌ عظيمٌ لامرأة ترتدي أقمشةً من الجوخ اليوناني، تمسك في يدها اليُمنى شُعلة... يوجد سُلَّمٌ لولبيٌّ يبدأ من قاعدة التمثال ويصل حتى الشُّعلة. لقد صعدنا إلى الرأس التي تَسَعُ لأربعين شخصًا، وعاينَّا المشهد الذي يحدِّقُ فيه تمثال الحرية ليلَ نهار. يا للعجَب! كم كان مُدهِشًا! لم نعجَب لكون الفنان الفرنسي كان يفكِّر في أنَّ المكان يستحقُّ أن يكون مُستقرًّا لنموذجه الفخم. ينبسط الخليج العظيم هادئًا بهيًّا في شمس أكتوبر، تروح السفن وتذهب كأنَّها أحلامٌ متكاسِلة، تلك السفن التي تسير وئيدًا باتِّجاه البحر، تختفي مثل الغمام الذي يتبدَّل لونه من الذهبيِّ إلى الرمادي، وتلك القادمةُ إلى الوطن تعجِّلُ في مسيرها حثيثًا، مثل الطيور التي تنشدُ عُشَّ أُمِّها...

إلى الآنسة كارولين ديربي

مدرسة رايت هامسون

نيويورك، 15 مارس، 1895.

أعتقد أنَّني تحسَّنتُ قليلًا في قراءة الشِّفاه، ورغم ذلك، ما زلتُ أجِدُ بعدُ أنه من العسير جدًّا أن أستقرِئ الحديث السريع، لكنَّني مُتَأكِّدة أنني سوف أنجحُ يومًا ما إن واظَبتُ فحسب. ما يزال دكتور هامسون يواصل محاولته لتحسين قُدرتي على الكلام. آه يا كاري، كم أودُّ أن أتحدَّث مثل الناس الآخرين! ينبغي أن أكون حريصةً على العمل ليلًا ونهارًا لو كان فقط في المستطاع تحقيق هذا. تخيَّلي معي أيَّ فرحةٍ ستشمل جميع أصدقائي لدى سماعهم إيَّاي أتحدَّثُ

بشكلٍ طبيعيٍّ!! إنِّي لأتساءل، لماذا يكون من العسير جدًّا وباعثًا على التشوُّش بالنسبة لطِفلٍ أصمَّ أن يتعلَّم أن يتكلَّم، بينما هو سهلٌ جدًّا بالنسبة للناس الآخرين، لكنِّي على يقين أنَّني سوف أتكلَّمُ بإتقانٍ يومًا ما لو أني صَبِرتُ فحسب...

رغم أنَّني كنتُ مشغولة جدًّا، وجدتُ الوقت لقراءة قدرٍ لا بأس به... قرأتُ مؤخَّرًا "ڤِلْهِلم تِل" لـ شيلر، و"عذراء ڤِستال المفقودة".

أقرأ الآن "ناثان الحكيم" لـ ليسنْغ، و"المِلك آرثر" للآنسة مالوك.

أنتِ تعلمين أنَّ مُعلِّمينا الطيِّبين يأخذوننا لنرى كلَّ الأشياء التي يعتقدون أنَّها سوف تثير اهتمامنا، ونحنُ نتعلَّم الكثير بهذه الطريقة المبهجة. في عيد ميلاد چورچ واشنطن، ذهبنا جميعًا إلى عرض الكلاب (The Dog Show)، ورغم أنَّه كان هناك حشدٌ كبير في قاعة ماديسون سكوير غاردن، وبغضِّ النظر عن الذهول النَّاجم عن تشكيلة الأصوات الصادرة عن أوركسترا الكلاب -التي كانت مُحيِّرة جدًّا بالنسبة لأولئك الذين استطاعوا سماعها- فقد استمتعنا كثيراً بفترة ما بعد الظهيرة. من بين الكلاب التي تلقَّت أكبر قدرٍ من الاهتمام كانت فصيلة البولدوغ. كانوا يتركون أنفسهم يروِّعون الآخرين موهمين إيَّاهم بانفلاتهم ما إن يحاول أحدهم مُلاطفتها، ويحشرون أجسامهم بين ذراعَيْ المرء، ويُدلِّلون أنفسهم دُون كُلفةٍ بطلب القُبلات، من الواضح أنَّهم كانوا غير واعين بعدم لياقة سلوكهم. يا سلام! كم قبيحين هم أولئك الوحوش! غير أنَّهم مُؤنِسون جدًّا ووَدودون، وليس في وسع المرء سوى أن يحبَّهم.

دكتور هامسون، ومُعلِّمتي، وأنا- تركنا البقيَّة مِنَّا في عرض الكلاب وذهبنا إلى حفل الاستقبال الذي أعدَّه "نادي المتروبوليتان". يُطلَقُ عليه أحيانًا "نادي المليونيرات". مبنى النادي شيءٌ فاتن، إنَّه مُشيَّدٌ من الرخام الأبيض، الحجرات فيه فسيحةٌ ومؤثَّثةٌ على نحوٍ فَخْم، لكن لا

بُـدَّ أن أعـترف، إنَّ الكثـيرَ مـن الفخامـة لهـو أمـرٌ ثقيـلُ الوطـأة بالنسـبة لي، أنـا لم أكـن أحسـد أصحـاب الملايـين- عـلى الأقـلِّ؛ عـلى جميـع أشـكال السـعادة التـي مـن المفـترض أن توفِّرهـا لهـم الأجـواءُ البهيَّـةُ الجـمال التـي تحيـطُ بهـم...

إلى السيدة كاتي آدامز كيلر

نيويورك، 31 مارس، 1895.

...مُعلِّمتـي وأنـا قضينـا فـترة مـا بعـد الظهـيرة في بيـت السـيد هاتّـون، وقـد اسـتمتعت بوقـتٍ مبهـجٍ إلى أقـصى الحـدود!

...قابلنـا هنـاك السـيد كليمنـس والسـيد هاولـز! كنـتُ قـد سـمعت عنهـما منـذ وقـتٍ طويـل، لكنـي لم أكن أعتقـد أنِّي سـوف أراهـما، وأتحدَّثُ إليهــما، وأســتطيعُ بالــكاد أن أدرك الآن أنَّنــي قــد فُــزتُ بهــذه المتعــة العظيمـة! لكـن، بقـدر مـا بكـوني، أنـا الفتـاة الصغـيرة ذات الأربعـة عـشر عامًـا، قـد بِـتُّ عـلى تواصـل مـع الكثـير جـدًّا مـن الأشـخاص البارزيـن، أدرك أنَّنـي طفلـةٌ سـعيدةٌ جـدًّا، وممتنَّـةٌ جـدًّا لأجـل الامتيـازات الكثـيرة الجميلـة التـي أتمتَّـعُ بهـا. الكاتبـان البـارزان كانـا جِـدَّ لطيفَـيْنِ وكريمَـيْنِ معـي، وليـس في وسـعي القـول أيُّهـما أحببته أكـثر. روى لنا السـيد كليمنس الكثـيرَ مـن القصـص الماتعـة، وجعلنـا نضحـك حتـى البـكاء. كنـتُ أتمَّنـى أن لـو تمكَّنـتِ فحسـب مـن رؤيتـه وسـماعه! أخبرنـا أنـه سـوف يسـافر إلى أوروبـا خـلال بضعـة أيَّـام؛ كي يُعيـد زوجتـه وابنتـه چـين إلى أمـيركا؛ لأنَّ چـين -التـي تـدرس في باريـس- قـد تعلَّمـت الكثـير خـلال ثـلاث سـنواتٍ ونِصـف، وإن لم يُعِدهـا إلى البيـت، فقريبًـا سـوف تصبـح عـلى قـدرٍ مـن المعرفـةِ أكـثرَ منـه، أظـنُّ أنَّ اسـم مـارك تويـن هـو اسـمٌ مُسـتعار مناسـب جِـدًّا للسـيد كليمنـس؛ لأنَّ لـه وَقـعٌ جـذَّاب وطريـف، وهـو يتناسـب تمامًـا وكتاباتِـه المسـلِّية، ودلالاتـه البحريَّـةُ توحـي بالأشـياء الجميلـة والعميقـة

التـي كان يكتبهـا[1]. أعتقـد أنَّـه فعـلاً وسـيمٌ جـدًّا... مُعلِّمتـي قالـت إنهـا تعتقـد أنَّـه يُشـبه مُواطِنًـا بارادوسـكيًّا[2] (إن كانـت هـذه هـي الطريقـة الصحيحـة لنُطـق الاسـم). حـكى لي السـيد هاولـز قليـلًا عـن مدينـة البُندقيَّـة، وهـي واحـدة مـن أكـثر المـدن المفضلـة عنـده، وتحـدَّث كثـيراً بعذوبـةٍ عـن فتاتِـه الصغـيرة العزيـزة، وينِّيفريـد، التـي هـي الآن في جـوار الله. عنـده ابنـةٌ أُخـرى، اسـمها ملـدرد، وهـي تعـرف كاري. كان مـن المرجَّـح أن أرى السـيدة ويغـين، مُؤلِّفـة "أنشـودة الطيـور للكريسـماس"، إلا أنَّهـا كانـت مُصابـة بسُـعالٍ خطـير ولم تسـتطِع أن تـأتي. لقـد خـاب رجـائي بسـبب عـدم رؤيتهـا، لكنـي أتمنَّـى أن أحظـى بهـذه المتعـة في وقـتٍ آخـر. أهـداني السـيد هاتـون زُجاجـةً صغـيرة جميلـة، كتِـذكارٍ لزيـارتي البهيجـة، شـكلها كان يُشـبه الشـوكة، كانـت مِلـكًا لأمِّـه العزيـزة. التقينـا أيضًا السـيد روجـرز... وبكـرمٍ منـه، تـركَ لنـا حَنطـورَه كي يُعيدنـا إلى البيـت.

* * *

عندمـا أغلقـت مدرسـة رايـت هامسـون أبوابَهـا بحلـول فصـل الصيـف، ذهبت الآنسـة ساليـڤـان وهيلـين إلى الجنوب.

إلى السيدة لورانس هاتون

توسكامبيا، ألاباما، 29 يوليو، 1895

إنَّنـي أقـضي إجـازتي عـلى نحـوٍ هـادئٍ جـدًّا ويبعـث عـلى الـسرور في بيتـي الجميـل المشـمِس، بصحبـة والـديَّ الحبيبَـيْن، وأختـي الصغـيرة

---

(1) Mark Twain هـو اسـمٌ مسـتعار للكاتـب الشـهير صاحـب مغامـرات "تـوم سـوير" وغيرهـا، وقـد اكتسَـبَ الاسـم بسـبب حياتـه البحريـة، والاسـم يعنـي حرفيًـا "علِّـم عـلى رقـم 2" وهـو مُصطلَـح بحـريّ اسـتُخدِم في منطقـة المسيسـيبي، يعنـي العلامـة الثانيـة عـلى الخَـطِّ الـذي يقيـس عُمـق قامَتـين اثنتـين- حيـث القامـة تسـاوي سِـتّة أقـدام. (المترجـم)

(2) Paradiski منطقة للتزحلق على الجليد. (المترجم)

العزيـزة، وأخـي الصغـير، فيلِبـس. مُعلِّمتـي الغاليـة بصحبتـي أيضًـا؛ ولهـذا طبعًـا أنـا سـعيدة. أقـرأ قليـلًا، أتمـشَّى قليـلًا، أكتـب قليـلًا وأقـضي وقتًـا كبـيرًا ألعـبُ مـع الأطفـال، وتنقـضي الأيَّـام تملؤهـا البهجـة!...

إنَّ أصدقـائي مـسرورون جـدًّا بالتطـوُّر الـذي أحرزتُـه في الـكلام وقـراءة الشـفاه العـام المـاضي، حتَّـى أنَّـه قـد تقـرَّرَ أنَّـه مـن الأفضـل لي مواصلـة دراسـاتي في نيويـورك لعـامٍ آخـر. إنَّنـي فَرِحَـةٌ لاحتماليَّـة قضـائي عامًـا آخَـر في مدينتكـم العظيمـة. كثـيرًا مـا كُنـتُ أعتقـدُ أنَّنـي لـن أصـير وكأننـي "في بيتـي" في نيويـورك، غـير أنِّي منـذ أن تعرَّفـتُ بالكثـير جـدًّا مـن النـاس، واسـترجعتُ ذاك الشـتاء الباهـر المـليء بالنَّجـاح هنـاك؛ أجـدُني أتطلَّـعُ لحلـول العـام القـادم، وأسْـتَبِقُ بعـدُ مجـيءَ أوقـاتٍ باهـرةٍ أكـثر وأفضـل في العاصمـة.

رجـاءً أوصـلي إلى السـيد هاتـون أطيـب تحيَّـاتي، وكذلـك إلى السـيدة ريجـز والسـيد وارنـر- رغـم أنِّي لم يسـعدني الحـظ أن حظيـتُ بالتعـرُّف إليهـما شـخصيًّا. بينـما أسـتمعُ إلى Venicewards، أسـمع قلـمَ السـيد هاتـون يتراقـص فـوق صفحـات كتابـه الجديـد. إنَّـه صـوتٌ جـذَّابٌ لأنَّـه يبعـثُ عـلى الطمأنينـة. كـم أسـتمتعُ بمُطالعتِـه!

فلتعذرينـي رجـاءً سـيِّدة هاتـون لإرسـالي إليـكِ خِطابًـا عـبر المحيـط مكتوبًـا عـلى الآلـة الكاتبـة. لقـد حاولـتُ مـرَّاتٍ عديـدةً أن أكتـب بقلـمٍ رصـاص مسـتندةً عـلى أداة الكتابـة الصغـيرة خاصَّتـي منـذ أن عُـدتُ إلى البيـت، إلَّا أنِّي وجـدتُ أنَّـه مـن العسـير القيـامُ بهـذا بسـبب سـخونة الجـو. فرطوبـة يـدي تُلطِّـخُ الورقـة عـلى نحـوٍ كريـهٍ جـدًّا؛ لـذا أجـدُني في العمـوم مضطـرَّةً لاسـتخدام آلتـي الكاتبـة. وهـي ليسـت حتـى آلتـي التـي مـن نـوع ريمنغتـون، بـل آلـة كاتبـة متمـرِّدة تخـرجُ عـن السـيطرة مـع أدنى تحـدٍّ، وعندهـا لا يُسـتطاعُ دَفعهـا لكتابـةِ جُملـةٍ تامَّـة...

مكتبة
t.me/soramnqraa

إلى السيدة وليام ثو

نيويورك، 16 أكتوبر، 1895.

ها نحنُ مُجدَّدًا هُنا في المدينة العظيمة! غادرنا هالتون ليلة الجمعة ووصلنا هنا صباح يوم السبت. كان أصدقاؤنا متفاجئين جدًّا لدى رؤيتنا؛ فهم لم يتوقَّعوا أن يرونا قبل نهاية هذا الشهر. أقلتُ فترة ما بعد الظهيرة، حيث أنَّني كنتُ مرهَقةً جدًّا، وقضيتُ وقتًا أتحدَّثُ مع رُفقائي في المدرسة، وبما أنَّني الآن أشعر تقريبًا بالراحة، أعتزمُ مُكاتَبَتكِ، حيث إنّني أدري أنَّك سوف ترغبين في معرفةِ أنَّنا وصلنا نيويورك بالسلامة. تعيَّنَ علينا أن نُبدِّل السيَّارات في فلادلفيا، لكن لم يزعجنا ذلك كثيرًا. بعد أن تناولنا إفطارَنا، سألت مُعلِّمتي أحدَ عُمَّال القِطار في المحطَّة إن كان القطار المتَّجِه إلى نيويورك قد جُهِّزَ للرحلة. قال لا، سوف يتأخَّر الإذاعة عن موعد قيامه نحو خمس عشرة دقيقة؛ لذا جلسنا ننتظر، لكن عاد الرجل بعد دقيقة وسألنا إن كُنَّا نودُّ الصعود على متن القِطار فورًا. قالت إنَّنا نودُّ هذا، ثمَّ قادنا إلى الطريق على شريط السِّكَّة وجَعَلَنا نصعد على متن قِطارنا. وبهذا تفادينا الزِّحام وحصلنا على زيارةٍ هادئة للقطار قبل أن ينطلِق. ألم يكن هذا لطيفًا؟ هكذا يكون الأمر دومًا. حيث يكون في طريقنا شخصٌ ما على استعدادٍ دومًا أن ينثرَ أفعالًا قليلةً من الخير على طول مسارِنا جاعِلًا إيَّاه سَلِسًا وسهلًا...

قضينا في هالتون وقتًا هادئًا، إلا أنَّه كان مُمتِعًا جدًّا. إنَّ السيد ويد طيِّبٌ ومُحِبٌّ كما هو عهده دومًا! لقد تحصَّل على عديدٍ من الكتب المطبوعة في إنجلترا من أجلي، "الوفَيَاتُ القديمة"، "قلعة أُوترانو" و"ملك أرض اللا مكان"[1].

---

(1) "الوفيات القديمة" رواية للسير والتر سكوت، "قلعة أوترانو" رواية منشورة عام 1764، كتبها هوراس والبول، "ملك أرض اللا مكان" من مؤلَّفات ليمان فرانك بوم، صاحب "ساحر أوز العجيب" الشهيرة. (المترجم)

إلى الآنسة كارولين ديربي

نيويورك، 29 ديسمبر، 1895.

مُعلِّمتـي و أنـا قضينـا وقتًـا مُمتِعًـا أمـس. التقينـا أصدقاءنـا الطيبـين: السيدة دودج، والسيد والسيدة هاتـون، والسيدة رجـز و زوجهـا، وقابلنـا الكثـير مـن الأشـخاص البارزيـن، مـن بينهـم الآنسـة إلـين تـيرّي، السِّـير هـنري إيرڤـنغ والسـيد سـتوكتون! ألم نكـن محظوظَتَـيْن جـدًّا؟ كانـت الآنسـة تـيرّي لطيفـةً معنـا. فقـد قبّلـت مُعلِّمتـي وقالـت: "لسـتُ أدري إن كنـتُ سـعيدةً بلقائِـكِ أم لا؛ فأنـا أشـعرُ بالخجـل مـن نفسـي حـين أفكِّـر في مقـدار مـا قـد فعلتِـهِ مـن أجـل هـذه البنـت الصغـيرة". التقينـا أيضًـا السـيِّدَ والسـيدة تـيرّي، والتقينـا أخـا الآنسـة تـيرّي وزوجتـه. كنـت أفكِّـر في جمالهـا الملائـكيِّ، يـاه! كـم كان بديعًـا وصافيًـا هـو صوتهـا! التقينـا الآنسـة تـيرّي مـرة أخـرى بصحبـة السير هـنري في مسرحيـة "الملـك تشـارلز الأول"، يـوم الجمعـة مـن الأسـبوع الماضي، وبعـد العـرض تـركاني أتحسَّـس وجهَيْهـما حتـى آخـذ فكـرة عـن شـكلهما. كـم كان الملـك فَخـمًا ونبيـلًا؛ خاصَّـةً وقـت مِحَنِـه! كـم كانـت الملكـة المسـكينة بهيَّـةً ورَضِيَّـة! بـدت المسرحيَّـةُ كأنَّهـا حقيقـةٌ تمامًـا، فلقـد نسـينا تقريبًـا أيـن كُنَّـا، وصدَّقنـا أنَّنـا كُنَّـا نُشـاهد المشـاهد الحقيقيـة وهـي تحـدثُ منـذ زمـنٍ بعيـدٍ بعيـد. لقـد أثَّـر بنـا المشـهد الأخـير في أعماقنـا إلى أقـصى الحـدود، وقـد بـكى جميعنـا، وكُنَّـا نتسـاءلُ كيـف سـوَّلَ قلـبُ الجـلاد لـه أن ينتـزِعَ الملـكَ مـن حضـن زوجتـه الحبيبـة.

لقـد أنهيـتُ لتـوِّي قـراءة "إيڤـانهو"[1]. كانـت روايـةً مثـيرةً جـدًا، لكن لا بُـدَّ لي أن أعـترف وأقـول: أنـا لم أسـتمتع بالروايـة كثـيرًا. كانـت الحلـوة ربيـكا -ومـا تملكـه مـن روحٍ قويِّـةٍ مِقدامـة، وطبيعـةٍ كريمـةٍ نقيَّـة- هـي الشـخصية الوحيـدة التـي اسـتأثَرَت تمامًـا بإعجـابي. أُطالِـعُ الآن كتـاب

(1) رواية من تأليف والتر سكوت. (المترجم)

"قصص من التاريخ الاسكتلاندي" وكم هي قصصٌ ممتعةٌ تبعث على الاستغراق!...

***

كُتب الخِطابان التاليان فورًا بعد موت السيد چون ب. سبولدنغ.

***

إلى حرم السيِّد چورچ هـ. برادفورد

نيويورك، 4 فبراير، 1896.

ماذا في وسعي أن أقول، كي أجعلك تستوعبين كم نقدِّرُ أنا ومُعلمِّتي كرمك الوفير بإرسالكِ تلك الهدايا التذكاريَّة إلينا؟ نحن الآن في حُجرتنا الأثيرة؛ حيث المكان الذي التقينا فيه لأوّل مرَّةٍ أطيبَ وأعزَّ أصدقائنا. في الحقيقة، لا يمكنك أن تتصوَّري قدر السَّلوى التي وهبتنا إيَّاها تلك الهدايا. وضعنا تلك الصورة الغالية في إطار، وحطّيناها على الرَّفِّ في حُجرتنا، بحيث يتسنَّى لنا رؤيتها كلَّ يوم، وكثيراً ما أذهب إليها وأتلمَّسها، ولسببٍ ما، لا أستطيعُ إنكار شعوري بأنَّ صديقنا الغالي جِدُّ قريبٍ منِّي... كان من العسير جدًّا علينا معاودة الاستغراق في عملنا المدرسي كما لو أنَّ شيئًا لم يحدث، إلا أنَّني متأكِّدة أنَّه يحسُن لو التفتنا إلى ما عندنا من واجباتٍ لا بُدَّ وأن تُنجَز، وهي ما ينتشلُ ذهنينا مِمَّا نحنُ فيه لبعض الوقت، فعلى الأقل، تنتشلنا من حُزنِنا...

إلى الآنسة كارولين ديربي

نيويورك، الثاني من مارس، 1896.

إننـا نفتقـدُ بـأسى الملـك العزيـز چـون. ففقدانـه كان أمـرًا صعبًـا علينـا جـدًّا، لقـد كان أفضـلَ وأحَـنَّ الأصدقـاء، ولسـتُ أدري مـاذا سـنفعل مـن دونـه...

ذهبنـا إلى معـرض الدَّواجـن... سـمح لنـا الرجـل المسـؤول هنـاك، تكرُّمًـا منـه، بـأن نتحسَّـس الطيـور. لقـد كانـت الدواجـنُ وديعـةً جـدًّا، كانـت تقـف في مكانهـا سـاكنة تمامًـا عندمـا كنـت ألمسـها. رأيـتُ دِيَكَـة روميَّـةً عظيمـة الحجـم، إوزًّا، دجاجًـا، وبَطًّـا- ورأيـتُ العديـد مـن أنـواع الطيـور الأخـرى.

منــذ أســبوعين تقريبًــا، مررنــا عــلى بيــت الســيد هاتــون، وقضينــا وقتًـا مُبهِجًـا. ودائمًــا مـا نقـضي هنـاك وقتًـا مُبهجًـا! التقينـا السـيد وارنـر؛ الكاتـب، والسـيد مابيـه؛ محـرِّر مجلـة Outlook، والتقينـا أناسًـا آخريـن لطفـاء. أنـا عـلى يقـينٍ أنَّـه لسـوف يـسُرُّكِ أن تتعـرَّفي إلى السـيِّد هاتـون وزوجتـه، إنهـما شـخصان طيِّبـان جـدًّا وصُحبتهـما ممتعـة. ليـس في وسـعي إطلاقًـا أن أصـوِّر لـكِ كـم هـو مقـدار المتعـة التـي قـد وهبانـا إيَّاهـا.

السـيد وارنـر والسـيد بورغـوس، المحِبَّـان العظيـمان للطبيعـة، قدِمـا لزيارتنـا بعـد بضعـةٍ أيّـامٍ مـن تلـك الزيـارة، وقـد اسـتمتعنا معهـما بحـوارٍ مبهـج. لقـد صـار كلاهــما مُقرَّبَـين إلينـا جـدًّا جـدًّا! حـكى لي السـيد بورغـوس عـن بيتـه القريـب مـن هادسـن، ويـا لـه مـن مـكانٍ لا بُـدَّ يبعثُ في النفـس الحبـور! أتمنَّـى أن نـزوره يومًـا مـا. قـرأت لي مُعلِّمتـي قَصصـه النابضـة بالحيـاة التـي كانـت تحـكي عـن فـترة صِبـاه، وقـد اسـتمتعتُ بهـذه القصـص بشـكلٍ عظيـم. هـل قـرأتِ القصيـدة الجميلـة "انتظـار"؟ أنـا أعرفهـا، تلـك القصيـدة تثـير في نفـسي الكثـير مـن السـعادة، إنَّهـا تحفـل بأفـكارٍ عذبـة. أراني السـيد وارنـر دَبُّـوسَ وِشـاحٍ عـلى سـطحه جُعـران،

صُنِـع في مِـصر قبـل ألـفٍ وخمسـمائة سـنةٍ قبـل ميـلاد المسـيح، وأخـبرني أنَّ الجعـران يرمـز إلى الخلـود بالنسـبة للمِصريِّـين؛ لأنَّـه كان يلتَـفُّ حـول نفسـه، ويـروح في النَّـوم، ويتجـلَّى مجـدَّدًا في صـورةٍ جديـدة، وبهـذا، يُجـدِّدُ نفسـه...

إلى الآنسة كارولين ديربي

نيويورك، 25 أبريل، 1896.

حـالُ دراسـتي كـما هـو عـلى نفـس الحـال وقـت أن قابلتُـكِ، باسـتثناء أنِّي بـدأتُ أتلقَّـى دروسًـا في اللغـة الفرنسـية مـع مُعلِّمـة فرنسـيّة، تأتينـي ثـلاث مـرَّاتٍ في الأسـبوع. أنـا مقتـصرة تقريبًـا عـلى قـراءة شـفاهها (فهـي لا تعـرف هِجـاء الأصابـع) ونمـضي قُدمًـا عـلى هـذا النَّحـو بصـورةٍ مُثمِـرة. قـرأتُ "طبيـب رغـم أنفـه" بمُتعـةٍ عظيمـة، وهـي ملهـاةٌ فرنسـيَّة جيِّـدة جـدًّا، مـن تأليـف موليـير، و يقولـون إنِّي أتحـدَّث الفرنسـيَّةَ الآن بشـكلٍ جيِّـد تمامًـا، وكذلـك الألمانيَّـة. عـلى أيَّـة حـال، الفرنسـيُّون والألمانيُّـون يفهمـون مـا أحـاول أن أقولـه، وإنَّ هـذا لشيءٌ مشـجِّعٌ جـدًّا. أثنـاء التمريـن الصـوتي، مـا يـزال بعـدُ عنـدي نفـس المصاعـب القديمـة التـي أُجاهـد في التغلُّـب عليهـا، حتَّـى أُحقِّـقَ أمنيتـي بـأن أتكلَّـم عـلى نحـوٍ سـليم، يـاه! إنَّ ذلـك ليبـدو لي بعيـد المنـال! إنَّنـي أحـسُّ أحيانًـا أنِّي ألمـحُ بارقـةَ أمـلٍ خافتـةً تأتينـي مـن الهـدف الـذي أُجاهـد لبلوغـه، غـير أنَّـه في فَينـةٍ أُخـرى تظهـر ثَنيَّـةٌ في الطريـق تحجبُـه عـن مجـال رؤيتـي، وإذا بي مُجـدَّدًا متروكـةً أهيـمُ في العَتَمَـة! إلَّا أنَّنـي أحـاولُ جاهـدةً ألَّا أُصـاب بالإحبـاط. جميعُنـا حتـمًا سـوف يبلـغُ في النهايـة أهدافـه التـي ينشُـدُها...

إلى السيِّد چون هيتْز

بريويستر، 15 يوليو، 1896.

بالنسبة للكتاب، أنا متأكِّدة أنِّي سوف أستمتعُ به كثيرًا جدًّا حين يُتاحُ لي قراءته، صحبة الأختَيْن الَّلتَين قد ذهبتا إلى ينبوع الخلود، وذلك بفِعل سِحر أصابع مُعلِّمتي العزيزة.

بينما أنا جالسة بجانب النَّافذة أكتبُ إليك، يطيبُ لي كثيرًا أن يُلامِسَ تيَّارُ النسيم النَّاعِم المنعِش خدِّي، وأن أشعر بأنَّ عمل العام الماضي الشَّاقَّ قد انتهى! يبدو أنَّ مُعلِّمتي قد أفادت من هذا التغيير أيضًا؛ حيث أنَّها آخذةٌ في تَمَثُّلِ ذاتها العزيزة القديمة مُجدَّدًا. إنَّنا في حاجةٍ إليكَ فحسب عزيزي السيد هيتز كي تكتمِلَ هذه السعادة. الـمُعلِّمة ومدام هوبكنز كلتاهما تقولان إنَّك، لا بُدَّ، وأن تأتي في القريب العاجل بقدر ما تستطيع! وسنحاول نحن أن نجعلَك تنعمُ بالرَّاحة.

مُعلِّمتي وأنا قضينا تسعةَ أيَّامٍ في فيلادلفيا. هل زرتَ مرَّةً معهد دكتور كروتر؟ ربَّما أعطاك السيد هاوز بيانًا شاملًا عن نشاطاتِنا. إنَّنا مشغولتان طوال الوقت؛ فنحن نحضر الاجتماعات ونتحدَّثُ إلى المئات من الناس، كان من بينهم العزيز دكتور بِلْ، السيد بانيرچي من كالكُتَّا، مسيو ماغني من باريس، وأنا قد تحدَّثتُ معه بالفرنسية حصرًا، وكثير من الأشخاص المرموقين. لقد كُنَّا نتطلَّعُ إلى مُلاقاتِكَ هُنا؛ ولهذا أُصبنا بإحباطٍ عظيمٍ لأنَّكَ لم تأتِ. إنَّنا نفكِّر فيكَ كثيرًا جدًّا جدًّا! إنَّ قُلوبنا معك تُشاطِرُكَ أرقَّ مشاعرنا الوجدانيَّة، وأنتَ تعرف كم نكون سُعداء على الدَّوام حين تكون معنا، أكثر مِمَّا باستطاعة هذا الخِطاب البائس أن يعبِّر عنه! لقد ألقيتُ "خطبة" في الثامن من يوليو، كنتُ أحدِّثُ فيها أعضاءَ الرابطة عمَّا كانت تُمثِّلُه نعمةُ الكلام التي لا توصف بالنسبة لي، وأحثُّهُم على أن يمنحوا كلَّ طفلٍ صغيرٍ أصمَّ الفُرصةَ بأن يتعلَّم أن يتكلَّم. قال الجميعُ إنَّني كنتُ أتحدَّثُ بشكلٍ

جيِّدٍ جدًّا ومفهوم. بعد "خُطبتي" القصيرة، حضرنا حفل استقبالٍ كان عدد الحاضرين فيه يفوق الستّمائة فرد. لا بُدَّ وأن أعترف بأنَّني لا أحبُّ مثل حفلات الاستقبال الكبيرة هذه؛ حيث فيها يتزاحم النَّاس، ويتعيَّنُ علينا أن نُجري الكثير والكثير من المحاورات، ومع هذا، يحدث غالبًا في حفلات استقبال -كما ذاك الحفل في فيلادلفيا- يحدث أن نلتقي أصدقاء، ونتبيَّنَ بعد ذلك أنَّنا قد أحببناهم. تركنا المدينة ليلة الخميس الماضي، ووصلنا بريوستر يوم الجمعة بعد الظُّهر. فاتنا قِطار كيب كود صباح الجمعة، وصلنا بروفينس تاون على متن باخرة لونغفيلو Longfellow. أنا سعيدة لأنَّنا قمنا بهذا، حيث كان الجو جميلًا ومُنعِشًا في عُرض البحر، وميناء بوسطن مكانٌ ماتِعٌ على الدَّوام.

قضينا نحو ثلاثة أسابيع في بوسطن بعد أن تركنا نيويورك، ولستُ في حاجةٍ لأن أقول لك إنَّنا قضينا أبهج أوقاتنا. زُرنا صديقَيْنا الطَّيِّبَيْن: السيد تشامبرلين وزوجته، في رينتهام، حيث الهواء الطَّلق بالرِّيف، يمتلكان هناك بيتًا جميلًا. ينتصِبُ منزلهما بقُربِ بُحيرةٍ ساحرة، ذهبنا وأبحرنا فيها على متن الزَّورق والكَنْو، وهو ما كان مَرحًا عظيمًا. ذهبنا أيضًا للاستحمام مرَّاتٍ عديدة. احتفل السيِّد والسيِّدة تشامبلرين بالسابع عشر من يونيو بأن منَحَا أصدقاءَهما من الأُدباء نُزهةً. حوالي أربعون شخصًا كانوا حاضرين، جميعهم كانوا من الكُتَّاب والنَّاشرين. صديقُنا، السيِّد ألدِن، مُحرِّر دار نشر هاربر، كان موجودًا، وطبعًا استمتعنا برفقته كثيراً جدًّا...

إلى تشارلز ديودلي وارنر

بروستر، ماساتشوستس، 3 سبتمبر، 1896.

كنتُ أنتوي مُكاتبَتَك طوال الصيف؛ عندي الكثير من الأشياء أردتُ إخبارَك بها، وحسبتُ أنَّك ربَّما تودُّ أن تعرف بأمر إجازتنا التي قضينها بقرب ساحل البحر، وبخُطَطنا للعام القادم، لكنَّ الأيَّام السعيدة الخالية من العمل لتنفلِت وتمرُّ سِراعًا، ولقد كان لديّ العديد من الأشياء السَّارَّة التي بالإمكان القيامُ كلَّ دقيقة، لدرجة أنِّي لم أكن أجدُ الوقت كي أخلعَ على أفكاري كلماتٍ، وأُرسِلَها إليك. إنِّي لأعجَبُ من تلك الأوقات التي تصير فُرصًا ضائعة. وبينما نحن نُسقِطُها، ربَّما تُلملِمُها ملائكتُنا الحارسة وتجمع شَملها، وتُعيدها إلينا في أحد الأيام الجميلة بالمستقبل، نكون فيه قد نضجنا وصِرنا أكثر حكمةً، وتعلَّمنا كيف ننتفِعُ منها على نحوٍ صائب. لكن، رغم ما قد يبدو عليه الأمر، فلستُ أستطيعُ الآن أن أكتبَ لك الخِطاب الذي بقي كامِنًا في ذِهني لفترةٍ جِدّ طويلة. إنَّ قلبي طافحٌ بالحزن بما يفوق الحدَّ لدرجةٍ تجعلني لا أستطيعُ أن أتَّكِئَ على ما قد أتتني به أحداثُ فصل الصيف من سعادة. لقد مات والدي. مات يوم السبت الماضي، في بيتي بتوسكامبيا، وأنا لم أكن معه هناك. والدي العزيز الحبيب! آهٍ يا صديقي العزيز، كيف سيكون باستطاعتي يا تُرى أن أتحمَّلَ وأجتازَ الأمر!...

***

في الأوَّل من أكتوبر، دخلت الآنسة كيلر مدرسة كيمبردج للشَّابَّات، التي كان مُديرها هو السيد آرثر غليمان. "الامتحانات" المذكورة في هذا الخطاب كانت مُجرَّدَ امتحاناتٍ تُجرى في المدرسة، لكن باعتبارها امتحاناتٍ قديمة لجامعة هارفارد، من الواضح أنَّ الآنسة كيلر كانت

فعلًا على أتمِّ استعدادٍ تمامًا في بعض المقررات الدراسيّة من أجل الالتحاق برادكليف.

إلى حرم السيِّد لورانس هاتون

37 جادة كونكورد، كيمبردج، ماساتشوستس.

8 أكتوبر، 1896.

لقد استيقظتُ باكرًا هذا الصباح؛ لذلك تمكَّنتُ من كتابة بضعة أسطر إليكِ. أعلمُ أنَّكِ ترغبين أن تسمعي منِّي أنِّي أحبُّ مدرستي. إنَّني أتمنَّى أن لو كان باستطاعتِك أن تأتي وترَي بنفسك كم أنَّها مدرسةٌ جميلةٌ! يوجد بها حوالي مائة فتاة، وجميعهنَّ ذكيَّاتٌ جِدًّا وسعيدات، يا لها من متعةٍ أن أكون معهنَّ.

لسوف تسعَدين لدى سماعكِ بأنِّي قد اجتزتُ الامتحانات بنجاح. لقد اختُبِرتُ في اللغة الإنجليزيَّة، الألمانيَّة، الفِرَنسيّة، وفي التاريخ اليوناني والروماني. تلك كانت امتحانات القبول لأجل الانضمام إلى الكليَّة في هارفارد؛ لذا أشعر بالسرور جدًّا عندما أتأمَّلُ كيف أنِّي قد استطعتُ اجتيازها. سوف يكون هذا العام عامًا مليئًا بالأشغال بالنسبة لمعلِّمتي وبالنسبة لي. إنَّني أدرسُ علمَ الحساب، الأدبَ الإنجليزيَّ، التاريخَ الإنجليزيَّ، اللغة الألمانيَّة، اللاتينيَّة، والجغرافيا (المستوى المتقدِّم)، مطلوب مني قدرٌ كبيرٌ من القراءة الابتدائيَّة، ولأنَّ المتاح من الكتب بالحرف البارز قليل؛ تضطَّرُ مُعلِّمتي المسكينة أن تتهجَّى لي كل الكتب، وهذا يعني الكثير من العمل الشَّاق.

لا بُدَّ أن تخبري السيد هاولز عندما ترينه، أنَّنا نُقيمُ في منزله...

إلى حَرَم السيِّد وليام ثو

37 جادَّة كونكورد، كيمبردج، ماساتشوستس.

2 ديسمبر، 1896.

إنَّـه ليسـتلزمُ منِّـي وقتًـا طويـلًا كي أُحـضِّرَ لـدروسي، حيـثُ يتطلَّـبُ الأمـرُ أن تُتَهَّجـى كلُّ كلمـةٍ لي في يـدي. لا كتـابَ مـن الكُتـب المفـروض علـيَّ اسـتخدامها متوفِّـرٌ بالحـرف البـارز؛ لـذا فبالطَّبـع عمـلي أكثر صعوبـةً مِـمَّا كان ليكـون عليـه إن كنـتُ أسـتطيعُ مُطالعـة دروسي بنفـسي. لكـنَّ الأمـر أشـقُّ عـلى مُعلِّمتـي أكـثر مِـمَّا هـو علـيَّ؛ لأنَّ الجهـدَ الواقـع عـلى عينيهـا المسـكينتين جِـدٌّ عظيـم، وأنـا لا أسـتطيعُ أن أَكُـفَّ عـن القلـق بشـأن عينيهـا. أحيانًـا، يُخيَّـلُ لي فِعـلًا أنَّ المهمَّـةَ التـي ندَبنـا لهـا أنفسـنا لهـي أعظـمُ مِـمَّا باسـتطاعتنا إنجـازه، غـير أنِّي في أحايـين أُخـرى أجـدُني أسـتمتعُ بعمـلي كثـيرًا لدرجـةٍ تفـوق اسـتطاعتي التعبـير عنـه.

إنَّهـا لمتعـةٌ كبـيرة أن أكـون بصحبـةِ الفتيـات الأُخريـات، وأن أقـومَ بـكلِّ الأشـياء التـي يقُمـنَ بهـا. أنـا أدرس اللاتينيـة، الألمانيـة، علـم الحِسـاب، والتاريـخ الإنجليـزيَّ، وأسـتمتعُ بـكلِّ هـذا، إلا الحِسـاب. أخـشى أنِّي لسـتُ أملـكُ عقـلًا رياضيًّاتيًّـا؛ فأرقامـي دائمًـا مـا تنقـادُ للولـوجِ إلى الأماكـن الخاطئـة!...

إلى حرم السيِّد لورانس هاتون

كيمبردج، ماساتشوستس، 3 مايو، 1897.

إنَّـكِ تعرفـين أنِّي أحـاولُ بـكلِّ جهـدي أن أُنجِـزَ مقدار المطالعـة المطلوب لأجـل امتحانـات شـهر يونيـو، وهـذا إضافـةً إلى أنَّ عمـلي المـدرسيَّ النِّظاميَّ يُبقينـي مشـغولة بشـكلٍ مزعـج. لكـنَّ چـونسون، و"الطَّاعـون" وجميـع

الأشياء الأخرى لا بُدَّ أن تنتظر بضع دقائق فترة ما بعد الظهيرة هذه ريثما أقول: شكرًا لكِ عزيزتي مدام هاتون...

كم مذهلٌ هو الوقت الذي قضيناه في "نادي اللاعبين". لطالما كنتُ أعتقدُ أنَّ النَّوادي هي أماكن كئيبة، تعبقُ بالدُّخان، يتحدَّثُ فيها الرجال عن قضايا السياسة، ويروون قَصصًا لا تنتهي، كلُّها عن أنفسهم وعن أعمالهم البطولية المدهشة، إلَّا أنِّي تبيَّنتُ الآن كيف كنتُ حتمًا على خطأ تمامًا...

إلى السيِّد چون هيتز

رينتهام، ماساتشوستس، 9 يوليو، 1897.

مُعلِّمتي وأنا نعتزمُ قضاء فصل الصيف في رينتهام، ماساتشوستس، بصحبة أصدقائنا؛ آل تشامبرلين. أظنُّ أنَّكَ تذكُر السيد تشامبرلين، كاتب عمود "المستمِع" في جريدة Boston Transcript[1]. إنَّهم أشخاصٌ طيِّبون وأعزَّاءٌ علينا.

لكنِّي أعلمُ أنَّك ترغب في معرفة أمر الامتحانات. أعرفُ أنَّكَ سوف تسعَد لدى سماعك بأنِّي اجتزتُ جميع الامتحانات بنجاح. المواد التي امتحنتُ فيها كانت اللغة الألمانيَّة، مستوى مبتدِئ ومتقدِّم، الفرنسيَّة، اللاتينية، الإنجليزيَّة، التاريخ اليوناني والروماني. إنَّه يبدو خبرًا طيبًّا جدًّا لدرجة تستعصي على التصديق، أليس هو كذلك؟ طوال الوقت الذي كنتُ أتحضَّرُ فيه للمحنة الكُبرى، لم يكن باستطاعتي أن أكبَح خوفًا كان يعتمِلُ في داخلي وخشيةً تجعلني أرجُف بأنَّني سوف أفشل، وأمَّا الآن، فيا لها من راحةٍ لا تُوصَف حين أُخبِرتُ بأنِّي قد

(1) جريدة مسائيَّة كانت تصدر ابتداءً من عام 1830، وصدر آخر عدد منها في 30 أبريل عام 1941. (المترجِم)

اجتـزتُ الامتحانـات بتقديـرٍ عـالٍ. غـير أنَّ مـا يُكلِّـلُ هـذا النَّجـاح، لهـي تلـك المتعـةُ والسـعادة التـي جلبهـا انتصـاري لمعلِّمتـي العزيـزة. حقًّـا، إنَّنـي لأشـعرُ أنَّ هـذا النجـاحَ هـو نجاحهـا أكـثر مـمَّا هـو نجاحـي؛ فهـي مصـدرُ إلهامـي الدَّائـم...

* * *

في نهايـة شـهر سـبتمبر، عـادت الآنسـة ساليـڤـان والآنسـة كيلـر إلى مدرسـة كيمـبردچ، حيـث بقِيَتـا حتـى أوائـل ديسـمبر. ثـم أسـفرَ تدخُّـل السـيد غيلمَـن عـن سـحب الآنسـة كيلـر وأُختهـا، الآنسـة ملـدرد، مـن المدرسـة. ذهبـت الآنسـة ساليـڤـان وتلميذتهـا إلى رينتهـام؛ حيـث عمِلتـا تحـت إشراف السـيد ميرتـون س. كيـث؛ وهـو أسـتاذٌ حـاذِقٌ ومُفعَـمٌ بالحـماس.

إلى حرم السيِّد لورانس هاتون

رينتهام، 20 فبراير، 1898.

لقـد اسـتأنَفتُ دراسـاتي سريعًـا بعـد رحيلـك، وكُنَّـا نشـتغلُ خـلالَ كلِّ دقيقـةٍ بمـرَحٍ للغايـة كـما لـو أنَّ تجربـة الشـهر المـاضي المريعـةَ لم تكـن إلَّا حُلـمًا. لا أعـرفُ كيـف أصـفُ لـكِ كـم أسـتمتعُ بالرِّيـف. إنَّـه مُنعِـشٌ جـدًّا، ويبعـثُ عـلى السـكينةِ والانطـلاق! أنـا أعتقـدُ فعـلًا أنـه في وسـعي العمـل طـوال اليـوم دون الشـعور بالتَّعـب لـو يتركوننـي. فالكثـيرُ مـن الأشـياء التـي أفعلهـا تشـيعُ السـرور في النفـس -غـيرَ أنَّهـا لا تكـون دومًـا أشـياء سـهلة جـدًّا- فكثـيرٌ مـن واجبـاتي في الجـبر والهندسـة صعبـة، لكنِّـي أحـبُّ المقـررات الدراسـية كثـيرًا، خاصَّـة اللغـة اليونانيَّـة. لـكِ أن تتصـوَّري: أنـا سـوف أنتهـي قريبًـا مـن دروس القواعـد! ثـم يـأتي دور "الإليـاذة". يـا لهـا مـن متعـةٍ لا توصَـف أن أقـرأ عـن أخيلـوس، وعـن يوليسِـس وأندرومـاخ

وأثِنـا، وأن أقـرأ عـن بقيّـة أصدقـائي القُدامـى بلُغتِهـم المجيـدة! أظـنُّ أنَّ اليونانيَّـة هــي أحَـبُّ اللغـات إليَّ لدرجـة أنِّي أعـرفُ كلَّ شيءٍ عنهـا. إن كان صحيحًـا أنَّ الكَـمان هـو أكـثر الآلات الموسـيقيَّةِ كـمالًا؛ إذن فاللغـة اليونانيَّـة هـي كـمانُ الفِكـر الإنسـانيِّ.

لقـد اسـتمتعنا بخروجـات تزلُّـقٍ مُدهشـةٍ هـذا الشـهر. حيـث كلَّ صباح، قبـل موعـد الـدرس، نخـرجُ جميعًـا إلى التَّـلِّ المنحـدِر القائـمِ عـلى الشـاطِئ الشـمالي مـن البحـيرة قُـرب المنـزل، ونسـيرُ بمحـاذاة السَّـاحلِ مُـدَّةَ سـاعةٍ أو نحـو ذلـك. يقـوم أحدهـم بموازنـة الزلَّاقـة عـلى طَـرف قِمَّـة التـلَّ، ونحـنُ نمتطيهـا، وعندمـا نكـون مسـتعدِّين، نهـوي إلى جانـب التَّـل في وضـعٍ مُسـترِئسٍ باندفـاعٍ طائـش، قافزيـن فـوق نتـوءٍ هنـا ونتـوءٍ هنـاك، غاطِسـين وسـط رُكامٍ مـن الجليـد، نبتعـدُ منزلِقـين فـوق البِركـة بمعـدَّلِ سُرعـةٍ مـروِّع!...

إلى حرم السيد لورانس هاتون

(رينتهام) 12 أبريل، 1898.

أنـا سـعيدة لأنَّ السـيِّد كيـث مـسرورٌ جـدًّا بتقدُّمـي. صحيـح أنَّ الجـبر والهندسـة يتحـوَّلان ويصـيران أسـهل طـوال الوقـت -خاصَّـة الجـبر- ولقـد تلقَّيـتُ مؤخَّـرًا كُتُبًـا بحـرفٍ بـارزٍ سـوف تُيـسِّرُ عمـلي بشـكلٍ عظيـم...

أجـدُني أمـضي قُدمًـا عـلى نحـوٍ أسرع، وأنجـزُ عمـلًا أفضـل مـع السـيِّد كيــث أكــثرَ مِـمَّا كنــتُ أفعــل في الحصــص في مدرســة كيمــبردج، وفي اعتقـادي، فلقـد أحسـنتُ صُنعًـا بتوقُّفـي عـن القيـامِ بهكـذا عمـل، عـلى أيَّـة حـال، أنـا لم أصبـح كسـولةً منـذ أن بارحـتُ المدرسـة؛ فلقـد أنجـزتُ أكـثر، وأنـا في حـالٍ أكـثر سـعادةً منـه لـو كنـت هنـاك...

إلى حرم السيِّد لورانس هاتون

(رينتهام) 29 مايو، 1898.

عملي يسير على نحوٍ جَسور. كلُّ يومٍ يمرُّ يكون مليئًا عن آخره بمُذاكَرة شاقَّة؛ فأنا مهمومة برغبتي في إنجاز أقصى قَدْرٍ مُمكنٍ من العمل قبل أن أنُحِّي كُتبي جانبًا عند حلول إجازة الصيف. سوف تُسَرِّين لدى سماعكِ أنَّني حللتُ أمس ثلاث مسائل في الجبر دون مساعدة. كان كلًّا من السيد كيث ومُعلِّمتي مُتحمِّسَين جدًّا بسبب هذا الإنجاز، ولا بُدَّ وأن أعترف أنَّني أنا نفسي طرِبتُ لهذا بعض الشيء. أشعرُ الآن أنَّه ينبغي أن أنجح في إنجازِ شيءٍ ما بالرياضيَّات، رغم أنِّي لستُ أفهمُ لماذا هو مهمٌّ جدًّا أن أعرفَ بأنَّ الخطَّيْن المرسومين من طرفي قاعدة مثلث متساوي السَّاقين، ويصلان من الطرفين المقابلين إلى النقطة في المنتصف، هما خطَّان متساويان! إنَّ العِلمَ لا يجعل الحياةَ أكثر حلاوةً وسعادةً بأيِّ حال، أيفعلُ هذا؟ على الجانب الآخر، عندما نتعلَّمُ كلمةً جديدة؛ يكون ذلكَ بمثابة المفتاح لكنوزٍ لا تُعدُّ ولا تُحصى...

إلى تشرلز ديودلي وارنر

رينتهام، 7 يونيو، 1898.

أخشى أنَّك سوف تستنتج في النهايةِ أنّني لستُ مشغولةَ البال بالدرَّاجة المزدوجة، بما أنِّي تركتُ أسبوعًا تقريبًا يمرُّ دون الرَّدِّ على خِطابِكَ فيما يتعلَّق بنوع الدرَّاجة التي أحبُّ أن أقتنيها. لكن في الحقيقة، كنتُ منشغِلةً جدًّا بدراستي منذ أن عُدنا من نيويورك، لدرجة أنِّي لم أملِك الوقت حتَّى لأفكِّر في كم سيكونُ مِمتعًا أن أمتلكَ درَّاجة! فأنتَ ترى، أنا مهمومة بإنجاز أقصى قدرٍ مُمكِنٍ قبل أن تبدأ إجازة الصيف الطويلة. أنا سعيدةٌ رغم هذا بأنَّه قد اقترب الوقتُ

الـذي أضـعُ فيـه كُتبـي جانبًـا، حيـث أنَّ ضـوء الشـمس والأزهـار، والبُحـيرةِ الرائعـة الموجـودة أمـام منزلنـا يفعلـون مـا بوسـعهم ليغـووني كي أهجُـرَ دروسي في اللاتينيَّـة والرياضيَّـات، خصوصًـا هـذه الأخـيرة! أنـا عـلى يقـينٍ أنَّ حاجـةَ زهـور الأُقْحـوان والحَـوْذان إلى علـم الهندسـة لقليلـةٌ بقـدر حاجتـي إليـه، رغـمَ حقيقـةِ كـونِ هـذه الزهـور تفسِّرُ مبـادئ هـذا العلـم عـلى نحـوٍ مُصـوَّرٍ بشـكلٍ بديـعٍ للغايـة.

لكـن يـا ربِّي، لا بُـدَّ ألَّا أنـسى الدرَّاجـة! الحقيقـةُ هـي، مـا أعرفـه عـن الدرَّاجـات قليـلٌ جـدًّا. ركبـتُ فقـط "درَّاجـة ثُنائيَّـة"، وهـي مختلِفـة تمامًـا عـن الدَّرَّاجـة المعتـادة؛ فهـي أكـثر أمانًـا، ربَّمـا أكـثر مـن الدرَّاجـة العاديـة، إلَّا أنَّهـا ثقيلـة جـدًّا وصعبـة المِراس، ولهـا طريقـة خاصـة للسـير فـوق المناطـق المرتفعـة مـن الطريـق، بجانـب أنَّنـي أُخـبِرتُ أنَّ "العجـلات الثُنائيَّـة" تتكلَّـفُ أكـثر مـن أنـواع العجـلات الأُخـرى. مُعلمتـي وأصدقـاء آخـرون أخـبروني أنهـم يعتقـدون أنَّ باسـتطاعتي ركـوب دراجـة ماركـة "كولومبيـا" في الريـف بأمـانٍ تـامّ. هـم يـرون أيضًـا أنَّ اقتراحـك بشـأن دراجـةٍ ذات مِقـوَدٍ مُثبَّـتٍ هـو نـوعٌ مناسـب. أنـا أقـود وأنـا مرتديـة تَنُّـورة مشـقوقة، وكذلـك مُعلِّمَتـي، إلَّا أنَّـه ليكـون مـن الأسـهل لهـا أكـثر منِّـي أن تمتطـي مقعـد القائـد بالعجلـة؛ لـذا، إن كان في المسـتطاع ضبـطُ مقعـد السَّـيِّدات ليكـون إلى الـوراء، أعتقـد أنَّ ذلـك سـيكون أفضـل...

إلى الآنسة كارولين ديربي

رينتهام، 11 سبتمبر، 1898.

إنّنـي أقـضي كلَّ الوقـت خـارج البيـت، أُمـارس التجذيـف، السـباحة، سـواقة الدَّرَّاجـة وعمـل العديـد مـن الأشـياء الأخـرى التـي تُدخِـلُ الـسرور إلى النفـس. هـذا الصبـاح، سُـقت درَّاجتـي مسـافة واحـد وعشريـن ميـلًا! كنـتُ أقـود عـلى طريـقٍ وعِـرة، وسـقطتُ ثـلاث أو أربـع مـرَّات، وأنـا الآن

عرجاء بشكلٍ فظيع! لكنَّ الجوَّ والمنظر كانا بديعَيْن جدًّا، وكانت متعة أن أنطلِق بسُرعة الرِّيح فوق الجزء الأكثر تمهيدًا من الطريق، فعلى الأقلِّ لم أكن أُبالي بمرَّاتِ سُقوطي العاثر.

لقد تعلَّمتُ فعلًا أن أعومَ وأغطس- إلى حدٍّ ما! أستطيعُ السِّباحةَ قليلًا تحت سطح الماء، وأن أفعل تقريبًا أيَّ شيءٍ يعجبني دون الخوف من الغرَق! أليس هذا لطيفًا؟ أن أنطلِق مُجذِّفةً حولَ البحيرة، ذلك لا يُكلِّفني تقريبًا أي عناء، لا يهمُّ كم يمكن أن تكون الحمولة ثقيلة؛ لذا بوسعكِ أن تتخيَّلي جيِّدًا كيف صارت بشرتي بُنِّيَّة من سَفع الشمس وكم أنا قويَّة...

إلى حرم السيِّد لورانس هاتون

12 شارع نيوبيوري، بوسطن،

23 أكتوبر، 1898.

هذه أولُ فُرصةٍ تُتاحُ لي كي أكتبُ إليكِ منذُ أن قِدمنا هُنا يوم الاثنين الماضي. لقد صِرنا في دوَّامة بدءًا من الوقت الذي قَرَّرنا فيه أن نأتي إلى بوسطن، خُيِّلَ إليَّ أنَّنا أبدًا لن نستقرَّ في مكان. مُعلِّمتي المسكينة كانت مشغولةً للغاية، حيثُ كانت تُتابع ناقِلي الأمتعة، وشَغِّيلةَ الأحمال، وجميع أصناف البشر. كنتُ أتمنَّى ألَّا يُسبِّب انتقالُنا مثلَ هذه الجَلَبة، خاصَّةً ونحن مُضطرُّون أن ننتقل مرارًا وتكرارًا!

يأتينا السيد كيث كلَّ يوم في الساعة الثالثة والنِّصف، ما عدا يوم السَّبت. هو يقول إنَّه يُفضِّل المجيءَ إلينا هُنا في الوقت الحالي. أقرأ الآن "الإلياذة" و"الإنيادة" وأقرأُ لـ شيشرون، بجانب أنني أبذل الكثير من المجهود في مادَّتَيْ الجبر والهندسة. إنَّ "الإلياذة" عملٌ بديع، بكلِّ صِدق وسُموٍّ وبساطة أُناسِها الأبرياء على نحوٍ مُدهِش، بينما

"الإنيـادة" أكـثرُ فخامـةً وتحفُّظًـا. إنَّهـا تُشـبِه عـذراءَ حسـناء، تعيـشُ في قـصرٍ عـلى الـدَّوام، محاطـةً ببلاطهـا الملَـكِيِّ عـلى نحـوٍ مَهيـب، بينـما "الإليـاذة" مثـل شـابٍّ مُـترَفٍ، اتَّخـذَ مـن اليابسـةِ أرضًـا للَهْـوِه.

لقـد كان الجـوُّ مُقبِضًـا للصَّـدر بشـكلٍ رهيـب طـوال هـذا الأسـبوع، لكنَّـه اليـوم جميـل، وأرضيَّـةُ حُجرتنـا يغمرهـا ضـوء الشَّـمس. نذهـب لنتمـشَّى قليـلًا في الحدائـق العامَّـة بـين حـين وأخـرى. أتمنَّـى أن لـو كانـت غابـات رينتهـام قريبـةً إلى نواحينـا! لكـن يـا للحـسرة! هـي ليسـت كذلـك، ويكـون عـليَّ أن أُرضي نفـسي بجولـةٍ في الحدائـق. فرغـم المـروج الفسـيحة والمراعـي، وبسـاتين الصَّنوبـر السَّـامقة في الريـف، فهـي تبـدو عـلى نحـوٍ ما حَبيسـةً وتقليديَّـةً. حتَّـى الأشـجار تبـدو مُتمدِّنـةً وواعيـة بذاتهـا. أنـا أشـكُّ حقيقـةً أنَّ بـين الأشـجار وأبنـاء عمومتهـا الريفيِّـين لُغـةَ حـوار! أتعرفـين أنِّي لا أسـتطيعُ منـع نفـسي مـن الشـعور بالأسـف عـلى هـذه الأشـجار رغـم مـا هـي عليـه مـن صِبغـةٍ عصريَّـة؟ إنهـا تُشـبه البـشر الذيـن نراهـم كلَّ يـوم، أولئـك الـذي يُؤْثِـرُون صَخَـب وزحـامَ المدينـة عـلى انطـلاق الرِّيـف وهدوئـه. إنَّهـم ليسـوا يرتابـون حتَّـى في أنَّ حيواتهـم مُقيَّـدة. وينظـرون مـن علٍ إلى أهـل الريـف مُشـفِقين، أولئـك الذيـن لم يحظـوا بفُرصـةٍ أبـدًا لأَنْ "يَـرَوْا العالَـم العظيـم". يـا سـلام! لـو أنَّهـم أدركـوا فقـط قيودَهـم، لَفَـرُّوا مـن حيواتِهـم إلى الحقـول والغابـات. لكـن يـا لـه مـن كلامٍ فـارغ! سـوف تعتقديـن أنِّي أحِـنُّ إلى محبوبتـي رينتهـام، هـذا صحيـحٌ عـلى وجـهٍ وغـير صحيـحٍ عـلى نحـوٍ آخـر. أنـا فعـلًا أفتقـدُ ريدفـارم، وأفتقـدُ كثـيرًا الأعـزَّاء هُنـاك، إلَّا أنِّي لسـتُ تعيسـة. فلـديَّ مُعلِّمتـي ولـديَّ كُتبـي، وعندي يقـينٌ أنَّ شـيئًا مـا حلـوًا وفيـه مصلحـةٌ لي سـوف يحـدثُ لي في هـذه المدينة العظيمـة، تلـك المدينـة التـي فيهـا تُجاهِـدُ الكائِنـاتُ البشريَّـةُ بشـجاعةٍ طـوال حيواتهـا كي تنتـزِع أوقـات السـعادة مـن قلـب الظـروف القاسـية. عـلى أيَّـة حـال، أنـا سـعيدة بنصيبـي الـذي أنالـه مـن الحيـاة، سـواءٌ كان سـارًّا أو مُحزِنًـا...

إلى حرم السيد وليام ثو

بوسطن، السادس من ديسمبر، 1898.

مُعلِّمتي وأنا ضحكنا كثيراً من مُزاح الفتيات. كم أنَّهنَّ ولا بُدَّ يبدون مُضحِكاتٍ وهُنَّ يرتدين أزياء "الفرسان الخشِنين"[1] هذه، ويمتطينَ صهوات جيادِهنَّ المحمومة! كلمة "ممشوقات" هي الكلمة المناسبة التي تصلح لوصف الجياد، إن كانت تلك الجياد تشبه شيئًا، فهي تشبه شيئًا ما قد رأيته من قبل؛ وهو الأحصنة الخشبية[2]. يا لها من أوقاتٍ مرحةٍ لا بُدَّ وأنَّهنَّ قضينها في _[3]، أنا لا أستطيعُ أحيانًا أن أكفَّ عن تَمَنِّي أن لو تمكَّنتُ من نَيلِ بعضٍ من المرح الذي كانت البنات يحظينَ به. فكم سريعًا ما سوف أعتقلُ كلَّ أولئك المجاهدين الأشِدَّاء، والحُكَماء الوقورين، والأبطال الشَّرِسين، الذين هم الآن تقريبًا أنيسي الأوحَد، وأرقص وأغني وألهو مثل بقية البنات! لكن لا بُدَّ ألَّا أُبدِّدَ وقتي في تمنِّي أُمنياتٍ مثاليَّة، فأصدقائي القُدماء رغم كلِّ شيء حكيمون جدًّا ومثيرون للاهتمام، وأنا في العادةِ أكون مستمتعة بصحبتهم كثيراً جدًّا. حدث في مرَّةٍ واحدةٍ فحسب أن شعرتُ أنِّي ناقِمةٌ لمدَّةٍ طويلة، وسمحتُ لنفسي أن أتمنَّى وجودَ أشياء ليس باستطاعتي أن أُؤمِّلَ فيها في تلك الحياة. لكن، كما تعلمين، فقلبي دائمًا عامرٌ بالسعادة. فكرة أنَّ أبي السماويَّ العزيز دائمًا منِّي قريب، يهَبني بسِعةٍ منه من كلِّ تلك الأشياء، تلك الأشياء التي حقيقةً تُثري حياتي وتجعلها حياةً عذبَة وجميلة، إنَّ هذه الفكرة تجعلُ كلَّ حِرمانٍ مُنيتُ به يتضاءلُ أمام ما أستمتعُ به من نِعَمٍ لا تُحصى.

---

(1) فوج من الفرسان الأميركيِّين المتطوِّعين، الذين شاركوا في الحرب الإسبانيَّة الأميركيَّة، تحت إمرة تيودور روزفلت. وهو الاسم الذي أطلقته عليهم الصُّحُف (المترجم)

(2) الحصان الخشبي: طاولة خشبية لتثبيت الخشب قبل نشره. (المترجم)

(3) لا معلومة تفيد عن المكان أو الشخص المقصود في الفراغات المتكررة بإيراد هذه العلامة. (المترجم)

إلى حرم السيِّد وليام ثو

12 شارع نيوبيوري، بوسطن،

التاسع عشر من ديسمبر، 1898.

أُدركُ الآن كـم أنِّي فتـاةٌ أنانيَّـةٌ وطمَّاعـة، عندمـا ظننـتُ أنـه يحـقُّ لي أن أطالـب بـأن تكـون كأس سـعادتي مُترعـةً عـن آخرهـا وتفيـض، دون أن أتوقَّـف لأفكِّـر في أنَّ كـؤوسَ أنـاسٍ كثيريـن آخريـن كانـت خاويـة تمامًـا. إنَّنـي أشـعر في دخيلـة نفـسي بالخِـزي بعـدم مُراعـاتي لهـم. واحـدة مـن خيـالات الطفولـة، التـي كان التخلُّـص منهـا مـن أعسَر الأمـور، كانـت أنَّـه ينبغـي علينـا فقـط أن نُـصرِّح بأُمنياتِنـا لأجـلِ أن نجعلهـا تتحقَّـق. لكنِّـي أتعلَّـمُ شـيئًا فشـيئًا أنَّ العـالم ليـس فيـه مـا يكفـي مـن مخـزون السـعادةِ مـا يمكـن أن يُحقِّـق لـكلِّ إنسـانٍ كلَّ مـا يريـد، وإنَّـه ليُحزننـي حـين يخطـر ببـالي أنَّنـي لا بُـدَّ قـد تناسـيتُ، حتَّـى ولـو لِلَحظـة، أنَّنـي أمِلـكُ فِعـلًا أكـثر مـن نصيبـي، وأنِّي كـما الصغـير المسـكين أوليـڤـر تويسـت، ينبغـي أن أطلـب "المزيـد"...

إلى حرم السيد لورانس هاتون

12 نيوربيوري، بوسطن

22 ديسمبر، 1898.

أفـترضُ أنَّ السـيد كيـث يُكاتِبُـكِ بأخبـار العمـل اليومـي. إن كان الأمـر كذلــك، فقــد أنهيــتُ كلَّ مقــرَّر الجغرافيــا، وكلَّ مقــرَّر الجــبر تقريبًــا، المطلوبـين لأجـل امتحانـات هارڤــارد، وبعـد الكريسـماس سـوف أبـدأ بمُراجعـةٍ مُتأنِّيـةٍ جـدًّا لـكلا المقرَّريـن. سـتُسرِّين لـدى سـماعك أنِّ صرتُ الآن أسـتمتعُ بالرياضيـات. يـاه! إنَّنـي أسـتطيعُ الآن أن أحـلَّ في عقـلي بسـهولةٍ تمامًـا معـادلاتٍ طويلـة ومُعقَّـدة مـن الدرجـة الثانيـة]المعـادلات

التربيعيَّة]، وإنَّها لَمُتْعَةٌ عظيمة! أظنُّ أنَّ السيد كيث مدرسٌ رائع، وإنِّي لأشعرُ بعظيمِ الامتنان له لأجل أن جعلني أُدرك جمال الرياضيَّات. بجانبي يجلسُ مُعلِّمي العزيز، لقد بذَل لي أكثر ممَّا فعله أيُّ شخصٍ آخَر؛ فقد أثرى ووسَّع من آفاق عقلي...

إلى حرم السيد لورانس هاتون

12 شارع نيوبيوري، بوسطن

17 يناير، 1899.

هل طالعتِ قصيدَتي "الحلم يصير حقيقة"، أو "مدرسة كِيتْشِنر"[(1)]؟ إنَّها قصيدة قويَّة جدًّا وجعلتني أحلم أيضًا. أنتِ طبعًا قرأتِ عن "كليَّة غوردون التذكارية"، التي أنشأها الشَّعب البريطاني في الخُرطُوم. عندما أُفكِّر في النِّعَم التي سوف تحلُّ على شعب مِصرَ من خلال هذه الكُلِّيَّة، وبالتَّبَعيَّة على إنجلترا نفسها، تستبِدُّ بقلبي الرَّغبة العارمة بأن يحاول وطني العزيز، على نحوٍ مُماثِل، أن يُحوِّل خسارته الرهيبة لأولاده الشُّجعان في واقعة انفجار "مين" إلى نِعمةٍ مُماثِلة لشعب كوبا. ألن يكون إنشاءُ كُلِّيَّة في هافانا أنبلَ وأبقى أثرٍ يمكن إقامته؛ إحياءً لذكرى رجال بارجة "مين" الشجعان، ومَعينًا لخيرٍ لا ينضَب، لكلِّ مَن يعنيه الأمر؟ تخيَّلي أنَّه لدى دخولك ميناء هافانا، وتجدين على الرصيف البحريِّ -حيث المكان الذي رسَت فيه "مين" في تلك الليلة المشؤومة، عندما دُمِّرَت لسببٍ غامضٍ تمامًا- لافتةً

(1) كِتْشِنر هو اللورد هوراشيو هاربرت كيتشنر، والمقصود بالمدرسة هُنا هي كلية غوردون التذكاريَّة، التي أنشأها اللورد كيتشنر في السودان كجزء من الإصلاحات التعليمية، بتبرُّعات من أثرياء بريطانيا بلغت 111 ألف جنيه استرليني. وقد سُمِّيَت على اسم الجنرال الصيني البريطاني تشارلز غوردون، الذي قُتِل أثناء الثورة المهديَّة. وقصيدة رديارد كيبلينغ تتحدَّث عنها، وبها بعض الكلمات يرجع أصلها إلى العربيَّة. (المترجم)

مُعلَّقـة، تلفـتُ انتباهـك، وتُخـبرُكِ بـأنَّ المبنـى الفخـم البديـع المطـلّ عـلى تلـك البقعـة، كان "كليَّـة مـين التذكاريَّـة"، التـي شَـيَّدها الشـعب الأمـيرِكِيُّ، ويكـون مـن بـين أغراضِهـا تعليـم الكُوبيِّـين والإسـبانيِّين. يـا لـه مـن انتصـارٍ مجيـدٍ أن يكـون مثـل هـذا الأثـر أسـمى وأعـلى دوافِـع أُمَّـةٍ مسـيحيَّةٍ! أُمَّـة لا تحمـل بداخلهـا أيَّ إيعـازاتٍ بالكراهيـة أو بالانتقـام، ولا أيَّ رواسِـبَ مـن آثـارَ مُعتقَـد العهـد الغابِـر، الـذي رُبَّمـا يحتـاج أن يُتَـدَارَك. عـلى الجانـب الآخـر، سـيكون ذلـك إشـارةً ضمنيَّـةً للعالَـم، بأنَّنـا ننـوي الوفـاء بعهدنـا بإعـلان الحـرب، وأن نُعطـي كوبـا إلى الكُوبيِّـين، حالمـا نكـون قـد هيَّأناهـم للاضطـلاع بواجبـاتِ ومسـئوليَّات شـعبٍ يحكـمُ نفسـه...

إلى السيِّد جون هيتز

12 شارع نيوبيوري، بوسطن،

3 فبراير، 1899.

لقـد خُضـتُ يـوم الاثنـين المـاضي تجربـةً مثـيرةً بمـا يفـوق الحـدَّ. أخذتنـي صديقـةٌ لي في الصبـاح إلى مُتحَـف بوسـطن للفنـون. كانـت قـد تحصَّلَـت مُسـبقًا عـلى تصريـحٍ لي من الـچـنرال لورنـغ((1)) مديـر المتحف، أن يُسـمَح لي بلمـس التماثيـل، خاصـة تلـك التـي تُجسِّـدُ أصدقـائي القدامى مـن "الإليـاذة" و"الإنيـادَة". ألم يكـن ذلـك لطيفًـا؟ عندمـا كنـتُ هنـاك، أتى إليَّ الـچـنرال لورنـغ بنفسـه، وأراني بعضًـا مـن أجمـل التماثيـل، مـن بينهـا تمثـال ڤـينوس دي ميديتـشي، مينيرڤـا پـارثينون((2))، تمثـال دَيانـا، وهـي

(1) تشـارلز لورنـغ Charles G. Loring، كان مُقاتِـلاً في الحـرب الأهليـة الأميركيَّـة، رحَّالـة، درس علـم المِصريَّـات، وظـلَّ مديرًا لمتحـف الفنـون مـدة سـتةٍ وعشريـن عامًـا، منـذ افتتاحـه 1876، إلى أن اسـتقال 1902، ومـات بعدهـا بشـهور. (المترجِـم)

(2) مينيرڤـا: إلهـة الحكمـة والفنـون عنـد الرومـان. پـارثينون: معبـد مُقـام عـلى جبـل الأكروبولس في أثينـا. (المترجـم)

في بذلة الصَّيد، حيثُ يدها تمسكُ بالسَّهم، وبجانبها تقفُ ظَبْيَة، والتعيس لاوكون وولَديه الصَّغيرين[1]، يُنازِعون وهم داخل التفافات ثُعبانَين عظيمَيْن مُرعِبَين، ويمدُّون أيديهم نحو السَّماء بتضرُّعاتٍ تُقطِّعُ نِياط القلب. رأيتُ أيضًا أبوللو بيلڤيدير. كان قد ذبح لتوِّه الأُفعوان، وكان ينتصِبُ مُعتمِدًا على عُكَّازٍ عظيمٍ من الصَّخر، باسِطًا يده الرَّشيقةِ احتفالًا بانتصاره على الثُّعبان الرَّهيب. ياه! كان حقًّا بهيًّا! لقد فَتَنَتني ڤينوس. وقد بدَت كأنَّها تجلَّت لتوِّها وسط زَبَدِ البحر، وكانت بعُذُوبتها كأنَّها جزءٌ من قِطعةٍ موسيقيَّةٍ سماويَّة. رأيتُ نايوبي المسكينة بطفلها الأصغر يتشبَّثُ بها، بينما كانت تتوسَّلُ للإلهة القاسية ألَّا تقتلَ آخِر أحبَّائها. كنتُ تقريبًا أبكي، كان كلُّ شيءٍ حقيقيًّا جدًّا ودراميًّا. تكَرَّمَ الجِنرال لورنغ وأراني نُسخةً لواحدٍ من الأبواب البرونزيَّة لمعموديَّة فلورانسا، وتحسَّستُ العُمَدَ المزخرفة التي تستكينُ فوق أظهُر الليوث الضارية. لهذا فكما ترين، فقد أخذتُ قِسطًا مُسبَقًا من المتعة التي أتمنَّى أن أنالها بزيارة فلورانسا. قالت لي صديقتي إنَّها في مَرَّةٍ سوف تُريني نُسَخًا من التماثيل المرمريَّة التي أخذها اللورد إلليغِن من پارثينون. لكنِّي بطريقةٍ ما أفضِّل أن أرى التماثيل الأصلية في المكان الذي قصدت الروح الحارسة أن تبقى فيه، ليس فقط لأجل أن تكون أُنشودةً تتغنَّى بمديح الآلهة، إنَّما أيضًا كأثرٍ من اليونان المجيدة. إنَّه حقيقةً لعملٌ فاسدٌ أن نختلِسَ الأشياء المقدَّسةَ من حرَمِ العهدِ الغابِر حيث تنتمي...

(1) لاوكون: هو الكاهن الطروادي طبقًا لڤيرچل، وقد ذُكِر في الكتاب الثاني من الإنيادة، الأبيات (40-50). (المترجم)

إلى السيد وليام وايد

بوسطن، التاسع عشر من فبراير، 1899.

يـاه! أيُّهـا المبـارك، لقـد ظننـتُ أنِّي كاتَبتُـكَ في اليـوم الـذي وصلـت فيـه "المختـارات"[1]، وأنيِّ أخبرتُـكَ كـم أنـا سـعيدة بامتلاكهـم! ربمًّـا أنـتَ لم تسـتلم ذاك الخِطـاب مُطلَقًـا. عـلى أيَّـةِ حـال، إنَّنـي أشـكرك يـا صديقـي العزيـز لأنَّـكَ جشَّـمتَ نفسـك كلَّ هـذا العنـاء لأجـلي. سـيسُرُّكَ بـأن تعـرف أنَّ الكتـب القادمـة مـن إنجلـترا عـلى وصـول. أنـا عنـدي فعـلًا الكتـاب السـابع والكتـاب الثامـن مـن "الإنيـادة"، وكتـابٌ واحـد مـن "الإليـاذة"، كان هـذا الجـزء هـو صاحـب الحـظِّ الوحيـد، حيـث شـارفتُ تقريبًـا عـلى الانتهـاء مـن قـراءة كُتبـي ذات الحـرف البـارز.

إنَّـه ليمنحنـي متعـةً عظيمـة عندمـا أرى مقـدار مـا يُفعَـل لأجـل كفيـفٍ أصـمَّ. فكلَّـما علمـتُ بوجـود هـذا، تبيَّنـتُ أنَّ العـالم يعمُـر بالكثـير مـن الرحمـة. هـاه! منـذ فـترةٍ قصـيرةٍ مضـت، كان النَّـاس يعتقـدون أنَّـه لمـن المسـتحيل تمامًـا أن يُعلَّـمَ الكفيـفُ الأصـمُّ أيَّ شيء، لكـن مـا كاد إثبـاتُ ذلـك يكـون أمـرًا مُمكِنًـا حتَّـى اشـتعلت في مئـات القلـوب الرَّحيمـة الطيِّبـة الرَّغبـةُ في تقديـم يـدِ العـون لهـم، وهـا نحـن نـرى كـم كثيريـن هـم أولاء الأشـخاص المسـاكين، تعيسـو الحـظِّ، يُعلَّمـون الآن كيـف يُعايِنون الجـمال والحقيقـةَ في الحيـاة. فدائمًـا مـا تشـقُّ المحبَّـة طريقهـا إلى الأرواح الحبيسـة، وتنتشِـلها خارِجًـا إلى عالَـم الوعـي والحُريَّـةِ!

بالنسـبة لحـروف هجـاء الأصابـع الثنـائيّ[2]، أعتقـد أنَّهـا أيـسر عـلى أولاء الذيـن يملكـون البـصر مـن هجـاء الأصابـع؛ فغالبيـةُ الأحـرفِ تكـون

---

(1) مختارات للشاعر ڤيرچل. (المترجم)

(2) هجـاء الأصابـع يعتمـد عـلى يـدٍ واحـدة، أمّـا هجـاء الأصابـع الثنـائي، يعتمـد تمثيـل أبجديـة الحـروف الإنجليزيّـة باسـتخدام اليديـن الاثنـين. (المترجـم)

شَبيهةً بالحروف الكبيرة (Capitals) الموجودة في الكتب، غير أنِّي أظنُّ أنَّه حين يقتضي الأمر لتعليم شخصٍ مكفوفٍ أصمَّ أن يتهجَّى، يكون هِجاء الأصابِع أكثر مُلاءَمةً وأقلَّ مُنافاةً للذوق السليم...

إلى حرم السيد لورانس هاتون

12 شارع نيوبيوري، بوسطن

5 مارس، 1899.

أنا على يقينٍ الآن أنِّي سأكون مستعدَّة لامتحاناتي في شهر يونيو. ليس في سمائي من غيومٍ سوى غيمة واحدة، لكنَّ تلك الغيمة لتُلقي بظِلٍّ مُظلمٍ فوق أنحاء حياتي، وتجعلني في أحيانٍ مُتبلبلة البال. عينا مُعلِّمتي لم تتحسَّن، في الحقيقة، أظنُّ أنَّ أمرهما يؤول إلى أسوأ، هي رغم هذا شجاعةٌ جدًّا وصَبورة، وسوف لن تستسلم. لكن أكثر ما يُكدِّرُني هو شعوري بأنَّها تُضحِّي ببصرها من أجلي. أشعرُ أنَّه يتعيَّنُ عليَّ أن أتخلَّى إجمالًا عن فِكرة الذَّهاب إلى الكُلِّيَّة؛ فكلُّ المعرفة الموجودة بالعالم ليس في وسعها أن تجعلني سعيدة، إن كان تحصيلها يستلزمُ كهكذا ثمن. أتمنَّى يا مدام هاتون أن تحاولي إقناع مُعلِّمتي أن تأخذ قِسطًا من الراحة، وأن تُعالِجَ عينيها. فهي لن تستمِعَ إليَّ.

حصلتُ لتوِّي على بعض الصور الملتقَطَة، وإن كانت الصور جميلة، سيسعدني أن أرسل واحدة إلى السيد روجرز، إن كنتِ تعتقدين أنَّه سيعجبه أن يحصل على واحدة. إنِّي لأودُّ بأيِّ شكلٍ أن أُرِيَه كم أُقدِّرُ كلَّ ما يفعله من أجلي، وليس في وسعي التفكير بأيِّ شيءٍ أقوم به أفضل من ذلك.

يتحدَّثُ الجميعُ هنا عن صور ساردْچنت[1]. يقولون إنَّها عرضٌ مُدهش لصور البورتريه. كم أتمنَّى أن لو كانت عندي عينان مبصرتان كي أرى هذه الصُّور! كم كنتُ سأبتهِجُ بألوانها وبجمالها! على كلٍّ، أنا مسرورة لأنِّي لم أُحرم من كلِّ المتع الموجودة في الصور. فأنا أملكُ على الأقل إمكانية إشباع رؤيتها من خلال عيون أصدقائي، وهو أمرٌ يهبني متعةً حقيقيَّة. أنا شاكرةٌ جِدًّا لكوني أستطيعُ الفَرحَ بكلِّ صُنوف الجمال التي يحشدها لي أصدقائي ويضعونه بين يديَّ!

إنَّنا جميعًا جِدُّ سُعداءَ وشاكرون لكون السيد كيبلنغ لم يمُت! عندي كتابه "كتاب الغابة" مطبوع بحرفٍ بارز، ويا له من كتابٍ مُدهشٍ خَلَّاقٍ هو! إنِّي لا أستطيعُ إخفاء انفعالي بمعرفتي كيف أنّه هو كاتبٌ موهوب. كم هي طبيعته ولا بُدَّ حقيقيةٌ ومحبوبةٌ وتَتَّسمُ بالمروءة!

إلى الدكتور دِايڤيد هـ غرير

12 شارع بيوربيوري، بوسطن

8 مايو، 1899.

كلُّ يومٍ يحلُّ يجلب لي معه جميع ما يكون باستطاعتي إنجازه، وكلُّ ليلةٍ تجلبُ لي معها الراحة، وتسيطرُ على عقلي تلك الفكرة الجميلة، بأنَّني أصيرُ أقربَ قليلًا من بلوغ هدفي عمَّا قبل. يُونانيَّتي تتطوَّر على نحوٍ طيِّب. أنهيتُ قراءة الكتاب التاسع من "الإلياذة"، وبدأتُ لتوِّي في قراءة "الأوديسَّا". أقرأ أيضًا "الإنيادة" و"المختارات". بعضٌ من أصدقائي يقولون إنِّني حمقاء لأنني أمنح الكثير جدًّا من الوقت لليونانيَّةِ واللاتينية، غير أنِّي متأكِّدة، أنَّهم لن يُفكِّروا على هذا

(1) چون ساردْچنت (1865-1925): رسام أميركي، وُلد في فلورانسا، ويعدُّ أبرز رسَّامي البورتريه في جيله. (المترجم)

النَّحـو، لـو أدركـوا أيَّ عالَـمٍ مدهـشٍ مـن الخِـبرة والفِكـر كشـف لي عنـه كلٌّ مـن هوميـورس وڤـيرچـل. أعتقـدُ أنَّ أفضـل كتـابٍ أسـتمتعُ بـه عـن البقيَّـة هـو "الأوديسَّـا". فالإليـاذة لا تحـكي عـن أيِّ شيءٍ تقريبًـا سـوى عـن الحـرب، وإنَّ المـرء أحيانًـا ليُصيبـه الإنهـاكُ مـن اشـتباك الحِـراب ومـن معمعـة الوغَـى، غـير أنَّ "الأوديسَّـا" تحـكي عـن صِنـفٍ مـن البسـالةِ أكـثر نُبـلًا- شـجاعة رُوحٍ جريحـة مُضنـى، إلَّا أنَّهـا رُوحٌ وطيـدةٌ حتَّـى النهايـة. كثـيرًا مـا أتسـاءل، وأنـا أقـرأ تلـك القصائـد المدهشـة: في نفـس الوقـت الـذي أشـعلت أناشـيدُ هومـيروس عـن الحـرب جـراءةَ اليونانيـين، فلـماذا لم يكـن لأناشـيده عـن فضيلـة المـروءة تأثـيرٌ أقـوى عـلى حيـاة النـاس الرُّوحانيـة؟ ربَّمـا السـبب، هـو أنَّ الأفـكار العظيمـةَ حقًّـا هـي كـما البـذور، تُـزرعُ في عقـل الإنسـان، سـواءٌ بقيـت كامنـةً وغـير ملحوظـة، أو تقلَّبـت وحـدث تَلاعُـبٌ بهـا كـما الدُّمـى، إلى أن تكـون قـد نضجـت وصـارت أكـثر حِكمـةً، عـبر المعانـاة والتجربـة، فتسـتخرجها سـلالةٌ مـا وترعاهـا. عندئـذٍ يكـون العـالم قـد ارتقـى دَرجـةً في سَـعيه نحـو السـماء.

إنَّنـي أبـذلُ الآن مجهـودًا مُضنيًـا جـدًّا. فأنـا أنـوي أن أخـوض امتحانـاتي في يونيـو، وعنـدي الكثـير مـن العمـل لأنجِـزه، قبـل أن أشـعر باسـتعدادي لمواجهـة الامتحـان الأكـبر.

سـوف تسـعد عندمـا تعـرف أنَّ أمـي وأختـي الصغـيرة وأخـي- جميعهم قادمـون إلى الشـمال لقضـاء هـذا الصيـف معـي. سـنقيمُ جميعًـا في كـوخٍ صغـير يُطـلُّ عـلى إحـدى بُحـيرات رينتهـام، بينـما مُعلِّمتـي العزيـزة سـوف تأخـذُ قسِـطًا كبـيرًا مـن الراحـة هـي في أشـدِّ الحاجـةِ إليـه. إنَّهـا لم تَحْـظَ بإجـازة مـدة اثنـي عـشر عامًـا، لـك أن تتخيَّـل، وطـوال كلِّ هـذا الوقـت كانـت هـي شـعاعَ الشَّـمس الـذي ينـير حيـاتي. والآن تُنغِّـصُ عليهـا عيناهـا بشـكلٍ عظيـم، وجميعنـا يـرى أنَّـه يجـدرُ أن تُعفـى لفترة مـن أيِّ التـزامٍ أو مسـؤوليَّة. لكنَّنـا لـن ننفصـل تمامًـا، سـوف نلتقـي كلَّ يـوم، هكـذا أتمنـى. وعندمـا يحـلُّ شـهر يوليـو، بإمكانـك أن تتخيَّلنـي وأنـا أجـذِّفُ بأصدقـائي

الأعـزاء حـول البحـيرةِ الجميلـة، في القـارب الصغـير الـذي أعطيتنـي إيَّـاه، إننـي أسـعدُ فتـاةٍ في العالَـم!...

إلى حرم السيِّد لورانس هاتون

[بوسطن] الثامن والعشرون من مايو [1899].

لقـد قضينـا يومًـا شـاقًّا. السـيد كيـث كان عندنـا هنـا لمـدة ثـلاث سـاعات بعـد ظُهـر اليـوم، يصـبُّ سَـيْلًا مـن اللاتينيـة واليونانيَّـة في عقـلي الذَّاهِـل المسـكين. إنَّنـي لأؤمـن حقًّـا أنَّـه يعـرف مـن قواعـد اللاتينيـة واليونانيـة أكـثر مـمَّا حَلـم بـه شـيشرون أو هومـيروس! شـيشرون خطيـبٌ مُدهِـش، لكـنَّ خُطَبَـه تسـتعصي جـدًّا عـلى الترجمـة. إنَّنـي أحيانًـا أشـعرُ بالخِـزي عندمـا أحـاول دَفـعَ هـذا الرجـل الـمُفَوَّه لقـول مـا يبـدو ماسِـخًا وسـخيفًا عـلى لسـاني، لكـن أنَّى لفتـاةٍ في المدرسـةِ أن تُترجِـمَ كلام مثـل هـذا العبقـريِّ؟ يـا سـلام! ينبغـي عـليَّ أن أكـون نسـخةً مـن شـيشرون حتـى أتمكَّـنَ مـن الخطابـةِ كشـيشرون!...

* * *

لينـي هاغـوود فتـاةٌ كفيفـةٌ صَـمَّاء، واحـدةٌ مـن العديديـن الذيـن قـدَّم لهـم السـيد وليـم ويـد يـدَ العـون. تُعلِّمهـا الآن الآنسـة دورا دونالـد، حيـث في بدايـة اشـتغالها مـع تلميذتهـا، كان السـيِّد هايتـز، مـشرف معمـل ومكتـب ڤـولتا[1]، يمدُّهـا بنُسَـخٍ مـن جميـع الوثائـق المتعلِّقـة بعمـل الآنسـة ساليڤـان مـع الآنسـة كيلـر.

(1) أُنشِـئ المعمـل عـام 1880، وكان مُختصًّا بالأبحـاث التقنيـة، وتطويـر الاتصـالات، ثـم ألحـق بـه ألكسـندر جرهـام بـل مكتـب ڤـولتا، لنـشر المعرفـة الخاصّـة بتعليـم الصُـم. (المترجم)

إلى السيد وليام وايد

رينتهام، ماساتشوستس، 5 يونيو، 1899.

خطـابُ لينـي هاغـوود، الـذي أرسَـلَتْه لي قبـل أسـابيعَ قليلـة، أثـار اهتمامـي كثـيرًا. بـدى لي أن ذلـك الخطـاب ليُظهـر تلقائيَّـة الشـخصيةِ وعذوبتهـا العظيمـة. لقـد تسـلَّيتُ كثـيرًا بمـا قالَتـه عـن التاريـخ. وقـد أسِـفتُ لأنَّهـا لا تسـمتعُ بـه، لكنِّـي أنـا أحيانًـا أشـعرُ بأنَّـه، كـم هـو قاتـمٌ فعلًا، وكـم غامـضٌ وحتَّـى مُخيـفٌ هـو التاريـخُ القديـم للشُّعوب، والديانـات القديمـة، وجميـع الأشـكال العتيقـة مـن أنظمـة الحُكـم.

طيِّـب، لا بُـدَّ أن أعـترف، أنـا لا تُعجبنـي لغـة الإشـارة، ولسـتُ أعتقـدُ أنَّهـا سـوف تكـون ذا نَفـعٍ كبـير للصُّـمِّ المكفوفـين. أجـدُ أنَّـه مـن العسـير جـدًّا مُتابعـة الحـركات السريعـة التـي يقـوم بهـا الخُـرس المكفوفـون، وعـلاوةً عـلى ذلـك، تبـدو الإشـارةُ عائقًـا كبـيرًا بالنسـبة لهـم في اكتسـاب القُـدرة عـلى اسـتخدام اللغـة بيُسرٍ وبطلاقـة. يـاه! إنَّنـي أجـد أنَّـه مـن العسـير فهمهـم أحيانًـا عندمـا يتهجَّـؤون الكلـمات عـلى أصابِعهـم. في المجمَـل، إن لم يكونـوا يسـتطيعون تعلُّـمَ النُّطـق، يبـدو هجـاء الأصابـع هـو وسـيلةُ التواصـل الأصلـح والأكـثر ملاءَمـةً لهـم. عـلى أيَّـة حـال، أنـا متأكِّـدة أنَّ الصُّـمَّ المكفوفـين لا يسـتطيعون تعلُّـم اسـتخدام الإشـارات بـأيٍّ درجـةٍ مـن درجـات اليُـسر.

اليـوم قبـل السَّـابق، التقيـت رجـلًا مُحترمًـا نرويجيًّـا، يعـرف راينهالـد كاتـا ومعلِّمتهـا خـير معرفـة، وخُضنـا حـوارًا ممتعًـا بخصوصهـا. يقـول إنَّهـا كانـت مجتهـدةً جـدًّا وسـعيدة. كانـت تمـارس أعـمال الغَـزْل، وتقـوم بقـدر كبـيرٍ مـن الأعـمال ذات الطبيعـة التخيُّليّـة، وتقـرأ، وتحيـا حيـاةً مبهجـةً ونافِعـة. فقـط فكِّـر في الأمـر، إنَّهـا لا تسـتطيعُ اسـتخدام هِجـاء الأصابـع! هـي تقـرأ الشـفاه بشـكلٍ جيـد، وإن لم تكـن تسـتطيعُ فَهـم عبـارةٍ، يكتبهـا أصدقاؤهـا في يدِهـا، وعـلى هـذا النَّهـج تتحـاورُ مـع الغُربـاء. أنا لا أسـتطيعُ

أن أستنبِطَ أيَّ شيءٍ يُكتب في يدي؛ لذا فكما ترى، تتقدَّمُ عليَّ رينهالد في بعض الأمور. أتمنَّى فعلًا أن أراها يومًا ما...

إلى حرم السيِّد لورانس هاتون

رينتهام، 29 يوليو، 1899.

لقد اجتزتُ كلَّ امتحانات المقررات الدراسية، وبتقديرٍ عالٍ في اللاتينية (مستوى متقدِّم)... لكن لا بُدَّ أن أعترِف: أنا قضيتُ وقتًا عصيبًا في اليوم الثاني من الامتحانات. فهم لم يكونوا ليسمحوا لمعلِّمتي أن تقرأ لي أيَّ شيء من أوراق الامتحان؛ لذا أُعِدَّت نُسَخٌ من أوراق الامتحان لأجلي بكتابة برايل. سَارت هذه الإجراءات على ما يُرام في امتحانات اللغات، لكن ليس على ما يرامُ تمامًا في الرياضيَّات. وتبَعًا لهذا، لم أكن لأُحسن الأداء في الامتحان كما ينبغي أن يكون، لو أنَّه قد سُمِحَ لمعلِّمتي بأن تقرأ لي أوراق امتحان الجبر والهندسة. لكن لا يجب أن تظنِّي أنِّي ألومُ أحدًا. فهُم بالطَّبع لم يكونوا يدركون كم هو عسيرٌ ومثيرٌ للتشوُّشِ ما كانوا يفعلونه معي في الامتحانات. وكيف يكون باستطاعتِهم- وهم القادرون على السَّماع والإبصار- أظنُّ أنَّهم لم يستطيعوا أن يعوا الأمور من وجهةِ نظري...

وبهذا كان صَيفي أكثرَ عُذوبةً من أيِّ شيءٍ باستطاعتي أن أتذكَّره. فقد قضى هنا كلٌّ من: أمِّي، وأختي، وأخي الصغير- خمسة أسابيع، وسعادتنا كانت بلا حدود. إنَّنا لا نستمتعُ بكوننا مجتمعين معًا فحسب، بل إنَّنا نجدُ أنَّ بيتنا الصغير مبهجٌ إلى أقصى الحدود. إنَّني أتمنَّى أن لو كان في وسعك رؤية منظر البحيرة البديعةِ من شُرفتنا، حيث تبدو الجُزرُ كأنَّها قِممٌ زُمُرُّديَّة تتألَّقُ في ضوء الشمس الذهبي السَّاقطِ عليها، وقواربُ الكَنو تطيرُ هنا وهناك، كما تُرفرِفُ أوراق الخريف في النَّسيم العليل، وبوسعكِ أن تتنشَّقي عبيرَ الغابة اللذيذ

علـى نحـوٍ مُميَّـز، إنَّـه عبـيرٌ يهـلُّ كـما هسـيسٌ آتٍ مـن مـكانٍ مجهـول. لا يسـعني التوقُّـف عـن التسـاؤل، إن كان هـو نفـس العبـير الـذي تلقَّـى شـعبَ النـورس[1] بالتحيَّـة منـذ عهـدٍ طويـل، عندمـا، طِبقًـا لمـا هـو متـوارث، عندمـا زاروا شـواطِئنا- إنَّـه صـدًى عطِـرٌ لقـرون عديـدة، مـن ازدهـار واضمحـلال صامـتٍ، كان يصيـب الشَّـجَر والزُّهـور...

إلى حرَم السيِّد صامول ريتشارد فولر

رينتهام، 20 أكتوبر، 1899.

أظـنُّ أنَّـه قـد حـان الوقـت كي أُحدِّثَـكِ بطَـرفٍ مـن خُطَتنـا الخاصَّـة بفصـل الشـتاء. تعرفـين أنَّـه قـد طـال شـوقي للذهـاب إلى رادكليـف، وأن أحصـل عـلى شـهادةٍ جامعيَّـة، مثلـما فعلـت الكثـيراتُ مـن الفتيـاتِ الأُخريـات، لكـنَّ العميـد إيرويـن، عميـد رادكليـف، أقنعتنـي بـأن أتلقَّـى دورة دراسـيّة خصوصيَّـة في الوقـت الحـاضر. قالـت إنِّي قـد أظهـرتُ للعـالم بالفعـل قُـدرتي عـلى الاضطـلاع بالدراسـة الجامعيَّـة، وذلـك باجتيـازي جميـع امتحانـاتي بنجـاح، رغـم مُلاقـاتي الكثـير مـن المصاعـب. بَيَّنَـت لي كـم سـيكون مـن عظيـمِ الحماقـة أن أواصـل برنامجًـا دراسـيًّا مُدَّتـه أربـع سـنوات في رادكليـف، هدفـه ببسـاطة أن أكـون كبقيَّـةِ الفتيـات، بينـما ربَّمـا يكـون مـن الأفضـل أن أصقِـلَ بعـض مهـارات الكتابـة عنـدي. تقـول إنَّهـا لا تعتـبر أنَّ أيَّ شـهادةٍ هـي ذات قيمـةٍ حقيقيَّـة، إلَّا أنَّهـا كانـت تعتقـدُ أنَّـه مـن المرغـوب أكـثر هـو أن أقـومَ بعمـلِ شيءٍ مُبتَكـر بـدلًا مـن تبديـد المـرء طاقاتِـه لأجـل نيـل درجـةٍ جامعيَّـةٍ فحسـب. بَـدَت حُججهـا بالنسـبة لي منطقيَّـةً وعمليَّـة، لدرجـة أنَّـه لم يسـعني سـوى أن أُسـلِّمَ بمـا قالـت. كنـتُ أجـدُ أنَّـه مـن الصَّعـب -مـن الصَّعـب جـدًّا في الحقيقـة- أن أصرِفَ

---

(1) Norsemen أو شـعب النـورس، جماعـة مـن القبائـل الـچـيرمانيَّة، كانـت تقطـن اسكندنافـيا، وعُرِفـوا بعـد انتشـارهم وتوسُّـعهم بالـڤـايكنغ. (المترجـم)

نظري عن فكرة الذَّهاب إلى الكُلِّيَّة، لقد كانت الفِكرةُ تستحوذُ على عقلي منذُ أن كنتُ صَبيَّة، لكن، أيكون القيامُ بفعلٍ أحمَق أمرًا غير ذي نَفعٍ، لأنَّ المرء لطالما رغبَ في فِعله منذ وقتٍ طويل؟

بيدَ أنَّنا ونحن نتناقشُ في خُططنا لأجل الشِّتاء، لمع في ذهن مُعلِّمتي اقتراحٌ كان دكتور هال قد طَرحه منذ وقتٍ طويل- وهو أنِّي رُبَّما أتلقَّى دوراتٍ دِراسيَّة تُشبه على نحوٍ ما تلك التي تُدرَّسُ في رادكليف، تحت إشراف أساتِذة جامعيين في تلك المواد الدراسيَّة. لم يكن يبدو أنَّ الآنسة إيروين عندها أيُّ اعتراض على هذا المقترَح، وتكرُّمًا منها عرضَت أن تبحث عن الأساتذة وتتبيَّنَ إن كانوا سيوافقون على إعطائي الدروس. إن كانوا سيُحسنون صُنعًا ويُعلِّمونني، وإن كان عندنا ما يكفي من المال كما قد خَطَّطنا، فسوف يكون هذا العام عامًا إنجليزيًّا؛ حيث سأدرس فيه الأدب الإنجليزيَّ من العصر الإليزابِثِّي، وسأدْرُسُ اللاتينيَّة والألمانيَّة...

إلى السيد چون هيتز

138 شارع براتل، كيمبردچ

11 نوفمبر، 1899.

بالنسبة للسؤال المطروح عن برايل، ليس في وُسعي التعبير عن مدى انزعاجي العميق لدى سماعي بأنَّ تصريحي فيما يتعلَّق بالامتحانات كان موضع شَكٍّ. يبدو أنَّ التجاهل يأتي في ذيلِ قائمة جميع هذه الإجراءات الاحترازيَّة. طيِّب! أنتَ نفسك يبدو أنَّك تظنُّ أنَّني علَّمتُكَ كتابة برايل على الطريقة الأميركيَّة، بينما أنتَ لا تعرفُ حَرفًا واحدًا من هذا النِّظام الكِتابي! لم أستطع منع نفسي من الضحك حين أخبرتَني أنَّك كنتَ تُكاتبني باستخدام برايل على الطريقة الأميركيَّة- وأنت كنت تكتب خِطابَك على طريقة برايل الإنجليزيَّة!

أوردُ هنا الحقائق الخاصة بامتحانات برايل هي على النحو التالي:

كيف اجتزتُ امتحانات القَبول في كلية رادكليف

في اليومين التاسع والعشرين، والثلاثين من شهر يونيو، 1899، خُضتُ امتحاناتي لدخول كلية رادكليف. كان عندي في اليوم الأول امتحان اللغة اليونانية (مستوى مبتدئ)، واللاتينية (مستوى متقدِّم)، وفي اليوم الثاني امتحان الهندسة، الجبر، واليونانية (مستوى متقدِّم).

لم يسمح مسؤولو الكليَّة للآنسة ساليڤان بأن تقرأ لي أوراق الامتحانات؛ لذا عُهِدَ إلى السيد إيوچين س. ڤيننغ -وهو أحد الأساتذة في معهد بيركنس للمكفوفين- بأن يصنع لي نُسخًا من أوراق الامتحانات بطريقة برايل. كان السيِّد ڤيننغ شخصًا غريبًا عنِّي تمامًا، ولم يستطع التواصل معي إلا عبر الكتابة ببرايل. مُراقب الامتحان أيضًا كان غريبًا، لم يُحاول أن يتواصل معي بأيِّ طريقةٍ كانت، ولأنَّهما لم يكونا يألَفان طريقتي في الكلام، لم يستطيعا أن يفهما بسهولةٍ ما كنتُ أقوله لهما.

ورغم ذلك، كانت طريقة برايل فعَّالة بما يكفي في امتحانات اللغات، لكن عندما حان موعد الهندسة والجبر، كان الوضع مختلِفًا. كنتُ مشوَّشةً على نحوٍ مرير، وكنتُ أحسُّ تقريبًا بأنَّه قد ثُبِّطَت عزيمتي، وأنَّني قد أضعتُ الكثير من الوقت الثمين، خصوصًا في امتحان الجبر. صحيح أنِّي كنتُ آلف تمامًا جميع الأشكال الأدبية من كتابة برايل- الإنجليزيَّة، الأميركيَّة، نِظام نَقْط نيويورك[1]، لكنَّ طريقة كتابة الرموز العديدة المستخدمة في الجبر والهندسة في الأنظمة الثلاثة كانت متفاوتةً للغاية، وقبل يومين من موعد الامتحانات كنتُ أعرف

---

(1) New York Point نظام كتابي شَبيه لكتابة برايل، ابتكرَه وليام بل ويت، كان أستاذًا في معهد نيويورك لتعليم المكفوفين. (المترجم)

فقط الطريقة الإنجليزيَّة. لقد كنتُ أستخدمُها طوال مسار عملي المدرسي، ولم أستخدِم مُطلقًا أيَّ نِظامٍ آخر.

في امتحان الهندسة، كانت مُشكلتي الرئيسةُ أنَّني كنت متعوِّدةً على قراءة حروف الجَرِّ في سِطرٍ مطبوعٍ على الدَّوام، أو أن تُتَهجَّأ لي في يدي، وبشكلٍ ما، رغم أنَّ حروف الجرِّ كانت أمامي تمامًا، كان المكتوب ببرايل ما زال يُحيِّرُني، ولم أكن أستطيعُ أن أُرسِّخَ في عقلي على نحوٍ واضِح ما كنتُ أقرؤه. لكن، عندما دخلتُ امتحان الجَبر، مع ذلك عانيتُ وقت عصيبًا على نحوٍ أعظَم؛ فلقد كنتُ عاجِزةً بشكلٍ رهيب جرَّاءَ معرفتي المنقوصَة بالرُّموز الاصطلاحيَّة. الرُّموز التي كنتُ قد تعلَّمتُها اليوم قبل السَّابق- وكنتُ أظنُّ أنِّي أتقنتُ معرفتَها- قد شَوَّشَتني. وبناءً عليه كان أدائي بطيئًا على نحوٍ مؤلِم، وكنتُ مُضطرَّةً لقراءة الأمثلة مِرارًا وتكرارًا قبل أن يكون في وسعي تكوين فِكرة واضحة عن المطلوب عمله في السؤال. في الحقيقة، لستُ متأكدة تمامًا أنِّي قرأتُ جميع الرموز بالشكلِّ الصحيح، خاصَّةً وأنِّي كنتُ مكروبةً جدًا، ووجدتُ أنَّه من العسير للغاية أن أستطيعَ الاحتفاظ بحصافة عقلي...[1]

سأذكُر الآن حقيقةٌ أخرى، وهو ما أريدُ أن أفصِّلَ عنها بيانًا على نحوٍ جليٍّ، بشأن ما كتبه لي السيد غيلمان. لم أتلقَّ أبدًا أيَّ واجبات مُباشرة في مدرسة غيلمان. كانت الآنسة ساليڤان تجلس دائمًا بجانبي،

---

(1) ربمَّا ما وقعت فيه هيلين من تشوُّش ناتجٌ عن تضارب طريقة برايل على كلِّ نظام من الأنظمة الثلاثة، حيث، كما يذكر مؤلِّفا كتاب "تكيُّف الكفيف"، أدخل وليام ويت تعديلًا على برايل، وصارت تُعرف بنظام نقط نيويورك، حيث جعل مجموعة الحروف الستة في وضعٍ أفقيٍّ بدل الوضع العموديِّ. وقد تبعه تغيير آخر قام به چول سمث، بمعهد بيركنس، فصارت تُسمَّى طريقة برايل الأميركيَّة. أوقعت هذه الحالة بيوتَ الطباعة في حيرة. وصل الأمر أنَّه في عام 1895، انقسمت الولايات المتحدة إلى فريقين: فريق يستعمل نظام نقط نيويورك (نقطة نيويورك) ويشمل ولايات نيويورك وكارولينا الشمالية، وآخر يستعمل برايل الأميركيَّة، ويشمل باقي الولايات. (المترجم)

وتخـبرني بمـا يقولـه المعلِّمـون. لقـد علَّمـتُ أنـا الآنسـةَ هـال، مُدرِّسـة الفيزيـاء، علَّمتُهـا كيفيـة الكتابـة ببرايـل عـلى الطريقـة الأميركيَّـة، لكنَّهـا لم تُعطنـي أيَّ واجِبـات بالاسـتعانة بهـا- إلَّا إذا كانـت المسـائل القليلـة المكتوبـة لأجـل التدريـب، التـي جعلتنـي أبـدِّدُ الكثـير مـن الوقـت الثمـين في فَـكِّ شـيفرتها، يمكـن أن يُطلـق عليهـا: واجبـات. العزيـزة فـرو غـرو تعلَّمـت هِجـاء الأصابـع، وكانـت تسـتعينُ بـه في التدريـس لي، لكـن كان ذلـك في حِصـصٍ خاصَّـة، كانـت تتقـاضى عليهـا أجـرًا يدفعـه أصدقـائي. في حصـة اللغـة الألمانيـة، كانـت الآنسـة ساليـڤـان تُترجِـمُ لي ترجمـةً فوريـة مـا كانـت المعلِّمـة تقولـه قـدر مـا تسـتطيع.

ربَّمـا لـو أرسـلتَ نُسـخةً مـن كلامـي هـذا إلى مديـر مدرسـة كيمبردج، عـسى أن ينـوِّرَ هـذا عقلـه بشـأن بضعـة مواضيـع، تلـك الأمـور يبـدو أنَّـه يعيـشُ في غياهِـب جهـلٍ تـامٍّ بهـا في الوقـت الحـالي...

إلى الآنسة ملدرد كيلر

138 شارع براتل، كيمبردج

26 نوفمبر، 1899.

لقـد اسـتقررنا هنـا أخـيرًا لقضـاء فصـل الشـتاء، وعملُنـا يسـيرُ بسلاسـة عـلى مـا يـرام. يأتينـا السـيد كيـث يومًـا بعـد الظهـيرة في الرابعـة، ويمنحنـي "رَفعـةً لطيفـة" فـوق امتـدادت الطريـق الوعِـرة، والتـي لا بُـدَّ لـكلِّ تلميـذٍ أن يمـرَّ مـن فوقهـا. إنَّنـي أدرسُ التاريـخ الإنجليـزيَّ، الأدب الإنجليـزيَّ، الفرنسـية واللاتينيـة، وبـين حـينٍ وأخـرى أسـتأنِفُ الإنشـاء الألمـانيَّ والإنجليـزيَّ- يـا لسـخرية الموقـف! أنـتِ تعرفـين أنِّي أمقـتُ القواعد بقـدر مـا تمقتينهـا، لكـن أفـترضُ أنَّـه لا بُـدَّ لي مـن الـورود عليهـا إن كنـتُ أنتـوي أن أكتـب، تمامًـا كـما اسـتلزم منَّـا أن نغطـس في البحـيرة مئـات المـرات قبـل أن نتمكَّـن مـن العـوم! في مـادة الفرنسـية، مُعلِّمتـي تقـرأ

لي "كولومبا". إنَّها روايةٌ ماتِعة، مليئةٌ بالتعبيرات اللاذِعة والمغامرات المثيرة، (لا تتجرَّئي وتلوميني لأجل استخدامي كلماتٍ كبيرة، ما دمتِ تفعلين الشيء نفسه!) وإن حدث وقرأتِها، أظنُّ أنّكِ سوف تستمتعين بها كثيراً. أنتِ تدرسين الأدب الإنجليزي، أليس كذلك؟ آه لكنَّه مثير للاهتمام بما يفوق الحد! إنَّني أُجري دراسة شاملة للعصر الإليزابِثّي- عن حركة الإصلاح الديني، تشريعات السلطة والطاعة[1]، والاكتشافات الملاحيَّة، وكلِّ الأشياء الهائلة، التي يبدو أنَّ إبليس قد ابتكَرها حتى يغوي بها شبابًا بريئًا مثلكِ![2]...

عندنا الآن عتادٌ ضخمٌ للشتاء: معاطِف، قُبَّعات، بِزَّات، وِزرات وكل المستلزمات. كان عندنا أربعة فساتين فحسب من تصميم مُصمِّمٍ فرنسيّ. عندي فستانان، أحدهما بتنُّورة سوداء من الحرير، يُزيِّن الفستانَ شَبكةٌ من الدَّانتيل، ويحيطُ الخصر حزامٌ أبيض من البُلين، ومخملٌ فيروزيٌّ ونسيجٌ من الشِّيفون، وشريطٌ بلون القِشدَة فوق نَيرٍ من السَّاتان. الفستان الآخر مشغولٌ من الصُّوف، ومن درجة بديعة من اللون الأخضر. خصر الفستان مُزركَشٌ بمخملٍ مُطرَّزٍ بالورديِّ والأخضر، وحزامٍ أبيض، حسب ما أعتقد، وسُترة ضيِّقة ذات طبقتين فوق الصَّدر، ذات انثناءاتٍ ومُزيَّنة بشرائط من المخمَل، وكذلك صفٌّ من أزرارٍ دقيقةٍ بيضاء. مُعلِّمتي أيضًا عندها فُستان من الحرير. التنُّورة لونها أسوَد، بينما اللون أصفر يغلبُ على الخَصْر، ومُطرَّزٌ

---

(1) قامت الملكة إليزابث الأولى -ردًا على الانقسامات الدينية السائدة وقتها- بإعادة تأسيس الكنيسة الإنجليزيَّة، لتجعلها مستقلَّةً عن كنيسة روما، وأصدرت عدة تشريعات، في عام 1559، فيما عُرِف بتشريعات التسوية، أو قانون السمو والتفوُّق، حيث منح البرلمان الملكة لقب "الحاكم الأعلى لكنيسة إنجلترا". (المترجم)

(2) ربما تقصد بهذه العبارة المسرحيَّات التي كان بدأ يذيع صيتها وتسيطر على الناس في ذلك العهد، حيث شهد عصر الملكة إليزابيث ظهور شيكسبير وغيره من المسرحيين، وقد يبرر ذلك استخدامها كلمة deuce للتعبير عن الشيطان، أو إبليس، وهي كلمة قديمة ظهرت في أواسط القرن السابع عشر. (المترجم)

بشيفون رقيق ذي لون أرجوانيٍّ شاحب، وبه أُنشوطاتٌ مخمليَّةٌ سوداء وشريطةُ تزيين. فستانها الآخر أُرجوانيٌّ، مُزركشٌ بمخملٍ أرجوانيٍّ اللون، وعلى الخصر طوقٌ من شريطة تزيينٍ أبيض بلون القِشدة؛ لذا فلكِ أن تتخيَّلي أنَّنا نُشبِه تمامًا الطَّواويس، لكنَّنا فقط لا نملكُ ريشًا...

قبل أسبوعٍ من يوم أمس، أُقيمَت مباراة كرة قدم عظيمة بين فريقي هارڤارد ويال، وكانت هناك حالةٌ مدهشة من الحماس. كان في وسعنا سَماع صرخات الفِتيةِ وصياحات ابتهاج المشاهدين بوضوحٍ في حُجرتنا كما لو كُنَّا موجودين في ميدان الملعب. كان الكولونيل روزڤلت حاضرًا، في مقصورة فريق هارڤارد، لكنه أيَّتها المبارَكة كان يرتدي سُترة بيضاء، وليس اللون القُرمزي الذي كنَا نعرفه به! نحو خمسة وعشرين إنسانًا كان حاضرًا في المبارة، وعندما خرجنا من الملعب، كان الصَّخبُ هائلًا جدًّا، كِدنا نخرجُ من أجسادِنا ظانِّين أنَّها كانت وغى الحرب، وليس ضجيج لعبة كرة قدم تلك التي كُنَّا نسمعها. لكن رغم كلِّ جهودِهم المضنية، لم يُحرز أيٌّ من الفريقين هدفًا، وجميعنا كان يضحك ويقول: "آه، حسنًا، لا يستطيع القِدرُ الآن أن يقول للغلَّاية: يا سودا!"....

إلى حرم السيد لورانس هاتون

559، جادَّة ماديسون، نيويورك

2 يناير، 1900

نحنُ ماكثون هنا منذ أسبوع، ونعتزمُ البقاء مع الآنسة رودس حتى يوم السبت. مستمتعون بكلِّ لحظة من وقت زيارتنا، الجميعُ هنا يُحسنُون معاملتنا جدًّا. لقد التقينا العديد من أصدقائنا القُدامى، وعقدنا بعض الصداقات الجديدة. تغذَّينا مع آل روجرز يوم الجمعة الماضي، ياه! لقد كانوا جِدَّ كُرماء معنا! عندما أتذكَّرُ حُسن ذَوقِهم

وكرمهم الأصيل، فإنَّ ذلك ليضفي بَصيصًا دافِئًا من الجَذَل والامتنان على قلبي. لقد رأيتُ أيضًا دكتور غرير. يا له من قلبٍ رحيمٍ ذلك الذي يمتلكه! إنَّني أحبُّه أكثر من أيِّ وقتٍ مضى. ذهبنا لكنيسة القِدِّيس بَرثولماوس يوم الأحد، ولم أشعر حال تواجُدي في كنيسةٍ كأنني في بيتي منذ أن مات العزيز القِسُّ بروكس. كان الدكتور غرير يتلو على نحوٍ وئيد؛ لذا كان في وُسع مُعلِّمتي أن تُخبِرَني بكلِّ كلمة. لا بُدَّ وأنَّ جماعته كانوا مندهشين من تروِّيه غير المعتاد. بعد الخِدمة طلب من السيد وارِن، عازف الأرغن، أن يعزفَ لي. وقفتُ في منتصَف صحن الكنيسة، حيث في هذا الموضع تكون الذبذبات الصادرة عن الأرغن الكبير في أَوْجِها، وشعرتُ بموجات الصوت الهائلة تتلاطَمُ بجسدي، كما يتلاطمُ الموجُ العارِمُ بسفينةٍ صغيرةٍ في عُرض البحر....

إلى السيد جون هيتز

138 شارع براتل، كيمبردج

3 فبراير، 1900.

إنَّ دراساتي لهي الآن ماتعةٌ أكثر من السابق. في مادة اللاتينية، أُطالع أشعار هوراس الغِنائيَّة. رغم أنِّي أجدُ أَنَّه من العسير ترجمتها، أعتقدُ أنَّها حتَّى الآن هي أجمل مقطوعات الشِّعر اللاتيني التي قرأتها أو سوف أقرؤها على الإطلاق. في الفرنسية، أنهينا قراءة "كولومبا"، وأقرأ كتاب "هوراس" من تأليف كورنييل، وحكايات لافونتين الخُرافيَّة، كلا الكتابين ببرايل. لم أقطع شوطًا طويلًا في كليهما، لكنَّني أعرفُ أنِّي سوف أستمتعُ بالحكيات الخرافية، إنَّها مكتوبة على نحوٍ يبعثُ على البهجة، وتُقدِّمُ دُروسًا نافِعة بأُسلوبٍ سهل، إنَّما جذَّاب. لا أعتقدُ أنِّي قلتُ لك إنَّ مُعلِّمتي العزيزة تقرأ لي "ملكة الجِنّ". أخشى أنِّي بقدر استمتاعي بالقصيدة فإنَّني أشعرُ بخَللٍ ما بها. أنا لا آبَهُ بالاستعارات،

في الحقيقـة، أنـا غالبًـا مـا أجدهـا مُضجِـرة، ولا أسـتطيعُ التوقُّـف عـن التفكـير بشـأن عـالم سـبنسر الـذي يحـوي فُرسـانًا، وثنيِّـين، جِنِّيَّـات، تنانـين، وجميـع كلِّ تلـك المخلوقـات العجيبـة، عـلى أنـه عـلى نحـوٍ مـا كقِطعـة مـن الغرتسـك[1]، عالَـمٌ مُسـلٍّ، لكـنَّ القصيـدةَ نفسـها عذبـة، وتنسـابُ نغـمًا كأنَّهـا جـدولٌ يسـيلُ دافِقًـا.

إنَّنـي الآن المالِكـة المتفاخِـرة بامتلاكهـا خمسـة عـشر كتابًـا جديـدًا، طلبناهـم مـن لويسـڤِـل. مـن بين هـذه الكتب: "هـنري إزمونـد"، "مقالات باكـون"، ومقتطفـات مـن كتـاب "الأدب الإنجليـزيّ". ربَّمـا سـوف أحظـى بمزيـدٍ مـن بعـض الكتـب في الأسـبوع القـادم، مثـل: "العاصِفـة"، "حُلـم ليلة صيـف"، ومـن الممكـن أيضًـا أن أحصـل عـلى بعـض مـن مختـارات غريـن عـن تاريـخ إنجلـترا. ألسـتُ محظوظـةً جـدًّا؟

أخـشى أن يكـون هـذا الخِطـاب لـه مـذاق الكتـب كثـيرًا بمـا يفـوق الحَـد- غـير أنَّ الكتـب في الحقيقـة تُشـكِّلُ قـوام حيـاتي بأكملهـا هـذه الأيـام، ونـادرًا مـا أرى أو أسـمع عـن أيِّ شيءٍ آخـر غيرهـا! إخالُنـي أنـام كلَّ ليلـةٍ فـوق الكتـب! أنـتَ تعـرفُ أنَّ حيـاة طالـبٍ نوعًـا مـا تكـون بالـضرورةِ محـدودةً وضيِّقـة، ومُزدحمـةً بـكلِّ شيءٍ تقريبًـا مـمَّا ليـس موجـودًا في الكتـب....

(1) فَنٌ زُخرُفِيٌّ يتميَّز بأشكال بشريَّة أو حيوانيَّة غريبة أو خياليَّة. (المترجِم)

إلى رئيس اللجنة الأكاديميَّة لكليَّة رادكليف

138 شارع براتِل، كيمبردج، ماساتشوستس

5 مايو، 1900

سيِّدي العزيز:

كمساعَدةٍ لي في تحديد خُططي الدراسيَّة للعالم القادم، أتقدَّمُ إليكَ بالمعلومات التي تخصُّ إمكانيَّة حضوري البرامج الدراسيَّة النِّظاميَّة في كليَّة رادكليف.

منذ أن تلقَّيتُ خطاب قَبولي في رادكليف في شهر يوليو الماضي، كنتُ أدرسُ مع مُدرِّسٍ خاصٍّ؛ حيث كنتُ أدرسُ هوراس، أسخليوس، الفرنسيَّة، الألمانيَّة، البلاغة، التاريخ الإنجليزيَّ، الأدب الإنجليزيَّ والنقد، وعلم الإنشاء الإنجليزيّ.

أتمنَّى أن يكون في استطاعتي مواصلة دراسة المزيد في الكلية، حتَّى وإن لم تكن جميع تلك المواد. الظروف التي أعمل قَيدها تستلزمُ وجود الآنسة ساليڤان، حيث هي مُعلِّمتي ورفيقَتي طوال ثلاثة عشر عامًا، كمترجِمٍ فوري لكل الكلام المنطوق، وكقارئٍ لأوراق امتحاناتي. سوف يكون وجودها معي في الكلية ضرورة، في قاعة المحاضرات وأثناء حِصَص التسميع، وبالإمكان تواجد شخصٍ آخر معي في بعض المواد. يستلزم وضعي أن أمارس جميع أعمالي على آلة كاتبة، وإن لم يتمكَّن أستاذٌ جامعيٌّ من فَهم كلامي، سيكون بإمكاني تدوين إجاباتي على أسئلتِه، وأن أُسلِّمها له عقِب حصة التسميع.

هل في إمكان الكُلِّيَّةِ أن تتواءَم مع تلك الظروف الغير المسبوقة، حتَّى يتسنَّى لي أن أُباشِرَ دراساتي في رادكليف؟ أنا أُدرِك أنَّ تلك العراقيل التي تعوق طريق تلقِيَّ تعليمًا جامعيًا هي عوائق جِدُّ جسيمة- هي بالنسبة لآخرين ربَّما تبدو عقباتٍ ليس في المستطاع تذليلها، لكن، سيِّدي العزيز، إنَّ الجنديَّ الحقيقيَّ لا يعترفُ بالهزيمة قبل أن يخوض المعركة.

إلى حرم السيِّد لورانس هاتون

138 شارع براتل، كيمبردچ

9 يونيو، 1900.

لم أتلقَّ بعدُ أيَّ جوابٍ من اللجنة الأكاديميَّة رَدًّا على خِطابي، لكنِّي أتمَنَّى من كلِّ قلبي أن يردُّوا ردًّا مُبشِّرًا. يرى أصدقائي أنَّه من الغريب جدًّا تردُّدهم كلَّ هذا الوقت الطويل، خاصَّةً وأنا لم أطلب منهم أن يُبسِّطوا عملي إلى أقلِّ الحدود، بل أن يعدِّلوا ظروف الاضطلاع به بما يتوافَق مع الظروف القائمة. عرضت جامعة كورنيل أن يقوموا بعمل ترتيباتٍ تُلائم الظروف التي أعملُ قَيدها، هذا إن كنتُ سأُقرِّرُ أن أذهبَ إلى الكليَّة، وقد قدَّمَت جامعة شيكاغو عرضًا مُماثِلًا، إلَّا أنّني أخشى إن ذهبتُ إلى كلِّيَّةٍ أُخرى أن يُظنَّ أنِّي لم أجتَز امتحاناتي لدخول رادكيف على نحوٍ مُرضٍ...

* * *

في فصل الخريف، دخلت الآنسة كيلر كُلِّيَّةَ رادكيلف.

إلى السيد چون هيتز

14 جادَّة كولدچ

26 نوفمبر، 1900.

... ــ قد تواصَلت معك فِعلًا فيما يخصُّها وما يخصُّ خُطَّتي لإنشاء معهدٍ للأطفال الصُّمِّ والمكفوفين. في بداية الأمر لم أكن متحمِّسةً كثيراً لدعمها، ولم أكن أحلمُ مُطلَقًا أن تتصاعدَ أيُّ اعتراضاتٍ مُقبِرَةٍ للمشروع، باستثناء تلك الصادرة عن أولئك المعادين بالفِعل لـمُعلِّمتي، لكن الآن، بعد إعمال التفكير بأقصى قدرٍ من الجِدِّيَّة،

وبعـد استشـارة أصدقـائي، قـررت أنَّ خُطَّـة _ هـي قَطعًـا خُطـةٌ معقولـة. وفي خِضـمٍّ تلهُّفـي بـأن أجعـل الأطفـال الصُّـمَّ والمكفوفـين يحظـون بمـا قـد حظيـتُ بـه مـن امتيـازات، وأن أجعـل هـذا أمـرًا ممكِنًـا، نسـيتُ تمامًـا أنَّـه ربَّمـا تكـون هنـاك الكثـير مـن العوائـق في سـبيل تحقيقـي أيَّ شيءٍ قـد اقترَحتْـه _.

كان أصدقـائي يـرون أنَّـه مـن الممكـن أن يقيـم عندنـا تلميـذٌ أو تلميذان في بيتنـا، وبـذاك يضمنـون لي مَزيَّـةَ أن أكـون نافعِـةً لآخريـن دون وجـود أيٍّ مـن المعوِّقـات التـي تحـول دون تواجـدي في مدرسـةٍ كبـيرة. لقـد كانـوا مُتسـاهلين جـدًّا في الأمـر، لكنِّـي لسـتُ أسـتطيعُ كبـح شـعوري بأنَّهـم كانـوا يتحدَّثـون مـن منظـورٍ تجـاريٍّ أكـثر منـه إنسـانيٌّ. أنـا عـلى يقـينٍ أنَّهم لم يسـتوعبوا تمامًـا، كـم أنَّنـي أرغـبُ، وبـكلِّ جوارحـي، أن يتلقَّـى جميـع أولئـك المبتلـين مثـلي ميراثَهـم المسـتحقَّ مـن الفِكـر، مـن المعرفـة، ومـن المحبَّـة. لا زلـتُ لا أسـتطيعُ أن أغـضَّ الطَّـرف عـمَّا لحججِهـم مـن ثِقَـلٍ وسَـطوة، وارتأيـتُ دون مـداورة، أنَّـه يجـب أن أُعـرِضَ عـن خُطَّـة _____ باعتبارهـا خطـة غـير قابلـةٍ للتنفيـذ. لقـد قالـوا أيضًـا إنَّنـي ينبغـي عـليَّ تعيـين لجنـةٍ استشـارية؛ بهـدف تسـيير شـؤوني عندمـا أكـون في رادكليـف. ولقـد تأنَّيـتُ ونظـرتُ بعـين الاعتبـار في هـذا الاقـتراح، ومـن ثَـمَّ قلـتُ للسـيِّد رودز إنَّنـي سـوف أكـون سـعيدةً وفخـورة لأن أحظـى بأصدقـاء خُصفـاء، حيـث يكـون في إمـكاني دومًـا التوجُّـه إليهـم طَلبًـا للمشـورة في جميـع الأمـور الجليلـة. ولأجـل تلـك اللجنـة اخـترتُ سِـتَّة أشـخاص، هـم: أُمِّـي، مُعلِّمتـي -لأنَّهـا بمثابـة أُمٍّ بالنسـبة لي- مـدام هاتـون، السـيد رودز، الدكتـور غريـر، والسـيد روجـرز، اخترتهـم لأنَّ جميـع هـؤلاء هـم الـذي كانـوا يدعمونـني طـوال هـذه السـنوات، وجعلـوا مـن دخـولي الكلِّيَّـة أمـرًا قابـلًا للتحقُّق.كانـت مـدام هاتـون قـد كَاتبَـت أُمِّـي فعـلًا، تطلـب منهـا أن تُـبرِقَ لهـا إن كانـت تـرومُ لي أن أحظـى بمزيـدٍ مـن مستشـارين آخريـن بجانبهـا وبجانـب مُعلِّمتـي. لقـد تلقَّينـا هـذا الصَّبـاح خـبراً، وهـو أنَّ أُمِّـي

قـد منحتنـا مُباركتهـا عـلى هـذا التدبـير. يبقـى الآن أن أكتـبَ إلى الدكتـور غريـر وإلى السـيد روجـرز...

انخرطنـا في حـوارٍ طويـلٍ مـع الدكتـور بِـلْ. اقـترح علينـا في النهايـة خُطَّـةً أسـعدتنا بمـا لا تسـتطيعُ الكلـماتُ أن تُبـين عنـه. لقـد قـال إنَّ محاولـة إنشـاء مدرسـة للأطفـال الصُّـمِّ والمكفوفـين لهـي سَـقطةٌ كبـيرة؛ لأنَّهـم عندئـذٍ سـيفقدون أكـثر الفـرص الثمينـة للولـوج إلى الحيـاة الأكـثر ثـراءً، الأكـثر حُريَّـةً وكَـمالًا، تلـك التـي يتمتـع بهـا الأطفـال المبـصرون والأطفـال السَّـامعون. لقـد كانـت عنـدي هواجـس تخـصُّ هـذه النقطـة، لكـن لم أسـتطع أن أتبـيَّنَ كيـف لنـا أن نُصلِـح هـذا. رغـم ذلـك اقـترح دكتـور بِـلْ أنَّ ـ وجميـع أصدقائهـا مـن المهتمِّـين بخُطَّتهـا ينبغـي عليهـم تنظيـمُ رابطـةٍ لأجـل دعـم تعليـم الصُّـمِّ والمكفوفـين، ومُعلِّمتـي وأنـا سـوف نكـون مُدرَجتَـين طبعًـا ضمـن هـذه الرابطـة. وفقًـا لُخطَّتـه، سـيتعيَّنُ عليهـم أن يعهـدوا لـمُعلِّمتي بمَهَمَّـة تدريـب الآخريـن كي يُعلِّمـوا الأطفـال الصُّـم والمكفوفـين في بُيوتِهـم، تمامًـا كـما قـد فعلَـت وعلَّمَتنـي. اسـتلزَمَ ذلـك جمـعَ تبرُّعـاتٍ لأجـل مبيـتِ المعلِّمـين ولأجـل دَفـع رواتِبِهـم. أضـاف دكتـور بِـلْ في الوقـت ذاتـه، أنَّـه بوسـعي أن أكـون مرتاحـة البـال، وأُناضِـلَ عـلى طريقتـي مـن خـلال رادكليـف، وذلـك التنافـس مـع الفتيـات السَّـامعات والمبـصرات، بينـما رغبـة قلبـي العظمـى كانـت في طريقهـا نحـو التحقُّـق. صفَّقنـا بأيدينـا وصِحنـا مـن الغبطـة، غـادَرَت ـــــ يشـملها الـسرور، ومُعلِّمتـي وأنـا كُنَّـا لنشـعرُ بنـورٍ يـشرقُ في قَلبينـا أكـثر مِـمَّا كان منـذ وقـتٍ مـضى. طبعًـا ليـس في وسـعنا في الوقـت الحـالي فقـط فِعـل شيءٍ، غـيرَ أنَّ الهَـمَّ المـرَّ الـذي كان يُثقـلُ كاهِلَيْنـا، بشـأن مَهمَّتـي الدراسـية بالكليـة، وبشـأن مسـتقبل الصُّـم والمكفوفـين الزَّاهـر، قـد زال عنَّـا. أخـبرني عـن رأيـك في اقـتراح الدكتـور بِـلْ. يبـدو لي أنَّـه اقـتراحٌ عمـليٌّ وحصيـفٌ إلى أقـصى الحـدود، لكـن يلزمنـي أن أعـرفَ بـكلِّ شيءٍ ينبغـي أن يُعلَـم بخصوصـه، قبـل أن أتحـدَّث في الأمـر أو أتَّخِـذَ أيَّ إجـراء...

إلى السيد چون د. رايت

كيمبردچ، 9 ديسمبر، 1900.

أتظـنُّ أنِّنـي شريـرة؟- فأنـا لا أسـتطيعُ أن أفكِّـرَ في كلمـةٍ سـيِّئةً بمـا يكفـي كي تُعـبِّرَ عـن رأيـكَ فيَّ، إلَّا إذا كانـت كلمـة "سـارقة الحصـان" سـوف تفـي بالغـرَض. أخْبِرْني بجـد: هـل تظنُّنـي سـيِّئة إلى هـذه الدرجـة؟ أتمنَّـى أنْ لا، حيـث أنّني كنـتُ أفكِّـرُ في محتـوى الكثـير مـن الخطابـات التـي أريـد أن أكتبهـا إليـك، والتـي لم تـرَ النـور مُطلقًـا عـلى الورقـة، وأنـا فرِحـةٌ بتلقِّـيَّ خِطابَـك الجميـل، طيِّـب، أنـا فعـلًا كنـتُ كذلـك، وكنـتُ أنتـوي الـرَّد عليـه في الحـال، لكـنَّ الأيَّـام تنفلِـتُ سِراعًـا لدرجـة أنَّ المـرء لا يُلاحِـظُ مرورهـا عندمـا يكـون مُنشـغِلًا، ولقـد كنـتُ مشـغولة جـدًّا هـذا الخريـف. لازم تصـدِّق هـذا. فتيـات رادكليـف غارقـاتٌ حتـى آذانِهـنَّ في العمـل. إن كنـتَ تشـكُّ في الأمـر، فيجـدرُ بـك أن تـأتي وتـرى بنفسـك.

نعـم، أنـا أدرس برنامجًـا نِظاميًـا في الكليـة بهـدف نَيـلِ درجـةٍ جامعيـة. حـين أحصـلُ عـلى درجـة البكالوريـوس، أفـترِضُ أنَّـكَ لـن تتجـرَّأ وتنعتَنـي بالشريـرة! أدرسُ الأدب الإنجليـزيّ- إنجليزيـةُ السـنة الدراسـية الثانيـة لـو تسـمَح (رغـم أنِّي لا أرى أنَّـه منهـج مختلـف عـن محـض الإنجليـزي الاعتيـادي). أدرس الألمانيـة، الفرنسـية، وأدرس التاريـخ. إنَّنـي أسـتمتعُ بعمـلي أكـثر حتـى مِـمَّا كنـتُ أتوقَّـع، وهـي طريقـةٌ أخـرى لأنْ أقـول: إنَّنـي سـعيدة أنِّي قـد أتيـتُ إلى هنـا. إنَّ الأمـر يكـون شـاقًّا، شـاقًّا جـدًّا في أحيـان، غـير أنَّـه بعـد لم يُغرقنـي. لا، أنـا لا أدرس الرياضيَّـات، ولا اليونانيـة ولا اللاتينيـة. الـدورات الدراسـية في رادكليـف دوراتٌ اختياريـة، توجـد فقـط بعـض الـدورات الدراسـية الخاصّـة في الإنجليزيَّـة، تكـون إلزاميَّـةً. اجتـزتُ منهـج الإنجليزيَّـة والفرنسـيَّة (مسـتوى متقـدِّم) قبـل أن أدخـل الكلِّيَّـة، واخـترتُ المـواد التـي أحبُّهـا أكـثر. أنـا لا أنتـوي رغـم هـذا التخـلِّي كُلِّيَّـةً عـن دراسـة اللاتينيـة واليونانيـة. ربَّمـا أسـتأنِفُ دراسـتهما في وقـتٍ

لاحق، لكنَّني قلتُ وداعًا للرياضيَّات إلى الأبد، وأنا أؤكِّدُ لك أنَّني مغتبطةٌ لأنها كانت آخر مرَّةٍ أرى فيها هذه "البعابع" البغيضة! أتمنَّى أن أنال درجتي في غضون أربعةِ أعوام، إلّا أنّي لستُ مُدقِّقةً في هذا كثيرًا. لا يوجد ما يدعوا إلى العجلة؛ فأنا أريدُ أن أستفيد من دراساتي كثيرًا قدر ما أستطيع. سيُسرُّ الكثيرُ من أصدقائي إن كنتُ سآخذ دورتين دراسيتين أو حتى دورة في العام الواحد، لكنِّي أرفضُ تبديدَ ما تبقَّى من حياتي في الكلية...

مكتبة
t.me/soramnqraa

إلى السيد وليام ويد

14 جادَّة كولدج، كيمبردج،

9 ديسمبر،1900

بما إنَّكَ مُهتمٌّ كثيرًا بالصُّمِّ والمكفوفين، سوف أبدأ كلامي بأن أحكي لك عن العديد من الحالات التي صادفتها في طريقي مؤخَّرًا. في شهر أكتوبر الماضي، سَمِعتُ بفتاةٍ صغيرة، ذات ذكاءٍ غير عادي، تعيش في تكساس. اسمها هو روبي رايس، وهي تبلغ من العُمر ثلاثة عشر عامًا حسبَ ما أعتقد. لم تُعلَّم من قَبل على الإطلاق، غير أنّهم يقولون إنَّها تستطيعُ الخياطة، وتحبُّ أن تُساعدَ الآخرين في أعمالٍ من هذا النَّوع. قُدرة حاسة الشَّمِّ عندها مُدهشة. ويا للدهشة! فلدى دخولها أيَّ مَتجَرٍ، تتوجَّهُ مُباشرةً صوبَ واجهة العرض الزجاجية، إنَّها تستطيعُ أيضًا أنْ تُميِّز بين أشيائها الشخصية نفسها. إنَّ والديها فعلًا مشغولا البال لأجل إيجاد مُعلِّمٍ لها. لقد كاتَبا السيد هيتز بأمرها.

أعرفُ أيضًا طِفلةً بمعهد الصُّمِّ في ميسيسبّي. اسمها مود سكوت، وهي في السادسة من عُمرها. الآنسة ويتكِنز، السيِّدة المسؤولة عنها، أرسلَت إليَّ خِطابًا مثيرًا للاهتمام إلى أقصى الحدود. قالت إنَّ مود قد وُلِدَت صَمَّاء، وأنها فقدت بصرها عندما كانت في عمر ثلاثة أشهر،

وأنَّها عندما ذهبت إلى المعهد منذ بضعة أسابيع، كانت تقريبًا حالةً مَيؤوسًا منها. فهي لم تكن تستطيعُ حتَّى أن تمشي، وكان استخدامها ليدَيها أقلَّ ما يكون. حتى أنَّهم عندما حاولوا أن يُعلِّموها أن تخيطَ الخرَزَات، هَوَت يداها الواهنتان على جانبيها. كان ظاهرًا أنَّ حاسة اللمس لديها لم تكن نامية، وهي حتى الآن لا تستطيعُ المشي إلَّا عندما تُمسكُ بيد شخصٍ ما، غير أنها كانت تبدو طِفلةً ذكيَّةً بشكلٍ استثنائيٍّ. تُضيف الآنسة ويتْكِنز وتقول إنَّها طِفلةٌ جميلة. كتبتُ إليها وقلتُ لها إنَّ مود عندما تتعلَّم أن تقرأ، فأنا عندي الكثير من القصص، سوف أرسلها لها. يا للبنت العزيزة، يا للحلوة الصغيرة! عندما أفكِّر في كَمْ هي، حَرفيًّا، معزولة عن كلِّ ما هو طَيِّب ومرغوب في الحياة، إنَّ ذلك ليجعل قلبي يعتصرُ من الألم. لكن يُخيَّلُ إليَّ أنَّ الآنسةَ ويتْكِنز هي نوع المعلِّم المناسب الذي تحتاجه تلك الطِّفلة.

كنتُ في نيويورك، ليس منذ وقتٍ بعيد، والتقيتُ الآنسة رودز، وأخبرتني أنَّها قد التقَت كاتي ميغير. إنَّها فتاةٌ صغيرة مسكينة، كانت تتحدَّث وتتصرَّف كأنها طفلٌ صغير. عندما كانت كاتي تلعب في خواتم الآنسة رودز، أخذتها منها وهربت، وهي تقولُ في ضحكةٍ تفيض بالمرح: "لن تستطيعي أن تستردِّيها مجدَّدًا!". كان في وسعها أن تفهم الآنسة رودز حين كانت تتحدَّثُ عن أبسط الأشياء فحسب. أرادت رودز في الأخير أن تبعثَ لها ببعض الكُتُب، غير أنَّها لم تتمكَّن من إيجاد أيِّ شيءٍ بسيطٍ بما يكفي كي يُناسِب حالتها! قالت إنَّ كاتي فعلًا فتاة حلوة جدًّا، لكنَّها للأسف بحاجةٍ إلى التعليم المناسب. كانت دهشتي عند معرفتي بكلِّ هذا كبيرة جدًّا؛ لأنني من خلال خطاباتك كنتُ قضيتُ بأنَّ كاتي بنت سابقة سِنَّها جدًّا...

التقيتُ تومي سترينْچر منذ بضعة أيَّام على قضبان السِّكَّة الحديد بمحطة رينتهام. إنَّه الآن ولدٌ كبيرٌ فَتِيٌّ، وسوف يكون في حاجةٍ قريبًا لرجلٍ كي يرعاه؛ إنَّه حقيقةً كبيرٌ جِدًّا على أن تَسُوسَه سَيِّدة. هو

يذهب إلى المدرسة العامَّة حسب ما سمِعت، ويقولون إنَّ تقدُّمَه الدِّراسيَّ مذهِل، لكنَّ ذلك لم يظهر بعدُ في محاوراتِه، والتي هي قاصرةٌ الآن على قَوْلِ: "نعم" و"لا"...

إلى السيد تشارلز ت. كوپلاند

20 ديسمبر، 1900.

عزيزي السيِّد كوپلاند:

إنَّني أتجرَّأ وأكتبُ إليكَ لأنني أخشى إنْ لم أُفسِّر سَببَ توقُّفي عن كتابة مواضيع الإنشاء فسوف تظنُّ أنَّه قد ثُبِّطَت هِمَّتي، أو ربَّما كي أهربَ من النَّقد، ما يجعلني أتقهقرُ بجُبنٍ مهزومة، وألتجِئ إلى ملاذٍ بعيدٍ عن حِصَّتك. لا تفكِّر أرجوك في أيٍّ من هذه الأفكار البغيضة. أنا لم تُثَبَّط هِمَّتي، ولا أنا خائفة. إنَّني على ثقةٍ من قُدرتي على مواصلة كتابة مواضيع إنشاء كتلك التي قد كتبتُها من قبل، وإخالُني سوف أجتازُ المادَّة بدرجاتٍ جيِّدة على نحوٍ مقبول، بَيدَ أنَّ هذا الصِّنف الأدبي ذا الصِّبغة التركيبيَّة لم يعد يثير اهتمامي بالإجمال. إنَّني لم أكن راضيةً إطلاقًا عن عملي، غير أنِّي لم أكن أعي مُطلقًا العائقَ الذي يعترضُ طريقي حتَّى لَفَتَّ انتباهي أنتَ له. عندما بدأتُ أحضر حصصك منذ أكتوبر الماضي، كنتُ أحاول بكلِ السُّبل الممكنة -كحال جميع الآخرين- كنتُ أحاول أن أنسى فيودي وبيئتي المخصوصة قدر المستطَاع. والآن، رغم ذلك، أجدُ أنَّه لمن الحماقة أن يربط المرءُ عرَبَته بلجامِ حصان لا ينتمي لها.

لطالما كنتُ متقبِّلةً لتجارب الآخرين، وأتقبَّلُ ملاحظاتِهم، باعتبارها أمرًا جوهريًّا بالطَّبع. لم يخطر ببالي مُطلقًا أنَّ تسجيلَ مشاهداتي ووصف التجارب الخاصة بي، أنَّها ربَّما أمرٌ يستحقُّ الذِّكر. إنني عازمةٌ من الآن فصاعدًا أن أكونَ أنا ذاتي، أن أحيا حياتي أنا، وأكتب أفكاري

أنـا عندمـا يطـرأ عـلى ذهنـي بعـضٌ منهـا. وعندمـا أكتـبُ شـيئًا يبـدو لي نَـضِرًا وعَفَويًـا ويسـتحقُّ أن ينـال نقـدَك، سـوف آتيـكَ بـه، فـإن ارتأيـتُ أنـا -وكذلـك أنـتَ- أنَّـه شيءٌ جيِّـد؛ فسـوف أكـون سـعيدة، بَيْـدَ أنَّـه لـو حكمـتَ عليـه حُكـمًا مخالِفًـا؛ فعندئـذٍ سـأُحاولُ مجـدَّدًا إلى أن أنجَـحَ في إرضائـك...

إلى حرم السيِّد لورانس هاتون

14 جادة كولدچ، كيمبردچ

27 ديسمبر، 1900.

إذن فأنـتِ قـرأتِ في الصُّحـف عـن غدائنـا الـذي في الفصـل؟ إنِّي لأعجَـب؛ كيـف يتسـنَّى للجرائـد اكتشـافُ كلِّ شيء في العـالم. فأنـا متأكِّـدة أنَّـه لم يكـن هنـاك أيُّ مُراسـلٍ حـاضر. قضيـتُ وقتًـا رائعًـا، فقـد جعلَـت الأنخـابُ والخُطَـبُ مـن الغـداء حدثًـا يبعـث المـرح عـلى نحـوٍ عظيـم. أنـا تحدَّثـتُ فقـط بكلـماتٍ قلائـل؛ فلـم أعـرف أنَّـه يُنتَظَـرُ منِّـي التحـدُّث إلا قبـل بضـع دقائـق مـن الإرسـال في اسـتدعائي. أظنُّنـي أخبرتُـكِ بأنَّنـي قـد انتُخِبـتُ نائبًـا لرئيـس فصـل القادمـين الجُـدد في رادكليـف.

هـل أخبرتُـكِ في خطـابي الأخـير أنَّنـي قـد حظيـتُ بفُسـتانٍ جديـد؟ فسـتان حفـلٍ حقيقـيّ، بفتحـة صـدرٍ واسـعة وأكـمامٍ قصـيرة، وبذيـلٍ كامـل للفسـتان؟ إنَّ لونـه أزرق باهـت، مُزركـشٌ بنسـيجٍ مـن الشِّـيفون مـن نفـس الدرجـة. ارتديتُـه مـرَّةً واحـدةً فحسـب، لكنِّـي وقتئـذٍ شـعرتُ بـأنَّ الملِـك سُـليمان وهـو بكامـل زينتـه ليـس يُقـارَنُ بي! عـلى أيَّـة حـال، مـن المؤكَّـد أنَّـه لم يكـن عنـده فسـتان مثـل الـذي كان عنـدي!...

رجـلٌ محـترم مـن فيلادلفيـا كتـب إلى مُعلِّمتـي يخبرهـا عـن طفـلٍ مكفـوفٍ وأصَـمَّ يعيـش في باريـس، أبـواه بولانديَّـان. الأمُّ تعمـل طبيبـة،

وهـو يقـول إنهـا امـرأةٌ لامعـةُ الـذكاء. هـذا الولـد الصغـير كان يسـتطيعُ أن يتحـدَّث لُغتَـينِ أو ثـلاث لُغـاتٍ قبـل أن يفقـد سَـمعه إثـرَ مـرضٍ أصابَـه، وهـو الآن تقريبًـا في الخامسـة مـن عمـره. يـا للرفيـق الصغـير المسـكين، أتمنَّـى أن لـو كنـتُ أسـتطيعُ فعـلَ أيِّ شيءٍ لـه، لكنَّـه صغـير جـدًّا، مُعلمتـي تـرى أنَّـه سيكون مـن السيِّئ جـدًّا أن يُبعَـدَ عـن أُمِّـه. تلقَّيـتُ مـن مـدام ثـو خِطابًـا يتعلَّـق بإمكانيَّـة فعـل أيّ شيء مـا مـن أجـل هـؤلاء الأطفـال. يـرى الدكتـور بِـلْ أنَّ الإحصـاء السُّـكاني الحـالي سـوف يُظهِـرُ أنَّ في الولايـات المتَّحـدة وحدهـا مـا يزيـد عـن ألـف طفـلٍ، وتـرى مـدام ثـو أنَّـه لـو وحَّـد جميـعُ أصدقـائي جهودهـم، "فإنشـاء مسـارٍ جديـدٍ، في مطلـع هـذا القَـرن الجديـد، مسـار تسـتطيعُ الرحمـة أن تجـوبَ الآفـاق مـن خلالـه، سـوف يكـون أمـرًا يسـيراً"، وسـوف يتحقَّـقُ انتشـال أولئـك الأطفـال التعسـاء مِمَّا هـم فيـه...

إلى السيِّد وليام ويد

كيمبردج، 2 فبراير، 1901.

بالمناسـبة، هــل عنـدك نمـاذج مــن كتابــة برايــل عــلى الطريقــة الإنجليزيَّــة، مــن تلــك الأشــياء التــي كانــت تُطبَــع لأجــل أولئــك الــذي فقـدوا بَصرهـم عـلى كِـبَرٍ، أو هـؤلاء الذيـن قـد تصلَّبَـت أصابعهـم مـن النَّصَـب، لدرجـة أن صـارت حاسَّـة اللمـس عندهـم أقـلَّ حساسـية منهـا عنـد آخريـن مـن المكفوفـين؟ قـرأتُ بيانًـا عـن مثـل هـذه النِّظـام في إحدى مجـلَّاتي الإنجليزَيّــة التــي أُطالِعهـا، وأتلهَّــفُ لمعرفـة المزيـد عـن الأمـر. إن كان هــذا النِّظــامُ فعَّــالًا كــما يقولــون، فلســتُ أرى سَــببًا يمنــعُ مــن اعتـماد برايـل عـلى الطريقـة الإنجليزيـة ليسـتخدمها المكفوفـون في جميـع البلـدان. إنَّ هـذا النَّسَـق المطبـوع في المسـتطاع بيُسـرٍ تكييفـه ليتوافـقَ مـع الكثـير مـن اللغـات المختلِفـة. حتَّـى اللغـة اليونانيَّـة، يمكـن أن تُطبـع عـن

طريقه بحرفٍ بارز كما تعلم. عندئذٍ، وبنفس الطريقة، سوف تُعالَجُ لتكون أكثر فاعليَّةً بفِعل "نِظام النَّقْط"، الذي سيوفِّرُ مقدارًا كبيراً من المساحة والورق. فكما أعتقد، لا شيء أكثر سخافةً من أن يكون عند المكفوفين خمس أو سِتُّ نُسخٍ من الأعمال المطبوعة...

* * *

كُتِبَ هذا الخِطابُ ردًّا على عرضٍ مَبدئيٍّ قدّمه محرِّر مجلة The Great Round World، بأن تُطبَعَ المجلّة بالكتابة البارزة لأجل المكفوفين، هذا إن توافرَ ما يكفي من الرَّاغبين في الاشتراك. من الثابت أنَّ المكفوفين ينبغي أن يَحْظَوْا بمجلّةٍ جيِّدة، ليس مجلة خاصَّة بالمكفوفين، إنَّما إحدى أفضل مجلّاتنا الشَّهريَّة، مطبوعة بالحروف البارزة. لم يكن في استطاعة المكفوفين وحدهم أن يدعِّموا الفكرة، لكن لن يتطلَّب الأمرُ الكثيرَ من الأموال لتجميع النفقة الإضافيَّة.

إلى مجلَّة The Great Round World

كيمبردچ، 16 فبراير، 1901

The Great Round World

مدينة نيويورك

أيُّها الرِّجال المحترمون: اليوم فقط توفَّر لديَّ وقتٌ كي أردَّ على خطابكم المثير للاهتمام. لقد أخبرَتني العصفورة الصغيرة فعلًا بالأخبار السَّارَّة، لكنَّ هذا السرور كان مُضاعفًا حين أتاني الخبرُ منكم مباشرةً.

إنَّه لمن دواعي الفخر أن تُطبَع مجلَّتُكم "باللغة التي يُمكن أن تتحسَّسها اليد". إنَّني لأشكُّ إن كان باستطاعةِ أيٍّ مِمَّن يتمتَّعون بنعمةِ البَصر العجيبة، أن يكون عندهم أيَّة فكرة عن مقدار النعمة التي

سيكونها مثل هذا النَّشر بالنسبة لفاقدي البَصر، كما ارتأيتُم أنتم. أن يستطيعَ المرءُ أن يقرأ لنفسه عمَّا يشغل تفكير العالم، عمَّا يجري فيه، وما يُقرَّر به -ذلك العالم الذي يشعر المرء برغبة حاميةٍ تبلغ أَوْجَها لمعرفةِ مَسرَّاتِه وأحزانه، نجاحاتِه وإخفاقَاتِه- إنَّ ذلك ليجلبُ سعادةً عميقةً بعيدٌ على الكلماتِ أن تبلغُ غورها. إنَّني أثِقُ أنَّ جهود مجلَّتكم التي تسعى إلى جلب النُّور لأولئك الذين يقبعون في العتمة؛ لسوف تلقى دعمًا و تشجيعًا كبيرًا كما تستحِقّ.

رغم ذلك فأنا أشُكُّ إطلاقًا أن يكون عددُ المشتركين في الإصدار المطبوع من المجلة بالحرف البارز، أن يكون عددًا كبيرًا، حيثُ يُقالُ لي إنَّ المكفوفين كفئةٍ هم جمهورٌ قليل. لكن لماذا لا يقدِّمُ أصدقاءُ المكفوفين يدَ العون للمجلة إن تطلَّبَ هذا؟ يقينًا بالعالم قلوبٌ وأيادٍ مستعدةٌ دومًا أن تجعل من تحويل النَّوايا الكريمة، إلى صنائعَ نبيلةٍ أمرًا مُمكِنًا.

إنّني لأتمنّى لكم التوفيق في الاضطلاعِ بعملٍ هو عزيزٍ جدًّا على قلبي.

إلى الآنسة نينا رودز

كيمبردج، 25 سبتمبر، 1901.

لقد مكثنا في هاليفاكس حتَّى منصف شهر أغسطس تقريبًا... يومًا بعد يوم، جعلَنا الميناء، السفن الحربية، والمنتزه- مشغولين بالتفكير والشعور والاستمتاع... حينما زارتنا الإندايانا هاليفاكس، دُعينا للإبحار على مَتنها، وأرسلت لنا غداءها الخاص. تلمَّستُ المدفع الهائل، قرأتُ بأصابعي عديدًا من أسماء السُّفن الإسبانيَّة التي وقعت في الأسر بسانتياغو، وتحسَّستُ المواضع التي أُعمِلَت فيها الثقوبُ بالقواقع. الإنديانا كانت هي أضخمَ وأجودَ سَفينة في الميناء، وكُنَّا نشعرُ بعظيم الفخر بها.

بعـد أن غادرنـا هليفاكـس، زُرنـا الدكتـور بـل في كيـب بريتـون. إنَّـه يملـكُ منـزلًا سـاحرًا عـلى الطـراز الرومنسيّ، فـوق جبـلٍ يُسـمَّى بـين ڤـريه Beinn Bhreagh، يُـشرفُ عـلى بُحـيرة بريـدُور Bras d'Or ...

أخـبرني الدكتـور بِـلْ بالكثـير مـن الأشـياء المشـوِّقة عـن عملـه. فلقـد شـيَّد لتـوِّه قاربًـا يمكـن دَفعـه للسـير بطائـرة ورقيَّـة تطيِّرهـا الريـح، ذات يـومٍ أجـرى تجـارب لـيرى إن كان باسـتطاعته أن يقـود الطائـرة في عكـس اتِّجـاه الرِّيـح. لقـد كنـتُ هنـاك معـه وسـاعدتُه في أن يُطـيِّر الطائـرات الورقيَّة.لاحظـتُ أنَّ خيـوطَ إحداهـا كانـت مـن السِّـلك المعـدنيِّ، وبمـا أنِّي كان عنـدي بعـض الخِـبرة في عمـل العقـود مـن الخَـرَز، قلـتُ إنَّنـي أعتقـدُ أنَّ السِّـلك سـوف يتمـزَّق. قالـت لدكتـور بِـل "لا!" قالهـا بثقـةٍ كبـيرة، وطَيَّرنـا الطائـرة. فبـدأت تشـدُّ الحبـل وتسـحبه بقـوَّة، ويـا للعجَـب؛ تمزَّقت أسـلاكها، وانطلَـق التنِّـينُ الأحمـر العظيـمُ بعيـدًا، وبقـي الدكتـور بِـلْ واقفًـا يُطالـع المشـهد ويتحسَّـرُ عـلى الطائـرة الورقيَّـة. بعدهـا كان يسـألني إن كانـت السـلوك بحـالٍ جيِّـدة، وكان يُغيِّرهـا في الحـال إن كانـت إجابتـي بالنَّفـي. لقـد قضينـا جميعًـا وقتًـا مرحًـا بشـكلٍ عظيـم...

إلى الدكتور إدوارد إيـڤريت هال[1]

كيمبردج، 10 نوفمبر، 1901.

مُعلِّمتـي وأنـا ننتظـرُ حضـور الجلسـة المنعقـدة غـدًا بمناسـبة إحيـاء الذكـرى المائـة وواحـد لميلاد الدكتـور هـاو، لكـن أشـكُّ كثـيرًا أن تتيـسَّرَ لنـا فرصـةٌ كي نتحـدَّث معـك؛ لذلـك أكتـبُ لـك كي أخـبرك كـم أنـا فرحـة بأنَّـك مَـن سـتُلقي الكلمـة في اللقـاء؛ لأنَّنـي أحـسُّ أنَّـك سـتعبِّرُ أفضـل منِّـي عـن مـدى الامتنـان الـذي تشـعر بـه قلـوب أولئـك الذيـن يدينـون بالفضـل في

(1) قـرأ الدكتـور هـال هـذه الخطبـة في الاحتفـال بمئويَّـة الدكتـور صامـول غريـدلي هـاو، في معبـد تريمونـت، بوسـطن، بتاريـخ 11 نوفمـبر، 1901.

تعليمهـم، في الفرصـة التـي أُتيحَـت لهـم، في السـعادة التـي قـد وُهِبوهـا... إلى الدكتـور هـاو، ذلـك الإنسـان الـذي فتَّـح عيـون الصُّـمِّ ومَنَـح الأبكـم لُغـةَ الشِّـفاه.

بينـما أنـا جالسـةٌ هنـا في حجـرتي الخاصـة بالمذاكـرة، محاطـةً بكُتبـي، أسـتمتعُ بالصُّحبـة الحميمـة الحلـوة للعظـماء والحكـماء، أحـاولُ أن أتخيَّل، تُـرَى.. كيـف كانـت حيـاتي ربمـا سـوف تكـون، إن كان الدكتـور هـاو قـد أخفـق في أداء المهمـة الجليلـة التـي عهِـدَ اللهُ بهـا إليـه كي يؤدِّيهـا. مـاذا إن لم يأخـذ عـلى عاتقـه مسـؤولية تعليـم لـورا بردچـمَن، ويقودهـا للخـروج مـن جـوف أخـيرون[1]، ويعيدهـا إلى ميراثهـا البـشريِّ، هـل كنـتُ سـأكون اليـوم طالبـة في السـنة الثانيـة بكُلِّيَّـة رادكليـف؟- مَـن يـدري؟ لكنَّـه لمـن التَّبطُّـل أن نقـضي الوقـت نُخمِّـنُ مـاذا كان الحـال ليكـون عليـه، فيـما يتعلَّـقُ بالإنجـاز العظيـم لدكتـور هـاو.

أعتقـد أنَّ أولئـك الذيـن أفلَتـوا مـن حالـةِ كونهـم مـوتى وهـم عـلى قيـد الحيـاة، مـن ذلـك الكيـان الـذي انتُشِـلَت منـه لـورا بردچـمَن، هـم وحدهـم فقـط القـادرون عـلى أن يدركـون كيـف تكـون الـروح حبيسـة، كيـف تكـون عاجـزةً وهـي في العتمـة، كيـف تكـون ضيِّقـةَ الأفـق جـرَّاء عجزهـا، كيـف تكـون عـلى هـذه الحـال دون فِكـرٍ أو إيمـانٍ أو أمـل. إنَّ الكلـمات لتعجـزُ عـن تصويـر كآبـةِ ذلـك المحبَـس، أو وصـف فرحـة الـرُّوح التـي تُحـرَّرُ مـن أَسرهـا. عندمـا نقـارنُ بـين احتياجـات المكفوفـين ومقـدار عجزهـم قبـل أن يبـدأ الدكتـور هـاو في إنجـاز عملـه، وبـين اسـتقلاليَّتهم ونَفعِهـم المتحقِّـق في الوقـت الرَّاهـن، سـنُدركُ الأشـياء العظيمـة التـي قـد أُنجِـزَت بـين ظهرانينـا. مـاذا لـو تسـبَّبَت أحوالُنـا الجسـدية في بنـاء حواجِـز

(1) نهـر أخـيرون Acheron أحـد أنهـار العـالم السُّـفلي طِبقًـا للميثولوجيـا اليونانيـة، ووَرَدَ ذِكـره في مسـخ الكائنـات لأوفـيد، الكتـاب الخامـس، البيـت: 590، ويظهـر هنـا جَلِيًّـا تأثرهـا بـڤـرجيل، حيـث أخـيرون مذكـور كذلـك أكـثر مـن مـرَّة في الإنيـادة، كـما في الكتـاب الخامـس، البيـت: 98. (المترجـم)

شاهقةٍ تتسبَّبُ في عزلنا؟ بفضل صديقنا ونَصيرنا؛ يتَّسعُ نطاقُ عالمنا نحو الأعلى، وعلى مدى امتداد السموات واتِّساعها لهو مِلكُنا!

إنَّه لِمَّا يبعثُ السرور في النفس أن يتفكَّر المرء في أنَّ مآثِر دكتور هاو النبيلة، سوف تلقى نصيبها المستحَقَّ من المحبَّة والامتنان، في نفس المدينة التي كانت مَسرحًا لنتاج جهوده العظيمة، وانتصاراته المجيدة لصالح الإنسانيَّة.

أقدِّم لكم أطيب تحيَّاتي، تُشاركني في هذا مُعلِّمتي

صديقتكم المحبَّة

هيلين كيلر.

إلى الـمُبَجَّل چورچ فريزبي هوار

كيمبردچ، ماساتشوستس، 25 نوفمبر، 1901.

عزيزي السناتور هوار:-

إنَّني سعيدةٌ أنَّه قد أعجَبَتك خطبتي الذي ألقيتُها عن دكتور هاو. لقد كُتبَت كلماتها من صميم قلبي، وربَّما كان هذا هو سَبب ما لقِيَته من ردٍّ فعلٍ تعاطفيٍّ في قلوب آخرين. سوف أطلب من دكنور هال أن يُعيرني نَصَّ الخُطبة، حتَّى أتمكَّن من عمل نُسخةٍ لك منه.

كما ترى؛ أنا أستخدم آلة كاتبة- إنَّها بمثابة يدي اليمنى، بها أتكلَّم. بدونها، لا أدرى كيف كنتُ سأستطيعُ دخول الكُلِّيَّة؛ فأنا أكتب عليها جميع مواضيع الإنشاء وإجابات الامتحانات، إنَّني أكتب عليها حتى اللغة اليونانيَّة. في الحقيقة، بها فقط عيبٌ واحد، وربَّما يُعتَبرُ هذا العيبُ مَزيَّةً من جانب الأساتذة بالجامعة؛ العيبُ هو أنَّ

أخطاء المرء الكتابية يمكن اكتشافها في لمحة عين، فما من فُرصةٍ لسَتْرِ الأخطاء وسط كتابةٍ مُمَغْمَغَة[1].

أعلمُ أنَّه لسوف يُسلِّيكَ أن أقول لك، إنَّني مهتمَّة بأمور السياسية بشكلٍ عميق. يروقُني أن تُقرأ لي الصُّحُف، وأحاولُ استيعاب التساؤلات الكبيرة التي تشغل الوقت الرَّاهن، لكن أخشى أنَّ معرفتي بالأمر متزعزعةٌ جدًّا، حيثُ أنَّني أبدِّلُ آرائي مع كلِّ كتابٍ جديدٍ أقرؤه. كنتُ أحسبُ أنِّي حين أدرسُ الحُكم المدنيَّ وعلوم الاقتصاد، أنَّ جميع المصاعب والأمور التي تتسبَّب في حيرة عقلي سوف تزدهرُ وتتحوَّلُ إلى يقينيَّاتٍ ورديَّة، لكن يا للأسف؛ إنَّني أكتشفُ أنَّ في حقول المعرفة زُؤان[2] أكثر من القَمح...

(1) مغمغةُ الكلام هي عدم إيضاحِه، مغمغةُ الأمر هي الخَلطُ فيه، ومغمغةُ العمل هي إنجازه على نحوٍ رديء. (المترجِم)

(2) نبات يُشبِه القَمح، إن خالَطَه يُكسِبُه رداءة، ويسبِّب أكله استرخاءً ودوارًا. (المترجِم)

الجزء الثالث

تَقريرٌ إضافيٌّ عن حَياةِ هيلين كِيلَر وعَنْ تَعليمِها

كِتابةُ الكِتابِ [قِصَّة حياتي].

شخصيَّتُها.

تَعليمُها.

مَرْحَلَةُ التَّكَلُّمِ.

أُسْلوبُها الأَدَبيُّ.

الفصل الأول

كِتابَةُ الكِتابِ

مـن المناسـب لكتـاب الآنسـة كِيلَـر "قِصَّـة حيـاتي" أن يظهـر في هـذا التوقيـت. مـا هـو لافـتٌ للنَّظـر في مسـيرة حياتهـا هـو ناجـزٌ بالفِعـل، وأيًّـا مـا سـوف تفعلـه في المسـتقبَل لـن يُعـدَّ سِـوى إضافـةٍ نِسـبيَّةٍ طفيفـة، إلى النجـاح الـذي جعلهـا مرموقـة في الوقـت الحـاضر. إنَّ ذلـك النَّجـاح قـد تَوَطَّـد؛ حيـثُ أنَّ صَنيعُهـا في رادكليـف خـلال العامَـين الماضيَـيْن، أظهـر أنَّ باسـتطاعتها أن تضطلِـع بعمليـة تعليمهـا إلى أقـصى الحـدود إن كانـت تـدرُس تحـت ظـروفٍ طبيعيَّـة. وأيًّـا كانـت الشُّـكوك التـي تُخامـرُ الآنسـة كِيلَـر، فهـي الآن منهـا قـد تحـرَّرَت.

عديـدٌ مـن الفقـرات في سـيرتها الذَّاتيَّـة -كـما ظهـرت في شـكل حلقـات مُسَلسَـلة- قـد جُعـل منهـا موضوعًـا جسـيمًا لافتتاحيَّـة رئيـس التحريـر في إحـدى صُحـف بوسـطن، والتـي فيهـا أسِـفَ الكاتـبُ عـلى الآنسـة كِيلَـر لأجـل خيبـة أملِهـا الظاهـرة فيـما يتعلَّـقُ بقيمـة حياتهـا في الكُلِّيَّـة. فقـد

اقتبَس الفقرات التي تشرح فيها كيف أنَّ الجامعة ليست هي "أثينا الكونيَّة" التي قد تمنَّت أن تجدها، وأنَّها استشهدت بحالات أشخاصٍ بارزين آخرين، مِمَّن كانت حيواتهم في الجامعة قد برهنت على هذا الإحباط. لكن ينبغي أن يكون في الحُسبان أنَّ الآنسة كِيلَر قد دوَّنت الكثير من الأشياء في سِيرتِها الذَّاتيَّة لأجل متعة كتابتها فحسب، وخيبة الأمل، التي أخذها الكاتب المحرِّر على محمل الجِدِّ، إنَّما هي دعابةٌ في الشَّطر الأعظم منها. لا تفترض الآنسة كِيلَر أن تكون آراؤها على قَدرٍ كبيرٍ من الأهمِّيَّة، وحين تُصرِّحُ بآرائها في أُمورٍ هامَّة، فإنَّها تُسلِّمُ جَدلًا، بأنَّ قارئِها، سوف يتلقَّاها على أنَّها آراء طالبة في الصَّف قبل الأخير في الكلية، وليست صادرةً عن شخصٍ يكُتبُ متمتِّعًا بحكمة النُّضج. فعلى سبيل المثال: كان من المدهش بالنسبة لها أنَّ بعض الناس قد تضايقوا بسبب ما قالته عن الكتاب المقدَّس، وقد أخذت الأمر على محمل التَّفكُّه، حيث أنَّهم لم يروا -وهو ما كان جليًّا بما يكفي- أنَّها قد كانت مُجبَرة على قِراءة الكتاب المقدَّس بأكمله ضمن مُقرَّرٍ دراسي في الأدب الإنجليزي، وليس انطلاقًا من كونِه واجبًا دِينيًّا عُهِدَ به إليها من قِبَل مُعلِّمتها أو والديها.

ينبغي أن أعتذر من القارئ، ومن الآنسة كِيلَر؛ بسبب اجترائي وقولي إنَّ مقصد موضوعها كان جديرًا بالاحترام، لكن، توضيح إضافيٌّ آخر بخصوص الأمر لهُو أمرٌ ضروري. في روايتها لبدايات مرحلة تعليمها؛ لا تُعطي الآنسة كِيلَر تسجيلًا دقيقًا من الناحية العِلميَّة عن حياتِها، ولا حتَّى عن الأحداث الهامَّة. ليس باستطاعتها أن تعرف تَفصيلًا كيف عُلِّمَت، وذاكرتُها عن طُفولتها في بعض الحوادث، هي ذاكرةٌ قد جرى تشكيلها لتصير صورةً مثاليَّةً عمَّا قد عَلِمته لاحقًا من مُعلِّمتِها ومن آخرين. مَقدرتُها على تذكُّرِ أحداثٍ وقعت لها قبل خمس عشرة سنةً مَضت هي أقلُّ من قُدرة مُعظمنا على تذكُّر

طُفولتِنا. هذه عِلَّةُ كون سِجلَّات مُعلِّمتها رُبَّما تُظهر اختلافًا في بعض الأشياء الخاصَّة عن رِواية الآنسة كِيلَر.

إنَّ الطريقةَ التي كتبت بها الآنسة كِيلَر قِصَّتها تُظهرُ -كما لا يستطيعُ أيُّ شيءٍ آخر- المصاعِبَ التي تعيَّنَ أن تتغلَّبَ عليها. عندما نكتب، بإمكاننا أن نعاود القراءة وتفحُّص عملنا المكتوب، نتَّاقل بين الأوراق، بين السطور، نُعيد التنظيم، نرى كيف تبدو الفقرات المكتوبة في بروفة طِباعة، وبهذا نُشيِّدُ العملَ بالكُليَّة وهو أمام أعيُنِنا، كما يُشيِّدُ المِعماريُّ مُخطَّطات مشاريعه. عندما تُخرج الآنسة كِيلَر عملها في صورة كِتابةٍ مطبوعة، لا يكون باستطاعتها أن تعود إليه ما لم يقرأه أحدٌ عليها بعَون هِجاء الأصابِع.

تُتَفادى الصُّعوبة جُزئيًّا باستخدامها آلة برايل خاصَّتها؛ حيث تُنتِجُ لها مخطوطًا بإمكانها قراءتُه، لكن، حيثُ أنَّه في الأخير لا بُدَّ لعملها أن يخرجَ في صورةٍ مكتوبة، وحيث أنَّ آلة برايل بطيئة الإنجاز على نحوٍ ما؛ فقد جرت العادةُ أن تكتب مباشرةً على الآلة الكاتبة خاصَّتِها. هي تعتمدُ بشكلٍ طفيفٍ للغاية على مخطوطها المكتوب ببرايل، يعني؛ حين شرعت في كتابة قِصَّتِها قبل أكثر من عام، وكانت قد أودعت مائة صفحة من المواد الكتابية والملاحظات في صورة برايل، ارتكبت خطأً ودمَّرت هذه الملاحظات قبل أن تكون قد انتهت من مخطوطها؛ لذلك فقد أنشأت كثيرًا من قِصَّتها على الآلة الكاتبة، وبنتها بأكملِها اعتمادًا على ذاكرتها كي توجِّهها لتُجمِّعَ معًا الأحداث المنفصلة، التي كانت الآنسة ساليفان تقرؤها لها.

في شهر يوليو الماضي، عندما أنجزَتْ فَصلها الأخير تحت وطأة ضغطٍ عظيم، بدأت العمل لأجل إعادة كِتابة القِصَّة بأكملها. صديقها المخلص؛ السيد ويليام ويد، في حَوزتِه نُسخة كاملة ببرايل صُنِعت خِصِّيصًا لها من بروفات الطباعة بالمجلَّة. ثمَّ، ولأوَّل مرَّة، صار

تحت يديها المخطوط بأكمله دُفعةً واحدة. ارتأت أنَّ بعضَ الفقرات يعتورها خلالٌ في التنظيم، وأنَّ بعض العبارات مكرورة. ارتأت أيضًا أنَّ الأنسَب لقِصَّتها أن تقع في فصولٍ قصيرة، وأعادت تقسيمها.

وبِفعل مِزاجها تارةً، وبفعل الظروف التي جرى عملها تحت وطأتها تارةً أخرى؛ كتبت بالأحرى سلسلةً رائعةً من الفقرات اللامعة أكثر منه سَردًا مُوحَّدًا، في واقع الأمر؛ كثيرٌ من فقرات قِصَّتها هي ثيماتٌ كِتابيَّة قصيرة دوَّنَتها في مقرَّراتها الدراسيَّة للُّغة الإنجليزيَّة، والوحدةُ الصغيرةُ منها تُظهر أحيانًا حُدودَها الأصليَّة.

أثناء عملية إعادة كتابة القِصَّة، كانت الآنسة كِيلَر تضع التصحيحات في صفحاتٍ مُنفصِلة مكتوبة على آلة برايل خاصَّتها. كتبت تصحيحاتٍ مُطوَّلة على الآلة الكاتبة، مُذيِّلةً الصفحات بكلماتٍ هادية كي توضِّحَ إلى أيِّ الأجزاء تنتمي. بعدئذٍ كانت تقرأ من نُسخة برايل خاصَّتها القِصة بأكملها، مُضيفةً تصحيحاتٍ بينما هي تقرأ، حيثُ سُجِّلَت تلك التصحيحات على المخطوط الذي أُرسِلَ إلى المطبعة. أثناء عملية المراجعة هذه ناقشت تساؤلاتٍ بخصوص المادة الكتابيَّة المعروضة وبشأن أسلوب الصِّياغة. كانت تجلس وتُجري إصبعها فوق مخطوط برايل، تتوقَّفُ من آنٍ لأخرى كي تُشيرَ إلى الملاحظات المكتوبة ببرايل التي كانت قد أشارت عليها بالتصحيحات، وهي تقرأ طوال الوقت بصوتٍ مُرتفِع كي تتثبَّت من المخطوط.

كانت هيلين تستمعُ إلى النَّقد كما يستمعُ أيُّ مُؤلِّفٍ إلى أصدقائِه أو إلى مُحرِّره. الآنسة ساليڤان، والتي هي ناقدةٌ بارِعة، طرحت اقتراحاتٍ بشأن عديدٍ من النِّقاط في مساق التأليف والمراجعة. زعمت إحدى الصُّحف أنَّ الآنسة كِيلَر قد سِيقَتْ إلى كِتابة الكتاب وقد دُفِعَت كي تضع بعض الأشياء الخاصة فيه بتأثيرٍ من أصدقاءٍ متعصِّبين. الحقيقةُ القاطعة، هي أنَّ معظم النُّصح الذي قد تلقَّتْهُ وما لُفِت

انتباهها إليه قد أسفر عنه بالأحرى حُذوفات أكثر منها إضافات. إنَّ كتاب "قصة حياتي" هو من صَنيع الآنسة كِيلَر، وهو بُرهانٌ حاسِم على قُدرتها المستقِلَّة.

[چون ألبرت ماسي]

الفصل الثاني

شخصيَّتُها

قال مارك توين، إنَّ أكثر شخصيَّتَيْن مثيرتين للاهتمام في القرن التاسع عشر هما: ناپوليون، وهيلين كِيلَر. إنَّ الإعجاب الذي أولاه إيَّاها العالَمُ، أكثر ما يُمكن تبريره به، هو ما قد أنجَزَتْه. ليس في وُسع أحدٍ أن يُخبِر عنها بأيِّ حقيقةٍ عظيمة ولا تكون تلك الحقيقة مدوَّنَةً بالِفعل، وكلُّ ما سيكون باستطاعتي أن أقوم به، هو أن أقدِّمَ مزيدًا من بعض الحقائق عن إنجاز الآنسة كِيلَر، وأضيف القليل إلى ما هو معروفٌ عن شخصيَّتها.

الآنسة كِيلَر طويلةُ القامة وقويَّةُ البنية، ولطالما تمتَّعت بصحةٍ جيِّدة. يبدو عليها أنَّها عصبيَّة أكثر مِمَّا هي في الحقيقة؛ لأنَّها تُبينُ عن نفسها باستخدام يديها أكثر مِمَّا يفعل النَّاطقون بالإنجليزية. أحدُ أسبابِ عادة التعبير بالإيماء هذه، هو أنَّ يديها قد كانتا لفترةٍ

طويلـة هـما أداتُهـا للتواصـل، حيـث تقومـان مقـام التنقُّـلات السريعـة للعـين، وتُعـبِّران عـن الكثـير مـن الأشـياء التـي نقولهـا نحـن عـبر نظـرةٍ خاطفـة. كلُّ الصُّمِّ-عفويًّـا- يُومِئـون. في الواقـع، كان يُظـنُّ لفـترة أنَّ أفضـلَ وسـيلةٍ للصُّـمِّ لأجـل التَّواصـل كانـت عـبر الإيمـاءات النِّظاميَّـة، بواسـطة لغـة الإشـارة التـي ابتكرهـا آبِّي دي ليبـى.[1]

عندمـا تتحـدَّثُ الآنسـةُ كِيلَـر، يكـون وجههـا نابضًـا بالحركـة ويُعـبِّرُ عـن جميـع أمزِجتِهـا في التفكـير- تلـك التعبـيرات التـي تجعـلُ قَسَـمات الوجـه بليغـةَ الإبانـة وتُضفـي عـلى الحديـث نِصـف معنـاه. عـلى الجانـب الآخـر هـي لا تعـرف وسـيلة أخـرى للتعبـير. عندمـا تتحـدَّثُ مـع صديـقٍ حميـم، رغـم ذلـك، تـروح يدهـا بسرعهـا إلى وجـه صديقهـا كي تـرى -كـما تقـول- "التـواءة الفـم". بهـذه الطريقـة، يكـون في وُسـعها القبـض عـلى معـاني أنصـاف الجمـل التـي نُتمِّمُهـا نحـن بـلا وعـيٍ منـا؛ مـن خـلال طبقـة الصـوت أو طرفـة العـين.

ذاكرتُهـا عـن النـاس هـي شيءٌ لافـتٌ للنَّظَـر. إنَّهـا تتذكَّـرُ مسـكة اليـد التـي قـد شـدَّت عليهـا مـن قبـل، تتذكَّـرُ ضغطـة العضـلات المميِّـزة، التـي تجعـل مُصافحـةَ شـخصٍ تختلـف عـن مُصافحـة آخـر.

إنَّ الخِصلـةَ الأبـرز في الآنسـة كِيلَـر (وكذلـك في الآنسـة ساليـڤـان) ربَّمـا هـي الفُكاهـة. التمـرُّس في اسـتخدام الكلـمات، واعتيادُهـا التلاعـب بهـا يجعلهـا دومًـا حـاضرةً الذِّهـن بالـمُلَحِ والإبيغـرام.

سألها أحدُهم إن كان يروقها أن تدرُس.

"نعـم"، أجابَـت، "لكنِّـي أحـبُّ أن ألهـو أيضًـا، وأشـعر أحيانًـا أنيِّ صُنـدوق موسـيقى وبداخـلي محفوظـةٌ كُلُّ المعزوفـات".

(1) Charles-Michel de l'Épée تشـارلز دي ليبـى: مُعلِّـم، وقائـمٌ بأعـمال خيريـة، أسـس في فرنسـا مدرسـة لتعليـم الصُّـمِّ، وشـهرته في فرنسـا: "أبـو الصُّـمِّ". (المترجـم)

عندما التقت دكتور فيرْنِس؛ البحَّاثة المتخصِّص في شيكسبير، حذَّرها بألَّا تسمح لأساتذة الكُلِّيَّة أن يُملوا عليها الكثير من الحقائق المفترَضَة بشأن حياة شيكسبير، كلُّ ما نعرفه -هكذا قال- أنَّ شيكسبير عُمِّد، وتزوَّج، ومات.مكتبة سُر مَن قرأ

"جميل"، ردَّت، "يبدو أنَّه فعل كلَّ الأمور الجوهريَّة".

ذات مرَّة، صديقٌ لها كان يتعلَّم هجاء الأصابع، ظلَّ يُشكِّلُ بيده حرف "g"، والذي يُشبه اليد وهي تصنع شكل حرف "h"، حيثُ يُشكَّلُ بإصبعين مبسوطَين. في نهاية الأمر قالت له الآنسة كِيلَر أنْ "أطلِقْ النَّار من كِلتا الفُوَّهَتَيْن"[1].

ذات مرَّةٍ كان السيد چوزيف چيفيرسون يشرح للآنسة كِيلَر معنى أن تكون هناك كدماتٌ في رأسها.

"هذه الكدمة هي جائزتك عن القِتال".

"أنا أبدًا لا أُقاتِل"، ردَّت، "باستثناء في مُجابَهَة المصاعِب".

إنَّ حِسَّ الفُكاهة المميِّز للآنسة كِيلَر هو نوع الفكاهة الأكثر عُمقًا الذي نُطلِقُ عليه: الجراءة.

قبل ثلاث عشرةَ سنة عزمت أمرها على أن تتعلَّم أن تتكلَّم، ولم تترك لمعلِّمتها سبيلًا للراحةِ حتى سُمِحَ لها أن تتلقَّى دُروسًا، رغم أنَّ راجحي العقول -حتَّى الآنسة ساليڤان؛ أكثرهم حِكمةً على الإطلاق- كانوا يعتبرون أنَّها تَجْرِبَةٌ نَجاحُها على الأرجَحِ بعيدٌ عن الاحتمال، وأنَّها لا رَيْبَ ستصيبها بالشَّقاء في غالب الأحوال. كان هذا هو دأبُها المماثل الذي دَفعها لأنْ تذهبَ إلى الكليَّة. حيث أنَّها بعد أن اجتازت الامتحانات وتسلَّمَت شهادة القَبول، جاءها النُّصح من جانب

---

(1) حرف "g" في هجاء الأصابع، يُعطي شكل مسدَّس بفوهة واحدة، حرف "h" يُعطي شكل مسدَّس بفوهتين. (المترجِم)

عميد رادكليف ومن آخرين بألّا تواصِل. وتبعًا لهذا أجّلت الالتحاق بالدِّراسة لعام. لكنَّها لم ترضَ إلا بعد أن نفَّذت رغبتها ودخلت الكُلِّيَّة.

كانت حياتها عبارة عن سِلسلة متواصلة من محاولات القيام بأيِّ شيءٍ كان الناس الآخرين يقومون به، وأن تقوم به على أكمل وجه. لقد كان نجاحُها نجاحًا كاملًا؛ ففي مُحاولتها لتكون مثل الناس الآخرين، انتهى بها الأمر بأن تُحقِّقَ ذاتها بكلِّ معنى الكلمة. كراهيتها لأن تُهزَمَ طوَّرت فيها جسارتها. فأينما يستطيع الآخر الذَّهاب، فباستطاعتها هي الأخرى أن تذهب. تقديرها للشجاعة الجسديَّة يُشبه ستِفنسن- كازدراء الولد لرفيقه الذي يبكي، وهو ما به مَسحةٌ من التَّبجُّح الشبابيِّ. تقوم الآنسة كِيلَر بنُزُهاتٍ في الغابات، تغوص وسط الشُّجيرات الدُّنيا[1]، حيث حدَثَ أن انخدَشَت وأُصيبت بكدماتٍ، ورغم ذلك ليس باستطاعتك حملها على الاعتراف بأنْ قد أُصيبَت، ومؤكَّدًا لستَ تستطيع أن تُقنِعها أن تُلازِمَ البيت في المرَّة القادمة.

لذا عندما يحاول النَّاسُ إجراءَ تجارِبَ عليها، تُظهِرُ تصميمًا ذا روح رياضيَّةٍ كي تفوز في أيِّ امتحان، مهما بدت رغبةُ أحدهم في توجيه سؤالٍ لها أمرًا لا عقلانيًّا.

إن لم تكن تعرف الإجابة على السُّؤال؛ تُخمِّنُ الإجابة بتأكيدٍ عابث. اسألها عن لون مِعطَفِك (ليس باستطاعةِ مكفوفٍ أن يعرف الألوان)، سوف تتحسَّسُه وتقول "أسود". إن تصادف وكان أزرق، وتُخبرها هذا وأنت مُنتشيًا بنَصرِك، فعلى الأرجح ستجيبك وتقول: "شُكرًا لك. أنا سعيدة أنَّك تعلم هذا. لماذا سألتَني؟".

مِزاجُها المتقلِّبُ الجَسورُ يستحثُّها كثيرًا على بَذْل الجهد؛ ما يجعلها بالأحرى مادَّةً غير كفءٍ بالنسبة لمُجْرِي الاختبارات النفسيَّة. علاوةً على هذا، لا ترى الآنسة ساليفان سببًا يُلزِمُ الآنسة كِيلَر بالخضوع

(1) هي الشُّجيراتُ الصغيرة التي تنمو تحت الأشجار الكبيرة. (المترجِم)

لفحوصات العُلماء، وهي نفسها لم تُجرِ عليها أيَّةَ تجارب. حينما سألها مختصٌّ نفسيٌّ، إن كانت الآنسة كِيلَر تتهجَّأُ الكلام على أصابعها أثناء نومها، ردَّت الآنسة ساليفان بأنَّها لم تظُنَّ الأمرَ يستحقُّ منها أن تظلَّ يقِظَةً طول الليل لتراقب؛ فمثلُ هذه الأمور كانت على قَدرٍ قليلٍ من الأهمِّيَّة.

تحبُّ الآنسة كِيلَر أن تكون جُزءًا من الصُّحبة. إن كان أحدُهم مِمَّن تلمِسهم يضحك على نُكتة؛ تضحك هي أيضًا، تمامًا كما لو قد سمِعتها هي أيضًا. إن كان الآخرون يتوقَّدون طَربًا بفِعل الموسيقى، يستحوذ عليها توقُّدٌ متجاوِب بتوافقٍ مزاجيٍّ، ويُشِعُّ في وجهها ألقًا. في الواقع، هي تشعر بتحرُّكات الآنسة ساليفان بدقَّةٍ للغاية لدرجة أنَّها تتجاوب مع أمزِجتها، وبهذا يبدو أنَّها تُدرك ما يجري حولها، حتى وإن لم تُنطَق الكلمات في يدها لبعض الوقت. استجابتُها للموسيقى على نحوٍ مُماثِلٍ هي استجابةٌ وجدانيَّةٌ جُزئيًّا، رغم أنَّها تستمتعُ بالموسيقى لأجل الموسيقى فحسب.

الموسيقى بالنسبة إليها تعني القليل ما سوى أنَّها إيقاعٌ ونَبض. ليس باستطاعتها أن تُغنِّي وليس باستطاعتها أن تعزف على البيانو، رغم هذا، فكما تُظهر بعض التجارب الأوَّليَّة؛ بإمكانها أن تتعلَّم نقرَ لحنٍ بشكلٍ آليٍّ على مفاتيح البيانو. رغم ذلك فاستمتاعها بالموسيقى هو عملٌ جِدُّ أصيل؛ فلديها خبرة معرفيَّة لمسيَّةٌ بالصَّوت عندما تصطدم بها أمواج الهواء. جُزءٌ من خِبرتها بالإيقاع الموسيقيِّ ناتجٌ ولا شكَّ من اهتزاز الأجسام الصُّلبة التي تلمسها، كالأرضيَّة، أو، المثال الأكثر وضوحًا؛ وهو صندوق البيانو، حيث عليه تضع يدها. لكن يبدو أنَّها تشعر بنبض الهواء ذاته. عندما عُزِف على الأرغن لأجلِها في شارع بارثولوميو، كان المبنى بأكمله يهتزُّ جرَّاءَ النَّغمات المدعوسة، لكنَّ ذلك كلَّه لا يُفسِّرُ ما كانت تشعرُ به وما كانت تستمتع به. فاهتزازات الهواء بينما تُعزَف نغمات الأرغن الرَّنَّانة جعلتها تتمايل

تجاوُبًا معها. أحيانًا، تضع يدها على حَلْق مُغَنٍّ كي تشعر بالاهتزازات وبالانقباضات العضلية، ومن ذلك تحصلُ على مُتعة خالِصة. رغم هذا فلا أحد يعلم ما هي إحساساتُها على وجه الدِّقَّة. من المسلِّي أن يقرأ المرءُ في المجلَّات الصادرة عام 1895، أنَّ الآنسة كِيلَر "تكِنُّ تقديرًا دقيقًا يتميَّزُ بالذَّكاء، لمختلف المؤلِّفين الموسيقيِّين مِمَّن أحسَّت، حَرفيًّا، موسيقاهم. إنَّ شومان هو المفضَّلُ عندها". إن كانت تعرف الفارق ما بين شومان وبيتهوفن؛ هذا لأنَّها قد قرأت ذلك، وإن قرأت ذلك، فهي تذكُره، وبالتالي يكون بإمكانها أن تُخبرَ به أيًّا مَن يسألها.

جهود الآنسة كِيلَر في التواصل مع العالم بالخارج والتعرُّف إلى أُناسٍ آخرين على أساس مُعتقدِهم الثقافيِّ جعلها على اطِّلاعٍ بأمور الحياة اليومية. عندما صارت عملية تعليمها أكثر نِظاميَّةً وصارت مشغولةً بالكُتب، كان من اليسير للغاية أن تدعها الآنسة ساليڤان تستغرِق في ذاتِها، هذا لو كانت تميلُ إلى فعل ذلك كثيرًا. إلَّا أنَّ كلَّ شخصٍ التقاها قد أعطاها أفضل ما عنده من أفكار، وهي كانت تتقبَّلُ تلك الأفكار. لو حدث، في مَعرِضِ محاورةٍ، وكفَّ الصديق الذي بجانبها عن نُطق الكلام في يدها؛ يصدر منها السؤال الذي لا مفرَّ منه: "عمَّ تتحدَّثون؟". وبهذا تلتقط شذرات التواصل اليوميِّ من الأشخاص العاديين؛ لذا فمعلوماتُها المفصَّلة تكون كاملةً ودقيقةً على نحوٍ فريد. إنها مُتحدِّثةٌ لَبِقَةٌ فيما يخصُّ الأمورَ الصغيرةَ العارضةَ في الحياة.

كثيرٌ من معرفتِها المتحصَّلة تأتيها بشكلٍ مُباشر. عندما تكون خارج البيت تتمشَّى، غالبًا ما تتوقَّفُ على نحوٍ مفاجئ، وقد شدَّ انتباهها أريجُ ثمرة توت صغيرة. تتوجَّهُ نحوها وتتلمَّسُ الأوراق، ويصيرُ العالم الذي تنمو فيه الأشياء بين يديها على نحوٍ واقعيٍّ كما يكون بين يدينا؛ فتستمتع بينما تقبض على الأوراق بين أصابعها، وتتشمَّمُ الزهور المتفتِّحة، وتعرف متى تكون التمشية قد انتهت.

عندمـا تحـلُّ بمـكانٍ جديـد، خاصـةً إن كان مكانًـا مثـيرًا مثـل نياغـرا، أيًّـا مَـن يكـون في صُحبتهـا -عـادةً، بالطَّبـع، تكـون الآنسـة ساليڤـان- يظـلُّ هـذا الشَّـخصُ مُنشـغِلًا بإعطائهـا فكـرةً عـن تفاصيـل المشـهد المـرئيِّ. الآنسـة ساليڤـان، التـي تعـرف طريقـة تفكـير تلميذتهـا، تتخـيَّر مـن المناظـر الطبيعيَّـة العابـرة أمامهـا أشـياء جوهريَّـةً، بحيـث تُضفـي جـلاءً خاصًّـا عـلى رؤيـة الآنسـة كِيلَـر المتخيَّلَـة للعـالم الخارجـيِّ، بينـما تحـيِّرُ أعيُنَنـا نحـن وتجعـل رؤيتهـا مُثقَلَـةً بالتفاصيـل الاسـتثنائيَّة. إن لم يكـن رفيقهـا يُعطيهـا مـا يكفـي مـن تفاصيـل، تواصـل الآنسـة كِيلَـر طـرح الأسـئلة إلى أن تكـون قـد اسـتكملت معرفـة المشـهد عـلى الوجـه الـذي يُرضيهـا.

إنَّهـا لا تـرى باسـتخدام عينيهـا، إنَّمـا عـبر القـدرة الكامنـة للوفـاء بالغـرض الـذي وُهبـتْ لنـا أعيُننـا لـه. عندمـا تعـود مـن تمشـية وتُخـبر شـخصًا مـا عنهـا، يكـون وصفهـا لمـا رأتـه دقيقًـا ونابضًـا بالحيـاة. الخـبرة المقارَنَـة المسـتمدَّة مـن التفاصيـل المدوَّنـة ومـن كلام مُعلِّمتهـا- جعلتهـا بمنـأًى عـن الوقـوع في الأخطـاء عنـد اسـتخدامها للكلـمات التـي تخـصُّ الصَّـوت والرؤيـة. صحيـحٌ أنَّ رؤيتهـا للحيـاة ورديَّـة وتحفـلُ بالمبالغـات الشـعريَّة: فالكـونُ، كـما تـراه هـي، هـو ولا شـكَّ أفضـلُ حـالًا بعـض الـشيء عـمَّا هـو عليـه في الحقيقـة. لكـنَّ معرفتهـا بـه ليسـت مَنقوصَـةً للغايـة كـما قـد يفـترض أحدهـم. فأحيانًـا يُدهشُـكَ جَهلُهـا بحقيقـةٍ مـا لم يحـدث أن أخبرهـا بهـا أحـدٌ مـن قبـل، مثـلًا: هـي لم تكـن تعـرف -حتـى المـرَّة الأولى الـذي غطسـت فيهـا في البحـر- أنَّـه مالِـح. كثـيرٌ مـن الحـوادث المنفصلـة وحقائـق الحيـاة اليوميَّـة تحـدث فيما حولهـا وتتجاوزهـا دون أن تُلاحظهـا، لكنهـا تملـك مـا يكفـي مـن المعرفـة المفصَّلـة بالعالَـم مـا يحافـظ عـلى رؤيتهـا لـه مـن أن تكـون، جوهريًّـا، رؤيـةً مَشـوبَة.

إنَّ أكـثرَ مـا تعرفـه يأتيهـا في المقـام الأول مـن حاسَّـة الَّلمـس. تلـك الحاسَّـة رغـم ذلـك ليسـت جِـدَّ متطـوِّرة عـلى نحـوٍ ممتـاز كـما هـو الحـال

في بعـض الأشـخاص المكفوفـين الآخريـن. كان باسـتطاعة لـورا بريدچــمَن، أن تتعـرَّف درجـاتٍ دقيقـةً مـن الاختلافـات في أحجـام الخيـوط، وأن تصنـع نسـيجًا أنيقًـا مــن الدانتيــل. اعتــادت الآنســة كِيلَــر أن تمــارس الحياكــة والكروشـيه، لكــن كان عندهــا أشـياء أفضـل لتقـوم بهـا. فعـلى ملكاتِهـا المتعـدِّدة ومآثِرهـا، لم تُسـتَخدَم حاسَّـةُ اللمـس لديهـا بمـا يكفـي كي تتطـوَّر وتبلـغ مــن الشِّــدَّة مسـتوًى أعــلى مــن المسـتوى العـادي. أجـرى أحـد الأصدقـاء امتحانًـا عـلى الآنسـة كِيلَـر باسـتخدام عِـدَّة عمـلات معدنيَّـة. لقـد كانـت أبطـأ أكـثر مـما توقَّـع في التعـرُّفِ عـلى العمـلات مـن خـلال وزنهـا وحجمهـا النِّسـبيَّيْن. لكــن ينبغــي القَـول إنَّهـا تقريبًـا مـا مسَّــت نقـودًا قَـطُّ- وهـي إحـدى تفاصيـل الحيـاة البائسـة- والبسـيطة بالمناسـبة- والتــي اسـتُثنِيَت مــن التعـرُّض لهـا.

كانــت تتعــرَّفُ الأســاس والفكــرة العامَّــةَ لتصميــم تُمَيثِيــلٍ (تمثــال صغـير) بارتفـاع سِـتَّة إنشـات. أيُّ شيءٍ أضحـل مـن نصـف إنـش بتصميـم غائـر هــو خــواءٌ بالنسـبة لهـا، ويكـون بعيـدًا عــن تمثيـلِ فكـرةٍ جماليَّـة. التماثيــل الكبــيرة التــي يكــون بإمكانهــا أن تتحسَّــسَ خــطَّ المسـح فيهـا بكامـل يدهـا؛ تتعـرَّف فيهـا عـلى قِيمتهـا الجماليَّـة الأرقـى. إنَّهـا توحـي لنفســها باسـتطاعتها التعـرُّف عليهـا بصـورةٍ تفـوقُ قُدرتنـا عـلى فِعـل ذلـك، وحُجّتُهـا في هــذا أنَّــه بإمكانهـا الحصـول عـلى الأبعـاد الصَّحيحـة، وأنَّهـا تسـتطيعُ أن تقـدِّر الطَّبيعـة الصُّلبـة للبِنيـة المنحوتـة أسرعَ مِنَّـا. عندمـا كانـت في مُتحَـف الفنـون الجميلـة ببوسـطن، وقفـت عـلى إحـدى درجـات السُّـلَّم وتركـت كِلتَـا يديهـا تعبـث بالتماثيـل. عندمـا استشـعرَت نحتًـا غائـرًا لفتيـاتٍ يرقُصـن، سـألت: "أيـن المغنِّيـات؟". عندمـا وجـدت إيَّاهُــنَّ قالــت: "إحداهُــنَّ صامتــة". فشـفاه المغنيـة كانـت منغلقـة.

رغـم هــذا، يكـون في وُسـع المـرء قيـاس رهافـةِ مشـاعرها ومهارتهـا اليدويَّـة، في حياتهـا اليوميَّـة بشـكلٍ أفضـل. يبـدو أنَّ عندهـا حِسًّـا ضعيفًـا جـدًّا بالاتجاهــات. فهــي تتلمَّــسُ طَريقهــا دون الكثـير مــن اليقــين في

الحجرات التي تَأْلَفُها على نحوٍ ما. أغلب المكفوفين مقودون بحاسَّة السَّمع؛ لذا فمن الصَّعب أن نعقد مقارنةً عادلة، باستثناء في حالة الأشخاص الآخرين من المكفوفين الصُّمِّ. خِفَّتُها ليست بالشَّيء الفذِّ، سواءٌ أقورِنَت بالأشخاص العاديين مِمَّن تُقاد حركاتُهم بعَون العين، أو، كما يُقالُ لي؛ إن قورِنَت مع المكفوفين الآخرين. هي لم تتدرَّب على أيَّةِ مهارةٍ فرديَّةٍ ذات طبيعةٍ إنشائيَّة؛ ما يستلزمُ منها استخدام يديها. فعندما كانت في الثانية عشرة من العمر، تركها صديقها الفنَّان، السيِّد ألبرت هـ مانسِل، تجرِّب مع لوحٍ من الشمع ومِرْقَم. هو يقول إنَّها قد أحسنت صُنعًا على نحوٍ بالغ، وتمكَّنت -قِياسًا على نماذج- من صُنع بعض التصميمات التقليديَّة لحوافٍّ أوراق شجر وورود صغيرة. الأمر الوحيد الذي تفعله ويتطلَّبُ مهارةً لليدَيْن هو عملها على الآلة الكاتبة. فرغم أنَّها تستخدم الآلة الكاتبة منذ أن كانت في التاسعة، تكونُ أثناء الكِتابة متروِّيَةً أكثرَ منها عَجولة. إنَّها تكتبُ بسرعةٍ مُعتدِلةٍ، وبثِقةٍ مُطلَقة. نادرًا ما تحوي مخطوطاتها أخطاءً مطبعيَّةً حين تُسلِّمُها للآنسة ساليڤان لتقرأها. الآلة الكاتبة خاصَّتها ليس بها أيَّة مُلحقاتٍ مخصوصة. عندما تكتب، تُبقي يدها على الوضع الصحيح النِّسبي فوق المفاتيح، عن طريق لمسةٍ عارِضةٍ من إصبَعيها الصَّغيرين فوق الحافَّة الخارجيَّة للوحة الكِتابة.

قراءةُ الآنسة كِيلَر لهجاء الأصابِع باستخدام حاسَّةِ الَّلمسِ يبدو أنَّه يُسبِّب بعض الحيرة. حتى أولاء الذين يعرفون الآنسة كِيلَر خير المعرفة قد كتبوا في المجلَّات عن "وسائل التواصل التلغرافيَّة الغامضة" للآنسة ساليڤان مع تلميذتها. إنَّ هجاء الأصابِع هو مَحلُّ استخدامٍ من قِبَل جميع الأشخاص المتعلِّمين من الصُّمِّ. معظم المعاجِم بها رسومٌ منقوشة لحروف هجاء الأصابِع. الشخص الأصم المبصِر يستطيعُ أن يُناظِرَ أصابِع صاحِبه المتحدِّث، لكن من الممكن أيضًا أن يتحسَّسها. فالآنسة كِيلَر تضعُ أصابِعَ يدها بخِفَّةٍ على يد الشَّخص الذي يُحادِثُها،

وتتلقَّى الكلمات بسرعةٍ بقدر سُرعة استطاعة تهجئتها. وكما تشرح هي الأمر؛ إنَّها لا تكون مُنتبِهةً لكلِّ حَرفٍ بصورةٍ مُفرَدَة، أو للكلمات بشكلٍ مُنفَصِل. الآنسة ساليڤان وآخرون مِمَّن يعيشون بشكلٍ متواصلٍ مع الصُّمٍّ باستطاعتهم أن يتهجَّؤوا الكلمات على اليد بسرعة للغاية -بسرعةٍ بما يكفي لفَهمِ محاضرةٍ منطوقة ببُطء- وليست تلك بالسرعة الكافية لالتقاط كلِّ كلمةٍ من مُتحدِّثٍ مُسرعٍ في حديثه.

بإمكان أيِّ شخصٍ تعلُّم أبجديَّة هجاء الأصابِع في بضع دقائق، يستخدمها رويدًا رويدًا على مدار اليوم؛ وفي غضون ثلاثين يومًا من الاستخدام المتواصل يتحدَّث إلى الآنسة كِيلَر أو إلى أيِّ شخصٍ آخر أصَمَّ بسَجيَّةٍ دون أن يلاحِظ ما تصنعه أصابعه. إن عرف المزيدُ من النَّاس ذلك، وتعلَّمَ الأصدقاءُ وأقارب الطِّفل الأصَمِّ الأبجديَّةَ اليدويَّةَ؛ فلسوف يصبح الصُّمُّ في جميع أنحاء العالم من فورهم أكثر سعادةً وأفضل تعليمًا.

تقرأ الآنسة كِيلَر بواسطة ما هو مكتوب بالطباعة البارزة أو أنواع كتابة برايل المتعدِّدة. الكتاب المطبوع بكتابة بارزة تُستخدَم فيه الأحرف الرُّومانيَّة، بِكِلَا الحروف الكبيرة أو الصغيرة. تكون تلك الأحرف ذات تصميمٍ بسيطٍ، مُربَّعٍ، وشكلٍ زاويٍّ. الحروف الصغيرة تكونُ بارتفاع 0.1875 من الإنش، وترتفع عن الصَّفحةِ التي يكون سُمْكها مقدار ظُفر إبهام. تكون الكتب كبيرة الحجم؛ تقريبًا بحجم مُجلَّدٍ من دائرة معارف. يقع كتاب غرين "تاريخٌ مختصر للشعب الإنجليزيِّ" في ستَّة مُجلَّداتٍ كبيرة. لا تكون الكتب ثقيلة؛ فالصفحات ذات الحرف البارز لا تقع مُلاصِقةً لبعضها البعض. أكثرُ وقتٍ يُدركُ فيه أحد أصدقاء الآنسة كِيلَر أنَّها مكفوفةُ البصر بشكلٍ بَيِّن، يحدث حين يأتيها على حين غرَّةٍ وهي تجلس في الظَّلام، ويسمعُ حفيفَ أصابعها وهي تمرُّ فوق الصَّفحات.

أكثر أنواع الكِتابة المريحة بالنسبة للمكفوفين هي برايل، والتي لها عِدَّة تنويعات، هي كثيرة حقيقةً: الإنجليزيَّة، الأميركيَّة، نظام نَقْطِ نيويورك. تستطيعُ الآنسة كِيلَر أن تقرأهم أجمعين. مُعظم المتعلِّمين من المكفوفين على دراية بعِدَّة أنواع، غير أنَّه لسوف يُوفِّر على الكثيرين العناء -كما تقترح الآنسة كِيلَر- إن عُمِّمَ استخدامَ نظام برايل الإنجليزيِّ على المستوى العالميِّ. الصورة الموجودة في صفحة 30 تعطي فكرة عن كيف تبدو النِّقاط البارزة المطبوعة. كلُّ عُنصرٍ (سواءٌ كان حرفًا أو حركة إدغام خاصَّة بنظام برايل) يكون عبارة عن مجموعة توافقيَّةٍ[1]، تصنعها تنويعاتُ نِقاطٍ من حيث العدد، والموضع، في سِتَّةِ مواضعَ مُحتمَلة. لدى الآنسة كِيلَر آلة كاتبة بنظام برايل، حيث تُدوِّنُ عليها الملاحظات وتكتب الخطابات إلى أصدقائها من المكفوفين. في الآلة سِتَّةُ مفاتيح، وبالضَّغط على مجموعةٍ مختلفة من المفاتيح في الضَّربة الواحدة (كما يعزف أحدهم كُورد موسيقي[2] على البيانو) يطبع المشغِّلُ عُنصرًا مطبوعًا في المرة الواحدة على فَرْخ ورق سميك، وبالإمكان الكِتابة على الآلة بسُرعة توازي نِصفَ السرعة المطلوبة على الآلة الكاتبة. تكون آلة برايل مُفيدةً على وجه الخصوص لغرضِ صُنع مخطوطٍ واحدٍ من كتاب.

عددُ الكتب المصنوعة لأجل المكفوفين محدود جدًّا. فهي تتكلَّفُ الكثيرَ لأجل نَشرها، ومبيعاتُها ليست كبيرةً بما يكفي بما يجعلُها مُربِحةً بالنسبة للنَّاشرين، لكن هُناك العديد من المعاهد ترصدُ ودائع مالية مُخصَّصَة للإنفاق على إنتاج الكتب ذات الحرف البارز. إنَّ الآنسة كِيلَر لهي أكثرُ حظًّا من معظم الأشخاص المكفوفين؛ فهي محظوظة بطيبة أصدقائها الذين يتحصَّلون على كُتبٍ خِصِّيصًا من

(1) هي مجموعة حروف مؤتلِفة، وهي من المجموعات المختلفة التي من الممكن تأليفها من عدد معيَّن من الحروف، مثل ab أو cb وغيرها مما يمكن تركيبه من a,b,c. (المترجِم)
(2) الكورد الموسيقي: هو تآلف نغمَتَيْنْ أو أكثر، تُعزَف في آنٍ واحد. (المتِرجم)

أجلها، وكذلك باستعداد الرجال النُّبلاء -أمثال السيد إ.إ ألِن؛ من معهد بنسلڤانيا لتعليم المكفوفين- لأنْ يطبعوا -كما فعل هو في العديد من المناسبات- إصداراتٍ من الكتب التي كانت في حاجةٍ إليها.

في العادة، لا تقرأ الآنسة كِيلَر بسرعةٍ بالغة؛ إنَّما تقرأ بتروٍّ، وليس بتروٍ كبيرٍ تمامًا، لأنَّها تشعر بالكلمات بُسرعةٍ أقلَّ مما نراها نحن؛ هذا لأنَّ واحدةً من عادات عقلها هي أن تُنجِزَ الأشياء بشكلٍ كامل وعلى نحوٍ مُتقَن. حينما تثير اهتمامها فقرةٌ ما، أو احتاجت أن تتذكَّرها لأجل حاجةٍ مُستقبليَّة؛ تقولها بارتباكٍ وبسرعةٍ على أصابع يدها اليُمنى. أحيانًا يكون لهوُ الأصابع الطُّفوليُّ هذا دونما وَعْيٍ منها. فالآنسة كِيلَر تُحادِثُ نفسها وهي ذاهلةٌ عن ذاتِها عبر هجاء الأصابع. عندما تصعد أو تهبطُ إلى الصَّالة أو جيئةً وذهابًا في القَرَندة، تنطلقُ يداها ترفرفُ بجانبها كاضطراب أجنحةِ الطَّير.

إنَّ هناك -كما أُخبِرْتُ- ذاكرةً لَمسيَّةً كما هو حال وجود ذاكرة بصريَّة وسَمعيَّة. تقول الآنسة ساليڤان إنَّ كلتيهما؛ هي والآنسة كِيلَر تتذكَّران "على أصابِعيهما" ما كانتا تقولانِه. فبالنسبة للآنسة كِيلَر، حين يُتلفَّظُ بجُملةٍ عبر هجاء الأصابع؛ تنطبع الجملة في عقلها، تمامًا كما نتعلَّمُ نحن شيئًا ما جرَّاءَ سماعه العديد من المرَّات، ويكون بإمكاننا أن نسترجِع وَقْعَ صَوتِه.

مثلُ أيِّ شخصٍ مكفوفٍ أو أصَمَّ؛ تعتمدُ الآنسةُ كِيلَر بدرجةٍ استثنائيَّة على حاسَّة الشَّمِّ لديها. فعندما كانت صَبيَّةً صغيرة، كانت تتشمَّمُ كلَّ شيء وتعرفُ أين تكون؛ كَبِأيِّ بيت جارٍ كانت تَمُرُّ، وذلك بِفعل الرَّائحة النَّفَّاذة. بينما كان ذكاؤها يتنامى صارت أقلَّ اعتمادًا على هذه الحاسَّة. يصعُب الآن أن نُحدِّدَ إلى أيِّ مدًى يمكنها التَّعرُّفُ الآن على الأشياء من رائحتها. حيث فقدت حاسَّةُ الشَّمِّ سُمعتها الحسنة، كما أنَّ الشخصَ الأصمَّ صار عازِفًا عن الحديث عنها. ربَّما

تُعزى عِلَّةُ حاسَّة الشَّمِّ الحادَّة لدى الآنسة كِيلَر رغم ذلك، جُزيئًا، إلى قُدرتها على تعرُّف الأشخاص والأشياء، وهو ما كان من المتعارَف عليه نِسبتُه إلى حاسَّةٍ خاصَّة، أو إلى تطوُّرٍ غير عاديٍّ للقدرة التي، يبدو أنَّ جميعنا يمتلكها، والتي تستعلِنُ نفسها عندما يكون أحدهم بقُربنا.

أمَّا بخصوص قضية وجود "حاسَّة سادسة" خاصَّة، كتِلكَ التي نسَبَها الناس إلى الآنسة كِيلَر، إنَّما هو أمرٌ شائك. فليس في وُسعها أن تحوزَ أيَّةَ حاسَّةٍ لا يمتلكها الناس الآخرون، ذلك أمرٌ لا ريبَ فيه، ووجود حاسَّة خاصَّة، هو ليس بالأمر الظَّاهر، لا عليها ولا على أيِّ شخصٍ مِمَّن تعرفهم. إنَّ الآنسة كِيلَر بوضوح ليست برهانًا فَذًّا على امتلاكِ قدراتٍ استبصاريَّةٍ أو على نظريَّاتٍ غامضة، وأيَّةُ مُحاولةٍ لتفسيرها على هذا النَّهج تُخفِق في تقديرِ طبيعتها الحقيقية؛ فهي ليست أكثرَ غموضًا ولا تعقيدًا من أيِّ شخصٍ آخر. كلُّ ما هنالك، أنَّ جميعَ ما أنجزَتْه، يُمكن تفسير أسبابه بشكلٍ مباشر، باستثناء تلك الأشياء التي هي في كلِّ كائنٍ بشريٍّ، ويُتعذَّرُ تفسيرها على الإطلاق. إنَّها لا تبرهن-كما يظهر- على وجود الروح دون المادة، أو على الأفكار الفِطريَّة، أو على الخلود، أو أيِّ شيءٍ آخر لم يُبَرْهِنْ على وجوده أيُّ كائنٍ بشريٍّ آخر. لقد حاول الفلاسفة استنتاج مَفهومها عن الأفكار المجرَّدة قبل أن تتعلَّم اللغة. فإن كان لديها أيُّ إدراكٍ مُسبَق؛ فلا سبيلَ لاكتشافه الآن؛ ذلك لأنه ليس في وسعها أن تتذكَّر، ومن الواضح أنَّه لم يُحتَفَظ بتسجيل بشأن هذه الفترة. فلم تكن تملكُ أيَّ مفهومٍ عن الإله قبل أن تسمع كلمة "الإله" كما تُظهر تعليقاتها بشأن هذا على نحوٍ ظاهر.

إحساسها بالزَّمن ممتاز، لكن سواءٌ كان هذا قد تطوَّرَ كقُدرةٍ خاصَّة هو شيءٌ لا سبيل إلى معرفتِه؛ فقد كانت تملك ساعة منذ أن كانت في السابعة من العمر.

تملـك الآنســة كِيلَـر سـاعتَيْن، قـد أُهدِيَتـا لهـا. إنهـما -حســب مـا أعتقـد- فريدتـان مـن نوعهـما في أمـيرِكا. عـلى الغطـاء الجانبـي للسـاعة يوجـد مـؤشِّر عريـض ذهبـي، يمكـن ضغطـه بحريـة وإدارتـه مـن اليسـار إلى اليمـين، إلى أن ينطبـق مـع عقـرب السَّـاعات ويتَّخِـذَ وضعًـا مُناظِـرًا بواسـطة دبُّـوس داخـل علبـة السـاعة. يلتـوي تـاجُ المـؤشِّر الذهبـيِّ فـوق حافَّـة العلبـة؛ حيـث تتموضَـعُ حـول الحافَّـة مجموعـة مـن إحـدى عـشرة نُقطـةٍ بـارزة- بحيـث يشـكِّلُ التـاج السَّـاعة الثانيـة عـشرة. وبهـذا فـإنَّ تلـك السـاعة -التـي هـي سـاعة عاديَّـة، ذات قُـرصٍ أبيـض اللـون بالنسـبة للشـخص المبصِر- بمـا تحويـه مـن تلـك المحلقـات الخاصَّـة، تصـيرُ في واقـع الأمـر سـاعةً ذات عقـرب سـاعاتٍ وحيـد بـارز وأرقـامٍ بـارزة. ورغـم أنَّ المسـافة بـين مواضـع الأرقـام هـي أقـلَّ مـن نصـف إنـش -حيـث تمثِّـلُ المسـافةُ كاملـة سِـتِّين دقيقـة- تسـتطيعُ الآنسـة كِيلَـر أن تُخـبر بالوقـت غالبًـا عـلى نحـوٍ دقيـق. وجَـبَ أن يُقـال إنَّ أيَّ سـاعةٍ ذات غطائـين منزوعة البلُّـورة، تكـون ذات نفـعٍ بمـا يكفـي بالنسـبة للشـخص المكفـوف، عندمـا تكـون لمسـته خفيفـةً بمـا يكفـي كي يتحسَّـسَ بأصابعـه مواضـع عقـارب السَّـاعة، ولا يُعطِّلهـا أو يُفسـد نِظامهـا.

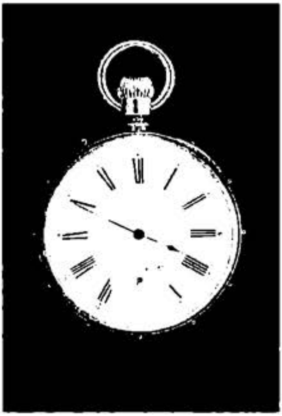

ساعة الآنسة هيلين كِيلَر، وهي محفوظة في المتحف الدولي للتاريخ الأميركيّ

إنَّ أرقى ما يُميِّزُ شخصية الآنسة كِيلَر من خِصالٍ لَهِيَ معروفةٌ خير معرفة، حتى أنَّ المرء ليس في حاجةٍ للحديث عنها. رهافةُ الإحساس، حِسُّ الفكاهة، ومُخيِّلتُها تُبقي على تصوُّرها عن الأشياء مُتعقِّلًا وفاتِنًا. فلا تصدرُ أيَّة محاولاتٍ مِمن حولها تهدف للحَجرِ على تخيُّلاتِها أو تحطيمِها. فعندما كانت صَبيَّةً صغيرة، قَدْرٌ لا يُستهان به من الأشياء غير الَّلبِقَةِ وغير الحكيمة مِمَّا كان يُقال لها لأجل مصلحتها لم يكن يُعاد الإتيان على ذِكره، والفضل يعود إلى المراقبة الحكيمة من جانب الآنسة ساليڤان. أَمَا وقد كبرت الآن ونضجت؛ فلا أحد يفكِّر بأن يتصرَّف معها على نحوٍ أقلَّ صراحةً مِمَّا يفعل مع أيِّ امرأةٍ عاقلةٍ أخرى. ما كتبه عنها صديقها الطيِّب؛ تشارلز دودلي وارْنر، في مجلة هاربر في عام 1896 كان صحيحًا وقتها، وما يزالُ صحيحًا إلى يومنا هذا:

"إنَّني لأومنُ أنَّها أطهرُ كائنٍ عاقل في الوجود على الإطلاق... العالَمُ بالنسبة إليها هو ما يُصوِّرُه لها عقلها. إنها حتَّى لم تتعلَّم الاستظهارَ الذي يتباهي به الكثيرون، تلك (النقمة المبرَّرَة أخلاقيًّا)".

"منذ وقتٍ مضى، حينما أردى ضابطٌ كَلبتها قَتيلةً، وهي رفيقتها اليوميَّة المحبوبة العزيزة، لم يحمل قَلبُها الغفورُ أيَّ إدانةٍ نحو الرجل، إنّما قالت: (إن كان علِمَ كم كانت كلبةً مُطيعة، لما كان سيُطلِق النار عليها). لقد قيل منذ قديم الأزل: (فلتغفر لهم يا إلهي؛ فإنَّهم لا يدرون ما يفعلون!)"[1].

"طبعًا سوف يبرزُ الإشكال؛ هل إذا لم تكن هيلين كِيلَر مُحصَّنةً من معرفة الشَّر، أكانت ستكون ما هي عليه اليوم؟... إنَّ عقلَها لم يُفسَد بالركيك والساذج من الأدب، ولم يُلوَّث بما قد يوحي بالانحطاط. وتَبعًا

(1) هي تقصد ما جاء في إنجيل لوقا (34:23) "يَا أَبَتَاهُ، اغْفِرْ لَهُمْ، لأَنَّهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ مَاذَا يَفْعَلُونَ". (المترجِم)

لهذا فعقلُها ليس مُفعَمًا بالنَّشاط فحسب، بل إنَّه عقلٌ نقيٌّ. إنَّها مُغرَمةٌ بالنَّبيل من الأشياء، بالنبيل من الأفكار، وبالشخصيات النبيلة من الرجال والنِّساء".

ما زال عندها نفورٌ طفوليٌّ من القصص المأساويَّة. إنَّ عقلها جِدُّ نشيطٍ لدرجةٍ أنَّها تهوي كُلِّيةً تحت التأثير الخيالي لقِصَّةٍ ما، وتستغرِقُ في العيش بعالمها. في خِطابٍ لها عام 1891، تكتب الآنسة ساليڤان:

"لقد قرأتُ لها أمس قِصة (مكبث)، كما رواها تشارلز وماري لامب. كانت متحمِّسةً جدًّا للقصة، وقالت: (إنَّها مُفزِعة! إنها تجعلني أرتجف!). بعد قليلٍ من التفكير، أضافت: (أظنُّ أنَّ شيكسبير قصد أن يجعل القصة مُفزِعة حتى يرى الناس كم هو مخيف أن يرتكبوا الأخطاء)".

إنها تعلمُ عن العالم الحقيقيِّ قدرًا كبيرًا من الخير، وقدرًا قليلًا من الشَّر، عن معظم ما يبدو أنَّ أغلب الناس يعرفونه. إنَّ مُعلِّمتَها لا تُثقل كاهلها بالأشياء التافهة غير الجالِبَة للسعادة، إنَّما بالمصاعِب ذات الشأن، التي كانتا تخوضانها معًا، حيث تكون الآنسة كِيلَر محيطةً بالأمور، تأخذ حِصَّتها من المعاناة، وتُعمِلُ عقلها في سبيل حَلِّ المعضلات. إنَّها شخصٌ عقلانيٌّ وصَبور، تَثِقُ إلى أقصى الحدود في عالَمٍ لطالما كان يُعامِلُها على نحوٍ طيِّب.

ذات مرَّة حينما طلب منها أحدهم أن تُعرِّف "المحبَّة" أجابت: "ياه، بورِكتَ، إنَّه أمرٌ هيِّن؛ إنها ما يشعره كلُّ إنسانٍ نحو جميع الآخرين".

"الصَّبر"، قالتها ذات مرَّةٍ، عندما كانت تزور صديقتها مدام لورانس هاتُّن: "الصَّبرُ هو أعظمُ هبةٍ وُهِبها العقل، إنَّه المجهود ذاته الذي

يستلزمه العقل ويحتاجه، حتى يُوازن المرءُ نفسه وهو راكبٌ فوق درَّاجة".

إنها تملكُ إحساسًا رحبًا سخيًّا بالتعاطُف، وصفاءً مِزاجيًّا مُطلَقًا. إلى حدٍّ أنَّها تختلفُ عن الآخرين في كونها أقلَّ تقيُّدًا بالتقاليد. إنَّ عندها من الشجاعة ما يجعلها تُطلقُ استعاراتِها البلاغية لتأخذ طريقها وتُحلِّق نحو السماء، في حين أنَّنا؛ نحنُ ذوي الوعي الذاتيِّ البائس، لَنَظُنَّ أنَّ تلك الاستعارات تكون بالأحرى بالغة الفصاحة على أن تُستخدَمَ في كلامنا الـمُتداوَل. إنها تُصرِّحُ دومًا بما تفكِّرُ به بالضَّبط، دون خوفٍ من الحقيقة الخالصة، فليس هناك بعد مَن هو أكثر منها لَباقةً وحذقًا في إعادة صياغة حقيقةٍ كريهةٍ بحيثُ يكون وقعُها بأقلِّ إيذاءٍ مُمكِنٍ على مشاعر الآخرين. رغم كلِّ ذلك الاهتمام الذي أُولِيَت إيَّاه منذ أن كانت طِفلةً، لم يجعلها هذا تأخذ أمر نفسها على محمل الجِدِّ. يحدثُ أحيانًا أن تبدأ في تلاوةِ خُطبةٍ وعظيَّة على نحوٍ وقور. عندئذٍ تناديها مُعلِّمتُها "بالواعظة الصغيرة العنيدة التي لا سبيل إلى تقويمها"، فتضحكُ هيلين من نفسها. رغم ذلك، فأفكارها الرصينة لا يُضحَكُ منها؛ ذلك أنَّ جِدِّيَّتها تجعلها تستحوذ على مُستمِعيها. ليس هناك أدنى ميلٍ للوعظ الأجوف في كلامها على الإطلاق. إنها تعني كلَّ شيءٍ تقوله على نحوٍ دقيقة لدرجة أنَّ استشهاداتِها ذاتها، والتي هي عبارة عن أصداء ما قد قرأَت، إنما هي في الحقيقة مُبتَكَرة.

طبيعتها المنطقيَّة والوجدانيَّة في توازنٍ ممتاز. فتعاطفها هو من النوع سريع الحدوث والذي يُقدِّم يد العون، وهو، لحسن الحظ، لطالما وجدته في النَّاس الآخرين. ونزعاتها التعاطفية لتُجاوز الحدَّ وتُشكِّلُ آراءها فيما يتعلَّقُ بالحركات السياسية والقوميَّة. فقد كانت مناصرةً للبوير[1] بِشِدَّة، وقد كتبت مُرافعةً بليغةً مُؤيِّدةً استقلال

(1) جماعة من المستوطنين الهولدنيين، توغَّلوا في أفريقيا. (المترجِم)

بوير. حينما أُخبِرَت باستسلام القوم الشجعان قليلي الحيلة، غام وجهها وظلَّت صامتةً بضع دقائق. ثم طرحت أسئلة صريحةً ثاقبة بشأن بنود الاستسلام، وشرعت في مناقشتها.

لقد ذُهِلَ كلٌّ من السيد غليمان والسيد كيث -وهما مُعلِّماها اللَّذان هيَّآها لأجل الدراسة في الكُليَّة- من قدرتها الرَّاسخة على الاستنتاج، وكانت أيضًا ممتازة في الرياضيَّات البحتة، ورغم هذا لم يبدُ أنَّها كانت تستمتع بها كثيرًا. بعضٌ من أفضل كتاباتها -باستثناء كتاباتها الخياليَّة والتصويريَّة- موجودة ضمن مقاطِعها الكِتابيَّة المدوَّنة في الامتحانات، وثيماتها الكتابية التقنيَّة، وفي بعض خطاباتها التي وَجَدَت أنه من الضروري أن تكتبها كي تجلو جوانب سوء الفَهم، وهو ما يُمثِّلُ نماذج لتفكيرها الدقيق، الذي يعزِّزُه تَوَقُّدُ ذهنها المدهش.

إنها شخصٌ متفائلٌ وعقلانيٌّ.

في خِطابٍ لها، تقول: "أتمنَّى ألَّا تكون لـ _[1] جِدّ واقعيَّة؛ لأنَّها لو كانت كذلك، فإنِّي لأخشى أنَّها لسوف تفوِّت على نفسها قدرًا عظيمًا من المتعة".

كتبت في الثامن عشر من أكتوبر في دفتر اليوميات الذي كانت تحتفظ به وهي في مدرسة رايت هامسون بنيويورك تقول: "إنَّني لأتبيَّنُ أنَّ عندي أربعة أشياء عليَّ أن أتعلَّمها في حياتي المدرسيَّة ها هنا، وفي الحقيقة؛ عليَّ أن أتعلَّمها في الحياة: أن أُفكِّر بوضوح دونما عَجَلةٍ أو تشوُّش، أن أُحبَّ الجميعَ بإخلاص، أن أتصرَّف مع كلِّ شيءٍ بأسمى الدَّوافع، وأن أثِق على نحوٍ لا يشوبه تردُّدٍ في الله العزيز".

(1) العلامة كما هي؛ حيث الاسم غير مذكور في الأصل، وكذا في سائر الكتاب. (المترجم)

مكتبة
t.me/soramnqraa

الفصل الثالث

تعليمُها

مـرَّ الآن خمســةٌ وســتُّون عامًـا منـذ أدركَ الدكتـور صامـوِل غريـدلي هـاو أنَّـه قـد وجـد طريقـه إلى عقـل لـورا بريدچـمَن عـبر أصابـع يديهـا. لسـوفُ يتلازم اسـما كلٍّ مـن لـورا بريدچـمَن وهيلـين كِيلَـر عـلى الـدَّوام، ومـن الـضروريِّ أن نفهـم مـا صنعـه الدكتـور هـاو لأجـل تلميذتـه قبـل أن يـأتي المـرءُ عـلى ذِكـر صنيـع الآنسـة ساليـڤـان. فالبنسـبة للدكتـور هـاو؛ فهـو الرائـد العظيـم الـذي عـلى عملـه تعتمـد الآنسـة كِيلَـر، وكـذا يعتمـد مبـاشرةً الآخـرون مـن مُعلِّمـي الصُّـمِّ المكفوفـين.

وُلِـد الدكتـور صامـوِل غريـدلي هـاو في بوسـطن، 10 نوفمـبر، 1801، ومـات في بوسـطن، 9 ينايـر، 1876. لقـد كان مُحسِـنًا عظيـمًا، يهتـمُّ عـلى وجـه الخصـوص بتعليـم جميـع المعاقـين، المتأخِّريـن عقليًّـا، المكفوفـين،

والصُّمِّ. في مُقتبَل عُمره، كثيراً ما دافع عن إرساء العديد من التدابير الحكوميَّة لأجل راحة المساكين والمعتلِّين، والتي كان يُسْخَرُ منها في ذلك الحين، ولكنَّ تلك التدابير قد صارت منذ ذلك الوقت محلَّ تنفيذ. ولأنَّه كان رئيسًا لمعهد بيركنس للمكفوفين في بوسطن؛ فقد سمع بـلورا بريدچمَن واستقدمها إلى المعهد في الرابع من أبريل، 1837.

وُلِدَت لورا بريدچمَن في هانوڤر، بـ نيو هامبشير، في 21 ديسمبر، 1829؛ لذا فقد كانت في الثامنة من العمر عندما شرع دكتور هاو في إجراءِ تجاربِه عليها. أصابتها الحمى القُرمزيَّة وهي بعُمر ستةٍ وعشرين شهرًا، وتركتها وقد فقدت سمعها وبصرها. فقدت أيضًا حاسَّةَ الشَّم وحاسَّة التذوُّق. كان الدكتور هاو عالمًا تجريبيًّا، وبداخله كانت تحيا روح رابطة نيو إنغلاند للفلسفة المتعالية[1]، بسِعةِ إيمانها ورحابةِ إحسانِها. لقد أرشَدَه كلا العلم والإيمان معًا في محاولتِه أن يتبيَّن طريقه إلى داخل الروح التي كان يؤمن أنَّها قد وُلِدَت داخل لورا بريدچمَن، كما هي بداخل كلِّ كائنٍ بشريٍّ آخر. خُطَّتُه كانت أن يُعلِّمَ لورا بواسطة الكتابة البارزة. كان يُلصِقُ على الأشياءِ بطاقاتٍ ذات كِتابةٍ بارزة، ويجعلها تُطابِقُ بين البطاقات والأشياء، وبين الأشياء والبطاقات الملصقة. عندما تعلَّمَت بهذه الطريقة أن تربط ما بين الكلمات ذات الحرف البارز.. والأشياء، على نفس النهج إلى حدٍّ كبير حسبما يقول، كما يتعلَّمُ الكلب الحِيَل، بدأ يُحلِّلُ الكلمات إلى عناصرها الأوليَّةِ من الأحرُف، ويُعلِّمها أن تضع الأحرف معًا؛ " م-ف-

(1) الفلسفة التجاوزية، أو المتعالية هي مذهب نشأ في بدايات القرن التاسع عشر كاحتجاج على الحالة العامة والثقافية للمجتمع. ويقول بأنَّ هناك من المعرفة ما يمكن تحصيلها بطرق غير الحواس الخمس. كانت بدايته في إقليم نيو إنغلاند (وهو إقليم يضمُّ ستَّ ولايات أميركيَّة منها بوسطن وماساتشوستس)- وأُنشِئت في 8 سبتمبر، 1836 The Transcendental Club أو رابطة التعالويَّة (أو التجاوزيَّة) بزعامة رالف إيميرسن. (المترجم)

ت-ا-ح"، "ق-ب-ع-ة". لقد أقنعه نجاحه بأنَّ اللغةَ يمكن أن تُنقَلَ من خلال الكلمة المنقوشة إلى عقل الطِّفلة المكفوفة الصمَّاء، والتي، قبل تعليمها، كانت في طَور الرضيع الذي لم يتعلَّم أنِ يرطن بالحديث، وهو في الواقع وضعٌ أكثرَ سوءًا؛ فالدِّماغ قد تطوَّر خلال سنواتٍ دون تغذيةٍ]معرفيَّة[طبيعيَّة.

بعد أن أحرزت عملية تعليم لورا تطوُّرًا خلال فترة شهرين باستخدام طريقة الحروف البارزة فحسب، أرسل دكتور هاو من جانبِه إحدى المعلِّمات كي تتعلَّم هجاء الأصابع من مكفوفٍ أصمّ. ثمَّ علَّمتها للورا، ومنذ ذلك الحين فصاعدًا، صار هجاء الأصابع هو وسيلة التواصل معها.

بعد عامٍ أو اثنين، لم يكن الدكتور هاو يُدرِّس لورا بريدچمَن بنفسه، إنَّما عهِدَ بها إلى مُعلِّمين آخرين، حيث أنجزوا مهمةَ تدريسها اللغةَ تحت إشرافه وتوجيهاتِه.

ليس هناك كلامٌ يكفي للثناء على إنجاز الدكتور هاو. باعتباره باحثًا، فقد ظلَّ دومًا محتفظًا بسلوك العالِم. فلم يَنْسَ أبدًا الاحتفاظَ بسِجلَّات لورا بريدچمَن على غرار مَن يعمل في مُختَبَر. والنتيجة هي أنَّ سِجلَّاتِه الخاصة بها هي سِجلَّاتٌ نِظاميَّةٌ ودقيقة. من وِجهة نظر عالِم، من سوء الحظِّ أنَّه كان من الـمُحال الاحتفاظ بكهكذا سِجلٍّ كاملٍ يرصدُ مراحل تطوُّر هيلين كِيلَر. إنَّ هذا في حدِّ ذاته تعليقٌ مُهمٌّ؛ فيما يتعلَّقُ بالتبايُن ما بين هيلين كِيلَر ولورا بريدچمَن. لقد ظلَّت لورا حالةً مثيرةً للفضول لأغراض الدراسة. أمَّا هيلين فقد صارت لها شخصيَّةٌ صارمة على وجه السرعة، لدرجة أنَّها أبقت مُعلِّمتها في حالة سِباقٍ لاهثٍ لأجل أن تلبِّي احتياجات تلميذتها، دون أن يتوفَّر الوقت أو الطاقة كي تُجري عليها دراسةً عِلميَّة.

إنَّ هـذا لمـن سـوء الحـظِّ مـن عِـدَّة نـواحٍ؛ فالآنسـة ساليـڤـان كانـت تعلـم منـذ البدايـة، أنَّ حالـة هيلـين كِيلَـر سـوف تكون أكـثر إثـارةً للاهتمام وأكـثر نجاحًـا مـن لـورا بريدچـمَن، وتسـرِدُ في واحـدٍ مـن خِطاباتِهـا وتكتب عـن ضرورة الاحتفـاظ بيوميَّـات مدوَّنـة. لكـن لا المِزاج ولا التدريـب كان يسـمح لهـا بـأن تجعـل مـن تلميذتهـا عُنـصرًا لأيِّ تجربـةٍ أو مُعايَنـة لم تكن تُسـهِمُ في تطـوُّر الطِّفلـة. فـما أن يُنجَـزَ أمـرٌ، يكـون هنـاك هـدف مُحـدَّد قـد تحقَّـق، حيـث لا تُلقـي المعلمـةُ نظـرةً عـلى مـا مـضى وتسـتعرض الطريقـة التـي قـد أُنجِـزَ بهـا الأمـر. فالإسـهابُ في شَرح الواقعـة لم يكـن أمـرًا ذا بـال، مقارَنـةً بالواقعـةِ ذاتِهـا وبالحاجـة للمُـضيِّ قُدمًـا عـلى وجـه السرعـة. سـببان آخـران لكـون سِـجلَّات الآنسـة ساليـڤـان غـير كاملـة: كان عِبئًـا ثقيـلَ الوطـأة دومًـا عـلى عينيهـا أن تكتـب، وكذلـك لأنهـا صُرِفَـت منـذ المراحـل الأولى عـن نَـشر بيانـاتٍ جـرَّاء الاسـتغلال غـير الدَّقيـق لمـا كانـت تمـدُّ بـه النـاس في البدايـة.

عندمـا كتبـت مـن توسـكامبيا عـن إنجازهـا وعـن تلميذتهـا إلى السـيد أناجنـوس للمـرَّة الأولى، وإلى صِهـر الدكتـور هـاو وخَلَفِـه كمديـرٍ لمعهـد بيركنـس؛ بـدأت صُحـف بوسـطن عـلى الفـور في نَـشر مقـالاتٍ مُبالَـغٍ فيهـا عـن هيلـين كِيلَـر. عـلى هـذا احتجَّـت الآنسـة ساليـڤـان. في خِطـابٍ لهـا بتاريـخ العـاشر مـن أبريـل، 1887، بعـد خمسـةِ أسـابيع فقـط مـن ذهابهـا إلى هيلـين، كتبـت إلى صديـقٍ تقـول:

"لقـد أرسـل لي ــــــــ عـددًا مـن بوسـطن هيرالـد يحـوي مقـالًا غبيًّـا عـن هيلـين. كـم هـو عبثـيٌّ تمامًـا أن يُقـال إنَّ هيلـين (تتحـدَّث بطلاقـة بالفِعـل)! لمـاذا، قـد يقـول أحدهـم عـلى طِفـلٍ بعُمـر عامَـيْن، إنَّـه يتكلَّـمُ بطلاقـة عندمـا يقـول الطفـل (تفَّاحـة، هـات)، أو (رضيـع يمـشي، يذهـب)؟ إنَّنـي أشـكُّ أنَّـكَ تعتـبر صُراخـه، صياحـه، نشـيجه، نخـيرَه، زعيقَـه، واحتجاجاتِـه في الحديـث بـين الحـين والأخـرى، أنَّ هـذا يُمكـن اعتبـاره طلاقـةً في الحديـث- فصيـحٌ حتَّـى. ثـمَّ إنَّـه لمـن المسـلِّي أن أقـرأ عـن

الإعـدادات الدقيقـة التـي مـررتُ أنـا بهـا كي تُهيِّئَنـي للمَهَمَّـة الجليلـة التـي عهـد بهـا إليَّ أصدقـائي. يؤسـفني أنَّ الإعـداداتِ هاتِـه لم تتضمَّـن عمليـة تعلُّـم التهجئـة، لكانـت قـد وفَّـرت عـليَّ الكثـير مـن العنـاء".

بتاريخ 4 مارس، 1888، في خِطابٍ لها تكتب:

"في الواقـع، أنـا سـعيدةٌ مـن أعـماق قلبـي لأنَّنـي لسـتُ عـلى اطِّـلاعٍ بـكلِّ الـذي يُقـالُ ويُكتَـبُ عـن هيلـين وعنِّـي. أؤكِّـدُ لـك أنَّنـي أعـرفُ بمـا فيـه الكفايـة. فـكلُّ بريـدٍ يصلنـي تقريبًـا يُنبِـئُ بتصريـحٍ سـخيفٍ مـا، مكتـوبٍ أو منشـورٍ في صحيفـة. فالحقيقـةُ ليسـت مُدهشـةً بمـا يكفـي كي تُناسِـبَ اعتبـارات النَّـشر عنـد الصُّحُـف؛ لـذا يُضخِّمـون الأمـور ويختَلِقـون أحاديـثَ مُزخرَفـةً سـخيفة. إحـدى الصُّحُـف قالـت إنَّ هيلـين بـدأت في مُعالجـة مسـائل في الهندسـة بالاسـتعانة بقِطَـع اللعـب خاصَّتهـا. إنَّنـي لأتوقَّـعُ في المـرة المقبلـة أن أسـمع بأنَّهـا قـد كتبـت دراسـةً عـن أصـل الكواكـب ومُسـتقبَلِها!".

في ديسـمبر 1887، ظهـر التقريـر الأوَّل لمديـر معهـد بيركنـس، والـذي يتنـاول الحديـث عـن هيلـين كِيلَـر. ولأجـل هـذا التقريـرِ أعـدَّت الآنسـة ساليـڤـان -كارهـةً، وامتثـالًا لطلـب السـيد أناجنـوس- تقريـرًا عـن عملهـا. كان التقريـرُ هـو أوَّلُ مصـدر معلومـاتٍ شرعـيٍّ عـن هيلـين كِيلَـر، وكان مُرفَقًـا ببعـض خِطاباتِهـا المنشـورةِ عـبر التقريـر. ومـن ضِمـن مـا سـجَّلَته الآنسـة ساليـڤـان في هـذا التقريـر المـؤرَّخِ في الثلاثـين مـن أكتوبـر، مـن عـام 1887:

"هـل اطَّلَعتـمُ عـلى المقالـة التـي كتبتهـا لأجـل (التقريـر)؟ لقـد سُـعد بهـا السـيد أناجنـوس. إنَّـه يقـول إنَّ (تقـدُّم هيلـين منـذ البدايـة لهـي مسـيرةُ انتصـار)، وإنَّـه ليشـيدُ كثـيراً بخصـوص جهـودِ مُعلِّمتِهـا. أعتقـدُ أنَّـه يميـلُ إلى المبالغـة؛ ففـي جميـع المناسـبات، تكـون نـبرةُ حديثـه جِـدَّ حماسـيَّةٍ، حيـث تُسـتعرَضُ الحقائـقُ البسـيطة عـلى هـذا المنـوال لدرجـةِ

أنَّها تُدهشُ المرء. لا شكَّ أنَّ عمل الأشهر القليلة الماضية يبدو مسيرةَ انتصارٍ بالنسبة إليه، غير أنَّه عندئذٍ، نادرًا ما يرى النَّاس الخطوات المتعثِّرَةَ والشَّاقة التي استلزمها هذا النَّجاح المتواضع لأنْ يتحقَّق".

باعتبار أنَّ السيد أناجنوس يرأسُ معهدًا عريقًا، فقد كان لِما قاله أثرٌ يفوقُ حقائق تقرير الآنسة ساليڤان، والذي عليه قد بنى كلماته. فقد سُحِرت الجرائدُ بمعنويَّات السيد أناجنوس فبالغت في الحديث عن الأمر مائة ضِعف. في سنةٍ واحدة، بعد أن ذهبت إلى هيلين كِيلَر لأوَّل مرَّة، وجدت الآنسة ساليڤان نفسها وتلميذتها مركزًا لحكاياتٍ عجيبة. وبعدها، كان يقول التربويُّون عنها في جميع أنحاء العالم ما يقولونه، وهو في أغلبه لم يكن يُسعِف الأمور. وهكذا تنامت كُتلَةٌ من القضايا المثيرةِ للجدَل فيما يخصُّ هذا الأمر، وهي أشياءُ قراءتها أمرٌ مُسَلٍّ في الوقت الحاضر. فمُعلِّمو الصُّمِّ أثبَتوا، دون إعمالٍ للفِكر، أنَّ ما أنجزَته الآنسة ساليڤان غيرُ مُمكِن، وأُبدِيَت بعض الشكوك في تقاريرها؛ لأنَّها كانت مُحاطةً ببلاغة السيد أناجنوس الغامضة. وبهذا فعندما رُوِيَت قِصَّةُ هيلين كِيلَر التي لا تُصدَّق، دون مُغالَاة، كان من سوء حظِّها أن تذيع محمَّلةً بتصريحاتٍ مُبالَغٍ فيها، وكان من الطبيعي أن تلقى إمَّا تصديقًا عن جَهل، أو عداءً نابعًا من الشَّكِّ.

في نوفمبر 1888، ظهر تقريرٌ آخر من معهد بيركنس به مقالةٌ أخرى للآنسة ساليڤان، ومن وقتها لم يُنشر أيُّ شيءٍ رسميًّا حتَّى نوفمبر 1891، عندما نشر السيد أناجنوس تقرير معهد بيركنس الأخير، حيث تضمَّنَ شيئًا عن هيلين كِيلَر. ولأجل هذا التقرير كتَبَت الآنسة ساليڤان أطولَ وأكملَ بيانٍ لها على الإطلاق، وفيه تطرَّقَت للحديث عن قضية "ملك الصقيع "، وهي مُتناوَلةٌ بالنِّقاش على نحوٍ تفصيليٍّ في فصلٍ آتٍ. وبهذا تعاظَمَ الجدَلُ أكثر من السَّابِق.

عندما وجدت أنَّه يبدو أنَّ الناس يعرفون الكثير عن هيلين كِيلَر أكثرَ مِمَّا كانت تعرف؛ التزمت الآنسة ساليڤان الصَّمت، وظلَّت صامتةً لعشر سنوات، باستثناء مقالها في العدد التذكاري لمعمل ومكتب ڤولتا عن هيلين كِيلَر، والمقال الذي أعدَّته عام 1894 نزولًا على طلب الدكتور بِلْ، لملتَقى تشاتاكوا للرابطة الأميركيَّة لدعم تعليم الكلام للصُّمِّ. عندما قال لها الدكتور بِل وآخرون -والذي هو يقينًا انطلاقًا من وجهةِ نَظرٍ مُتجرِّدةٍ موضوعيَّة- إنَّه يجبُ عليها انطلاقًا من الدافع التعليميِّ، أن تكتبَ ما تعرفه، وقد تجاوبَت هي مع هذا الطلب على نحوٍ لائقٍ؛ بما يفيد بأنَّها تدينُ بكلِّ وقتها وهِمَّتها لتلميذتها.

رغم أنَّ الآنسة ساليڤان ما يزال يُسلِّيها نوعًا ما أكثر مِمَّا يغضبها حينما يرتكبُ أحدهم أخطاءً -حتى ولو كان هذا الشخص هو أحد أصدقائها- في مقالاتٍ منشورة، بشأنها أو بشأن الآنسة كِيلَر، فهي ما زالت ترى أنَّ كتاب الآنسة كِيلَر ينبغي أن يتضمَّن كلَّ المعلومات التي باستطاعةِ معلِّمتها أن تقدِّمها في الوقت الحاضر. لذلك وافقت على نشر مُقتطفاتٍ من الخطابات التي كتبَتها خلال العام الأوَّل من اشتغالها مع تلميذتها. كُتِبَت تلك الخِطاباتُ إلى السيِّدة صوفيا س. هوبكنز؛ الشخص الوحيد الذي كانت تُكاتِبه الآنسة ساليڤان دومًا وتُكاشِفه بصراحة. كانت السيِّدةُ هوبكنز مُشرِفَةً في معهد بيركنس فترة عشرين عامًا، وخلال المدَّة التي قضتها الآنسة ساليڤان في معهد بيركنس كتلميذة، كانت السيدة هوبكنز بمثابة الأمِّ لها. تُمدُّنا تلك الخطاباتُ بسِجلٍّ أسبوعيٍّ تقريبًا لنشاط الآنسة كِيلَر. بعض التَّفاصيل كانت قد نَسيَتها؛ لأنَّها كانت تميلُ إلى تعميم الأمور بينما تكبرُ أكثر فأكثر. عديدٌ من النَّاس كانوا يعتقدون، أنَّ أيَّةَ مُحاولةٍ لاكتشافِ الأُسُس التي بُنيَت عليها طريقتها، لن تكون سوى نظريَّةً أُخرى تُراكِبُ فوق عمل الآنسة كِيلَر. لكن من الثَّابِتِ أنَّها كانت

تُقـدِّمُ تحليـلَّاتٍ واضحـةً في تلـك الخِطابـاتِ بشـأن مـا كانـت تقـوم بـه. لقـد كانـت ناقـدةَ نفسـها، ورغـم تصريحهـا الأخـير، والـذي قدَّمَتْـهُ بإغفـال ذاتهـا المتواضعـة، بأنَّهـا لم تكـن تتبـع منهجًـا مُحـدَّدًا، كان مـن الجَـليِّ أنَّهـا كانـت تتعلَّـم مـن مَهمَّتِهـا، وتصيغُ في الوقـتِ ذاتـه مبادئًـا للتعليـم ذات قِيمـةٍ فريـدة، ليـس فيـما يتعلَّـق بطريقـةِ تعليـم الصُّـمِّ فحسـب، إنَّمـا فيـما يخـصُّ طريقـة تعليـمِ جميـع الأطفـال. المقتطفـاتُ مـن خِطاباتِهـا وتقاريرهـا تُعـدُّ مُسـاهمةً جليلـةَ الشَّـأن في علـم أصـول التدريـس، وأكـثرُ مـن ذلـك يُـبرِّره رأيُ الدكتـور دانييـل س. غيلـمان، الـذي كتـب في عـام 1893، حينـما كان رئيسًـا لجامعـة چـون هوبكنـز:

"لقـد قـرأتُ لتـوِّي تقريـرك المثـير جـدًّا للاهتـمام، عـن الخطـوات العديـدة التـي قـد اتَّخذتِهـا في عمليـة تعليـم تلميذتِـك المدهِشـة، وأتمنَّـى أن تسـمحي لي بالتعبـير عـن إعجـابي بالحصافـة التـي قـادت طرائِقـك في التعليـم، وبالعاطفـة التـي ألهَمَـت جهـودِك المضنِيَـة".

وُلِدَت الآنسـة آن مانسـفيلد ساليـڤـان في سبرنغفيلد، بـماساتشوستس. صـارت تقريبًـا كفيفـةً تمامًـا في عهـدٍ مُبكِّـرٍ مـن حياتهـا، ودخلـت معهـد بيركنـس في السـابع مـن أكتوبـر، عـام 1880، عندمـا كانـت في الرابعـةَ عـشرة مـن عُمرهـا. عـاد إليهـا بَصرهـا جُزئيًّـا فيـما بعـد.

يقـول عنهـا السـيد أناجنـوس في تقريـره عـام 1887: "كانـت مُجـبَرةً على أن تبـدأ عمليـة تعليمهـا انطلاقًـا مـن أدنى المراحـل وأكثرهـا بدائيَّـةً، لكنَّهـا أظهـرت منـذ البدايـة أنَّهـا تحمـلُ في نفسـها القُـوَّةَ والمقـدرة مـا هـو كفيـلٌ بالنَّجـاح... لقـد بلغـت أخـيراً الهـدف الـذي ناضَلَـت بشـجاعة للغايـة لأجـل الوصـولِ إليـه. فتلـك الكلـمات الذهبيَّـة التـي فـاه بهـا الدكتـور هـاو والنَّمـوذج الـذي تركـه في إثـره تـسرَّبَ إلى قَلبِهـا وأفكارهـا، وأعانهـا في طريقهـا نحـو تحقيـق النَّفـع، وهـا هـي الآن تقـف بجانبـه كخَلَفِـه الكُـفْء، في واحـدٍ مـن أكـثر فـروع أعمالـه الثمينـة.

... إنَّ مواهب الآنسة ساليڤان هي من الطِّراز الأرقى".

في عام 1886 تخرَّجَت من معهد بيركنس. حينما تقدَّمَ النَّقيب كِيلَر إلى المدير بطلب مُعلِّمٍ لأجل هيلين، رشَّحها السيد أناجنوس. الوقت الوحيد الذي أُتيح لها كي تُعِدَّ نفسها للعمل مع تلميذتِها كان ابتداءً من أغسطس، 1886، وهو التوقيت الذي تقدَّم فيه والدها السيِّد كِيلَر بطلبه، وحتَّى فبراير 1887. خلال تلك الفترة كانت تقرأ تقارير الدكتور هاو. أعانها بعد ذلك واقعُ كونها، خلال الستَّةِ أعوامٍ التي قضتها في فترة مدرستها، عاشت بالمنزل الذي كانت تعيش فيه لورا بريدچمَن. كان الدكتور هاو -باشتغاله مع لورا بريدچمَن- هو ما جعل عمل الآنسة ساليڤان مُمكِنًا، لكن كانت الآنسة ساليڤان هي مَن اكتشف الطريقة لتعليم اللغة للصُّمِّ المكفوفين.

لا بُدَّ أن يكون في الحُسبان أنَّه تعيَّنَ على الآنسة ساليڤان أن تحلَّ مشاكلها التي واجهتها دون معونةٍ من خِبرةٍ سابقة، أو مُساعدةِ أيِّ معلِّمٍ آخر. خلال السنة الأولى من اشتغالها مع هيلين كِيلَر، والتي فيها لقَّنَت تلميذتها اللغة، كانا في توسكامبيا، وعندما قَدِمتَا إلى المنطقة الشَّماليَّة وزارتا معهد بيركنس، لم تكن هيلين كِيلَر مُطلقًا تلميذةً نِظاميَّةً هناك ولم تخضع للنظام التعليميِّ بالمعهد. الانطباع الذي تولَّد بأنَّ الآنسة ساليڤان قامت بتعليم هيلين كِيلَر "تحت إشراف السيد أناجنوس" هو انطباعٌ مغلوط؛ فأثناء السنوات الثلاث، التي كانت فيها الآنسة كِيلَر والآنسة ساليڤان، في مناسباتٍ عديدةٍ خلالها، ضَيفَتَيْن على معهد بيركنس، لم يكن المعلِّمون هناكَ يقدِّمون أيَّ عونٍ للآنسة ساليڤان، وحتَّى السيد أناجنوس، لم يكن يستخدم هجاء الأصابع على سبيل التسهيل كوسيلةٍ للتواصل. سجَّلَ السيد أناجنوس في تقرير معهد بيركنس، بتاريخ السابع والعشرين من نوفمبر 1888: "بناءً على طلبي العاجل، أتت هيلين، بصحبة أمِّها ومُعلِّمتها إلى المنطقة الشماليَّة في آخر أسبوعٍ من شهر مايو، وقضَينَ

عِـدَّة أسـابيعَ في ضيافتنـا... وقـد أسـعدنا أن نُتيـح لهـا أن تسـتخدمَ بحُرِّيَّـةٍ مكتبتنـا الخاصَّـة مـن الكتـب ذات الكتابـة البـارزة، وكذلـك مجموعتنـا مـن الحيوانـات المحنَّطَـة، وقواقـع البحـر، ونمـاذج الزهـور والنباتـات، وبقيَّـةَ أجهزتنـا المعـدَّة لتعليـم الصُّـمِّ عـبر حاسَّـة اللمـس. لا شـكَّ عنـدي أنَّهـا جَنَـت مـن ذلـك الكثـير مـن المتعـة، وكذلـك فائـدةً ليسـت بالقليلـة. لكـن سـواءً أَبَقِيَـت هيلـين في البيـت أو قامـت بزياراتِهـا في مناطـق أخـرى مـن القُطـر، فـإنَّ عمليـة تعليمهـا هـي دومًـا تحـت الإشراف المبـاشر والتَّوجيـه الحـصري مـن قِبَـل مُعلِّمتهـا. لا أحـد يتدخَّـلُ في خُطـط الآنسـة ساليـڤـان، ولا يُسـاهِمُ في أداءِ مهامِّهـا. لقـد مُنِحَـت حُريَّـةً مُطلَقَـةً في اختيـار الوسـائل والطرائـق لأجـل تنفيـذ مهمتهـا الجليلـة، وحيـث أنَّـه في وسـعنا الحكـم مـن خـلال النتائـج، فقـد أحسَـنَت اسـتخدام هـذا الامتيـاز عـلى نحـوٍ يتَّصِـفُ بأقـصى درجـات الحصافـةِ والحـذَر. فـما أنجزتـه التلميـذة الصغـيرة نِتاجًـا لهـذا هـو أمـرٌ ذائـعٌ ومعـروفٌ عـلى نِطـاقٍ واسـع، ومـا حقَّقتـه مـن نجاحـاتٍ مدهشـة لهـو أمـر يسـتحقُّ إعجـاب الجميـع، لكـن وحدهـم مَـن خَـبِروا خُصوصيَّـاتِ هـذا الإنجـاز الرَّفيـع يدركـون أنَّ الفضـلَ يرجـعُ عـلى نحـوٍ عظيـمٍ إلى الـذَّكاء، والحِكمـة، والبصـيرة، والـدَّأب الـذي لا ينقطـع والعزيمـة التـي لا تلـين، التـي تتحـلَّى بهـا المعلِّمـة، التـي انتشـلت الطِّفلـةَ مـن أغـوار ليـلٍ أَبَـديٍّ وصمـتٍ مُطبِـق، وراقبـت حالاتهـا الذِّهنيَّـة المتغـيِّرَة وتطوُّرَهـا المعنـويَّ بعنايـةٍ أموميَّـةٍ مُفرِطـة، وإخـلاصٍ يتَّسِـمُ بالحماسـة".

يتبع هنـا خطابـاتُ الآنسـة ساليـڤـان بالترتيـب، وكذلـك أهـمُّ المقاطـع المقتبسـة مـن تقاريرهـا. ولقـد أغفلـتُ مـن كلِّ تقريـرٍ آتٍ مـا قـد أُسهِـبَ في شَرحـه بالفعـل، ومـا لا حاجـة لتكـراره. وتسـهيلًا عـلى القـارئ، وبموافقـة الآنسـة ساليـڤـان، فقـد دمجـتُ بالتَّتابـع المقتطفـات مـع بعضهـا البعـض، وزوَّدتُهـا بكلـماتِ وصـلٍ بينهـا، وأجريـت التغيـيرات النَّحويـة الضروريـةِ الناتجـة عـن هـذا، وقـد أجـرت الآنسـة ساليـڤـان تغيـيراتٍ طفيفـةً عـلى صياغـةِ تقاريرهـا، وعـلى خِطاباتِهـا أيضًـا، التـي كانـت مكتوبـةً عـلى نحـوٍ

غير تامِّ الإتقان. وقد وَسمتُ بضع مقاطع مهمَّة بالحرف المائل. كانت الآنسة ساليڤان ترغب أن تتوسَّعَ في بعضٍ من آرائها وأن تعيد النَّظَر. يبقى هذا أمرًا تقومُ به في وقتٍ آخَر. في حوزتنا في الوقت الحاضر التسجيل الأكمَل الذي نُشِر. الخطاب الأول بتاريخ السادس من مارس، 1887، كتبته بعد ثلاثةِ أيَّامٍ من قدومها إلى توسكامبيا.

"... كان الوقتُ السادسة والنِّصف صباحًا عندما وصلتُ توسكامبيا. وجدتُ السيِّدة كِيلَر والسيِّد چيمس كِيلَر في انتظاري. أخبراني أنَّ أحدهم كان ينتظر كلَّ قِطارٍ يأتي في المحطة لمدة يومين. القدوم بالسيَّارةِ من المحطَّة إلى المنزل -وهي مسافة تبلغ ميلًا واحدًا- كانت رحلةً لطيفةً ومريحة. وقد دُهشتُ حين وجدتُ أنَّ السيدةَ كِيلَر تبدو امرأةً يافعةً للغاية، ليست تكبرني بكثير، هكذا أظنُّ. قابلنا السيّد كِيلَر في فناء البيت ورحَّبَ بنا ترحيبًا مُبهجًا وصافحنا بحرارة. كان سؤالي الأول هو: (أين هي هيلين؟). حاولتُ بكلِّ قدرتي أن أتحكَّم في التلهُّف الذي أصابني برعشةٍ في جسدي، لدرجة أنَّه لم يكن باستطاعتي أن أسير. بينما نقتربُ من المنزل، رأيتُ طِفلةً تقفُ في مدخل المنزل. وعندها قال السيّد كِيلَر: (ها هي. كانت عارفة طول اليوم أنَّ أحدهم يُنتظَرُ قُدومُه، وكانت تتصرَّف بوحشيَّة مذ أن ذهبت أمُّها إلى المحطة للقائِكِ). بِوَجَلٍ وضعتُ قدمي وصعدتُ درجات السُّلَّم، عندها اندفعت نحوي بتلك القوَّة التي كان من شأنها أن تُلقي بي إلى الوراء وتُسقِطني، إن لم يكن السيّد كِيلَر ورائي. تحسَّسَت وجهي وفُستاني وحقيبتي، وخلعَتْها من يدي وحاولَت أن تفتحها. لم تنفتح بسهولة، فتحسَّسَت بيدها بحِرصٍ لتتبيَّنَ إذا ما كان هُنالك ثُقبٌ لمِفتاح. وعندما اكتشفت أنَّ هناك ثقبًا لمِفتاح، تحوَّلت نحوي، ورسمت إشارة تصوِّرُ أنها تدير مِفتاحًا وأشارت إلى الحقيبة. عند هذه النقطة تدخَّلَت أمُّها وأبدت لهيلين بالإشارات أنَّه لا يجب أن تفتح الحقيبة. توردَّ وجهها، وحينما حاوَلَت أمُّها أن تأخذ منها

الحقيبـة، تصاعَـدَ غضبهـا. جذبـتُ انتباههـا بـأن عرضـتُ عليهـا سـاعتي وسـمحتُ لهـا أن تُمسـك بهـا في يدهـا. فسـكنت ثورتهـا في الحـال، وصعدنـا معًـا إلى الطابـق الثـاني. ونحـن في الطابـق الثـاني فتَحَـت الحقيبـة، وانطلقَـت تتفحَّصهـا في لهفـةٍ- لعلَّهـا كانـت تتوقَّـع أن تقـع عـلى شيءٍ تأكلـه. كان الأصدقـاء يجلبـون معهـم الحلـوى في حقائبهـم لأجلهـا، فكانـت تتوقَّـعُ أن تجـد بعضًـا منهـا في حقيبتـي. أشرتُ لهـا ناحيـةَ حقيبـةٍ كبـيرة في الصالـة ثـمَّ إليَّ، وأومأمـتُ بـرأسي، وجعلتهـا تفهـم أنَّ معـي حقيبـة سـفر كبـيرة، ثـم رسَـمَت إشـارةً تفيـدُ بأنَّهـا كانـت تنتفـعُ منهـا لأجـل أغـراض الأكل، ثـم أومَـأَت برأسـها مُجـدَّدًا. وفي لمـح البـصر فهمَـت وهرعـت نازلـةً إلى الطابـق الأول كي تخـبر أمَّهـا، عـبر إشـاراتٍ جازِمـة، أنَّ هنـاك بعـض الحلـوى لأجلِهـا في حقيبـةٍ كبـيرة. رجعـت في غضـون بضـع دقائـق وسـاعدتني كي أُخـرج أشـيائي. كان مـن المضحـك رؤيتُهـا وهـي تعتمـرُ قلنسـوَتي وتميـل برأسـها عـلى جانـبٍ في تبخـتُر، ثـمَّ تُجـرِّبُ ارتـداء أُخـرى، وتنظـر لنفسـها في المـرآة، تمامًـا كـما لـو كان باسـتطاعتها أن تُبـصر. كنـتُ أتوقَّـعُ نوعًـا مـا أن أجـد طِفلـةً شـاحبةً، هزيلـة.. أتصـوَّر أنَّنـي قـد تأثـرتُ بهـذا التصـور النَّابـع مـن وصـف الدكتـور هـاو للـورا بريدچـمَن عندمـا قدِمَـت إلى المعهـد. لكـن لا يبـدو عـلى سـيماء هيلـين أيُّ مَخايـلَ شـاحِبَةٍ أو هزيلـة. فهـي فارعـة البِنيـة، قويَّـة، وجههـا ضـاربٌ إلى الحُمـرة، وإنهـا أيضًـا لـمُفرِطةُ الحركـةِ كمُهـرٍ فَتِـيٍّ. عـاداتُ العصبيَّـة التـي تسِـمُ تصرُّفـات الأطفـال المكفوفـين بجـلاءٍ، والتـي تثـير الكثـير مـن الشَّـغب، ليسـت مـن خِصالِهـا. جسـدها بكامـل العافيـة ومُفعـمٌ بالحيويَّـة، وتقـول السـيدة كِيلَـر إنَّهـا لم تمـرض يومًـا منـذ أن أصابهـا المـرض الـذي حرمهـا مـن السَّـمع والإبصـار. إنَّ لهـا رأسًـا بديعـة، وتتموضـعُ بـين كَتِفَيْهـا كـما ينبغـي. وجههـا يصعـب وصفُـه. تبـدو عليـه مخايـل النَّباهـة، لكنَّـه يفتقـدُ طابـع الليونـة، أو الـرُّوح، أو يفتقـد شـيئًا مـا. فَمُهـا عريـضٌ وذو شـكلٍ لطيـف. بإمكانـك أن تـدرك مـن أول نظـرة أنَّهـا مكفوفـة. إحـدى عينيهـا أكـبر مـن الأخـرى، وتجحـظ عـلى

نحـوٍ مُلاحَـظ. إنها نـادرًا مـا تبتسـم، أنـا فعـلًا لم أرهـا تبتسـم إلَّا مـرَّة أو مرَّتـين منـذ أن جِئـت. هـي لا تُبـدِي أيَّ اسـتجابةٍ ولا حتـى صـبرًا إزاء ملاطفـات أيِّ إنسـانٍ عـدا أمِّهـا. إنَّهـا جِـدُّ متصلِّبـةٍ وسريعـة الغضـب، ولا أحـد قـد حـاول ضَبطَ هـذا إلا أخوهـا چـيمس. المشـكل الأعظـم الـذي تعـيَّن عـليَّ مواجهتـه، هـو كيفيَّـةُ تأديبهـا وإبقائهـا قيـد السـيطرة دون تحطيـم معنويَّاتِهـا. حيـث ينبغـي عـليَّ أن أمـضي في بدايـة الأمـر عـلى نحـوٍ وئيـد، وأحـاولَ كَسـبَ مَحبَّتهـا. لا ينبغـي أن أُحـاوِل إخضاعهـا بالقـوَّة وحدهـا، لكـن ينبغـي أن أستمسـكَ بدرجـةٍ معقولـة مـن الطاعـة مـن جانبهـا مـن البدايـة. أحـدُ الأشـياء التـي تثـيرُ دهشـة الجميـع هـو نشـاطُ هيلـين الـذي لا يـكِلّ. فهـي لا تبقـى هادئـةً أبـدًا للحظـة. فتجدهـا هنـا، هنـاك، وفي كلِّ مـكان. تُشـارك في كلِّ شيء، لكـن لا شيء يسـتحوذ عـلى اهتمامهـا لفـترةٍ طويلـة. يـا للطفلـة العزيـزة؛ إنَّ رُوحَهـا القَلِقـة تتلمَّـسُ طريقهـا في الظـلام. يداهـا غـير المدرَّبَتَـيْن، المسـتاءتَيْن تُدمِّـران أيَّ شيءٍ تطالـه؛ لأنَّهـما لا تدريـان أيَّ شيءٍ آخـر يمكـن أن تفعـلاه بـه.

سـاعدتني في إفـراغ حقيبـة السَّـفر عندمـا جِـيء بهـا، وكانـت فرحانـة عندمـا وجـدت الدُّميـة التـي بعثـت بهـا الفتيـات الصغـيرات إليهـا. تبيَّنـتُ أنَّهـا فُرصـةٌ مواتيـةٌ لـكي أُعلِّمهـا كلمتهـا الأولى. تهجَّيـت لهـا (دُ-م-يَ-ة) في يدهـا ببُـطءٍ، وأشرتُ ناحيـة الدُّميـة وأومـأتُ بـرأسي، وهـو مـا يُفهـمُ عـلى أنَّهـا علامـةٌ امتلاكهـا إيَّاهـا. متـى مـا يعطيهـا أحـدٌ أيَّ شيء، تُشـير نحـو الـشيء، ثـم إلى نفسـها، وتومِـئ برأسـها. لقـد بـدَتْ حائـرة، وتحسَّسَـت يـدي، وأعـادت ترديـدَ الحـروف عـلى يدهـا. كانـت تُحـاكِي الحـروف بإتقـان، وأشـارت ناحيـة الدُّميـة. ثـمَّ أخـذتُ منهـا الدُّميـة، مُفْهِمَـةً إيَّاهـا أنِّي سـوف أُعيدهـا إليهـا عندمـا تكـون قـد ردَّدَت الأحـرف، لكنهـا ظنَّـت أنِّي أقصـد بأنَّنـي سـوف آخذهـا منهـا، وفي لحظـةٍ تصاعَـدَ غضبهـا، وحاولَـت التشـبُّثَ بالدُّميـة. هَـزَزْتُ رأسي وحاولـت تشـكيل هيئـة الأحـرف عـلى أصابـع يدهـا، لكـن اشـتدَّ غضبهـا أكـثر وأكـثر. فأجبرتُهـا عـلى الجلـوس

إلى كُرسيٍّ وقيَّدتُها إليه إلى أن استنفدت طاقتي تقريبًا. حتى خطر لي أنَّه لمن العبث مواصلة الصِّدام معها- عليَّ القيام بشيءٍ يحوِّل مسار أفكارها. حرَّرتها، لكنِّي رفضتُ إعطاءها الدُّمية. نزلتُ للطابق الأسفل وحصلتُ على بعض الكعك (إنَّها مُغرمَة جدًّا بالحلويات). استعرضتُ لها قطعة الكعك وتهجَّيت لها في يدها (ك-ع-ك-ة)، وأنا مُمسِكة بقطعة الكعك باتجاهها. هي طبعًا كانت ترغبُ في الكعكة وأرادت أن تأخذها، غير أنَّني تهجيَّتُ الكلمة مُجدَّدًا وربَّتُّ على يدها. رسمَت بيدها أحرف الكلمة على وجه السُّرعة، فأعطيتها قطعة الكعك، وقد التهمَتْها بنهمٍ عظيم، عندها كنتُ أفكِّر أنَّه لربَّما يُفترض بي أن آخذ الكعكة من يدها. بعد ذلك استعرضتُ لها الدُّمية وتهجَّيتُ الكلمة مُجدَّدًا، ومددتُ يدي بالدُّمية باتجاهها بينما أنا مُمسكةٌ بالكعكة. أدَّت الأحرف (د-م-ي) وأدَّيتُ أنا لها الحرف الأخير (ة)[1] وأعطيتها الدمية. هرعَت بها نازلةً إلى الطابق الأسفل، ولم يكن في المستطاع استمالتها كي تعود إلى غرفتي طوال اليوم.

أمس أعطيتُها بطاقة حياكة كي تُنجزها. أنجزتُ أنا الصَّف الأول من السطور الرأسيَّة، وتركتها تتحسَّسها وتلاحظ أنَّه كانت هناك صفوفًا عديدة بها ثقوب صغيرة. بدأت في الاشتغال عليها وكُلُّها بهجة، وأنجزت البطاقة في غضون دقائق قليلة، وأنجزتها فعلًا على نحوٍ مُرتَّبٍ للغاية. فكَّرتُ بأنَّني ربَّما أجرِّب مع كلمةٍ أخرى، فتهجَّيتُ (c-a-r-d) [بطاقة]. أدَّت حَرفَي (c-a) ثمَّ توقَّفَت وتفكَّرَت، ثمَّ أدَّت إشارة الرغبة في الأكل، وبينما هي تشير ناحية الطابق الأسفل دفَعَت بي ناحية الباب، قاصدةً أنِّي ينبغي عليَّ النزول كي آتيها ببعض الكعك. الحرفان (c-a) كما ترين، قد ذكَّرها بـ (دَرس) يوم الجمعة- وليس

(1) الحرف المقصود هنا هو حرف L، وهو الحرف الأخير المكرَّر من الكلمة الإنجليزيَّة doll، فَعِلَّةُ إسقاطها للحرف هو تكراره في اللغة الأصل، وبالتالي اختلاط الأمر عليها، وليس النِّسيان في المقام الأول، ومقابل الكلمة في العربيَّة لا يتوفَّرُ على حرفٍ مُضاعَف. (المترجم)

لأنَّـه كان عندهـا أيُّ فكـرة عـن كـون كلمـة cake هـي اسـم الـشيء، لكـن لأنَّ الأمـر ببسـاطة كان عبـارة عـن تداعيـاتٍ وروابـط، حسـب ما أعتقـد. أنهيـتُ تهجئـة كلمـة (c-a-k-e). ثـمَّ أَطَعـتُ أمرهـا. ابتهَجَـت لهـذا. ثـمَّ تهجَّيـتُ كلمـة (d-o-l-l) وبـدأتُ أبحـثُ عنهـا. إنَّهـا تتبـعُ بيديهـا كلَّ حركـةٍ تصـدر منـك، وكانـت تعلـم أنَّنـي أبحـث عـن الدميـة. فأشـارت إلى الأسـفل، تقصـد أنَّ الدُّميـة موجـودة بالطَّابـق الأسـفل. رسـمتُ الإشـارة التـي اسـتخدمتها عندمـا أرادتنـي أن أنـزل للطابـق الأسـفل لأجـل الكعـك، ثـم دفعـت بهـا ناحيـة البـاب. بـدَأَت بالسـير قُدُمًـا، ثـمَّ تـردَّدَت لوهلـة، وهـي تتنـازعُ الأمـر في نفسـها عـلى نحـوٍ بَـيِّن؛ هـل سَـوفَ تنـزل، أم لا. قـرَّرَت أن تُرسـلني بـدلًا منهـا. هــززتُ رأسي وتهجَّيــتُ لهـا (دُ-م-ي-ة) عـلى نحـوٍ أكـثر تصميـمًا، ثـمَّ فتحـتُ لهـا البـاب، لكنَّهـا عـن عنَـادٍ رفضـت أن تُطيـع وتنـزل. لم تكـن قـد أنهـت قطعـة الكعـك التـي كانـت تأكلهـا، فأخذتُهـا منهـا، مُوحيـةً إليهـا أنَّهـا لـو ذهبـت وأحـضرت الدُّميـة فسـوف أُعيـدُ إليهـا قطعـة الكعـك. تصلَّبَـت تمامًـا واقِفَـةً لوقـتٍ طويـل، واحمـرَّ وجههـا غضبًـا، ثـمَّ طَغَـت عليهـا رغبتهـا في الكعكـة، فهرعـت إلى الطابـق الأسـفل وأحـضرت الدُّميـة، وأعطيتُهـا أنـا طبعًـا قطعـة الكعـك، غـير أنَّنـي لم أسـتطع إقناعهـا بدخـول الغرفـة مُجـدَّدًا.

كانـت مشـاغِبَةً جـدًّا عندمـا بـدأتُ أكتـبُ هـذا الصبـاح. ظلَّـت تـأتي مـن ورائي وتضـع يدهـا عـلى الورقـة ثـم تضـع يدهـا في دواة الحِـبر. لطخـات الحـبر هـذه التـي عـلى الورقـة هـي مـن صُنـع يديهـا. تذكَّـرتُ أخـيرًا أنَّ هنـاك لعبـة الخـرزات المخصَّصـة للأطفـال في الحضانـة، ثـم ألزمتُهـا بنَظمهـا في خيـوط. نظمـتُ أنـا أوَّلًا خرزتَـيْن خَشَـبيَّتَيْن وخـرزة مـن الزجـاج، ثـم جعلتهـا تتحسَّـس بيدهـا الخيـط وصندوقَـي الخـرزات. أومـأت برأسـها موافقـةً ثـم شرعـت لتوِّهـا في مـلء الخيـط بخـرزاتٍ خشـبيَّة. هـززتُ رأسي مُنكِـرةً وخلعـتُ الخـرزات كلَّهـا وجعلتُهـا تتحسَّـسُ الخرزتـين الخشـبيَّتَيْن والخـرزة الزجاجيَّـة. تفحَّصَتهـا في تأمُّـلٍ ثـم عـاودت

البدء من جديد. وضعت الخرزة الزجاجية أوَّلًا هذه المرَّة، ثم أتبعتها بالخرزتين الخشبيَّتَيْن. خلعتهما وبيَّنتُ لها أنَّه لا بُدَّ أن تُوضع الخرزتان الخشبيَّتان أوَّلًا، ومن ثَمَّ الخرزة الزجاجيَّة. عندئذٍ لم يكن أمامها أيُّ مشكلةٍ أخرى، وملأت الخيط بسرعة- لقد ملأته بسرعةٍ جدًّا في الحقيقة. رَبَطَت نهايتَي الخيط معًا عندما فرغت من ملئه، وارتدته حولَ عُنقِها. لم أجعل العقدة كبيرة بما يكفي في الخيط التالي، فانفرطت الخرزات من الخيط بسرعة جدًّا ما إن وَضَعَتها فيه، لكنَّها حلَّت تلك المعضلة، بأن أدخلت الخيط في خرزةٍ وربَطَتها. رأيتُ أنَّ ذلك تصرُّفًا ماهرًا للغاية. بقيت تُسلِّي نفسها بالخرزات حتَّى حان وقت العَشاء، وكانت تأتي لي بالخيوط المنجَزة بين الفينة والفينة طَلَبًا لاستحساني.

عيناي مُلتهبتان جدًّا. أعلمُ أنَّ هذا الخِطاب ليس مكتوبًا بما يكفي من عناية. كان عندي الكثير لأقوله، ولم أستطع الكَفَّ عن التفكير في كيفيَّة الإبانة عن بعض الأشياء على نحوٍ مُرتَّب. رجاءً لا تُظهري أحدًا على هذا الخِطاب. أمَّا إن أردتِ، فبإمكانكِ قراءته على أصدقائي".

الاثنين، مساءً

لقد خُضتُ مع هيلين صِراعًا عظيمًا هذا الصَّباح. رغم أنَّني أُحاول جاهدةً ألَّا أفرِضَ أُمورًا، اكتشفتُ أنَّه من العسيرِ تفادي ذلك.

سلوكيَّاتُ هيلين على طاولة الطَّعامِ أمرٌ مُفزِع. فهي تغمس يديها في أطباقنا كأنها أطباقُها، وعندما تُمرَّرُ الصُّحون، تتشبَّث بها وتلْقَفُ منها أيَّما شاءت. لم أسمح لها هذا الصباح بأن تضع يدها في طبقي. عانَدَت، وتَبِع هذا نِزاعٌ بين الأهواء. من البديهي أنَّ العائلة كانت منزعجة جدًّا، وغادر الجميعُ الغُرفة. أوصدتُ باب غرفة الطَّعام، وواصلتُ تناول إفطاري، رغم أنَّ الطعام كان بالكاد يسدُّ رَمَقي. هيلين

كانت راقِدَةً على أرضية الغرفة، ترفس وتصرخ وتحاول انتزاع الكرسي من تحتي. واصَلَت فِعل هذا مدَّةَ نصف ساعة، ثمَّ نهَضَت لتتبيَّن ماذا كنتُ أفعل. تركتها تفهم أنَّني كنتُ آكل، لكن لم أسمح لها أن تضع يدها في الطَّبَق. قرصتني، وكنتُ أصفعها في كلِّ مرةٍ تفعلُ هذا. ثم دارت حول الطَّاولة كي تعرف مَن موجود بالغرفة، وعندما لم تجد هناك من أحدٍ سواي، جُنَّ جُنونُها. عادت إلى مكانها بعد بضع دقائق، وشرعت في تناول إفطارها مستعينةً بأصابِعها. أعطيتها مِلعقَةً، رَمتها على الأرض. أجبرتُها على النُّهوضِ من الكُرسيِّ والتقاط الملعقة. أفلحتُ بنهاية الأمر في جَعلها تعود إلى كُرسيِّها وتمسك الملعقة في يدِها، مُرغِمةً إيَّاها أن ترفع بها الطَّعامَ وتضعه في فَمِها بالقوَّة. وفي غضون دقائق قليلةٍ استسلَمَت وأنهت تناول إفطارها على نحوٍ مُسالِم. ثمَّ جرَت بيننا مُشادَّةٌ أخرى حول طَيِّ منديل المائدة. فعندما انتهت من الأكل، ألقت بالمنديل على الأرضيَّة وأسرعت للخروج من باب الغرفة. وعندما تَبيَّنَت أنَّه مُوصَدٌ دونها، بدأت تصرخ وتركُل كلَّ شيء. مرَّت ساعةٌ أخرى قبل أن أتمكَّن من جعلها تطوي منديل المائدة. ثمَّ سمحتُ لها أن تخرج لتَنعَمَ بأشعَّةِ الشَّمس التي تبعث الدِّفء، وعُدتُ إلى غُرفتي وألقيتُ بجسدي على السرير خائرة القوى. انخرطتُ في بكاءٍ برِئتُ بعده وأحسستُ أنِّي بحالٍ أفضل. أظنُّ أنَّه سوف يتعيَّنُ عليَّ أن أخوض نضالاتٍ مع السيِّدةِ الصغيرة قبل أن تتعلَّم الشَّيئَيْن الجوهريَّين اللَّذين باستطاعتي أنْ أُعلِّمها إيَّاهما فحسب: الطَّاعة، والمحبَّة.

إلى اللقاء عزيزتي. لا تقلقي، سوف أبذلُ قُصارى جُهدي، وأعهد بأمر الباقي مِمَّا لا نقدر على فِعله، بأن يروِّضه فَرضُ القوة. أنا معجبة جدًّا بالسيِّدة كِيلَر.

توسكامبيا، ألاباما، 11 مارس، 1887.

منذ أن كاتبتُك، ذهبتُ وهيلين كي نعيش معتمدتين على أنفسنا، في منزلٍ به حديقة صغيرة، على بُعد ربع ميلٍ تقريبًا من بيتها، تفصله مسافةٌ صغيرةٌ عن بيت اللبلابة الخضراء؛ بيت آل كِيلَر. اتخذتُ قرارًا عاجِلًا للغاية، وهو أنَّني ليس في وُسعي إنجاز شيءٍ وهيلين تعيش في كَنَفِ العائلة؛ فلطالما كانوا يسمحون لها بِفِعلِ ما يحلو لها تمامًا. لقد كانت تُمارِسُ الاستبداد على الجميع، على أبيها، على أمِّها، على الخَدَم، على الأطفال الصِّغار الزُّنوج الذين كانوا يلعبون معها، ولم يسبق أن نازعها أحدٌ في فرض مشيئتها، باستثناء أخيها چيمس في بعض المواقف، إلى أن جئت، وكحال جميع المستبدِّين؛ فهي تستمسكُ بعنادٍ بحقِّها الإلهيِّ في فِعل ما يسرُّها. وإن حدث وأخفقت في نَيل ما تشاؤه، تكون عِلَّةُ هذا عدم مقدرتها إفهامَ تابعيها من أهل البيت ما تَرغبُ به. كلُّ رغبةٍ مُعارِضةٍ هي مؤشِّرٌ لسَورةِ غضبٍ حادَّة، وكُلَّما كبرت واشتدَّ بَأسُها، عواصِفُ الغضب تلك كانت تشتد وتصير أكثر عُنفًا. عندما بدأتُ تعليمها، كنتُ محاصَرةً بالعديد من المصاعِب. لم تكن تستسلمُ أمام أمرٍ دون منازعةٍ للوصول إلى النهاية المريرة. لم يكن باستطاعتي تملُّقها أو مساوَمَتُها. فَكَيْ أحمِلها على فِعل أبسطِ الأشياء؛ كأن تُمشِّطَ شعرها مثلًا أو تغسل يديها أو تربط حذائها، كان من الضروريِّ استخدامُ القوَّة، وبالطَّبع، كان يلي هذا مشهد مُزعج. كان طبيعيًّا أن تشعر العائلة بميل للتدخُّل، خاصَّةً والدها، الذي لم يكن يَحْتَمِلُ رؤيتها تبكي. لذا كان الجميع يرغبون في الاستسلام طَلَبًا للسلام. علاوةً على هذا، فخبراتها الماضية وروابطها الذِّهنيةُ كانت جميعها تعمل ضدِّي. كنتُ أرى جَليًّا أنَّه من العبث محاولة تعليمها اللغة أو أيَّ شيءٍ آخر إلى أن تتعلَّم أن تُطيعني. لقد أوليتُ الأمر الكثير من التفكير، وكلَّما فكَّرتُ أكثر، كلَّما صرتُ أكثرَ يقينًا بأنَّ الطَّاعة هي المدخل الذي عَبْرَه سوف تَلِجُ المعرفة، نعم؛ المعرفة، وكذلك

المحبَّـة، إلى داخـل عقـل الطِّفلـة. وكـما كتبـت لـكِ وأخبرتـكِ مـن قبـل، لقـد قصـدتُ أن أمـضي في الأمـر بُبـطءٍ في البدايـة. كان عنـدي فِكـرة، وهـي أنَّـي بإمـكاني الفـوز بمحبَّـةِ تلميـذتي الصغـيرة وبثقتهـا بنفـس الوسـائل التـي كنـتُ لأسـتخدمها إن كان في إمكانهـا السَّـماع والإبصـار. غـيرَ أنَّنـي سريعًـا مـا اكتشـفتُ أنَّنـي مقطوعـةٌ عـن جميـع الطُّـرق المألوفـة التـي تقرِّبنـي مـن قلـب الطِّفلـة. لقـد تقبَّلَـت كلَّ شيءٍ قمـتُ بـه لأجلها كواقـعٍ يجـب التسـليم بـه بالطَّبـع، وكانـت ترفـضُ ملاطفتـي، ولم يكـن هنـاك مـن سـبيلٍ للاحتـكام إلى عاطفتهـا أو وجدانهـا أو الحـبِّ الطفـوليِّ للاستحسـان. سـواءٌ شـاءت أم أبَـت، كان لا بُـدَّ لهـذا الأمـر مـن حَـدٍّ. هـا نحـنُ ذا عـلى هـذا النَّهـج؛ نـدرس، نخطِّـط ونهيِّـئ أنفسـنا لأداء مهمَّـةٍ مـا، وحينـما تحـين سـاعة التنفيـذ، نكتشـف أنَّ النظـام الـذي قـد اتَّبعنـاه بمثـل هـذا الكَـدِّ والزَّهـو لا يتناسـب مـع مُقتـضى الحـال، وعندئـذٍ لا يكـون في جُعبتنـا شيءٌ نقـوم بـه، سـوى أن نعـوِّلَ عـلى شيءٍ مـا فيـما بيننـا؛ إنهـا قُـدرة فِطريَّـة عـلى المعرفـة والعمـل كانـت كامنـةً فينـا، والتـي لم نكـن نـدرك أنَّنـا نمتلكهـا، إلى أن أخرجتهـا إلى النـور حاجتُنـا الجليلـة.

لقـد خُضـت محادثـةً صريحـةً ومثمِـرةً مـع السـيِّدة كِيلَـر، وشرحـتُ لهـا أنَّـه سـيكون مـن العسـير مواصلـة فعـل أيِّ شيءٍ مـع هيلـين في ظـلِّ الظـروف القائمـة. أخبرتُهـا أنَّـه في رأيـي، ينبغـي أن تنفصِـلَ الطفلـة عـن عائلتهـا مـدة بضـع أسـابيع عـلى الأقـل؛ فمـن الـلازم أن تـدرك أنَّـه يتعـيَّنُ عليهـا الاعتـمادُ عـليَّ، ويجـب عليهـا أن تُطيعَنـي، قبـل أن أتمكَّـن مـن إحـراز أيِّ تقـدُّم. قالـت لي السـيدة كِيلَـر بعـد وقـتٍ طويـلٍ إنَّهـا سـتُفكِّر في الأمـر، وسـوف تسـتطلعُ رأي السـيِّد كِيلَـر في مسـألة إرسـال هيلـين بعيـدًا في معيَّتـي. صـادَق السـيِّد كِيلَـر عـلى الخطَّـة، وكان عـلى أكمـل اسـتعداد، واقـترح بـأنَّ المنـزل ذا الحديقـة الصغـيرة القائـم في "البقعـة القديمـة" سـيكون جاهـزًا مـن أجلنـا. قـال إنَّ هيلـين ربَّمـا تتعـرَّف المـكان؛ فكثـيرًا مـا كانـت تمكـث هنـاك، لكـن لـن يكـون عندهـا أيُّ فكـرةٍ عـن الأجـواء

المحيطة بها، وسيكون في وسعهم المجيء كلَّ يوم ليتأكَّدوا أنَّ الأمورَ تسيرُ على أحسن حال، مع تفهُّمِهِم طبعًا أنَّه ينبغي ألَّا تعرف هيلين بأمر زياراتِهم. عجَّلتُ في التجهيزات اللازمة لمغادرتنا بقدر المستطَاع، وها نحن هنا.

إنَّ المنزلَ الصغيرَ لهو قِطعةٌ خالِصةٌ من الجنَّة. يتألَّفُ المنزلُ من حجرةٍ صغيرةٍ مُربَّعة بها مدفأةٌ كبيرة، مَشربيَّة فسيحة، وحجرة صغيرة ينام فيها خادمنا، وهو غلامٌ زنجيّ. هناك شرفة تُغطِّيها عند المقدِّمة أشجار كرومٍ تنمو بكثافةٍ على نحوٍ مُترَف، حتَّى أنَّك تضطر أن تفرِقها كي تتمكَّنَ من رؤية الحديقة القائمة فيما ورائها. يؤتَى إلينا بوجَباتنا من البيت، وعادةً ما نتناول طعامنا في الشُّرفة. الغُلامُ الزنجيُّ الصغير يتكفَّلُ بأمر المدفأة عندما نحتاج إليها، وبهذا يكون في استطاعتي أن أصرفَ كامل انتباهي إلى هيلين.

كانت هيلين ساخطةً على نحوٍ عظيم في بادئ الأمر، وكانت ترفس، وتصرخ تقريبًا في حالةٍ من الذُّهول، لكن عندما يُؤتى بالعَشاء كانت تأكل بنهَمٍ ويُشرِقُ مُحيَّاها أكثر، ومع ذلك كانت ترفضُ أن ألمسها. ندَبت نفسها لعرائسها في المساء الأوَّل، وعندما حان وقت النوم خلعت ملابسها في هدوء، لكنَّها عندما أحسَّت أنِّي اندسستُ في السرير معها، قفزت منه إلى الجانب الآخر، ولا شيء كان في وسعي فِعله، من شأنه أن يستحثَّها كي تعدِلَ عن سلوكها وتعودَ للسرير. بَيدَ أنَّني خشيتُ أن تُصابَ بنزلة برد، وأصررتُ أنَّه يجب عليها أن تعودَ للسرير. أقولُ لكِ إنَّنا انخرطنا في مُشادَّةٍ مريعة. تواصل النزاع ساعتين تقريبًا. إنَّني لم أشهد من قبلُ صلابةً وجَلَدًا في طفلٍ هكذا. ولحسن حظِّ كِلْتَيْنا أنَّني أقوى منها قليلًا، وأُماثِلها تقريبًا في العِناد كما أعتقد. أفلحتُ بالنهاية في الإتيان بها للسرير، وغطَّيتُها، فاضطجعت متكوِّرةً على نفسها قدر ما استطاعت على حافَّة السرير.

في الصباح التالي كانت مِطواعةً تمامًا، لكن كان اشتياقُها للبيت حالًا ظاهرا. ظلَّت تذهب إلى الباب، كما لو كانت تتوقَّعُ قدومَ أحدِهم، وبين وقتٍ وآخر تلمسُ خَدَّها، وكانت تلك إشارة عن أمِّها، وتهزُّ رأسها في حزن. كانت تلعبُ بعرائسها أكثر من المعتاد، ولم تكن تشاركني في فِعل أيِّ شيء. من المسلِّي -والمثير للشَّفقة أيضًا- رؤية هيلين وهي تلعب بعرائسها. فلا أظنُّ أنَّها تُكِنُّ لعرائسها أيَّ إحساسٍ بالحنان؛ فأنا لم أرها مُطلقًا تحتضن العرائس، إنَّما كانت تُلْبِسها وتخلع ملابِسها مرَّاتٍ عِدَّةً خلال اليوم، وتتعامل معها بالضَّبط كما شهِدَت كيف تتعامل أمُّها والمربِّيةُ مع أختها الرضيعة.

هذا الصَّباح، بدا لها أنَّ نانسي -دُميتها المفضَّلة- لديها بعض الصعوبة في ابتلاع الَّلبن، كان الَّلبنُ يُعطَى لها في ملء ملاعق كبيرة؛ لهذا وضعت هيلين الفنجان من يدها وقلبتها على ركبتيها وبدأت تضربُ على ظهرها، مُسرعةً في الضرب بلُطف، ومُربِّتَةً عليها بحنُوٍّ طوال الوقت. دام هذا الأمر عِدَّة دقائق، ثم تبدَّدَ عنها هذا المزاج، وأُلقي بنانسي على الأرض بلا رحمة، ودُفِع بها جانبًا، بينما عضوٌ آخَر من العائلة، متورِّد الخَدَّين، مجعَّد الشَّعر، كان يلقى اهتمام الأمِّ الصغيرة الذي لا ينقطع.

هيلين تعرف العديد من الكلمات الآن، لكن ليست تدرك كيف تستخدمها، ولا تعرف حتَّى أن لكلِّ شيءٍ اسمًا. رغم هذا، أعتقد أنَّها سوف تتعلَّمُ ما يكفي سريعًا عمَّا قريب. كما قلت من قَبل، إنَّها متوقِّدةَ الذَّكاء بشكلٍ مُدهِش، ونشيطة، وسريعةٌ في حركاتها كما البَرْق.

13 مارس، 1887.

لسوف تسعدين حين تعلمين أنَّ تجربتي تجري بنجاح على نحوٍ مُمتاز. لم تواجهني أيَّة مشاكل إطلاقًا مع هيلين، سواء أمس أو اليوم. لقد تعلَّمَت ثلاث كلمات جديدة، وعندما أُعطيها الأشياء، تتهجَّى أسماء الأشياء التي قد تعلَّمَتها دون تلعثُم، غير أنَّها تبدو سعيدةً عندما تنتهي الحِصَّة.

قضينا وقتًا مرِحًا هذا الصَّباح في الحديقة. كان من الظَّاهر أنَّ هيلين تعلمُ أين هي ما إن لمست وشائع البَقس[1]، ورسَمَت عِدَّةَ إشاراتٍ لم أفهمها. لا ريب أنَّها كانت إشاراتٍ عن مختلف أفراد العائلة في منزل اللبلابة الخضراء.

لقد سمعتُ لتوِّي شيئًا أدهشنا كثيرًا جدًّا. يبدو أنَّ السيد أناجنوس قد سمع بأمر هيلين قبل أن يتلقَّى خِطاب السيِّد كِيلَر فصل الصيف الفائت. السيد وِلسون -وهو معلِّمٌ في فلورانسا، وصديق لآل كِيلَر- كان يدرس في هارفارد في الصيف قبل الماضي، ثم ذهب إلى معهد بيركنس كي يرى إن كان هناك ما يمكن عمله لأجل طفل صديقٍ له. التقى برجُلٍ فاضل افترَضَ أنَّه المدير المسؤول، وأخبره عن هيلين. يقول إن هذا الرجل المحترم لم يكن مهتمًّا بالأمر على نحوٍ واضح، لكنَّه قال إنَّه سيرى ما يمكن عمله. ألا يبدو من الغريب أنَّ السيد أناجنوس لم يُشر مُطلَقًا إلى هذه المقابلة؟

(1) وشائع هي جمعُ "وشيعة"، والوشيعة هي السياج من الشجيرات. البقس هو ضرَبٌ من الشجر الصُّلب. (المترجِم)

20 مارس، 1887

إنَّ قلبي ليشدو هذا الصباح من فرط السعادة. لقد حدثت مُعجزة! لقد أشرق نور الفَهم على عقل تلميذتي الصغيرة، وتخيَّلي، لقد تغيَّرت كلُّ الأشياء!

الكائن الصغير الذي كانَتْه منذ أسبوعين قد استحال طِفلًا وديعًا. إنها تجلس بجانبي بينما أكتب، مُحيَّاها رائقٌ وسعيد، تغزلُ سلسلة طويلة حمراء من الصوف الاسكتلاندي. فلقد تعلَّمَت هذا الأسبوع كيف تعقدُ عقدة الخيط، وهي فخورة جدًّا بهذا الإنجاز. وعندما نجحت في صُنع السلسلة التي كان يبلغ طولها عرض الغرفة، طبطبتُ على ذراعها ورفعت أوَّلَ عملٍ من صُنع يديها بحنوٍّ ليلامس خَدِّها. إنَّها تسمح لي الآن أن أُقبِّلَها، وعندما تكون في مزاجٍ رائق على نحوٍ ظاهر، تجلس في حُضني لدقيقةٍ أو دقيقتين، لكنَّها لا تُبادلني الملاطفة. إنَّ الخطوةَ العظيمة -الخطوة المهمَّة- قد تحقَّقَت. لقد تعلَّمَت المتوحِّشةُ الصغيرةُ درسَها الأوَّلَ في الطَّاعة، ووجدت النِّير هَيِّنًا. تبقى الآن مَهمَّتي الممتعة، وهي أن أوجِّه وأُشكِّلَ الوعي المدهش الذي قد بدأ يضطرم في روح الطِّفلة. إنَّ الناس يلاحظون التغيُّر اللافِت الذي طرأ على هيلين فعلًا. يمرُّ علينا أبوها في زيارةٍ قصيرةٍ في الصباح وهو ذاهبٌ إلى مكتبه، وفي المساء وهو عائدٌ منه، ويراها وهي تسلُك خرزاتها في الخيط وعليها سيماء الرِّضا، أو تخيط خطوطًا أفقيَّةً على بطاقات الحياكة، ويتعجَّب قائلًا: "كم هي هادئة!". فعندما جئت، كانت حركاتها لَجوجَةً على نحوٍ لافتٍ للنَّظر، حتَّى أنَّه لطالما كان المرء يشعر أنَّ بها أمرًا غير طبيعيٍّ، أو أنَّ بها تقريبًا شيئًا مثيرًا للريبة. لقد لاحظتُ أيضًا أنَّها تأكل بمقدارٍ أقلَّ عن السَّابق، وهي حقيقةٌ تزعج أباها كثيرًا جدًّا لدرجة أنَّه صار مشغول البال ويريد أن يعيدها إلى البيت. هو يقول إنَّها تشتاق إلى البيت. أنا لا أَتَّفِقُ معه في هذا،

لكـن أفـترض أنَّـه سـوف يتعـيَّنُ علينـا مُغـادَرة كوخنـا الصغـير في القريـب العاجـل.

لقـد تعلَّمَـت هيلـين عِـدَّةَ أسـماء هـذا الأسـبوع. إنَّ كلمـة "M-u-g" (كُ-و-ب) وكلمـة "M-i-l-k" (ل-ب-ن)، قـد تسـبَّبتا لهـا بمعضلـةٍ أكـثر مـن أيَّـة كلـمات أُخـرى. فعندمـا تتهجَّـى "ل-ب-ن"، تُشـير ناحيـة القـدَح، وعندمـا تتهجَّـى "ك-و-ب" ترسـم إشـارة تـدلُّ عـلى صَـبِّ شيءٍ أو شُرب شيء، وهـو مـا يُظهـر ارتباكهـا إزاء الكلمتَـين. فليـس عندهـا أيَّـة فكـرة بعـدُ بـأنَّ كلَّ شيءٍ لـه اسـم.

دخـل علينـا أمـس الفتـى الزنجـيُّ الصغـير عندمـا كانـت هيلـين تأخـذ حِصَّتهـا، وتعلَّـمَ هـو الأحـرف أيضًـا. كان هـذا يسرُّهـا كثـيراً جـدًّا أن تتعلَّـم الأحـرف، وقـد اسـتحثَّ ذلـك فيهـا الطمـوح للتفـوُّق عـلى پِـيرسي. كانـت تبتهـج جـدًّا إن هـو أخطـأ في أحـرف الكلـمات، وتجعلـه يعيـد تشـكيل الأحـرف مِـرارًا وتكـرارًا. عندمـا كان ينجـح في تشـكيل أحـرف الكلمـة عـلى يـده مُجـاراةً لهواهـا، كانـت تربِّـتُ عـلى رأسـه ذي الشـعر الكثيـف الأجعـد عـلى نحـوٍ يتَّسِـم بالقـوَّة جـدًّا، حتَّـى أنَّنـي ظننـتُ أنَّ بعضًـا مـن زلَّاتِـه في تهجئـة الأحـرف كانـت عـن قَصـد.

في أحـد أيَّـامِ هـذا الأسـبوع، أحـضر لنـا السـيِّد كِيلَـر بِـلْ كي تزورنـا، وهـي سـاطِرٌ[1] يفتخـر بهـا كثـيًرا جـدًّا. وكان يتمنَّـى لـو أنَّ هيلـين تتعـرَّف رفيقـة لعبهـا القديمـة. كانـت هيلـين تُحمِّـمُ نانـسي، ولم تلحـظ الكلبـةَ في البدايـة. هـي في العـادة تستشـعرُ أخـفَّ خطـوة، وتفتـح ذِراعيهـا كي تتيقَّـن إن كان بالمـكان أحـدٌ قريبًـا منهـا. لم يبـدُ أنَّ بِـلْ مشـغولَةُ البـال بلَفْـتِ انتباههـا. أتصـوَّر أنَّ هيلـين بالأحـرى كانـت تعالـجُ تقريبًـا أمـرًا مـا يخـصُّ معشـوقتها الصغـيرة. لم تمكـث الكلبـة في الحجـرة أكـثر مـن نصـف دقيقـة، رغـم هـذا بـدأت هيلـين تتنسَّـمُ رائحـةً مـا، غمـرت الدُّميـةَ في

(1) أحد أنوع كلاب الصيد الكبيرة. (المترجم).

طَسـت الاغتسـال وجابـت تتحسَّـس الغرفـة مـن حولهـا. تعـثَّرت في بِـلْ؛ فقـد كانـت جاثمـةً بالقُـرب مـن النَّافـذة، حيـث كان يقـف السـيِّد كِيلَـر. كان مـن الظَّاهـر أنَّهـا تعرَّفَـت الكلبـة، فقـد لفَّـت ذراعيهـا حـول عُنُقهـا واحتضنتهـا وشـدَّت عليهـا. ثـم جلسـت هيلـين بجانبهـا وبـدأت تتلاعـبُ بمخالِبهـا. لم نسـتطع لوهلـةٍ فَهـمَ مـا كانـت تفعلـه، لكـن عندمـا رأيناهـا وهـي تصنـع بأصابعهـا أحـرف كلمـة "د-م-ي-ة"، أدركنـا أنَّهـا كانـت تحـاول تعليـم الكلبـة بِـل أن تتهجَّـى.

28 مارس، 1887.

هيلـين وأنـا عُدنـا أمـس إلى البيـت. إنَّنـي حزينـةٌ أنَّهـم لم يتركونـا نمكثُ أسـبوعًا آخـر، لكـن أظـنُّ أنَّنـي قـد اسـتفدتُ أقـصى مـا اسـتطعتُ مـن الفُـرَص التـي أُتيحـت لي في الأسـبوعين الماضيـين، ولا أتوقَّـعُ أنَّنـي سـوف أواجـه أيَّ مُشـكلٍ جِـديٍّ مـع هيلـين في المسـتقبَل. إنَّ العقبـة العُظمـى التـي كانـت تعـترضُ مسـار تطوُّرهـا قـد انقطـع دابرهـا. أظـنُّ أنَّ "نعـم" و"لا" التـي تُترجَـم بهـزَّةِ نَفْـيٍ مـن رأسي أو إيمـاءةٍ بالموافقـة، قـد صـارت مـن الثوابـت بالنسـبة لهـا كالـشيء السـاخن والـشيء البـارد، أو كالفـارق مـا بـين الألم والمتعـة. ولسـتُ أسـعى إلى أن أجعلهـا تنـسى الـدرس الـذي تعلَّمَتْـه وكلَّفهـا الكثـير مـن الألم والاضطـراب. ينبغـي أن أَحُـولَ بينهـا وبـين تدليـل أبويهـا الزائـد لهـا. لقـد أخـبرتُ السـيِّد كِيلَـر وزوجتـه أنَّ عليهـما ألَّا يتدخَّـلا بينـي وبـين هيلـين بـأيِّ شـكل مـن الأشـكال. لقـد بذلـتُ أقـصى مـا باسـتطاعتي كي أجعلهـما يـدركان الغُبْنَ الشـديد الناتـج عـن إتاحـة المجـالِ لهيلـين كي تتـصرَّفَ في كلِّ شيءٍ حسـبما يروقُهـا، وبيَّنـتُ لهـما أنَّ الأمـور التـي تحـدث، وتهـدف إلى إفهـام الطفـل أنَّـه ليسـت كلُّ الأشـياء ينبغـي أن تجـري وفـق مشـيئته، لهـي عُرضـة لأن تكـون مُؤلِمـةً لـه وكذلـك لمعلِّمِـه. وقـد قطعـا لي بوعـدٍ أنَّهـما سـيتركان لي مُطلـقَ الحُريَّـة في التـصرُّف، وأنَّهَـما

سـوف يقدِّمـان العـون بقـدر مـا يسـتطيعان. إنَّ التطـوُّرَ الـذي شَـهِداه في طِفلتِهـما ولم يسـتطيعا أن يتمالـكا نفسـيهما حبـورًا إزاءه، قـد منحهـما الكثـير مـن الثقـة بي. طبعًـا هـو أمـرٌ عسـير عليهـما. أنـا أتفهَّـم أنَّـه مـن المـؤلم أن يريـا طفلتهـما الصغـيرة المبتـلاة تُعاقَـب، أو تفعـل أشـياء لا توافق مشـيئتَها. بعـد بضـع سـاعاتٍ مـن حديثـي مـع السـيِّد كِيلَـر وزوجتـه (وكانـا قـد وافقـا عـلى كلِّ شيء) أبـدت هيلـين نيَّـةً أنَّهـا سـوف لن تسـتخدم منديلهـا -منديـل المائـدة- عنـد تنـاول الطعـام. أظنُّهـا أرادت أن تـرى مـا الـذي يمكـن أن يحـدث. حاولـتُ عِـدَّةَ مـرَّاتٍ أن أضـع منديـل المائـدة حـول عُنُقِهـا، لكنَّهـا كانـت تخلعـه وتمزِّقـه وتُلقـي بـه عـلى الأرض، وفي الأخـير تبـدأ بـركل الطاولـة. أبعـدتُ عنهـا طبقهـا وشرعـتُ في إخراجِهـا مـن الحُجـرة. اعـترض أبوهـا وقـال إنَّـه لـن يسـمح بـأن يُحـرَمَ طِفـلٌ مـن أطفالِـه مـن طعامـه تحـت أيِّ ظَـرف.

لم تصعـد هيلـين إلى غُرفتـي بعـد العشـاء، ولم أرَهـا مُجـدَّدًا إلا في موعـد الإفطـار. كانـت تجلسُ في المـكان المخصـص لهـا عندمـا نزلـتُ. وقـد وضَعَـت منديـل المائـدة تحـت ذقنهـا، بـدلًا مـن لفِّـه وتثبيتـه حـول العُنق، كعادتهـا. حاولـت لفْـتَ نظـري إلى التغـير الجديـد، وعندمـا وجدَتنـي لم أعـارض بَـدَت فرحانـة، وطَبْطَبَـت عـلى نفسـها. عندمـا كانـت تغـادر الغرفـة، أمسـكَت يـدي وربَّتَـت عليهـا. تسـاءَلتُ إن كانـت تحـاول أن "تتصنَّـع" التـصرُّف. تفكَّـرتُ أنْ أجـرِّبَ تأثـيرَ طريقـةِ تأديـبٍ قديمـةٍ. عـدتُ إلى حجـرة الطَّعـام وجلبـتُ منديـلًا. عندمـا صعـدت هيلـين لتأخـذ حِصَّتها الدراسـيَّة، رتَّبـتُ الأشـياء الموجـودة عـلى الطاولـة كالمعتـاد، باسـتثناء الكعكـة، التـي كنـتُ دائمًـا مـا أنفحُهـا قِطعًـا صغـيرةً مِنهـا كجائـزةٍ لهـا عندمـا تتهجَّـى أيَّ كلمـةٍ بسرعـةٍ وعـلى نحـوٍ صائـب؛ إذن لم تكـن هنـاك كعكـة. لاحَظَـت مـن فورهـا هـذا ورسَـمَت إشـارةً طلبًـا لهـا. أظهرتُهـا عـلى منديـل المائـدة وثبَّتُـه حـول عُنقِهـا، ثـمَّ نزعتُـه ومزَّقتُـه وألقيـتُ بـه عـلى الأرض، وهـزتُ رأسي اسـتنكارًا. كـرَّرتُ هـذا الأداء عِـدَّةَ مـرَّات. أعتقـدُ

أنَّها قد استوعبت الأمر جيِّدًا بشكلٍ كامل؛ فقد صفعت يدها مرَّتَيْن أو ثلاثًا وهزَّت رأسها استنكارًا. بدأنا الحِصَّة كالمعتاد. أعطيتها شيئًا، وتهجَّت هي الاسم (إنَّها تعرف الآن هجاء رقم "اثني عشر"). بعد أن تهجَّت نصف عدد الكلمات، توقَّفت فجأة، كما لو أنَّ فِكرةً قد برقت في عقلها، وتحسَّسَت بيدها باحثةً عن منديل المائدة. لفَّتْهُ وثبَّتَته حول عُنُقِها ورسمت إشارةً طلبًا للكعكة (فلم يحدث أن تهجَّت تلك الكلمة كما ترين). قطعَت لي وعدًا بأنَّني إنْ أعطيتها بعض الكعك، فسوف تكون فتاةً مطيعة. نفحتُها قطعةً أكبر من المعتاد، ضَحِكَت بينها وبين نفسها وطَبْطَبَت على ذراعها.

3 أبريل، 1887.

نحن مقيمون تقريبًا في الحديقة، حيث كلُّ شيءٍ فيها ينمو ويُزهِرُ ويتألَّق. نخرجُ بعد الإفطار ونتابعُ الرِّجال وهم في العمل. إنَّ هيلين تعشقُ الحفر واللهو في الطين كشأن أيِّ طِفلٍ آخر. لقد قامت هذا الصباح بغَرْس دُميتها، وبَيَّنَت لي أنَّها تنتظر أن تنمو وتصبح في مثل طُولي. لا بُدَّ أن تعرفي أنَّها فَطِنةٌ للغاية، لكن ليس لديك أيُّ فكرة كم هي ماكرة.

في العاشرة صباحًا ندخل المنزل ونسلكُ الخرزات في الخيط لبضع دقائق. باستطاعتها الآن القيام بالعديد من التمازُجات الكثيرة، وكثيراً ما تبتكِرُ بنفسها أنماطًا جديدة. ثمَّ أدعها تقرِّر إذا ما كانت سوف تمارس الخياطة، أو الحياكة، أو الكُروشيه. لقد تعلَّمَت الحياكة بسرعةٍ جدًّا، وهي تصنعُ الآن مريلةً مخصَّصة للغسيل من أجل أُمِّها. حاكَت الأسبوعَ الماضي مريلةً لدُميتِها، وقد صُنِعَت على درجةٍ من الإتقان كما يستطيع أن يفعل أيُّ طفلٍ في سِنِّها. لكنني لطالما أكون مسرورةً عندما ينتهي عمل اليوم. الخياطة والكروشيه هي أعمالٌ من ابتداعِ

الشَّيطان حسب ما أعتقد. إنَّني لأُفضِّلُ أن أؤذي الملِكَ وهو في طريقه بوضع الفِخاخ على أن أصنع حاشيةً لوِشاح. في الحادية عشرة يحين موعد التمارين الرياضيَّة. هي تعرف جميع حركات تمارين اليد الحُرَّة واستخدام الدَّمبل مثل "جوقة السِّندان"(1). والدها يقول إنَّه يعتزم إنشاء صالة ألعاب لأجلها في مبنى مضخَّات المياه، لكنَّ كِلْتَيْنا تؤْثِرُ القَصف الممتع على ممارسة التمارين في مكان ثابت. ما بين الساعة الثانية عشرة والواحدة بعد الظُّهر مُخصَّصةٌ لتعلُّم الكلمات الجديدة. لكن لا ينبغي أن تظنِّي أنَّ هذا هو الوقت الوحيد الذي أتهجَّى فيه كلمات لهيلين؛ لأنَّني أتهجَّى في يدها بكلِّ شيءٍ نقوم به طول اليوم، رغمَ أنَّه ليس عندها فكرة بعد عن مفهوم التهجئة. بعد وجبة العَشاء أرتاح أنا لمدة ساعة، بينما هيلين تلعب مع دُماها أو تمرحُ في باحة البيت مع الزنوج الصِّغار، فهُم كانوا رُفقاءها الدائمين قبل أن آتي. أنضمُّ أنا إليهم لاحِقًا، ثم نقومُ بجولاتنا حول البيوت. حيث نزورُ الأحصنة والبِغال في مرابِطِها بالزرائب، ونفتِّشُ عن البيض ونُطعمُ الدِّيَكَة الرُّوميَّة. في الغالب، عندما يكون الجو مستقرًّا، نقود السيارة ما بين أربعٍ إلى سِتِّ ساعات، أو نذهبُ لرؤية عمَّتِها في اللبلابة الخضراء، أو أبناء عمومتها في المدينة. ميول هيلين الفِطرية هي ميولٌ اجتماعيةٌ بلا جِدال؛ فهي تحبُّ أن تكون مُحاطَةً بالنَّاس وأن تزور أصدقاءها، أعتقد أنَّ سبب هذا، جُزئيًّا، أنَّه يكون

(1) Anvil Chorus أو أُنشودة السِّندان، هي أنشودة من مشهدين للموسيقي الشهير ڤيردي. ولعلَّ الإحالة على الأنشودة قد تداعت إلى ذهن الآنسة ساليڤان لأنَّها كانت تتحدَّثُ في هذا الموضع عن جدول عملهم الصَّباحيِّ -وموضع الأنشودة خِطابٌ للتشجيع على بدء العمل مع بداية الصَّباح- وكذلك وجود كلمة "مطارق" بالأنشودة- والمناسبة في حديثها هنا هو استخدام الدُّمبل "الحديديّ" في التمارين. مَطلعُ الأنشودة:
يا أيُّها الغجر من الرِّجال والنِّساء: انظروا كيف تذوبُ الغيومُ وتتبدَّدُ من صفحة السَّماء عند انبلاج الشَّمس، إنَّ بهاءها ليتألَّق، تمامًا كما تتألَّقُ أرملةٌ تنزعُ عنها منامتها السَّوداء، فتُظهِرُ جميعَ مفاتِنها في بهاءٍ نَيِّر، إذن، فلنذهب الآن إلى العمل! ولترفعوا عاليًا مطارِقَكُم! (المترجِم)

لـدى بعضهـم في العـادةِ شـيئًا مـا كانـت تحـبُّ أن تأكلَـه. بعـد تنـاول العَشـاء نذهـبُ إلى حُجـرتي ونمـارس مُختلـف النشـاطات حتـى الثامنـة مسـاءً، حيـثُ أبـدِّلُ للسـيِّدة الصغـيرة ملابسـها وأضعهـا في السريـر. إنَّهـا تنـامُ الآن معـي في السريـر. لقـد كان السـيد كِيلَـر يريـد الإتيـان بمُربِّيَـةٍ لأجـل هيلـين، لكنَّنـي توصَّلـتُ إلى اتِّفـاقٍ بأنَّنـي أفضِّـلُ أن أقـوم أنـا بهـذا الـدَّور عـلى أن تقـوم بهـذا زِنجيَـةٌ كسـولةٌ حمقـاء. إضافـةً إلى أنَّنـي أودُّ أن تعتمـدَ هيلـين عـليَّ في كلِّ شيء، وأجـدُ أنَّـه مـن الأيـسر أن أُعلِّمهـا أشـياء في أوقـاتٍ عَارِضـةٍ عـلى أن أعلِّمهـا هـذه الأشـياء في أوقـاتٍ مُخصَّصَـةٍ مُسـبَقًا.

في الحـادي والثلاثـين مـن مـارس، انتبَهـتُ إلى أنَّ هيلـين قـد صـارت تعـرف ثمانيـة عـشر اسـمًا وثلاثـة أفعـال. وهـا هـي قائمـة بتلـك الكلـمات. الكلـمات التـي تتبعهـا علامـة هـي كلـماتٌ سـألت عنهـا بنفسـها: دميـة، كـوب، قلـم، مفتـاح، قبَّعـة، فنجـان، صنـدوق، مـاء، لـبن، حلـوى، عـين (*)، إصبـع يـد (*)، إصبـع قـدم (*)، رأس (*)، كعكـة، رضيـع، أمٌّ، يجلـس، يقف، يمـشي. في الأوَّل مـن أبريـل تعلَّمَـت هـذه الأسـماء: سِـكِّين، شـوكة، ملعقـة، صحـن الفنجـان، شـاي، بابـا، سريـر، وتعلَّمَـت الفعـل: يجـري.

الخامس من أبريل، 1887.

لا بُـدَّ وأن أكتـب إليـك رسـالةً قصـيرةً هـذا الصَّبـاح؛ لأنَّـه قـد حـدث اليـوم أمـرٌ جليـل. لقـد خطَـت هيلـين خُطوتهـا الثانيـة العظيمـة في تعليمهـا. فلقـد تعلَّمـت أنَّ كلَّ شيءٍ لـه اسـم، وأنَّ هجـاء الأصابـع هـو المِفتـاح لـكلِّ شيءٍ تريـد أن تعرفـه.

في خطـابٍ سـابق أعتقـد أنَّنـي كتبـت إليـك أنَّ كَلِمَتَـيْ "كـوب" و"لـبن" قـد تسـبَّبتا بالتشـوُّش لهيلـين أكـثر مـن بقيَّـة الكلـمات. حيـث كانـت تخلِـطُ بـين الاسـمَين، والفِعـل "يـشرب". لم تكـن تعـي كلمـةً مفادهـا "يـشرب"، لكنَّهـا كانـت تنخـرط في التمثيـل الصَّامـت لفِعـل الـشُّرب متـى

مـا تهجَّـت كلمـة "كـوب" وكلمـة "لـبن". في هـذا الصبـاح، عندمـا كانـت تغتسـل، أرادت أن تعـرف اسـم الكلمـة التـي تعـبِّر عـن الــ "مـاء". هـي عندمـا ترغـب أن تعـرفَ اسـمَ أيِّ شيء، تُشـير ناحيتـه، ثـمَّ تُربِّـتُ عـلى يـدي. تهجَّيـتُ لهـا "م-ا-ء"، ولم أُعِـر الأمـرَ الكثـير مـن الانتبـاه حتـى بعـد الإفطـار. ثـمَّ خطـرَ لي أنِّي لـو اسـتعنتُ بتلـك الكلمـة الجديـدة، ربَّمـا أُفلِـحُ في نـزع الصعوبـة التـي طالـت كلمتـي "كوب-لـبن" وأُزيـلُ الَّلبـس. خرجنـا إلى بيـت مضخَّـات المـاء، وجعلـتُ هيلـين تمسـك بكوبهـا تحـت دَفْـق المياه بينـما أضـخُّ أنـا المـاء. بينـما المـاء البـارد يفيـض مالئًـا الكـوب، تهجَّيـتُ كلمـةَ "م-ا-ء" في يدهـا الطَّليقـة. كان وَقْـعُ الكلمـة يُقـاربُ للغايـة إحسـاس المـاء البـارد المندفـع فـوق يدِهـا، والـذي يبـدو أنَّـه قـد روَّعهـا. أسـقطت الكـوب مـن يدهـا، وتصلَّبَـت، وهـي واقفـةٌ كأنَّهـا تحجَّـرت، في مكانهـا. لقـد تألَّـق وجههـا بنـورٍ جديـد. تهجَّـت "مـاء" عِـدَّة مـرَّات. ثـمَّ تهـاوت عـلى الأرض وسـألت عـن اسـم هـذا الـشيء، وأشـارت ناحيـة مضخَّـة المـاء وناحيـة التعريشـة، ثـمَّ تلفَّتَـت حـول نفسـها وتسـاءَلت عـن اسـمي. تهجَّيـت لهـا وقلـت "مُعلِّمَـة". في تلـك اللحظـة أتـت المربِّيـةُ بأخـت هيلـين الصغـيرة إلى بيـت المـاء، وتهجَّـت هيلـين كلمـة "رضيـع" وأشـارت ناحيـة المربِّيَـة. لقـد كانـت متحمِّسـةً بشـكلٍ عظيـم طـوال طريـق العـودة إلى المنـزل، وتعلَّمَـت اسـم كلِّ شيءٍ وقعـت يدهـا عليـه ولمسَـتْه؛ لهـذا أضافـت إلى حصيلـةِ مُفرداتِهـا ثلاثـين كلمـةً جديـدةً في بضـع سـاعات. هـا هـي بعـض هـذه الكلـمات الجديـدة: بـاب، يفتـح، يغلـق، يعطـي، يذهـب، يـأتي، ولقـد تعلَّمَـت الكثـير والكثـير مـن الكلـمات.

ملحوظـة: لم أُنْـهِ خِطـابي في موعـدٍ مناسـبٍ بحيـث يتسـنَّى لي إرسـاله الليلـة الماضيـة؛ لـذا سـأضيف فقـرةً صغـيرة. اسـتيقَظَت هيلين هـذا الصَّباح كأنَّهـا جِنِّيـة متألِّقَـة. حيـث راحـت تطـير مُتنقِّلـةً مـن شيءٍ إلى آخـر، سـائلةً عـن اسـم كلِّ شيء، وهـي تُقبِّلُنـي؛ احتفـاءً بسـعادةٍ خالِصـة. في الليلـة

الماضيـة، عندمـا اندسسـتُ في السريـر، انسـلَّت إلى مـا بـين ذِراعـيَّ طَواعِيَـةً منهـا، وقبَّلَتْنـي لأوَّل مـرَّةٍ، وحسـبتُ أنَّ قلبـي كان عـلى وشـك أن ينفجـر مـن السـعادة؛ لفـرط مـا غمـره مـن حبـور.

10 أبريل، 1887.

إنَّنـي لأشـهدُ تحسُّـنًا في مسيرة هيلـين مـن يـومٍ لآخـر، بـل تقريبًـا مـن سـاعةٍ لسـاعة. كلُّ شيءٍ صـار ولا بُـدَّ لـه مـن اسـمٍ الآن. أينـما نذهـب، تسـأل في لهفـةٍ عـن أسـماء الأشـياء التـي لم تتعلَّـم أسـماءها في البيـت. إنَّهـا مشـغولة البـال بشـأن قـدرة أصدقائهـا أن يتهجَّـوا الكلـمات، وتتلهَّـفُ أن تُعلِّـمَ الحـروف لأي إنسـانٍ تلتقيـه. إنَّهـا تتخـلَّى الآن عـن الإشـارات والتمثيـل الصامـت الـذي كانـت تلتجِـئ إليـه فيـما سـبق، مـا أن تجـد الكلـمات التـي تفـي بالحاجـة عِوضًـا عنهـا، وإنَّ اكتسـابَ كلمـةٍ جديـدةٍ ليهبهـا أعظـمَ متعـةٍ في الحيـاة. وإنَّنـا لنُلاحـظُ أنَّ وجههـا يصيرُ مُعبِّرًا أكـثرَ وأكـثر في كلِّ يـوم.

لقـد اتخـذتُ قـرارًا بـألَّا أُحـاول إعطـاء دُروسٍ نِظاميَّـةٍ لهيلـين في الوقت الحـاضر. وإنِّي لأعتـزمُ مُعامَلـةَ هيلـين تمامًـا كـما يُعامـلُ طِفـلٌ يبلـغ مـن العمـر عامـين. لقـد خطـر لي في اليـوم قبـل السَّـابق أنَّـه لمـن السَّـخيف أن أفـرِض عـلى طفـلٍ المجـيء إلى مـكانٍ مُعـيَّنٍ، وفي وقـتٍ محـدَّدٍ، وأتلـو عليـه دروسًـا مُحـدَّدَة، بينـما هـو لم يكتسـبْ بَعْـدُ المقـدار الفاعِـل مـن المفـردات. جعلـتُ هيلـين تذهـب وجلسـتُ أفكِّـر. سـألتُ نفـسي: "كيـف يتعلَّـم الطِّفـلُ الطبيعـيُّ الُّلغَـةَ؟" وكانـت الإجابـة بسـيطة: "عـن طريـق المحـاكاة". إنَّ الطِّفـلَ ليـأتي هـذا العـالم وهـو يحمـل في نفسـه المقـدرة عـلى التعلُّـم، وإنَّـه يتعلَّـمُ بنفسـه، مُحقِّقًـا هـذا بمـا يُـزوَّدُ بـه بمـا يكفـي مـن محفِّـزات خارجيـة. فهـو يـرى البَـشَر يقومـون بفِعـل أشـياء، ويحـاول فِعـل نفـس هـذه الأشـياء. هـو يسـمع الآخريـن يتحدَّثـون، ويحـاول هـو

الآخر أن يتحدَّث. لكن يمرُّ وقتٌ طويلٌ قبل أن يَفُوهَ بأوَّل كلمةٍ له، إلَّا أنَّه يفهم ما يُقالُ له. لقد كنتُ أُلاحظ ابنة عمٍّ هيلين الصغيرة مؤخَّرًا. عُمرها تقريبًا خمسة عشر شهرًا، وتفهم من الأمور قدرًا لا بأس به. فإجابةً عن الأسئلة التي تُوجَّهُ إليها، تشير على نحوٍ ظريف إلى أنفها، فَمِها، عينِها، ذقنِها، خَدِّها، أُذنها. لو قلتُ لها: "أين هي أُذنُ الطِّفلة الأخرى؟" تشير نحوها بشكلٍ صحيح. إن وضعتُ في يدها زهرة، وقلتُ لها: "أَعْطِها إلى ماما" تأخذها وتذهب بها إلى أُمِّها. لو قلتُ لها: "أين هي العفريتة الصغيرة؟" تقوم بالاختباء خلف كُرسيِّ أُمِّها، أو تغطِّي وجهها بيديها وتختلِسُ النَّظرَ نحوي بمَكْرٍ بتعبير خُبثٍ صادق. هي تُطيع العديد من الأوامر، مثل: "تعالي"، "أعطني قُبلةً"، "اذهبي إلى بابا"، "أَقْفِلي الباب"، "ناوليني البسكويت". غير أنَّني لم أسمعها مُطلَقًا تنطِقُ أيًّا من تلك الكلمات، رغم أنَّها تُردِّدُ على مسامِعها مِئات المرَّات، ومن الجليِّ أنَّها تفهمها بشكلٍ كامل. هاته الملاحظات قد منحتني علامةً على الطريق، نحو الأسلوب الواجب اتِّباعه في تعليم هيلين اللغة. ينبغي أن أتحدَّث في يدِها كما نتحدَّث في أُذني الطِّفل. سوف أفترضُ أنها تحتكمُ على نفس مقدرة الطِّفل الطبيعي على الاستيعاب والمحاكاة. سأستخدمُ جُملًا تامَّةً عند التحدُّث إليها، وأتمِّم المعنى بالاستعانة بالإيماءات وبإشاراتها الوصفية عندما تستدعي الضرورة، لكن لا ينبغي أن أُبْقِي عقلها عالِقًا موقوفًا على شيءٍ واحد بعينه. سيتعيَّنُ أن أبذل كلَّ ما باستطاعتي كي أستحثَّه وأستثير اهتمامه، ثمَّ أنتظر النتائج.

24 أبريل، 1887.

إنَّ الخُطَّةَ الجديدةَ ناجعةٌ وتَسري على نحوٍ مُدهش. فهيلين تعلم الآن معاني ما يزيد عن مائة كلمة، وتتعلَّم كلماتٍ جديدة كلَّ يومٍ دون أن يُخامرها أدنى شكٍّ بأنَّها تقوم بأكثر الأعمال الفَذَّةِ صعوبةً. إنَّها تتعلَّمُ لأنَّه ليس أمامها سوى فِعل هذا، تمامًا كما يتعلَّمُ الطائر لأجل أن يُحلِّق. لكن لا تتخيَّلي أنَّها "تتحدَّثُ بطَلاقة". فهي مثل ابنة عمِّها الرضيعة؛ تعبِّرُ عن جُملٍ كاملةٍ بكلمات مُفرَدة. فـ "لبن" مع إيماءةٍ تعني: "أعطني مزيدًا من اللبن"، "أمِّي" مصحوبةً بنظرةٍ باحثة، تعني: "أين أمِّي؟". "يذهب" تعني: "أنا أريد أن أخرج". لكن عندما أتلفَّظُ في يدها بجملة: "أعطني بعض الخُبز"، تُناولني الخُبز، أو لو قلتُ: "هاتِ قُبَّعَتَكِ وسوف نخرج لنتمشَّى" تُطيعُ وتنفِّذُ في الحال. كلمتا "قُبَّعة"، و"يمشي" لهما نفس الأثر، غير أنَّه بتكرار الجملة كاملةً مرَّاتٍ عديدة على مدار اليوم، فسوف تؤثِّرُ حَتمًا ذات مرَّة على العقل، وشيئًا فشيئًا، سوف تستخدمها هي من نفسها.

نحن نلعب لعبةً بسيطة، أجدُ أنَّ لها إفادةً قصوى في تطوير التفكير، والتي يتصادفُ أنَّها تفي بغرض درس اللغة. هي نسخة مُعدَّلة من لعبة "خبِّئ الكشتبان". أُخبِّئ أنا شيئًا ما، كرةً أو بكرة خيط، ثم نذهب للبحث عنها. عندما لعبنا هذه اللعبة للمرَّة الأولى منذ يومين أو ثلاثة، لم تُظهر هيلين أيَّ براعةٍ في إيجاد الشيء المخبَّأ على الإطلاق. فكانت تبحث في أماكنَ كانت من المستحيل وضعُ كُرةٍ فيها أو وضع بكرة خيط. على سبيل المثال: عندما كنت أخبِّئ الكُرة، كانت تبحث عنها تحت لوح الكتابة. مرة أخرى، عندما خبَّأتُ بكرة الخيط، ذهبت للبحث عنها في صندوقٍ صغير لا يعدو طوله نصف إنش، ثمَّ يئست من البحث بعد وقتٍ قصير. يمكنني الآن الإبقاء على اهتمامها باللعبة ساعةً أو فترةً أطول، وهي تُظهر الآن الكثيرَ من الفِطنة، وكذلك مزيدًا من البراعة في البحث بمعظم الأحوال. هذا

الصباح خبَّأتُ مِكبًا[1]. بحثَت عنه في كلِّ مكان استطاعت أن تفكِّر فيه دون نجاح، وكان من الواضح أنَّها قد أُصيبَت بالإحباط، عندما لمعت فكرةٌ برأسها فجأة، وأتتني تهرول وجعلتني أفتح فمي على وسعه، حيث أجرت له فحصًا دقيقًا. وعندما لم تجد فيه أيَّ أثرٍ للمِكَبِّ، أشارت ناحية بطني وتهجَّت "يأكل"، تقصد "أنتِ أكلتِه؟".

ذهبنا إلى وسط المدينة يوم الجمعة، والتقينا برجلٍ مُحتَرَم أعطى هيلين بعض الحلوى، أَكَلَتها كُلَّها، إلا قِطعةً واحدة وَضَعَتها في جيب مريلَتِها. عندما وصلنا البيت، بحثت عن أُمِّها، وطَوعًا ومن نَفسها قالت: "أَعْطِ الرَّضيعةَ حلوى" تلفَّظت في يدها السيدة كِيلَر وقالت "الرَّضيع- لا- يأكل- لا". ذهبت هيلين إلى المهْد، وتحسَّسَت فَم مِلدرِد وأشارت إلى أسنانِها. تهجَّت لها السيدة كِيلَر الكلمة: "أسنان". هزَّت هيلين رأسها وتهجَّت "أسنان الرضيع- لا، الرضيع يأكل- لا" وهي تقصد طبعًا: "لا يستطيعُ الرضيعُ أن يأكل لأنَّ ليس عنده أسنان".

8 مايو، 1887.

لا، لستُ راغبةً في أيِّ مقررات دراسية تخصُّ رياض الأطفال بعد الآن. كنتُ أستعينُ في البداية بمخزوني من الخرز، البطاقات، والمِعداد لأنَّني لم أكن أدري أيَّ شيءٍ آخر أفعله، لكنَّ الحاجة إليهم قد ولَّت، على حساب الحاضر مهما تكن الظروف.

إنَّني بادئة في التشكُّكِ بأمر جميع أنظمة التعليم الخاصة والمدروسة. يُهيَّأُ لي أنَّها مؤسَّسةٌ على افتراضٍ يفيدُ بأنَّ كلَّ طِفلٍ يُعتَبر بمثابة أَبْلَهَ يجب أن يُعلَّم كي يفكِّر. في حين، لو أنَّ الطِّفل يُتركُ وشأنه، فسوف يفكِّر أكثر وعلى نحوٍ أفضل- وإن يكُن على نحوٍ أقلَّ

(1) كُرة تُلَفُّ عليها خيوط الغَزْل. (المترجِم)

استعراضًا. دَعْهُ يذهب ويأتي كيفما شاء، دعه يلمس بيديه أشياء حقيقيَّة ويحصد انطباعاته عن الأشياء بنفسِه، بدلًا من الجلوس بين الجُدران إلى طاولة صغيرة مستديرة، بينما يأتيه صوت المعلِّم العذب، مُقترِحًا عليه أنَّ يبني حائطًا حجريًّا بقوالِبه الخشبيَّة، أو يصنع قَوسَ قُزَح من شرائط أوراقه الملوَّنة، أو يغرسَ فسائلَ أشجارٍ في أُصُصِ زهورٍ مُزخرفةٍ بالخرز. إنَّ مثل هذا الصِّنف من التعليم ليحشو العقل بارتباطاتٍ ذهنية مُفتعَلَة، وهي أشياء ينبغي التخلُّصُ منها، قبل أن يتمكَّنَ الطِّفل من تطوير أفكارٍ مُستقاةٍ من تجارب فِعليَّة.

تتعلَّم هيلين الصِّفات والظروف بيُسرٍ كما تعلَّمَت الأسماء. والفِكرةُ دومًا تسبِقُ الكلمة. كان عندها إشارات تعبِّر بها عمَّا هو كبير وما هو صغير قبل أن آتيها. إن كانت تريد شيئًا صغيرًا وهي قد أُعطيَت شيئًا كبيرًا، تهزُّ رأسها وتقتطعُ، تمثيلًا، قِطعة صغيرةً من جلد إبهام إحدى يديها بإصبعٍ من اليد الأخرى. إن أرادت أن تعبِّر عن شيءٍ كبير الحجم، تبسطُ أصابع كِلتا يديها على وسعهما قدر ما تستطيع، ثم تضمُّهما معًا، كما لو كانت تقبضُ بيديها على كُرةٍ كبيرة. قبل يومين، استبدَلتُ هذه الإشارات بكلمتي كبير، وصغير. بإمكاني الآن أن أطلبَ منها أن تأتيني بكتابٍ كبير أو بطبقٍ صغير، أن تصعد على مهلٍ إلى الطابق الأعلى، أو تجري بسرعةٍ أو تسير على عجلٍ. استخدمَت هذا الصَّباح أداة الرَّبط and (و) للمرَّة الأولى. قلت لها أَنْ تغلق الباب، فأضافت هي "وأوصِده".

لقد أتتني منذ بضع دقائق وأنا بالطَّابق الأعلى، وهي تبكي وفي حالة هياجٍ عظيمة. لم أستطع أن أفهم ما كان سبب كلِّ هذا أوَّلَ الأمر. ظلَّت تتهجَّى وتقول: "كلب- رضيع" وهي تشير إلى أصابع يدها الخمسة واحدًا بعد آخر، وتمصُّهم. كان ظنِّي في البداية أنَّ أحد الكلاب قد آذى مِلدرِد، غير أنَّ وجه هيلين المبتهج قد طمأنني. لم يكن يتعيَّنُ عليَّ فِعل شيءٍ سوى أنَّني يجب أن أذهب معها لمكانٍ

مـا كي أرى شـيئًا مـا. قادتنـي للطريـق إلى بيـت مضخَّـات الميـاه، وهنـاك في الزاويـة، كانـت إحـدى إنـاث السَّـاطر ترقـد وفي كَنَفِهـا خمسـة جِـراءٍ صِغـارٍ لطيفـة! علَّمتُهـا كلمـة "جَـرو" وجعلـتُ يدهـا ترسُـمُ أجسـاد الجِـراء جميعًـا، بينمـا كانـوا يرضعـون، وتهجَّيـتُ لهـا "جِـراء". مـا كان يثـير اهتمامهـا أكـثر هـو عمليـة الرَّضاعـة، تهجَّيـتُ لهـا "الكلبـة الأم"، و"رضيـع" عِـدَّة مـرَّاتٍ. لاحظَـت هيلـين أنَّ عيـون الجِـراء كانـت مقفولـة، وقالـت: "عيـون- مقفولـة. نـوم- لا"، تقصـد أن تقـول: "الأعـين مقفولـة، لكـنَّ الجِـراء ليسـت نائمـة". كانـت تصيـح طَربًـا عندمـا تنتحـب هـذه الكائنـات الصغـيرة وتنشـج في محـاولاتٍ منهـا للعـودة إلى أمِّهـم، وتهجَّـت "رضيـع- يـأكل كبـير". أفـترض أنَّ مغـزى الـكلام هـو أنَّ "الرضيـع يـأكل كثـيراً". أشـارت إلى كلِّ جـروٍ، واحـدًا بعـد الآخـر، ثـمَّ إلى أصابـع يدهـا الخمسـة، ولقَّنتُهـا كلمـة خمسـة. ثـم أمسـكَت بإصبـعٍ واحـدٍ وقالـت: "رضيـع". أعلـمُ أنَّهـا كانـت تفكِّـر في مِلـدرِد، تهجَّيـتُ لهـا وقُلـت: "رضيـعٌ واحـد وخمسـة جِـراء". بعـد أن لاعبَتهـم لبعـض الوقـت، خطـرت عـلى بالهـا فكـرة أنَّ الجِـراء لا بُـدَّ أن يكـون لهـا اسـمٌ خـاصٌ، مثـل البَـشَر، وطلبـت أن يكـون لـكلِّ جـروٍ منهـم اسـم. أخبرتُهـا أن تطلـب هـذا مـن أبيهـا، فقالـت: "لا- مامـا". كان مـن الواضـح أنهـا تعتقـد أنَّ الأُمَّهـات هـنَّ أكـثر درايـةً بأمـور الرُّضَّـع في كلِّ الأجنـاس. لاحظَـت أنَّ أحـد الجِـراء كان أصغـر حجـمًا عـن البقيَّـة، وتهجَّـت كلمـة "صغـير"، راسـمةً بيدهـا إشـارةَ الـشيء الصغـير في نفـس الوقـت، وقلـتُ أنـا: "صغـير جـدًّا". لقـد كان بَيِّنًـا أنَّهـا فهمَـت أنَّ كلمـة جـدًّا هـي صِفـةُ الـشيء الجديـد الـذي قـد طـرأ عـلى عقلهـا، حيـث أنَّهـا واصَلَـت اسـتخدام كلمـة جـدًّا عـلى نحـوٍ صحيـح بطريـق العـودة إلى المنـزل. فحجـرٌ مـا هـو "صغـير" وحجـرٌ آخـر هـو "صغـير جـدًّا". عندمـا تحسَّسَـت أختَهـا الصغـيرة، قالـت: "رضيـع- صغـير. جَـرو- صغـير جـدًّا". بعـد هـذا سريعًـا مـا بـدأت تنـوِّع خطواتِهـا مـا بـين خُطـواتٍ صغـيرة وخطـواتٍ كبـيرة، وخُطـواتٍ متبخـترةٍ صغـيرة هـي: خطـوات "صغـيرة

جـدًّا". إنهـا تجـوبُ الآن أرجـاء المنـزل، خالعـةً الكلـمات الجديـدة عـلى جميـع صنـوف الأشـياء.

منـذ أن تخلّيـتُ عـن فكـرة الـدروس النِّظاميّـة وجـدتُ أنَّ هيلـين تتعلّـم أسرعٍ. إنَّنـي عـلى قَناعـةٍ بـأنَّ الوقـت الـمُنْفَقَ مـن جانـب الـمُعلِّم في سـبيل اسـتظهار مـا قـد لقَّنـه إلى عقـل الطِّفـل، إنَّمـا هـو يهـدف لإشـباع ذاتـه بأنَّـه قـد رسَّـخَ جِـذرًا، بينـما هـو مضيعـةٌ للوقـت عـلى نحـوٍ عظيـم. مـن الأفضـل، حسـب مـا أعتقـد، أن أعتَـبِرَ بـأنَّ الطفـل يـؤدِّي مـا عليـه مـن دَور، وأنَّ البِـذرة التـي قـد غرسـتها أنـت (المعلِّـم) سـوف تلِـدُ ثَمـرًا خـلال وقـتٍ مناسـب. إنَّ ذلـك لمـن العـدل بالنسـبة للطفـل عـلى كلِّ حـال، وإنـه ليحميـك مـن الكثـير مـن المتاعـب، التـي ليـس لهـا ضرورة.

السادس عشر من مايو، 1887.

لقـد بدأنـا نأخـذ تمشـياتٍ طويلـة كلَّ صبـاح، بعـد تناولنـا الإفطـار في الحـال. الجـو لطيـف، والهـواء يعبـقُ بشـذى ثِمـار الفرولـة. وِجهتنـا المقصـودة هـي مَهبَـطُ آل كِيلَـر، في تينِـسي، عـلى مسـافة ميلـين تقريبًـا. نحـن لا نعـرف أبـدًا كيـف السـبيلُ للوصـول إلى هنـاك، أو مـا هـو موقعنـا في وقـتٍ محـدَّد خـلال مسـيرنا، لكـنَّ ذلـك يـثري شـعورنا بالاسـتمتاع فحسـب، خاصَّـةً عندمـا يكـون كلُّ شيءٍ جديـدًا بالنسـبة إلينـا وغـيرَ مألـوف. حقيقـةً، أشـعر وكأنَّنـي لم أكـن قـد أبـصرتُ أيَّ شيءٍ قبـل الآن؛ يكـون في جعبـة هيلـين الكثـير لتسـأل عنـه طـول الطريـق. نُطـارد الفراشـات، وأحيانًـا نمسـك واحـدة. ثـمَّ نجلـس تحـت شـجرة، أو إلى ظِـلِّ شُـجَيرَة، ونتحـدَّث عنهـا، عـن الفراشـة. وبعـد ذلـك، إن ظلَّـت الفراشـة عـلى قيـد الحيـاة بعـد الـدَّرس، نتركهـا تطـير، غـير أنَّـه، عـادةً مـا يُضحَّـى بحياتهـا وبجمالهـا عـلى مذبَـح العِلـم، وكأنَّهـا بمعنًـى آخـر، تحيـا إلى الأبَـد؛ ألَـم تتحـوَّل تلـك الفراشـةُ إلى أفـكارٍ حيَّـةٍ؟ كـم مُدهـشٍ هـو كيـف تُنتـجُ الكلـماتُ أفـكارًا! فـكلُّ كلمـةٍ جديـدةٍ تتعلَّمهـا هيلـين يبـدو أنَّهـا تحمـل

في طيَّاتِها الحاجةَ لمزيدٍ من كلماتٍ أُخرى. فعقلها ينمو بفِعل نشاطِه الذي لا ينقطِع.

كان مهبَطُ آل كِيلَر يُستخدَمُ أثناء الحرب لإنزال القُوَّات العسكريَّة، لكنَّه قد تحوَّلَ إلى أثرٍ بعد عين منذ وقتٍ طويل، وقد كُسِيَ بالطَّحالب والأعشاب. إنَّ عُزلةَ المكان تضعُ المرءَ في مِزاجٍ حالِم. بالقُرب من المهبَط نبعٌ ساحر، حيث كانت هيلين تُسمِّيه "فنجان السِّنجاب"؛ لأنَّني قلتُ لها إنَّ السَّناجب كانت تأتي إليه لكي ترتوي. كانت قد تحسَّسَت من قبل أجسادَ سناجِبَ ميِّتَةٍ، وأرانبَ وحيواناتٍ برِّيَّةٍ أُخرى، وكانت تتلهَّف رؤيةَ "سنجاب- يمشي"، وهو ما فسَّرتُه أنا، حسب ما أعتقد، بـ "سنجاب حَيٍّ". في العادة نعود إلى البيت قُربَ وقت العَشاء، وتكون هيلين تَوَّاقةً لأنْ تحكي لأمِّها عن كلِّ شيءٍ قد رأتْه. إنَّ تلك الرغبة في ترديد ما قد قُصَّ عليها تُبينُ عن تقدُّمٍ ملحوظ في تطوُّر تفكيرها، وهو حافزٌ لا يمكن تجاهلُ أثره في عمليَّة اكتساب اللغة. إنني أطلبُ من جميع أصدقائها أن يُشجِّعوها أن تَقُصَّ عليهم أفعالها، وأن يُبدوا الكثير من الفضول والاستمتاع بالمغامرات الصغيرة التي تحكيها قدر ما يستطيعون؛ فذلك يُشبِعُ حبَّ الطِّفلة للاستحسان، ويُبقي اهتمامها بالأشياء متواصِلًا. فتلك هي ركيزةُ التَّواصل الحقيقيِّ. هي طبعًا ترتكب العديد من الأخطاء؛ فمثلًا تعكس الكلمات والعبارات، تستخدم كلمةَ البطاقة بدلًا عن كلمة الحصان، وتُغرِقُ نَفسها في حبائل الأسماء والأفعال الميؤوس منها، لكنَّ الطِّفلَ القادر على السَّماع يُقابل كهكذا مصاعب. أنا على يقينٍ أنَّ تلك المصاعب سوف تُحلُّ من نفسِها. أمَّا نَزعةُ القَصِّ عندها فهي الشيء الأهمُّ. حيثُ أنَّني أمدُّها بكلمةٍ هنا وكلمةٍ هُناك، وأحيانًا جملة، وأُلمِحُ إليها بشيءٍ تكون قد نَسِيَتْهُ أو أسقَطَتْه؛ بهذه الطريقة تتنامى حصيلةُ مُفرداتها سريعًا، وتنبُتُ كلماتٌ جديدة، وتهبُ الحياة لأفكارٍ جديدة، وتلك هي المادَّةُ الخام، التي مِنها، خُلِقت الأرضُ والسَّماء.

الثاني والعشرون من مايو، 1887.

إنَّ عملي يتعاظَمُ كلَّ يوم ويصيرُ أكثر إثارةً وأكثر بعثًا على الاستغراق. هيلين طفلةٌ مُدهِشة، تلقائيَّةٌ تمامًا وكثيرةُ التلهُّف لأن تتعلَّم. هي تعرف الآن نحو ثلاثمائة كلمة، وقدرًا كبيرًا من الاصطلاحات الشائعة، ولم يمرَّ بعدُ ثلاثة أشهرٍ منذ أن تعلَّمت كَلِمَتَها الأولى. إنَّه لامتيازٌ نادرٌ أن تَشهَدَ مراحل الولادة، النُّمو، والصراعات الهيِّنة الأولى التي يخوضها عقل الكائن الحيِّ، وأنا قد حُزتُ هذا الامتياز، وبمرور الوقت، أُوهَبُ ما يجعلني أستنهِضُ وأوجِّهُ هذا الذَّكاء اللامع.

ياه لو أنِّي كنتُ مستعدَّةً لأجل المهمَّة العظيمة على نحوٍ أفضل! إنَّني أشعرُ يومًا بعد يومٍ أنِّي لستُ كفؤًا لهذا. عقلي مُزدحِمٌ بالأفكار، بَيدَ أنِّي لستُ أستطيعُ الإتيان بتلك الأفكار في صورةِ عملٍ مُجسَّد. كما ترين، عقلي غيرُ منضَبِط، يعجُّ بالسَّقطاتِ والطَّفَرات، وهنا وهناك، في الأركان المظلِمة، تتراكم مع بعضها الكثيرُ من الأشياء. كم طويلٍ ما سوف يستغرقه هذا كي يعود إلى النِّظام! ياه لو أنَّ هناك شخصًا ما يُعينني على الأمر! إنَّني بحاجةٍ لمعلِّم تمامًا بقدر ما تحتاجه هيلين. أنا أعي أنَّ تعليمَ تلكَ الطِّفلة سوف يكون هو الحدث الأهمَّ في حياتي، لو أنِّي أملكُ من الذَّكاء الشديد والقدرة على التحمُّلِ لإنجاز هذا. لقد وطَّدتُ عقلي على أمرٍ واحد: لا بُدَّ أن تتعلَّمَ هيلين استخدام الكُتب -في الحقيقة، لا بُدَّ لكِلتَينا أن تستخدم الكُتب، وهذا يُذكِّرُني بالآتي- هل ممكن لو سمحت، أن تطلبي من السيد أناجنوس، أن يبعث لي بكتب پِرِتْز وسالي[1] في علم النَّفس؟ أعتقدُ أنيِّ سوف أجدها مُعِينةً لي.

(1) چيمس سولي: عالم نفس إنجليزي له عِدَّة كُتب، منها "دراسات في الطفولة"، "مقالة في الضَّحك". بيرنارد پيرى: عالم نفس فرنسي، من كُتبه: "السنوات الثلاثة الأولى في مرحلة الطفولة". كان سولي يُقدِّمُ بعض كتب بيرى في طبعاتها الإنجليزية. (المترجم)

نمارس دروس القراءة كلَّ يوم. في العادة نأخذ درسًا صغيرًا من كتاب "القُرَّاء" الصغير، ونحن نجلسُ فوق شجرةٍ كبيرةٍ قريبًا من المنزل، ونقضي ساعةً أو ساعتَيْن في البحث عن الكلمات التي تعرفها هيلين مُسبَقًا. إنَّنا نجعل من الأمرِ لعبةً على نحوٍ ما، ونحاول أن نرى مَن الأسرع فينا يقدر على إيجاد الكلمات؛ هيلين بالاستعانة بأصابعها، أو أنا باستخدام عينيَّ، فتتعلَّمُ كلماتٍ كثيرةً بقدر ما أستطيعُ أن أشرح لها بمعونة تلك الكلمات التي تعرفها سابقًا. عندما تتنقَّلُ أصابع يديها في رشاقةٍ فوق الكلمات التي تعرفها، تصيحُ على نحوٍ جميل من فرط المتعة، وتُعانقُني وتقبِّلُني من فرط سعادتها، خاصَّةً لو كانت تعتقد أنَّها قد غلبَتني. لسوف يُبهِرُكِ إن شَهِدتِ عدد الكلمات الكثيرة التي تتعلَّمها في ساعةٍ واحدة على هذا النَّهج المبهِج. بعدَئِذٍ أضع الكلمات الجديدة في جُملٍ قصيرة في لوح الكتابة، وأحيانًا يكون من الممكن رواية قِصَّةٍ عن نحلةٍ أو عن قِطَّة، أو عن ولدٍ صغير على هذا المنوال. بإمكاني الآن أن أطلب منها أن تصعد إلى الطابق الأعلى أو تنزل إلى الطابق الأسفل، أن تخرج من البيت أو تدخل البيت، أن توصد الباب أو تفتح الباب، أن تأخذَ أشياء أو تأتي بأشياء، أن تجلس، أن تقف، تمشي، تجري، ترقد، تزحف، تتدحرج، أو أن تتسلَّق. إنَّها تبتهج لوَقْعِ الكلمات ذِات الطَّابع الحركيٍّ؛ لذا لا توجد هناك مشكلة إطلاقًا في تعليمها الأفعال؛ فهي دومًا مستعدة لتلقِّي الحِصَّة، وذاك التلهُّف الذي تستوعبُ به الأفكارَ لَهُوَ شيء يبعث تمامًا على البهجة. مع الجُملة، يكون حال هيلين كالمنتصر في المعركة، كحال قائدٍ الذي قد استولى على حِصن عدوِّه.

من ضمن عادات هيلين القديمة، التي من العسير تغييرها والعصيَّة على التقويم، هي مَيلُها لأن تكسر الأشياء. فعندما تجد أيَّ شيءٍ في طريقها، تَرْفُسُه على الأرض، مهما كان هذا الشيء: زجاجة، إبريق، أو حتَّى مصباح. عندها عددٌ كبير من الدُّمى، وكلُّ دُمية منها قد

حُطِّمَت في إحدى نوبات الغضب أو الضَّجر. أوَّل أمس، أتاها صديقٌ بدُمية جديدة من مَمْفِس، وحسبتُ أنَّني سوف أتمكَّنُ من جَعل هيلين تستوعب أنَّه يجب عليها ألّا تُحطِّمها. تركتها وهي ماضيةٌ في قَرع الطاولة برأس الدُّمية، وتهجَّيتُ لها قائلةً: "لا، لا، هيلين مشاغبة. مُعلِّمة حزينة"، وجعلتها تتحسَّس تعبير وجهي المكفهِرَّ. ثمَّ جعلتُها تُعانق الدُّمية وتُقبِّل موضع الجرح وتمسكها بحنانٍ بين ذراعيها، وتهجَّيتُ لها وقلت: "هيلين مُطيعة، مُعلِّمة سعيدة"، وجعلتها تتحسَّسُ الابتسامة على وجهي. مَضَت في تلك الحركات عدة مرَّات، مُحاكيةً كلَّ تحرُّك، ثمَّ وقفت جامدةً تمامًا لوهلة، وعلى وجهها نظرةٌ قلِقة، ثمَّ تبدَّدَت فجأة، وتهجَّت قائلةً: "هيلين مُطيعة"، وكَلَّلَت وجهها بابتسامةٍ مُصطَنَعةٍ واسعةٍ جدًّا. ثمَّ حملت الدُّمية وصعدت بها إلى الطابق الأعلى، ووضعتها في الرَّفِّ الأعلى بخزانة الملابس، ولم تلمَسها منذ ذلك الحين.

أرسلي تحيَّاتي الحارَّة لو سمحت إلى السيد أناجنوس، وأطلِعيه على خطابي؛ هذا إن ارتأيتِ أنَّه من الأفضل ذلك. سمعتُ أنَّ هناك طِفلًا كَفيفًا وأصَمَّ، يتلقَّى تعليمه في معهد بَالتيمور.

2 يونيو، 1887.

إنَّ الجوَّ حارِق. نحن في حاجةٍ إلى المطر على نحوٍ مُلِحٍّ. إنَّنا منزعجون بسبب هيلين. فهي عصيبةٌ جدًّا وسريعة الهياج. إنَّها لا تهدأ في الليل، ولا شهيَّةَ عندها. من العسير معرفة كيفية التصرُّف معها. يقول الطبيب إنَّ عقلها نشِطٌ أكثر مِمَّا ينبغي، لكن كيف نستطيعُ جَعلها أن تكفَّ عن التفكير؟ إنَّها تبدأ في تهجِّي الكلمات على يدها مع أوَّلِ دقيقة تستيقظ فيها في الصباح، وتواصل فِعل هذا

طوال اليوم. إن امتنعتُ عن التحدُّث إليها، تتهجّى الكلمات في يدِها، ويكون من الظّاهر أنَّها تخوض مع ذاتها محادثةً بالغة الواقعية.

أعطيتُها لوح برايل كي تلعب به، ظانّةً أنَّ العملية الميكانيكية لوخز الورقة لأجل صُنع ثقوب، سوف تُسلِّيها وتُرَوِّحُ عن ذِهنها. لكم كم كانت دهشتي عندما اكتشفتُ أنَّ المشعوذة الصغيرة تلك كانت تكتبُ خِطابًا! لم يكن عندي أدنى فِكرة إن كانت تُدرِك ما هو الخطاب. كثيرًا ما كانت تذهب بصحبتي إلى مكتب البريد لإرسال الخِطابات، ومن المفترض أنَّني كنتُ أُعيد عليها سَرد الأشياء التي كنتُ أكتبها إليك. أنتِ تعرفين أيضًا أنَّني أحيانًا أكتب عبارة "خِطابات إلى البنات المكفوفات" على اللوح، غير أنِّي لم أحسب أنَّ عندها أيُّ فِكرة واضحة عن ما هو الخطاب. ذات يوم، أتتني بفَرْخ ورق وقد ملأته بالثُّقوب، وأرادت منِّي أن أضعه في مظروفٍ وأذهب به إلى مكتب البريد. قالت لي: "فرانك- خطاب". سألتها ماذا كتبَت إلى فرانك. ردَّت عليَّ: "كلام كثير. أُمُّ الجِراء الصِّغار- خمسة. رضيع- يبكي. جو حار. هيلين تمشي- لا. لهيب الشمس- سيِّئ. فرانك- تعال. هيلين- تقبِّل فرانك. الفَراولات- لذيذة جدًّا".

تتوق هيلين للقراءة تقريبًا كما هي توَّاقةٌ تمامًا للكلام. أجدُ أنَّها تفهمُ مغزى جُملةٍ بأكملها، مستنتجةً معنى الكلمات التي لا تعرفها من السِّياق، وأسئلتها المتحمِّسةُ تكشفُ عن اتِّساع قُدرة ذِهنها على الاستيعاب، وعن قُدراتها الاستثنائيَّة.

في الليلة قبل الماضية عندما كنتُ آوي إلى السرير، وجدتُ هيلين وهي تبدو نائمة محتضنةً كتابًا كبيرًا بين ذراعيها. كان من الواضح أنَّها كانت تقرأ، وخَلَدَت إلى النَّوم. عندما سألتُها عن هذا في الصباح، قالت: "كتاب- يبكي". ثمَّ تمَّمت المعنى الذي أرادَتْه بأن هزَّت رأسها وبإشاراتٍ أُخرى تعبِّرُ عن الهلع. كنتُ قد علَّمتُها كلمة خائف

(خائفـة)، وقالـت: "هيلـين ليـس خائـف. الكتـاب خائـف. الكتـاب سـوف ينـام مـع البنـت". أخبرتُهـا أنَّ الكتـاب لم يكـن خائفًـا، ولا بُـدَّ أن ينـام داخل غلافـه، وأنَّ "البنـت" لا يجـب أن تقـرأ في السريـر. بـدا عليهـا اللُّـؤم تمامًـا، وكان مـن الواضـح أنَّهـا فهِمـت أنَّنـي قـد كشـفتُ حيلتهـا.

أنـا مـسرورةٌ أنَّ السـيد أناجنـوس يُجِلُّنـي كثـيرًا كمُعلِّمتـي. لكـن كلمتَي "عبقريَّـة"، و"إبـداع" هـما كلمتـان لا ينبغـي أن نسـتخدمهما باسـتخفاف. لـو أنَّهـما فِعـلًا تنطبِقـان علـيَّ ولـو مـن بعيـد، فـلا أرى أنَّنـي أسـتحِقُّ أيَّ ثنـاء فيـما يخـصُّ ذلـك.

وعنـد هـذه النُّقطـة، أريـد أن أقـول شـيئًا احتفظـي بـه لنفسـك فحسـب. تُحدِّثُنـي نفـسي أحيانًـا أنَّنـي سـوف أنجـحُ وأُحقِّـقُ أحلامـي. لكـن لـولا بعـض الظـروف التـي تجعـل مـن مثـل تلـك الفكـرة أمـرًا بعيـد الاحتـمال، أو حتَّـى عبثيَّـة، ينبغـي علـيَّ أن أشـغل تفكـيري بـأنَّ تعليـم هيلـين هـو عمـلٌ سـوف يفـوق إنجـاز الدكتـور هـاو ومـا تَبِعـه مـن دَهشـةٍ وللفـتٍ للأنظـار. أنـا عارفـة إنَّهـا تملـك قُـدراتٍ غـير عاديَّـة، وأؤمـنُ أنِّي سـأكون قـادرةً عـلى تطويـر تلـك القُـدرات وصَقلِهـا. ليـس باسـتطاعتي القَطـع أنَّ لي بمعرفـة هـذه الأشـياء؛ فلـم يكـن عنـدي أدنى فكـرة منـذ وقـتٍ قصـير عـن كيفيَّـة تسـيير العمـل، كنـتُ أشـعرُ وكأنَّنـي غارقـة في الظـلام، لكـن بسـبيلٍ مـا أنـا الآن أفهـم، وأعـي أنَّنـي أفهـم. ليـس باسـتطاعتي تفسـير الأمـر، غـير أنَّـه عندمـا تعـترضُ طريقـي المصاعـب، لا أكـون حائـرةً ولا متشـكِّكةً. أدركُ كيـف أواجههـا، يبـدو أنَّنـي أحـدسُ حاجـات هيلـين العجيبـة. إنَّـه أمـرٌ مُدهِـش.

النـاسُ فعـلًا يُولـون هيلـين اهتمامًـا عميقًـا. لا يراهـا أحـدٌ إلا وينبَهِـر. هـي ليسـت طِفلـةً عاديَّـةً، وبالتـالي فاهتـمام النـاس بمسـيرة تعليمهـا لـن يكـون عاديًـا هـو الآخـر. رغـم ذلـك دعينـا نكـن حَذِرَتَيْن إلى أقـصى الحـدود بخصـوص مـا نقولـه أو نكتبـه عنهـا. سـوف أكتـبُ لـكِ بصراحـةٍ

وأُكاشِـفُكِ بـكلِّ شيء، بـشرطٍ واحـد. إليـك الـشَّرط: لا بُـدَّ وأن تعِدِينـي بأنَّـكِ لـن تُظهـري أيَّ إنسـانٍ عـلى خطابـاتي. فجميلتـي هيلـين لـن تتحـوَّل وتصـير أُعجوبـة، إن لم أسـتطع أن أسـيطر عـلى الأمـور.

الخامس من يونيو، 1887.

الجـو الحـار يجعـل هيلـين خامـدةً وفاتـرةَ الهِمَّـة. في الواقـع، لقـد جعلنـا طقـس توفـه[1] الجحيمـيُّ هـذا ننكمـش جميعًـا ونتحـوَّل إلى الحالة شـبه السـائلة. أمـس، خلعـت هيلـين ملابسـها وجلسـت دون كِسـاءٍ طـوال فـترة الظَّهـيرة. عندمـا دارت الشَّـمس وصـارت تنفـذ مـن شـبَّاكها، حيـث كانـت تجلـس بصحبـة كِتابهـا، فـزَّت مـن مكانهـا نافـذة الصَّـبر وأقفلـت الشُّـبَّاك. لكـن حينهـا كانـت أشـعة الشـمس تنفـذ كـما السَّـابق، نَهَضَـت مـن مكانهـا وأتتنـي وعـلى وجهها نظـرة الأسى، وتهجَّـت مُشـدِّدة عـلى كلماتِهـا: "الشـمس ولـد شريـر. الشـمس يجـب أن يذهـب إلى النـوم".

هـي الآن كائـنٌ مـن أحـبِّ وأظْـرَفِ مـا يكـون، وحبُّوبـة جـدًّا! ذات يـوم، عندمـا طلبـتُ منهـا أن تأتينـي بقليـلٍ مـن المـاء، قالـت لي: "السَّـاقان متعبتـان جـدًّا. السـاقان تبـكي كثـيراً".

تهتـمُّ كثـيراً ببعـض الكتاكيـت التـي تنقـرُ الأرض هـذا الصَّبـاح بحثًـا عـن غذائهـا في هـذا العالَـم. تركتُهـا تمسـك بقوقعـةٍ في يدهـا، وتتحسَّـسَ "فُتـات، فُتـات" طعـام الدَّجـاج. دهشـتُها، حـين كانـت تتلمَّـسُ هـذا الكائن الصَّغـير، هـي شيءٌ يسـتعصي عـلى الوصـف بالكلـمات. كانـت الدَّجاجـة لطيفـةً للغايـة، ولم تُظهـر أي اعـتراضٍ عـلى مـا أجرينـاه مـن تفحُّـصٍ لهـا. إضافـةً إلى الأفـراخ، كان هنـاك العديـد مـن الملحَقـين بالعائلـة: عِجـلان،

(1) طبقًـا للكتـاب المقـدَّس، هـي بلـدة صغيرة كانـت تقـع بالقـرب مـن وادي بنـي هنـوم- وادي أبنـاء چيهينـا (أو جهنَّـم)- وذكـره چـون ميلتـون في الكتـاب الأول مـن ملحمتـه "الفـردوس المفقـود" البيـت 405. (المترجـم)

مُهْـر، وحظـيرة تعـجُّ بخنازيـر صغـيرةٍ ظريفـة. لسـوف يُسـلِّيكِ أن تريـنـي وأنـا مُمسِـكةٌ بخِنزيـرٍ بـين ذراعـيَّ وهـو ينتحـب، بينـما هيلـين تتحسَّـسُ جميـع أجـزاء جسـده، وتطـرحُ أسـئلةً لا تُحـصَى- وهـي أسـئلةٌ ليـس مـن السَّـهل الإجابـة عنهـا فـوق ذلـك. بعـد أن شَـهِدَت فَرخًـا مولـودًا وهـو يخـرج مـن البيضـة، سـألتني: "هـل الخنزيـر الرضيـع ينشـأ داخـل البيضـة؟ أيـن تكـون الكثـير مـن القواقـع؟".

يبلـغ محيـط رأس هيلـين عشريـن إنشًـا ونِصـف، ورأسي أنـا واحـدًا وعشريـن ونصـف إنـش. أرأيـتِ، أنـا أفوقُهـا بإنـشٍ واحـدٍ فحسـب!

12 يونيو، 1887.

الطَّقـسُ الحـار مُتواصـل. وهيلـين عـلى نفـس الحـال تقريبًـا: شـاحبة، ونحيلـة، غـيرَ أنَّـه لا يجـب أن تظنِّـي أنَّهـا مريضـةٌ في الحقيقـة. أنـا عـلى يقـينٍ أنَّ الجـو الحـار هـو السـبب، وليـس النَّشـاط الطبيعـي البـارع لعقلها هـو المسـؤول عـن حالتهـا تلـك. ومـن جانبـي لـن أُثقـل طبعًـا عـلى ذِهنها. فيكفينـا مـا نلقـاه مـن مقـدار الإزعـاج مـن قِبَـل أُنـاسٍ يُلقـون التَّبِعـةَ عـلى العالَـم عندمـا ينبُذهـم الله. هـؤلاء يخبروننـا أنَّ هيلـين "تُحمَّـل بمـا يفـوق طاقتهـا مـن عمـل"؛ لهـذا السـبب عقلهـا نَشِـطٌ للغايـة (هـؤلاء هـم نفـس الأشـخاص الذيـن كانـوا يعتقـدون أنَّهـا بـلا عقـلٍ تمامًـا قبـل بضعـة أشـهُر!) ويقترحـون وسـائل للتـداوي سـخيفة وتعجيزيَّـة. لكـن حتَّـى الآن، لا يظهـر أنَّ أحدهـم قـد فكَّـر بتخديرهـا بالكلوروفـورم، والـذي حسـب مـا أعتقـد، هـو أنجـعُ وسـيلةٍ فحسـب، لأجـل كبـح مُمارسـتها الطبيعيَّـة لقُدُراتِهـا. كـم هـو غريـبٌ اسـتعداد النـاسِ دومًـا لإسـداء النُّصـح في أيَّـة حالـةٍ طارئـة -واقعيَّـةً كانـت تلـك الحالـة أو خياليَّـة- ولا يهـمُّ كـم مـن المـرَّات قـد أظهـرت التجربـة أنَّهـم يكونـون عـلى خطـأ، فهُـم يُواصِلـون اسـتعراض آرائِهـم، كـما لـو أنَّهـم قـد تلقَّوهـا مـن الإلـه القديـر!

أُعلِّمُ هيلين الآن الحروف المربَّعة اليدوية، كنوعٍ من اللهو والتسلية؛ فذلك يوفِّر لها شيئًا تنشَغِلُ به، ويُبقيها مُسالِمةً هادئة، وهو حسب ما أرى أمرٌ مرغوبٌ به، بينما ذلك الجو الموهِنُ يتواصل. عندها هوسٌ تامٌّ بالعَدِّ والإحصاء؛ فهي تُحصي أيَّ شيءٍ في المنزل، وهي الآن منشغلةٌ بإحصاء كلمات كتابها الأوَّل. أتمنَّى ألَّا يخطر على بالها أن تحصي عدد شعر رأسها. إن كان باستطاعتها السَّماع والإبصار، فحسب ما أعتقد، لكانت ستتخلَّصُ من طاقتها الزائدة تلك بطرائق ربَّما لم تكن لتُرهِق عقلها كثيرًا، رغمَ أنِّي أشكُّ أنَّ الطفل الطبيعي يأخذ لهوه على محمل الجِدَّة. فالرَّفيق الصغير الذي يدور حول رياض الأطفال، مُلصِقًا "نشرة نيويورك الإعلانية" على الجدران، صانعًا "تقوُّساتٍ لحدوات الحصان" وهي أشكالٌ لا يُمكن لأقلِّ القدرات التخيُّليَّة تصوُّرها، إنَّما يُركِّز كامل انتباه رُوحه على دُميته المتحرِّكة.

أتتني منذ لحظاتٍ لتقول، وعلى وجهها تعبيرٌ قلِق: "البنت- لا تحصي عددًا كبيرًا جدًّا (عديد) من الكلمات". قُلت لها: "لا، اذهبي والعبي مع نانسي". لم يسرَّها هذا الاقتراح رغم ذلك؛ فقد ردَّت عليَّ: "لا، نانسي مريضة جدًّا". سألتها ما الأمر، وقالت "الكثير (العديد) من الأسنان تجعل نانسي مريضة" (فمِلدرد في مرحلة التسنين).

تصادف أن أخبرتُها في اليوم قبل الماضي أنَّ شجرة الكروم الملاصقة للسياج هي شجرة "زاحفة". كان يسلِّيها هذا جدًّا، وشرعَت على الفور في البحث عن تشابُهاتٍ بين حركاتها هي، وحركات النَّباتات. فالنَّباتات تجري، تزحف، تقفر، تَثِبُ، تلتوي، تسقط، تتسلَّق، تتمايل، غير أنَّها تقول لي عن نفسها على نحوٍ ماكر، إنَّها: "أنا نبات يمشي [سائر]".

في الليلة الماضية، كانت هيلين تُمسك لي بعض الغزل الصوفي بينما أقُصُّه. بعد ذلك بدأت تتمايلُ في الغرفة وتدور حول نفسها، وهي

تتهجَّى لنفسها طوال الوقت وتقول: "رِيحٌ سريعة، رِيحٌ بطيئة"، وتستمتع كثيراً بخيالاتها على نحوٍ ظاهر.

15 يونيو، 1887.

لقد شَهِدنا أمس عاصفةً رعديَّة مَهيبةً، لكنَّ الطَّقسَ اليوم أكثر اعتدالًا. جميعنا يشعر بالانتعاش، كما لو أنَّنا قد أخذنا حمَّامًا. وهيلين تنضح بالحيويَّة مثل صرصار الليل. كانت تريد أن تعرف، هل كان الرجال يُطلقون النار في السماء، عندما أحسَّت هي بالرَّعد، وهل شرِبت الأشجار والزهور كلَّ ماء المطر.

19 يونيو، 1887[1].

ما زالت تلميذتي الصغيرة تواصل إظهار نفس القدر من الشَّغَفَ للتعلُّم كما كان الحال في أول الأمر. فكلُّ دقيقةٍ تقضيها في الحركة هي بمثابة سعيٍ يهدف إلى إشباع رغبتها الفطرية للمعرفة، وذِهنُها يعمل على نحوٍ متواصل، لدرجة أنَّنا خَشينا على صِحَّتها. غير أنَّ شهيَّتها -التي قد بارَحتها منذ بضعة أسابيع- قد عاودتها، ونومها يبدو طبيعيًّا وهادِئا. سوف تبلغ السابعة بحلول يوم السَّابع والعشرين من هذا الشهر. طُولها أربعةُ أقدامٍ وإنشٌ واحد، ومحيط رأسها يبلغ عشرين إنشًا ونصف، وهو طول الخط المحيطِ برأسها، والذي يمرُّ فوق بروز العظام الأماميَّة والخلفيَّة. فوق هذا الخط يبلغ ارتفاع الرأس إنشًا ورُبع الإنش.

أثناء تمشياتِنا تستمرُّ في عملية تهجئة متواصلة على يدها، ويُبهجها أن تُرافِق ذلك بتصرُّفاتٍ مثل الحَجْل، الوثب، القَفز، الجري، الخَبَبِ،

(1) نُشَرِ هذا المقتطف في تقرير معهد بيركنس السنوي لعام 1887.

مـشيِ الهوينـا، ومـا شـابَه. عندمـا تُسـقط عقـدة خيـطٍ تقـول: "هيلـين مُخطئـة، مُعلِّمـة سـوف تزعـق". لـو أنَّهـا تريـد أن تـشرب تقـول: "أعطـي هيلـين تـشرب مـاء". إنهـا تعـرف أربعمائـة كلمـة، فَضـلًا عـن عـددٍ وفـيرٍ مـن الأسـماء. علَّمتُهـا في إحـدى الحِصَـص هـذه الكلـمات: هَيـكل السريـر، مَرتَبَـة، ملايـة، بطَّانيَّـة، لِحـاف، غطـاء السريـر، وسـادة. وجـدتُ أنَّهـا في اليـوم التـالي اسـتطاعت أن تتذكَّـر جميـع الكلـمات، عـدا كلمـة واحـدة: "غطـاء السريـر". في أوقـاتٍ متباينـة مـن نفـس ذلـك اليـوم، تعلَّمَـت الكلـمات التاليـة: منـزل، غابـة، غبـار، أُرجوحـة، دِبْـس، سريـع، بطـيء، سُـكَّرُ القيقَـب وعـدَّاد، ولم تنـسَ أيًّـا مـن تلـك الكلـمات الأخـيرة. سـوف يمنحـك هـذا فكـرة عـن مـدى قـوَّةِ الذاكـرة التـي تمتلكهـا. بإمكانهـا أن تعـدَّ حتـى الرقـم ثلاثـين بسرعـةٍ جـدًّا، وتسـتطيع أن تكتـب سـبعة أحـرفٍ مـن أحـرف اليـد المربَّعـة، وكذلـك الكلـمات التـي يمكـن أن تؤلِّفهـا تلـك الأحـرف. يبـدو أنَّهـا تسـتوعبُ أمـر الأحـرف المكتوبـة، ولا تطيـقُ صـبراً حتـى "تكتـب خطابًـا لــ فرانـك". إنَّهـا تسـتمتعُ بصُنـع الثقـوب في الورقـة باسـتخدام الثقَّابـة، وأظـنُّ أنَّ ذلـك يعـود لكونهـا تسـتطيع مُعاينـةَ نتيجـة عملهـا بنفسـها، لكنَّنـا راقبناهـا ذات يـوم، وأذهلنـا كثـيراً أن نجدهـا تتخيَّل نفسـها وهـي تكتـب خِطابًـا. كانـت تتهجَّـى حـروف كلمـة "إيـڤـا" عـلى يـدٍ واحـدة (وهـي إحـدى بنـات عمومتهـا التـي تعشـقها هيلـين بجنـون)، ثـم تتصـوَّر أنَّهـا تكتـب اسـمها، بعدئـذٍ تتهجَّـى قائلـةً: "إنَّهـا مريضـة"، وتُـدوِّنُ ذلـك. واصلـت فِعـل ذلـك لمـدة سـاعة تقريبًـا. كانـت تكتـبُ في الورقـة (أو كانـت تتخيَّـل أنَّهـا تفعـل) الأشـياء التـي كانـت تثـير اهتمامهـا. عندمـا انتهـت مـن كتابـة خِطابهـا، ذهبـت بـه إلى أُمِّهـا وتهجَّـت قائلـةً: "خطـاب فرانـك"، وسـلَّمته إلى أخيهـا كي يذهـب بـه إلى مكتـب البريـد. فقـد سَـبَق وجـاءت معـي وأنـا أرسـلُ الخِطابـات مـن مكتـب البريـد.

تعرَّفـت مـن فورهـا شـخصًا كانـت قـد التقتـه ذات مـرَّةٍ، وتهجَّـت اسـمه. فبخـلاف لـورا بريدچـمَن، هيلـين مُغرَمـة بالتعـرُّف إلى الرِّجـال

المحترَمين، ونُلاحظ أنَّها تكتسبُ صداقةَ چنتلمان أسرع من التصادُق مع سيِّدة.

إنها على استعدادٍ دومًا لمشاركة أيٍّ ما يكون في حوزتها مع مَن حولها، وغالبًا ما تحتفظ لنفسها بالنَّزْر اليسير فحسب. إنَّها تعشق بِشِدَّة ارتداء الفساتين وجميع أنواع الحُليِّ المبهرجة، ويُعكِّر مِزاجَها حين تكتشف ثُقبًا في أيِّ شيءٍ ترتديه. سوف تُصِرُّ على جعل شعرها معقوصًا في "تُوَكٍ" عندما تشعر بالنُّعاس حتَّى لو هي بالكاد تستطيعُ أن تنهض. صباح اليوم قبل الماضي اكتشفَت ثُقبًا في حِذائها، وبعد الإفطار، ذهبت إلى والِدِها وتهجَّت بأصابع يدها تقول: "هيلين تريد حذاء جديد سيمسون (أخوها) عربة محلٍّ للرجال". بإمكان المرء فَهم مُرادِها بسهولة.

الثالث من يوليو 1887.

كانت هناك جلَبَةٌ هذا الصباح في الطابق الأسفل. سمعتُ هيلين تصرخ، وتنزلُ مُسرِعةً كي ترى ما الأمر. وجدتُ انفعالًا رهيبًا باديًا عليها. وكنتُ آملُ ألَّا يحدثَ هذا أبدًا مرَّةً أُخرى. فلقد كانت جِدَّ لطيفة ومُطيعةٍ خلال الشَّهرين الماضيين. كنتُ أحسبُ أنَّ المحبَّة قد روَّضت الأسد، لكن يبدو أنَّه كان نعسانًا فحسب. ففي كلِّ المناسبات، كان حضورها ظاهرًا؛ كانت تنهش وتخدش وتعضُّ ڤِني كأنَّها حيوانٌ ضارٍ من نوعٍ ما. يبدو أنَّ ڤِني كانت تحاول أخذ كوب كانت هيلين قد ملأتْه بالحصى؛ خشيةَ أن تتسبَّب بكسره. عاندت هيلين، وڤِني حاولت انتزاعه من يدها بالقوَّة، وأشكُّ أنَّها قد صفعت الطِّفلة أو فعلت شيئًا ما من شأنه أن تسببَّ في حدوث سَورة الغضب هذه غير الطبيعية. فعندما تلقَّيتُ يدها كانت ترتعشُ بعُنف، وشرعت في البكاء. سألتُها ما الأمر، تهجَّت وقالت: "ڤِني- سيِّئة"، وبدأت في

صفعها وركلها بعُنفٍ متجدِّد. أمسكتُ يَدَيْها بصلابة إلى أن صارت أكثر هدوءًا.

أتت هيلين إلى حجرتي فيما بعد، يبدو عليها الحُزن الشديد، وأرادت أن تُقبِّلَني. قلتُ لها: "لا يمكن أن أقبِّلَ فتاة مشاغبة". تهجَّت وقالت: "هيلين طيِّبة، ڤِني سيِّئة". قُلت: "أنتِ ضربتِ ڤِني، وركلتِها وآذيتِها. أنتِ كنتِ مشاغبة جدًّا، ولا يمكن أن أقبِّلَ فتاة مشاغبة". ظلَّت في مكانها لوهلةٍ دون حراك، وكان بَيِّنًا من سيماء وجهها، الذي احمرَّ من الخزي وبدا عليه الانزعاج، أنَّ صِراعًا كان يعتمل داخل عقلها. بعدئذٍ قالت: "هيلين لم (لا) تُحِب مُعلِّمة. هيلين تُحبُّ ماما. ماما سوف تعاقب ڤِني". قلتُ لها إنَّه من الأفضل أن تتوقَّفَ عن الحديث عن الأمر، إنما تُفكِّر. أدرَكَت أنَّني منزعجةٌ كثيراً، وكانت تودُّ أن لو بَقِيَت بجانبي، غير أنِّي ارتأيتُ أنَّه من الأفضل أن تجلس مع نفسها. ونحن جلوسٌ إلى طاولة العشاء، كانت قلِقةً كثيراً لأنَّني لم أكن آكل، واقترَحَت أن "يحضِّر الطباخ شاي لمعلِّمة". لكنِّي قلتُ لها إنَّ قلبي يشعر بالحزن، ولم أكن أشعر برغبة في الأكل. فبدأت تبكي وتنشجُ وتتشبَّث بي.

كانت في حالة عظيمةٍ من الإثارة عندما صعدنا إلى الطابق الأعلى؛ حيثُ أنِّي حاولت استثارة اهتمامها بحشرة مثيرةٍ للفضول، تُسمَّى: الخُنفساء. إنَّها أغرب شيءٍ قد رأيته على الإطلاق- وهي عبارة عن حزمة من العصيان الصغيرة مشدودة إلى بعضها البعض نحو منتصف جسم الحشرة. لم أكن لأُصدِّق أنَّها حيَّة، حتَّى رأيتها تتحرّك. حتى أنَّها كانت تبدو وقتها أشبهَ بدُميةٍ آليَّةٍ أكثر منها كائنًا حيًّا. لكنَّ البنت الصغيرة المسكينة لم تتمكَّن من تركيز كامل انتباهها. فقلبها كان مزدحمًا بالمشاكل، وكانت تُريد أن تتحدَّث وتزيح عن قلبها. قالت: "هل الخنفساء تدري بأمر الفتاة المشاغبة؟ هل الخنفساء سعيدة جدًّا؟". بعدئذٍ، أحاطت رقبتي بذراعيها، وقالت: "أنا (سوف

أكـون) مُطيعـة غـدًا. هيلـين (سـوف تكـون) مُطيعـة في كل الأيـام". قلـتُ لهـا: "هـل سـوف تعتذريـن لـ ڤِـني وتقـولي إنَّـكِ آسـفة جـدًّا، لأنَّـكِ خربشـتِها وركلتِهـا؟". ابتسـمَت وأجابـت: " ڤِـني لا (تسـتطيع أن) تتهجَّـى الكلـمات". قلـتُ لهـا: "أنـا سـوف أقـول لـ ڤِـني إنَّـكِ آسـفة. هـل سـوف تأتـين معـي لنبحـث عـن ڤِـني؟". كانـت جِـدَّ راغبـةٍ في الذَّهـاب لإيجادِها، وأن تسـمح لـ ڤِـني أن تُقبِّلَهـا، رغـم أنَّهـا لم تكـن تُبادِلهـا الملاطَفـة. لقـد صـارت عاطفيَّـةً منـذ ذلـك الحـين عـلى نحـوٍ غـير معهـود، ويخيَّـلُ إليَّ الآن أنَّ مُحيَّاهـا ينضـحُ لطافـةً- وهـو جـمالُ روحٍ لم أكـن قـد شَـهِدتُهُ مـن قبـل فيهـا.

31 يوليو، 1887.

قلـمُ هيلـين الرَّصـاص قلـمٌ ممتـاز، كـما سـوف تريـن ذلـك مـن الخطاب المرفَـق، وهـو مـا قـد كتبتـه كي تُسـلِّي نفسـها. أُعلِّمُهـا الآن أبجديَّـة برايـل، وإنَّــه ليُبهِجُهــا أن تصبــح قــادرةً بنفســها عــلى نَظــمِ الكلــمات التــي تتحسَّــسها.

لقـد بلغَـت الآن مـن مسـيرة تطوُّرهـا مرحلـة طـرح الأسـئلة. فطـوال اليـوم تسـأل "مـا/ مـاذا؟"، "لمـاذا؟"، "متـى"، وخصوصًـا "لمـاذا" عـلى مـدار اليـوم، وبينـما مسـتوى ذكائهـا آخـذٌ في الارتقـاء، تصبـح تسـاؤلاتها هـذه أكـثر إلحاحًـا. إنِّي لأذكُـر كيـف كنـتُ أجِـدُ حُـبَّ اسـتطلاع أطفـال أصدقـائي أمـرًا يفـوق الاحتـمال، بيـدَ أنَّنـي الآن أُدركُ أنَّ الأسـئلةَ تلـك تكشـفُ عـن اهتـمام الطِّفـل المتعاظِـم بعِلَـلِ الأشـياء. فالــ "لمـاذا" هـي البـاب، الـذي عـبره، يلِـجُ الطِّفــلُ إلى عــالم المنطِــقِ والتأمُّــل. "كيــف يعــرف النجَّــار كيـف يبنـي منـزلًا؟"، "مَـن الـذي وضـع الأفـراخ داخـل البيـض؟"، "لمـاذا ڤِـني سـوداء البـشرة؟"، "الذُّبـاب يلـدغ- لمـاذا؟"، "هـل يسـتطيع الذُّبـاب أن يتعلَّـم كيـف ألَّا يلـدغ؟"، "لمـاذا يقتـل بابـا الخـروف؟". طبعًـا هــي

تطـرح عديـدًا مـن الأسـئلة ليسـت بمثـل هـذا الـذَّكاء. فذِهنهـا لا يفكِّـر بطريقـةٍ عقلانيـةٍ كـما تفكِّـر عقـول الأطفـال الطبيعيِّـين. إجـمالًا، الأسـئلةُ التـي تطرحهـا مُشـابهةٌ لتلـك التـي يطرحهـا طفـل لامـعُ الـذَّكاء في الثالثـة مـن عُمـره، غـير أنَّ رغبتهـا في المعرفـةِ هـي أمـرٌ جـادٌّ تمامًـا؛ فأسـئلتُها ليسـت مُضجـرةً إطلاقًـا، غـير أنَّهـا تسـتنفدُ بكثافـةٍ مخـزوني الضَّئيـلَ مـن المعلومـات، وتُثقـلُ كاهـل براعتـي إلى أقـصى الحـدود.

وصلنـي خِطـابٌ مـن لـورا [برِدْچـمَن] يـوم الأحـد المـاضي. أبلغيهـا محبَّتـي لـو سـمحتِ، وقـولي لهـا إنَّ هيلـين تبعـث لهـا بالقبُـلات. قـرأتُ الخطـاب وأنـا عـلى طاولـة العشـاء، وتعجَّبـت السـيدة كِيلَـر: "يـاه يـا آنسـة آن! إنَّ هيلـين تكتـبُ الآن بإتقـانٍ، تقريبًـا مثـل خطـاب لـورا هـذا!". وهـذا صحيـح.

21 أغسطس، 1887.

لقـد قضينـا وقتًـا مُمتِعًـا في هانتسـڤِـل. جميعهـم هنـاك كانـوا فرِحـين بـهيلين، وأمطَروهـا بالقُبـلات والهدايـا. تعلَّمَـت أسـماء جميع الأشـخاص في المسـاء الأول بالفُنـدق، وهُـم أعتقـد، عـشرون شـخصًا تقريبًـا. في الصبـاح التـالي أذهلنـا أن نكتشـف بأنَّهـا كانـت تتذكَّـر جميـع الأسـماء، وتعرَّفَـت كلَّ شـخصٍ قـد التقَتْـه في الليلـة قبـل الماضيـة. علَّمـت الشـباب أبجديَّـة هجـاء الأصابِـع، وعديـدٌ منهـم تعلَّـم أن يتكلَّـمَ معهـا. علَّمتهـا إحـدى الفتيـات أن ترقـص الـپـولكا، وقـدَّم لهـا أحـد الأولاد الصِّغار أرانبـه، وتهجَّـى لهـا أسـماءَهم. كانـت في حالـةٍ مـن البهجـة، وقـد أُظهـرت سـعادتها بـأن عانقـت وقَبَّلَـت صديقهـا الصَّغـيرـ وهـو مـا تسـبَّب لـه كثـيرًا بالإحـراج.

في حوزتنـا صـورة التُقِطَـت لهيلـين مـع كلـب بـودل، أجعـد الشـعر وذي عينـين حمراويـن، وقـد أدخـل نفسـه إلى حُظـوة سـيدتي الطَّيِّبـة مُسـتعينًا

بالحِيَـل وبوسـائل الدَّهـاء، التـي وحدهـا تعرفهـا الـكلاب التـي تملـك موهبـةً فِطريَّـةً لنَيـلِ مـا تريـده.

لقـد كانـت تتحـدَّث باسـتمرارٍ منذ أن عـادت عمَّا فعلته في هانتسـڤِـل، ونُلاحِـظُ تطـوُّرًا لا جِـدال فيـه في مقدرتهـا عـلى اسـتخدام اللغـة. أخذنـا جولـة بالسَّـيَّارة إلى قِمَّـة مونتـا سـانو، وهـو جبـلٌ بديـعٌ لا يبعـد كثـيراً عـن هانتسـڤِـل، وهـي جولـةٌ مثـيرةٌ للفضـول بمـا يكفـي حيـث يبـدو أنَّهـا قـد أثَّـرت فيهـا أكـثر مـن أيِّ شيءٍ آخـر- باسـتثناء البُـودِل الرَّائـع. فهـي تتذكَّـر جميـع مـا أخبرتُهـا بـه، وحينـما كانـت تحـكي لأمِّهـا عـمَّا رأتـه كانـت تكـرِّر بالحَـرف الكلـمات والعبـارات التـي قـد اسـتخدمتُها وأنـا أصـفُ لهـا الأشـياء. وفي النهايـة سـألت أمَّهـا لـو أنَّهـا تـودُّ رؤيـةَ "جبـل عـالٍ جـدًّا وقلنسـوات جميلـة مـن السَّـحاب". أنـا لم أسـتخدِم هـذا التعبـير. فقـد قُلـت: "السُّـحب تُلامـس الجبـل برقَّـةٍ، مثـل زهـورٍ جميلـة". فكـما تريـن، كان عـليَّ أن أسـتخدِمَ كلـماتٍ وتشـبيهاتٍ تكـون مألوفـةً بالنسـبة لهـا عـبر حاسَّـة اللمـس. غـير أنَّـه يـكاد يكـون مـن العسـير أن تتمكَّـن أيُّ كلـماتٍ مُجـرَّدة مـن نقـل أدنى فكـرةٍ عـن عظمـة الجبـل إلى شـخصٍ أبـدًا لم يـرَ جبلًا، ولا أعـرف يـا تـرى هـل باسـتطاعة أيِّ إنسـان أن يعـرف أيَّ انطبـاعٍ تلقَّتـه، أو سـبب مـا شـعرت بـه مـن نشـوةٍ بسـبب مـا حُـكِيَ لهـا عنـه. كلُّ مـا نعرفـه عـلى وجـه اليقـين، هـو أنَّهـا تملـك مُخيِّلـةً وذاكـرةً ممتـازة، وقـدرةً عـلى صُنـع روابـط بـين الأشـياء.

28 أغسطس، 1887.

إنَّنـي لأتمنَّـى أن تتوقَّـف الأشـياء عـن التَّوالُـد! "جِـراءٌ جديـدة"، "عجـول جديـدة و"رُضَّـعٌ جُـدد" تلـك الأشـياء تجعـل اهتـمام هيلـين بأسـباب وبعِلـل الأشـياء مُتواصِلًا في نشـاطٍ عظيـم. قُـدومُ رضيـعٍ جديـدٍ في أيـڤـي غريـن (منـزل اللبلابـة الخضـراء) اليـوم قبـل المـاضي كان هـو

المناسبة التي بسببها تدفَّقَت أسئلةٌ جديدة بشأن أصل الأطفال، وأصل الكائنات الحيَّة على وجه العموم. "من أين حصلت ليلى على مولود جديد؟ كيف عرف الطبيب من أين يحصل على طِفلٍ رضيع؟ هل طلبت ليلى من الطبيب أن يحصل لها على مولود صغير جدًّا؟ أين عثر الطبيب على جَاي وپرنس؟ [الجِراء]"، "لماذا إليزابِث تكون أخت إيڤيلِن؟"... إلى آخره، إلى آخره.كانت تلك الأسئلة تُطرَح في ظروفٍ تجعل منها أسئلةً مثيرةً للإحراج، وقد عزمتُ أمري أنَّه لا بُدَّ من فِعلِ شيءٍ إزاء هذا الأمر. إن كان من البديهيِّ أن تطرح هيلين أسئلةً كهذه، فإنَّه من واجبي أن أُجيبَ عليها. عندما تتعاظمُ قُدراتُ الأطفال على الملاحظة والتمييز، وتستثيرُ فيهم الرغبةَ في المعرفةِ عن الأشياء، ثم نتملَّص نحن من إجابتهم بطرح الأكاذيب وبالكلام الفارغ؛ أظنُّ أنَّها غَلْطَةٌ كبيرة. فمنذ البداية، جعلتُ من الإجابة عن كلِّ تساؤلاتِ هيلين تدريبًا لأقصى قُدراتي على فِعل ذلك، على نحوٍ مفهوم بالنسبة إليها، وعلى نحوٍ صادقٍ في الوقت نفسه. "لماذا عليَّ التعامُل مع تلك الأسئلة بطريقة مختلِفة؟"، هكذا كنتُ أُسائلُ نفسي. استقرَّ رأيي بأنَّه لا سببَ يبرِّرُ فعل هذا- باستثناء جهلي البائس بالحقائق الجليلة التي عليها يقوم وجودُنا المادِّيُّ. لا شكَّ أنَّ هذا الجهل كان السببَ في أنَّني كنتُ أندفِع للسير في مسارٍ، كانت هناك ملائكة أكثر خبرة منِّي تخشى الإقدامَ فيه ولو بخُطوة. وفي ذلك الجزء من العالم، لم تكن هناك من روحٍ حَيَّةٍ، يكون في مستطاعي التوجُّه إليها طَلَبًا للنصيحة في هذا الأمر- أو في أيِّ عقبةٍ تعليميَّةٍ أُخرى في واقع الأمر. الشيء الوحيد الذي يتعيَّن عليَّ فِعله وقت الحِيرة هو أن أمضي قُدُمًا، وأن أتعلَّم ممَّا أرتكِبَه من أخطاء. لكن في هذه الحالة، أنا لا أعتقدُ أنِّي قد ارتكبتُ أيَّة أخطاء. أخذتُ هيلين، ومعي كتابي كتاب علم النَّبات "كيف تنمو النباتات" وصعدنا فوق الشجرة، حيث كُنَّا نقرأ ونذاكر في غالب الأوقات، ورَويتُ لها

في كلـماتٍ بسـيطة قصـة حيـاة النبـات. ذكَّرتُهـا ببـذور الـذُّرة، والفـول، والبطيـخ التـي كانـت قـد زرَعَتهـا في فصـل الربيـع، وأخبرتُهـا أنَّ عيـدان الـذُّرة السَّـامِقَة، وتعاريـش الفـول والبطيـخ الـذي في حديقتهـا قـد نَمَـت جميعهـا مـن تلـك البـذور. شرحـتُ لهـا كيـف تحافـظ الأرض عـلى البـذور دافئـةً ورطبـة، إلى أن تصبـح الوريقـاتُ قويَّـةً بمـا يكفـي كي تُخـرِج نفسـها وتظهـر للهـواء والنُّـور، حيـث تسـتطيع أن تتنفَّـس، وأن تنمـو، وأن تُزهِـر وتلِـد المزيـد مـن البـذور، والتـي منهـا، سـوف تولَـدُ وتكـبرُ نباتـاتٌ صغـيرةٌ أخـرى. أقمـتُ لهـا مُماثَلـةً بـين حيـاة النبـات وحيـاة الحيـوان، وأخبرتُهـا أنَّ البـذور هـي بمثابـة بيـضٍ حقيقـيٍّ، تمامًـا كبيـض الدَّجـاج وبيـض الطيـور؛ حيـث تُبقـي الدجاجـة الأم بيضهـا دافئًـا خاليًـا مـن الرطوبـة، إلى أن تُبعَـثُ منهـا الكتاكيـت الصغـيرة. جعلتهـا تفهـم أنَّ الحيـاة كلَّهـا تـأتي مـن بيضـة مـا. تضـع الطَّائـر الأمُّ بيضهـا في عُـشٍّ، وتحافِـظ عليـه دافئًـا إلى أن يفقـس عـن الطيـور الوليـدة. تضـع السـمكة الأمُّ بيضهـا في مـكانٍ، تـدرك أنَّ بيضَهـا فيـه سـيكون رطِبًـا وآمنـا، إلى أن يحـين وقـت خـروج السَّـمَك الصغـير. قُلـتُ لهـا إنَّ بإمكانهـا أن تُسـمِّي البيضـة: "مهـد الحيـاة". ثـمَّ أخبرتهـا أنَّ بعـض الحيوانـات كالكلـب والبقـرة، والكائنـات البشريـة، لا يضعـون بيضًـا، إنَّمـا يُغـذُّون أحداثَهـم داخـل أجسـامهم. لم أجـد صعوبـةً في التوضيـح لهـا بـأنَّ الحيوانـات والنباتـات، إن لم تُنتِـج نَسـلًا مـن نوعهـا، فـإنَّ وجودهـا سـوف يتوقَّـف، وكلُّ شيءٍ في العـالم سـوف يمـوت سَريعًـا. بيـد أنَّنـي مـررتُ عـلى دور الجِنـس بخِفَّـةٍ قـدر الإمـكان. رغـم ذلـك أنـا فعلـتُ وحاولـت أن أعطيهـا فكـرة، عـن أنَّ المحبَّـة هـي المسـبِّبُ الأعظـم لاسـتمرار الحيـاة. لقـد كان الأمـرُ عسـيراً، ومعرفتـي غـير كافيـة، غـير أنِّي سـعيدةٌ بكـوني لم أتملَّـص مـن الاضطـلاع بمسـؤوليَّتي، بسـبب التعـثُّرِ، والـتردُّد، ورغـم عـدم كماليَّـة شُروحـاتي ومـا كانتـه، فلقـد لمسـت وتـرًا عميقًـا حسَّاسًـا في رُوح تلميـذتي الصغـيرة، ومـدى الاسـتعداد الـذي كانـت تسـتوعب بـه حقائـق العـالم المـاديِّ أثبَـت لي الـرَّأي القائـل بـأنَّ الطِّفـل، حـين يـأتي للعـالم، فإنَّـه

يحمـلُ داخـل ذاتـه كلَّ خِـبرات بنـي جِنسِـه في طَـور السُّـبات. وتلـك الخـبرات تُشـبِه نيغاتيـف الصـور، إلى أن، يحـينَ دورُ اللغـة، لتُحمِّضهـا، وتُجـلِّي ذاكـرة الصُّـور.

4 سبتمبر، 1887.

وصـل هيلـين هـذا الصَّبـاح خِطـابٌ مـن عمِّهـا، الدكتـور كِيلَـر. دعاهـا لزيارتِـه في Hot Springs (الينابيـع الحـارَّة). أثـار اهتمامهـا الاسـم، ولقـد طرحـت عديـدًا مـن الأسـئلة بخصوصـه. هـي تعـرف بأمـر الينابيـع البـاردة. حيـث يوجـد الكثـير منهـا بالقـرب مـن توسـكامبيا، أحـد تلـك الينابيـع الكبـيرة كان السـبب في تسـمية المدينـة بهـذا الاسـم. فكلمـة "توسـكامبيا" في اللغـة الهنديـة تعنـي "الينبـوع العظيـم". لكنَّهـا دُهشِـت لوجـودِ مـاءٍ حـارٍّ يخـرج مـن الأرض. وأرادت أن تعـرف مَـن الـذي أضرمَ نـارًا تحـت الأرض، وإذا مـا كانـت تلـك النَّـارُ شـبيهةً بتلـك التـي تخـرج مـن المواقِـد، وإذا مـا كانـت تلـك النَّـار قـد تسـبَّبَت في إحـراق جـذور النَّباتـات والأشـجار.

كانـت سـعيدة جـدًّا بالخِطـاب، وبعـد أن طرحـت كلَّ الأسـئلة التـي اسـتطاعت أن تفكِّـر فيهـا، ذهبـت بالخطـاب إلى أُمِّهـا، حيـث كانـت تخيـط الملابـس في الصالـة، وقرأتـه لهـا. كان مـن الجميـل رؤيتهـا ممسـكةً بالخطـاب أمـام عينيهـا، وهـي تتهجَّـى حـروف كلِّ جُملـةٍ عـلى أصابِعهـا، تمامًـا كـما فعلـتُ أنـا معهـا. بعـد ذلـك حاولـت أن تقـرأ الخطـاب لــ بِـلْ (الكلبـة) ولمِلـدرد. السـيدة كِيلَـر وأنـا كُنَّـا نشـاهد المسرحيـة الكوميديـة الطفوليـة تلـك مـن البـاب. كانـت بِـلْ نائِمَـةً، وملـدرد شـارِدَةَ الذِّهـن. بـدت هيلـين جـادَّةً تمامًـا، وحـين حاولـت ملـدرد أن تخطـف الخِطـاب مـرَّةً أو مرَّتـين، كانـت هيلـين تُنحِّـي يدهـا في نفـاد صـبر. اسـتفاقت بِـل مـن نومهـا أخـيراً، نَفَضَـت جسـمها، وبينـما كانـت عـلى وشـك أن تمـضي،

أمسكتها هيلين من رقبتها وأجبرتها على الجثوم مُجدَّدًا. في تلك الأثناء كانت ملدرد قد خطفت الخِطاب وحبَت به بعيدًا. تحسَّست هيلين أرضية المكان بحثًا عنه، غير أنَّها عندما لم تجده، كان باديًا أنَّها تشكُّ في ملدرد، حيث أنَّها أصدرت صوتًا خافتًا والذي هو صُراخُها "صُراخُ الرَّضيعة". ثمَّ نهضت ووقفت متصلِّبةً دون حِراك، كما لو أنَّها كانت تتسمَّعُ بقَدمَيها "دبدبة" ملدرد. عندما عرفت مصدر الصوت، أسرعت إلى المتَّهمة، وقد وجدتها تلوكُ خِطابها الغالي! كان ذلك فوق قدرة هيلين على الاحتمال. انتزعت منها الخِطاب وصفعت يديها الصغيرتين بعُنف. أخذت السيدةُ كِيلَر الرَّضيعة بين ذراعيها، وعندما نجحنا في تهدئتها، سألتُ هيلين "ماذا فعلتِ للرضيعة؟" بدت منزعجة، وتردَّدَت بُرهةً قبل الإجابة. ثمَّ قالت "بنت سيئة أكلت الخطاب. هيلين صفعتها جدًّا هذه البنت السيِّئة" قلت لها إنَّ ملدرد صغيرة جدًّا، ولم تكن تعي أنَّه من الخطأ أن تضع الخِطاب في فمها.

"أنا قلتُ للرضيعة لا، لا كثير (عديد) من المرات" كان هذا ردّ هيلين.

قلت لها: "ملدرد لا تفهم ما تقولينه على أصابعك، ونحن يجب أن نكون لطفاء معها".

هزَّت رأسها رفضًا.

"الرضيعة- لا تفكِّر. هيلين سوف تُعطي الرضيعة خطاب جميل"، وبهذا أسرعت إلى الطابق الأعلى وجلبت فرخ ورقٍ مطويٍّ بعناية، من الورق المخصَّص لكتابة برايل، عليه كانت قد كتبت بعض الكلمات، وأعطته لملدرد وهي تقول: "الرضيعة يُمكنها أن تأكل كل الكلمات".

18 سبتمبر، 1887.

لستُ مندهشةً بكونِك تفاجَأتِ أنَّني كنتُ أعتزمُ كتابةَ شيءٍ ما لأجل التقرير. أنا نفسي لا أدري كيف حدث هذا، سوى أنَّني قد تعِبتُ من قولي "لا"، وقد حثَّني السيِّد كِيلَر على فِعل هذا. لقد أمَّنَ على ما قاله السيد أناجنوس، بخصوص، أنَّه من واجبي أن أقدِّمَ للآخرين ثِمار تجاربي. علاوةً على أنَّه يقول الآخرون بأنَّ نجاةَ هيلين وخَلاصَها ربَّما هي بركةٌ سوف تحلُّ بآخرين من الأطفال المبتَلين.

عندما أجلسُ لأكتب، تتجمَّدُ أفكاري، وعندما أستظهِرُها على الورق فإنَّها لتبدو لي شبيهةً بجنودٍ مصنوعين من الخشب، يصطفُّون جميعًا في طابورٍ واحد، وإن حدثَ وتقدَّمَ واحد منهم دبَّت به الحياة، أُلبِسُه أنا سُترة المجانين. رغم ذلك، فمن السهل تمامًا أن نقول إنَّ هيلين مُدهشة، لأنَّها كذلك بالفعل. لقد احتفظتُ بسِجلٍّ لكلِّ شيء قالَته الأسبوع الماضي، واكتشفتُ أنَّها تعرف ستمائة كلمة. إلَّا أنَّ ذلك لا يعني أنَّها تستخدم هذه الكلمات على نحوٍ صائبٍ على الدَّوام. فجُمَلُها أحيانًا تُشبه الأحاجي الصِّينيَّة، لكنَّها من النَّوع الذي يصنعه الأطفال حينما يحاولون التعبير عن أفكارهم غير الكاملة النُّضج، وذلك بالاستعانة بلغةٍ اعتباطيَّة. إنَّها تملك النَّزعةَ الحقيقيَّة للُّغة، وتُظهر امتلاكها لموردٍ خِصبٍ عظيمٍ، من القدرة على جعل الكلمات التي تحت تصرُّفها، تنقُلُ مُراد كلامها.

كانت مهتمَّةً كثيراً مُؤخَّرًا بالألوان. فقد وقعت على كلمة "بُنِّيٍّ" في كتابها التمهيديِّ، وأرادَت أن تعرف معناها. أخبرتُها أنَّ شَعرَها بُنِّيٌّ، فسألتني: "هل البُنِّيُّ لونٌ جميل جدًّا؟". بعد أن جُبنا أرجاء المنزل، وأخبرتُها لون كلِّ شيءٍ لمَسَته يداها، اقترحت هي بأن نذهب إلى خُنِّ الدجاج والزَّرائب، لكنِّي قُلت لها إنَّه ينبغي الانتظار ليومٍ آخر لأنَّني كنتُ مرهقة جدًّا. جلسنا سَويًّا في الأُرجوحة، لكن لم تكن هناك أيُّ

نـوع مـن الراحـةٍ حَـدَّ السَّـأم. فهيلـين كانـت متلهِّفـة لأن تعـرف "المزيـد مـن الألـوان". إنَّنـي لأتسـاءَل، هـل كانـت هيلـين تملـك ولـو فِكـرة ضَبابيَّـةً عـن الألـوان- يعنـي أيَّ انطبـاعٍ مـن الذَّاكـرة عـن الضَّـوء أو الصَّـوت. إنَّـه ليبـدو لي لـو أنَّ طِفلـةً كانـت تسـتطيع الرُّؤيـةَ والسَّـماع، حتَّـى بلغـت مـن عُمرهـا تسـعةَ عـشرَ شَـهرًا، فـلا بُـدَّ وأنَّهـا تحتفـظ ببعـض انطباعاتِهـا الأولى، ولـو كانـت انطباعـاتٍ باهتـةً إلى أبعـدِ الحـدود رغـم هـذا. إنَّهـا تسـألُني أسـئلةً كثـيرة عـن السَّـماء، عـن الليـل والنَّهـار، عـن المحيـط وعـن الجِبـال. ويروقُهـا أن أحـكي لهـا أنـا عـمَّا أراهُ في الصُّـور.

لكـن يبـدو أنَّنـي قـد فقـدتُ خيـط كلامـي. "مـا هـو لـون التفكـير؟" كان هـذا واحـدًا مـن الأسـئلة التـي طرحَتهـا وهـي في حالـةٍ مـن الاسـترخاء، بينـما كُنَّـا نتمايـلُ إلى الأمـام وإلى الخلـف في الأرجوحـة. قُلـتُ لهـا إنَّنـا، عندمـا نكـونُ سُـعداء، تكـونُ أفكارُنـا سـاطِعة، وعندمـا نكـون مُشـاغبين، تكـون أفكارنـا داكِنـة. وسريعًـا في لمـح الـبرق قالـت: "تفكـيري لونـه أبيـض. تفكـير ڤِـني أسـوَد". كـما تريـن، تتبنَّـى فكـرة، بـأنَّ ألـوان أفكارنـا تتـماشى وألـوان بَـشرةِ أجسـامنا. لم أسـتطع أن أمنـع نفـسي مـن الضَّحِـك؛ حيـث أنَّ ڤِـني الآن تـصرخ بأعـلى صوتهـا الآن في هـذه اللحظـة وتقـول:

"أتوقُ أن أكُبَّ أحجارًا من أسوار اليشب عليهم أجمعين

وأراهم؛ أولئك المذنبين، وهم يتعثَّرون ويسقطون".

3 أكتوبر، 1887.

بيـاني المقـدَّم في التقريـر قـد انتهـى وأُرسِـل. عنـدي منـه نُسـختان، وسـوف أُرسـلُ إليـكِ بنُسـخة، لكـن ينبغـي ألَّا تُطلعـي أيَّ إنسـانٍ عليـه. فهـو مِلـكٌ للسـيد أناجنـوس إلى أن يُنـشَر.

أظـنُّ البنـات الصَّغـيرات قـد اسـتمتعنَ بخِطـاب هيلـين. لقـد كتبتـه مـن بنـات أفكارهـا الخاصَّـة، كـما يقـول الأطفـال.

إنَّهـا تتحـدَّثُ كثـيراً عـمَّا سـوف تفعلـه عندمـا تذهـب إلى بوسـطن. سـألتني اليـوم قبـل المـاضي: "مَـن الـذي رتَّـب كلَّ الأغـراض لأجـل زيـارة بوسـطن؟". وتقـول إنَّ ملـدرد لـن تذهـب لهُنـاك لأنَّ "الطِّفلـة تبـكي في كل الأيـام".

25 أكتوبر، 1887.

كتبـت هيلـين أمـس خِطابًـا جديـدًا للبنـات الصغـيرات، وأرسـلَهُ والدُهـا إلى السـيد أناجنـوس. فلتطلبـي منـه أن يُطلعـكِ عليـه. لقـد بـدأت طَوعًـا اسـتخدامَ الضَّمائـر. تصـادَفَ أن قُلـتُ هـذا الصَّبـاح "هيلـين سـوف تصعـد إلى الطَّابـق الأعـلى". فضحكـت وقالـت: "مُعلِّمـة مُخطِئـة. أنـتِ سـوف تذهبـين إلى الطَّابـق الأعـلى". إنَّ تلـك خطـوة عظيمـة أُخـرى إلى الأمـام. وهكـذا يكـون الأمـر عـلى الـدَّوام. فالأمـور التـي كانـت باعثـةً عـلى الحـيرةِ أمـس، هـي اليـوم بسـيطة، ومصاعـبُ اليـومِ تصـيرُ غـدًا أمـرًا مَقْضِيًّـا.

مُراقبـة التطـوُّر السريـع الحـادِث لعقـل هيلـين أمـرٌ فاتـن. أشـكُّ أن مُعلِّـمًا آخَـر قـد حـاز كهكـذا عمـلٍ مثـيرٍ يبعـثُ عـلى الاسـتغراق. لا بُـدَّ وأنَّ في طالـع اليـوم الـذي وُلِـدتُ فيـه نجمـة حـظٍّ، وأنِّي قـد بـدأتُ لتـوِّي أن أشـهدَ فَيضَهـا الكريـم.

لقـد تلقَّيـتُ الأسـبوعَ المـاضي خِطابَـيْن مـن السـيد أناجنـوس. إنَّـه يشـعر بالامتنـان نحـوي أكـثر مِـمَّا تسـتطيعُ تعابـير اللغـة الإنجليزيَّـة أن تُبـينَ عنـه. وهـو الآن يريـد صـورة "للعزيـزة هيلـين ومُعلِّمتها اللامعـة، كي يُزيِّـنَ بهـا صفحـات التقريـر السـنوي القـادم".

أكتوبر، 1887.

لعلَّكِ قرأت خِطاب هيلين الثاني المبعوث للبنات الصغيرات. إنَّني أعي أنَّ التقدُّمَ الذي أحرزته ما بين الخِطابَين الاثنين لا بُدَّ وأنَّه يبدو أمرًا لا يُصدَّق. وحدُهم مَن يرافقونها يوميًّا باستطاعتهم أن يدركوا مدى تقدُّمِها السَّريع الذي تسير به في اكتسابِها اللغة. سوف تُلاحظين من خِطابها أنَّها تستخدمُ الكثير من الضَّمائر على نحوٍ صائب. نادرًا ما تُخطِئ في استعمال ضميرٍ أو تُسقِطُه في كلامها. شغفُها بكتابة الخِطابات وإفراغ أفكارها على الورق يتعاظم ويصير أكثر إلحاحًا. إنَّها الآن تروي قَصصًا تلعبُ المخيِّلةُ فيها دَورًا بارِزًا. وقد صارت أيضًا تُدرك أنَّها ليست مثل الأطفال الآخرين. سألتني اليوم قبل الماضي: "ما هي وظيفة عينَيَّ؟" قلت لها إنَّني أستطيع أن أرى بعينيَّ أشياء، وأنَّها باستطاعتها أن ترى تلك الأشياء بواسطة أصابع يدَيْها. بعد أن أمضت دقيقةً في التفكير قالت: "عيناي سيِّئتان!" ثمَّ غيَّرت الجملة إلى: "عيناي مريضتان!".

تقريرُ الآنسة ساليڤان الأوَّل- الذي نُشِرَ ضمن التقرير الرسمي لمعهد بيركنس لعام 1887، هو مُلخَّصٌ مُقتَضب لما قد سُجِّلَ في الخِطابات. يتبع التقرير التالي الجزء الأخير، مُبتدِئًا باليوم العظيم، يوم الخامس من أبريل، عندما تعلَّمَت هيلين كلمة ماء.

في تقاريرها، تتحدَّث الآنسة ساليڤان عن "الحِصص" كما لو أنَّها جاءَت على نَسقٍ مُنتظم. وهذا هو تأثير وضع الأشياء جميعًا في مُلخَّصٍ. فكلمة "حِصَّة" هي كلمةٌ بالغةُ الرَّسمية على أن تُستَخدَمَ في عملٍ يُجرى يوميًّا.

ذات يـومٍ أخذتُهـا إلى صهريـج المـاء. وبينـما المـاء يتدفَّـقُ مـن المِضخَّـة تهجَّيـتُ لهـا في يدهـا "م-ا-ء". نقـرت عـلى يـدي في الحـال طَلَبًـا لتكـرار الكلمــة، ثــمَّ أدَّت هــي الكلمــة بنفســها ووجههــا يُشِــعُّ أَلَقًــا. عندئــذٍ مُبـاشرةً دخلـت المربِّيـةُ حـوش صهاريـج الميـاه، وقـد جلبـت معهـا أُختهـا الصَّغـيرة. وضعـتُ يـد هيلـين عـلى جسـد الرَّضيعـة وشـكَّلتُ لهـا بيـدي كلمـة "رضيـع"، وقـد كرَّرتهـا دون مسـاعدةٍ مِنِّـي، بـل بعـون نـور إدراكٍ جديـدٍ كان يشـعُّ مـن وجههـا.

في طريــق عودتنــا إلى المنــزل، كلُّ شيءٍ كانــت تلمســه بيديهــا كانــت تريـد أن تعـرف اسـمه، وتكـرار الأسـماء نـادرًا مـا كان ضروريًـا. فـلا طـولُ الكلمــة ولا الحــروف التــي كانــت تتألَّــف منهــا الكلــمات كان يشــكِّلُ أيَّ فــارق بالنســبة للطِّفلــة. في الحقيقــة، إنَّهــا تتذكَّــرُ كلمــة أُقحــوان وكلمــة حجـر الـدَّم بسـهولةٍ وبسرعـة أكـثر مِـمَّا تتذكَّـر الأسـماء القصـيرة. بانتهـاء شـهر أغسـطس، كانـت قـد عرفـت 625 كلمـة.

أُتبِـعَ هـذا الـدَّرسُ بـدرسٍ آخـر عـن الكلـمات التـي تـدلُّ عـلى مـا يرتبـط بالمـكان. حيـث وُضِـع فُسـتانُها في حقيبـةٍ كبـيرة، ثـم وضِـعَ بعدئـذٍ عـلى الحقيبـة، وتهجـأتُ لهـا في يدهـا حـروف الجـرِّ هـذه. لقـد تعلَّمَـت سريعًـا الفـارق بـين عـلى وفي، رغـم أنَّـه قـد مـرَّ زمـنٌ قبـل أن تسـتخدِمَ تلـك الكلــمات في جُمــلٍ مــن صياغتهــا هــي. كانــت تنتهــجُ أداء دور الــمُمَثِّل في الـدَّرس متـى مـا كان هـذا ممكِنًـا، وكان ليبهجهـا أن تقـف فـوق الكُـرسي، وأن تدسَّـه داخـل الخِزانـة. تعلَّمـت ضمـن سـياق هـذا الـدَّرس أسـماءَ أفـراد العائلـة، وتعلَّمَـت الفعـل الـذي يعـبِّر عـن الوجـود/ الكينونـة[1]. "هيلـين موجودة/تكـون في الخِزانـة"، "ملـدرد موجودة/تكـون

---

(1) المقصـود هنـا هـو التصريـف "is" لفعـل الكينونـة أو الوجـود في الإنجليزيـة "be"، الـذي يُعـبرِّ عـن المفـرَد الغائـب (تذكـيرًا وتأنيثًـا) في زمـن المضـارع، وهـو غـير ضروري التصريـح بـه في تركيـب الجُملـة العربيـة في أغلـب الأحـوال؛ فهـو مفهـومٌ ضِمنًـا. (المترجِـم)

في المهد"، "الصندوق موجود/يكون فوق الطاولة"، "بابا موجود/يكون في السرير" هي جُملٌ كَوَّنَتها بنفسها في الشَّطر التالي من شهر أبريل.

تبِعَ هذا درسٌ عن الكلمات المعبِّرة عن طبيعةٍ قاطِعة. ولأجل الدَّرس الأوّل حضَّرتُ كُرتان، إحداهما مصنوعة من أردأ نوعٍ، كبيرة وليِّنة، والأخرى كانت من الرصاص. أدركَت الفارق في الحجم بينها في الحال. تناولَت كرة الرَّصاص الصغيرة واتَّخذتها علامةً ثابتةً لما هو صغير- كان هذا بأن مَثَّلَت كأنَّها تأخذ "تَنْتوفة" من جلد إحدى اليدَين. ثمَّ تناوَلَت الكرة الأُخرى وجعلت منها علامةً على ما هو كبير، وذلك ببَسْطِ كِلتا يديها فوق الكُرة. استبدلتُ الصِّفتَين صغير وكبير بتلكما العلامتين. ثمَّ توجَّه انتباهها إلى صلابة إحدى الكُرتَيْن وليونةِ الأُخرى، وهكذا تعلَّمت الكلمتان: ليِّن، وصُلْب. بعد بضعة دقائق من هذا تحسَّسَت رأس أُختها الصَّغيرة وقالت لأُمِّها: "رأس ملدرد صغير وصلب". بعدها حاولتُ تعليمها معنى كلمتَيْ سريع وبطيء. ذات يوم، كانت تُساعدُني في لفِّ بعض غزل الحياكة، كان ذلك سريعًا في البداية، ثم جرى على نحوٍ بطيءٍ بعد ذلك. عندئذٍ قُلتُ لها باستخدام هجاء الأصابع: "لفِّيه بسرعة" أو "لُفِّيه ببُطْء"، وأنا مُمسكة بيدَيها مستعرضةً كيفيَّة أداء الأمر كما أردتُه. في اليوم التالي، أثناء التدريب، تهجَّت لي قائلةً: "هيلين تَلُفُّ بسرعة"، ثمَّ شرَعَت تسير بسرعة. ثمَّ ذلك قالت: "هيلين تلفُّ ببطء"، جاعلةً تحرُّكها يتماشى مع الكلمات.

فكَّرتُ الآن بأنَّه قد حان الوقت كي تتعلَّم قراءة الكلمات المطبوعة. وضعتُ قُصاصةً مطبوعٌ عليها بالحرف البارز كلمة **صُندوق** على الصُّندوق، وأُجريت نفس التجربة مع قدرٍ بكير من المواد، لكنَّها لم تستوعب من فورها أنَّ الرُّقعة التي تحمل الاسم تدلُّ على الشيء الملصَقة به. ثم تناولتُ ورقة مطبوعةٌ عليه الأبجدية، ووضعت يدها على الحرف A، وفي نفس الوقت راسمةً بأصابعي الحرف A. كانت

تُحـرِّك إصبعها بـين كلِّ عُنـصرٍ مطبـوعٍ وآخَـر بينـما أنـا أُشـكِّل كلَّ حَـرفٍ بأصابعـي. لقـد تعلَّمـت في يـومٍ واحـد كلَّ الحـروف، بـكِلا شـكلَيْ الحـرف: الاسـتهلالي (Capital) والصغـير (small). ثـمَّ توجَّهـتُ إلى الصفحـة الأولى مـن كتابهـا التمهيـدي وجعلتُهـا تلمـس كلمـة cat (قِـطّ)، وأنـا أتهجَّـى لهـا الكلمـة في نفـس الوقـت. ومـن فورهـا فهمـت الفِكـرة، وطلبـت منِّـي أن أبحـث عـن كلمـة dog (كلـب) وعـن عديـدٍ مـن الكلـمات الأُخـرى. لقـد كانـت مُسـتاءَة فِعـلًا عندمـا لم تجـد اسـمها داخـل صفحـات الكتـاب. وعندمـا لم تكـن هنـاك جُمـلٌ بحـرفٍ بـارزٍ باسـتطاعتها أن تفهمهـا، كانـت تجلـسُ لسـاعاتٍ تتحسَّـسُ بيدهـا كلَّ كلمـةٍ في كتابهـا. حينـما كانـت تلمَـسُ كلمـةً مألوفـةً بالنسـبة إليهـا، كان يشـعُّ وجههـا بتعبـيرٍ حلـوٍ عـلى نحـوٍ مُميَّـز، وكُنَّـا لنشـهد مُحيَّاهـا وهـو يـزداد جِـدَّةً وحـلاوةً أكـثرَ يومًـا بعـد يـوم. إبَّـان ذلـك الوقـت، أرسـلتُ إلى السـيد أناجنـوس قائمـةً بالكلـمات التـي تعرفهـا هيلـين، وبكـرمٍ عظيـمٍ منـه، طبعهـا لأجلهـا. كُنَّـا نقتطـعُ أنـا وأمُّهـا صفحـاتٍ عديـدة مـن الكلـمات بالحـرف البـارز حتَّـى تتمكَّـن مـن نَظمهـا في جُمَـل. لقـد كان ذلـك يُبهجُهـا أكـثر مـن أيِّ شيءٍ فعَلَتـه عـلى الإطـلاق، والتَّمـرُّسُ المتحصَّـلُ نِتـاج ذلـك قـد هيَّـأ السـبيل لـدروس الكتابـة. لم تكـن هنـاك أيُّ صعوبـةٍ في جعلهـا تسـتوعب كيفيَّـة الكتابـة عـلى الورقـة بالقلـم الرصـاص نفـسَ الجُمـل التـي كانـت تصوغُهـا باسـتخدام القُصاصـات، وسريعًـا مـا اسـتوعَبَت أنَّـه لا حاجـة بهـا لأن تُقيِّـدَ نفسـها بالعبـارات التـي كانـت تعلَّمتهـا بالفعـل وتقتـصر عليهـا؛ بـل أدركَـت أنَّـه باسـتطاعتها أن تتجـاوَب مـع أي فكـرةٍ تخطـر ببالهـا. وضعـتُ إحـدى ألـواح الكتابـة المخصَّصـة للمكفوفـين بـين رُزم الـورق عـلى الطاولـة، وتركتُهـا تتفحَّـصُ أبجديَّـة الحـروف المربَّعـة، التـي اعتـادت أن تصنعهـا. بعـد ذلـك وجَّهـتُ يدهـا لتكـوِّن الجُملـة، مثـل: "القِـطُّ يـشرب اللـبن". وعندمـا انتهـت مـن أدائهـا، فاضَـت بهجـةً. ذهبـت بهـا إلى أُمِّهـا، وتهجَّـت لأمِّهـا الجملـة.

كانت تُحرِّك قلمها الرَّصاص في نفس المسارات الموجودة على الورق المُخَدَّد، وتفعل هذا يومًا بعد يوم، ولم يظهر عليها مُطلقًا أدنى بادرةٍ بالتعب أو الضَّجر.

بما أنَّها الآن قد تعلَّمت كيف تُعبِّرُ عن أفكارها على الورقة، علَّمتُها بعد ذلك نظام كتابة برايل. كانت تتعلَّمه وهي سعيدة؛ بعد أن اكتشفت أنَّه باستطاعتها أن تقرأ ما قد كتبَتْهُ بنفسها، وما يزالُ ذلك يمنحُها مُتعةً متواصِلة. حيث يمكنها أن تجلس إلى طاولة الكتابة المساء بأكملِه، وهي تكتبُ أيًّا ما يخطر على ذهنها المنشغل بالأفكار، ونادرًا ما كانت تواجهني صعوبةً في قراءة ما كانت تكتبه.

مستوى تقدُّمِها في مادة الحِساب كان لافتًا للنَّظر على نحوٍ مُماثِل. فباستطاعتها أن تجمع وتطرَح بسرعةٍ كبيرة، حتَّى ما مجموعه مائة، وهي تعرف جداول الضَّرب حتى جدول الخمسة. كانت تشتغل مؤخَّرًا على الرقم "أربعين"، عندما قُلتُ لها: "اجعليه ناتج ضرب رقمين". فردَّت عليَّ بُسرعة: "عشرون ضرب اثنين يساوي أربعين". بعدها قلتُ: "خمسة عشر ضرب ثلاثة تساوي...". كنتُ أنشد أن أجعلها تُحصي مجموعاتٍ من ثلاثة، وبهذا كنتُ أفترضُ أنَّها سوف تعدُّهم بالترتيب كي تعرف العدد الناتج عن ضرب خمسة عشر في ثلاثة. لكنَّها قالت الإجابة في التَّوِّ: "خمسة عشر ضرب ثلاثة يساوي خمسة وأربعين".

عندما أُخبِرَت أنها بيضاء، وأنَّ أحد الخدَمِ أسوَد؛ استنتجَت أنَّ جميع مَن يشغلون وظيفةً على نفس الشَّاكِلةِ تختصُّ بالخِدمَةِ يكونون من نفس درجة لون البشرة، ومتى ما كنتُ أسألُها عن لون بشرة خادمٍ كانت تقول: "أسود". وعندما كنتُ أسألُها عن لون شخصٍ ما لم تكن تعرفُ وظيفته كانت تبدو عليها الحيرة، ثم في نهاية الحال تقول: "أزرق".

لم تُخبَر إطلاقًا بأيِّ شيءٍ عن الموت أو عن مراسمِ دفن الجسَد، ومع ذلك، فلدى زيارتها المقبرة للمرَّة الأولى في حياتها، في رفقتنا أنا وأمِّها، وهي تبحثُ عن بعض الورود، بسطت يديها على أعيُنِنا وتهجَّت مُكرِّرةً تقول: "تبكي- تبكي". عيناها فِعلًا كانت تسحُّ بالدُّموع. لم يبدُ أنَّ الورود تهبها أيَّ بهجة، وظلَّت هادئةً تمامًا طوال الوقت الذي قضيناه هُناك.

حدث في مناسبةٍ أُخرى، بينما كانت تمشي معي، بدت واعيةً بحضور أخيها قريبًا منها، رغم أنَّنا كانت تفصلنا بيننا وبينه مسافة. تهجَّت اسمه مكرِّرةً إيَّاه، وشرعت تسير في الاتِّجاه الذي كان قادمًا هو منه إلينا.

أثناء السير أو الركوب، غالبًا ما كانت تعدِّدُ أسماء النَّاس الذين كُنَّا نلتقيهم، تقريبًا حال أن نتعرَّفهم.

تُواصل الخِطاباتُ تقديمَ التفسيرات.

13 نوفمبر، 1887.

أخذنا هيلين إلى السيرك، وقضينا "أجمل وقت في حياتنا"! العارِضون في السيرك كانوا مهتمِّين كثيراً بهيلين، وقد قاموا بكلِّ شيء استطاعوه كي يجعلوا من زيارتها الأولى للسيرك حدثًا جديرًا بأن يظلَّ ماثِلًا في الذَّاكِرة. حيث تركوها تتحسَّسُ الحيوانات متى ما كان ذلك آمِنًا. أطعَمَت الفِيَلَة، وسُمِح لها أن ترتقي فوق ظهر أكبر فيلٍ فيهم، وأن تجلس في حضْن "أميرة الشَّرق" بينما الفيلُ يسيرُ ويدورُ حول الحَلَبَةِ على نحوٍ مَهيب. تحسَّسَت أجساد بعض الأشبال. وقد كانت مُسالِمةً كما القِطَط، لكنَّني أخبرتُها بأنَّ صِغار الأُسودِ هذه سوف تصيرُ أكثَرَ وحشيَّةً وافتراسًا كُلَّما كبرت. قالت للحارس: "أنا سوف آخذ الأسود الصغيرة إلى البيت، وسوف أعلِّمها أن تكون وديعة". حارس الدِّببة

جعل دبًّا أسوَدَ يقفُ على ساقَيْه الخلفِيَّتَيْن ويمسك بكَفَّيه الكبيرتَين شخصَيْن مِنَّا، وقد صافَحَتْه هيلين بأدَب. كانت فَرحتُها بالقِرَدَة كبيرة، حيث أبقَت يدها على جسم القِرد النَّجم فيهم عندما كان يؤدِّي حِيَلَه، وضحكت من قلبها عندما خلع القِردُ قُبَّعتَه تحيَّةً للجمهور. لقد سَرق منها أحدُ القِردة الصِّغار الُّلطَفاء الشَّريطةَ التي تُزيِّنُ بها شعرها، وحاوَل آخَر أن ينتشِلَ الورد من قُبَّعتِها. لا أدري أيُّهم كان يقضي أفضل أوقات حياته: أهي القِردة، أم هيلين، أم المتفرِّجون. لعق أحدُ الفُهود يدَيها، ورفعها الرجل المسؤول عن الزَّرافات فوق ذِراعه كي تتمكَّن من تحسُّسِ آذانِها، وكي تشهَدَ كم كانت الزَّرافاتُ طويلة. تلمَّسَت أيضًا عجلةً حربيَّة يونانيَّة، ووَدَّ سائقُها لو يأخذها في جولة حول الحَلَبة، لكنَّها كانت خائفة من "الكثير من الأحصنة السَّريعة". كان راكبو الأحصنة والبهلوانات والمشَّاؤُون على الحبل سُعداء أجمعين، حيث تركوا الفتاةَ الصغيرة المكفوفة تتحسَّسُ بِدَلَهم، وتُتابع حركاتِهم متى ما تسنَّى لها ذلك، وقد قَبَّلَتهم جميعًا، مُظهرةً لهم امتنانها. بعضهم كان يبكي، وقد جَفَلَ إنسان الغاب البرِّي البورنيُّ[1] لدى رؤيته وجهها الحُلو الصَّغير ونَكَص فَزِعًا. ظلَّت لا تتحدَّثُ عن شيءٍ من وقتها سوى عن السيرك. وحتَّى أُجيب عن أسئلتها التي كانت تطرحها؛ كنتُ مُجبَرَةً أن أقرأ قدرًا كبيراً من المعلومات عن الحيوانات. إنَّني أشعرُ كما لو أنَّ المكان قد صار في الوقت الحالي عبارة عن أدغال متنقِّلة على عَجلات!

(1) أحد فصائل القِرَدَة الشَّبيهةِ بالإنسان، يعيش في المناطق الاستوائيَّة، وموطنه الأصلي جزيرة بورينو، وهي أكبر جزيرة في آسيا، وثالث أكبر جزيرة في العالم. (المترجِم)

12 ديسمبر، 1887.

أجد أنَّه من العسير عليَّ تقريبًا أن أُدرك حلول الكريسماس علينا هنا، بالرَّغم من أنَّ هيلين لا تتحدُّث عن شيءٍ سواه. هل تذكرين كيف كان وقتًا سعيدًا ما قضيناه الكريسماس الماضي؟

تعلَّمت هيلين أخيرًا أن تعرف السَّاعة، ويعتزمُ والدها إهداءَها ساعةً كهديَّة الكريسماس.

إنَّ هيلين تتلهَّفُ أن تُروى لها القصص تمامًا كأيِّ طفلٍ سامعٍ عرفتُه على الإطلاق. لقد جعلتني أُعيد رواية حكاية **ذات القُبَّعة الحمراء**[1] مرَّاتٍ كثيرة، لدرجة أنَّني كنت أعتقد أنيِّ قادرةٌ على روايتها على نحوٍ معكوس. تُعجبُها القصصُ التي تجعلها تبكي- أظنُّ أنَّنا هكذا جميعًا، من اللطيف للغاية أن يشعر المرء بالحُزن عندما لا يكون هناك شيء مُعيَّن يُشعرُه بالحُزن. إنَّني أُعلِّمُها الآن بعضًا من أوزان الشِّعر وأُلقِّنُها أيضًا بعضَ الأبيات؛ فذلك يعمل على تثبيت الأفكار الجميلة بعقلها. أظنُّ أيضًا أنَّ ذلك يُسرِّعُ من نموِّ قُدرات الطِّفلة؛ لأنَّه يُحفِّزُ الخيال. أنا طبعًا لا أحاولُ أن أُفسِّرَ لها كلَّ شيء. فلو أنا فعلتُ هذا؛ فلن تكون هُناك أيُّ فرصةٍ للعبة المخيِّلة. الكثير من التفسيرات الزائدة عن الحَدِّ توجِّه انتباه الطِّفل نحو الكلمات والجُمَل، وبهذا يخفقُ في استيعابِ الفكرة كوحدةٍ واحدة. فأنا لا أعتقد أنَّ المرء يستطيع أن يقرأ، أو يتكلَّم عمَّا يتعلَّقُ بهذا الأمر، حتَّى ينسى الكلمات والجمل من النَّاحية التقنيَّة.

---

(1) إحدى حكايات الأخوين غريم. (المترجم)

الأول من يناير، 1888.

إنَّـه لأمـرٌ عظيـمٌ أن يكـون للإنسـان بعـضُ النَّفـع في هـذا العالَـم، أن يكـون وجـوده ضروريًّـا بالنسـبة لشـخصٍ مـا. إنَّ اعتـمادَ هيلـين عـليَّ، تقريبًـا في أغلـب نواحـي حياتهـا يجعلنـي قويَّـةً وسـعيدة.

أسـبوع الكريسـماس كان أسـبوعًا مليئًـا بالأشـغال هـا هنـا أيضًـا. فهيلين مدعـوَّةٌ في كلِّ حفـلات اللهـو والتَّسـالي الخاصـة بالأطفـال، وأنـا آخذهـا إلى كثـيرٍ منهـا قـدر مـا أسـتطيع. أريدهـا أن تُصـادِقَ أطفـالًا وأن تظـلَّ في صُحبتهـم لأطـول وقـتٍ مُمكِـن. كثـيرٌ مـن البنـات الصغـيرات قـد تعلَّمْـنَ هِجـاء الـكلام عـلى أصابعِهِـنَّ، وهُـنَّ سـعيداتٌ بهـذا الإنجـاز. أُقنِـعَ غُـلامٌ صغـير، في السـابعة مـن عُمـره تقريبًـا، أن يتعلَّـم حـروف هجـاء الأصابـع، ولقـد تهجَّـى اسـمَهُ لهيلـين. سُرَّت بهـذا، وأظهـرت فَرحهـا بـأن عانقتـه وقبَّلَتْـه، وقـد أحرجَـه ذلـك كثـيراً.

حصلـت مَدرسـةُ الأطفـال يـوم السَّـبت عـلى شـجرة الكريسـماس، وأخـذتُ هيلـين لزيارتهـا. كانـت أوَّل شـجرة كريسـماس تراهـا في حياتهـا عـلى الإطـلاق، إلَّا أنَّهـا كانـت حائـرة، وطرحـت كثـيراً مـن الأسـئلة: "مَـن الـذي جعـل الشـجرة تنمـو في المنـزل؟ ولمـاذا؟ مَـن الـذي وضـع الكثـير مـن الأشـياء عـلى الشَّـجرة؟". أبـدت اعتراضهـا عـلى شـتَّى فواكـه الشَّـجرة وشرعـت في انتزاعهـا، مـن الواضـح أنَّهـا كانـت تعتقـد أنَّ تلـك الهدايـا موجَّهـةٌ إليهـا. رغـم ذلـك، لم يكـن مـن العسـير جَعلُهـا تسـتوعب أنَّ هنـاك هديـة لـكلِّ طِفـل، ومـن دواعـي بهجتهـا العظيمـة، أن سُـمِح لهـا بـأن تُسـلِّمَ الهدايـا للأطفـال. كانـت هنـاك هدايـا عديـدة مـن أجلِهـا. وضَعَـتْ الهدايـا عـلى أحـد الكـراسي، مُقاوِمـةً كلَّ الإغـواءات التـي كانـت تُراودُهـا بفتـح الهدايـا، إلى أن حصـل كلُّ طِفـلٍ عـلى هديَّتِـه. كانـت هنـاك بنـت، هداياهـا أقـلُّ مـن بقيَّـة الأطفـال، وقـد أصرَّت هيلـين عـلى أن تتشـارَكَ هداياهـا معهـا. كان مـن اللطيـف جـدًّا رؤيـة اهتـمام الأطفـال الشَّـغوف

بهيلين، واستعدادهم لأن يمنحوها أسباب السُّرور. بدأت التدريبات عند التَّاسعة، ولم نتمكَّن من المغادرة إلا عند الساعة الواحدة. كان رأسي يؤلمني وكذلك أصابعي، لكنَّ هيلين كانت تفور بالنَّشاط والحيويَّة كحالنا لدى مُغادرتنا البيت.

بدأ الثلج يهطل بعد العَشاء، وقد قضينا ليلةً مليئةً بالمرح، وتعلَّمنا دَرسًا ممتعًا عن تساقُط الثلوج. كانت الأرض مُغطَّاةً بالثُّلوج صباح يوم الأحد، أمّا هيلين والطَّاهي الذي يطبخ للأطفال، وأنا، فكُنَّا جميعًا نلهو بكُرات الثَّلج. بحلول الظَّهيرة اختفى كلُّ شيء. كان ذلك أوَّل تساقطُ ثلجٍ أراهُ هُنا، وقد جعلني هذا أشعر بالحنين للعودة إلى بيتي بعض الشيء. أتاح لنا مَوسمُ الكريسماس تعلُّم الكثير من الدروس، وأضاف عددًا معتبرًا من الكلمات الجديدة لحصيلة مُفردَات هيلين.

ظللنا أسابيع لا نفعل شيئًا سوى الحديث، والقراءة، وأن تروي إحدانا للأُخرى قصصًا عن الكريسماس. لستُ أحاولُ طبعًا شَرح كلِّ الكلمات الجديدة، ولا كانت هيلين حتى تفهم على نحوٍ تامٍّ القصصَ القصيرة التي أقُصُّها عليها، لكنَّ التِّكرارَ المتواصلَ يُثبِّتُ الكلمات والعِبارات بعقلها، وهي سوف تستوعب مدلولاتها شيئًا فشيئا. أنا لا أرى أيَّ مغزى في "تلفيق" محاورةٍ لأجل تعليم اللغة. إنَّ ذلك لمن الغَباء والموهِن بالنسبة للمعلِّم والتلميذ. ينبغي أن يكون الكلام عَفَويًّا، وأن تكونَ غايتُه هي تبادلُ الأفكار. إن لم يكن بعقل الطِّفل شيءٌ يُخبِرُ به، فيبدو أنَّ ذلك يستلزمُ وقتًا طويلًا ليقتضي الطِّفلَ أن يكتب على السَّبُّورة، أو يتهجَّى على أصابعه، بِشِقِّ الأنفُسِ، جُمَلًا جاهزةً عن كلمة "كَلب"، "القِطّ"، "الطائر". فلقد كنتُ أحاول من بداية الأمر أن أتكلَّمَ مع هيلين بشكلٍ طبيعيٍّ، وأُعلِّمها أن تُخبِرَني فقط بالأشياء التي تثير اهتمامها، وأن تطرح أسئلةً بغرض اكتشاف ما ترغب في معرفتِه فحسب. فعندما أراها متلهِّفةً لإخباري بشيءٍ

مـا، لكنَّهـا مُشوَّشَـةٌ لأنَّهـا لا تعـرف الكلـمات الدَّالَّـةَ عليـه، أوافيهـا بهـا وبالتعبـيرات الاصطلاحيَّـة، ونمـضي في الأمـر قُدمًـا عـلى نحـوٍ مُمتـاز. إنَّ اهتـمام الطِّفلـة وتلهُّفَهـا يجعلهـا تتجـاوزُ كثـيراً مـن العراقيـل، التـي قـد نكـون نحـن سـببًا في إبطالهـا هـذا إنْ.. توقَّفنـا عـن تعريـف كلِّ شيءٍ وعـن الإسـهاب في شرحـه. برأيـك، مـاذا سـوف يحـدث، إن حـاول المـرءُ قيـاس مسـتوى ذكائنـا بدلالـة قُدرتنـا عـلى تقديـم تعريفـاتٍ للكلـمات الشَّـائعة التـي نحـن نسـتخدمها؟ أخـشى إن وُضِعـتُ أنـا قيد هـذا الامتحان، فسـوف يتعـيَّنُ أن يُرسَـلَ بي إلى الصَّـف الابتـدائي لمدرسـةٍ خاصـة بالمتأخِّريـن عقليًّـا.

كان مـن الجميـل والمؤثِّـر رؤيـةُ هيلـين وهـي تسـتمتعُ بـأول احتفـال كريسـماس لهـا. طبعـًا علَّقَـت جـورَب هداياهـا -علَّقَـت اثنـين منـه؛ خوفـًا مـن أن ينـسى بابـا نويـل أحدهـما- وظلَّـت سـاهرةً لوقـتٍ طويـلٍ، واسـتيقَظَت مرَّتـين أو ثلاثـًا كي تتبـيَّن إن كان قـد حصـل أيُّ شيء. عندمـا أخبرتُهـا أنَّ بابـا نويـل لـن يـأتي حتَّـى تنـام، أقفلـت عينيهـا وقالـت: "هـو سـوف يظـنُّ أنَّ البنـت نائمـة". ولقـد كانـت أوَّلَ المسـتيقظين في الصَّبـاح، وأسرعـت إلى المدفـأة كي تتفقَّـد جَورَبهـا، وعندمـا تبَيَّنَـت أنَّ بابـا نويـل قـد مـلأ كِلا الجَورَبَـين، رقَصـت مـدَّةَ دقيقـةٍ تقريبًـا، ثـم تبـدَّلَ حالُهـا وصـارت هادئـة تمامًـا، وأتتنـي تسـأل، إن كان بابـا نويـل قـد ارتكَـب خطـأ مـا، وظَنَّ أنَّ هنـاك بنتـين صغيرتـين، وإن كان سـوف يعـود لاسـترجاع الهدايـا عندمـا يكتشـف غلطتـه. الخاتَـمُ الـذي أرسـلتِه لأجلهـا كان في إصبـع الجَـورَب، وعندمـا قُلـتُ لهـا إنَّـكِ قـد أعطيتِـه لبابـا نويـل كي يعطيهـا إيَّـاه، قالـت لي: "أنـا أحـبُّ السَّـيِّدة هوبكنـز". حـازَت حقيبـة كبـيرة وملابـس مـن أجـل نانـسي، وكان تعليقُهـا هـو: "الآن نانـسي سـوف تذهـب إلى الحفـل". عندمـا رأت الورقـة ولـوح برايـل، قالـت: "أنـا سـوف أكتـب خطابـات كثـيرة، وأنـا سـوف أشـكر بابـا نويـل كثـيراً جـدًّا". كان جَليًّـا أنَّ السـيِّد كِيلَـر والسـيدة زوجتـه كانـا مُتأثِّرَيْـنِ عـلى نحـوٍ عميـق، فلـدى تأمُّلِهـما الفـارق؛ مـا بـين هـذا الكريسـماس البهيـج، وكريسـماس العـام المـاضي؛ حيـث وقتهـا، لم تكـن

بنتهم الصغيرة تعي أيَّ جانبٍ من مراسم احتفاليَّات الكريسماس. فبينما كُنَّا نهبط إلى الطابق الأسفل، قالت لي السيِّدة كِيلَر والدموع تملأ عينيها: "آنسة آن، إنَّني لأحمدُ الله في كلِّ يومٍ من أيَّامِ حياتي لأنَّه قد بعثكِ لنا، غير أنِّي لم أكن أُدرك مُطلَقًا كم أنتِ نعمةٌ بالنسبة لنا حتى هذا الصَّباح". أمسك السيِّد كِيلَر بيدي، بيدَ أنَّه لم يتمكَّن من قول شيء. لكنَّ صَمتَه كان أبلَغَ من أيِّ كلام. وكان قلبي كذلك وقتئذٍ عامرًا بالامتنان وبغِبطةٍ جليلة.

اليوم قبل الماضي، مرَّت على هيلين كلمة "الجَدُّ" في قصة قصيرة، وسألت أمَّها: "أين هو الجَدُّ؟"، تقصد جَدَّها. أجابت السيِّدة كِيلَر: "هو مَيِّت". "هل طخَّه أبي بالنَّار؟" سألت هيلين، ومن ثَمَّ أضافت: "أنا سوف آكل الجدَّ على العَشاء". حتَّى هذا الوقت، معرفتُها بالموت كانت مُرتبِطةً بالأشياء التي تُؤكَل. فهي كانت تعرف أنَّ أباها كان يطخُّ طيور الحِجل ويصطادها، ويصطادُ الظِّباء، ويمُارس ألعابًا أُخرى.

سألتني هذا الصباح عن معنى كلمة "نجَّار"، وقد أثَّثَ هذا السُّؤال لدرس اليوم. بعد الحديث عن الأشياء العديدة التي يقوم النجَّارون بصناعتها، سألتني: "هل النجَّار هو مَن صنعني؟"، وقبل أن أتمكَّن من إجابتها، تهجَّت بسرعةٍ وقالت: "لا لا، مَن صنعني هو مصوِّرٌ في شيفِّيلد".

كان أحد أفران صهر الحديد قد افتُتِحَ في شيفِّيلد، وقد ذهبنا لهناك الليلة قبل الماضية كي نراهم وهم يُجرون "تشغيلة صَهر للحديد". استشعرت هيلين الحرارة وقالت: "هي الشَّمس وقعت؟".

9 يناير، 1888.

لقد وصلَ التقريرُ الليلةَ الماضية. إنَّني لأُقدِّرُ للسيد أناجنوس الأشياء اللطيفة التي ذكرها عن هيلين وعنِّي، لكنَّ طريقته المتطرِّفةَ في قولها كانت تنقُدني نقدًا لاذِعًا على نحوٍ مُجحِف. فالحقائق المصاغة ببساطةٍ كانت ستصبحُ أكثر إقناعًا إلى حدٍّ كبير! فلماذا مثلًا، يجشِّم نفسه عناء أن ينسبَ لي دوافعَ شخصيَّة لم تُواتِني في أحلامي مُطلَقًا؟ فأنتِ تعلمين، وهو يعلم، وأنا أعلم، أنَّ دافع مجيئي إلى هُنا ليس باعثُه دافعًا خيريًّا بأيِّ حالٍ من الأحوال. يالسخافة القول الذي يزعم أنَّني قد نَهلتُ مِدرارًا من الفِكر الأصيل لدكتور هاو، لدرجة أنَّه قد اشتعلت بي الرغبةُ في أن أنتشِلَ الصَّغيرةَ الألاباميَّةَ[1] من العُجمَة والظُّلُمات! أنا أتيتُ إلى هُنا، ببساطة، لأنَّ ظروف الحياة قد فرضت عليَّ أن أجني قُوتي، وقد تشبَّثتُ بأوَّلِ فُرصة عُرِضَت عليَّ، رغم أنِّي لم أكن أحسب، ولا هو كذلك، أنَّني أملكُ أيَّةَ كفاءةٍ استثنائيَّة لهذا العمل.

26 يناير، 1888.

أظنُّكِ تلقَّيتِ خِطاب هيلين. لقد استحوذَ على عقل العفريتة الصغيرة ألَّا تكتب بالقلم الرصاص. أردتُها أن تُكاتِبَ عمَّها فرانك هذا الصَّباح، إلَّا أنَّها أبَت. حيث قالت: "القلم الرصاص مُتعِبٌ جدًّا للرأس. أنا سوف أكتب إلى عمِّ فرانك خطابًا ببرايل". فقلتُ أنا: "لكنَّ العمَّ فرانك لا يستطيع أن يقرأ برايل". فقالت لي: "أنا سوف أُعلِّمُه". شرحتُ لها أنَّ العمَّ فرانك عجوز، ولن يتمكَّن من تعلُّم الكتابة ببرايل بسهولة. أجابتني في لمح البصر: "أنا أعتقد أنَّ عمّ فرانك عجوز كثيرًا (جدًّا) على أن يقرأ حروفًا صغيرة جدًّا". أقنعتُها في النهاية

(1) نِسبةً إلى بَلدتها ألاباما. (المترجِم)

بكتابة بضعة أسطُر، لكنَّها قصفت قلمها الرصَّاص ستَّ مرَّاتٍ قبل أن تتمكَّن من إنهاء الخطاب. قُلتُ لها: "أنتِ بنت مشاغبة"، ردَّت عليَّ: "لا، القلم الرصاص ضعيف". أظنُّ أنَّ اعتراضها على الكتابة بالقلم الرصاص، يمكن تعليلُه بسهولة؛ حيث كان يُطلَب منها كتابة الكثير من عيِّنات الخطابات إلى أصدقائها أو إلى غُرباء. فأنتِ تعرفين كم يبغِضُ الأطفال في المعهد فِعلَ هذا. إنَّهم يستثقلون ذلك لأنَّها عمليَّةٌ جِدُّ بطيئة، ولأنه لا يكون في مُستطاعهم قراءة ما يكتبونه أو تصحيح زلَّاتِهم.

اهتمام هيلين بالألوان يتزايد أكثر وأكثر. عندما أخبرتُها أنَّ لون عَيْنَيْ ملدرد هو أزرق، سألتني: "هل هي تُشبه سماواتٍ صغيرة جدًّا؟". بعد وقتٍ قصير، بعد أن أخبرتُها أنَّ القُرُنْفُلَةَ التي قد أُعطيَت إيَّاها كانت حمراء اللون، غضَّنت فمها وقالت: "الشِّفاه تُشبه قرنفلةً وردِيَّة". قُلتُ لها إنَّها كانت زهور الخُزامى (التيوليب) هي الورديَّة، غير أنَّها طبعًا لم تفهم التلاعب بالألفاظ[1]. أنا لا أستطيعُ تصديق أنَّ انطباعات اللون التي تلقَّتها خلال العام ونصف العام، في الفترة التي كانت تستطيعُ وقتها أن تسمع وترى، أنَّ ذلك قد ضاع بالكُلِّيَّة. فكلُّ شيءٍ نراه أو نسمعه موجود بالعقل في موضعٍ ما. ربَّما تكون تلك الأمور مثير للحيرة والالتباس بما يجعل تعرُّفَها أمرًا مُتعذِّرًا، غير أنَّ الأمر سِيَّان، كحال المنظر الطبيعي الذي نُضيِّعه عند تعاظُم كثافة الشَّفق.

t.me/soramnqraa

(1) تقصد هنا التلاعب بين كلمتي lips وtulips (الشِّفاه والخُزامى). (المترجِم)

العاشر من فبراير، 1888.

وصلنـا البيـت ليلـةَ أمـس. قضينـا وقتًـا رائعًـا في مَمْفِـس، لكنَّنـي لم أحـظَ بقسـطٍ كبـيرٍ مـن الرَّاحـة. لم تكـن الرحلـة سـوى وقـتٍ مقـضيٍّ مـن الإثـارة مـن أولهـا لآخرهـا- نُزُهـات، مـآدِبَ غـداء، حفـلاتِ اسـتقبال، وكلِّ تلـك الأمـور التـي تتورَّطـين فيهـا عندمـا تكـون في مَعيَّتِـكَ طِفلـةٌ شـغوفةٌ لا تتعـب مثـل هيلـين. لقـد كانـت تتحـدَّث عـلى نحـوٍ متواصـل. لسـتُ أدري مـاذا كان يتعـيَّنُ عـليَّ أن أفعـل، فقـد كان هنـاك بعـض الشَّـباب الصِّغـار لم يتعلَّمـوا كيـف يتكلَّمـون معهـا. كانـوا يروِّحـون عنِّـي قـدر المسـتطاع. بيـدَ أنِّي وقتئـذٍ لم أكـن أسـتطيعُ الفـوز بنصـف سـاعةٍ رائقـة، أختـلي فيهـا بنفـسي. فدائمًـا مـا يسـير الأمـر عـلى هـذا النحـو: "أوه، يا آنسـة ساليـڤـان، تعـالي لـو سـمحتِ اشرحـي لنـا، مـاذا تقصـد هيلـين؟ فنحـن لا نسـتطيع أن نجعلهـا تفهمنـا". أحسـبُ أنَّ نصـف السُّـكَّان البِيـض في مَمْفِـس قـد زارونا. لقـد لُوطِفَـت هيلـين ودُلِّلَـت كثـيرًا بمـا يكفـي لإفسـاد مـلاك، غـير أنِّي لا أعتقـد أنَّـه مـن الممكـن إفسـادُها؛ فهـي غـيرُ واعيـةٍ تمامًـا بذاتِهـا، وهـي ودودةٌ بمـا يفـوق الحـد.

المحـلَّات في مَمفـس جيِّـدة جـدًّا، وقـد تمكَّنـتُ مـن إنفـاق كلِّ المـال الـذي كان في حـوزتي. ذات يـومٍ قالـت هيلـين: "لا بُـدَّ أن أشـتري لنانـسي قُبعـة جميلـة جـدًّا". قُلـت لهـا: "حَسَـنٌ جـدًّا، نحـن سـوف نذهـب للتسـوُّق بعـد الظَّهـيرة". كان معهـا دولار مـن الفِضَّـة ودايـم واحـد[1]. حـين بلَغْنـا المتجَـر، سـألتُها كـم سـوف تدفـع لأجـل قُبَّعـة نانـسي. أجابـت دون إبطـاء: "أنـا سـوف أدفـع عـشرة سِـنتات". فسـألتُها: "مـاذا سـوف تفعلـين بالـدُّولار؟" كان ردُّهـا: "سأشـتري بهـا بعـض الحلـوى اللذيـذة كي آخذهـا معـي إلى توسـكامبيا".

(1) الدولار الفِضي يساوي ما قيمته واحد دولار أميركيٍّ، والدَّايم يساوي عشرة سِنتات. (المترجِم)

قمنـا بزيـارة لمقـرِّ بورصـة الأوراق الماليـة وزُرنـا باخِـرة. كانـت هيلـين مهتمَّـة جـدًّا بالسـفينة، وقـد أصرَّت عـلى أن يُسـتَعرَضَ لهـا كلُّ إنـشٍ منهـا، بَـدءًا مـن المحـرِّك وحتَّـى رايـة الصَّـاري. وقـد أرضـاني مـا قرأتـه في مجلـة Nation عـن هيلـين الأسـبوع المـاضي.

تلقَّـى السـيِّد كِيلَـر خِطابـيَن اثنـين مُثيريـن للاهتـمام منـذ وقـت نـشر "التقريـر"، أحدهـما مـن الدكتـور أليكسَـنْدر غرهـام بِـلْ، والآخـر مـن دكتـور إدوَرد إيـفـرِت هْـال. يزعـم الدكتـور هْـال وجـود قرابـة تربطـه بهيلـين، ويبـدو أنَّـه فخـورًا للغايـة بابنـةِ خالتِـه الصغـيرة. يكتـب الدكتـور بِـلْ ويقـول إنَّ تقـدُّمَ هيلـين هـو تقـدُّمٌ لا مثيـل لـه في تعليـم الصُّـمِّ، أو شـيئًا مـن هـذا القبيـل، ويُثنـي كثـيرًا عـلى مُعلِّمتهـا.

5 مارس، 1888.

لم أجـد فُرصـة لـكي أُنهـي خِطـابي أمـس. فقـد جاءتنـي الآنسـة إيـڤ كي تُسـاعدني في تحضـير قائمـة بالكلـمات التـي قـد تعلَّمتهـا هيلـين. وقـد حصلنـا مقـدار مـا مِلـؤه صفحـةٌ تقريبًـا، وفي رصيدهـا 900 كلمـة. جعلـتُ هيلـين تبـدأ في تدويـن يوميَّـاتٍ ابتـداءً مـن الأول مـن مـارس(1). لا أدري مـا هـي المـدَّة التـي سـوف تسـتمرُّها في مواصلـة ذلـك. فهـو بالأحـرى عمـلٌ سـخيف حسـب مـا أعتقـد. لكنَّهـا وإلى الآن، تجـد متعـةً عظيمـةً في القيـام بهـذا. يبـدو أنَّهـا تحـبُّ أن تحـكي عـن كلِّ شيءٍ تعرفـه. هـذا مـا كتبتـه هيلـين يـوم الأحـد:

"أنـا صحـوت مـن النَّـوم، غسـلتُ وجهـي ويـديَّ، مشَّـطتُ شـعري، قطفـتُ ثـلاث زهـرات بنفسـج نَديَّـة لأجـل مُعلِّمتـي، وتناوَلـتُ فطـوري. بعـد الفطـور لعبـت بالدُّمـى لوقـتٍ قصـير. نانـسي كانـت غاضبـة.

---

(1) أغلـب هـذه اليوميـات فُقِـدَت. رغـم ذلـك، لحُسـن الحَـظِّ، كتبـت هيلـين العديـد مـن الخِطابـات والتمرينـات، حتَّـى أنَّـه ليـس هنـاك مـن عَـوَزٍ لهكـذا نـوعٍ مـن السِّجلَّات.

الغاضبة تبكي وترفس. أنا قرأتُ في كتابي عن حيوانات كبيرة مُفترِسة. الحيوان المتفرس يكون غاضبًا كثيرًا وقويًا وجوعان جدًّا. أنا لا أُحبُّ الحيوانات المفترسة. أنا كتبتُ خطاب إلى العمّ چيمس. إنَّه يعيش في Hotsprings. هو طبيب. الدكتور يجعل صِحَّة البنت المريضة أحسن. أنا لا أحب أن أكون مريضة. بعد ذلك أتناول عشائي. أنا أحب الآيس كريم كثيرًا جدًا. بعد العشاء والدي ذهب بعيد جدًّا إلى بيرمنغهام على متن القِطار. تلقَّيتُ خطابًا من روبرت. هو يُحبُّني. إنَّه يقول، عزيزتي هيلين، روبرت كان سعيدًا لأنَّه تلقَّى خِطابًا من العزيزة الحلوة الصغيرة هيلين. أنا سوف آتي لزيارتك عندما يطلع الصبح. السيدة نيوسَم هي زوجة روبرت. روبرت يكون زوجها. روبرت وأنا سوف نجري ونقفز ونحجل ونرقص ونتمايل ونتحدَّث عن الطُّيور والزهور والأشجار والعُشب وچامبو وپيرل سوف يذهبان معنا. مُعلِّمتي سوف تقول، إنَّنا بلهاء. إنَّها ظريفة. الظريفة تجعلنا نضحك. نتالي بنت مطيعة ولا تبكي. ملدرد تبكي. هي سوف تكون بنتًا مُطيعةً في أيام كثيرة وسوف تجري وتلعب معي. السيدة غراڤز تصنع فساتين قصيرة لأجل نتالي. السيد مايو ذهب إلى Duckhill وجلب معه إلى البيت الكثير من الزهور الجميلة. السيد مايو والسيد فارِّس والسيد غراڤز يحبُّونني أنا ومُعلِّمتي. سوف أذهب إلى مَمْفِس كي أزورهم عمَّا قريب، وسوف يُعانقونني ويُقبِّلونني. ثورتون يذهب إلى المدرسة ويوسِّخ وجهه. الولد يجب أن يكون حذرًا جدًّا. بعد العشاء مرحنا أنا ومُعلِّمتي في السَّرير. هي دفنتني تحت المخدَّات ثم كنت أنا أظهر ببطء جدًّا مثل الشجرة لمَّا تخرج من الأرض. الآن سوف أذهب لأنام.

هيلين كِيلَر".

السادس عشر من أبريل، 1888.

عُدنا للتَّوِّ من الكَنيسة. لقد قال السيِّد كِيلَر على مائدة الإفطار هذا الصَّباح، إنَّه يتمنَّى لو آخذ هيلين إلى الكنيسة. فسوف يكون في القُدَّاس زُمرةٌ من النَّاس، وهو كان يريد أن يرى الوزراءُ هيلين. كان اجتماع الأحد المدرسي مُنعقِدًا حين وصلنا، وأتمنَّى أن لو كان في استطاعتكِ أن تَشْهَدي ما أحدَثه دخول هيلين من ضجَّة. كان الأطفال جِدَّ مسرورين لرؤيتها في يوم الأحد المدرسي، لم يكونوا منتبهين لما يقوله مُعلِّموهم، بل كانوا يقومون من مقاعِدهم مُتهافتين وقد أحاطوا بنا. قَبَّلَتهم كلَّهم، الأولاد والبنات، مَن شاء ومن لم يَشَأ. يبدو أنَّها ظَنَّت في أول الأمر أنَّ هؤلاء الأطفال هم أبناء الزَّائرين من الوزراء، لكنَّها سَريعًا ما تعرَّفَت بعضًا من أصدقائها الصِّغار بينهم، وقلتُ أنا لها إنَّ الوزراء لم يجلبوا أطفالهم معهم. بدَت مُحبَطةً وقالت: "أنا سوف أَبعثُ إليهم بالكثير من القُبُلات". طلب منِّي أحد الوزراء أن أسأل هيلين: "ما هي الوظيفة التي يؤدِّيها الوزراء؟". قالت: "هم يقرؤون ويتحدَّثون إلى الناس بصوتٍ عالٍ يحثُّونهم كي يكونوا صالحين". دوَّنَ إجابتها في دفتر مُلاحظاتِه. عندما حان وقت بدء القُدَّاس، كانت في حالةٍ من الحماس بحيث أنَّني كنتُ أرى أنَّه من الأفضل أن آخذها بعيدًا، إلَّا أنَّ النَّقيب كِيلَر قال: "لا، سوف تكون على ما يُرام"؛ لذا لم يكن هناك ما ينبغي عمله سوى البقاء. كان من المستحيل إبقاء هيلين هادِئَةً. كانت تُعانقني وتُقبِّلُني، وكذلك فعلت مع الكاهن وديع المحيَّا الذي كان يجلس في الناحية الأخرى منها. أعطاها ساعته لتلهوَ بها، لكنَّ ذلك لم يُبقِها هادئة. حيث أنَّها كانت تُريد أن ترِيَها إلى الولد الصغير الذي كان يجلس في المقعد الذي وراءنا. عندما بدأت طقوس العشاء الرَّبَّاني، تشمَّمَت الخَمر، وتنشَّقَته مُحدثةً صوتًا عاليًا لدرجة أنَّ جميع مَن في الكَنيسة كان في وُسعهم سماعها. عندما مُرِّرَ الخَمرُ إلى جارنا، كان مُضطرًّا لأن يقف كي يحول بينها وبينه؛ حتى لا

تأخـذه منـه. لم أكـن قَـطُّ سـعيدةً بالخـروج مـن مـكانٍ كـما كنـتُ وأنـا أُغـادِرُ الكنيسـة! حاولـتُ أن أُسرِع بهيلـين للخـروج مـن الأبـواب، إلَّا أنَّها أبقـت ذِراعهـا مُنبسِـطًا، وكلُّ طَـرفِ ذَيـلِ مِعطَـفٍ كانـت تلمسُـه كان يقتـضي مـن صاحبـه أن يسـتدير نحونـا ويُفصِّـلُ بيانًـا عـن الأطفـال الذيـن تركهـم في البيـت ولم يأتـوا، ويتلقَّـى القُبـلات حسـب عـدد الأطفـال. كان الجميـع يضحكـون مـن تصرُّفاتِهـا الظريفـة، وكنـتِ لتظُنِّـين أنهـم كانـوا يُغـادرون مكانًـا للَّهـو وليـس كَنيسـة. دعـى النَّقيـب كِيلَـر بعضًـا مـن الـوزراء عـلى العَشـاء. وكان مـن المتعـذِّر السـيطرةُ عـلى تصرُّفـات هيلـين. وصفـت للجَمـع، عـبر أكـثر أشـكال التمثيـل الصَّامـت حيويَّـةً، مُدعَّـمًا ذلـك بهجـاء الأصابـع، وصَفَـت مـا كانـت تنتـوي القيـام بـه في بريوِسـتر. أخـيرًا قامـت مـن مكانهـا ومضـت تـؤدِّي تصويـرًا حركيًّـا لفِعـل التقـاط القواقـع والطحالـب البحريـة، والطرطشـة في الميـاه، رافعـةً تنُورتهـا أعـلى مِـمًّا يقتضيـه الحـال لـو كان عـلى الحقيقـة. ثـمَّ رَمَـت جسـمها عـلى الأرضيَّـة وبـدأت تعـوم عـلى نحـوٍ يفيـضُ نشـاطًا، لدرجـة أنَّ بعضًـا مِنًـا ظَنُّـوا أنَّنـا لسـوف نُلفَـظُ مـن كراسـينا! تكـون حركاتُهـا في الغالـب أكـثرَ تعبـيرًا مـن أيِّ كلـمات، إنَّهـا بهيَّـةٌ كـما حُوريَّـة.

أتسـاءلُ إن كانـت الأيَّـام معـكِ تبـدو وكأنّ لا نهايـة لهـا الحـال معـي. إنَّنـا لا نتحـدَّثُ عـن شيءٍ ولا نُخطِّـطُ ولا نحلـمُ بـشيءٍ إلا ببُوسـطن، بوسـطن، بوسـطن. أظـنُّ أنَّ السـيدة كِيلَـر قـد قـرَّرت قَطعًـا أن تـأتي معنـا، لكنَّهـا لـن تمكُـث فصـل الصيـف بأكملـه.

15 مايو، 1888.

هـل تُدركـين أنَّ هـذا هـو آخـر خِطـابٍ سـوف أكتبـه إليـك لفـترةٍ سـوف تطـولُ جـدًّا؟ فالخِطـاب التـالي الـذي سـوف تتلقَّينَـه منـي سـيكون في مظـروفٍ أصفـر، وسـيُخبركِ هـذا بالتوقيـت الـذي سـوف نصـل فيـه

بوسطن. أنا جِدُّ سعيدة لدرجة تجعلني لا أرغب في كتابة خِطابات، إلا أنَّني لازم أن أخبرك عن زيارتنا لـ سِينْسِيناتي.

قضينا أسبوعًا مُبهجًا في صُحبة "الأطِبَّاء". التقانا الدكتور كِيلَر في مَمْفِس. تقريبًا كلُّ شخصٍ كان على مَتن القِطار كان طبيبًا، وبدا أنَّ الدكتور كِيلَر على معرفةٍ بهم أجمعين. عندما وصلنا سِينْسِيناتي، وجدنا المكان مليئًا بالأطبَّاء. كان من بينهم عديدٌ من أطبَّاء بوسطن البارزين. أقمنا في نُزُل بورنِت. كان الجميع فرِحين بهيلين. جميعُ أولي العِلم كانوا ليُعجَبون من ذكائها وابتهاجِها. إنَّ بها شيئًا يجذب الناس. أظنُّ أنَّ هذا الشيء هو اهتمامها المرِح بكلِّ شيءٍ وبكلِّ الناس.

أينما حلَّت تكون هيلين مركز الاهتمام. كانت سعيدةً بالأوركسترا التي في الفندق، ومتى ما كان يبدأ عزف الموسيقى كانت ترقص في أرجاء الغرفة، وتُقبِّلُ وتُعانق كلَّ شخص يتصادف أن تلمَسه. لقد ترَكَ شعورُها بالسعادة أثرًا في الجميع؛ فلم يكن هناك مَن يشعر بالشَّفقة نحوها. أحد الرجال المحترمين قال للدكتور كِيلَر: "لقد عِشتُ من العمر مديدًا، ورأيتُ من الوجوه السعيدة الكثير، غير أنِّي لم أرَ قبل هذه الليلة أبدًا كهكذا وجهٍ ألِقٍ مثل تلك الطِّفلة ". وقال آخر: "اللعنة! إنَّما أنا على استعدادٍ أن أقدِّمَ كلَّ ما أملِكُه في العالم نظيرَ أن تكون بجانبي دومًا طفلةٌ كهذه". لكن ليس عندي وقت كي أكتب لك عن جميع الأشياء المبهجة التي قالها النَّاس- فسوف يُفضي هذا إلى كِتابٍ كبيرٍ جدًّا، وتلك الأشياء اللطيفة التي فعلوها من أجلنا لسوف تملأ مُجلَّدًا آخَر. وزَّع دكتور كِيلَر المقتطفات من التقرير الذي أرسله إليَّ السيد أناجنوس، ولقد كان في استطاعته أن يتصرَّف في إرسال ألفٍ منه لو أنَّه كان يملك هذا العدد. هل تذكُرين دكتور غارسيلون، الذي كان حاكم ولاية ماين لسنواتٍ عديدة؟ أخذَنا في نزهة بالسيارة ذات يوم بعد الظُّهر، وأراد أن يُهدي هيلين دُميَةً، لكنَّها قالت له: "أنا لا أحب أن يكون عندي الكثير جدًّا من الأطفال. نانسي مريضة، وأدلين

عنيدة، وإيدا جدًّا مشاغبة". ضحكنا من هذا حتى البكاء، لقد كانت جادَّةً جدًّا وهي تقول هذا. سألها الدكتور: "إذن، ماذا تودِّين أنتِ؟". أجابته: "بعض القُفَّازات الجميلة أتكلم معها". احتار الدكتور. فهو لم يكن قد سمِع قَطُّ بـ"قُفَّازاتٍ متكلِّمة"، لكنَّني فسَّرتُ له أنَّها قد شهِدَت قُفَّازًا ذات مرَّةٍ كان مطبوعًا عليه الحروف الأبجديَّة، ومن الظَّاهر أنَّها ظنَّت أنَّ أشياءَ كهذه يمكن شِراؤها. قلتُ له إنَّ في وسعه شراء بعض القُفَّازات لها لو أحَبَّ، وأنا سوف أدمِغُ عليه حروف الأبجديَّة.

تناولنا الغداء مع السيد ثاير (كاهنكم السَّابق) وزوجتِه. وقد سألني كيف علَّمتُ هيلين الصِّفات وأسماء الأفكار المجرَّدة، كالخير والسَّعادة. تلك هي نفس الأسئلة التي كانت تُطرحُ عليَّ مِئات المرَّات من العارفين من الأطبَّاء. يبدو لي أنَّه من الغَرابة بمكان، أنَّ الناس يجب أن يندهشوا مِمَّا هو في الوقع أمرٌ بسيط جدًّا. السَّبب هو، بما أنَّه من السَّهل أن نعلِّمَ الطِّفلَ اسمَ فِكرةٍ ما، لو أنَّها صيغت داخل ذِهن الطِّفل على نحوٍ واضح؛ فكذلك هيِّنٌ هو أن نعلِّمه اسم شيءٍ ما. فلسوف تكون مَهَمَّة تعليمه الكلمات مَهمَّةً هيراقليَّةً، إن لم تكن الأفكار كائنةً بالفعل في عقل الطِّفل. لو لم تقُدْه خِبراته الشَّخصيَّةُ ومُلاحظاتُه إلى الـمُدرَكَاتِ الذهنيَّة الأساسيَّة، صغير، كبير، طيِّب، شرير، حلو، مُرّ، فلن يكون في حوزتِه ما يُلحِق به الكلمات الدلالية.

وجدتُ نفسي أنا، أنا الجاهلةُ ضئيلةُ الشَّأن، أشرحُ للرجال الحكماء من الشَّرق ومن الغرب مثلَ هذه الأشياء البسيطة، فمثلًا: لو أنَّك أعطيتَ الطِّفلَ شيئًا حُلوًا، فجعلَ يتلاعبُ بلسانه ويتمطَّقُ شَفَتَيْه ويبدو عليه السرور، فإنَّه بفِعله هذا يملكُ إحساسًا لا لَبسَ فيه، ولو أنَّه، في كُلِّ مرَّةٍ يُعاينُ هذه التجربة؛ يعني يسمع كلمة "حُلو"، أو تُتَهجَّى له على أصابع يدِه؛ فإنَّه سوف يُقِرُّ سريعًا تِلك العلامة الكَيفيَّة، للتعبير عن إحساسِه. وعلى نحوٍ مُماثل، لو أنَّكَ وضعت

نُتفَةً من ليمونة على لسانه، فإنَّه سوف يُغضِّنُ شَفَتَيْهِ ويحاول أن يبصق قِطعة الليمونة، وبعد أن يُعاين تلك التجربة بضع مرَّات، فإذا ما عرضتَ عليه ليمونة؛ فسوف يقفل فمه ويظهر تعابير على وجهه تفيدُ بوضوحٍ أنَّه يتذكَّرُ الإحساس الكريه. فتقومُ أنتَ بتصنيف الشيء على أنَّه مُرٌّ، ويتبنَّى هو استخدام رمزِكَ. لو أنَّك سمَّيتَ هذه الأحاسيس أبيض وأسود على نحوٍ مُتعاقِب، فلسوف يستخدمهما طَوعًا، غير أنَّه سوف يقصد بما هو أبيض وأسوَد نفسَ الأشياء التي يعني أنَّ كلًّا منها حلو ومُرٌّ. وبنفس الطريقة، يتعلَّمُ الطِّفلُ من تجارب عديدة أن يُميِّز مشاعِرَه، فيأتي دورنا نحن ونخلعُ عليها أسماءً- طيِّب، شرير، لطيف، فَظّ، سعيد، حزين. ليس المعوَّلُ على الكلمة، بل القُدرة على مُعاينة الإحساس الذي يكون ذا أهميَّةٍ في عملية تعليمِه.

يُضاف هذا المقتَطَف من أحد خِطابات الآنسة ساليڤان، حيث يتضمَّنُ آراءً عارضةً مثيرةً للاهتمام، أُثيرَت بفعل ملاحظة طرائق آخرين.

زُرنا مدرسة صغيرة لتعليم الصُّمّ. وقد استُقبلنا بحفاوةٍ للغاية، واستمتعت هيلين بلقاء الأطفال. كان هناك بالمدرسة مُعلِّمتان اثنتان تعرفان هِجاء الأصابع، وتحدَّثتا إليها دون مُترجِم فَوريّ. كانتا مُندهِشَتيْن لإتقانِها اللغة. قالتا إنَّه ليس في مدرستِهما أيُّ طِفلٍ يُماثِلُ هيلين في قُدرتها على التعبير، وبعضٌ من هؤلاء الأطفال قد قضى سنتين أو ثلاثًا قيد التعليم. كنتُ أميلُ إلى الشَّكِّ في البداية، لكن بعد أن رأيتُ الأطفال أثناء الدروس مُدَّة ساعتين؛ أدركتُ أنَّ ما قد قيلَ لي حقيقيٌّ، ولم أندهِش. ففي إحدى الغُرَف، كان بعض الصِّغار يقفون أمام السَّبورة، وقد كتبوا "جُملًا بسيطة" تبعثُ على الألم. واحدة من

الفتيات الصغيرات قد كتبت: "أنا عندي فستان جديد. إنَّه فستان أنيق. ماما أنا صنعَتْ لي فستاني الجديد الأنيق. أنا أُحبُّ ماما". ولدٌ صغيرٌ أجعَد الشَّعر كان يكتب: "أنا عندي كُرة كبيرة. أنا أحبُّ أن أركل كُرتي الكبيرة". عندما ولجنا إلى داخل الحجرة، كان انتباه الأطفال مُثبَّتًا على هيلين. جذبني أحد الأطفال من كُمِّي وقال: "البنت عمياء". كانت المعلِّمة تكتب على السَّبُّورة: "اسم البنت هو هيلين. هي صمَّاء. هي لا تستطيع أن ترى. نحنُ حزينون جدًّا لهذا". قُلتُ لها: "لماذا تكتبين تلك الجُمل على السَّبُّورة؟ ألن يفهم الأطفال إن أنتِ تحدَّثتِ معهم عن هيلين؟". قالت المعلِّمةُ شيئًا ما عن تحصيلهم للأساس التعليمي الصحيح، وشرعت تُنشِئُ على السبورة تدريبًا مكتوبًا عن هيلين للأطفال. سألتُها إن كانت البنت الصغيرة، التي كتبت عن فستانها الجديد، هل كانت سعيدة بفستانها على وجه الخصوص. "لا"، أجابتني، "أظنُّ أن لا، لكنَّ الأطفال يتعلَّمون على نحوٍ أفضل، لو أنهم يكتبون عن الأشياء التي تهمُّهم شخصيًّا". بدا لي هذا أمرًا آليًّا وعسيرًا، وكان قلبي يتألَّم من أجل الأطفال الصغار المساكين. فلا أحد يمرُّ بباله أن يجعل طفلًا سامعًا يقول: "أنا عندي فُستان جديد" في بداية تعليمه. فهؤلاء الأطفال كانوا أكبر من الرَّضيعة التي تتلعثم في حديثها، هذه حقيقة، وتقول: "بابا يقبِّل الرَّضيع- جميل"، ثمّ تُتَمِّمُ معنى الجملة وتُشير إلى فستانها الجديد، لكنَّ قدرتهم على فَهم اللغة واستخدامها لم تكن تجاوِزُ هذا.

كان نفس هذا العائق موجودًا في كافَّة أنحاء المدرسة. ففي كلِّ فَصلٍ رأيتُ جُملًا مكتوبة على السبورة، وكان من الواضح أنَّها قد كُتِبَت لأجل شَرح قاعدةٍ نَحويَّةٍ ما، وبغرض استخدام كلماتٍ مُرتبطةٍ بها أو بغيرِها تكون قد دُرِّسَت قَبلًا. هذا النَّوع من الممارسات ربَّما يكون ضروريًّا في بعض المراحل من التعليم، لكن ليس بهذه السَّبيل تُكتَسبُ اللغة. أعتقد أنَّه، لا شيء يُدمِّرُ نزوعَ الطِّفل للتحدُّثِ بشكلٍ

طبيعيٍّ، أكثر كفاءة من تمارين السبورة هذه. فالفصل المدرسي ليس هو المكان المناسب لتعليم اللغة لأيِّ طِفلٍ يافع، على الأقل بالنسبة للطِّفل الأصَمِّ. يجب أن يظلَّ الطِّفلُ الأصَمُّ مثل الطِّفل السَّامِع؛ يعني غير واعٍ بواقعِ أنَّه يتعلَّمُ كلماتٍ، وينبغي أن يُسمَحَ له بالثرثرة على أصابعه، أو باستخدام قلَمِه الرَّصاص، بكلماتٍ أُحاديَّة المقطَع إن اختار، إلى أن يحلَّ ذلك الوقت الذي يقتضيه إدراكُه المتنامي الحاجةَ إلى الجملة. فلا ينبغي أن ترتبِطَ اللغة في ذهنه بالسَّاعات التي لا تنتهي في المدرسة، المقضيَّةِ في الأسئلة المحيِّرة عن القواعد، أو في أيِّ شيءٍ من شأنِه أن يكون عدوًّا للمرَح. بيدَ أنِّي لا ينبغي أن أنجرفَ نحو خَصلة نقد طرائق الآخرين بصرامةٍ تفوق الحدَّ. فربَّما أنا نفسي مثلهم حائدةٌ عن السَّبيل القويمة.

* * *

تقرير الآنسة ساليفان الثاني يعود تاريخه إلى الأول من أكتوبر، 1888.

لقد كانت هيلين متمتِّعةً بوافر الصِّحةِ والعافية خلال العام الماضي. كان يُجرى لعينيها وأُذُنَيها فحصٌ من قِبل المختصِّين، وكان رأيهم أنَّ هيلين ليس في مُستطاعها أن تدركَ أدنى درجةٍ من الضَّوء أو الصَّوت.

من المستحيل أن نقرِّر إلى أيِّ مدى تُساعدها حاسَّتي الَّلمس والتذوُّق في اكتساب المعلومات، مع الأخذ في الاعتبار مُؤهِّلاتها الجسدية، لكن، طِبقًا لما قاله خبيرٌ مرموق، تُمارسُ هاتان الحاسَّتان تأثيرًا عظيمًا على النموِّ العقليِّ والنفسي. يقول دوغالد ستيوارت: "بعض من الكلمات الأكثر دلالةً، المرتبطة بذِهن الإنسان تتأتَّى له من طريق حاسَّة الشَّمِّ، والمحلُّ الظَّاهر الذي تشغله أحاسيس تلك الحاسَّة في اللغة الشِّعرية لجميع الشعوب، يكشف كم أنَّه من الطبيعيِّ والسَّهل أن تتحالف

تلـك الأحاسـيس مـع عمليـات الخيـال المنقَّحـة ومـع مشـاعر القلـب المفترَضـة". هيلـين يقينًـا تسـتخلصُ متعـةً عظيمـةً مـن تمريـن هاتـين الحاسَّـتَين. فـإن حـدث ودخلنـا إلى دَفيئـةٍ يُصبِـحُ مُحيَّاهـا ألِقًـا، وسـوف تذكـر أسـماء الزُّهـور التـي تعرفُهـا وتألفُهـا، بعـون حاسَّـة الشَّـمِّ وحدهـا. اسـتعادتها لذكريـات إحساسَـات حاسَّـة الشَّـم جليَّـةٌ للغايـة، وإن وُعِـدَت بباقـةٍ مـن تلـك الزُّهـور، يشـعُّ وجهها بتعبـيرٍ سـعيدٍ مُميَّـزٍ عـلى نحـوٍ خـاص، مُظهـرًا أنَّهـا تعـي وتعـرف أريـجَ تلـك الزُّهـور في مُخيِّلتِهـا، وأنهَّـا أمـرٌ يُدخـل السـرور عليهـا. يحـدث مـن وقـتٍ لآخَـر أن يُذكِّرَهـا شـذى زهـرةٍ مـا أو رائحـة فاكهـةٍ مـا بحـدثٍ سـعيد في حيـاةِ البيـت، أو بحفـل عيـد ميـلادٍ مُبهـجٍ لشـخصٍ مـا.

تزايَـدَت لديهـا قُـدرة حاسَّـة الَّلمـس عـلى نحـوٍ ملحـوظ خـلال هـذا العـام، واكتسـبت مزيـدًا مـن الحِـدَّة والرَّهافـة. في الواقـع، إنَّ جسـدَها مُنظَّـمٌ عـلى نحـوٍ دقيـق، لدرجـةٍ تظهـر معهـا أنَّهـا تسـتخدمه كوسـيطٍ لجعـل نَفسـها أكـثر ارتباطًـا برُفقائها مـن الكائنـات. فهـي ليسـت قـادرة عـلى تمييـز تموُّجـات الهـواء المتباينـةِ بدقَّـةٍ عظيمـةٍ فحسـب، وكذلـك اهتـزازات الأرض المحدَثـة بفِعـل الأصـوات والحـركات، وتسـتطيع أن تتعـرَّف أصدقاءَهـا وأقارِبهـا بمجـرَّدِ أن تلمَـس أيديَهـم أو ملابسَـهم، إنمَّـا تُـدرك أيضًـا الحالـة العقليـة لأولئـك المحيطـين بهـا. فمـن المسـتحيل لأيٍّ كان، وهـو يتحـاورُ مـع هيلـين، أن يكـون سـعيدًا أو حزينًـا عـلى نحـوٍ مُميَّـز، ويحجـب عنهـا معرفـة تلـك الحقيقـة.

إنَّهـا تُلاحِـظُ أدنى نـبرةٍ توكيديَّـةٍ تُضفـى عـلى الكلمـة في المحادثـات، وتكتشـفُ المقصِـدَ مـن كلِّ تغـيُّرٍ في وضـع اليـد، وفي التلاعبُـات المتنوِّعـة لعضـلات اليـد. فهـي سريعًـا مـا تسـتجيبُ لضغطـةِ اليـد اللطيفـة التـي تنـمُّ عـن الحنـان، للتربيتَـةِ التـي تفيـد الموافَقَـة، التشـنُّج الـذي يـدلُّ عـلى نفـاد الصَّـبر، الحركـة الصَّارمـة الآمِـرَة، ولكثـيرٍ مـن تنويعـات لُغـة المشـاعر التـي تقريبًـا لا تنتهـي، وقـد صـارت خبـيرةً جـدًّا في تفسـيرِ تلـك اللغـة غـير

الواعيـة للمشـاعر، حَـدَّ أنَّهـا كثـيرًا مـا تكـون قـادرةً عـلى التكهُّـنِ بأفكارنـا الحقيقيَّـة.

في بيـانٍ تقريـريٍّ عـن هيلـين العـام الماضي، أتيـتُ عـلى ذِكـرِ شـواهِدَ عديـدة، كانـت هيلـين تبـدو فيهـا وقـد ابتدَعَـت اسـتخدام قُـدرةٍ عقليـة غـير قابلـة للتفسـير، بيـدَ أنَّـه الآن يظهـرُ لي، بعـد إعـادة النَّظـر في الأمـر بـشيءٍ مـن التدقيـق، أنَّ تلـك المقـدرةَ يمكـن أن يُفسَّرَ سـببُها ويُعـزى إلى أُلفتهـا التَّامَّـة للتنويعـات العضليـة لهـؤلاء الذيـن يحـدث أن تتواصـل معهـم، حيـث يكـون سـبب تلـك التنويعـات هـي مشـاعرهم. فلقـد كانـت مُجـبَرة عـلى الاعتـماد بشـكلٍ كبـير عـلى تلـك الحاسَّـة العضليَّـة، كوسـيلةٍ للتثبُّـتِ مـن الحالـة الذِّهنيـة لهـؤلاء المحيطـين بهـا. لقـد تعلَّمَـت أن تربِـط بـين حـركات معيَّنـة للجسـم وبـين الغضـب، وحـركاتٍ أخـرى مـع الفـرَح، وأُخـرى لا تـزال تربطُهـا بالحـزن. ذات يـوم، بينـما كانـت تتمـشَّى بصحبـة أمِّهـا ومـع السـيد أناجنـوس، رمـى عليهـم أحـد الأولاد قذيفـة، أصابـت السـيدة كِيلَـر بالفَـزَع، استشـعرت هيلـين فـورًا التغيُّرَ الحـادِثَ في حـركات أُمِّهـا، وسـألتها: "مـا هـو الأمـر الـذي نحـن خائفـون منـه؟". في إحـدى المـرات، عندمـا كنـتُ أمـشي معهـا في الشَّـارع العمومـي، رأيـتُ شُرطيًّـا يقـود رجُلًا إلى مقـرِّ مخفـر الشرطـة. كان ظاهـرًا أنَّ الاختـلاج التـي شـعرتْ بـه نَجَـمَ عنـه تغـيُّرٌ جَسـدَيٌّ ملمـوس؛ حيـثُ أنَّ هيلـين سـألتني بانفعـال: "مـاذا تريـن؟".

ظهـر مؤخَّـرًا تفسـيرٌ مفاجِـئٌ لتلـك القـدرة الغريبـة، عندمـا كان أخِصَّائيُّـو الأُذن يفحصـون أُذن هيلـين في سِينْسِـيناتي. أُجريَـت العديـد مـن التجـارب تهـدف إلى تحديـد إذا مـا كان عندهـا إدراكٌ للصـوت أم لا، ولأجـل البَـتِّ في هـذا. جميـعُ الحاضريـن كانـوا في ذهـول، حيـث تَبـيَّن أنَّهـا ليسـت فقـط تسـمع صـوت صافـرةٍ مـا، إنَّمـا تسـمع أيضًـا المسـتوى العـادي لطبقـة الصَّـوت. فهـي تلتفِـت، وتبتسِـم، وتتـصرَّف كـما لـو أنَّهـا قـد كانـت تسـمعُ مـا كان يُقـال. كنـتُ أنـا وقتئـذٍ أقـف بجانبهـا، مُمسـكةً بيدهـا. وبمـا أنَّنـي

أعتقـد أنَّهـا تتلقَّـى انطباعـاتٍ منِّـي، وضعـتُ يدَيهـا عـلى سـطح الطَّاولـة، وانسـحبتُ أنـا إلى الطَّـرف المقابِـل مـن الغُرفَـة. عندهـا أجـرى أخصَّائيُّـو الأُذن تجارِبهـم، وأسـفَرت عـن نتائـجَ مُغايِـرةٍ تمامًـا. فقـد ظلَّـت هيلـين بـلا حـراك خـلال إجـراء هـذه التجـارب، ولم تُظهِـرْ ولـو مَـرَّةً أدنى علامـةٍ عـلى أنَّهـا تُـدرِكُ مـا كان يحصـل في المـكان. وبنـاءً عـلى اقتراحـي، أمسـك أحـد الرجـال المحترمـين بيدهـا، وأُعيـد إجـراء التجـارب. هـذه المـرَّة، كانـت ملامـحُ وجههـا تتغـيَّرُ متـى مـا كان يُتحـدَّثُ إليهـا، لكـن، لم يكـن يبـدو عـلى سـيماء وجههـا كمثـل هـذا التهلُّـلِ القاطِـع الـذي كان يظهـر عندمـا كنـتُ أنـا هـي التـي تمسـك بيدهـا.

عـلى ذِكـر هيلـين، صُرِّحَ العـام المـاضي بـأنَّ هيلـين لا تعـرف أيَّ شيءٍ عن المـوت، أو عـن مراسـم دفـن الجسـد، إلَّا أنَّـه لـدى دخولها مقـبرةً لأوَّلِ مرَّةٍ في حياتهـا، أظهـرَت علامـاتٍ عـلى انفعـالٍ عاطفـيٍّ خالَجَهـا- لقـد كانـت عيناهـا تفيضـان بالدُّمـوع.

حـدث ظَـرفٌ لافـتٌ للنَّظـر عـلى نحـوٍ مُماثـل الصيـف الفائـت، لكـن، قبـل أن نربـط الأمـور ببعضهـا، سـوف أذكـرُ الآن مـا تعرفـه هـي بشـأن قضيـة المـوت. قبـل حتـى أن أعرفهـا، كانـت قـد شَـهِدَت حـدَثَ مـوت دجاجـة، أو طائـر، أو حيـوان صغـير مـا مـن نـوعٍ آخـر. بعـد مُـدَّة مـن زيارتنـا للمقـبرة التـي أشرتُ لهـا، صـارت هيلـين مهتمَّـة بحصـانٍ كانـت قـد التقتْـه إثـر حـادثٍ، أُصيبـت فيـه إحـدى سـاقيه وتـأذَّت عـلى نحـوٍ فظيـع، وكانـت تذهـبُ معـي يوميًّـا لزيارتـه. سريعًـا مـا صـارت حالـة السَّـاق الجريحـة أسـوأ لدرجـةٍ منعتـه مـن الحركـة ومـن رؤية ضـوء الشَّـمس. كان الحيـوان يـئِنُّ جـرَّاء الألم، واسـتجابة هيلـين لأنّاتِـه كانـت تفيضُ بالشَّـفقة. في النهايـة كان مـن الـضروريِّ قتلُـه، وعندمـا طلبـت منِّـي هيلـين في المـرة التاليـة أن نذهـب ونطمـئنَّ عليـه، أخبرتُهـا أنَّـه ميِّـت. تلـك كانـت هـي المـرة الأولى التـي قـد سـمعَت فيهـا هـذه الكلمـة. ثـمَّ شرحـتُ لهـا بعـد ذلـك أنَّـه قـد أُطلِـقَ عليـه النَّـار كي يُعتَـق مـن المعانـاة، وأنَّـه الآن مدفـون-

يعنــي وُورِيَ في الـتُّراب. كنــتُ أميــلُ لتصديــق فكــرة أنَّ رميــه بالرَّصــاص عــن عمــدٍ لم تــترك أثــرًا كبــيرًا عليهــا، لكنَّنــي أعتقــد أنهــا أدركَــت فعــلًا أنَّ الحيــاةَ كانــت هامــدةً في جســد الحِصــان، كــما هــي في الطيــور الميتــة التــي كانــت قــد تحسَّــسَتها، وأنَّهــا أيضًــا قــد وُوريَــت في الـتُّراب. منــذ ذلــك الحــدث، صِرتُ أســتعمل كلمــة مَيِّــت متــى مــا اســتلزَمَت المناســبة هــذا، لكــن دون تقديــمِ مزيــدٍ مــن الشروحــات لمعناهــا.

أثنــاء القيــام بزيــارةٍ لبرويســتر، بـ ماساتشوســتس، صاحبتني أنــا وصديقة لي في الســير بــين المقابــر. كانــت تتفحَّــصُ لافتــةً حجريــةً بعــد أخــرى، ويبــدو عليهــا الــسرور عندمــا تســتطيعُ فَــكَّ شــيفرة اســمٍ مــا ومعرفتــه. كانــت تتشــمَّمُ الزهــور، لكنَّهــا لم تُظهــر أيَّ رغبــةٍ لأنْ أقتطِفَهــا لهــا، وعندمــا جمعــتُ لهــا بعضًــا منهــا لأجلهــا، رفضــت أن تُثبِّتهــا في فســتانها. عندمــا توجَّــه انتباههــا إلى بلاطــةٍ مــن الرخــام منقــوشٌ عليهــا اســم **فلورانــس** ترقــد في ســلام، هَــوت عــلى الأرض كــما لــو كانــت تبحــث عــن شيء مــا، ثــمَّ التفتــت نحــوي ووجههــا يرتســمُ بعلامــات الانزعــاج، وســألتني: "أيــن هــي فلورانــس المســكينة؟". ثــمَّ أضافــت: "أنــا أعتقــد أنَّهــا ميتــة تمامًــا. مَــن الــذي وضعهــا في حفــرة كبــيرة؟". بينــما كانــت تطــرح هــذه الأســئلة المحزنــة، غادرنــا المقــبرة. فلورانــس كانــت هــي ابنــة صديقتــي، وكانــت سـيِّدةً شــابَّةً وقــتَ موتهــا، لكــن لم تُخــبَر هيلــين بــأيِّ شيءٍ عنهــا، ولا حتَّــى عرفــت أنَّ صديقتــي كان عندهــا ابنــة. مُنِحَــت هيلــين سريــرًا وعربــة لأجــل دُماهــا، وهــو مــا قــد تلقَّتْــه واســتخدمته مثــل أيِّ هديَّــةٍ أُخــرى. لــدى عودتنــا مــن زيــارة المقــبرة إلى المنــزل، أسرعَــت إلى الخزانــة التــي كانــت تحتفــظُ فيهــا بألعابِهــا، وحملتهــم لتُريهــم لصديقتــي وهــي تقــول: "إنهــم مِلــكٌ للمســكينة الصغــيرة فلورانــس". كان هــذا صحيحًــا، مــع أنَّنــا كُنَّــا في ذهــولٍ نحــاول اســتيعاب كيــف خمَّنَــت هــذا. في خِطــابٍ مكتــوبٍ موجَّــهٍ إلى أُمِّهــا، خــلال الأســبوع الــذي تــلى ذلــك، يقــدِّمُ بيانًــا بانطباعهــا في كلماتٍ كتبتهــا بنفســها:

"وضعتُ الرُّضَّع الصِّغار في سرير فلورانس الصغير، وسآخذهم في نُزهةٍ بعربتها. المسكينة الصغيرة فلورانس ميتة. كانت مريضة جدًّا وماتت. السيدة هـ بكت بصوتٍ عالٍ على طفلتها الصغيرة الحبيبة. لقد وُضِعت في الأرض، وهي مغطَّاة كثيرًا بالطين، وجسدها بارد. فلورانس كانت حبُوبة جدًا مثل سادي، والسيِّدة هـ كانت تُقبِّلها وتُعانِقها كثيرًا. إنَّ فلورانس حزينة جدًّا وهي داخل الحفرة الكبيرة. الطبيب أعطاها دواء كي يحسِّن حالتها، لكن المسكينة فلورانس لم تتحسَّن. عندما كانت مريضة جدًّا كانت تتقلَّب وتئنُّ وهي في السرير. سوف تذهب السيِّدة هـ كي تزورها قريبًا".

بِغَضِّ النَّظر عن نشاط عقل هيلين، هي طِفلةٌ طبيعيَّةٌ جدًّا. فهي تعشق اللهو والمرح، وتحبُّ كثيرًا أن تكون في صحبة أطفالٍ آخرين. ليست نزِقَة إطلاقًا أو مشاكِسة، ولم أرها أبدًا نافدة الصَّبر مع رفقائها في اللعب لكونهم قد أساؤوا فَهمَها. حيث تواصلُ اللعب مع أطفالٍ لا يفهمون أيَّ كلمةٍ مِمَّا تتهجَّاه وتقوله يدها، وإنَّه لمَّا يثير الشَّفَقةَ رؤية إيماءاتِها المتلهِّفة وتمثيلها الصَّامت الحماسيَّ، الذي من خِلاله، تجد أفكارها ومشاعرها طريقةً للإبانة عن نفسها. بين حينٍ وأخرى، يحاول فتًى صغيرٌ ما أو فتاة أن يتعلَّم هِجاء الأصابع. حينئذٍ يكون من الجميل مراقبةُ هيلين، وهي تسعى، بما تملكه من صَبرٍ، ولطافةٍ، ومثابرة، وهي تُرشدُ الأصابع غير المتمرِّسة لأصدقائها الصِّغار، إلى الوضع الصحيح للحروف.

ذات يوم، عندما كانت هيلين ترتدي سُترةً كانت تفخرُ بها كثيرًا، قالت أمُّها: "هناك فتاة صغيرة مسكينة، ليس عندها عباءة لتُدفِّئها. هل سوف تعطينها عباءَتك؟". شرعت هيلين تخلع عنها سُترتها وهي تقول: "أنا لا بُدَّ أن أُعطيها للفتاة الصغيرة الغريبة المسكينة".

إنَّهـا مُغرَمـة كثـيراً بالأطفـال الذيـن يصغرونهـا سِـنًّا، ووجـود طِفـلٍ رضيـعٍ مـن شـأنه أن يوقِـظَ في طبيعتهـا جميـع غرائـز الأمومـة. تتعامـلُ مـع الرُّضَّـع برقَّـةٍ مثلـما تسـتطيعُ أكـثر المربِّيـات حِرصًـا أن تعاملهـم بحنـان. مـن بـين الأمـور التـي تبعـث عـلى الـسرور؛ ينبغـي أن نُشـير إلى حُسـن انتباههـا للأطفـال الصِّغـار، واسـتعدادها للامتثـال لأهوائهـم.

عندهـا نـزوعٌ اجتماعـيٌّ حقيقـيٌّ، وهـي تبتهـجُ بصحبة هـؤلاء القادرين عـلى تتبُّـع حـركات أصابِعهـا، لكـن لـو أنَّهـا تُركـت لوحدهـا فسـوف تُسـلِّي نفسـها لسـاعاتٍ بالخياطـةِ والحياكة.

إنَّهـا تقـرأ قَـدرًا كبـيراً مـن الأشـياء. حيـث تنكفِـئ عـلى كتابهـا وعـلى وجههـا ترتسـمُ نظـرةُ انتبـاهٍ شـديد، وبينـما أطـراف أصابـع يدهـا اليُـسرى تجـري فـوق السَّـطر، تتهجَّـى الكلـمات عـلى أصابـع يدهـا الأخـرى، غـير أنَّ حركاتهـا تكـون جِـدَّ سريعـةٍ لدرجـةٍ تكـون معهـا مُبهَمَـة، حتَّـى بالنسـبة لأولئـك الـذي ألِفـوا قـراءة أكـثر حـركات يدهـا سُرعـةً وتنوُّعًـا.

كلُّ درجـة مـن درجـات المشـاعر تجـد لهـا سـبيلًا للتعبـير مـن خـلال ملامـح وجههـا النَّابـض بالحركـة. سُـلوكها طبيعـيٌّ ولطيـف، وهـو كذلـك سـاحرٌ لجلائـه وصِدقِـه البَـيِّن. إنَّ قلبَهـا مُـترَعٌ بالإيثـار وبالمـودة، لدرجـةٍ لا تسـمح بـأن يُـراود أحلامهـا خـوفٌ أو قَسـوة. هـي لا تُـدرك أنَّ المـرء بإمكانـه أن يكـون عـلى طبيعـةٍ سـوى أن يكـون رقيقًـا طيِّـبَ القَلـب. فهـي ليسـت تعـي أيَّ عِلَّـةٍ لأن تكـون فَظَّـة، وبالتَّـالي فسـلوكيَّاتُها مجَامِلـةٌ ومؤدَّبَـة.

إنَّهـا تعشـقُ جميـع الأشـياء الحَيَّـة التـي في البيـت، ولا تسـمح بـأن يُعامَلـوا عـلى نحـوٍ قـاسٍ. عندمـا تسـتقِلُّ العَربـة، فهـي لا تسـمح للسَّـائس أن يسـتخدمَ سـوطَه لأنَّـه، حسـب مـا تقـول: "الأحصنـة المسَـاكين سـوف يبكـون". ذات يـوم، كانـت منزعجـة جـدًا عندمـا وجـدت واحـدة مـن الـكِلاب وقـد ثُبِّـت قَيـدٌ حـول عُنُقِهـا. فسَّرنـا لهـا وقلنـا إنَّ سـبب فِعلنـا

هـذا هـو الحـؤول دون أن تهـرب پـيرل. أظهـرت هيلـين قَـدرًا كبـيرًا مـن التعاطـف، وفي كلِّ مناسـبةٍ سـنحت خـلال اليـوم، كانـت لتبحـث عن پـيرل وتحملهـا عـلى عاتقهـا مـن مـكانٍ إلى مـكان.

كاتَبهـا والِدُهـا الصيـفَ المـاضي يخبرهـا بـأنَّ الطيـور والنَّحـل كانـوا يأكلـون جميـع ثِمـار العِنَـب. في بدايـة الأمـر كانـت مُسـتاءةً جـدًّا، وقالـت إنَّ هـذه الكائنـات الصغـيرة "مشـاغبة جـدًّا"، لكنَّهـا بَـدَت مـسرورة حـين شرحـتُ لهـا أنَّ الطيـور والنَّحـل كانـوا جوعانـين، ولم يعرفـوا أنَّ أكلَهـم لجميـع الفاكهـة هـو تـصرُّفٌ أنـانيٌّ. في خِطـابٍ لهـا كُتِـبَ بعـد هـذا بوقـتٍ قصـير، تقـول فيـه:

"أنـا حزينـة جـدًّا لأنَّ النَّحـل الطَّنَّـان والدَّبابـير والطيـور والذُّبـاب الكبير والـدُّود كانـوا يأكلـون جميـع ثِمـار العِنـب اللذيـذة التـي تخـصُّ والـدي. إنَّهـم يحبُّـون أكلَ الفاكهـة الكثـيرة العُصـارة تمامًـا مثـل البـشر؛ لأنَّهـم جوعانـين. إنَّهـم ليسـوا سـيِّئين جـدًّا لأنَّهـم يأكلـون الكثـير مـن العِنـب؛ لأنَّهـم لا يفهمـون الكثـير".

تواصـلُ هيلـين إحـرازَ تقـدُّمٍ في اكتسـاب اللغـة بينـما تتعاظَـمُ خِبراتُهـا. وحيـث أنَّ خِبراتهـا الذِّهنيـة تلـك كانـت قليلـة وفي طَورهـا الابتـدائيِّ، كانـت مُفرادتُهـا محـدودةً بالـضَّرورة، لكـن، بينـما تتعلَّـمُ المزيـد عـن العـالم المحيـط بهـا، تنمـو قُدرتهـا عـلى الحكـم عـلى الأمـور وتصـير أكـثر دِقَّـة، وتنمـو قُدراتهـا عـلى الاسـتنتاج وتصـير أكـثر رسـوخًا، أكـثر نشـاطًا، أكـثر حذقًـا، وهكـذا اللغـة التـي تُعـبِّرُ مـن خلالهـا عـن نشـاطِها الذِّهنـي؛ تـزدادُ طَلاقـةً ومَنطقيَّـة.

عندمـا نكـونُ عـلى سَـفر، يكـون رِيُّهـا هـو اللغـة والأفـكار. حيـث أجلـسُ بجانبهـا في السـيَّارة، أصـفُ لهـا مـا أراه مـن النَّافـذة: التِّـلال والوديـان والأنهـار، حقـول القُطـن، والحدائـق التـي تنمـو فيهـا ثِمـار الفراولـة، الخـوخ، الكمـثرى، البطيـخ والخـضروات، قُطعـان الأحصنـة

والأبقار وهي ترعى في المروج الفسيحة، وأسراب الخِراف وهي تسير بسفح التَّل، أصفُ لها المدن بما فيها من مدارس وكنائس، فنادق ومستودعاتٍ للمياه، ومِمَن البشر المنهمكين في أعمالِهم. وبينما أنا أُبلِغُها بهذه الأشياء، تُبدي هيلين اهتمامًا شديدًا، وفي حالة عدم توافر الكلمات، تُبدي -عبر إيماءاتها وعبر التمثيل الصَّامت- رغبتَها في تعلُّم المزيد عن الأشياء المحيطة بها، وعن القوى العظيمة الـمُسَيِّرة للأشياء في كلِّ مكان. بهذه الطريقة، تتعلَّمُ تعبيراتٍ جديدةً لا تُحصى، دون أيِّ مجهودٍ ظاهر.

منذ اليوم الأول الذي تلقَّفَت فيه هيلين فِكرة أنَّ جميع الأشياء لها اسم، وأنَّ تلك الأشياء يمكن التَّواصلُ معها من خلال حركاتٍ مُعيَّنة لأصابع اليد، كنتُ أتحدَّثُ إليها كما ينبغي تمامًا لو كانت تستطيعُ السَّماع، باستثناء الأمر التالي فحسب؛ وهو أنِّي كُنتُ أوجِّهُ الكلمات مُخاطِبةً أصابِعها عِوضًا عن أُذُنيها. وبديهيًّا، كان هناك مَيلٌ شديدٌ في البداية من جانبها لاستخدام الكلمات الهامَّة فقط في بناء جُملةٍ ما. حيث كانت لتقول: "هيلين لبن". أتيتُ باللبن كي أُظهِرَ لها أنَّها قد استخدمَت الكلمة الصحيحة، بَيْدَ أنِّي لم أسمح لها أن تشربه إلى أن سَبَكَت جُملةً تامَّةً، وذلك بمُساعدتي، جملة مثل: "أعطِ هيلين بعض اللبن كي تشربه". كنتُ أُشجِّعُها في الدروس الأولى تلك على استخدامِ أشكالٍ مختلفة من التعبير بهدف إيصال نفس الفِكرة. فإذا كانت تأكل بعض الحلوى، كنتُ أقول لها: "هل سوف تُعطي هيلين بعض الحلوى للـمُعلِّمة لو سمحتِ؟" أو، "الـمُعلِّمة تودُّ أن تأكل بعض الحلوى التي تخصُّ هيلين" مُشدِّدةً على (تخصُّ هيلين) هذه. سريعًا ما أدركَت أنَّ الفكرة الواحدة يمكن التعبير عنها بالعديد من الأساليب الكثيرة. في غضون شهرين أو ثلاثة بعد أن بدأتُ تعليمها كانت لتقول: "هيلين تريد أن تذهب للسرير"، أو "هيلين نعسانة، وسوف تذهب هيلين للسرير".

إنَّني لأُسألُ دومًا هذا السؤال: "كيف علَّمتِها معاني الكلمات التي تعبِّر عن الأشياء ذات الطبيعة الفِكرية والمعنويَّة؟". أظنُّ أنَّ الأمر حدثَ عبر إجراء الرَّوابط بين الكلمات وعبر التكرار أكثر منه عبر أيٍّ شُروحاتٍ مقدَّمة من جانبي. هذه هي حقيقةُ دُروسها الأولى على وجه الخصوص، حينما كانت معرفتها باللغة جِدًّ شحيحةٍ، لدرجةٍ تجعلَ من تقديم الشروحاتِ أمرًا مستحيلًا.

لقد جعلتُ دومًا من استخدام الكلمات الوَصفيَّة بمثابةِ تمرين، تلك الكلمات التي تصف المشاعر، الأشياء ذات الطبيعة الفِكريَّة أو المعنويَّة، والأفعال، وأجعلها مرتبطةً بالموقِف الذي تتطلَّبه الكلمات. بُعيدَ أن صِرتُ مُعلِّمتَها كسرت هيلين دُميتها الجديدة التي كانت مُتيَّمةً بها للغاية. شرعَت في البكاء. قُلتُ أنا لها: "مُعلِّمة حزينة". بعد القليل من التكرار باتت تقرِنُ الكلمة بهذا الشعور.

تعلَّمت كلمة سعيد بنفس الأسلوب، وأيضًا كلمة: صحيح، خطأ، طيِّب، شرير، وصِفاتٍ أُخرى. تعلَّمَت كلمة مَحبَّة كما يتعلَّمها الأطفال الآخرون؛ بجَعلها مُرتبطةً ومقرونة بالملاطفات.

ذاتَ يومٍ طرحتُ عليها سؤالًا بسيطًا فيما يخصُّ جَمع الأعداد، وكنتُ على يقينٍ أنها تعرف الإجابة. أجابت إجابة عشوائيَّةً. راجعتُها في إجابتها، وما زالت على موقِفها مُصِرَّة، ويُظهرُ وجهُها بَيِّنًا تعبيرًا يفيد أنَّها كانت تحاول التفكير. لمستُ جَبهتها، وتهجَّيتُ قائلةً: "تَ-فَ-كَ-ر". يبدو أنَّ الكلمة -التي اقترَنتَ بالفِعل نتيجةً لهذا- قد تركَت أثرًا عظيمًا على ذِهنِها، كما لو أنِّي قد وضعتُ يدَها على شيءٍ ما وبعدها تهجَّيتُ لها اسمه. منذ ذلك الحين، صارت تستخدم على الدَّوام كلمة تفكَّر.

بعد مرور فترة، بدأتُ أستخدمُ كلماتٍ كهذه: ربمَّا، يفترض، يتوقَّع، ينسى، يتذكَّر. لو سألت هيلين: "أين ماما الآن؟" أجيبها: "أنا لا أعرف. ربمَّا هي مع ليلى".

بالها دومًا مشغول بتعلُّم أسماء الناس الذين نقابلهم في الحناطير أو في أيِّ أماكن أخرى، وأن تعرف إلى أين هم متَّجهون، وماذا سوف يفعلون. مُحادثاتٌ كهذه متكررِّة الحدوث:

هيلين: ما هو اسم الولد الصغير؟

المعلِّمة: لا أعرف؛ فهو غريب نوعًا ما، لكن ربمَّا اسمه چاك.

هيلين: أين هو ذاهب؟

المعلِّمة: يمكن أن يكون ذاهبًا إلى الشارع العمومي، ليمرح مع أولاد آخرين.

هيلين: ماذا سوف يلعب؟

المعلِّمة: أنا أفترضُ أنَّه سوف يلعب بالكرة.

هيلين: ماذا يفعل الأولاد الآن؟

المعلِّمة: ربمَّا هم يتوقَّعون قُدوم چاك، ويتنظرون حضوره.

أما وقد صارت الكلماتُ مألوفةً بالنسبة لها، فهي تستخدمها الآن في عمل جُمل مُركَّبَة.

26 سبتمبر، 1888.

"مُعلِّمتي وأنا جلسنا هذا الصباح بجانب النَّافذة ورأينا ولدًا صغيراً يمشي على الرصيف. كانت الدنيا تُمطِر بغزارة جدًّا وكان معه شمسية كبيرة جدًّا كي تَقِيَه من قطرات المطر.

أنـا لا أعـرف كـم كان عمـره، لكـن أعتقـد هـو ممكـن يكـون سـت سـنين. ربمّـا يكـون اسـمه چـو. أنـا لا أعـرف إلى أيـن كان يذهـب لأنَّـه كان ولـدًا غريبًـا نوعًـا مـا. لكـن ربمّـا أرسـلته أمُّـه إلى المتجَـر ليشـتري شـيئًا مـا للعَشـاء. كان معـه شـنطة في إحـدى يديـه. أنـا أفـترض أنـه كان سـيذهب بهـا إلى أمِّـه".

أثنـاء تعليمهـا اسـتخدام اللغـة، لم أكـن أقيِّـد نفـسي باسـتخدام نِظـامٍ خـاصٍّ أو نظريَّـة مُعيَّنَـة. كنـتُ أُلاحـظ المسـارات العفويـة التـي يسـلكها عقـل تلميـذتي، وعليـه كنـت أحـاول اتِّبـاع المقترحـات التـي كانـت تُتـاحُ لي.

بسـبب عصبيَّـة مِـزاج هيلـين، اتُّخِـذت كلُّ الإجـراءات الوقائيـة لتفـادي إثـارة عقلهـا البالـغ النشـاط فِعـلًا عـلى نحـوٍ مُفـرِط. قُضِي الشَّـطرُ الأكـبر مـن العـام في الترحـال وزيـاراتٍ لأماكـن مختلفـة، ودروسُـها كانـت نِتـاجَ مـا أوحـت بـه المناظـر الكثيرة والتجـارب العديـدة التـي قـد مـرَّت بهـا. مـا زالـت تواصـل إبـداء القـدر ذاتـه مـن اللهفـة للتعلُّـم كـما كانـت في البدايـة. في الحقيقـة، غالبًـا مـا أجـدُني مُضطَّـرةً لأن أتملَّقهـا كي تكـفَّ عـن النَّظـرِ في مسـألةٍ مـا أو موضـوع إنشـاء.

بمـا أنَّنـي لم أُقيِّـد نفـسي بـأيِّ نظـام تعليـماتٍ خـاصٍّ؛ حاولـتُ أن أُضيـفَ لمعلوماتهـا العامَّـة وإلى إدراكِهـا، لأوسِّـع مـن اطِّلاعهـا عـلى الأشـياء التـي حولهـا، وكي أوطِّـئ لهـا بنـاء علاقـاتٍ سلِسـةٍ وطبيعيَّـةٍ مـع النَّـاس. فشـجَّعتُها عـلى كتابـة يوميَّاتهـا، ومنهـا المقتطَـف الآتي:

"الثاني والعشرون من مارس، 1888.

أتى السـيد أناجنـوس لزيـارتي يـوم الخميـس. كنـتُ سـعيدةً حـين عانقتُـه وقبَّلتُـه. إنَّـه يرعـى سِـتِّين مـن البنـات الصغـيرات المكفوفـات، وسـبعين مـن الأولاد الصِّغـار المكفوفـين. أنـا فعـلًا أُحبُّـه. البنـات الصغـيرات المكفوفـات أرسَـلْنَ لي سَـلَّة مَشـغولة بالإبَـر. وجـدتُ فيهـا مِقَصًّـا وخيطًـا، دَفـتر إبَـر بـه

الكثير مـن الإبَـر، سِـنَّارة كروشـيه، وسَـنفَرَة، وكُشـتبانَ، وصندوقًـا، ومقياسًـا وزرايـر، ومَدْبَسَـة. سـوف أكتـب خِطابًـا إلى البنـات الصغـيرات المكفوفـات كي أشـكُرَهُنَّ. سـوف أصنـع ملابـس جميلـة لنانـسي، ولآدلِـن، ولألِّيـي. سـوف أذهـب إلى سينسـيناتي في شـهر مايـو وأشـتري طِفـلًا آخَـر. عندئـذٍ سـوف يكـون عنـدي أربعـة أطفـال. اسـم الرَّضيـع الجديـد سـوف يكـون هـاري. أتى السـيد ولسـون والسـيد ميتشـل لزيارتنـا يـوم الأحـد. ذهـب السـيد أناجنـوس إلى لوسـڤِـل يـوم الاثنـين ليـزور الأطفـال الصِّغـار المكفوفـين. ماما ذهبـت إلى هانتسـڤِـل. أنـا نمـت مـع بابـا، وملـدرد نامـت مـع مُعلِّمتـي. أنـا تعلمـتُ معنـى كلمـة (مُطمَـئِنٌ). إنَّهـا تعنـي أن تكـون هادئًـا وسـعيدًا. أرسـل لي العَـمُّ مـوري قَصصًـا جميلـة. قـرأتُ عـن الطيـور. تضـع أُنثـى السِّـمَّان خمـس عـشرة أو عشريـن بيضـة، والبيـض يكـون أبيـض اللـون. تصنـعُ عُشَّـها عـلى الأرض. الطائـر الأزرق يصنـع عُشَّـه في شـجرةٍ مجوَّفـة، ويكـون بيضـه لونـه أزرق. بَيـضُ طائـر أبي الحِنَّـاء لونـه أخـضر. لقـد تعلَّمتُ أُغنيـة عـن الربيـع. مـارس، أبريـل، مايـو هـي شـهور الربيـع.

الآن يذوب الجليد

والرياح الدافئة تهبُّ

والماء يتدفَّق ويسيل

وطائر أبي الحِنَّاء العزيز

سوف يأتي ليُرِيَنا

أن الرَّبيع قد حَلَّ.

اصطـاد چـيمس مجموعـة مـن طَـير الشُّـنْقُب من أجـل الإفطـار. الفراخ الصغـيرة أصابهـا الـبرد وماتـت. مُعلِّمتـي وأنـا ذهبنـا لنُزهـةٍ في نهـر تينيـسي عـلى مَـتن قـارب. رأيتُ السـيد ولسـون وچـيمس يُجذِّفـان بالمجاذيـف. كان القـارب ينزلـقُ بسرعـة وكنـتُ أضـع يـدي في المـاء وأشـعر بـه يتدفَّـق.

اصطـدتُ سـمكة بخُطّـاف وخيـط وصِنّـارة. تسـلَّقنا تلَّـةً عاليـة ومُعلِّمتـي سـقطت وجرحـت رأسـها. أكلـتُ سـمكة صغـيرة جـدًّا عـلى وجبـة العَشـاء. قـرأتُ عـن البقـرة وعـن العِجـل. البقـرة تحـبُّ أن تـأكل الحشـائش إضافـةً إلى أنَّ هنـاك بنتًـا تصنـع الخبـز والزبـدة واللـبن. العِجلـة الصغـيرة تجـري وتقفـز في الحقـل. إنهـا تحـب أن تطفـر وتلعـب؛ لذلـك تكـون سـعيدة عندمـا تكـون الشـمس سـاطعة ودافئـة. الولـد الصغـير يحـب عِجلتُـه. وهـو يقـول، أنـا سـوف أُقبِّلُـك، أيتهـا العِجلـة الصغـيرة، ويلـف يديـه حـول عُنـق العِجلـة ويُقبِّلهـا. كانـت العِجلـة تلعَـقُ وجـه الولـد الجميـل بلسـانٍ طويـل خشـن. لا يجـب أن تفتـح العِجلـة فمهـا كثـيرًا لتُقبِّـل الآخريـن. أنـا مُرهَقـة، ومُعلِّمتـي لا تُريـدني أن أكتـب المزيـد".

في فصـل الخريـف، ذهَبَـت إلى السـيرك. كان الأسـدُ يـزأر، بينـما كُنَّـا واقفتَـين أمـام قفصـه، واستشـعَرَت هيلـين ذبذبـة الهـواء بشـكلٍ ملحـوظ، لدرجـة أنَّهـا كانـت قـادرة عـلى إعـادة توليـد صخـب زئـيره بِدقَّـةٍ تمامًـا.

حاولـتُ أن أصِـفَ لهـا شـكل الجَمـل، ولكـن، بمـا أنَّـه لم يكـن مسـموحًا لنـا أن نلمـس الحيـوان، كنـتُ أخـشى ألَّا تتحصَّـل عـلى فِكـرةٍ صحيحـة عـن شَـكله. ورغـم ذلـك، فبعـد مـرور بضعـة أيَّـامٍ، لـدى سـماعي بهيـاجٍ يجـري في فَصـل المدرسـة، ذهبـتُ ودخلـت، ووجـدتُ هيلـين جاثمـةً عـلى قوائِمهـا الأربعـة، وعـلى ظهرهـا قـد رُبِطَـت مخـدَّةٌ بإحـكام، بحيـث تسـمح بوجـودِ تجويـفٍ في وسـطها، وبهـذا تُشـكِّلُ سِـنامًا عـلى كِلا جانبـي التجويـف. وبـين هذيـن السِّـنامَين وضعـت دُميتهـا، حيـث كانـت تُعطيهـا لفَّـة في أرجـاء الحجـرة. راقبتُهـا لبعـض الوقـت وهـي تتجـوَّل، مُحاولـةً الهرولـة بخطـوات سريعـة، لأجـل تنفيـذ الفِكـرة التـي منحتُهـا إيَّاهـا عـن طريقـة سَـيرِ الجَمـل. عندمـا سـألتُها مـاذا كانـت تفعـل، ردَّت وقالـت: "أنـا جَمَـل ظريـف جِـدًّا".

* * *

خلال العامَين التاليين، لم يكتب أيٌّ من السيد أناجنوس -الذي كان في أوروبا وقتها مُدة عام- ولا الآنسة ساليڤان أيَّ شيءٍ عن هيلين كِيلَر لأجل النَّشر. في عام 1892، ظهر تقرير معهد بيركنس لعام 1891، به بيانٌ شاملٌ عن هيلين كِيلَر، مُتضمِّنًا الكثير من خِطاباتها، تمريناتها، وكتاباتها الإنشائيَّة. فكما هو منشورٌ هُنا من بعض الخِطابات وقِصَّة "مِلك الصَّقيع"، فلا حاجة لطِباعة مزيدٍ من عيِّنات هيلين كِيلَر الكتابيَّة خلال العام الثالث والرابع والخامس من تعليمها. فالعامان الأولان منها هي ما يهمُّ. من جزء الآنسة ساليڤان في هذا التقرير، أقدِّمُ أكثر تعليقاتِها أهمِّيَّةً، وموضوعٌ كهذا متعلِّقٌ بسيرة حياتها لا يظهرُ في مَوضِعٍ آخر من الإصدار الحالي.

هذه المقتطفات أخذها السيد أناجنوس من مُلاحظات الآنسة ساليڤان ومن مُذكِّراتِها.

ذات يوم، بينما كان مُهرُها وحِمارُها يقِفان جَنبًا إلى جنب، كانت هيلين تروحُ من أحدهما إلى الآخر، وتتفحَّصَهما عن قُرب. توقَّفت في النهاية مُريحةً يدها فوق رأس نِيدي، وخاطَبَتُه كالآتي: "نعم يا عزيزي نِيدي، صحيحٌ أنَّك لست في حُسنِ الجميل الأسوَد. فجسمُكَ ليس مشدودًا مثله على نحوٍ يفيض وسامة، وليست تعلو وجهك نظرةُ كِبرياءٍ مثله، وعُنُقُكَ لا يتقوَّس. فَضلًا عن ذلك، أُذناك الطَّويلتان تجعلانك تبدو مُضحِكًا بعض الشيء. أنتَ طبعًا ليس في وسعك أن تفعل شيئًا حيال هذا، وأنا أُحبُّكَ تمامًا كما لو كنتَ أجمل كائن في العالم".

كانـت هيلـين مُهتمَّـةً جـدًا بقصـة "الجميـل الأسـود". ولأجـل تِبيـان كـم هـي سريعـةٌ في اسـتيعاب الأفـكار والربـط بينهـا، سـأعرِضُ مِثـالًا سـوف يُقـدِّرُ قيمَتَـه جميـعُ مَـن يقـرؤون الكِتـاب. كنـتُ أقـرأ لهـا الفقـرة التاليـة:

"كانـت الفَـرسُ هَرِمَـة، مُنهَكَـة، عليهـا سُـترةٌ رثَّـة، تظهـر العِظـامُ مـن خلالهـا عـلى نحـوٍ بَـيِّن، رُكَبُهـا قـد أصابَهـا التَّبَرْجُـم[1]، وقوائمهـا الأربـع كانـت متزعزعـة. كنـتُ أطعَـمُ بعـض التِّبن، ودحرجـت الرِّيـحُ خُصَلًا قليلةً مـن التِّبن في هـذا الاتِّجـاه، فأخرجـت الكائنـةُ المسـكينةُ عُنُقَهـا الطويـل النحيـل كي تلقَفهـا، وبعدئـذٍ التفتَـت وتفحَّصَـت المـكان حولهـا بحثًـا عـن المزيـد. كانـت في عينيهـا الكئيبـة نظـرةٌ يائسـة، لدرجـةٍ لم تجعلنـي قـادرًا عـلى تجاهـل ملاحظتهـا، وعندئـذٍ، بينـما كنـتُ أفكِّـر أيـن رأيـتُ هـذه الفَـرَس، نظـرت مبـاشرةً نحـوي وقالـت: "الجميـل الأسـود، أهـذا أنـت؟"".

عنـد هـذه النُّقطـة ضغطـت هيلـين يـدي كي أتوقَّـف. كانـت تنشـجُ وتختلِـج. "كانـت هـي المسـكينة دْجِـنِدْجِـر". كان ذلـك كلَّ مـا اسـتطاعت قولـه في البدايـة. بعدهـا، عندمـا صـارت قـادرة عـلى التحـدُّث عـن الأمـر، قالـت: "المسـكينة دْجِـنِدْجِـر! لقـد رسـمت الكلـمات صـورةً راسـخةً في ذِهنـي. كان باسـتطاعتي تخيُّـل الحـالِ التـي كانـت تبـدو عليهـا؛ كلُّ مفاتنهـا قـد ذَوَت، عُنُقُهـا الجميـل المتقـوِّس تَطأطـأ، كلُّ الحيويَّـة التـي كانـت تشـعُّ مِـن عينيهـا البرَّاقـةِ قـد انطَفَـأت، كلُّ صنـوفِ المـرح واللهـو الـذي كان يَسِـمُها قـد بارَحهـا. آه، كـم هـو فظيـعٌ هـذا! لم أكـن أدرك إطلاقًـا قبـل هـذا، أنَّ تغـيُّرًا كهـذا يمكـن أن يطـرأ عـلى أيِّ شيء. كانـت هُنـاك مواضـعُ قليلـة جـدًّا مـن حيـاة المسـكينة دْجِـنِدْجِـر تسـطعُ عليهـا شـمس الأمـل، وكانـت مواضـع الحـزن المخيِّـم كثـيرة جـدًّا!". أضافـت

---

(1) البرُجُمـة، هـي المِفصـل الظّاهـر مـن المفاصـل، والتَّبرجُـم knuckling هـو تقـوُّس والتـواء يُصيـب عِظـام الحيوانـات في العمـوم -والـكلاب عـلى نحـوٍ خـاص- وسـببه في العـادة سـوء التغذيـة. (المترجِـم).

محزونةً بعد وهلة: "أخشى أنَّ حيوات بعض الناس تُشبِه تمامًا حياة دْجِنِدْجَر".

هذا الصباح، كانت هيلين تقرأ لأوَّلِ مرة قصيدة برينت "أيا أُمًّا لسُلالةٍ عظيمة!"[1] قُلتُ لها: "قُولي لي، وأنت تقرئين القصيدة، ماذا يُقصَد بالأمِّ في رأيك؟". عندما وصلت للسَّطر الذي يقول: "على أبوابها، تقفُ الحُريَّةُ والسَّكينة"، تعجَّبَت وقالت: "يُقصَد بها أميركا! والباب، أعتقد المقصود به، مدينة نيويورك، والحُرِّيَّة يُقصَد بها تمثال الحرِّيَّة العظيم". بعد أن قرأت قصيدة "مَيدان المعركة" لنفس المؤلِّف، سألتُها عن رأيها؛ أيُّ بيت شِعرٍ هو الأجمل. ردَّت: "أظنُّ أنَّ هذا البيت هو الأجمل:

إنَّ الحقَّ الذي صُرِعَ أرضًا، لسوف يشمُخُ مُجَدَّدًا
فدُهورُ الله السَّرمَديَّةُ لهي رهنُ إشارتِه
غيرَ أنَّ الضلالَ، مكلومًا، سيتلوَّى من الألَم
ويقضي نَحْبَه بين عُبَّادِه"

إنَّها تنتقلُ بخيالها في التَّوِّ إلى خِضَمِّ أحداث قِصَّة. تستبشرُ عندما تنتصر العدالة، تحزنُ حين تُحتَقَرُ الفضيلة، ويتألَّقُ وجهها بأماراتِ التبجيل والإعجاب حال وَصْفِ مآثر الأبطال. إنَّها حتَّى تندمِجُ وتتقمَّصُ روح خَوض المعركة وتقول: "أعتقد أنَّه لمن حَقِّ البَشَر أن يُقاوموا الأشرار والمستَبِدِّين!".

---

(1) قصيدة للشَّاعر وليام براينت في تمجيد أميركا، وهو شاعر أميركي اشتهر بقصيدته "تأمُّلات في الموت"، وكذا ترجمتِه لكلٍ من "الإلياذة" و"الأوديسَّا" في أواخر أيَّامِه. (المترجِم)

يبدأ هُنا بيانُ الآنسة ساليڤان المتعلّق بهذا الشأن، في التقرير من عام 1891:

خلال الثلاث سنواتٍ الماضية، واصَلَت هيلين إحراز تقدُّمٍ سريعٍ في اكتساب اللغة. إنَّها تمتلِكُ مَزيَّةً تبزُّ بها الأطفال العاديين؛ وهي: لا شيء من شأنه أن يُشتِّت انتباهها عن دراساتِها.

لكنَّ تلك المَزيَّةَ تتضمَّنُ في طَيَّاتِها عيبًا: وهو خطرُ التطبيق الذِّهني الحاد المفرِط. فعقلُها مُصمَّمٌ بحيث تكون في حالةٍ من الحُمى والبَلبَلة، عندما تعي أنَّ هناك شيئًا ما هي لا تستوعبه. لم أشهدها راغبةً في ترك درسٍ مُطلَقًا إن كانت تشعر أنَّ بالدَّرس شيئًا ما لم تفهمه. إن اقترحتُ عليها أنا ترك مسألةٍ في علم الحساب إلى اليوم التالي، تُجيبني: "أعتقد أنَّ عقلي سوف يصبح أكثر قوَّةً لو أنجزتُها الآن".

كُنَّا نتناقش طوال بضعة مساءاتٍ عن التعريفة الجُمركيَّة. أرادتني هيلين أن أُفهمها تفاصيلها. قلتُ لها: "لا. أنتِ لا تستطيعين فَهم ذلك بعد". ظَلَّت ساكِتَةً لدقيقة، وبعدئذٍ سألتني بحماس: "كيف لكِ أن تعرفي أنَّني لستُ أستطيعُ أن أفهم؟ أنا عندي عقل سليم! لا بدَّ أن تتذكَّري يا مُعلِّمتي العزيزة، أنَّ الآباء اليونانيين كانوا دقيقين جدًّا مع أطفالهم، وقد اعتادوا أن يسمحوا لهم بالاستماع إلى كلماتٍ حكيمة، وأنا أظنُّ أنَّ الأطفال كانوا يفهمون بعضًا منها". لقد تبيَّنتُ أنَّه من الأفضل ألَّا أقول لها إنَّها لن تستطيع أن تفهم؛ لأنَّها يقينًا ستصير منفعِلة.

منذ وقتٍ ليس ببعيد، حاولتُ أن أُريها كيف تبني بُرجًا بقوالبها. ولأنَّ التصميم كان مُعَقَّدًا نوعًا ما؛ كانت أخفُّ رجَّةٍ تتسبَّب في انهيار التصميم. بعد وقتٍ ثبطَت عزيمتي، وقلتُ لها إنَّني أخشى ألَّا تتمكَّن

مـن جعـل البنـاء منتصِبًـا، إلا إذا بنيتُـه أنـا لهـا، لكنهـا لم توافـق عـلى تلـك الخطـة. كانـت مُصمِّمَـةً أن تبنـي الـبرج بنفسـها، وطـوال ثـلاث سـاعاتٍ تقريبًـا، واصلـت العمـل بـدأب؛ تجمـعُ القوالـب بصـبرٍ متـى مـا سـقطت، وتعـاود البـدء مـن جديـد، إلى أن كُلِّلَـت مُثابرتهـا بالنَّجـاح. لقـد انتصَـبَ الـبرجُ مكتمِـلَ الأركان.

حتَّـى أكتوبـر، مـن عـام 1889، لم أكُـن أحسـب أنَّـه مـن الأفضـل تقييـدُ هيلـين بـأيِّ برنامـجٍ دراسيٍّ دوريٍّ ونِظامـيٍّ. فطـوال العامـين الأوَّلَـيْن مـن حياتهـا الفكريـة كانـت مثـل طفـل في بلـدٍ غريـب؛ حيـث فيـه كلُّ شيءٍ جديـدٌ ومثـيرٌ للحـيرة، إلى أن اكتسـبَت مـا يكفـي مـن المعرفـة باللغـة، فقبلهـا لم يكـن مـن ممكنًـا أن تُمنَـح برنامجًـا تعليميًّـا مُحـدَّدًا.

فَضـلًا عـن هـذا، حـب الاسـتطلاع الـذي عنـد هيلـين قـد تعاظـم خـلال تلـك السـنوات، لدرجـة أنَّـه كان يتعـارضُ مـع تقدُّمهـا في اكتسـاب اللغـة- حتـى لـو أُرْجِـئ الانتبـاهُ إلى الأسـئلة التـي كانـت تطرحهـا عـلى نحوٍ متواصـل حتـى إتمـام الـدَّرس. فعـلى الأرجـح، سـوف تكـون قـد نَسِـيَت السُّـؤال، وسـوف تضيـعُ فُرصـةٌ مناسـبة لـشَرح شيءٍ مـا، يكـون ذا أهمِّيَّـةٍ حقيقيَّـة بالنسـبة لهـا. رغـم هـذا، يبـدو لي أنَّـه مـن الأفضـل أن أُعلِّـم تلميـذتي أيَّ شيءٍ متـى مـا احتاجـت أن تعرفـه، سـواءٌ كان عـلى صِلـةٍ بالـدَّرس المخطَّـطِ لـه أو لا، فغالبًـا مـا كانـت تقودُنـا تسـاؤلاتُها بعيـدًا عـن الموضـوع قَيْـدِ التنـاول الآني.

بَـدءًا مـن أكتوبـر 1889، كان عملهـا يسـيرُ عـلى نهـجٍ أكـثرَ انتظامًـا، وقـد تضمَّـن دراسـة: علـم الحسـاب، الجغرافيـا، علـم الحيـوان، علـم النبـات، والقـراءة.

لقـد أحـرَزَت تقدُّمًـا لافتًـا في دراسـة الحِسـاب. فهـي تـشرحُ بيُـسرٍ عمليـات الـضَّرب، الجَمْـع، الطَّـرح، القِسـمة، ويبـدو أنَّهـا تسـتوعب هـذه

العمليـات. لقـد أنهـت تقريبًـا طريقـة كولبـيرن[1] الذِّهنيـة في إجـراء العمليات الحِسـابية، اشـتغالها الأخـير كان عـلى الكسـور الغـير حقيقيـة[2]. أنجـزت أيضًـا بعـض التمريـن الجيِّـد في إجـراء العمليـات الحسـابية المكتوبـة. إنَّ عقلَهـا يعمـل بسرعـة، لدرجـة أنَّـه، كثـيرًا مـا يحـدث أن تُعطينـي الإجابـة الصحيحـة عـلى مسـألةٍ قبـل أن يسـنح لي الوقـت لتدوين السـؤال. إنَّهـا تُعـير القليـل مـن الاهتـمام لِلُّغَـة المسـتخدَمَة في سَردِ مسـألةٍ رياضيَّـة، ونـادرًا مـا تسـتوقفني أثنـاء ذلـك لتسـأل عـن معنـى كلـماتٍ أو عبـاراتٍ غـير معروفـةٍ لهـا، إلى أن تتهيَّـأ لـشَرْح إجابتهـا. ذات مـرَّة، كان يحيِّرهـا جِـدًّا سـؤالٌ مـا، اقترحـتُ أن نتمـشَّى قليـلًا، وقلـت ربَّمـا بعدئـذٍ سـوف تفهمـه. هـزَّت رأسـها رافضـةً في تصميـم: "سـوف يظـنُّ أعـدائي أنَّنـي أهـرب! يجـب عـليَّ أن أبقـى وأغزوهـم الآن!". وقـد فعلَـت.

إنَّ التقـدم العقـليَّ الـذي قـد أحرزتـه هيلـين في العامـين الماضيـين، يَظهـرُ عـلى نحـوٍ أكـثر جـلاءً في إتقانهـا البالـغ لاسـتخدام اللغـة أكـثر مـن أيِّ فـرعٍ آخـر مـن مَوادهـا التعليميـة، وفي قدرتهـا عـلى أن تستشِـفَّ أجـودَ الدرجـات الدلاليـة عنـد اسـتخدامها الكلـمات.

لا يمـرُّ يـومٌ دون أن تتعلَّـم هيلـين الكثـير مـن الكلـمات الجديـدة، ليـس فقـط أسـماء الأشـياء المجـرَّدة والمحسوسـة. فعـلى سـبيل المثـال: كانـت تتمنَّـى ذات يـوم أن تعـرف معنـى الكلـمات الآتيـة: ظاهـرة، يتضمَّـن، طاقـة، تناسُـل، اسـتثنائي، سَرمَـدِيّ، غُمـوض. بعـضُ هـذه الكلـمات يشـتملُ عـلى درجـاتٍ مُتسلسـلة مـن المعنـى، تبـدأ بمـا هـو بسـيط، وتتـدرَّج نحـو مـا هـو عويـص. كانـت مَهَمَّـةُ جَعـل هيلـين تسـتوعب مزيـدًا مـن المعـاني الإشـكاليَّة لكلمـة الغُمـوض لتكـون مهمَّـةً ميـؤوسٌ منهـا، إلَّا أنَّهـا فهِمَـت

(1) وارِّن كولبـيرن، ولـد لأبَويـن فقيَريـن، 1793، في ماساتشـوتس، اشـتهر بنبوغـه في إجـراء العمليـات الحسـابية، وصَنَّـفَ في هـذا كِتابًـا، تـوفي في سِـنِّ الأربعـين. (المترجـم)

(2) الكسر غـير الحقيقـي: هـو الكـسر الـذي يكـون بَسطُه أكـبر مـن مقامـه، يعنـي أكـبر مـن الواحـد الصحيـح. (المترجِـم)

بسهولة، أنَّ هذه الكلمة تدلُّ على شيءٍ ما مخفيٍّ ومحجوب، وعندما تحرزُ تقدُّمًا أكبر، سوف تفطِنُ بسهولةٍ إلى أكثر معانيها التباسًا، تمامًا كما تفعلُ الآن مع الكلمات الأبسط دلالة. أثناء تدارُسِنا أيَّ موضوع، لا بُدَّ وأن يتصادف في البداية وجود كلمات وعبارات لا يُمكن أن تُفهَمَ على نحوٍ صحيح حتَّى يكون الطفل قد أحرزَ تقدُّمًا مُعتَبَرًا، فما زلتُ أعتقدُ حتَّى الآن، أنَّه من الأصلح أن أواصلَ إعطاء تلميذتي تعريفاتٍ بسيطة، وقصدي من هذا هو: رغم أنَّ تلك التعريفات ربَّما تكون تعريفاتٍ مَرحليَّةً مؤقَّتَة ومُبهَمةً على نحوٍ ما، فسوف يؤازرُ بعضها بعضًا، وما هو مُسْتَغْلِقٌ اليوم، فغدًا سوف يكون جَليًّا.

إنِّي أحترمُ تلميذتي وأنظر لها على أنَّها كائنٌ حُرٌّ ونَشيط، كائن ينبغي أن تكون ميوله التلقائية هي دليلي الموثوق. لطالما أتحدَّثُ إلى هيلين تمامًا كما أتحدَّثُ إلى طِفلٍ مُبصِرٍ وسامِع، وأنا أُصِرُّ أن يتعامل الناس الآخرين معها بنفس الطريقة. فمتى ما يسألني أحدهم إن كانت سوف تفهم هذه الكلمة أو تلك، دائمًا أردُّ وأقول: "لا يهمُّ سواءٌ كانت تفهم كلَّ كلمة من الجملة على نحوٍ منفصلٍ أم لا. سوف تخمِّن معاني الكلمات الجديدة من خلال علاقتها بالكلمات الأخرى التي تفهمها مُسبقًا".

عند اختياري الكتب لهيلين كي تقرأها، لم أكن أختارها مُطلقًا من مُنطلَقِ كونها كفيفةً وصمَّاء. دائمًا ما تقرأ كتبًا كتلك التي يقرؤها ويستمتعُ بها طفلٌ مُبصرٌ وسامع من سِنِّها. كان من الضروري طبعًا في البداية أن تكون الأشياء الموصوفة مألوفةً لها ومثيرةً للاهتمام، وأن تكون الإنجليزيَّةُ المستخدَمةُ فَصيحةً وبسيطة. إنَّني لأتذكَّرُ بوضوحٍ حين كانت تحاول قراءة قِصَّة قصيرة لأوَّل مرَّة. كانت قد تعلَّمَت الحروف البارزة، وكانت تُسلِّي نفسها لبعض الوقت بصياغة جُملٍ بسيطة، باستخدام قُصاصاتٍ مَطبوعةٌ عليها الكلمات بالحرف البارز، لكنَّ تلك الجُمل لم تكن ذات علاقةٍ محدَّدَة ببعضها البعض. ذات

يـومٍ أمسـكنا فـأرًا، وقـد خطَـرَ لي، أنَّ فـأرًا حَيًّـا وقِطًّـا حيًّـا مـن شـأنه أن يسـتثير فضولهـا، بحيـث ربَّمـا أتمكَّـن مـن ترتيـب بعـض الجُمَـل عـلى نحـوٍ يُشـكِّلُ قِصَّـةً قصـيرة، وبهـذا يمنحهـا ذلـك مفهومًـا جديـدًا لاسـتخدام اللغـة. لـذا وضعـتُ الجُمَـل التاليـة في إطـار الكتابـة، وأعطيتُـه لهيلـين: "القِـطُّ موجـود فـوق الصُّـندوق. هنـاك فـأرٌ داخـل الصُّـندوق. يسـتطيعُ القِـطُّ أن يـرى الفـأر. القِـطُّ يريـد أن يـأكل الفـأر. لا تـترُكِي القِـطَّ يُمسـك بالفـأر. فبإمـكان القِـطِّ أن يحصـل عـلى بعـض الحليـب، وبإمـكان الفـأر أن يحصـل عـلى بعـض الكعـك". لم تكـن تعـرف أداة التعريـف "الـ"، وطبعًـا كانـت تريـدُ أن تُفـسَّرَ لهـا ماهيَّتهـا. عنـد تلـك المرحلـة مـن تقدُّمِهـا، كان تفسـير اسـتخدامها ليكـون أمـرًا مسـتحيلًا؛ ولهـذا لم أحـاول، بـل جعلـتُ إصبعهـا يواصـل تقدُّمَـه إلى الكلمـة التاليـة، والتـي قـد تعرَّفَتْهـا وعلَـت وجهها ابتسـامةٌ مُشرِقـة. بعدهـا، عندمـا وضعـتُ يدهـا فـوق جسـد هِـرَّة رابضـة فـوق الصُّـندوق، صـدر عنهـا تعبـيرُ تعجُّـبٍ نوعًـا مـا ناجـم عـن الدَّهشـة، وبهـذا صـارت بقيَّـةُ الجملـة واضحـةً بالنسـبة لهـا عـلى نحـوٍ تـامٍّ. وعندمـا قـرأت كلـمات الجملـة الثانيـة، أوضحـتُ لهـا أنَّ هنـاك فـأرًا فعـلًا في الصُّـندوق. عندئـذٍ نقلَـت إصبعهـا إلى السَّـطر التـالي وعليهـا أمـارةُ اهتـمامٍ مُتلهِّـف. "القِـطُّ يسـتطيع أن يـرى الفـأر" عنـد هـذه النُّقطـة، جعلـت القِـطَّ ينظـر إلى الفـأر، وجعلـتُ هيلـين تتحسَّـسُ القِـطَّ. التعبـيرُ الـذي ارتَسَـمَ عـلى مُحيَّـا البنـت الصغـيرة كان يُظهـر أنَّهـا في حـيرةٍ مـن أمرهـا. وجَّهـتُ انتباههـا إلى السَّـطر التـالي، ورغـم أنَّهـا كانـت تعـرف فقـط الثـلاث كلـماتٍ، وهـي: قِـطٌّ، يـأكل، وفـأر، فقـد التقَطَـت الفِكـرة. سـحبت القِـطَّ بعيـدًا ووضعتـه عـلى الأرضيَّـة، وكانـت تُغطِّـي الصنـدوق بالإطـار في نفـس الوقـت. عندمـا قـرأت: "لا تـترُكِي القِطَّ يُمسـكُ بالفـأر!" فَهِمَـت النَّهْيَ الموجـود بالجملـة، وبـدا أنَّهـا تـدرك أنَّـه لا ينبغـي للقِـطِّ أن يُمسـك بالفـأر. يمسـك ويسـمح كانتـا كلمتَـيْن جديدتَـيْن. كانـت تألَـفُ كلـمات الجملـة الأخـيرة، وكانـت فرِحـة بـأن تنفِّـذ مفادَهـا. وجعلتنـي أفهـم، عبر الإشـارات،

أنها ترغبُ في قِصَّةٍ أُخرى، وأن أُعطيها كتابًا يحوي قَصصًا قصيرة جدًّا، مكتوب بأكثر الأساليب بدائيَّةً. كانت تجعلُ أصابعها تجري فوق السُّطور، باحثةً عن الكلمات التي تعرفها، ومخمِّنةً معاني الكلمات الأُخرى، على نحوٍ من شأنه أن يُقنِع أغلب التربويِّين الـمُتحفِّظين، بأنَّه، لو أنَّ طِفلًا صغيرًا أَصَمَّ مُنِح الفُرصة؛ فسوف يتعلَّمُ أن يقرأ بسهولة، وبشكلٍ طبيعيّ، تمامًا كما الطِّفل العادي.

أنا على قناعةٍ بأنَّ حُسنَ انتفاع هيلين بالإنجليزيَّة يُعزى سببه بشكلٍ كبير إلى أُلفَتِها مع الكتب. فغالبًا ما تقرأ مدَّة ساعتين أو ثلاث ساعاتٍ في جَلسةٍ واحدة، وبعد ذلك تضع كتابها جانبًا راغبةً عنه. ذات يوم ونحن نُغادر المكتبة، لاحظتُ أنَّ سيماءها يبدو عليه الجِدِّيَّة أكثر من العادة، وسألتُها عن السبب، كان ردُّها: "أنا أتأمَّلُ كم أنَّ مقدار الحكمة التي نكون عليها ونحن نغادر المكتبة، يكون أعظم قَدرًا منه عندما نأتيها".

عندما سألتها لماذا تحبُّ الكتب بشِدَّة، ردَّت في الحال: "لأنَّها تخبرني بالكثير من الأمور المثيرة جدًّا عن الأشياء التي لا أستطيعُ أن أراها، وهي لا تتعَب أبدًا أو تُسبِّبُ الإزعاج مثل البَشَر. إنَّها تخبرني مِرارًا وتكرارًا بالأشياء التي أريد أن أعرفها".

عندما كنتُ أقرأ لها من كتاب دِيكنز "تاريخ إنجلترا للأطفال"، مررنا على الجملة التي تقول: "ما زالَت بعد رُوح البريطان لم تنكسر". سألتها، ماذا برأيها يُقصَدُ بهذا. أجابت وقالت: "أعتقد أنَّها تعني أنَّ البريطان الشُّجعان، لم تَثْبَطْ عزيمتهم بسبب أنَّ الرومان قد انتصروا في الكثير جدًّا من المعارك، وكانوا بالأحرى يأملون في صَدِّهم وطردِهم". لم يكن ليكون أمرًا مُمكِنًا بالنسبة لها أن تقدِّم تعريفاتٍ للكلمات الموجودة بهذه الجملة، ومع ذلك فقد استوعَبَت مقصِدَ كلام المؤلِّف، وكانت قادِرَةً على التعبير عنه بأسلوبها الخاص. ما تزال السطور

التاليـة ذات صِبغـةٍ اصطلاحيَّـةٍ أكـثر. "عندمـا غـادر سـيوتونيوس البـلاد، انقضُّوا عـلى جماعتـه، واسـتردُّوا جزيـرة آنجـلسي". إليكـم تأويلها لهـذه الجملـة: "هــذا يعنــي أنَّ القائــد الرومــاني عندمــا غــادر، بــدأ البريطــان يقاتلـون مُجـدَّدًا، ولأنَّ الجنـود الرومـان لم يكـن عندهـم قائـدٌ كي يخبرهـم بمـا عليهـم فِعلـه، فقـد غُلِبـوا مـن البريطـان، وفقـدوا الجزيـرة التـي كانـوا قـد احتلُّوهـا".

تُؤْثِـرُ هيلـين الــمِهَن العقليـة عـلى اليدويَّـة، وهـي ليسـت واقعـة في غـرام الأعـمال ذات الطبيعـة الخيالية كـما هـو حـال الكثير مـن الأطفـال المكفوفـين، ورغـم ذلـك فهـي تكـون توَّاقـةً لمشـاركتِهم في أيِّ شيءٍ يقومـون بـه. لقـد تعلَّمـت أن تسـتخدم آلـة كاتبـة ماركـة كاليجـراف[1]، وهـي تكتـب الآن بإتقـان، ولكـن ليـس بسرعـةٍ بعـد، فأمامهـا ليـس أقـلَّ مـن شـهرٍ مـن التدريـب.

منـذ أكثر مـن عامـين، علَّمهـا ابـنُ عـمٍّ لهـا أبجديَّـة التلغـراف المكتوبة، حيـث شـكَّل لهـا نِقاطًـا وشُرَطًـا بأصابعـه عـلى ظهـر يدهـا. متـى مـا تلتقـي أيَّ شـخصٍ يعـرفُ هـذا النِّظـام؛ تكـون فرِحـةً باسـتخدامه معـه في محادثـة. كنـتُ أجـدُه وسـيطًا ملائمًـا للتواصـل مـع هيلـين عندمـا تكـون بعيـدةً عنِّـي مسـافة، حيـث تُمكِّنُنـي مـن التكلُّـم معهـا بـأن أدبـدب عـلى الأرض بقدمـي. فتستشـعر هـي الاهتـزازات وتفهـم مـا يُقـال لهـا.

كان مـن المأمـول لشـخصٍ جِـدٍّ موهـوبٍ عـلى نحـوٍ اسـتثنائي مثـل هيلـين، لـو كانـت تُرِكَـت كُلِّيَّـةً إلى وسـائلها الخاصَّـة، أن تُلقـي بعـض الضـوء عـلى مثـل تلـك القضايـا النفسـانيَّة، كتلـك التـي لم يُسـتقصَ عنهـا عـلى نحـوٍ مسـتفيضٍ مـن قِبَـل دكتـور هـاو، إلَّا أنَّ آمالهـم تلـك لم تتحقَّـق. ففـي حالـة هيلـين، كان الأمـر مُماثِـلًا كـما في هـو في حالـة لـورا بردچــمَن؛

(1) Caligraph هـي الإصـدار الأمـيركي الثـاني مـن الآلات الكاتبـة، بعـد ماركـة ريمنغتـون، وقـد ظهـرت في السـوق لأول مـرة عـام 1891. (المترجـم)

الإحباطُ كان أمرًا لا مفرٌ منه. فمن المستحيل أن تجعل طِفلًا بمعزلٍ عن المجتمع الذي يعيش فيه، لئلًا يتأثَّر بمُعتقدات أولئك الذين يختلِطُ بهم. ففي حالة هيلين، مثل هذا المآل لم يكن ممكنًا بُلوغه دون تجريدها من التواصل مع آخرين، والتواصلُ هو أمرٌ جوهريٌّ بالنسبة لطبيعتها.

لقد كان جليًّا حتمًا لأولئك الذي كانوا يُراقِبون التكشُّف السريع لقُدرات هيلين، أنَّه لن يكون مُمكنًا الإبقاء على روحها التَّوَّاقة إلى المعرفة لأيٍّ فترةٍ من الزَّمن، ابتداءً من الأشياء البسيطة وانتهاءً إلى ألغاز الحياة التي لا يُسبَرَ غَورُها. غير أنَّه قد أُولِيَ الكثير من الانتباه لئلًا تقودها أفكارها إلى الانشغال بموضوعاتٍ، هي نفسها تُسبِّب الحيرة والتشوُّش لكل العقول. إنَّ الأطفال يطرحون أسئلةً عميقة، إلَّا أنَّهم يتلقَّون إجاباتٍ ضحلة، أو، كي نصيغ الأمر على نحوٍ صحيح؛ إنَّهم يُخمَدون بمثل هذه الإجابات.

"من أين أتيتُ أنا؟" و"أين سوف أذهب لـمَّا أموت؟" كانت تلك أسئلةً تطرحها هيلين حين كانت في الثامنة من عُمرها. لكنَّ التفسيرات التي كانت قادرةً على فهمها في ذلك الوقت لم تكن شافِيَة، رغمَّ أنَّ تلك التفسيرات كانت تجبرها على البقاء صامتة، إلى أن يبدأ عقلها في إنماء قُدراتِه العليا، ويستقرئ الإجابات من الانطباعات التي لا تُحصى، ومن الأفكار التي تتدفَّقُ عليه من الكتب ومن تجاربها اليوميَّة. إنَّ عقلَها كان ينشدُ معرفة عِلَل الأشياء.

بينما كانت هيلين تصير أكثر مهارةً، ومُلاحظتها للظواهر أكثر شُمولًا، ومُفرداتُها أكثر ثراءً، مُمكِّنةً إيَّاها من التعبير عن مفاهيمها الخاصة وأفكارها على نحوٍ واضح، وكذلك على استيعاب أفكار الآخرين وتجاربهم؛ أصبحت على بَيِّنةٍ من أمرها بشأن حدِّ قُدرَةِ الإنسان الخلَّاقة، وأدركت، أنَّ بعض القوى -بخلاف القوى البشريَّة- لا

بُـدَّ وأنَّهـا هــي التــي أنشـأت الأرض، والشــمس، وآلافَ الأشـياء الطبيعيَّـة التــي كانــت تألفهــا تمامًــا.

وفي النهايـة، كانـت تحتـاجُ اسـمًا لهـذه القـوى، ذلـك الكيـان الـذي كانـت تتصـوَّره داخـل عقلهـا.

كانـت قـد ألِفَـت القصـص البديعـة لآلهـة وإلهـات اليونـان، مـن خلال كتاب تشارلز كينغسلي "أبطال اليونـان"، ولا بُـدَّ وأنَّها قـد قابلـت كلـماتٍ مثـل: الإلـه، الجنَّـة، الـرُّوح، ومـرَّ عليهـا قـدرٌ عظيـم مـن تعبيراتٍ مشـابهةٍ كهـذه في الكتـب.

هـي لم تكـن تسـألُ مُطلقًـا عـن معنـى مثـل هـذه الكلـمات، ولا كانـت تُبـدي أيَّ تعليـق حـين يحـدث أن تـؤتى عـلى ذِكرهـا، وحتـى فبرايـر عـام 1889، لم يكـن قـد تحـدَّث معهـا أيُّ إنسـانٍ عـن مفهـوم الإلـه. في ذلـك الوقـت، حاوَلَـت إحـدى أقربائهـا الأعـزَّاء، والتـي كانـت أيضًـا مَسـيحيّةً وَرِعَـة، أن تُحدِّثهـا عـن الله، لكـن، لأنَّ تلـك السـيِّدة لم تسـتخدم في حديثهـا كلـماتٍ تتناسَـبُ واسـتيعاب الطِّفلـة، تركـت كلماتهـا انطباعًـا طفيفًـا عـلى ذِهـن هيلـين. عندمـا تحدَّثـتُ معهـا بعـد هـذا قالـت لي: "عنـدي شيءٌ مُضحِـك أريـد أن أخـبرك بـه. (أ) تقـول إنَّ الإلـه خلَقنـي وخلـق الجميـع مـن تُـراب، لكـن لا بُـدَّ أنَّهـا مُزحـة. أنـا مخلوقـة مـن عظـمٍ ولحـمٍ ودَم، ألسـتُ كذلـك؟". عنـد قولهـا هـذا جَسَّـت ذِراعهـا بِـرِضًى بَـيِّن، وهـي تضحـك مـن كلِّ قلبهـا مـع نفسـها. واصلـت بعـد دقيقـةٍ تقـول: "(أ) تقـول إنَّ الإلـه حـاضر في كلِّ مـكان، وأنَّـه؛ هـو، يمثِّـل كلَّ المحبَّـة، لكـن لا أظـنُّ أنَّ هنـاك شـخصًا يمكـن أن يكـون مصنوعًـا مـن المحبَّـة. المحبَّـة هـي شيءٌ موجـود فقـط داخـل قلوبنـا. ثـمَّ قالـت (أ) شـيئًا آخـر كوميديًّـا جـدًّا. هـي تقـول إنَّـه، هـو (تعنـي الإلـه) هـو أبي العزيـز. لقـد جعلنـي هـذا أضحـك بشـدة، فحسـب مـا أعـرف أبي هـو أرثـر كِيلَـر".

شرحتُ لها أنَّها ليست قادرةً بعدُ على استيعاب ما أُخْبِرَت به، وكان من السهل تمامًا أن يُرشِدها هذا، إلَّا أنَّه سوف يكون من الأفضل ألَّا تتكلَّم عن مثل هذه الأشياء إلى أن تصير أكثرَ رُشدًا.

لقد صادَفَت التعبير القائل: "أمُّنا الطبيعة" أثناء مسير قراءتها، ولفترةٍ طويلة، اعتادت أن تنسِب إلى أمِّنا الطبيعة أيًّا ما كانت تشعر أنَّه يتجاوز قُدرة الإنسان على اجتراحه والإتيان به. فعندما تتحدَّثُ عن نُموِّ النَّبات كانت تقول: "أمُّنا الطبيعة تُرسلُ المطر وأَشِعَّة الشمس لكي تجعل الأشجار والأعشاب والزهور تنمو". المقتَطَفُ التالي من يوميَّاتي سوف يُبيِّنُ كيف كانت أفكارها في ذلك العهد:

"كانت هيلين تبدو جادَّةً بعض الشيء بعد العشاء، وقد سألتها السيدة كِيلَر عمَّا كانت تفكِّر فيه. ردَّت تقول: (أنا أتفكَّر في كم أنَّ أمَّنا الطبيعةُ تكون مشغولةً في فصل الربيع). وعندما سألتها لماذا، أجابت: (لأنَّ عندها الكثير جدًّا من الأطفال لتعتني بهم؛ فهي أمُّ كلِّ شيء: الزهور والأشجار والرِّياح).

(كيف تعتني أمُّنا الطبيعةُ بالزُّهور؟) سألتُها. (إنَّها تبعثُ المطر وأشعة الشمس كي تجعلها تنمو)، هكذا ردَّت هيلين، وأضافت بعد دقيقة: (أعتقد أنَّ أشعَّة الشمس هي ابتسامةُ الطبيعة التي تبعث على الدفء، وأنَّ قطرات المطر هي دموعها).

لاحقًا قالت: (أنا لا أعرف إن كانت أمُّنا الطبيعة هي مَن خَلقتني. أعتقد أنَّ أمِّي قد تلقَّتني من الفردوس، لكنِّي لستُ أعلم أين يكون هذا المكان. أنا أعرف أنَّ زهور الأقحوان وزهور الثالوث تنبتُ من البذور التي تُزرعُ في الأرض، لكنَّ الأطفال لا ينبتون من الأرض، أنا متأكِّدة. أنا لم أَرَ أبدًا نباتًا طِفلًا! لكني لستُ أستطيعُ أن أتصوَّر مَن الذي خلق أمَّنا الطبيعة، أتستطيعين؟ إنَّني أحبُّ الربيع الفاتن؛ لأنَّ الأشجار ذات البراعم، والزهور المتفتِّحة، والأوراق الخضراء الغضَّة تملأ

قلبي بالسعادة. لا بُدَّ أن أذهب الآن كي أطمئنَّ على حديقتي. فزهور الأقحوان وزهور الثالوث سوف يظنُّون أنِّي قد نسيتهم)".

بعد شهر مايو من عام 1890، كان جليًّا بالنسبة لي أنَّها قد بَلغَت من الأمر مبلغًا كان من المستحيل معه إبعادُها عن التفكير في المعتقدات الدينية التي كان يعتنقها أولئك الذين كانت تتواصل معهم يوميًا. لقد كانت تغمرني تقريبًا بتساؤلاتٍ، كانت تلك التساؤلات هي النِّتاج الطبيعيَّ لذكائها المتسارِع التطوُّر.

في بواكير شهر مايو، كتبت على لوح الكتابة الخاص بها قائمة الأسئلة التالية:

"إنَّني أرغب في الكتابة عن الأشياء التي لا أستطيعُ أن أفهمها. مَن الذي خلق الأرض والبحار، وخلق كلَّ شيء؟ ما الذي جعل الشمس ساخنة؟ أين كنتُ قبل أن أقدِمَ إلى أمِّي؟ أنا أعرف أنَّ النباتات تنشأ من البذور التي تكون في الأرض، لكن أنا متأكِّدة أنَّ البشر لا ينشؤون بهذه الطريقة. فأنا لم أرَ أبدًا نباتًا طِفلًا. إنَّ صِغار الطيور والكتاكيت تأتي من البيض. لقد رأيتُهم. ماذا كانت البيضة قبل أن تكون بيضةً؟ لماذا لا تسقط الأرض، مع أنَّها كبيرة الحجم جدًّا وثقيلة؟ أخبريني شيئًا وقولي إنَّ أمَّنا الطبيعة تفعل هذا. هل ممكن أن أقرأ الكتاب الذي يُسمَّى الكتاب المقدَّس؟ أرجوكِ أخبري تلميذتك الصغيرة بتفسير هذه الأشياء الكثيرة عندما يتوفَّرُ لديك مزيدٌ من الوقت".

هل بإمكان المرء أن يتشكَّك، بعد قراءة هذه الأسئلة، أنَّ الطفلة التي استطاعت طرح هذه الأسئلة، كانت قادرةً أيضًا على استيعاب إجاباتِها المبدئية على الأقل؟ بالطبع هي لم تكن تستطيعُ الاستمساك بمثل هذه الأفكار المجرَّدة، باعتبارها إجاباتٍ تامَّة على ما كانت تتضمَّنُه أسئلتها، لكنَّ حياة الإنسان ليست سوى تطوُّرٍ متواصل من إدراك المعنى والغاية لهكذا أفكار.

خـلال مسـار تعليـم هيلـين، كنـتُ أؤمـن جازِمـةً أنـه في اسـتطاعتها أن تتعلَّـم أيًـا مـا يكـون مرغوبًـا بالنسـبة لهـا أن تعرفَـه. إن لم يكـن يجـري داخـل عقـل هيلـين بعـضٌ مـن مثـل تلـك العمليـات الذهنيـة -كـما تبـينُ عـن ذلـك الأسـئلةُ التـي تطرحهـا- إذن لكانـت أيُّ تفسـيراتٍ مُقدِّمـة إجابـةً عـن هـذه الأسـئلة أمـرًا يصعـب فهمـه بالنسـبة لهـا. فـدون هـذا المسـتوى مـن التطـوُّر والنَّشـاط العقـليِّ، الـذي يسـتوعبُ ضرورةَ وجـود قـوى إبداعيَّـة خارقـة، لمـا كان أيُّ تفسـيرٍ لأيِّ ظاهـرةٍ طبيعيَّـةٍ أمـرًا مُمكِنـا.

بعـد أن نجحـت في صياغـة الأفـكار التـي كانـت تنمـو في ذهنهـا عـلى مهـلٍ، بـدا أنَّ تلـك الأفـكار تسـتحوذ عـلى جميـع مُعتقداتِهـا، وصـارت لا تطيـق صَـبرًا حتـي يكـون كلُّ شيءٍ مُفـسَّرًا لهـا. حيـث بعـد وقـتٍ قصـيرٍ مـن تدوينهـا الأسـئلة السـالفة، وبينـما كنَّـا مارِّيـن بنمـوذجٍ كبـير للكُـرة الأرضيـة، توقَّفَـت أمامـه وتسـاءَلَت: "مَـن الـذي صنـع العالَـمَ الحقيقـي؟" كان ردِّي: "لا أحـد يعلـم كيـف أتـت الأرض إلى الوجـود، ولا الشـمس، ولا كيـف أتـت جميـع العـوالم التـي نسـمِّها نحـنُ: النُّجـوم، إلَّا أننـي سـوف أخـبركِ كيـف حـاول بعـض الحكـماء أن يقدِّمـوا تفسـيراتٍ لمنشَـئها، وأن يُؤَوِّلـوا عِلـلَ القـوى الغامضـة للطبيعـة".

لقـد كانـت تعـرف أنَّ لـدى اليونانيِّـين الكثـير مـن الآلهـة، ينسِـبون لهـا قـوًى متعـدِّدة؛ وذلـك لأنَّهـم كانـوا يؤمنـون بـأنَّ الشَّـمس، والـبرق، ومئـاتٍ مـن قـوى الطبيعـة الأخـرى، إنَّمـا هـي قـوًى مُسـتقلَّة وخارِقـة. لكـن بعـد قـدرٍ كبـيرٍ مـن الدراسـة والتفكـير، قلـتُ لهـا، إنَّ الإنسـان انتهـى إلى الإيمـان بـأنَّ جميـع تلـك القـوى، إنَّمـا هـي تجلِّيـاتٌ لقـوَّةٍ واحـدة، وقـد خلعـوا عـلى هـذه القـوَّة اسـم: الإلـه.

ظلَّـت واقفـة دون حِـراك بضـع دقائـق، كان مـن الواضـح أنَّهـا كانـت تفكِّـر في الأمـر بجديَّـة. بعدئـذٍ سـألتني: "مَـن الـذي خلـق الإلـه؟"، كنـتُ مُضطَـرةً إلى التملُّـص مـن إجابـة سـؤالها؛ حيـث لم يكـون في اسـتطاعتي

أن أشرح لهـا غمـوض الكيـان المتفـرِّد القائِـم بذاتِـه. حقيقـةً، كثـيرٌ مـن أسـئلتها الحماسـيَّة كانـت لِتُحَـيِّرَ شـخصًا يفوقنـي ذكاءً أكـثر مِـمَّا تُحـيِّرُني. هـا هـي بعـضٌ مـن هـذه الأسـئلة: "مـن أيـن حصـلَ عـلى التربـة، والماء، والبـذور، والحيوانـات الأوَّليَّـة؟"، "أيـن هـو الإلـه؟"، "هـل حصـل ورأيـتِ الإلـه؟". قلـتُ لهـا إنَّ الإلـه حـاضرٌ في كلِّ مـكان، وأنَّهـا لا ينبغـي أن تفكِّـرَ فيـه وتتمثَّلـه عـلى هيئـة شَـخص، إنَّمـا بكونـه الحيـاة، العقـل، الـرُّوح لـكلِّ شيء. قاطعتنـي قائلـةً: "ليـس كلُّ شيءٍ يملـكُ في ذاتـه حيـاةً؛ فالأحجـار ليسـت بهـا حيـاة، وهـي لا تسـتطيعُ أن تُفكِّـر". يلـزمُ أن أُذكِّرهـا دومًـا بـأنَّ العـالم بـه الكثـير مـن الأشـياء إلى مـا لا نهايـة، لا يسـتطيعُ أحكَـمُ البَـشرِ أن يُقـدِّمَ لهـا تفسـيراً.

لم تُلقَّـن هيلـين أيَّ تعاليـم أو أيَّ أُسُـسٍ لأيـةِ عقيدة، ولم تُبـذَل أيُّ جهودٍ تهـدفُ إلى فَـرض أيِّ مُعتقـداتٍ دينيَّـة للاسـتحواذ عـلى اهتمامهـا. نظـرًا إلى كـوني واعيـةً تمـامَ الوعـي بعـدم أهليَّتـي لإعطائهـا تفسـيراتٍ مناسِـبة للقضايـا الغامضـة، التـي ينـدرج تحتَهـا مفاهيـم: الإلـه، الـروح، والخلـود؛ لـذا كنـتُ أشـعرُ عـلى الـدَّوام أنَّنـي مَدفوعـةً بحِـسٍّ مـن الواجـب نحـو تلميـذتي، أن أقـول لهـا أقـلَّ قَـدرٍ مُمكِـن عـن الأمـور الرُّوحانيَّـة. لقـد شرح لهـا نيافـةُ الأُسـقف فيليـب بروكـس بطريقـةٍ رائعـة موضـوع أُبُـوَّة الله.

لم يكـن مسـموحًا لهـا بعـدُ بقـراءة الكتـاب المقـدَّس؛ لأنَّنـي لسـت أدري كيـف سـتفعلُ هـذا في الوقـت الحـالي دون الوقـوع في شَركِ الفَهـم الخاطـئ فيـما يتعلَّـقُ بصِفـات الله. كنـتُ قـد أخبرتُهـا فعـلًا بـكلامٍ بسـيط عـن حيـاة يسـوع الصالحـة والرَّائعـة، وعـن موتـه الوحـشيِّ. لقـد أثَّـرَت بهـا الحكايـة جـدًّا عندمـا سَـمِعَتها للمـرَّة الأولى.

عندمـا اسـترجَعَت محادثتنـا بشـأن ذلـك مـرَّةً أخـرى، كان سـبب ذلـك هـو أن تسـأل: "لمـاذا لم يذهـب يسـوع بحيـث لا يسـتطيعُ أعـداؤه العثـورَ عليـه؟". كانـت تـرى أنَّ معجـزات يسـوع هـي أمـورٌ عجيبـةٌ جـدًّا. عندمـا

قيل لها إنَّ يسوع كان يمشي على الماء لأجل أن يلتقي بحوارييِّه، قالت في تصميم: "ليس معنى هذا أنَّه كان يمشي، إنما المقصود أنَّه كان يعوم". عندما أُخبِرَت بالحادثة التي أحيا فيها يسوعُ الموتى، كانت في حَيْرَةٍ للغاية، قالت: "لستُ أدري إن كانت الحياة يمكنها أن تعود إلى الجسد الميت!".

ذات يوم، قالت في أسًى: "إنَّني كفيفةٌ وصَمَّاء؛ ذلك هو السبب في أنِّي لا أستطيعُ رؤية الإله". علَّمتُها كلمة غير مرئيٍّ، وقلتُ لها إنَّنا لا نستطيعُ رؤية الإله بأعيننا؛ لأنَّه رُوح، لكن، حينما تكون قلوبنا عامرةً بالخير والإحسان، عندئذٍ نشهَدُ الإله؛ لأنَّنا وقتئذٍ نكون أكثر شَبهًا به.

ذات مرّة سألتني: "ما هي الرُّوح؟"، أجبتُها: "لا أحد يعلمُ ما هو كُنه الرُّوح، لكنَّنا نعلم أنَّها بخِلاف الجسد، وأنَّها هي الجزءُ مَنَّا الذي يُفكِّر ويُحِبُّ ويتمنَّى، وهي الكيانُ الذي يؤمن المسيحيُّون أنَّه سوف يبقى ويحيا بعد فَناء الجسد". بعد ذلك سألتُها أنا: "هل تستطيعين أن تفكِّري في روحك على أنَّها جزءٌ منفصلٌ عن جسدك؟" ردَّت وقالت: "آه، نعم! فقد كنتُ أفكِّر كثيرًا طوال الساعة الماضية بالسيِّد أناجنوس، وبعد ذلك كان عقلي في... (ثمَّ بدَّلَت الكلمة) كانت روحي في أثينا، لكنَّ جسدي بقي هنا في حجرة المذاكرة". يبدو أنَّه في تلك اللحظة، خطرت على عقلها كَلَمْعِ برقٍ فكرةٌ أخرى، وأضافت: "لكنَّ السيد أناجنوس لم يكن يتحدَّث إلى رُوحي". شرحتُ لها أنَّ الروح، هي أيضًا غير مرئيَّة، أو بتعبيرٍ آخر، ليس لها صورةٌ ظاهرة. عندئذٍ قالت: "لكن لو أنا أكتبُ ما تُفكِّر فيه روحي، عندئذٍ سوف تكون شيئًا مرئيًّا، وسوف تكون الكلمات بالنسبة للروح، هي الجسد".

قالت لي هيلين منذ وقتٍ بعيد: "إنَّني أودُّ أن أعيشَ ألفًا وستمائة عام". عندما سألتُها إن لم تكن تودُّ أن تحيا دومًا في وطنٍ جميلٍ يُسمَّى الجنَّة، كان سؤالها الأول هو: "أين هي الجنة؟". كنتُ مضطرَّةً لأن

أعترف لها بأنني لستُ أعرف، بيد أنَّني أشرتُ إلى أنَّ الجنَّة ربَّما تكون موجودةً فوق سطح أحد النجوم. بعد دقيقةٍ من هذا قالت: "هل ممكن أن تذهبي أنتِ إلى هناك أوَّلًا لو سمحتِ وتخبريني بكلِّ شيء عنها؟" ومن ثَمَّ أضافَت: "إنَّ توسكامبيا قريةٌ صغيرة جميلة جدًّا". مرَّ ما يزيدُ عن العام قبل أن تُعاود الإلحاح إلى الموضوع، وعندما عادت للحديث عنه، كانت أسئلتها كثيرة ولجوجًا. كانت تسألني: "أين هي الجنَّة، وأيَّ شيءٍ تُشبِه؟ لماذا لا نستطيعُ أن نعرف الكثير عن الجنَّة كما نستطيعُ أن نعرف عن البلاد الأجنبية؟". قلتُ لها في كلماتٍ جِدّ بسيطَةٍ إنه بالإمكان أن تكون هناك الكثير من الأماكن تُسمَّى الجنَّة، إلَّا أَنَّ ذلك جوهريًّا هو عبارة عن حالة؛ كتحقيق ما يشتهيه القلب، إرضاء رغباتِه، وأنَّ الجنة قائمةٌ أينما عُرِفَ الحَقُّ، أينما أُومِنَ به، وأينما شُغِفَ به.

كانت تجفلُ من فِكرة الموت في رعبٍ ظاهر. مؤخَّرًا، عندما أُظهِرَت على غزالٍ اصطادَه أخوها، انزعجت جدًّا، وتساءَلَت محزونةً: "لماذا يجب أن يموتَ كلُّ شيء، حتى الغزال الرشيق؟" في مرةٍ أخرى سألتني: "ألا تعتقدين أنَّنا سوف نكون أكثرَ سعادةً دومًا، إن لم يتعيَّن علينا أن نموت؟" قلت: "لا؛ لأنَّه، لو لم يكن هناك مَوتٌ، سوف يزدحمُ عالَمُنا بالكثير من الكائنات الحيَّة، لدرجة أنَّه سيستحيلُ على أيٍّ منها أن يعيش بشكلٍ مريح". "لكن" قالت هيلين سريعًا، "أعتقد أنَّه لاستطاع الإله أن يصنع مزيدًا من العوالِم، تمامًا كما صنع هذا العالَم".

عندما أخبرها أصدقاؤها بالحبور العظيم الذي ينتظرها في الحياة الأُخرى، سألتهم على الفور: "كيف لكم أن تعرفوا هذا إن لم تكونوا قد مِتُّم من قبل؟".

التلَقِّي الحَرْفِيُّ الذي كانت تفهم به أحيانًا بعض الكلمات الشائعة والتعبيرات، يُظهِرُ كم هو ضروريٌّ أن نتأكَّدَ تمامًا أنَّها تتلَقَّى المعنى

الصحيح. فعندما قيل لها مؤخَّرًا إنَّ الهنجاريِّين وُلِدوا موسيقيِّين، سألت في دهشةٍ: "هل يغنُّون عندما يُولَدون؟"، عندما أضاف أحد أصدقائها وقال إنَّ بعضًا من الطَّلبة الذين رآهم في بودابِست، يحفظون في أذهانهم ما يزيد عن المائة لحن، قالت ضاحكةً: "أعتقد أنَّ رؤوسَهم لا بُدَّ مليئةٌ بالكثير من الضجيج". إنَّها تُلاحِظُ سَريعًا ما هو سخيف، وعوضًا عن إزعاج نفسها بالأسلوب الاستعاريِّ وأخذه على محمل الجِدِّ، فغالبًا ما تتفكَّهُ بفَهمها الحرفيِّ المبالَغِ فيه لمعناه.

عندما قال لها ديفيد إنَّ الروح ليس لها شكل، كانت حائرةً للغاية جرَّاءَ كلماته: "إنَّه يهدي روحي الطريق". "أَلَها أرجُل؟ أتستطيع أن تمشي؟ هل هي كفيفة؟" كانت تسأل عن هذا؛ لأنَّ الفكرة التي كانت منطبعة في ذهنها عن كون الشيء يُقاد، مرتبطة العماء.

من بين جميع القضايا التي كانت تُزعِجُ هيلين وتسبِّبُ لها الحيرة، لا شيء كان يزعجها أكثر مِن المعرفةِ بوجود الشَّر، وبالمعاناة النَّاجمة عنه. كان من الممكن إخفاء المعرفةِ بهذه الأمور عنها لفترةٍ طويلة، ومقارنةً بها سيكون من السَّهل الحؤول بينها وبين التعرُّض الشخصيِّ للرذيلة والأذى. فكرة أنَّ الخطيئة موجودة، وأنَّ البؤس العظيم هو الأمر الذي ينجمُ عنها، كانت تبزُغُ تدريجيًّا في عقلها كلَّما استوعبت بجَلاءٍ المزيدَ والمزيدَ من حيواتٍ وتجارب أولئك المحيطين بها. لقد تعيَّن أن تُشرَحَ لها الحاجةُ إلى القوانين والعقوبات. كان من العسير جدًّا التوفيق بين وجود الشَّرِّ في العالَم، وبين فكرة الإله، التي كانت قد عُرِضَت على ذِهنها قبلًا.

ذات يوم سألت: "هل يرعانا الإله جميعًا في نفس الوقت؟"، رُدَّ على سؤالها بالإيجاب. "إذن لماذا تَرَكَ أختي الصغيرة تسقط هذا الصباح، ويتأذَّى رأسها على نحوٍ مؤلمٍ جدًّا؟". كانت تسأل في وقتٍ آخر عن طِيبةِ الله وقُدرته؛ فرُوِيَ لها عن واقعة تحكي عن عاصفةٍ رهيبة

هَبَّت في عُرض البحر، قضت فيها العديد من الأرواح نَحْبها، فسألَت: "لماذا لم ينقِذْ الإلهُ النَّاسَ إن كان يستطيعُ فعل كلِّ شيء؟".

ولأنَّها محاطةٌ دومًا بأصدقاءٍ مُحبِّين وبحُظوةٍ متلطِّفَة، كما هو حالها دومًا؛ فمنذُ بواكير مرحلة تنوُّرها الفِكريِّ، كانت هيلين تفعل ما هو صائبٌ عن سابِق مشيئة. وبفضل غريزةٍ فِطريَّةٍ معصومة؛ فهي تعرفُ ما هو صائب، وتفعله وهي يغمرها الفرح. إنَّها لا تنظرُ لارتكابِ ولو فِعلٍ خاطئٍ واحد على أنَّه عمل غير مؤذٍ، أو لفعلٍ آخر على أنَّه دون عواقِب، أو لآخر على أنَّه خطأ غير مَقصود. فبالنسبة لروحها النَّقيَّة، كلُّ الشرور تستوي عندها في البُغض.

هذه الفقرات هي من الورقة البحثية التي أعدَّتها الآنسة ساليفان لأجل مُلتقى تشاتاكوا، في يوليو، 1894، للرابطة الأميركيَّة لدعم تعليم الكلام للصُّمِّ، تتضمَّنُ آخر ما كتبته بخصوص طرائقها المستخدمة في التعليم.

"لا يجب أن تتصوَّروا أنَّه ما إن تلقَّفَت هيلين فكرة أنَّ لكلٍ شيء اسمًا، حتَّى صارت في الحال قَيِّمةً على خزانة اللغة الإنجليزيَّة، أو أنَّ (قدراتها العقلية قد بُعِثَت، بكامل عتادِها، من أضرِحتها التي كانت وقتئذٍ تحيا قابعةً فيها، كما خرج بالاس أثين من رأس زيوس)، كما أرادَنا أن نؤمن بهذا أحدُ مُعجبيها المتحمِّسين. في أول الأمر، الكلمات، والعبارات، والجُمل التي كانت تستخدمها للتعبير عن أفكارها، كانت جميعًا نُسخًا طبق الأصل مِمَّا كنَّا نستخدمه نحن في التَّحاوُرِ معها، وهو ما قد احتفظت به ذاكرتُها عن غير وعيٍ منها. وفي الواقع، إنَّ تلك هي اللغة التي يتكلَّمُ بها جميع الأطفال. فاللغة التي يستخدمونها هي عبارة عن مخزون ذاكرتهم من اللغة التي يسمعونها يُتحدَّثُ بها داخل بيوتهم. وبِفعل التكرار الذي لا ينتهي للحوار الدَّائر على مدار اليوم؛ يَطْبَعُ ذلك في ذاكرتهم كلماتٍ وعباراتٍ معيَّنة، وحين يحدث أن

يتكلَّموا عن أنفسهم، تمدُّهم الذَّاكرةُ بالكلمة التي يتفوَّهون بها وهم يتلعثمون. وعلى نحوٍ مماثِل؛ تكون لُغة الأشخاص المتعلِّمين عبارة عن مخزون ذاكرتهم من لغة الكتب التي يقرؤون.

إنَّ اللغة هي نِتاجُ الحياة، نِتاجُ حاجاتها وتجاربها. فلم يكن عقل تلميذتي في البداية سوى مكانٍ فارِغٍ. لقد كانت تعيشُ داخلَ عالَمٍ لم يكن باستطاعتها أن تُدرِكَه. إنَّ اللغة والمعرفة على وِثاقٍ لا فِكاك منه؛ كلاهما يعتمدُ على الآخر. فالعمل الجيد في اللغة يقتضي ويعتمدُ على معرفةٍ حقيقيَّةٍ بالأشياء. وما إن أدركَت هيلين أنَّ كلَّ شيءٍ له اسم، وأنَّه بِعَوْنِ هجاء الأصابِع يمكن لهذه الأسماء أن تنتقِل من شخصٍ إلى آخر، تابعتُ الأمر بحيثُ أوقِظُ فيها شغفَها البالغَ بالأشياء التي تعلَّمَت أن تتهجَّى أسماءها بمثل هذه الجذل. لم أكن أُعلِّمها اللغة مُطلَقًا بغرض التعليم ذاته، إنَّما كنتُ أستخدم اللغة على نحوٍ ثابت باعتبارها وسيطًا من أجل التواصل الفِكريِّ، وبهذا كان تعلُّم اللغة متزامِنًا مع اكتساب المعرفة. لأجل استخدام اللغة على نحوٍ مفهوم، فلا بُدَّ أن يكون لدى المرء شيءٌ يتحدَّثُ عنه، وأن يملك المرء شيئًا يتحدَّثُ عنه إنَّما يكون نتيجةَ كونِه يملكُ خِبرات، وأيًّا كان القَدْرُ المبذول من التدريب اللغويِّ، فلن يمكِّن ذلك أطفالنا الصِّغار من استخدام اللغة بيُسرٍ وطَلاقة، ما لم يكونوا يملكون بَيِّنًا داخل أذهانهم شيئًا يأملون أن يُشاركوه بالتحادُث، أو، ما لم ننجَح نحن في أن نوقِظ بنفوسِهم الفضولَ والرَّغبةَ في معرفة ما يشغلُ عقول الآخرين.

لم أحاول في بداية الأمر تقييدَ تلميذتي باستخدام أيِّ نظام، كنتُ أحاول دومًا أن أتبيَّنَ أيَّ الأشياء يستثير اهتمامها أكثر، وكنتُ أجعل من هذا مُنطَلَقَ الدرس الجديد، سواءٌ أكان لهذا علاقة بالدرس الذي خطَّطتُ له أو لا. خلال العامَين الأوَّلَين من مسار حياتها الفِكرية، كنتُ أطلبُ من هيلين أن تكتب بمقدارٍ قليلٍ جدًّا. فلأجل الكِتابة، يلزمُ المرءُ شيئًا ما كي يكتبَ عنه، ولأجل أن يكون لدى المرء شيءٌ ما كي

يكتبَ عنه، يقتضي هذا بعض التهيئة الذِّهنيَّة. فالذَّاكرةُ لا بُدَّ أن تُملَأ بالأفكار، والعقل لا بُدَّ أن يُموَّلَ بالمعرفة، وذلك قبل أن تكون الكتابةُ سلوكًا طبيعيًّا ومَسعًى يبعثُ على المتعة. وأعتقدُ أنَّه كثيرًا ما يُفرَضُ على الأطفال أن يكتبوا قبل أن يفوهوا بأيِّ شيء. علِّموهم أن يفكِّروا وأن يقرؤوا وأن يتكلَّموا دون كَبتِهم، وسوف يكتبون لأنَّه لن يسعهم سوى فِعلِ هذا.

لقد اكتسبت هيلين اللغةَ من طريق العادة والممارسة عوضًا عن دراسة القواعد والتعريفات. فعلمُ القواعد بنظام تصنيفاته المثير للحيرة، بمُسمَّياته، بصِيَغِه الحَرفيَّة، طُرِح كلُّ هذا جانبًا أثناء عملية تعليمها. لقد تعلَّمَت اللغة من خلال جعلها أن تتعرَّضَ بالتَّواصل إلى اللغة النابضة بالحياة نفسها، حيثُ دُفِعَت إلى التعامل بها من خلال الحوار الدائر كلَّ يوم، ومن خلال كتبها، وبأنْ تُقلِّبَ الأمور على أنساقٍ متنوِّعة، إلى أن صارت قادرةً على استخدام اللغة بالشكل الصحيح. لا شكَّ أنَّني كنتُ أتكلم كثيرًا باستخدام أصابعي، وعلى نحوٍ مُستمرٍّ أكثر مِمَّا كان ينبغي أن أتكلَّم بفمي، فإن كانت تملكُ الانتفاع بحاسَّتَيْ السَّمع والإبصار؛ لكان اعتمادُها عليَّ في أمور الترفيه والتوجيه أقلَّ قَدرًا.

إنَّني أؤمن أنَّ كلَّ طِفلٍ يُخفي بمكانٍ ما داخلَ كيانه قُدراتٍ نبيلة، قدرات يمكن التعجيل بإظهارها وإنمائها، لو أنَّنا نقَّبنا عنها بالطريقة الصحيحة، غيرَ أنَّنا لن نُطوِّر أبدًا الطَّبائع الأسمى عند أطفالنا الصِّغار على النَّحو الصحيح، إن كنَّا نواصل حشو عقولهم بما نُسمِّيه: المبادئ الأساسيَّة. فلن تجعلهم الرياضيَّاتُ أبدًا أشخاصًا مُحِبِّين، ولا المعرفةُ الدقيقة بشكل العالَم وحجمه ستُعينهم على تقدير جمالِه. دعونا نرشدهم خلال سنواتهم الأولى كي يجدوا متعتهم العظمى في الطبيعة. نتركهم ينطلقون عدْوًا في الحقول، يتعلَّمون عن الحيوانات، ويراقبون أشياءَ حقيقيَّةً. فلسوف يعلِّمُ الأطفالُ أنفسَهم بأنفسهم تحت

الظـروف المواتيـة. فـما يلزمُهـم إنَّمـا هـو التوجيـه والمشـاركة الوجدانيَّـة أكـثر كثـيراً مـن التعليـم.

أنـا أعتقـدُ بشـكلٍ كبـير أنَّ الطَّلاقـة التـي تسـتخدمُ بهـا هيلـين اللغـةَ تُعْـزَى إلى واقـع أنَّ كُلَّ انطبـاعٍ تقريبًـا تتلقَّـاه يأتيهـا عـبر وسـيطِ اللغـة. بَيْـدَ أنَّـه بعـد أن أُؤدِّيَ النصيـب المطلـوب لأجـل أن تبلـغَ هيلـين الأهليَّـةَ الطبيعيـة لاكتسـاب اللغـة، وبسـبب المنافـع الناجمـة عـن بيئتهـا المخصوصـة، أرى أنَّنـا مـا نـزال نعتقـدُ بـأنَّ مصاحبتهـا المسـتمرَّة للكتـب الجيِّـدة، إنَّمـا هـي ذات أهمِّيـة قُصـوى في تعليمهـا. قـد يكـون صحيحًـا -كـما يؤكِّـدُ البعـض- أنَّـه ليـس في وسـع اللغـة أن تُبـينَ لنـا كثـيراً عـن الجانـب الآخـر مِـمَّا قـد عايشـناه واختبرنـاه، لكنَّنـي دائمًـا مـا أُلاحـظُ أنَّ الأطفـال يظهـرون أقـصى قـدرٍ مـن الجَـذَل باللغـة الشـاعريَّة الرَّفيعـة- وهـو مـا نحـنُ متحفِّـزون إزاءَه أكـثر مِـمَّا ينبغـي؛ حيـث نميـلُ للظَّـنِّ بـأنَّ ذلـك يفـوق اسـتيعابَهم. (هـذا هـو كلُّ مـا سـوف تفهمونـه)، هكـذا تتوجَّه مُعَلِّمـةٌ بالحديـثِ إلى فَصـلٍ مـن الأطفـال الصِّغـار، وهـي تغلـق الكتـاب الـذي كانـت تقـرأ لهـم منـه. (أوه، فلتقـرئي لنـا الباقـي أرجـوكِ، حتـى وإن لم نكـن سـوف نفهمـه)، هـا هـم يتضرَّعـون، يدفعهـم الجـذَلُ بالإيقـاع الموسـيقيِّ وبالجـمال الـذي استشـعروه، حتَّـى وإن لم يكـن في اسـتطاعتهم تفسـير سـبب تصرُّفهـم هـذا. فليـس مـن الـضروريِّ أن يفهـم الطِّفـلُ كلَّ كلمـةٍ تقـع عينُـه عليهـا في كتـاب قبـل أن يتمكَّـن مـن القـراءة باسـتمتاعٍ واسـتخلاصٍ للفوائـد. في الحقيقـة، فمثـل هـذه الشروحـات، ينبغـي أن تُقَـدَّمَ وكأنَّهـا فعـلًا أمـورٌ جوهريَّـة. فهيلـين كانـت تَعُـبُّ مـن اللغـة مـا لم تكـن تسـتطيع فَهْمَـه في البدايـة، وكان ذلـك يظـلُّ في عقلهـا في حالـةِ سُـباتٍ حتَّـى يـأتي وقـت الحاجـة إليـه، حيـث عندهـا يُرسِّـخُ نفسـه بيُـسرٍ وبشـكلٍ طبيعـيٍّ في أحادِيثهـا وفي مواضيـع الإنشـاء التـي تكتبهـا. في الواقـع، يؤكِّـدُ البعـضُ أنَّهـا تقـرأ كثـيراً أكـثر مِـمَّا ينبغـي، حتَّـى أنَّ قـدرًا كبـيراً مـن قُدراتهـا الخلَّاقـة لتُنفَـقُ دون حسـابٍ في الاسـتمتاعِ بالكتـب، لدرجـة أنَّهـا

عندما تـتراءى لها أشياء أو تقـول لنفسـها أشـياء، فإنَّهـا تـرى تلـك الأشـياء فقـط مـن خـلال عيـون الآخريـن، وتقـول تلـك الأشـياء باسـتخدام اللغـة التـي يسـتخدمها الآخـرون، غـير أنَّنـي عـلى قناعـةٍ، بـأنَّ الكتابـة الإنشـائيَّة المبتكَـرة، دون الإعـداد المسـبَق لها مـن خـلال الكثـير مـن القـراءة، لَهِـيَ ضَربٌ مـن المسـتحيل. إنَّ هيلـين تُـزوَّدُ باسـتمرار بأفضـل وأكـثر النـماذج تجـرُّدًا في اللغـة، ومحادثاتهـا وكتابتهـا إنَّمـا هـي إعـادةُ إنتـاجٍ غـير واعيـة لمـا كانـت تقـرؤه. أعتقـدُ، أنَّ فِعـلَ القـراءة ينبغـي أن يبقـى مسـتقلًّا عـن التدريبـات المدرسـية النِّظاميَّـة. يجـب أن يُحفَّـزُ الأطفـال كي يقـرؤوا لأجـل محـضِ المتعـةِ في فعـل القـراءة. وينبغـي للموقـف النفـسي مـن جانـب الطِّفـل نحـو كُتبـه أن يكـون -لا شـعوريًا- عـلى درجـةٍ مـن التفتُّـح. يتعـيَّنُ أن تكـون صنائـعُ المخيِّلَـة العظيمـة جُـزءًا مـن حياتـه- كـما كانـت يومًـا مـا هـي الجوهـر المجـرَّد في حيـوات البـشر الذيـن سـطَّروها. تلـك حقيقـة: كلَّـما كان العقـل أكـثر رهافـة حِـسٍّ وأكـثر قـدرة عـلى التخيُّـل؛ مـا يجعلـه يسـتوعبُ تشـبيهات الأفـكار ومجـازات الأدب كلَّـما كانـت الكتابـة الناتجـة عـن ذلـك أكـثر إمتاعًـا وأكـثر قُربًـا إلى النَّفـس. إنَّ هيلـين تمتـازُ بحيويَّـة الشُّـعور، وبالحماسـة والتلهُّـفِ عـلى كل مـا يثـيرُ الاهتـمام، ونفـاذَ البصـيرة الرُّوحـيَّ الـذي يسِـمُ المِـزاجَ الفنِّـيَّ، وهـي تملـكُ عـلى نحـوٍ فِطـريٍّ مـن النَّشـاط البالـغ، ومـن الابتهـاج الشـديد بالحيـاة -بالحيـاة كـما هـي ببسـاطة- وبالطبيعـة، بالكُتـب، وبالنَّـاس أعظَـمَ مِـمَّا يملكُـه أقـلُّ البَـشرِ موهبـةً. إنَّ عقلهـا يمتلِـئُ بالأفـكار البديعـة وبالمفاهيـم المثاليَّـة للشـعراء العِظـام، لدرجـة ألَّا شيءَ يبـدو بالنسـبة لهـا أمـرًا تافهًـا؛ فمُخيِّلَتُهـا تصبـغُ كلَّ مظاهـر الحيـاة بدرجاتهـا اللونيَّـة الخاصَّـة الثَّريَّـة".

لقـد جـرى الكثـير مـن الجـدال بشـأن مثـل تلـك التصريحـات والتفسـيرات التـي قدَّمتهـا الآنسـة ساليـڤـان- كـما حـدث ونُشِر سـابقًا. وقـد كُتِـب الكثـيرُ في هـذا الصَّـدَد، مـن جانـب أشـخاصٍ ليسـوا عـلى عِلـمٍ بمشـاكل الصُّـمِّ مـن قلـب المصـدر، ولسـتُ آبَـه بـأن أضيـف إلى هـذا

الكثير. ورغم ذلك فإنَّ تعليم الآنسة كِيلَر، أساسًا، هو موضع تساؤلٍ بخصوص قضية تعليم اللغة، التي هي بالأحرى تشملُ المشاكل التي تواجِه الصُّمَّ، ولا تقصِرُ نفسها على الصُّمِّ وحدهم. يستطيعُ المعلِّمون أن يُقدِّموا استنتاجاتهم الشخصيَّة. أمَّا بالنسبة لأغلبية القُرَّاء، أولئك الذين لن يتناولوا حياة الآنسة كِيلَر من وجهة نظر مُتخصِّصٍ تَربَويٍّ، سأُلخِّصُ لهم قليلًا من الأُسُسَ التي تقومُ عليها طرائقُ الآنسة ساليڤان التعليمية.

لقد بدأت الآنسة ساليڤان من حيث انتهى الدكتور هاو. فهو ابتكَر الأداة؛ أي الوسيلة المادية للتنفيذ، غير أنَّ تعليمَ اللغة لهو أمرٌ مُغايرٌ تمامًا عن الوسائل الآلية التي ربَّما تُعلَّمُ بها اللغة. وبفعل التجربة، ومن خلال دراسة أطفالٍ آخرين؛ اهتدَت الآنسة ساليڤان إلى الطريقة العملية لتعليم اللغة بالطريقةِ الفِطريَّة. "الطريقة الفطرية" تلك هي ما كان يسعى الدكتور هاو للوصول إليه، لكنَّه لم يتوصَّل إطلاقًا إلى تلك الفكرة؛ وهي أنَّ الطفل الأصمَّ، لا ينبغي تعليمه كلَّ كلمةٍ على حدة من خلال تعريف الكلمة، بل ينبغي أن يُمنَح اللغة بواسطة التكرارات التي لا تنتهي، لِلُغَة التي لا يفهمها. وكان ذلك هو اكتشاف الآنسة ساليڤان العظيم. فعلى مدار اليوم، طوال وقت لعبهما ووقت العمل، كانت الآنسة ساليڤان تواصِل تهجئة الكلمات في يد تلميذتها، وبهذه الطريقة، كانت هيلين تتشرَّبُ الكلمات، تمامًا كما يتشرَّبُ الطِّفلُ في مهدِه الكلمات عن طريق سَماعها آلاف المرَّات، وذلك قبل أن يستخدم حتَّى كلمةً واحدةً منها، وكذلك عن طريق الرَّبط بين الكلمات المنطوقة ومناسَبة التفوُّه بها. وبهذا يُدرِكُ الطِّفلُ أنَّ الكلمات تخلعُ أسماءً على الأشياء والأفعال والمشاعر. إذن، هذا هو المبدأ الأول في طريقة الآنسة ساليڤان، وهو مبدأٌ كانت له نتائج عملية، وبقدر ما أستطيعُ أن أكتشف، فهي فكرةٌ لم توضَع أبدًا موضع الاختبار العملي في تعليم طِفلٍ أصَمَّ -ناهيكَ عن طفلةٍ كفيفةٍ

صـمَّاءَ- إلى أن جرَّبتها الآنسـة ساليـڤـان مـع هيلـين كِيلَـر. ولم يكـن هـذا المبـدأ مصوغًـا بوضـوح حتَّـى كتبـت الآنسـة ساليـڤـان خطاباتهـا.

المبـدأ الثـاني في طريقتهـا (الترتيـبُ الرقمـي هـو طبعًـا أمـرٌ اعتباطـيٌّ) هـو ألَّا يُتكلَّـمَ مـع الطِّفـل أبـدًا عـن أشـياء مـن شـأنها أن تثـيرَ ضجـرَه أو اشـمئزازه. ففـي المدرسـة الأولى لتعليـم الصـمِّ، التـي زارتهـا قَبـلًا الآنسـة ساليـڤـان، كانـت المعلمـة مشـغولة عـلى السـبورة بإخبـار الأطفـال، عـن طريـق كلـماتٍ مكتوبـة، بـشيء لم تكـن بهـم رغبـة في معرفتـه، بينـما كانـوا يتزاحمـون حـول زائرتهـم بفضـولٍ نَهِـم، مُظهريـن أنَّهـم يرغبـون فعـلًا في معرفـة آلافَ الأشـياء. "لِـم لا نصنـعُ درسًـا في اللغـة مِـمَّا يثـير اهتمامهـم؟"، هكـذا تقـول الآنسـة ساليـڤـان.

يُماثِـلُ فكـرةَ التحـدُّثِ إلى الطِّفـل عـمَّا يثـير اهتمامـه، المبـدأُ الـذي ينُـصَّ عـلى ألَّا يُدفَـع الطِّفـلُ الـذي يطـرحُ أسـئلةً إلى السـكوت، إنَّمـا يُجـاب عـن الأسـئلة بصـدقٍ قـدرَ المسـتطاع، حيـث تقـول الآنسـة ساليـڤـان إنَّ السـؤال، هـو البـابُ المـؤدِّي إلى عقـل الطِّفـل. لم تكـن الآنسـة ساليـڤـان مطلقًّـا تُبسِّـطُ أفكارهـا وتعبيراتهـا مـن غـير ضرورةٍ كي تُناسِـبَ الوضـع المفـترضَ لـذكاء الطِّفلـة. فقـد كانـت تحـثُّ كلَّ إنسـانٍ عـلى التحـدُّث مـع هيلـين بشـكلٍ طبيعـي؛ يعنـي أن يُحدِّثوهـا بجُمـلٍ تامَّـةٍ وبأفـكارٍ ذكيَّـة، ولا يهـمُّ إن كانـت هيلـين تسـتوعبها أم لا. وهكـذا أدركـت الآنسـة ساليـڤـان مـا لا يفهمـه الكثير مـن النـاس؛ حيـث بعـد التعريفـات الأوَّليَّـة لكلـمات مثـل: قُبَّعـة، فنجـان، يذهـب، يجلـس، تكـون الوحـدة في اللغـة -كـما يتعلَّمُهـا الطِّفـل- هـي الجملـة، والتـي هـي أيضًـا وحـدةُ اللغـة في خِبرة البالـغ. نحـن لا نتنـاول الجملـة كلمـةً بكلمـة، إنَّمـا كوحـدةٍ واحـدة. فالخَـبرُ في الجملـة، إنَّمـا هـو مـا ينقـلُ الفِكـرة؛ حيـث يُسـنَدُ شيءٌ إلى شيءٍ آخـر. صحيـح، أنَّ الكلمـة المفـردَة، يمكـن أن توحـي وتعـبِّر عـن أفـكار؛ فيمكـن أن يقـول الطفـلُ ببسـاطة "مامـا" حينـما يقصـد أن يقـول: "أيـن هـي مامـا؟"، لكنَّـه يتعلَّـمُ التعبـير عـن الأفـكار التـي ترتبـط بكلمـة "مامـا"

-كما يتعلَّمُ اللغة- عن طريق سَماعِ جملٍ تامَّةٍ. ورغم أنَّ الآنسة ساليڤان لم تكن تفرضُ كمالَ الجُمَلِ من ناحية القواعد النحوية، على التَّلَعْثُمات الأولى لإصبع تلميذتها، ومع ذلك، فعندما كانت هي نفسها تردِّد جملة هيلين "ماما لبن"، كانت تملأ مبنى الجملة، وتُتمِّمُ الحذف الإيجازي الذي تقوم به الطِّفلة وتردُّ وتقول: "ماما سوف تجلب لهيلين بعض اللبن".

وبهذا كانت الآنسة ساليڤان تستنبطُ طريقةً فِطريَّةً، طريقة جِدَّ بسيطةٍ، يقلُّ فيها النَّسَقُ المتكلِّف، حتى أنَّ طريقتها كانت تبدو بالأحرى تدميرًا للطريقة. من المشكوك فيه أنَّنا كُنَّا سوف نسمع بهيلين كِيلَر، إن لم تكن الآنسة ساليڤان موجودةً صحبةَ أطفالٍ آخرين. وبفعل مراقبَتهم؛ تعلَّمَت أن تُعامل تلميذتها تقريبًا مثل أيِّ طفلٍ عادي قدر الإمكان.

لم يكن هجاء الأصابع هو الوسيلة الوحيدة لعرض الكلمات على أصابع هيلين. فقد كانت الكتب أداةً مُكمِّلَةً لهجاء الأصابع -ربَّما تُماثِلها في الأهميَّة- وذلك كوسيلةٍ لتعليم اللغة. لقد كانت هيلين تجلس وتستغرقُ في تصفُّح الكتب قبل أن يكون في مُستطاعها القراءة، ولم يكن دافعها هو متابعة سَرد القِصَّة في المقام الأول، إنَّما كي تقع على الكلمات التي تعرفها، وبعون تعريفات الكلمات الجديدة التي كانت مُضمَّنةً في مواضعها بالسياق -بإحالةٍ على كلماتٍ معروفةٍ بالنسبة لها- كان ذلك يضيفُ إلى مخزون مُفردات هيلين. إنَّ الكتبَ هي مستودَعُ اللغة، وأيُّ طِفلٍ، سواءٌ كان أصمَّ أو لم يكن، إن انجذَب انتباهه بأيِّ طريقةٍ إلى صفحاتٍ مطبوعة، لا بُدَّ سيتعلَّم. غير أنَّه لا يتعلَّمُ عبر قراءة ما يفهمه، بل من خلال قراءة وتذكُّر الكلمات التي لا يفهمها. ورغم أنَّ قليلًا من الأطفال ربَّما يملكون ولعًا مُبكِّرًا بالكتب كما كان حال هيلين، فمع ذلك، يمكن أن يتحوَّلَ ذلك الفضولُ الفِطريُّ لكل طفلٍ متمتِّعٍ بوافرِ الصِّحَّة، إلى الاهتمام بالصفحات المطبوعة؛ خاصَّةً

لـو كان المعلِّـمُ حاذِقًـا، ويلعـب مـع الأطفـال بالكلـمات كـما كانـت تفعـلُ الآنسـة ساليـڤـان. يُفـترضُ أنَّ لـدى هيلـين مَلَكـة خاصـة لتعلُّم اللغـات. ما هـو صحيـحٌ بالأحـرى، هـو أنَّهـا تملـكُ مَلكَـةً خاصَّـة بالتفكـير، وأنَّ جُنوحَهـا إلى اللغـة يُعْـزَى سَـببُه إلى حقيقـة أنَّ اللغـة، بالنسـبة لهـا، تعنـي الحيـاة. فاللغـةُ بالنسـبة لهـا لم تكـن مـادَّةً دراسـية مُميَّـزَة، كالجغرافيـا والحسـاب، إنَّمـا هـي وسـيلتُها لإظهـار العـالم الخارجـيِّ عـلى الأشـياء التـي بداخلهـا.

عندمـا كانـت بعمـر الرابعـة عـشرة، ولم تكـن تلقَّـت سـوى دروسٍ قليلـةٍ في اللغـة الألمانيـة، مـرَّت عليهـا وهـي تقـرأ، كلِمَتَـيْ "ڤـيلهيلم تِـلْ"، وتمكَّنَـت مـن فَهـم القِصَّـة. لم تكـن تعـرفُ شـيئًا عـن القواعـد، ولم تكـن تبـالي بهـا. لقـد كانـت تكتسـبُ اللغـة مـن اللغـة نفسـها، وتلـك -بجانـب سَـماع اللغـة المحكيَّـة- هـي الطريقـةُ التـي يسـتطيعُ بهـا أيُّ إنسـانٍ أن يكتسـبَ لغـةً أجنبيَّـةً، عـلى نحـوٍ أكـثر تفاعُـلًا، وفي الأخـير، عـلى نحـوٍ أكـثر سـهولةٍ مِـمَّا تفعلـه طريقتنـا في الفصـل المـدرسي، حيـث يُبتـدأ فيـه تعلُّـمُ اللغـةِ بالقواعِـد. كانـت تلهـو مـع اللاتينيـة عـلى نفـس المنـوال؛ فلـم تكـن تتعلَّـمُ فقـط مـن خـلال الـدروس التـي أعطاهـا إيَّاهـا مُعلِّمُهـا الأوَّلُ في اللاتينيـة، بـل مـن خـلال المـرور عـلى الكلـمات مـرارًا وتكـرارًا في أحـد النصـوص، وهـي لعبـةٌ كانـت تلعبهـا مـع نفسـها.

السَّـيِّد چـون د. رايـت؛ أحـد مُعلِّميهـا في مدرسـة هامسـون؛ في خطـابٍ أرسـله لي يقـول فيـه:

"عندمـا يكـون عندهـا وقـت راحـة، غالبًـا مـا أجدهـا جالسـةً إلى رُكنهـا المفضَّـل، في كُـرسيٍّ يدعـمُ ذِراعـاه الأشـخاص كبـيري الحجـم، مُعـدٌّ خِصِّيصًـا للمكفوفـين، كانـت تُمـرِّرُ إصبعهـا فـوق سـطور (مريض رغـم أنفـه)، لموليير، تضحـك بينهـا وبـين نفسـها عـلى المواقـف السـاخرة والجمـل الفكاهيَّـة. كان مخزونهـا الفاعـلُ حقًّـا مـن مُفـردات اللغـة الفرنسـية ضئيـلًا جـدًّا،

لكن بالاستعانة بقُدرتها على التمييز، كما نُطلِقُ عليه نحنُ ضاحكين: المعالجة الذِّهنيَّة؛ تمكَّنَت من تخمين معاني الكلمات، ورتَّبَت مدلولاتها، كما يحلُّ طفلٌ قِطع أُحجية. كانت النتيجة أنَّني أنا وهي قضينا ساعةً ذات مساء، كانت في منتهى الطَّرَب؛ حيث تدفَّقت تحكي لي القِصة بأكملها، مُسهِبةً باستمتاعٍ عظيم في الحديث عن طَرافتِها وذكائها المتوقِّد. لم يكن ذلك وقت حصَّةٍ دراسيَّةٍ؛ إنَّما كان أحد أوقات استجمامها فحسب".

لذا؛ ما تملكُه هيلين كِيلَر من استعدادٍ لتعلُّم اللغة، سببه، أنَّ طاقتها الذِّهنيَّة، بالإجمال، كانت تتوجَّهُ إلى اللغة؛ لما تُمثِّلها اللغة من قيمةٍ استثنائيَّة بالنسبة لها.

هل كانت إنجازاتُ هيلين تُعزى إلى: قُدرتها الفِطرية، أم إلى الطريقة التي عُلِّمَت بها؟ جرت الكثير من النِّقاشات بشأن السؤال المطروح.

صحيح أنَّه، لو أنَّ هناك مُعَلِّمٌ يملك عشرة أضعاف ما للآنسة ساليڤان من نبوغ، لما استطاع أن يجعلَ من طفلةٍ وُلِدَت متأخِّرَةَ العقل و"تَنْبلًا"، تلميذةً لامعةً كهيلين كِيلَر. غير أنَّه صحيحٌ كذلك، لو كان لهذه الطفلة من نبوغها الفطريِّ عشرة أضعاف ما تملكه بالفعل؛ لما استطاعت هيلين كِيلَر أن تنضجَ وتصير ما هي عليه الآن، ما لم تكن قد عُلِّمَت من البداية بالذَّات؛ خاصَّةً في البداية. وتبقى الحقيقةُ بأنَّها قد عُلِّمَت بواسطة طريقةٍ خاصة بالصُّمِّ لتعليم اللغة، والتي قد أُفصِحَ عن أُسُسِها الجوهريَّةِ بوضوح في خِطابات الآنسة ساليڤان، تلك الخِطابات التي كُتِبَت في أثناء مسيرها لاكتشاف الطريقة، ووضْعها بشكلٍ ناجحٍ قيد التنفيذ. وهي طريقةٌ بالإمكان تطبيقها من قِبَلِ أيِّ مُعلِّمٍ على أيِّ طِفلٍ أصَمَّ صحيح الجسد، وبأكثر تأويلات تلك المبادئ رحابةً؛ يمكن تطبيق هذه المبادئ على طريقة تعليم اللغة لجميع أصناف الأطفال أجمعين.

في نقاشاتِنا العديدة بخصوص هذه القضيَّة، يبدو أنَّ الكُتَّاب يُعجزوننا بالزَّجِّ بنا بين شِقَّي رحى قياسٍ أقرَن((1))- وهو إذا ما كان نُبوغُ هيلين الفِطريُّ هو السبب فيما وصلت إليه، أم العِلَّةُ هي في الطريقة المتقَنة لمعلِّمتها. بالإمكان لكِلا التفسيرَيْن أن يكون صحيحًا في الوقت ذاته، وثمَّةَ حقيقةٌ أُخرى تُبطلُ حُجَّة هذه الإشكاليَّة. وهي أنَّ الآنسة ساليڤان امرأةٌ ذاتُ قُدراتٍ استثنائيَّة. وربَّما لم تكن طريقتها لتنجَح بشكلٍ كامل إن كانت بين يدي شخصٍ آخر. لقد مَنَحَ عقلُ الآنسة ساليڤان النَّادر النَّشيط قَدرًا كبيراً من هِمَّتِه لتلميذتها. فإن تكن هيلين مُغرَمَةً باللغة، وليس لها أيُّ اهتمامٍ بالرياضيات على وجه الخصوص؛ فلا عجبَ أنْ نجد اهتمامات الآنسة ساليڤان تُماثِلها تمامًا. وليس يعني ذلك أنَّ الآنسة كِيلَر تُفرِطُ في الاعتماد على مُعلِّمتها. يُقالُ إنَّها عندما كانت بعُمر الثامنة، وحاول أحدُهم التدخُّلَ في أمرٍ يخصُّها، جلست ساكنةً على نحوٍ رزين بضع دقائق، وعندما سُئِلَت ما المشكلة، أجابَت: "إنَّني أتهيَّأ كي أدافع عن استقلاليَّتي". مثلُ تلك الشخصيَّة الشَّرِسة لا يمكنها أن تكبُرَ في ظِلٍّ اعتماديَّةٍ مَحْضَة، حتى وإن كانت تحت إشراف شخصٍ حازم كالآنسة ساليڤان. لكنَّ الآنسة ساليڤان، بما تملكُه من "استعدادٍ فِطريٍّ"؛ قد أسْدَت إلى تلميذتها الكثير لدرجة أنَّه يستعصي على التحليل والحَصر في أساسٍ مصوغ؛ فلقد مَنحَتْها الإلهام المتمثِّلَ في الصَّداقة الحميمة، وذلك بالأحرى شيءٌ يُطوِّرُ من قُدراتِ الشَّخصِ أيًّا كان، لا يُقيِّدُها. علاوةً على هذا، إن كانت الآنسة كِيلَر هي "أُعجوبة الخير والعذوبة"، إن كانت تُكِنُّ حُبًّا "لكلِّ الأشياء الجميلة والفاضِلة"؛ فإنَّ ذلك ينطوي على شيءٍ ذي دلالة بشأن مُعلِّمتها التي قد عاشت معها ستة عشر عامًا.

---

(1) القياس الأقرن: برهان ذو حدين، يُكرِه الخصمَ على اختيار أحدٍ من بديلَيْن، كليهما في غير مصلحته. (المترجِم)

إذن، ثمَّـة إجـماع عـلى أنَّ الآنسـة ساليـڤـان قـد فعلـت لأجـل هيلـين كِيلَـر مـا لم يسـتطع معلـمٌ آخـر أن يفعلـه لأيِّ إنسـانٍ آخـر بنفـس الطريقة تمامًـا. فَلِأَنْ نظفـرَ بهيلـين كِيلَـر أخـرى، فـلا بُـدَّ أن يكـون هنـاك آنسـة ساليـڤـان أُخـرى. وكي نحظـى بطِفلـةٍ مكفوفـةٍ صـمَّاء أُخـرى قـد أُحسِـنَ تعليمهـا، تلزمنـا الحاجـة لمعلِّمـةٍ أخـرى، تعيـشُ قيـدَ ظـروفٍ ملائمـة، مُحاطـةً بوفـرةٍ مـن الأشـياء المثـيرة للاهتـمام مـن البيئـة الخارجيـة، لا تُفـارِق تلميذتهـا، تسـمحُ لهـا بحرِّيَّـة التـصرُّف، وتسـتعينُ بأكـبر قـدرٍ ممكـنٍ مـن الأُسسِ التـي وفَّـرَت عليهـا الآنسـة ساليـڤـان عنـاءَ اكتشـافها بنفسـها -تُعـدِّلُ فيهـا وتضيـف متـى مـا استلزَمها هـذا- ويلـزمُ أن يكـون هنـاك طفلـةٌ في تمـام الصِّحَّـة والعافيـة، تملـكُ قـدراتٍ فِطريَّـةً معقولـة، يافعـةً بمـا يكفـي، بحيـث لا تكـون قـد شَـبَّت وسـط أجـواء مـن الجهالـة بعـد أن تكـون منهـا تعافَـت. أيُّ طِفـلٍ أصَـمَّ أو أيُّ طِفـلٍ كفيـفٍ أصـمَّ، ويتمتَّـعُ بصِحَّـةٍ جيِّـدة، فهـو يمكـن أن يُعلَّـم. والشَّـخص الـذي ينبغـي عليـه القيـامُ بهـذا هـو أحـد الوالِدَيـن، أو معلِّـمٌ خـاص، لا المدرسـة. أعلـمُ أنَّ تلـك الفِكـرة، لسـوف تُناهَـض بشِـدَّةٍ مـن قِبَـل أولئـك الذيـن يُديـرون مـدراسَ للصُّـمِّ. لأُؤكِّـد هـذا: مدرسـة الصُّـمِّ هـي الـشيء الوحيـد المتـاح للأطفـال الـذي تعلَّمـوا تعليـمًا حكوميًـا. لكـن مـن الجـليِّ أنَّـه، مـا يحتـاج الطِّفـلُ الأصـمُّ عـلى وجـه الدِّقَّـة أن يتعلَّمـه، هـو مـا قـد تعلَّمـه الأطفـال الآخـرون قبـل أن يدخلـوا المدرسـة عـلى الإطـلاق. فعندمـا خرجـت الآنسـة ساليـڤـان إلى فنـاء المزرعـة، والتقطـت كتكوتًـا صغـيرًا، وتحدَّثـت عنـه مـع هيلـين؛ فبهـذا هـي كانـت تمنحُهـا نوعًـا مـن التعليـم مسـتحيلٌ أن يحـدث بـين أربعـة جُـدران، ويسـتحيلَ كذلـك مـع وجـود أكـثر مـن تلميـذٍ في وقـتٍ واحـد.

إنَّ دكتـور هـاو يقينًـا عـلى خطـأ حـين يقـول: "ليـس في وسـع المعلِّـم أن يكـون طِفـلًا". فهـذا هـو بالضَّبـط مـا يجـب عـلى معلِّـم الطِّفـل الأصـمِّ أن

يكونَـه؛ أن يكـون طِفـلًا، أن يكـون عـلى اسـتعدادٍ لأن يلعـبَ ويمـرَح، وأن يهتـمَّ بـكلِّ الحاجيـات الطُّفوليَّـة.

إنَّ النُّـزوعَ إلى مناقشـة قضيَّـة تعليـم الصُّـمِّ بأكملهـا -في ضـوء تجربـة هيلـين كِيلَـر بشـكلٍ منفـرِد- إنَّمـا هـو أمـرٌ محفـوفٌ بالمخاطِـر؛ وهـو أمـرٌ لم أتَّخِـذ ضمانًـا مُعيَّنًـا كي أتفـاداه؛ لأنَّ آرائي في هـذا ليسـت انطلاقًـا مـن كـوني مُفوَّضًـا، فلقـد كنـتُ فقـط أحـاولُ الإشـارة إلى الإشـكاليَّات، وأن أُدَعِّـمَ بعـض الأفـكار الرئيسـيَّة التـي عـبَّرت عنهـا الآنسـة ساليـڤـان، وهـي الشـخص المفـوَّض والمـوَكَّل بالأمـر. إنَّهـا مسـألةُ إذا مـا كان نجـاح هيلـين كِيلَـر قـد أدَّى بالمعلِّمـين لأنْ يتوقَّعـوا الكثـير مـن أطفـالٍ آخريـن بشـكلٍ مُبالَـغٍ فيـه، وأنـا أعـرف أطفـالًا مكفوفـين قـد اجْـتُرُّوا مـن قِبَـل مُعَلِّميهـم وأصدقائهـم، وصـاروا مـوادَّ لتقاريـر حماسـيَّة، ومِمَّـا يُثـيرُ الشَّـفقةَ أنَّ تلـك التقاريـر غـير حقيقيَّـةٍ؛ فبإمـكان المـرء أن يستشِـفَّ مـمَّا وراء تلـك التقاريـر كيـف دُفِـعَ الأطفـال وأُجهِـدوا لأجـل رفعهـم إلى منزلـةٍ، تُقـاربُ مقـامَ الأشـياء المبالَـغ فيهـا التـي تُقـال عنهـم.

دَعـوني أُجمِـلْ قليـلًا مـن العنـاصر التـي جعلَـت مـن هيلـين مـا هـي عليـه. لقـد كانـت تملـكُ في المقـام الأول تسـعةَ عـشر شـهرًا مـن خِـبرة الرؤيـة والسَّـماع. ذلـك كان يعنـي وجـود بعـض التطـوُّر العقـليِّ. وهـي قـد ورِثَـت نشـاطَ العقـلِ والجسَـد. وكانـت تُعَـبِّرُ عـن الأفـكار قبـل أن تتعلَّـم اللغـة مـن خـلال الإشـارات. كاتَبَتنـي السـيدة كِيلَـر تقـول إنَّـه قبـل مـرض هيلـين، كانـت تسـتخدمُ إشـاراتٍ للتعبـير عـن كلِّ شيء، وكانـت أمُّهـا تظـنُّ أنَّ تِلـك العـادة هـي السـببَّ في بُـطْء تعلُّمهـا الـكلام. أمَّـا بعـد المـرض، حـين كانـوا معتمديـن عـلى الإشـارات، ظهـر نـزوعُ هيلـين إلى الإيمـاء. أمَّـا إلى أيِّ مـدًى كانـت تسـتطيعُ أن تتبـادل الأفـكار والمعلومـات فهـو أمـر يصعـبُ تحديـده، لكنَّهـا كانـت عـلى درايـةٍ كبـيرة بمـا يـدور مـن حولهـا. فقـد ميَّـزَت أنَّ الآخريـن كانـوا يسـتخدمون شِـفاههم؛ حيـث ذات مـرَّةٍ "رأت" أباهـا يقـرأ صحيفـةً، وعندمـا تركهـا جلسَـت هـي في كُرسـيِّه،

وأمسَكَت بالصَّحيفةِ أمام وجهها. ثوراتُ انفعالها الأولى كانت تعبيراً تعيسًا عن قوَّة شخصيَّة فِطريَّة، وهي من صِنفٍ كان يتعيَّنُ على التهذيبِ أن يحوِّلها إلى قوَّةٍ مُروَّضة، ومُنظَّمة.

هكذا إذن، لهذا السبب الوجيه، كَرَّسَت الآنسة ساليڤان ذكاءها والتزامها، وتحلَّت باستعدادٍ غيرَ هيَّابٍ للتجربة. فطرائقُ الآنسة ساليڤان كانت ذاتَ نفعٍ جدًّا بالنسبة لهيلين، لدرجة أنَّه، حتَّى دون وجود النتائج العملية، لاستطاع أيُّ شخصٍ أن يُدركَ حقيقةَ أفكار المعلِّمة. علاوةً على ذلك؛ فالآنسة ساليڤان تمتلك شخصيَّةً حازمة. وفي الآخير، كانت كلُّ الظروفِ مواتيةً لمدرسة الفِطرة الأولى هذه، والتي فيها، كان المعلِّمُ والتلميذُ يلعبان معًا، ويستكشِفان الأشياء معًا، ويعلِّمان نفسيهما، تلميذٌ ومعلِّمٌ لا ينفصمان.

المرحلة التالية من تعليم الآنسة كِيلَر هي أمرٌ يسهلُ فهمه، ولا يحتاجُ مزيدًا من التفسيرات أكثر مِمَّا قد أعطَت هي. وبإمكان مَن يهمُّه الأمر، ويريد أن يطَّلِع على المزيد، أن يتقدَّمَ بطلبٍ إلى معمل ومكتب ڤولتا، بواشنطن العاصمة؛ حيث فيه توجد تقارير المعلِّمين الذين أعدُّوها لدخول الكلِّيَّة: السيد آرثر غليمَن من مدرسة كيمبردج للآنسات، والسيد ميرتون س. كيث.

الفصل الرابع

مرحلة الكلام

الشَّخصان المرخَّص لهما بالكتابة عن تمكُّن الآنسة هيلين كيلر من الكلام هما: الآنسة ساره فولر، من مدرسة هوراس لتعليم الصُّمِّ ببوسطن، في ماساتشوستس -وهي مَن أعطاها دروسَها الأولى- والشخص الثاني هي الآنسة ساليڤان؛ والتي بانضباطِها المنتظِم، واصلت وحافَظَت على نجاح الدروس الأولى تلك.

قبل أن أقتبِسَ من بيان الآنسة ساليڤان، دَعوني أعرِضْ بعض الانطباعات عن سِمات صوت الآنسة كِيلَر وطريقتها في الكلام في الوقت الحالي.

صوت الآنسة كيلر صوتٌ خفيض، ويسرُّ المرء أن يُصغي إليه. طريقتها في الكلام يعوزها التنوُّع والتعدُّدُ في طبقات الصَّوت؛ فهي

تجري على وتيرةٍ واحدة حينما تقرأ بصوتٍ عالٍ، وعندما تتحدَّثُ بدرجةٍ معتدلةٍ من عُلوِّ الصَّوت، يتأرجح صوتها بين نغمتَين أو ثلاث نغمات. صوتُها له طابَعٌ حَلْقِيٌّ؛ حيث يظهر دومًا لَهَثان بقدرٍ كبيرٍ يفوق وتيرةَ النَّغم. بعض الأنغام الصادرة من صوتها موسيقيَّةٌ وفاتِنة. عندما تكون تروي قِصَّةً خاصَّة بالأطفال، أو قِصَّةً بها تفخيمٌ دراميٌّ للصوت، ينطلِقُ صوتها في لهْوَجاتٍ حُلوة من طبقةٍ نغميَّةٍ إلى أخرى. ذلك يُشبِه أثر الإطالةِ البطيئة في نُطق الكلمات الطويلة؛ حيث ليس يجري نطق الكلمات على نحوٍ مُتحكَّمٍ به تمامًا، لدرجة أنَّ المرء ليُلاحظها في الطفل الذي يروي قِصَّةً ذات طابعٍ وقور.

الشيءُ الأساسيُّ الذي ينقصُها هو نبرةُ نُطقِ الجملة وتنوُّع طبقات الصوت المنطوقةِ بها العبارات. تنطقُ الآنسةُ كِيلَر كلَّ كلمةٍ كما يفعلُ أجنبيٌّ لا يزال يعاني مع مخاض معرفة عناصر جملةٍ ما، أو كما يقرأ الأطفال أحيانًا في المدرسة، عندما يتعيَّنُ عليهم أن يقرؤوا ويفهموا كلَّ كلمةٍ على حدة.

إنَّها تتحدَّثُ الفرنسيَّة والألمانيَّة. يقول صديقها چون هيتز -حيث اللغة الأم لچون هي الألمانيَّة- إن نُطقَها مُمتاز. صديقٌ آخر -يجيدُ الفرنسية بنفس قدر إجادَته للإنجليزيَّة- يرى أن فرنسيَّتها مفهومةٌ أكثر من إنجليزيَّتِها. عندما تتحدَّثُ الإنجليزيَّة، تُوزِّعُ نَبْرها على الكلمة كما في الفرنسية؛ ولهذا لا تضع تشديدًا في المقاطِع المنطوقة. فهي تقولُ على سبيل المثال:

"pro′-vo′-ca′-tion" ("اس-تف-زاز")،

"in′-di′-vi′-du′-al" "ان-فرا-دِيّ"[1] وتنطقُ ذلك بتبايُنٍ ضئيلٍ جدًّا بين مقادير المقاطِع، وبقدرٍ معقولٍ من التمرُّس في نُطق نفس

(1) لا يخفى أنَّ تقسيم المقاطِع يعتمدُ عددُه على الحروف الساكنة والحروف المتحرِّكة في الإنجليزيَّة من مبنى الكلمة؛ لذا، فمن البديهي ألَّا يُطابِق العددُ مثيله في العربيَّة، وكذلك ألَّا

الكلمـة بـين يـومٍ واليـوم الـذي يليـه. كان، في اعتقـادي، لَيكـونُ عسـيراً جَعلُهـا تشـعرُ كيـف تلفِـظُ كلمـة dictionary (قامـوس/ مُعجَـم) دون زَلل الانحـراف إمَّـا إلى: dictionayry أو diction'ry، وطبعًـا الكلمـة الصحيحـة ليسـت هـذه، ولا تِلـك. وحيـثُ أنَّـه ليـس يوجـدُ نِظـامٌ مـن العلامـات في الـمُعجَمِ يُخبر المـرءُ بكيفيَّـةِ نُطـق الكلمـة؛ فالسـبيلُ الوحيـدةُ هـي أن يسـمعها، خاصَّـةً في لُغـةٍ كالإنجليزيّـة؛ تزخـرُ بكثـيرٍ مـن الحـروف غـير المنطوقـة، والحـروف الـمُسَكَّنَة، والحـروف شِـبه المتحرِّكـة.

نُطـق الآنسـة كِيلَـر للحـروف المتحرِّكـةِ ليـس مَكينًـا. فكلمـة awful تنطقهـا awfil تقريبًـا. يرجـعُ سـبب التذبـذبُ في نُطِقهـا إلى غيـاب النَّـبر عـلى المقطَـع ful؛ لذلـك نجـدُ أنَّهـا تنطـق كلمـة full عـلى النحـو الصحيـح.

أحيانًـا تُخطِـئُ في النُّطـق وهـي تقـرأ بصـوتٍ عـال، وتمـرُّ بكلمـةٍ لم يحـدث إطلاقًـا أن نطقتهـا قبلًا، رغـم أنَّهـا ربَّمـا تكـون قـد كتبتهـا عديـدًا مـن المـرَّات. يمكـن أن يُتَـدَراكَ هـذا الإشـكالُ، وإشـكالاتٌ أُخـرى، عندمـا تُمهَـلُ هـي والآنسـة ساليـڤـان مزيـدًا مـن الوقـت. فمنـذ عـام 1894، كانتـا غارِقَتَـين في كُتبِهـما لدرجـة أنَّهـما كانتـا تُهمـلان كلَّ شيءٍ لا يكـون ضروريًّـا لإنجـاز المهمَّـة الآنيَّـة؛ وهـي اجتيـاز سِـنِي الدراسـة بالمدرسـة بنجـاح. أعتقـد أنَّ الآنسـة كِيلَـر لـن تسـتطيع مُطلقًـا أن تتحـدَّث بصـوتٍ عـالٍ دون أن تشـوِّه وضـوح كلماتهـا وجَودتهـا التـي تبعـثُ عـلى السـرور، غـير أنَّهـا تسـتطيعُ أن تقـومَ بمزيـد مـن التدريـب كي تجعـل حديثهـا أكـثر وضوحًـا.

عندمـا كانـت في مدرسـة هامسـون بنيويـورك، حـاول دكتـور هامسـون أن يُحسِّـنَ مـن صَوتهـا، ليـس فقـط نُطقهـا للكلـمات؛ إنَّمـا صوتهـا ذاتـه، وقـد أعطاهـا دروسًـا في طبقـات الصـوت وكذلـك تدريبـاتٍ صوتيَّـة.

يتطابـق نَـبرُ الحـروف، ولا مُحـاكاة الإشـكال في نُطـقِ ورَسْـمِ الكلمـة، كـما يتبـيَّنُ ذلـك فيـما يليـه مـن نُطـق كلمـة قامـوس، وهـو مـا نحسَـبُ أنَّـه مفهـوم. (المترجـم)

مـن الصَّعـب الجـزمُ إذا مـا كان كلامُ الآنسـة كِيلَـر يسـهلُ فهمـه أو لا. فالبعـض يفهـم حديثهـا مـن فورهـم، آخـرون ليسـوا كذلـك. يألـفُ أصدقاؤهـا طريقتهـا في الحديـث بمـرور الوقـت، ويتغافَلـون عـن كونهـا مختلفـةً عـن أيِّ شـخصٍ آخـر. نـادرًا مـا يجـدُ الأطفـالُ صعوبـةً في فَهمهـا، مـمَّا يوحـي بـأنَّ طريقتهـا المتداولَـة في الحديـث والموزونـة، إنَّمـا هي تُشـبه طريقتهـم قبـل أن يبلغـوا مسـارَ سِـنِّ الرُّشْـدِ، حيـث تنطلـقُ كلـمات كلِّ عبـارةٍ مـن أفواههـم وهـي تُهـرولُ في نَفَـسٍ واحـد. يُقـال لي إنَّ الآنسـة كِيلَـر تتكلَّـمُ أفضـل مـن معظـم الأشـخاص الصُّـمِّ الآخريـن.

لقـد قَصَّـت الآنسـة كِيلَـر كيـف تعلَّمَـت أن تتكلَّـم. بيـانُ الآنسـة ساليـڤـان الـذي ألقتـه في المعسـكر الصيفـيِّ الـذي أُقيـم في شـهر يوليـو مـن عـام 1894، في اجتـماع رابطـة دعـم تعليـم الـكلام للصُّـمِّ، يُماثِـلُ جوهريًّـا كلام الآنسـة كِيلَـر في واقـع الأمـر.

بيانُ الآنسة ساليـڤـان عن قدرة الآنسة هيلين على الكلام

"لقـد مـرَّت ثـلاث سـنواتٍ قبـل أن تبـدأ هيلـين التواصـل مـع الآخريـن بعَـونِ هجـاء الأصابِـع، حتَّـى تلقَّـت دروسَـها الأولى في أكثر وسـائط التواصل الإنسـانيِّ طبيعَيَّـةً وذيوعًـا، وهـي: اللغـة المنطوقـة. لقـد صـارت مُتمرِّسَـة جـدًّا في اسـتخدام هجـاء الأصابـع، والتـي كانـت هـي وسـيلتها الوحيـدة لأجـل أن تتواصـل مـع العالَـم الخارِجـيِّ، فمـن خلالهـا اكتسَـبَت مخزونًـا مـن المفـردات، مكَّنَهـا مـن إجـراء المحادثـات بِحُرِّيَّـة، وأن تقـرأ بوعـي، وأن تكتـبَ بتـوازنٍ مـا بـين اليُـسْرِ والصوابيَّـة. رغـم ذلـك، كانـت تعتمـلُ في دخيلَتِهـا عـلى نحـوٍ قاهـرٍ الرغبـةُ في التفـوُّه بأصـواتٍ مسـموعةٍ، والجهـودُ المتواصِلـةُ التـي كنـتُ أبذُلهـا كي أكبَـح هـذا النُّـزوعَ الغريـزيّ -ذلـك النزوع الـذي كنـتُ أخـشى أن يصبـح مـع الوقـت أمـرًا لا يبعـثُ عـلى الـسرور- كلُّ تلـك الجهـود قـد ذهبـت سُـدًى. أنـا لم أبـذُل أيَّ مجهـودٍ لأجـل أن أُعلِّمَهـا

كيف تتكلَّم؛ لأنَّني كنتُ أعتبر عدمَ قُدرتها على مراقَبة شِفاه الآخرين عائقًا يصعبُ تذليلُه. لكنَّها تدريجيًّا صارت تعي أنَّ وسيلتها في التواصل مع العالَم كانت تختلِفُ عن تلك المُتَّبَعة من جانب الآخرين من حولها، ثمَّ ذاتَ يومٍ حدَثَ أن وجدت أفكارُها طريقَها للخروج والإبانة عن نفسها. (كيف تستطيعُ الفتيات اللائي لسن مكفوفاتٍ أن يعرفَن ما ينبغي عليهنَّ قَولُه بأفواهِهنَّ؟ لماذا لا تُعلِّمينني أن أتحدَّثَ مِثلهُنَّ؟ تُرى هل يستطيعُ الأطفال الصُّمُّ أن يتعلَّموا كيف يتكلَّمون؟). شرحتُ لها كيف أنَّ بعض الأطفال الصُّمِّ قد عُلِّموا أن يتكلَّموا، لكن كان هذا بسبب استطاعتهم رؤيةَ أفواه مُعلِّميهم، وأنَّ استطاعة الإبصار كانت أمرًا ذا عونٍ عظيمٍ جدًّا بالنسبة لهم. غير أنَّها قاطَعَتْني كي تقول إنَّها متأكِّدةٌ من استطاعتها أن تتحسَّسَ فمي بشكلٍ مواتٍ جدًّا. بُعَيدَ هذا الحوار، قَدِمَت إحدى السيِّدات لزيارتها وأخبرَتْها عن طِفلةٍ نرويجيَّة مكفوفةٍ وصَمَّاء؛ راينهالد كاتا، تلك الطِّفلةُ عُلِّمَت أن تتكلَّمَ وأن تفهَم ما كان يُحدِّثُها به مُعلِّمُها عن طريق لمسِ شفَتيه بأصابِعها. فعزَمَت هيلين من فورها أن تتعلَّم أن تتكلَّم، وبَدءًا من ذاك اليوم حتَّى يومنا هذا، لم تعدِل عن هذا القرار. بدأت من فورها تُصدِرُ أصواتًا كانت تُطلق عليها أنَّها "كلام". وارتأيتُ الضرورة الملِحَّة للتوجيه السَّليم منذ أن وقَرَ في قَلبها أن تتعلَّمَ الكلام، ولأنَّني كنتُ أستشعرُ عدم أهليَّتي كي أُعلِّمها أنا- فأنا لم أمنح قضيَّة التعبير والإبانةِ أبدًا دراسةً جادَّةً؛ فذهبتُ بتلميذتي إلى الآنسة ساره فولر طَلبًا للعَونِ والمشورة. كانت الآنسة فولر فرِحةً بجِدِّيَّةِ هيلين وبحماسِها، وبدأت من فورها تعليمها. وفي بضع حِصَصٍ، تعلَّمَت تقريبًا كلَّ أصوات اللغة الإنجليزيَّة، وفي غضون أقلَّ من شهر كانت قادرةً على التلفُّظِ بعددٍ كبيرٍ من الكلمات بوضوح. منذ البداية، لم تكُن هيلين تستَسيغُ أن تُوضَعَ نَقْبَ أصواتٍ فَرديَّة، إنَّما كانت لا تُطيقُ صَبرًا حتى تنطِق كلماتٍ وجُملًا. لم يكن يبدو مُطلَقًا أنَّ طول الكلمة أو صعوبةَ ترتيبِ عناصر الجملة

يثبِّط من هِمَّتِها. لكن، مع كلِّ ما تملكُه من شَغَفٍ وذكاء، كان تعلُّمها الكلام أمرًا يثقل على قواها إلى أقصى الحدود. غير أنَّه لدى رؤية برهان الإتقانِ المتنامي يومًا بعد يوم، وإمكانية بلوغ النجاح في النِّهاية، كان ذلك أمرًا يبعثُ على الرِّضا. ولقد كان نجاحُها نجاحًا كامِلًا ومُلهِمًا أكثر مِمَّا توقَّع أيٌّ من أصدقائها، وفرحُ الطِّفلةِ بقُدرتها على التفوُّه بأفكارها بكلامٍ حَيٍّ وراسِخٍ تَشارَكه جميعُ مَن شَهِدَ نشوتها، عندما أخبرها غُرباء أنَّهم يفهمونها.

لقد سُئِلْتُ في مناسبات كثيرة إذا ما كنتُ أعتقد أنَّ هيلين سوف تتكلَّم يومًا ما بشكلٍ طبيعيٍّ، تمامًا كما يتحدَّثُ النَّاس الآخرون. أكادُ ألَّا أكون مُهيَّأةً للقَطعِ بردٍّ على هذا السؤال، أو حتَّى إبداءِ رأيٍ فيما يتعلَّقُ بشأنِه. أؤمنُ أنِّي أكادُ أبدأُ لتوِّي معرفةَ ما هو مُمكِن. غالبًا ما يُعبِّرُ مُعَلِّمو الصُّمِّ عن دهشتهم بكون مستوى هيلين في الكلام جيِّدًا جدًّا، وذلك في الوقت الذي لم تكن تتلقَّى فيه أيَّ تعليمٍ نظاميٍّ في الكلام، منذ دروسها القليلة الأولى التي أعطتها إيَّاها الآنسة فولر. ما في وسعي قَولُه فقط، رَدًّا على هذا: (إنَّ ذلك يُعزى إلى اعتياد المحاكاة، وإلى الممارَسة! الممارَسة!) لقد قضَت الطَّبيعةُ كيف يستطيعُ الطِّفلُ أن يتعلَّم الكلام، وكلُّ ما يمكنُنا فِعله هو تقديمُ العونِ له بأيسَرِ وأبسطِ وسيلةٍ مُمكِنة؛ بِحَثِّهِ أن يُلاحِظَ ويُحاكي الاهتزازات في الصَّوت".

مزيدٌ من بعض التفاصيل تظهر في بيانٍ قديمٍ أكثر تفصيلًا، كتبَته لأجل تقرير معهد بيركينز لعام 1891.

"إنَّني أعرفُ أنَّ لورا بريدچمَن قد أظهرت روح المبادَرةِ ذاتها لأجل أن تُصدِرَ أصواتًا، وأنَّها حتى قد تعلَّمَت أن تتلفَّظَ ببعض الكلمات البسيطة؛ وهو ما منحها بهجةً عظيمةً باستخدامها، ولا شَكَّ عندي

أنَّ هيلين تستطيعُ بنفس القَدرِ أن تُحقِّقَ الكثير. رغم ذلك فأنا كنتُ أحسب أنَّ الفائدةَ التي سوف تخلُصُ بها لن تعوِّضها عمَّا تتكلَّفه مثل تلك التجربةِ من وقتٍ وكَدٍّ.

علاوةً على هذا، غيابُ السَّماع يجعل الصَّوتَ جاريًا على وتيرةٍ واحدة، ويكون غالبًا مُرهِقًا، وفي العموم، يكون الكلام الصادر على هذه الشاكلة مُبهمًا- إلَّا على أولئك الذي يألفون المتكلِّم.

عملية اكتساب القدرة على الكلام بالنسبة للأطفال الصُّمِّ غير المتعلِّمين تكون غالبًا عمليةً بطيئةً ومُعذِّبَة. وحسب ما يتراءى لي، غالبًا ما تُعلَّقُ أهميَّةٌ كبرى على قضية تعليم طِفلٍ أصمَّ أن يتكلَّمَ وأن يُبين- وهي عمليَّةٌ ربَّما تكون ضِدَّ مصلحة التطوُّر العقليِّ للتلميذ. إنَّ النُّطقَ بطبيعة الحال هو وسيلةٌ غيرُ كافيَةٍ للتعليم، بينما استخدام هجاء الأصابع يُسَرِّعُ ويحفِّزُ النشاطَ الذِّهنيَّ؛ إذْ من خلال هجاء الأصابع يُصيِّرُ الطِّفلُ الأصمُّ على احتكاكٍ باللغة الإنجليزيَّة عن قُرب، ويصبح بالإمكان أن تورَدَ إلى عقله أسمى الأفكار وأكثرها تجرُّدًا، بدِقَّةٍ، وفي يُسر. لقد برهَنَت حالةُ هيلين أيضًا على كون هذا أمرًا لا يُقدَّرُ بثمنٍ في عملية اكتساب القدرة على الكلام. فهي كانت تألفُ فعلًا كلماتٍ وتألَفُ مبنى الجُمل بإتقان، وكان يعوقها فقط بعض المصاعب الآليَّة كي تتغلَّب على هذا. بجانب ذلك، كانت هيلين تدرك قدر المتعة التي سوف يهبها الكلام، ولأنَّها كانت على بَيِّنَةٍ مما كانت تكِدُّ من أجله كان ذلك يمنحها بهجة التشوُّف، وهو ما كان يجعلُ من العملِ الشَّاقِّ أمرًا هيِّنًا. إنَّ الطفلَ الأصمَّ، غير المتعلِّم، الذي جُعِلَ أن ينطِقَ، لا يدري ما هو الهدفُ من وراء ذلك، وتظلُّ دروسه في تعلُّمَ الكلام أمرًا مُضجِرًا ولا معنى له لوقتٍ طويل.

قبل أن نصِفَ عملية تعليم هيلين الكلام، ربَّما يحسُن أن نورِدَ بإيجازٍ إلى أيِّ مدى كانت تستخدمُ الأعضاء الصَّوتية قبل أن تبدأ في

تلقِّي تعليمٍ في النُّطقِ على نحوٍ منتظم. حينما أقعَدها المرضُ الذي نجَمَ عنه فَقْدُها السَّمعَ والبَصَر، وهي في عُمْر التسعة عشر شهرًا، كانت وقتها تتعلَّمُ الكلام. فالثرثرةُ التي لا معنى لها للطِّفلةِ كانت تصيرُ يومًا بعد يوم إشاراتٍ إراديَّةً لما كانت تشعرُ به أو تفكِّرُ فيه. لكنَّ المرَضَ قمَعَ تقدُّمَ اكتسابها لِلُّغَة المنطوقة، وعندما استعادت قواها الجسديَّة، تبيَّنَ أنَّها قد كفَّت عن التكلُّم على نحوٍ مفهوم؛ ذلك لأنَّها لم تعُد تستطيعُ أن تسمَعَ صوتًا. واصَلت تمرين أعضائها الصَّوتية على نحوٍ آليٍّ، كما يفعلُ الأطفال الطبيعيُّون. صرخاتُها وضحِكُها وطبقات صوتها عندما كانت تفوه بكثير من الكلمات- كلُّ ذلك كان طبيعيًا بشكلٍ مُتقَن، غير أنَّه كان من الظاهر أنَّ الطِّفلةَ لم تكن تربط هذه الأشياء بأيَّةِ دلالة، باستثناء شيءٍ واحد: وهو أنَّ تلك الأشياء لم تكن تصدرُ منها بأيِّ نيَّةٍ للتواصُل مع مَن حولها؛ إنَّما كان الدَّافعُ هو محضُ ضرورةِ تمرين قُدرتها الطبيعيَّةِ المتوارَثةِ والفِطريَّةِ على التعبير. دائمًا ما كانت تُلحقُ معنى بكلمة ماء، وصوت نطق تلك الكلمة كان أحد الأصوات الأولى التي تعلَّمت شفتَيها وهي طفلة أن تُشَكِّلها، وكانت تلك هي الكلمة الوحيدة التي واصَلت نُطقها بعد أن فقدَت حاسَّة السَّمع. نُطقها كان يتحوَّلُ تدريجيًّا وقد صار شيئًا مُبهمًا، وعندما رأيتُها للمرة الأولى، لم يكن ما تنطقُه أكثر من ضجيجٍ يبعثُ على الاستغراب. بِغَضِّ النَّظر عن ذلك، كانت الإشارة الوحيدة التي تصدرها دومًا هي إشارةٌ تعبِّرُ عن الماء، وما أن تعلَّمَت أن تتهجَّى الكلمة على أصابِعها حتى نَسيَت رمزها المنطوق. يبدو أنَّ كلمة ماء، والإيماءَ باليد الذي كانت تتجاوبُ به مع كلمة مع السلامة، أنَّه هو كلُّ ما كانت تذكره الطِّفلةُ من الإشارات الفِطرية والمكتَسبة، التي كانت تألفُها قبل أن يصيبها المرض.

ما إن صارت تتعرَّفُ مَن حولها عبر حاسَّة اللمس (أنا أستخدمُ الكلمة بما تحمله من أرحَبِ المعاني؛ بما يشملُ كل الانطباعات

الملموسة)، حتَّى أحسَّت بمزيدٍ ومزيدٍ من النُّزوع الملِحِّ للتواصل مع الذين من حولها. كانت يداها الصغيرتان تتحسَّسان كلَّ شيء، وتُراقِبُ كُلَّ حركةٍ تصدرُ من الأشخاص القريبين منها، وكانت تُبادرُ وتحاكي تلك الحركات. وبهذا كانت قادرة على التعبير عن مزيدٍ من احتياجاتها الأساسيَّة وكثيرٍ من أفكارها.

في الوقت الذي صِرتُ فيها أنا مُعلِّمتها، كانت قد تَبَنَّت بنفسها استخدام ما يزيد عن ستين إشارة، جميعها كانت عبارة عن مُحاكاة، وكان مقصدُها مفهومًا من جانب أولئك الذين كانوا يعرفونها. الإشاراتُ الوحيدةُ التي إخالها قد اخترعتها بنفسها كانت إشارَتَيْها عمَّا هو صغير وما هو كبير. متى ما كانت تشتهي أيَّ شيءٍ بشكلٍ بالِغ كانت تُشيرُ إليه بأسلوبٍ مُعبِّرٍ جدًّا. عندما تُخفِقُ في جَعلِ نَفسِها مفهومة، كانت تتحوَّلُ وتصبحُ شرِسة الطَّبع. في سَنواتِ مَحبَسِها العقليِّ، كانت تعتمدُ كُليَّةً على الإشارات، ولم تستنبِط لنفسها أيَّ صِنفٍ من لغةٍ ناطِقة، بحيث يكون في مُستطاع تلك اللغة التعبير عن الأفكار. رغم ذلك، عندما كانت ما تزالُ تُعاني من الألم المبرِّح، يبدو أنَّها كانت تُراقِبُ حركات شَفتَي أُمِّها.

عندما لا تكون مشغولة، كانت تهيمُ مُتَمَلْمِلةً في أرجاء المنزل، وهي تصدرُ أصواتًا غريبة، ونادرًا ما تكون تلك الأصوات مُستَهْجَنة. لقد رأيتُها تُهزْهِزُ دُميتَها، مُصدِرةً صوتًا متواصِلًا يجري على وتيرةٍ واحدة، وقد أبقَت يدها على حَلقِها، بينما أصابعُ يدها الأُخرى تلاحِظُ حركات شَفتَيْها. كان فِعلُها هذا مُحاكاةً لدَندَنة أُمِّها لرضيعتها. كانت تنفجِرُ في ضحِكٍ جذِل من وقت لآخر، ثمَّ تَمُدُّ يدها وتتلمَّسُ فَمَ أيِّ إنسانٍ يتصادَفُ أن يكون قريبًا منها؛ لتتبيَّنَ إذا ما كان هو الآخر يضحك. إن استبَانَت ألَّا أحدَ يبتسِم، تشيرُ بيديها على نحوٍ حماسيٍّ، محاولةً إيصالَ فِكرتها، غير أنَّها إن أخفَقَت في جعل رفيقها يبتسم، تجلسُ ساكِنةً بضع دقائق، يعلو وجهها تعبيرٌ يبينُ عن انزعاجٍ

وخيبـةِ أمـل. كانـت تُـسرُّ بوجـودِ أيِّ شيءٍ مـن شـأنِه أن يُحـدِثَ ضجيجًـا. كان يروقهـا أن تتحسَّـسَ القِـطَّ وهـو يُخرخِـر، وإن تحسَّـسَـت كَلبًـا تصادَف أن كان يعـوي، تُظهـرُ سرورًا عظيـمًا. لطالمـا أحببـت الوقـوف بجانـب البيانـو عندمـا يكـون أحدهـم يعـزفُ ويُغنّـي. فكانـت حينئـذٍ تُبقـي يـدًا عـلى فَـم المغنِّـي، بينـما اليـدُ الأُخـرى تسـتكينُ عـلى البيانـو، وتبقـى عـلى هـذا الوضـع بقـدر مـا يسـتمرُّ الشَّـخصُ في الغنـاء لهـا، وبعدهـا، كانـت تصـدرُ صوتًـا متواصِـلًا وتُسـمِّيه غنـاءً. الكلـماتُ الوحيـدةُ التـي تعلَّمَـت أن تفـوه بهـا بدرجـةٍ مـن الوضـوح فيـما يسـبق شـهر مـارس، مـن عـام 1890، كانـت: بابـا، مامـا، رضيـع، أختـي. تلـك كانـت الكلـمات التـي التقطَتْهـا دون تَلقِـين، وذلـك مـن شِـفاه أصدقائهـا. وإنَّـه لمـمَّا يُلاحَـظُ أنَّ تلـك الكلـمات تتضمَّـنُ ثلاثـة عنـاصِرَ مُتحرِّكَـة، وسِـتَّة عنـاصِرَ سـاكِنة، وذلـك هـو مـا قـد شـكَّلَ أسـاسَ دَرسِـها الفِعـليِّ الأوَّل في الـكلام.

بنهايـة الـدرس الأول كانـت قـادرةً عـلى نُطْـق الأصـوات الآتيـة بوضوح: a, ä, â, è, î, ô،، وc مُرقَّقَـة كنطـق حـرف s، ومُفخَّمَـة كنطـق حـرفي: K, g، وحروفًـا صعبَـة مثـل: b, l, n, m, t, p, s, u, k, f, d. كانـت الحـروف السـاكنةُ الـمُفخَّمَة -ومـا زالـت في الحقيقـة- صعبـةً جـدًّا بالنسـبة لهـا أن تنطقهـا عندمـا تتجـاوَرُ في نفـس الكلمـة؛ لـذا فغالبًـا مـا تطمِـسُ واحـدًا وتُبـدِّلُ نُطـقَ الآخـر، وأحيانًـا كانـت تسـتبدلُ بهـما مثيلَـين صَوتيَّيْن يصحبهـما تنفُّـسٌ رخيـمٌ عنـد النُّطـق. كان الخَلـطُ بـين حَـرفي: L وR مَلحوظًـا جـدًّا بكلامهـا في البدايـة. كانـت تُكـرِّرُ اسـتخدام أحدهـما بـدلًا عـن الآخـر. العُـسرُ الكبـيرُ الـذي كانـت تعانيـه في نُطقهـا الحـرف R جعـل منـه ضمـن آخـر الأشـياء التـي أتقَنَتهـا. مجموعتـي الــ ch وsh، وحـرف g الـمُرَقَّق كانـوا يسـبِّبون لهـا انزعاجًـا كبـيراً، وليسـت تتلفَّـظُ بهـم بعـدُ على نحـوٍ واضـح.(1)

---

(1) تلـك الصعوبـات التـي تبيَّنَتهـا الآنسـة ساليـڤـان في عـام 1891 هـي، إلى حـدٍّ مـا، نفـس الصعوبـات التـي تظهـر حاليًـا في كلام الآنسـة كِيلَـر.

بعـد أقـلِّ مـن أسـبوع، عندمـا كانـت قـد بـدأت تتكلّـم، التقَـت صديقهـا السَّـيِّد رودوكاناتـشي Rodocanachi، ومـن فورهـا بـدأت تُناضـلُ كي تنطِـق اسـمَه، لم تكـن لتستسـلم حتّـى اسـتطاعت أن تنطِـقَ الكلمـة عـلى نحـوٍ واضـح. لم ينكُـص وَلَعُهـا أبـدًا ولـو للحظـة، وفي خِضـمٍّ تلهُّفِهـا للتغلُّـبِ عـلى المصاعـب التـي كانـت تُحيـطُ بهـا مـن كلِّ جانـب، بذَلَـت قُصـارى جُهودِهـا، وفي تسـعةِ دروس، تعلَّمَـت جميـع العنـاصر المتفرِّقـة للـكلام".

في التقاريـر التـي سـجَّلتها مُعلِّمـةُ الآنسـة كِيلَـر، يظهـر فيهـا مـا يكفـي مـن بيانـاتٍ توضِّـح تفاصيـل العمليـة التـي تقـرأ بهـا هيلـين الشِّـفاه بأصابع يديهـا، وتـشرح أيضًـا العمليـة التـي عـن طريقهـا عُلِّمَـت أن تتكلَّـم، والتـي بفعلهـا طبعًـا، تسـتطيعُ الآن أن تسـتمِعَ إلى المحادثـات. هيلـين ليسـت سريعـةً أو دقيقـةً جـدًّا في قـراءة الشِّـفاه كـما تُـصرِّحُ بعـضُ التقاريـر. إنَّ تلـك الطريقـة هـي وسـيلةٌ غـيرُ مُتقَنَـةٍ وغـيرُ مُرضيَـة للتواصـل- إلَّا إذا كانـت الآنسـة ساليـڤـان موجـودة أو أيُّ شـخصٍ آخـر مِمَّـن يعرفـون هجـاء الأصابِـع، كي ينقِـلَ إلى الآنسـة كِيلَـر كلـماتِ الآخريـن المنطوقـة. في الواقـع، عندمـا يحـاولُ صديـقٌ مـا أن يتكلَّـم مـع هيلـين، ولا تكشـفُ المحاولـة عـن أيِّ نجـاح، عـادةً مـا تُقـدِّمُ الآنسـة ساليـڤـان يَـدَ العـون، بأن تتهجَّـى الكلـمات المفقـودة، في يـد الآنسـة كِيلَـر.

حـدث في فصـل الربيـع الماضي أن واجـه الرئيـس روزڤـلت قليـلًا مـن الصعوبـة حتـى يجعـل هيلـين تفهمـه، وخصوصًـا أنَّـه طلَـب مـن الآنسـة ساليـڤـان ألَّا تتهجَّـى الكلـمات في يدهـا. لقـد وعَـت كلَّ كلمةٍ مـن حديثه؛ حيـث كان كلامُ الرئيـس جَليًـا بشـكلٍ ملحـوظ. يقـول آخـرون إنَّهـم لم يُفلِحـوا في جَعـلِ الآنسـة كِيلَـر أن "تسـمعهم".

يسـتطيع حفنـةٌ مـن الأصدقـاء الذيـن تعـوَّدَت عليهـم هيلـين -مثـل مـدام پـرات، والسـيِّد چـاك تشـامبرلين- أن يُمضـوا اليـوم بطولـه معهـا

ويُخبروهـا بـكلِّ شيء دون اسـتخدام هِجـاء الأصابِـع. إنَّ القـدرةَ عـلى قـراءة الشِّـفاه تُعـينُ الآنسـة كِيلَـر في التحصُّـلِ عـلى تصحيحـاتٍ لنُطِقهـا، سـواءٌ مـن الآنسـة ساليـڤـان ومـن آخريـن، تمامًـا كـما لـو كانـت تلـك هـي وسـيلتها الوحيـدة في تعلُّـم التحـدُّث إليهـم أجمعـين، غـير أنَّ ذلـك بالأحـرى إنَّمـا هـو إنجـازٌ أكـثر منـه احتيـاج.

لا بُـدَّ أن يكـون في الحُسبان أنَّ الـكلام لم يُسـهِم في تأسيسـها التعليمـيِّ بـأيِّ شـكلٍ كان، ورغـم ذلـك، فـدون القُـدرة عـلى الـكلام، اسـتطاعت هيلـين الذَّهـاب إلى مـدارس عاليـة المسـتوى واسـتطاعت دخـول الكُليَّـة. بَيْـدَ أنَّهـا تعـرف أكـثر مـن أيِّ إنسـان مـا هـي القيمـة التـي يُمثِّلُهـا الـكلام بالنسبة لهـا. الـكلامُ الآتي هـو خُطبتهـا التـي ألقَتهـا في الـمُلتقَى الخامـس للرابطـة الأميركيَّـة لدعـم تعليـم الصُّـمِّ الـكلام، في ماونـت إيـري، فيلادلفيـا، بنسِلـڤـينيا، بتاريـخ 8 يوليـو، 1896:

خطاب هيلين كِيلَر في ماونت إيري

لـو تـدرون جميعًـا مـدى الغبطـة التـي أشـعرُ بهـا بكـوني قـادرةً اليـوم عـلى التحـدُّثِ إليكـم؛ أعتقـدُ لأدرَكتُـم بعـضَ مـا يمثِّلـه الـكلام مـن أهميـةٍ بالنسـبة للأصـمِّ، ولَفَهِمتُـم لمـاذا أرغـبُ أن يحظـى كلُّ طِفـلٍ صغـيرٍ أصـمَّ في هـذا العالَـم العظيـم بفُرصـةٍ كي يتعلَّـم أن يتكلَّـم. أعلـمُ أنَّـه قـد قيـل الكثـير وكُتِـب عـن هـذه القضيـة، وأنَّ هنـاك نزاعًـا مُمتَـدًا في الـرَّأي، بـين مُعلِّمـي الصُّـمِّ، فيـما يتعلَّـقُ بالتلقـين الشَّـفَهِيِّ. وجـود هـذا الاختـلاف في الـرأي يبـدو غريبًـا جـدًّا بالنسـبة لي، لا أسـتطيعُ أن أفهَـمَ كيـف بإمـكانِ أيِّ إنسـانٍ يهتـمُّ بتعليمنـا أن يُخفِـقَ في تقديـر الشـعور بالرِّضـا الـذي نُحِـسُّ بـه لكوننـا قادريـن عـلى التعبـير عـن أفكارِنـا بكلـمات تـدبُّ فيهـا الحيـاة. يـاه! إنَّنـي أسـتخدمُ الـكلام باسـتمرار، ولا يسـعُني أن أصِـفَ لكـم قَـدْرَ المتعـة التـي يهَبُنـي إيَّاهـا فِعـلُ هـذا. أنـا أعـرفُ طبعًـا أنَّـه

ليس يسهُلُ دومًا على الغُرَباء أن يفهموني، لكنَّ ذلك سوف يتحقَّقُ شيئًا فشيئًا، وفي تلك الأثناء، أملِكُ من أسبابِ السعادة ما لا يسعه الكلام؛ بمعرفتي أنَّ عائلتي وأصدقائي سُعداء لقُدرتي على أن أتكلَّم. أختي الصَّغيرة وأخي الرَّضيع يروقهما أن أروي لهما قَصصًا في مساءات الصَّيف الطويلة، وقتما أكون متواجدةً معهم بالبيت، وتطلب مني أُمِّي ومُعلِّمتي أن أ قرأ لهما من كُتبي المفضَّلة. إنَّني أيضًا أتناقشُ مع أبي الحبيب بشأن الأوضاع السياسيَّة، ونَبُتُّ في مشاكل السياسية ونحنُ نشعرُ بالرِّضا عن أنفسُنا، تمامًا كما لو أنِّي كنتُ أستطيعُ الرُّؤيةَ والسَّماع. لذا، فأنتم تشهدون الآن كيف أنَّ الكلام لهو نِعمةٌ بالنسبة لي. إنَّه يجعلني أنخرِطُ في علاقاتٍ أكثر حميميَّةً وأُنسًا مع أولئك الذين أُحِبُّهم، ويجعل ذلك مِمكنًا بالنسبة لي أن أستمتعَ بالصُّحبة الحلوة مع عددٍ عظيمٍ من الأشخاص، حيث كنتُ لأكون مَقطوعةً عنهم تمامًا إن لم أكن أستطيعُ الكلام.

أستطيعُ تذكُّرَ العهد الذي سَبَقَ تعلُّمي للكلام، وأن أتذكَّرَ كم اعتدتُ أن أُجاهِدَ كي أُعبِّرَ عن أفكاري بعَون هجاء الأصابِع- كيف كانت أفكاري تتخبَّطُ خلف جدران أصابِع يدي كما العصافير الصغيرة التي تكافِح لأجل أن تفوز بحُرِّيَّتها، إلى أن فتَّحت الآنسة فولر باب المحبَسِ على وسِعه ذات يوم، وتركَتْها تهرب. أتساءَلُ إن كانت تذكُر الآنسة فولر كيف كانت تلك الأفكار تفردُ أجنحتها في لهفةٍ وسعادةٍ وتحلِّقُ بعيدًا. طبعًا لم يكن سهلًا في البداية أن أُحلِّق؛ فقد كانت أجنحِة الكلام كَسيرةً وضعيفة، وكانت فاقدةً لكلِّ التألُّق والجمال الذي كانت تملِكُه ذات يوم، في الواقع، لم يكن هناك من شيءٍ قد بقي حتى ينقذَ الرغبة في التحليق، لكن كانت تلك هي الحاجةُ إلى الشيء. لا يمكن للمرء أن يرضى بأن يزحف عندما يشعر بنزوعٍ لأن يحوم في السماء. لكن، رغم ذلك، كان يُخيَّلُ إليَّ في بعض الأوقات، أنَّني لم أكن سأستطيعُ أبدًا أن أستخدِمَ أجنحة الكلام كما شاء لي اللهُ

أن أستخدِمها؛ فقد كان هناك الكثير للغاية من المصاعب تعترضني في الطريق، كثيرٌ من مُثبِّطات الهِمَّة، غير أنَّني واصلتُ المحاولة، وأنا أعلمُ أنَّ الصَّبرَ والمثابرة لسوف ينتصران في النَّهاية. وبينما كنتُ أواصلُ اشتغالي، كنتُ أبني قُصورًا في الهواء، القصور الأكثر جمالًا، وكنتُ أحلم أحلامًا، أكثرُ تلك الأحلام التي تبعث على السرور كانت عن ذاك الوقت الذي سوف أتكلَّمُ فيه كبقيَّةِ الناس الآخرين، وعندما كنتُ أتخيَّلُ قدر السرور الذي سيُدخِلُه ذلك على أُمِّي بأن تسمعَ صوتي من جديد، كان ذلك يُحلِّي كلَّ كَدٍّ ويجعلُ من كلِّ فَشلٍ أُصِبتُ به دافعًا كي أحاولَ بجدٍّ أكثر في المرة التالية. لهذا أرغبُ أن أقول لأولئك الذين يحاولون أن يتعلَّموا الكلام، ولهؤلاء الذين يُعلِّمونهم: أبشِروا. لا تشغلوا بالكم بإخفاقات اليوم، إنَّما فكِّروا في النَّجاح الذي سوف يأتي غدًا. لقد انتدَبْتُم أنفسَكم لمهمَّةٍ شاقَّةٍ، لكنَّكم سوف تُفلِحون إن ثابَرتم، وسوف تجدون نشوةً في التغلُّبِ على المصاعب- لسوف تشعرون ببهجة في تسلُّقِ المسالك الوعِرة، تلك التي ربَّما لن تعرِفوا أبدًا إذا ما كنتُم قد زللتم عليها أحيانًا: هذا إن كان الطريق سَلِسًا ومُعبَّدًا على الدَّوام. وتذكَّروا: ليس يضيعُ أبدًا أيُّ مجهودٍ نبذله كي نُدرِكَ شيئًا جميلًا. فأحيانًا، بمكانٍ ما، بطريقةٍ ما، سوف نبلغُ ما كُنَّا نسعى إليه. سنتكلَّم، نعم، سنُغنِّي أيضًا، كيفما شاء لنا الله أن نتكلَّمَ وأن نُغنِّي.

مكتبة
t.me/soramnqraa

الفصل الخامس

أسلوبُها الأدَبِيُّ

لا أحد تسنَّى له أن يقرأ السيرة الذاتية للآنسة كِيلَر، إلَّا وتبيَّنَ أنَّها تكتب بإنجليزيَّةٍ مُتقَنةٍ على غير العادة. يعرفُ أيُّ مُعلِّمٍ متخصِّص في علم الإنشاء، أنَّ في استطاعته أن يصل بتلاميذه إلى المرحلة التي فيها يكتبون دون أخطاء نحَويَّةٍ أو عثراتٍ في تخيُّرهم الكلمات. ذلك تمامًا هو مستوى الدِّقَّةُ الذي يُؤسس له التعليمُ المبكِّر للآنسة كِيلَر، باعتباره المرحلة التي يمكن أن يبلُغها أيُّ طِفلٍ يتمتَّعُ بوافر الصِّحَّة، وهو ما يُفسِّره تحليلُ عملية التعليم تلك. فأولئك الذين يحاولون جَعلها استثناءً، بزعم أنَّ مسار تعليمها المبكِّر غيرُ قابلٍ للخضوع لهكذا تحليل، يدعِّمون موقفهم بالاحتكام لتميُّزها اللافت للنظر، المتمثِّل في استخدامها للغة، حتَّى عندما كانت طِفلة.

إنَّ تلك الحُجَّة صالحةٌ حتَّى درجةٍ معيَّنَةٍ، حيثُ، في الواقع، تلكم التناغمات الفائقة التي تُميِّزُ اللغة، ومحاسِنُ الأفكار التي تصنعُ الأسلوب، إنَّما هي هِباتٌ من الآلهة. فليس في إمكان أيِّ مُعلِّمٍ أن يجعلَ هيلين مُرهَفَةَ الحِسِّ إزاء محاسِن اللغة، وأمام التأثير الرائق المتبادَل بين الأفكار، وهو ما يستلزِمُ التعبيرَ عنه اندماجاتٌ موسيقيَّةٌ للكلمات.

في الوقت ذاته، مَلَكَةُ الأسلوب الفِطريةُ تلك، بالإمكان أن تُستثَارَ وتُستَنهَض. ليس في وسع أي عبقريةٍ فِطريةٍ أن تبتكِر لغةً راقية. فاللّوازمُ التي يُصنَعُ منها الأسلوب الجيِّد يجب أن تُمنَحَ إلى العقل من الخارِج، وأن تُعطَاهُ على نحوٍ حاذِق. فوليدُ ربَّات الفنون ليس يستطيعُ أن يكتبَ إنجليزيَّةً راقيَة، إلَّا إذا كانت الإنجليزيَّةُ الرَّاقيةُ هي غذاءه. في هذا -وكما في جميع الأشياء الأخرى- كانت الآنسة ساليڤان هي المعلِّم الفَطِن. فإن لم تكن تملكُ ذوقًا وحَميَّةً للإنجليزيَّة الجيِّدة؛ لتربَّت هيلين كِيلَر على "أدب اليافعين" الذي يستخِفُّ باللغة تحت سِتارِ الصِّياغة السَّهلة لأجل الأطفال، كما لو أنَّ كِتابًا مُوَجَّهًا للطِّفل -مثل "جزيرة الكنز"، أو "روبنسون كروزو" أو "كتاب الغابة"- ليس بالمستطاع أن يكون مكتوبًا بأسلوبٍ جيِّد.

إن كانت الآنسة ساليڤان تكتب بإنجليزيّةٍ راقية، فإنَّ جمال أسلوب هيلين الأدبي، جُزئيًّا، بالإمكان تفسير أسبابه في الحال. إلَّا أنَّ المقتطفات الكتابية للآنسة ساليڤان، المنتخَبَة من خِطاباتها ومن تقاريرها، رغم كونها صريحةً ودقيقة، فليس لها نصيبٌ من الجمال الذي يُميِّزُ إنجليزيَّة الآنسة كِيلَر. فعملُها كمعلِّمةٍ للغة الإنجليزيَّة لا يُمكِن أن يُقيَّمَ بمقدار مهارتها الشخصيَّة في كتابة الإنشاء. وسَببُ أنَّها تقرأ لتلميذتها الكثير جدًّا من الكتب المفيدة، يُعزى، بقَدرٍ ما، إلى واقعِ أنَّها قد استعادَت مؤخَّرًا القدرة على الإبصار. عندما صارت

مُعلِّمـةَ هيلـين كِيلَـر، كانـت تنتبِـهُ فقـط إلى الأشـياء المفيـدة الموجـودة بالكُتُـب، والتـي كانـت محجوبـةً عنهـا خـلال سَـنواتِ عماهـا.

وقَعَـت الآنسـة ساليـڤـان في مكتبـة السيِّد كِيلَـر عـلى كُتـبٍ ممتـازة، كتـاب لامـب "حكايـات مـن شيكسبير"، والكاتـب الأفضَـل؛ مونتـين[1]. بعـد مـرورٍ عـامٍ أو نحـو ذلـك مـن العمـل المبـدئيّ، التقَـت بتلميذتهـا نِـدًّا لنِـد، وكانتـا تقـرآن وتسـتمتعان سـويًّا بالكُتـب المفيـدة..

إضافـةً إلى اختيارهـا الكتـب النَّافعـة، ثمَّـة سَـببٌ آخـر لبراعـة الآنسـة كِيلَـر في الكتابـة، وهـو مـا تسـتحِقُّ عليـه الآنسـة ساليـڤـان ثنـاءً بـلا حـدود. إنَّـه انضباطُهـا الـذي لا يـكلُّ ولا يلـين، وهـو أمـرٌ جَـليٌّ في جميـع أعمالهـا. فهـي لم تكـن تسـمحُ مُطلَقًـا لتلميذتهـا بـأن تُرسِـلَ خِطابـاتٍ تتضمَّـنُ إسـاءاتٍ تُضـادُّ الـذَّوق، بـل كانـت تجعلهـا تعيـدُ الكتابـة مـرارًا إلى أن تصير الخطابـاتُ، ليسـت مُهذَّبـةً فحسـب، إنَّمـا فاتنـةً وقـد أُحسِـنَت الصياغـة.

أيُّ امـرِئٍ حـاولَ ذات مـرَّةٍ أن يكتـبَ يـدرِكُ مـا تديـنُ بـه الآنسـة كِيلَـر إلى المـران المتواصـل الـذي كانـت تُكلِّفُهـا بـه الآنسـةُ ساليـڤـان. دَع مُعلِّـمًا لديـه وَلَـعٌ بأسـلوب الكتابـة الرَّاقـي أن يفـرضَ عـلى طِفلِـه كتابـةَ فقـرةٍ مـرارًا وتكـرارًا، إلى أن تصير الفقـرةُ أكـثرَ مـن مُتقَنـة، وسـوف يواصـل التدريـب، حتـى وإن ذلـك فـاق قُدرتـه عـلى التعبير، تلـك القـدرة الكامنـة في الطِّفـل.

مـدى الرَّحابَـة الـذي يشـملُ مـا مارسَـته الآنسـة ساليـڤـان مـن عمليـة التنقيـة والاختيـار تلـك يظهـر واضحًـا في التعليـق السَّـاخر لدكتـور بِـلْ؛ بأنَّهـا جَعلَـت مـن تلميذتهـا امـرأةً عجـوزًا صغـيرة، تختلـفُ عـن الأطفـال الطبيعيِّـين اختلافًـا شاسـعًا في نُضجهـا الفِكـريِّ. عندمـا قـال الدكتـور بِـلْ هـذا، كان يقيـمُ الحُجَّـةَ عـلى ادِّعائـه الخـاص. حيـث كان الدكتـور بِـلْ هـو

(1) ميشيل دي مونتين: رائد فنِّ المقالة، وأحد أكثر الكُتَّاب الفرنسيين تأثيرًا في عصر النهضة. (المترجم)

الشخص الأول الذي استشفَّ الأُسس التي كانت تقومُ عليها طريقة الآنسة ساليڤان، وفسَّر العملية التي من خلالها تشرَّبت هيلين كِيلَر اللغةَ من الكُتب.

علاوةً على هذا هناك سببٌ يفسِّرُ كونَ هيلين كِيلَر تكتبُ إنجليزيةً مُتقَنَة؛ وهذا السبب يكمُنُ في محض غياب الرؤية والسَّماع. لقد تغلَّبت هيلين على مساوئَ كونها كفيفةً وصَمَّاءَ، أمَّا المحاسِنُ من هذا فقد بَقِيَت. إنَّها تَفضُلُ الأشخاص الآخرين من الصُّمِّ لأنَّها قد عُلِّمَت كما لو كانت شخصًا طبيعيًّا. على الجانب الآخر، القيمةُ المميَّزة للغة بالنسبة لها -وهو الشيء الذي يعتبره الأشخاص العاديُّون أمرًا مُسلَّمًا به؛ باعتباره جُزءًا حَتميًّا من كيانهم، مثل يدهم اليُمنى- جعلها هذا تنشغلُ بالتفكير في اللغة وتعشقها. كانت اللغة هي مُخلِّصها، وقد تعلَّقَت بها منذ اليوم الأول.

البرهانُ المثبَت على مهارة الآنسة كِيلَر المبكِّرة في استخدام الإنجليزيَّة، والقَولُ الفَصلُ في جَودةِ هذه الطريقة في التعليم، مَشمولةٌ تفاصيلهما في واقعةٍ حدثت، والتي، رُغمَ كونها في الوقت ذاته واقعةً مشؤومة، فقد فات وقت النَّدَم. أنا أُشيرُ إلى نائبةِ "الملك الصقيع"، والتي سوف أتناولها بالشرح على نحوٍ تفصيليٍّ. لقد عرضَت الآنسة كِيلَر روايتها للواقعة، وقد نُوقِشَت القضيَّةُ بأكملها في العدد التذكاريِّ الأول معمل ومكتب ڤولتا، وهو ما أقتبِسُ منه هنا بإسهاب:

بيانُ الآنسة ساليڤان عن ملك الصقيع

إلى المبجَّل چون هيتز،

مراقب معمل ومكتب ڤولتا، العاصمة واشنطن.

سيِّدي العزيز: بما أنَّ دراستي التي أعددتُها لأجل العدد التذكاري الثاني المعنوَن "هيلين كِيلَر" صارت جاهِزَةً، خطرَت على بالي بعض الحقائق المهمَّة فيما يتعلَّق بموضوع اكتساب تلميذتي اللغة، وإن لم يكن متأخِّرًا جدًّا بالفِعل نَشرُ مثل هذا الإصدار التذكاريِّ، فسوف أكون سعيدةً إن سَنحَت لي الفرصة كي أشرح هذه الأمور بالتفصيل.

ربَّما سوف تتذكَّرون أنَّه في دراستي[1] -التي أوردتُ فيها إشارة ضِمنيَّةً لذاكرة هيلين اللافتة للنظر- مذكورٌ فيها أنَّ هيلين، يبدو أنَّها تحتفِظُ في ذِهنها بقوالب عديدةٍ للتعبير، في الوقت الذي يحدث أن تتلقَّن فيه تلك القوالب، فعلى الأرجح هي لا تكون تستوعبُ الأمر، لكن عندما تُكتَسَب المزيدُ من المعلومات، فإنَّ تلك اللغة المحفوظة في ذاكرتها ترى طريقها للتعبير عن ذاتها، سواءٌ كُليًّا أو جُزئيًّا، من خلال

---

(1) تقول الآنسة ساليڤان في تلك الدراسة: "حدث خلال ذلك الشتاء (شتاء 1891-1892) أنَّني كنتُ أسيرُ معها باتِّجاه فناء البيت، بينما كانت تتساقط الثلوج، وتركتها تتحسَّسُ نُدَفَ الثلج المتساقِطة. بدى أنَّها تستمتعُ بهذا كثيرًا جدًّا في الحقيقة. بينما نحنُ ندلُفُ إلى البيت، كانت تُردِّدُ تلك الكلمات (من تجاعيد السُّحبِ في حُلَّتِه، ينفُضُ الشِّتاءُ الجليدَ). ساءَلتُها أين تعلَّمَت هذا، لم تكن تتذكَّر أنَّها قد قرأت ذلك، ولا يبدو أنَّها كانت تعرف أنَّها قد تلقَّنَتْه. ولأنَّني لم أسمع بهذا من قبل مُطلَقًا، سألتُ العديد من أصدقائي إن كانوا يتذكَّرون هذه الكلمات، بدا أنَّ لا أحدَ يذكرها. برَّرَ المعلِّمون في المعهد الرأيَ القائل بأنَّ هذا الوصف، لم يظهر في أيٍّ من الكتب المطبوعة بالحرف البارز في المكتبة، عدا سيِّدة واحدة، الآنسة مارِّتّ، أخذت على عاتِقها مَهَمَّة تفحُّص كتب الشِّعر المتوفِّرَة، المطبوعة بالكتابة العادية، وتكلَّلَ مَسعاها بالوقوع على تلك الأبيات في إحدى قِصار القصائد لـ هنري لونغفيلو، تحت عُنوان "نُدَف الثلج":

مُتجلِّيًا- من حُضن الهواء،
من تجاعيد السُّحب في حُلَلها المتهفهفة،
فوق أراضي الغابات، الكَثِّ منها والحليق،
فوق الحقول المحصودةِ المهجورة،
هادئًا، رقيقًا، ونيدًا-
يهبطُ الثلج"

يبدو أنَّ هيلين قد تلقَّنَت ذلك وادَّخرَت في ذاكِرتها تعبير الشَّاعر هذا، وفي ذاك الصَّباح، أثناء عاصفة الثلج، وجد هذا التعبير فُرصَته للاستدعاء من ذهنها".

حواراتهـا أو كتابتهـا، وهـو مـا طِبقًـا إليـه، يُبرهِـن عـلى مقـدار براعتهـا -يزيـد أو ينقـص- في اسـتدعاء الخِـبرة الذهنيـة الجديـدة. لا شـكَّ أنَّ ذلـك يكـون صحيحًـا في حالـة كلِّ طِفـلٍ نابِـه، وربَّمـا لا يسـتحقُّ الالتفـاتَ إليـه باهتـمامٍ خـاصٍّ في حالـة هيلـين، لكـن بالنَّظـرِ إلى واقـعِ وجـودِ طِفلـةٍ قـد حُرِمَـت حاسَّـتَي السَّـمع والبـصر، ربَّمـا لا يُتَوقَّـعُ منهـا أن تكـون موهوبـةً مـن الناحيـة الذِّهنيـة كـما تُبرهِـنُ تلـك البنـت الصغـيرة عـلى ذلـك؛ وبالتَّـالي مـن الممكـن تمامًـا أن نجـد أنفُسَـنا مَيَّالـين ربَّمـا إلى تصنيـف الكثـير مـن الأشـياء التـي نكتشـفها في تطـوُّر ذهنهـا -تلـك التـي لا تسـتوجِبُ مثـل هـذا التفسـير- عـلى أنهـا أشـياء خارقـة.

لـو كنـتُ أبـدو أنَّنـي أغـالي في تقديـر الكفـاءة العقليـة الاسـتثنائية، والقـدرة عـلى حُسـن الفَهـم والتمييـز الـذي تتمتَّـعُ بـه تلميـذتي، أرغـب أن أضيـف -أمـلًا في إمكانيـة أن يُصفَـح عنِّـي- رغـم أنَّنـي كنـتُ أدركُ عـلى الـدوام أنَّ هيلـين كانـت تسـتخدمُ مثـل تلـك التوصيفـات والتشـبيهات طبقًـا لمـا يسـتميلُ مُخيِّلتهـا وطبيعتهـا الشَّـاعريَّة الراقيـة؛ فحتَّـى هـذه اللحظـة، تقنعنـي كتاباتهـا وتطوُّرتهـا مؤخَّـرًا؛ بحقيقـةِ أنَّنـي لم أكـن في المـاضي أعـي تمـام العِلـم إلى أيِّ مـدى كانـت تتـشرَّب كلامَ كُتَّابهـا المفضَّلـين. ففـي بواكـير مرحلـة تعليمهـا، كنـتُ عـلى أتـمِّ العِلـم بـكلِّ الكتـب التـي كانـت تقرؤهـا، وبـكلِّ القصـص التـي كانـت تُقـرأ لهـا تقريبًـا، وكنـتُ أسـتطيعُ، دون عنـاء، أن أقتفـي أثـرَ مصـدر أيِّ تعبـيراتٍ مُصاغـةٍ بتـصرُّف، سـواء في كتاباتهـا أو في حواراتهـا، ولشَـدَّ مـا كان يـسُرُّني دومًـا أن ألحَـظَ كيـف كانـت تُطعِّـمُ كتاباتهـا الإنشـائيَّة بتعبـيرات كُتَّابهـا المفضَّلـين عـلى نحـوٍ يثـير الاستحسـان.

المقتطفـات التاليـة، المأخـوذة مـن بعـض خِطاباتهـا المنشـورة، تُقـدِّمُ برهانًـا عـلى مقـدار مـا كانـت تُمثِّلـه تلـك القـدرة عـلى حِفـظِ مـا حُسُـنَ مـن الـكلام، بالنسـبة لهـا. ذات يـومٍ مُشـمسٍ دافـئ في بدايـات الربيـع، عندمـا كُنَّـا في الشَّـمال، يظهـر أنَّ ذلـك الجـوَّ العطِـر قـد جعـل ذِهنهـا

يستدعي العاطفة التي عبَّر عنها لونغفيلو في قصيدته "هاياواثا"، وكانت تقريبًا تُغنِّي مع الشاعر حين يقول: "الأرضُ بأجمعها كانت تترَجرجُ بِغَلواء الحياة الجديدة. فؤادي من غبطته كان يشدو. وكنتُ مشغولة البال بوطني الحبيب. كنتُ أعلَمُ أنَّ تلك البقعة التي قد غمرتها الشَّمس، قد حلَّ على أرجائها الربيعُ قاطِبةً. (بكلِّ نَوْرِهِ وبكلِّ عصافيرِه، بكلِّ أعشابِه وبكلِّ زُهورِه)".

في نفس تلك الفترة تقريبًا، في خطابٍ لها إلى صديق، والذي توردُ فيها ذِكرًا عن بيتها الجنوبيِّ، تُقدِّمُ إعادة صياغةٍ مُقاربِة لقصيدة أحد كُتَّابِها المفضَّلين، وعليه سوف أوردُ مُقتطفات من خِطاب هيلين ومن قصيدته نفسها:

مُقتطفٌ من خِطابها

(نُشرِ الخِطاب كاملًا في تقرير معهد بيركنس لعام 1891، في صفحتي: 245، 246)

الطَّائرُ الأزرقُ ذو الرِّيش اللازورديِّ، طائرُ السمنة، المتَّشِحان كلاهما بالأسمَر، وأبو الحنَّاء ينخعُ حلقه المتشنِّج، والأوريول ينحرفُ، كنُدفةٍ من النَّار في سَيرِه، والمِمْراحُ المرِحُ ورفيقتُه السعيدة، الطائرُ الشَّادي يُحاكي ألحان الجميع، والطائر الأحمرُ بزغرودةٍ حُلوة منه، يصحبة طائر النَّمنة الصغير، جميعهم يجعلون الأشجار في فنائنا، تصدح بأناشيدها السعيدة.

من قصيدته المعنونة الربيع للشاعر أوليفر وندل هولمز

الطائر الأزرق، وهو يتنفَّسُ من ريشه اللازورديِّ، يستقي شذاه من زهور الريحان،

طائر السمنة، الهائم المسكين، بوداعةٍ يهوي، متَّشِحًا بما بقي له من ريشه البنِّيِّ الخريفيِّ، ينحرفُ طائرُ الأوريول في مساره، كنُدفةٍ كما النار في مسيره، وقد شَقَّه إعصارٌ آتٍ من لولبٍ مُستعِر.

وأبو الحنَّاء ينخعُ حلقه المتشنِّج، يرِدِّدُ متغطرسًا نغمَه المتقطِّع.

والمِمراحُ المخبول يدلِّلُ رفيقته المجنونة، رابط الجأش فوق عشب البِرك، وهو منتشٍ بسطوته.

ولو كان الكناري وحده في قفصه يشدو، فهو بالنسيم العليل ينعم، ولجناحيه الكسولين يبسط ويفترِش.

في اليوم الأخير من شهر أبريل، استخدمَت هيلين تعبيرًا آخر من نفس القصيدة، والذي هو إعادةُ صياغة بتصرُّف أكثر منه استنساخًا: "غدًا، سوف يخبِّئُ أبريل دموعه، خلف أزهار مايو الحبيب، ويتورَّدُ خدُّه من الخَجَل".

في خطابٍ إلى إحدى صديقاتها في معهد بيركنس، بتاريخ 17 مايو، 1889، تُقدِّمُ إعادة صياغة لواحدةٍ من حكايات هانس كرستيان أندرسن، كنتُ قد قرأتُ لها هذه القصَّة ذاتَ مرَّةٍ ليست ببعيدة عن ذلك الوقت. نُشِرَ هذا الخطاب ضمن تقرير معهد بيركنس لعام 1891، في صفحة 204. قُرِئت لها القِصَّةُ الأصليَّة من نُسخة "حكايات أندرسن" التي نشرها كلٌّ من ليفت وألِن بروس، ويمكن الاطلاع عليها في صفحة 97 في الجزء الأول من ذلك الإصدار.

معروف جيِّدًا إعجابها بالتفسيرات البديعة التي كان يُقدِّمها لها الأُسقُف بروكس عن أبوَّة الله. في واحدٍ من خطاباته، يتكلَّمُ فيه عن كيف أنَّ الله يُخبرنا بحُبِّه بكلِّ الطُّرُق، يقول: "أحسبُ أنَّه ليُحرِّرها حتَّى على جُدران مسكنِ الطبيعة الجليل، الذي نحيا فيه، بأنَّه، هو أبونا". العام التالي في أندوفير قالت: يُخيَّلُ إليَّ أنَّ العالم مليءٌ بالخير، بالجمال، بالمحبَّة، وكم ينبغي علينا أن نكون ممتَنِّين لأبينا في السماء، الذي وهبنا من الأشياء الكثير كي ننعمَ به! فمحبتُه لنا وعنايته بنا مَسطورةٌ على جميع جُدران الطبيعة".

في تلك السنوات التالية، بما أنَّ هيلين كانت تتواصلُ مع الكثير جدًّا من الأشخاص الذين كانوا قادرين على التداخُل معها في الحوار بحُريَّة، تعرَّفَت على بعض الكتابات الأدبيَّة التي لم أكن على درايةٍ بها. وفي الكتب المطبوعة بالحروف البارزة، في قراءتها التي لم أكن أنا قادرةً على اللحاق بها، وجدَت كثيرًا من المادة الخام اللازمة لأجل أن تصقل وَلَعها بالمجازات الشِّعرية، ذلك الولع الذي يستحوذُ عليها.

صفحاتُ الكتاب الذي تقرؤه يصير بالنسبة لها كما اللوحات؛ تنبعثُ فيه الحياةُ والألوان بفعل قوى مُخيِّلتِها. حيث تنتقِلُ في الحال إلى معمعةِ الأحداث المصوَّرة في القصة التي تقرؤها أو تُروَى لها، وتصير الشخصياتُ وتمثيلاتُ الأشياء حقيقةً بالنسبة لها، فتتهلَّلُ أساريرها حين تنتصرُ العدالة، وتحزنُ حين يُنكَّلُ بالفضيلة. يبدو أنَّ الصورَ الذِّهنية التي ترسمها اللغةُ في ذاكِرتها تتركُ انطباعاتٍ لا تُمحى، وفي كثيرٍ من الأحيان، وعندما تَرِدُ على عقلها خِبرة ذِهنيَّة مماثلة لما تعرِفه؛ يبدأ الكلامُ في التدفُّقِ منها بدقَّةٍ على نحوٍ عجيب، كما ينهمرُ انعكاسُ النور من المرآة.

عقلُ هيلين موهوبٌ بالفِطرة، حتَّى أنَّها تبدو قادرةً على استيعاب كلِّ التنويعات الممكنة للروابط الخارجيَّة، بأقلِّ طَرَفٍ من الشَّرح. ذات يوم في ألاباما، عندما كُنَّا نجمعُ الزهور البريّة بمكانٍ قريبٍ من الينابيع التي في جانب التَّلِّ، بدا أنَّها كانت تدرك للمرَّة الأولى، أنَّ الينابيع كانت محاطةً بالجِبال، وقالت متعجِّبَة: "إنَّ الجِبالَ تتزاحَمُ حول الينابيع كي تنظرُ إلى انعكاسات أشكالها الجميلة فيها!". لستُ أدري من أين حظِيَت بهذا الكلام، بَيْدَ أنَّه واضحٌ أنَّه لا بُدَّ قد أتاها من الخارج، حيث يكاد أن يكون من المستحيل على شخصٍ محرومٍ من حاسَّة البَصر أن يبتدِعَ مثل هذا الهويس. لدى الإتيان على ذكر الزيارة إلى ليكسنغتون، في ماساتشوستس، تكتب وتقول: "بينما كُنَّا نتنزَّه كان في وسعنا أن نرى فراشات الغابة الـمَلَكيَّة[1]، وهي تميلُ هيئتها المترفِّعة، كي تتسمَّعَ أحاديث أطفال الغاب الصِّغار، وهم يتهامَسون فيما بينهم بأسرارهم. كانت شقائق النُّعمان، وزهر البنفسج البرِّيِّ، والشَّقَّار الكَبِديُّ، والسَّراخِس الصغيرة، الملفوفة الظريفة، يسترِقُون النَّظر إلينا من تحت الأوراق البُنيَّة". تختتمُ هذا الخِطاب بالآتي: "لا بُدَّ أن أذهبَ

(1) فراشة مونارش، أو الفراشة الملكيّة: نوع من الفراش كبير الحجم، يتميَّز بلونه الأسود والبرتقالي. (المترجِم)

للنـوم؛ لأنَّ مورفيـوس قـد لمـس رمـوش عَينـيَّ بعصـاه الذَّهبيَّـة"[1]. هـا هـو الأمـر يتكـرَّر؛ فلسـت أسـتطيع تحديـد مـن أيـن اكتسـبَت تلـك التعبـيرات.

لطالمـا كانـت تُفضِّـلُ القَصَـصَ التـي تُـدرِّبُ المخيِّلـة، وكانـت تلتقِـطُ الـرُّوح الشِّـعريَّة في كلِّ مـا يُشـبِه هـذا الصِّنـف مـن الأدَب وتسـتبقيه في ذاكرتهـا، غـير أنِّي لم أكـن أعـي حتَّـى هـذا الخريـف، أنَّ ذاكرتهـا كانـت تتـشرَّبُ الـكلامَ بدِقَّـةٍ، إلى الحـدِّ الـذي يجعلهـا هـي نفسـها غـير قـادرةٍ عـلى تَقـصِّي مَصـدره.

يتجلَّى هـذا الأمـرُ في قِصَّـةٍ قصـيرة، كتبَتهـا في أكتوبـر المـاضي في بيـت والديهـا بتوسـكامبيا، والتـي قـد أسـمَتها "أوراق الخريـف". كانـت تشـتغلُ عـلى القصـة حـوالي أسـبوعين، تكتـبُ القليـل في كلِّ يـوم، تكتـب تحقيقًـا لمتعتهـا الخاصَّـة. عندمـا فرغـت مـن القصَّـة، وقرأناهـا عـلى العائلـة، أحدثـت القِصَّـةُ تعقيبـاتٍ كثـيرة فيـما يتعلَّـقُ بالصُّـور المجازيَّـة البديعـة، ولم نسـتطِع أن نسـتوعب كيـف تمكَّنَـت هيلِـين مـن أن ترسـم بالكلـمات مثـل تلـك الصـور دون عَـون حاسَّـة البَصر. ولأنَّنـا لم نـرَ أو نسـمَع مـن قبلُ مُطلَقًـا بـأيِّ قِصَّـةٍ كهـذه؛ سـألناها أيـن قرأتهـا، وكان ردَّهـا: "أنـا لم أقرأهـا، إنَّهـا قِصتـي التـي كتبتهـا هديَّـةً إلى السـيد أناجنـوس في عيـد ميـلاده". رغـم أنَّنـي كنـتُ مذهولـةً بكونهـا تمكَّنَـت مـن كتابـة شيءٍ كهـذا، لم يكـن حـالي أكـثر ذهـولًا مـمَّا كان مـن قبـل مـرّاتٍ عديـدة، إزاء الإنجـازات الغـير المتوقَّعـة لتلميـذتي الصغـيرة، خاصَّـةً وأنَّنـا قـد تبادلنـا الكثـير مـن الأفـكار الجميلـة بخصـوص بهـاء أوراق النبـات النَّاضجـة أثنـاء خريـف هـذا العـام.

قبـل أن تُسـوِّدَ نُسـختها الأخـيرة مـن القِصَّـة، اقـتُرِحَ عليهـا أن تُغـيِّر العنـوان إلى "ملـك الصقيـع"؛ باعتبـاره أكـثر تناسُـبًا مـع الموضـوع الـذي تُعالِجـه القِصَّـة، وهـو مـا وافقـت عليـه عـن طيـب خاطـر. كُتِبـت القصَّـةُ مـن جانـب هيلـين باسـتخدام برايـل كالعـادة، وعملـت منهـا نُسـخًا عـلى

---

(1) مورفيوس: إله النوم والأحلام في الأساطير الإغريقيّة. (المترجم)

نفس المنوال، عندئذٍ كنتُ أدوِّنُ أنا القِصَّة بالكتابة العادية بين السُّطور؛ تَيسيراً على أولئك الذي كانوا يرغبون في قراءتها. كتبت هيلين خِطابًا قصيراً، وأرفَقَت معه مخطوط القِصَّة، ووجَّهت كلًّا من الخِطاب والقِصَّة إلى السيِّد أناجنوس احتفالًا بعيد ميلادِه.

طُبعت القِصَّة في عدد شهر يناير من مجلة Mentor، ومن استعراضٍ نقديّ لها منشور في جريدة Goodson، كنتُ في ذهولٍ عندما وجدتُ أنَّ هناك قِصَّةً تُشبهها كثيراً كانت قد نُشِرَت في عام 1873، يعني قبل سبعة أعوامٍ من ميلاد هيلين. تلك القِصَّة "جِنٌّ الصَّقيع"، ظهرت في كتابٍ ألَّفَته الآنسة مارغرت ت. كانْباي، عُنوانه "بْريدي وأصدقاؤه الجِنّ" المقاطِعُ المقتبَسةُ من كِلتا القِصَّتين كانت تتماثلُ كثيراً في الفِكرة وفي التعبيرات المستخدمة، بحيث أقنعتني بأنَّ قِصَّة الآنسة كانْباي لا بُدَّ قد قُرِئت لهيلين ذات مَرَّة.

ولأنَّني لم أكن قرأتُ تلك القَّصة أبدًا، ولا حتَّى قد سَمِعتُ بالكتاب؛ سألتُ هيلين إن كانت تدري أيَّ شيءٍ عن هذا الأمر، ووجدتُ أنَّها لا تعرفُ شيئًا. كانت، حَرفيًّا، غيرَ قادرةٍ على أن تتذكَّر اسم القِصَّة أو الكتاب. أُجريَ فحصٌ دقيقٌ للكُتبِ الموجودة في مكتبة معهد بيركنس من المطبوعة بحرفٍ بارز، حتَّى نتبيَّنَ إذا ما كان بالإمكان الوقوعُ على أيِّ مقتطفاتٍ من هذا الإصدار، لكن لم يُسفِر هذا البحث عن أيِّ اكتشاف. عندئذٍ استنتَجتُ أنَّ القصَّة لا بُدَّ وأنَّها قد قُرِئت لها منذ وقتٍ بعيد؛ لأنَّ ذاكرتها عادةً ما تحتفظُ، بوضوحٍ عظيم، بالوقائع وبالصور الذهنية التي كانت تُكلَّفُ بحِفظِها.

بعد إجراء تحقيقٍ دقيق، أفلحتُ في التوصُّلِ إلى معلومات: صديقتنا، مدام هوبكنز، كانت قد حَظِيَت بنُسخة من هذا الكتاب عام 1888، حيث قد أُهدي إلى ابنتها الصغيرة في عام 1873 أو 1874. وأنا وهيلين قضينا صيف 1888 مع مدام هوبكز ببيتها في بريوِسْتر،

بـماساتشوستس، حيـث أنَّهـا كانـت تتفضَّـلُ وتريحنـي مـن الاعتنـاء بهيلين جـزءًا مـن الوقـت. كانـت تُلْهـي هيلـين وتُسـلِّيها بـأن كانـت تقـرأ لهـا مجموعـةً مـن منشـورات اليافعـين، مـن بينهـا كان هنـاك نسـخة مـن "بْريـدي وأصدقـاؤه الجِـنّ"، ورغـم أنَّ مـدام هوبكنـز لا تتذكَّـر قصَّـة "جِـنٌّ الصَّقيـع" تلـك، فهـي واثقـة أنَّهـا قـرأت لهيلـين مُقتطفـات -إنْ لم تكـن القصـص بأكملهـا- مـن هـذا المجلَّـد. لكـن بمـا أنَّهـا لم تسـتطع إيجـاد نُسـخَتها، كـما أنَّ الطلبـات المرسـلة إلى المكتبـات في بوسـطن، في نيويـورك، فيلادلفيـا، ألبـاني، وفي أماكـن أخـرى، للتحصُّـل عـلى هـذا المؤلَّـف، قـد باءت جميعًـا بالفشـل؛ فبدأنـا البحـث عـن المؤلِّفـةِ نفسـها. صـارت تلـك مهمَّـةً صعبـة، فناشروهـا في فيلادلفيـا قـد تقاعـدوا عـن العمـل في هـذا المجـال منـذ سـنواتٍ عديـدة، رغـم ذلـك، اكتُشـفِ مُصادفـةً أنَّ محـلَّ إقامتهـا هـو ولمنتـون، ديـلاوار، وتحصَّلنـا منهـا عـلى نُسـخٍ مـن الطبعـة الثانيـة مـن الكتـاب، المنشـورة عـام 1889. وقـد أمَّنَـتْ لأجـلي مـن فورهـا نُسـخةً مـن الطبعـة الأولى وشـحنتها لي.

تلقَّــى أصدقــاء هيلــين مــن الآنســة كانبــاي خطابــاتٍ هــي أكــثر الخطابــات نُبــلًا وتَرضيَــة، نُــورِدُ مقتطفــاتٍ مــن بعضهــا.

بتاريـخ 24 فبرايـر، 1892، بعـد ذِكـر موضـوع نـشر القصـص في المجلَّـة، تكتـب وتقـول:

"لقـد رُوجِعَـت جميـعُ القَصـصِ قبـل نشرهـا في صـورة كتـاب، وقـد أُجْرِيَـت بعـض الإضافـات وتغيَّر عـدد القصـص عـن الطبعـة الأولى حسـبما أعتقـد، وربَّمـا أُجريـت تغيـيراتٌ عـلى بعـض العناويـن".

تكتبُ في نفس الخِطاب:

"أتمنَّـى أن يكـون في وسـعك أن تخبريهـا بأنَّنـي سـعيدة بالقِصَّـة وبأنَّنـي قـد اسـتمتعتُ بهـا، وآمُـلُ أن يمنحهـا الكتـابُ الجديـد متعـةً بتجديـد صداقتهـا مـع الجنيَّـات. سـوف أكتـب إليـك خـلال وقـتٍ قصـير. إنَّنـي

منبهـرةٌ جـدًا بمـا قـد تعلَّمتُـه منهـا، حتَّـى أنَّنـي قـد ألَّفـتُ قصيـدةً قصـيرة، عُنوانهـا مُغنِّيـةٌ صامتـة، ربَّمـا أرسـلها إلى والدتهـا بعـد فـترة. هـل يمكـن أن تُخبرينـي في أيِّ جريـدةٍ نُـشرت المقالـة التـي تَتَّهِـمُ هيلـين بالسَّرقـة الأدبيـة، والتـي تعـرضُ فقـراتٍ مـن كلتـا القِصَّتَـيْن؟ أودُّ كثـيرًا أن أطَّلِـع عـلى المقالـة، وأن أحصـل عـلى بضـع نُسـخٍ لـو ممكـن".

بتاريخ 9 مارس، 1892، تكتبُ الآنسة كانْباي:

"في الخطـاب الـذي تفضَّلـت وأرسـلته إليَّ، أجـدُ آثـارًا بـأنَّ الصغـيرة هيلـين قـد سـمعت بقصـصٍ أُخـرى غـير قصـة (جِـنُّ الصَّقيـع) في صفحـة 132، في أحـد النصـوص، هنـاك فقـرة لا بـدَّ أنَّ مصـدر وحيهـا هـو قِصَّتـي التـي عنوانهـا (الجنِّيَّـات الورديَّـة) (لتُنظَـر الصفحـات 13-16 مـن مُجلَّـد بريـدي) وفي صَفحتـي 93 و94 مـن التقريـر، وصـفُ العاصفـة الرعديـة يشـبه إلى حـدٍّ كبـير فكـرة بريـدي في قصَّـة (جنيّـاتُ النَّـدى) في صفحَتَـيْ 59 و60 مـن كتـابي. يـا لـه مـن عقـلٍ نشِـطٍ وذاكـرةٍ حافظـة تلـك التـي لا بُـدَّ تمتلكهـا هـذه الطفلـة الموهوبـة! إن كانـت قـد حفِظَـت قِصَّـةً قصـيرة ودوَّنتهـا بدِقَّـة، وكان ذلـك قـد حـدث بُعيـدَ أن عرفـت بهـا، لكانـت تلـك معجِـزة، لكـن أن تلتقـي بالقِصَّـة مـرَّةً واحـدة، منـذ ثـلاث سـنواتٍ مضـت، ويجـري الأمـر عـلى هـذا النَّحـو؛ حيـث لا يمكـن أن يكـون والداهـا ولا معلِّمتهـا قـد ألمحـوا مُطلَقًـا إلى القِصَّـة ولا أن أنعشـوا ذاكرتهـا بخصوصهـا، وبعدهـا تكـون قـادرة عـلى إعـادة صياغتهـا بمثـل هـذه الوضـوح، حتـى أنَّ إضافتهـا لبعـض لمسـاتها الخاصَّـة بشـكلٍ مُتقَـن يُبقـي تلـك التفاصيـل متماسـكة مـع بقيَّـةِ القِصـة، وهـو مـا يُحسِّـنُ حقيقـةً مـن القِصَّـة الأصلية. قِلـةٌ قليلـةٌ مـن الفتيـات الأكـبر منهـا سِـنًّا- ممَّـن ينعَمـنَ بنعمتـي السـمع والبـصر، ويتمتَّعـنَ حتـى بمواهـب عظيمـة في كتابـةِ الإنشـاء- اسـتطعن فعـل هـذا. بالنَّظـر إلى تلـك الظـروف، لا أدري كيـف يسـتطيعُ أيُّ إنسـانٍ

أن يكـون قاسـيًا إلى هـذا الحـدّ ويُسـمّي هـذا سرقـةً أدبيّـة، إنَّهـا عمـلٌ مُدهِـشٌ لذاكـرةٍ فَـذّة، ودونمـا شـكٍّ: كثـيرٌ مـن مُنجَزهـا لسـوف يكـون في المسـتقبل شـيئًا مُتفـرِّدًا، لـو تَواصـلَ نُمـوُّ قدراتهـا الذِّهنيـة وتطـوَّرَت بمـرور السـنين عـلى نحـوٍ عظيـم، كـما حـدث أثنـاء السـنوات القليلـة الماضيـة. لقـد عـاشرتُ الكثـير مـن الأطفـال عـن قُـرب؛ فقـد كنـتُ مُحاطـةً بهـم طـوال حيـاتي، ولم أكـن أعشـقُ شـيئًا يفضُـلُ أن أتحـدَّثَ إليهـم، أن أُسـلِّيهم، أن أُلاحِـظ بهـدوءٍ طبائـعَ عقولِهـم وشـخصيَّاتهم، لكنّنـي لا أذكـر غـيرَ فتـاةٍ واحـدة مـن نفـس عمـر هيلـين، كانت تملـكُ مـن الغـرامِ بالمعرفة والشَّـغفِ بهـا، وحصيلـةً مـن الأدب والمعـارف العامّـة، والمهـارة في الكتابـة الإنشـائيَّة، مثيـل تلـك التـي تملكهـا هيلـين. إنَّهـا حقًّـا (طِفلـةٌ أُعجوبـة). شـكرًا جزيـلًا لـك عـلى التقريـر، عـلى عـدد الصحيفـة الرسـمية وعـلى يوميَّـات هيلـين. فقـد جعلتنـي قراءتهـا أُدركُ مـدى الإحبـاط العظيـم الـذي كان يُحيـطُ بالطفلـة العزيـزة أكـثر مـن أيِّ وقـتٍ مـضى. رجـاءً أوصـلي لهـا مـودَّتي الحـارَّة، وقـولي لهـا أن تكـفَّ عـن الشـعور بالاسـتياء بخصـوص مـا قـد حـدث. ليـس مـن حـق أحـدٍ أن يبيـحَ لنفسـه التفكـير فيـما حـدث عـلى أنَّـه كان إسـاءة، وهـي سـوف تكتـبُ يومًـا مـا قِصَّـةً عظيمـةً مُدهِشـة، أو ربّمـا قصيـدة، تُدخِـلُ بهـا السـعادةَ عـلى الكثـير مـن النـاس. قـولي لهـا إنَّ بـكأس كلِّ إنسـان، ثمَّـة بضـع قطـراتٍ لاذِعـة، والسـبيلُ الوحيـدةُ هـي أن يتجـرَّعَ المـرءُ مـا هـو لاذِعٌ في صَـبر، ويرتشِـفَ في امتنـانٍ مـا هـو حُلـو. سـيسرُّني أن أعـرف بأنَّهـا قـد اسـتلمَت الكتـاب، وأن أعـرف رأيهـا بالقصـص التـي سـوف تكـون جديـدة بالنسـبة لهـا".

لقـد قـرأتُ الآن (بتاريـخ مـارس، 1892) لهيلـين "جِـنُّ الصَّقيـع"، "الجِنيَّـاتُ الورديّـة"، وطَرَفًـا مـن "الجِنيَّـاتُ النَّديَّـة". غـير أنَّهـا ليسـت تقـوى عـلى رؤيـة بصيـص الأمـل في الأمـر. تعرَّفَـت القَصـص في الحـال عـلى أنَّهـا قَصصهـا هـي إنمـا أُجريـت عليهـا تنويعـات، وقـد كانـت في حـيرةٍ مـن أمرهـا كيـف أمكـنَ أن تُنـشَرَ تلـك القصـص قبـل أن تُولَـد! إنَّهـا تـرى أنّـه

لمـن المدهـش وجـود شـخصين اثنـين يكتبـان قصصًـا تتشـابه كثـيرًا جـدًّا، لكنَّهـا مـا زلـت تعتـبرُ أن قَصصهـا هـي القصـص الأصليَّـة.

أورِدُ هنـا شـطرًا مـن قِصـة الآنسـة كانبـاي "الجِنيَّـاتُ الورديَّـة"، وكذلـك جـزءًا مـن خطـاب هيلـين الـذي أرسـلَتْه إلى السـيد أناجنـوس، ويتضمَّـنُ "أحلامهـا"، حتَّـى يتسَـنّى للمهتمِّـين بالأمـر تـدارُس التشـابهات والفروقـات بـين القِصَّتـين:

الجِنيّاتُ الورديَّة

من كتاب "بريدي وأصدقاؤه الجِنّ"، تأليف مارغرت كانباي

ذات صبـاحٍ جميـل، رُئِيَ بريـدي الصَّغـير، وهـو يجلـسُ هادئًـا، عـلى الجـزء المكسـوِّ بالعُشـب مـن منـزل والدِتـه، ينظـرُ إلى الشُّـجيرات الورديَّـة، وعـلى وجهـه أمـاراتُ الجِـدِّ.

كان الوقــت مُبكِّــرًا جــدًّا، والســيِّدة شــمس العظيمــة، التــي كانــت تسـتيقظُ باكـرًا في وقـت الصيـف، لم يكـن قـد مـرَّ وقـتٌ طويـل مـن شروقهـا، فكانـت العصافـيرُ قـد بـدأت لتوِّهـا تُزقـزق لبعضهـا البعـض وتقـول: "صبـاح الخـير"، وأمَّـا بالنسـبة للزهـور، فكانـت مـا تـزالُ نائمـة. لكـنَّ بريـدي كان مشـغولًا جـدًّا طـوال النَّهـار؛ حيـث كان يهـرولُ مـا بـين المنـزل والحديقـة، حتـى أنَّـه دائمًـا مـا يكـون مُسـتعِدًّا كي يـأوي إلى عُشِّـه في الليـل، قبـل أن تُفكِّـرَ الزُّهـور والعصافـيرُ وتقصـدَ أعشاشـها، ثـم يتَّفِـق أن، حـين تُطـلُّ السـيدةُ شـمس بوجههـا عـلى الغابـات الخـضراء، وتبتسـمُ في حنـوٍّ إلى الأرض، يكـون بريـدي هـو أوَّلُ مَـن يراهـا، ويُبادلهـا الابتسـامة، وفي تلـك اللحظـة، يفـرك عينَيـه بقبضَتَيـه ذَوَاتَيْ الغـمَّازات، إلى أن، مـا بـين فَرْكِـه عينيـه والابتسـام، يكـون قـد اسـتيقظَ تمامًـا.

وخمِّنـوا، مـاذا يفعـل بعـد ذلـك! هـاه! يتدحـرجُ الولـد الشَّـقيُّ ويصـلُ إلى سريـر أُمِّــه، ويقبِّـلَ رموشـها، وخدَّيهـا، وفَمَهـا، إلى أن تبـدأ تحلـم أنَّ الجـو يُمطِـرُ قُبلات، ثـمَّ تفتـح عينيهـا في النهايـة، وتـرى حقيقـة كلِّ هـذا، وتكتشـف أنَّـه بـرادي، يحـاول أن "يُقبِّلهـا ليوقظهـا"، حسـبما يقـول.

كانـت تعشـقُ صَبيَّهـا الصَّغـير أيَّمـا عشـق، وتحـبُّ أن تجعلـه سـعيدًا، وعندمـا كان يقـول: "حبيبتـي مامـا، ألبِسـيني لـو سـمحتِ، وائـذَني لي بالخـروج كي ألعـبَ في الحديقـة". توافـقُ في ابتهـاج، وبعدهـا بوقـتٍ قصـير، ينـزل بريـدي عـلى السـلالم، وهـو يرتـدي زيَّـه الصَّباحـيَّ المصنـوع مـن الكِتَّـان الممتـاز، بوجهـه المسـتدير الألِـق، يشـوبه لـونٌ ورديٌّ جـرَّاءَ الاسـتحمام، ويخـرج وهـو يجـري فـوق الممـر المفـروش بالحـصى، كي يلعـب، إلى أن يتجهَّـزَ الإفطـار.

ظـلَّ واقفًـا لوهلـة يتأمَّـلُ حالـه، ويفكِّـر فيـما ينبغـي عليـه أولًا أن يفعلـه. كان هـواء الصبـاح المنعِـشُ يهـبُّ عليـلًا يُلامـسُ صفحـة وجهـه، كـما لـو أنَّـه كان يحيِّيـه، ويكـون رفيقـه المـرِح في اللعـب، كانـت العـين السـاطِعةُ للسـيدة شـمس، تنظـرُ إليـه، وهـي تبتسـمُ ابتسـامةً حنونـةً نَـضِرَة، لكـنَّ بريـدي سريعًـا مـا واصَـلَ سَـيرَه؛ كي يبحـث عـن شيءٍ يلهـو بـه. مـا إن لمـح نظـره الشُّـجيرات الورديَّـةَ، التـي نَمَـت قريبًـا مـن جانـب المنـزل، صفَّـقَ بيديـه عـلى نحـوٍ مُفاجِـئ، ثـمَّ صـاح صيحتـه مـن الفـرَح، وتوقَّفَ كي يلقـي عليهـا نظـرة، وكانـت جميعهـا مكسـوَّةً ببراعـمَ جميلـةٍ ورديَّـة اللون. بعضهـا كان أحمـر، البعـض كان أبيـض، والأخـرى كانـت ذات لـونٍ ورديٍّ باهـت، وكانـت البراعـم قـد أطلَّـت لتوِّهـا مـن الأوراق الخـضراء، كـما يُطلُّ الأطفـال ذوو الوجـوه الورديَّـة، مـن أسرَّتِهـم الدافئـة، وقـت الشـتاء، قبـل أن يكونـوا مُسـتعدِّين تمامًـا للنهـوض. قبـل بضعـة أيَّـام، والـدُ فرِيـدي، أخـبَره، بـأنَّ الكُـرات الخـضراء، الموجـودة عـلى الشُّـجيرات الورديَّـة، فيهـا زهـورٌ جميلـة، مُخبَّـأة بداخلهـا، لكـنَّ الولـد الصغـير كان يجـد صعوبـةً في تصديـق ذلـك؛ فقـد كان جِـدَّ صغـيرٍ في السِّـنِّ، حتَّـى أنَّـه لا يتذكَّـر

كيـف كانـت الـورودُ جميلـةً في الصيـف المـاضي. والآن تبـيَّنَ أنَّ كلام والـده، كان صحيحًـا، حيـث أنَّ أيامًـا قليلـةً مـن الجـوِّ الدافـئ، حوَّلـت الكـرات الخـضراء، إلى براعـم ورديَّـة، وكانـت فاتنـةً جـدًّا، لدرجـة أنَّ بريـدي، كان يكفيـه أن يظـلَّ واقفًـا أمامهـا، تتراقـصُ عينـاه الزرقـاوان مـن البهجـة، وهـو يُشـبِّكُ يديـه الصغيرتـين معًـا بإحـكام.

وبعـد فـترةٍ قصـيرة، دنـا منهـا، وعـن قُـربٍ، ألقـى نظـرةً عـلى البراعـم، واكتشـفَ أنَّهـا كانـت ملفوفـة حـول نفسـها؛ ورقـةً فـوق ورقـة، كـما تلتـفُّ الرُّمـوشُ حـول العيـون الغافيـة، ولهـذا، ظَـنَّ بريـدي أنَّهـا كانـت لا بُـدَّ نائمـة. "اسـتيقظي أيَّتهـا الـورود الكسـولة"، قالهـا وهـزَّ الأغصـان هـزَّةً رقيقـة، إلَّا أنَّ النَّـدى وحـده هـو مـا تسـاقط في هيئـةِ قَطـراتٍ لامعـة، وكانـت الزهـور مـا تـزال هاجِعـة. وفي النهايـة، تذكَّـرَ بريـدي كيـف كان يُوقِـظُ أمَّـه بالقُبُـلات، وفكَّـر أنَّـه، قـد يُجـرِّب مـع الـورود نفـس الخطَّـة؛ لـذا صـاغ شَـفَتَيه الحمراوَيـن، حتَّـى صـار شـكلها يُماثِـلُ شـكل البُرعـم الـورديِّ، وأخفَـضَ فَرعًـا يغفـو فوقـه برعـمٌ ورديٌّ فاتِـن، ثـمَّ قبَّـلَ البرعـم برِقَّـةٍ مرَّتـين أو ثلاثًـا.

ها هو التشابه في لغة القِصّة بالنِّسبة لما يتناوله الخطاب.

خطاب هيلين إلى السيد أناجنوس

(كُتِبَ بين 2 و3 فبراير، 1890)

(أُرفِـقَ هـذا الخِطـاب بآخـر مكتـوبٌ بالفرنسـية، بتاريـخ الأول مـن فبرايـر، 1890)

عزيـزي السـيِّد أناجنـوس: لسـوف تضحـك حين تفتـحُ خِطـابَ صديقتك الصغـيرة وتـرى كلَّ الأخطـاء العجيبـة التـي اقترفَتهـا بالفرنسـية، لكننـي

أعتقدُ أنَّه سيسُرُّكَ أن تعرف أنني أستطيعُ أن أكتبَ حتَّى خِطابًا قصيرًا بالفرنسية. إنَّه ليجعلني سعيدةً جدًّا حين أُدخلُ السرورَ عليك وعلى مُعلِّمتي العزيزة. أتمنَّى أن لو كان بإمكاني رؤية ابنة أخيك الصَّغيرة أميليا. أنا متأكِّدة أنَّه سوف تحبُّ كِلتانا الأخرى. أتمنى لو تجلب معك وأنت قادم إلى البيت بعضًا من قصائد ڤيرچينيا إيڤانْغليدز، وأن تُترجِمها لي. مُعلِّمتي وأنا قد عُدنا لتوِّنا من تمشيتنا. إنه يومٌ جميل. التقينا طفلة صغيرة حُلوة. كانت تلعبُ على الرصيف البحريِّ مع أخيها الصغير. أعطتني قُبلة، ومن ثَمَّ أسرعت مُبتعدة لأنَّها صبيَّة صغيرة خجولة. أتساءل: هل تُحبُّ أن أخبركَ بحُلمٍ جميلٍ حلمتُ به منذ وقتٍ طويل، عندما كنتُ طفلة صغيرة جدًّا؟ مُعلِّمتي تقول إنَّه كان حُلمَ يقظة، وترى أنَّك سوف تسعدُ بسماعه. ذات صباحٍ جميل، في أوان الربيع الفاتِن، أعتقدُ أنِّي.. كنتُ أجلسُ فوق العُشبِ الوثير، تحت نافذة حجرة أمي الحبيبة، أنظُر بجدِّيَّةٍ للغاية، إلى الشُّجيراتِ الورديَّة التي كانت جميعها تنمو من حولي. كان الوقت مبكِّرًا جدًّا، لم تكن الشمس قد ارتفعت كثيرًا في السماء، كانت العصافير قد بدأت لتوِّها تشدو في مرح. والزُّهور كانت ما تزالُ نائمة. لم تستيقظ الزهور، إلَّا عندما ابتسمَت الشمسُ لها في حنوٍّ. كنتُ أنا ساعتها طِفلةً صغيرةً سعيدة، خدَّاها وردِيَّان، وعيناها زرقاوان واسِعتان، وكان لها أجملُ عقصةِ شعرٍ ذهبية يمكن أن تتخيَّلها. كان هواء الصَّباح المنعِش يهبُّ عليلًا على صفحة وجهي، كما لو كان يُحيِّيني، وكي يكون رفيقي المرِحَ في اللعِب، ونظرت لي الشَّمسُ بابتسامةٍ رقيقة تبعثُ الدِّفء. صفَّقتُ مرَحًا بيدَيَّ الرَّبيلَتَين حين رأيتُ أنَّ الشُّجيرات الورديَّة، كانت مَكسوَّةً ببراعمَ بهيجة. بعضها كان أحمر، البعض كان أبيض، وأُخرى كانت غضَّةَ الملمس ورديَّةَ اللون، وكانت البراعمُ تُطلُّ من بين الأوراق الخضراء، كأنَّها جِنيَّاتٌ صغيرةٌ فاتِنة. لم أرَ شيئًا بهيًّا كهذا من قبل، فأنا كنتُ صغيرةً جدًّا، ولم يكن باستطاعتي أن أتذكَّرَ كم كانت الورودُ

جميلة في الصيف الماضي. قلبي كان يفيضُ بفرحٍ عذب، وكنتُ أرقصُ حول الشُّجيرات الورديَّة كي أظهر بهجتي. بعد فترة قصيرة، دَنوتُ من شُجيرةٍ ورديَّةٍ جميلة، كانت مغطَّاة كُليَّةً بالبراعم، وتتلألأ بقطرات النَّدى، أخفضتُ واحدًا من الغصون، كان يستقرُّ فوقه بُرعمٌ جميل، لونه أبيض ناصع، وقبَّلتُه برقَّةٍ عدَّةَ مرَّاتٍ، عندئذٍ أحسستُ فورًا بذراعين لطيفتين تتسلَّلان وتحيطان بي، وشفتين حنونتين كانتا تُقبلان رموشي، وخدَّيَّ، وفَمي، حتى بدأتُ أظنُّ أنَّ الدنيا كانت تُمطِرُ قبلات، وفي النهاية، فتَّحتُ عينَيَّ، ورأيتُ ماذا كان هذا، وتبيَّنتُ أنَّها أمي الغالية، هي مَن مالت عليَّ، وكانت تُحاولُ إيقاظي بالقبلات. هل أعجبَكَ حُلمي؟ لو أنه قد أعجبَك، فربمَّا أحلم لك مجدَّدًا ذات مرَّة.

مُعلِّمتي وكلُّ أصدقائك يبعثون إليك بمحبَّتهم. لسوف أكون سعيدةً جدًّا حين تأتي إلى البيت، لأنَّني أفتقدكُ بشِدَّة. أبلِغ محبَّتي لأصدقائك اليونانيين، وقُل لهم إنني سوف آتي لزيارة أثينا ذات يوم.

محبَّتي، صديقتك الصغيرة ورفيقةُ لعبِك،

هيلين آ. كِيلَر.

هـا هـما القِصَّتـان كاملتـان "ملِـك الصَّقيـع"، و"جِـنُّ الصَّقيـع"، فالفروقـات عـلى نفـس القـدر مـن الأهميـة كـما التشـابهات:

ملِك الصَّقيع

تأليف: هيلين كِيلَر

يعيـشُ الملـكُ فروسـت في قـصرٍ فاخـر، بمـكانٍ بعيـد موجـود في الشَّـمال، في أرض الجليـد السَّرمـديّ. كان القـصر -وهـو قـصرٌ فاتـنٌ يفـوق الوصـف- مبنيًّـا منـذ قـرونٍ طويلـة، في عهـد الملـك غلاسـيار[1]. عـلى بُعـد مسـافةٍ قصـيرة مـن القـصر، ربَّمـا تُخطِئـه عيونُنـا وتظنُّـه جَبـلًا، ترتقـي قِممُـه نحـو السـماء، كي تتلقَّـى آخـر قُبلـةٍ مـن النَّهـار المنـصرِم. غـير أنَّـه عنـد الدُّنـوِّ والاقـتراب، نكتشـف أنَّنـا كُنَّـا عـلى خطـأ. فـما افترضناهـا قِمـمًا، إنمـا هـي ذُرًى مُسـتدِقَّة متلألِئـة. لا يمكـن أن يكـون هنـاك شيء أكـثر جـمالًا مـن معـمار ذلـك القـصر الثلجـيّ. فالجـدران مُشـيَّدةٌ مـن كُتـلٍ هائلـةٍ مسـبوكة مـن الثلـج، وتصـير عنـد نهايتهـا أبراجًـا عـلى شـكلٍ منحـدراتٍ شـاهِقة، على نحـوٍ يثـيرُ العجَـب. المدخـلُ إلى القـصر موجـودٌ عنـد نهايـة فُرجَـةٍ مُقوَّسَـة، ويحرسـها بالليـل وبالنَّهـار اثنـا عـشر دبًّـا أبيـض، عليهـم سـيماء الجنـود.

لكـن يـا أطفـال، لا بُـدَّ وأن تـزوروا الملـك فروسـت عندمـا تسـنحُ لكـم أولُ فرصـة، وتـروَا بأنفسِـكم هـذا القـصر العجيـب. سـوف يرحِّـبُ بكـم الملـك العجـوز، لأنَّـه يحـبُّ الأطفـال، ولأنَّ أعظَـمَ مـا يبهجـه في الحيـاة، هـي أن يهبهـم السـعادة.

---

(1) يُلاحـظ هنـا أنَّ الاسـم Glacier لـه معـانٍ عِـدة طبقًـا للسـياق: مُثلَّـج، كتلـة جليديَّـة. وكذلـك بقيَّـة أسـماء الأعـلام في القِصَّتَـين، حيـث فروسـت (الصقيـع)، وينـتر (الشـتاء). (المترجِـم)

لا بُدَّ أن تعرفوا أنَّ الملك فروست، هو كبقيَّة الملوك، عنده كنوزٌ عظيمة من الذَّهب ومن الأحجار الكريمة، لكن لأنَّه ملِكٌ عجوزٌ كريمٌ جدًّا؛ يسعى للانتفاع بثرواته على نحوٍ مناسب. لذا أينما يذهب وأينما يحِلّ، يقوم بفعل الكثير من الأشياء العجيبة: يبني جسرًا فوق كلِّ جدولٍ مائيٍّ، تكون جُسورًا شفَّافة كالزُّجاج، لكنَّها تكون قويَّة كالحديد، يهزُّ أشجار الغابة، إلى أن تسَّاقطَ حبَّاتُ الجوز في حُجور الأطفال المتهلِّلين، وهو يجعل الزهور تغفوا بمجرَّد لمسةٍ من يده، بعدئذٍ، لئلَّا نأسفَ على وجوه الزُّهور الصَّبوحة، يرسمُ الأوراق باللون القُرمزي، والذَّهبيِّ والزُّمرُّديِّ، وعندما ينتهي من مَهمَّتِه، تكون الأشجار قد صارت بهيَّةً بما يكفي كي تكون مُريحةً لنا أثناء الطيران في فصل الصيف. سوف أقصُّ عليكم كيف خطر على بال الملك فروست، أن يفكِّر في طلاء الأوراق، إنَّهَا قِصةٌ عجيبة.

ذات يوم، عندما كان الملك فروست يتفقَّد ثروته الضَّخمة، متفكِّرًا، أيُّ خيرٍ بإمكانه أن يفعله بها، ذكَّره هذا فجأةً بجاره العجوز الظَّريف، بابا نويل، "سوف أرسل بكنوزي إلى بابا نويل". هكذا حدَّثَ الملكُ نفسه. "إنَّه الرجل الأنسب، سوف يتصرَّفُ فيها على نحوٍ يرضيني؛ حيث إنَّه يعلمُ أين يعيش الفقراء والمحزونون، وقلبه العتيقُ الطيِّب عامرٌ دومًا بالخطط النَّافعة لأجل راحتِهم"؛ لذا استدعى إليه الجِنَّ الصِّغار المرِحين من أهل بيته، وأراهم الآنية والجِرار التي تحوي كنوزه، وأصدر لهم الأمر، بأن يحملوها إلى قصر بابا نويل بسرعةٍ قدر ما يستطيعون. تعهَّد له الجِنُّ بطاعة أوامره، واختفوا من أمامه في لمح البصر، وهم يجرُّون الآنية والجِرار الثقيلة وراءهم بهِمَّةٍ قدر ما يطيقون، ويتذمَّرون بين حين وأخرى لقيامهم بأداء مَهمَّةٍ شاقَّةٍ كهذه، حيث أنَّهم كانوا جِنًّا كسولين، يفضِّلون اللهو على العمل. بعد فترةٍ قصيرة، وصلوا غابةً شاسعة، ولأنَّهم كانوا مُرهَقين وجائعين، ارتأوا أن يستريحوا قليلًا، ويذهبوا للبحث عن ثمار الجوز، قبل أن يواصلوا

رحلتهـم. لكـن عندمـا تفكَّـروا بـأن كنوزهـم ربَّمـا قـد تُـسرَق؛ خبَّـؤوا الجِرار بـين الأوراق الخـضراء الكثيفـة مـن عِـدَّة أشـجار، إلى أن صـاروا متأكِّديـن بـألَّا أحـد كان باسـتطاعته أن يجدهـا. ثـمَّ بـدؤوا يتجوَّلـون في الغابـة، وهـم يمرحـون بحثًـا عـن ثمـار الجـوز، يتسـلَّقون الأشـجار، يختسـلون النَّظـر بفضـولٍ إلى أعشـاش الطيـور الخاويـة، ويلعبـون الغُمَّيْضَـة ويختبئـون خلـف الشَّـجر. والآن، صـار هـؤلاء الجِـنُّ العابثـون جِـدَّ مشـغولين باللهـو والمـرح، حتَّـى أنَّهـم نَسـوا بعثتَهـم وأمـرَ سَـيِّدِهم بـأن يذهبـوا عـلى وجـه السُّرعـة، لكنَّهـم سَريعًـا مـا اكتشـفوا سَـببَ حثِّهـم عـلى الإسراع في أداء المهمَّـة، ورغـم أنَّهـم قـد خبَّـؤوا الكنـوز -كـما كانـوا يظنُّـون- بحـرصٍ شـديد، فقـد تلصَّصـت عليهـم عيـون الملكـة شـمس اللامعـة وكشـفت مـكان الكنـوز، ولأنَّهـا والملـك فروسـت لم يكونـا عـلى وِفـاق، ولم يكونـا مُتَّفقـين أبـدًا فيـما يخـصُّ الوسـيلة المثلى لإفـادة العالَـم، فقـد كانـت جِـدَّ مـسرورةٍ بتلـك الفرصـة السـعيدة التـي سـنحت لهـا، كي تسـخر مـن نِدِّهـا اللـدود. ضحكـت الملكـة شـمس برقَّـةٍ بينهـا وبـين نفسـها، عندمـا بـدأت الجِـرارُ الهشَّـة تنكـسرُ وتـذوب. في آخـر المطـاف، كان كلُّ إنـاءٍ وكلُّ جَـرَّةٍ، إمَّـا ذائبًـا وإمَّـا مكسـورًا، ومـا كانـت تحويـه مـن أحجـار كريمـة كانـت أيضًـا ذائبـة، وتجـري عـلى هيئـة أنهـارٍ صغـيرة فـوق أشـجار وشُـجيرات الغابـة.

مـا زال الجِـنُّ المتبطِّلـون لا يُلاحظـون مـا كان يحـدث؛ لأنَّهـم كانـوا يمرحـون في الأسـفل عـلى العشـب، بينـما وابـل الكنـوز العجيـب كان يسـتغرق وقتًـا طويـلًا كي يَصِلَهـم، لكـن أخـيرًا سـمِعوا بوضـوحٍ جلجلـة كثيرٍ مـن القطـرات المتسـاقطة، كأنهـا المطـر يهطـل عـبر الغابـة، تزلَّقـوا مـن ورقـةِ شـجرة إلى أخـرى حتَّـى وصلـوا الشـجيرات الصغـيرة التـي كانـت أمـام المنطقـة المخبَّـأة فيهـا كنوزهـم، ويـا لدهشـتهم عندمـا اكتشـفوا أنَّ قطـرات المطـر تلـك كانـت أحجـارَ ياقـوتٍ ذائبـة، تصلَّبَـت فـوق أوراق الشَّـجر، وحوَّلَتهـا في لحظـةٍ إلى اللـون القرمـزيِّ والذَّهبـي. عندئـذٍ،

تفحَّصـوا بانتبـاهٍ المـكانَ مـن حولهـم، فوجـدوا أنَّ كثـيرًا مـن الكنـوز بالفعـل قـد ذابَـت، فقـد صـارت أشـجار القَيبقَـب والبلُّـوط مكسـوَّةً بحُلَـلٍ مـن اللـون الذهبـيِّ والقرمـزيِّ والـلازورديِّ. كان ذلـك منظـرًا فاتنًـا للغايـة، لكـنَّ الجِـنَّ العاقِّين كانـوا جِـدَّ مرعوبـين لـدى ملاحظتهـم لجـمال الأشـجار. فقـد كانـوا خائفـين أنَّ الملـك فروسـت، ربمـا يـأتي ويعاقبهـم؛ لـذا خبَّـؤوا أنفسـهم بـين الشـجيرات، وانتظـروا في صمـتٍ حـدوثَ أيِّ شيء. لقـد تحقَّقَـت مخاوِفُهـم، فحيـث أنَّ غيابهـم الطويـل قـد نبَّـه الملـك، امتطـى "ريـاح الشـمال" وذهـب بحثًـا عـن مبعوثِيـه المتقاعسـين. طبعًـا لم يذهـب بعيـدًا عندمـا لاحـظَ سـطوع أوراق الشَّـجر، وسريعًـا مـا خمَّـنَ السـبب عندمـا رأي الجِـرار المتهشِّـمة، وقـد كانـت تلـك الجِـرار هـي كنوزه الذَّائبـة مـا تـزال تقطـر. كان الملـك فروسـت سـاخطًا جـدًّا في البدايـة، وكان الجِـنُّ يرتعشـون وهـم منكمشـين في مخابِئهـم، ولسـت أدري مـاذا كان ربَّمـا سـيحدث لهـم، إن لم يَلِـجْ إلى الغابـة حشـدٌ مـن الأولاد والبنـات. عندمـا رأى الأطفـالُ الأشـجارَ وهـي تتألَّـق جميعهـا بألـوانٍ برَّاقـة، صفَّقـوا بأيديهـم فرحًـا، وصاحـوا مـن البهجـة، وشرعـوا لتوِّهـم يتخـيَّرون العناقيـد الكبـيرة كي يأخذوهـا إلى البيـت. "إنَّ الأوراق جميلـة مثـل الزهـور!"، هكـذا صاحـوا في غمـرة بهجتهـم. بـدَّدتَ سـعادتُهم الغضـبَ مـن قلـب الملـك، وأذهَبَـت العبـوس عـن جبينـه، وبـدأ، هـو أيضًـا، ينظـرُ في إعجـابٍ إلى الأشـجار الملوَّنـة. قـال في نفسـه: "إنَّ كنـوزي لم تذهـب سُـدًى، مـا دامـت تجعـل الأطفـال الصِّغـار سُـعداء. إنَّ جِنِّـي المتبطِّلـين وعـدوِّي المحمـوم قـد علَّمـوني طريقـةً جديـدة لفِعـل الخـير".

عندمـا سـمع الجِـنُّ هـذا، سـكن خوفهـم بشـكل كبـير، ثـم ظهـروا مـن مخابئهـم، واعترفـوا بخطئهـم، وطلبـوا مـن سـيِّدهم الصَّفـح والغفـران.

ومنـذ ذلـك الحـين، صـارت بهجـة الملـك فروسـت العظيمـة، هـي أن يطـلي أوراق الشَّـجر بالألـوان البرَّاقـة التـي نراهـا نحـنُ في فصـل الخريـف،

وإن لم تكن مكسوَّةً بالذَّهب وبالأحجار الكريمة، فلا أستطيعُ أن أتصوَّر ما الذي كان سيجعلها جِدَّ برَّاقةٍ هكذا، هل تستطيعون أنتم؟

جِنُّ الصَّقيع

(من كتاب "فريدي وأصدقاؤه الجِنّ"

تأليف: مارغرت كانباي)

كان الملك فروست -أو چاك فروست، كما يُدعى أحيانًا- يعيشُ في بلدٍ قارس البرودة، بمكانٍ بعيد يوجد في الشمال، لكنَّه في كلِّ عام، يقوم برحلةٍ حول العالَم، في مركبةٍ مصنوعة من الغيوم الذَّهبية، تجرُّها جيادٌ سريعةٌ ومفتولة، تُسمَّى "رياح الشَّمال". أينما يذهب الملك وأينما يحِلُّ، يقومُ بكثيرٍ من الأشياء العجيبة: يبني جسرًا فوق كلِّ جدولٍ مائيٍّ، تكون الجسور شفَّافة كما الزجاجِ في جلاءه، لكنَّها تكون متماسِكةً كما الحديد، وبلمسةٍ واحدةٍ من يده، يجعل الزُّهور والنباتات تغطُّ في النَّوم، فتنحني جميعها هابطةً وتغوصُ في باطن الأرض الدافئة، إلى أن يعاود الربيع المجيء، عندها؛ لئلَّا نأسفَ على الزهور، يضعُ في نوافذنا أكاليلَ جميلة، ويرشُّها بزهوره الشمالية البيضاء، أو غاباتٍ صغيرةٍ غضَّة، من أشجار الصنوبر الجِنيَّة، تكون بيضاء ناصعة وجميلة جدًّا. لكنَّ عمله الأكثر إدهاشًا، هو رَسمُه للأشجار، التي، بعد أن ينتهي من مهمة إنجازها، تبدو كما لو أنَّها قد كُسيَت بأبهى طبقاتِ الذَّهبِ واليواقيت، وتكون جميلةً بما يكفي كي تكون مُريحةً لنا أثناء الطيران في فصل الصَّيف.

سوف أقصُّ عليكم كيف فكَّرَ الملك فروست في عملٍ من هذا النوع. لا بُدَّ وأن تعرفوا أنَّ هذا الملك، هو مثل بقيَّة الملوك أجمعين:

فهو يملكُ في قصره كنوزًا عظيمة من الذَّهب ومن الأحجار الكريمة، إلَّا أنَّه، لكونه عجوزًا طيِّبَ القلب، لم يكن يُتَرْبِسُ على كنوزه طول الوقت، لكنه كان يحاول القيام بأفعال الخير، ويجعلُ الآخرين بها يهنَؤون. كان عنده جاران، ما زالا يُقيمان في أقصى الشَّمال، أحدهما الملك وينتر، وهو ملِكٌ عجوزٌ شَكِسٌ فَظٌّ، قاسٍ وصعب المِراس، وجلُّ بهجَتِهِ أن يجعلَ الفقيرَ يبكي ويُعاني، لكنَّ الجار الآخر هو بابا نويل، إنَّه عجوزٌ راقٍ، طيِّب القلب، خفيف الروح، يحبُّ فِعلَ الخير، ويأتي بالهدايا للفقراء وللأطفال الصِّغار اللطفاء في الكريسماس.

حسنٌ، ذات يوم، كان الملك فروست يحاول التفكير في عمل خير يستطيعُ فعله بكنوزه، ثمَّ عقد عزمه فجأةً، أن يُرسل بعضًا منها إلى جاره بابا نويل، حتَّى يشتري هدايا من الطعام والملابس للفقراء، لئلَّا يُعانوا كثيرًا عندما يقرَبُ الملك وينتر بيوتهم. لذا، استدعى إليه كلَّ الجنِّ الصِّغار المرحين، وأراهُم عددًا من الآنيةِ والجِرار الممتلِئة بالذهب وبالأحجار الكريمة، وأخبرهم أن يحملوها بِحِرصٍ إلى قصر بابا نويل، وأن نُعطوها له، مصحوبةً بإطراء الملك فروست، وأضاف ڃاك فروست: "سوف يعلمُ كيف يَفيدُ من الكنوز في فِعل الخير"، وقال للجِنِّ ألَّا يتسكَّعوا ويتلكَّؤوا في الطريق، بل يُنفِّذوا تعليماتِه على وجه السُّرعة.

وعدَه الجِنُّ بطاعة أوامره، وسُرعان ما بدؤوا رحلتهم، يجرُّون الجِرار الزجاجيَّة والآنية، بقدر ما كانوا يستطيعون، وبين حينٍ وأُخرى، كانوا يتبرَّمون قليلًا من القيام بمهمَّةٍ شاقَّةٍ كهذه، فقد كانوا جِنًّا كسولين، ويفضِّلون اللهو على العمل. بلَغوا في النهاية غابةً شاسِعة، ولأنَّهم كانوا مُرهقين للغاية، قرَّروا أن يستريحوا لوقتٍ قصير، ويبحثوا عن ثمار الجوز قبل أن يواصلوا المسير. لكن، لئلَّا تُسرَق الكنوز منهم، خبَّؤوا الجِرار بين الأوراق الكثيفة لأشجار الغابة، واضعين بعضًا منها

في مـكانٍ عـالٍ يقـارب قِمـم الأشـجار، والبقيَّـة عـلى أجـزاء متفرِّقـة مـن عِـدَّة أشـجار، إلى أن اعتقـدوا، ألَّا أحـد باسـتطاعته أن يجدهـا.

بعـد ذلـك بـدؤوا يتجوَّلـون في الغابـة ويفتِّشـون عـن ثمـار الجـوز، ويتسـلَّقون الأشـجار كي يهزُّوهـا حتَّـى تسـقط، وكانـوا يقومـون بهـذا بجِـدٍّ تحقيقًـا لمتعتهـم الخاصَّـة أكـثر منـه دَفعًـا لتذمُّـر سَـيِّدِهم؛ إنـه لأمـرٌ غريبـة؛ فالجـنُّ والأطفـال لا يشـكون مـن العنـاء والنَّكَـد الـذي يقتضيـه البحـث عـن اللهـو، رغـم أنَّهـم كثـيرًا مـا يتذمَّـرون حـين يؤمَـرون بالعمـل لصالـح الآخريـن.

كان جِـنُّ الصَّقيـع جِـدَّ مشـغولين وطَروبـين بالملاعبـة بثـمار الجـوز، حتَّـى أنَّهـم نسـوا بعثتهـم وأمـر ملكهـم بـأن يذهبـوا دون إبطـاء، غـير أنَّه، بينـما كانـوا يلهـوون ويلعبـون في الغابـة حتَّـى الظهـيرة، اكتشـفوا سـببَ حثِّهـم عـلى الإسراع في أداء المهمَّـة، حيـث أنَّهـم، رغـم كونهـم -حسـب مـا ظَنُّـوا- قـد خبَّـؤوا الكنـوز باحـتراسٍ تمامًـا، فهـم لم يؤمِّنوهـا مـن بطـش السـيدة شـمس، التـي كانـت خَصـمًا لـچـاك فروسـت، وكان يبهجهـا أن تُفسِـدَ عملـه وأن تُضعِـفَ مـن سَـطوتِه متـى مـا اسـتطاعت ذلـك.

عيناهـا الوضَّاءتـان اكتشـفتا جِـرار الكنـوز المخبَّـأة بـين الأشـجار، ولأنَّ الجِـنَّ المتبطِّلـين تركوهـا حتَّـى الظهـيرة -وهـو الوقـت الـذي تكـون فيـه السـيدة شـمس في أوجِ قوَّتهـا- بـدأت الجِـرارُ الهشَّـةُ تنكسـرُ وتـذوب، وسرعـان مـا صـارت كلُّ الآنيـة والجِـرار إمَّـا متصدِّعـة، أو مُهشَّـمَة، والكنـوز الثمينـة التـي كانـت بداخلهـا كذلـك ذابـت، وصـارت تسـيلُ قَطـرًا في صـورة جـداول قُرمزيَّـة اللـون وجـداولَ مـن الذَّهـب، فـوق أشـجار وشُـجيرات الغابـة.

ظـلَّ جِـنُّ الصَّقيـع لفـترة لا يُلاحظـون الحـدث الغريـب؛ لأنَّهـم كانـوا يمرحـون في الأسـفل فـوق العشـب، بعيـدًا جـدًّا عـن قِمَـمِ الأشـجار، حتَّـى أنَّ وابـل الكنـوز العجيـب كان ليسـتغرق وقتًـا طويـلًا كي يصلهـم، لكـن قال

أحدهـم أخيـراً: "أَصغـوا! أعتقـدُ أنَّهـا تُمطـر، أنـا متأكِّـد أننـي أسـمعُ قطرات المطـر الهاطـل". ضحـك الآخـرون، وأخـبروه أنَّهـا نـادرًا مـا تُمطِـرُ عندمـا تكـون الشـمس سـاطعة، وبينـما هـم يصيخـون السَّـمع، سـمعوا بوضـوحٍ ثَجيـجَ قطـراتٍ متسـاقطة عـبر الغابـة، وتزحلقـوا مـن ورقـةٍ إلى ورقـة، حتَّـى وصلـوا شُـجيرات العُلَّيْـق التـي كانـت بجانـب المـكان المخبَّـأة فيـه كنوزهـم، عندمـا تبيَّنـوا، ويـا لذُعرهـم العظيـم، حيـث أنَّ قطـرات المطـر تلـك، كانـت يواقيـت ذائبـة، وقـد جَفَّـت عـلى سـطح الأوراق، وحوَّلـت لونهـا في لحظـة إلى القرمـزيِّ السَّـاطع. ثمَّ عندمـا تفحَّصوا الأشـجار المحيطة بهـم عـن قـرب، وجـدوا أنَّ جميـع الكنـوز قـد ذابـت، وأنَّ كثـيرًا منهـا قـد انتـشر مَسـيلُه فـوق أوراق أشـجار البلـوط والقيبقـب، التـي كانـت تتألَّـقُ بحُلَلِهـا البهيَّـةِ ذات اللـون الذهبـيِّ والبرونـزي والقُرمـزي والـلازورديِّ. كان المنظـر فاتنًـا للغايـة، لكـنَّ الجِـنَّ المتبطِّـلين كانـوا مرتعبـين جـدًّا؛ لمـا سَـبَّبه عصيانهـم الأوامـر مـن خسـارة، لأنَّهـم أُعجبـوا بجـمال الغابـة، وحاولـوا في التَّـوِّ أن يخبِّئـوا أنفسَـهم بـين الشُّـجيرات، خشـيةَ أن يـأتي الملـك ويُعاقِبَهـم.

لقـد تحقَّقَـت جميـع مخاوفهـم، فبسـبب طـول مُـدَّة غيابهـم؛ تنبَّـه الملـك، وانطلـق في البحـث عـن خدمـه المتقاعسـين، وبينـما كانـوا جميعًـا مختبِئـين، وصـل وتمـشَّى في الغابـة بأَنـاةٍ، باحثًـا عـن جِنِّـه في كلِّ الأنحـاء. وطبعًـا، سريعًـا مـا لاحظَ سـطوع أوراق الأشـجار، وكذلك اكتشـف السـبب، عندمـا لمـح الجِـرار والآنيـة المهشَّـمَة، التـي كانـت الكنـوز الذَّائبـة مـا زالت بعـد تقطُـرُ منهـا. وعندمـا وصـل إلى أشـجار الجـوز، ورأى القشـور التـي خلَّفهـا الجِـنُّ المتبطِّـلون، وكلَّ بقايـا لهوهـم، عـرف بالضَّبـط كيـف تصرَّفـوا، وأدرك أنَّهـم قـد عَصَـوْا أمـره باللَّهـو والإبطـاء وهـم بسـبيلهم عـبر الغابـة.

عبـسَ الملـك فروسـت وبـدا غاضبًـا جـدًّا في البدايـة، وكان الجِـنُّ يرتعشـون مـن الخـوف، ومـا يزالـون منكمشـين في مخابِئهـم، لكـن حـدث عندئـذٍ أن قـدِم طفـلان صغـيران يرقصـان عـبر الغابـة، رغـم أنَّهـم لم يَـرَوْا الملـكَ فروسـت ولا الجِـنَّ، فقـد رأوا لـون الأوراق الجميـل، ومـن بهجتهـم

كانـوا يضحكـون، وشرعـوا يجمعـون عناقيـدَ كبـيرةً كي يعـودوا بهـا إلى أُمِّهـما. "إنَّ الأوراق تُماثِـلُ الزُّهـور في جمالهـا"، قَـالَا ذلـك وأطلقـا عـلى الأوراق الذهبيـة "الحـوذان"، وعـلى الأوراق الحمـراء "الـورود"، وكانـا جِـدَّ سـعيدَيْن، فقـد كانـا يُغنِّيَّـان وهـم بطريقهـم عـبر الغابـة.

سرورُهـم فَـتن الملـك فروسـت وأسـكَنَ غضبَـه، وبـدأ هـو أيضًـا، ينظـر بإعجـابٍ إلى الأشـجار المخضَّبـة، وفي النهايـة قـال لنفسـه: "إنَّ كنـوزي لم تذهـب سُـدًى، مـا دامـت تجعـل الأطفـال الصِّغـار سُـعداء. لـن أغضَـب عـلى جِنِّـي المتقاعسـين الطائشـين؛ لأنَّهـم قـد علَّمـوني طريقـةً جديـدة لعمـل الخـير". عندمـا سـمع جِـنُّ الصَّقيـع تلـك الكلـمات، زحفـوا واحـدًا تلـو آخـر، يركعـون أمـام سـيِّدهم، واعترفـوا بمـا اقترفـوه مـن خطـأ، وطلبـوا منـه العفـو والسَّـماح. عبـس فيهـم لوهلـة، وكذلـك وبَّخَهـم، إلَّا أنَّـه سريعًـا مـا لان، وقـال إنَّـه سـوف يسـامحهم هـذه المـرَّة، وسـوف يكتفـي بمعاقبتهم بـأن يجعلهـم يحملـون مزيـدًا مـن الكنـوز إلى الغابـة، ويخبِّئوهـا في الأشـجار، إلى أن، بمسـاعدة السـيدة شـمس، تُكتـسى كلُّ الأوراق بطبقـاتٍ مـن الذهـب والياقـوت.

عندئـذٍ شـكره الجِـنُّ عـلى صَفحـه عنهـم، ووعـدوه بأنَّهـم، سـوف يبذلـون أقـصى مـا بوسـعهم كي يدخلـوا عليـه الـسرور، ورفعهـم الملـك الطيِّـبُ جميعًـا في حِضْنِـه، وحملهـم إلى قـصره عائـدًا بهـم إلى الوطـن في أمـان. أظـنُّ أنَّـه، منـذ ذلـك الحـين، صـار جـزءٌ مـن مهـام منصـب ﭼـاك فروسـت، أن يطـلي الأشـجار بالألـوان البرَّاقـة التـي نراهـا في الخريـف، وإن لم تكـن مكسـوَّةً بالذَّهـب وبالأحجـار الكريمـة، فلسـت أدري كيـف يجعلهـا برَّاقـةً هكـذا، هـل تعرفـون أنتـم؟

إن كانـت قِصَّـة "جِـنُّ الصقيـع" قـد قُرِئـت لهيلـين في صيـف 1888، فهـي لم تكـن تسـتطيعُ أن تفهـم الكثـير منهـا في ذلـك الوقـت؛ حيـث أنَّهـا كانـت قَيْـدَ عمليـة التعليـم منـذ مـارس، 1887.

هـل يمكـن، أن يكـون كلام القِصَّـة، قـد ظـلَّ في طـور السُّـبات في ذِهنهـا، إلى أن بَعَثَـه إلى الحيـاة في مُخيِّلتهـا وصفـي أنـا لمشـهد جـمال الخريـف في عـام 1891؟

لقـد أجريـتُ تحقيقًـا دقيقًـا بـين أصدقـاء هيلـين في ألاباما، وفي بوسـطن ونواحيهـا، لكـنَّ ذلـك البحـث كان عاجـزًا إلى حـدٍّ بعيـد عـن تأكيـد أيِّ توقيـتٍ تـلى ذلـك، عندمـا تمكَّـن أحدهـم مـن قـراءة القِصَّـةِ لهـا.

هنـاك حقيقـةٌ أخـرى ذات دلالـة كبـيرة فيـما يتعلَّـقُ بهـذا الصَّـدَد. نُـشِرَت قصـة "الجِنِّيـاتُ الورديـة" في نفـس المجلَّـد مـع قصـة "جِـنُّ الصَّقيـع"، وعليـه، فربَّمـا قـد قُرِئَـت القصَّـةُ لهيلـين في نفـس الفـترة أو في وقـتٍ قريـبٍ مـن هـذا.

هنـا، في خطـاب هيلـين بتاريـخ 1890، (المقتبَـس منـه سـالفًا) يشـيرُ إلى قصـة الآنسـة كانبـاي في صـورة حلـم، "حلمـتُ بـه منـذ وقـتٍ طويـل، عندمـا كنـتُ طفلـة صغـيرة جـدًّا". إنَّ سـنة ونصـف السـنة تبـدو يقينًـا "وقتًـا طويـلًا"، بالنسـبة لبنـت صغـيرة مثـل هيلـين؛ وعليـه فنحـن نملـكُ سـببًا يدفعنـا للتصديـق بـأنَّ القصـص لا بُـدَّ قـد قُرِئَـت لهـا -عـلى أقـلِّ تقديـر- في أوائـل صيـف 1888.

بيان هيلين كِيلَر بنفسها

(التدوينةُ التالية كتبتها هيلين كِيلَر في يوميَّاتها التي تتحدَّثُ فيها إلى ذاتها)

30 ينايـر، 1892. أخـذتُ حمَّامًـا صبـاح هـذا اليـوم، وعندمـا صعـدت مُعلِّمتـي للطابـق الأعـلى كي تُهنـدِمَ لي شَـعري، أخبرتنـي بعـض الأخبـار المحزنـةِ جـدًّا، جعلتنـي تلـك الأخبـارُ تعيسـةً طـوال اليـوم. كتـبَ أحدُهـم إلى السـيد أناجنـوس، يقـول بـأنَّ القِصَّـة التـي أرسـلتُها أنـا لـه كهديَّـة عيـد ميـلاده، والتـي قـد كتبتُهـا أنـا بنفـسي، كتـب يقـول إنَّهـا لم تكـن

قِصَّتي على الإطلاق، إنَّما كتَبَتْها إحدى السيِّدات منذ زمنٍ بعيد. هذا الشخص قال إن قِصَّتها تُسمَّى "جِنُّ الصَّقيع". أنا على يقينٍ أنَّني لم أسمع بها مُطلقًا. لقد جعلنا ذلك نشعر بالسُّوء للغاية، حين نتفكَّر بأنَّ الناس ظنُّوا أننا كُنَّا لئيمَتَيْن ومُزيِّفَتَيْن. لقد كان قلبي يغُصُّ بالدُّموع؛ ذلك لأنَّني أحبُّ الصِّدق الجميل بكلِّ قلبي وعقلي.

إنَّ ذلك يزعجني الآن جدًّا. لستُ أدري ماذا سوف أفعل. لم أكن أظنُّ أبدًا أنَّ الناس يمكن أن يرتكبوا كهكذا أخطاء. أنا متأكِّدة تمامًا أنَّني كتبتُ القصة بنفسي. السيد أناجنوس منزعجٌ كثيراً بسبب هذا. إنَّه ليُحزنُني حين أتفكَّر بأنَّني.. بأنَّني كنتُ سبَب تعاسته، لكنَّني طبعًا لم أتقصَّد فِعلَ هذا.

كنتُ أُعمِلُ ذِهني في قِصَّتي أثناء فصل الخريف؛ لأنَّ مُعلِّمتي كانت تحكي لي عن أوراق الشَّجرِ في فصل الخريف، عندما كُنَّا نتمشَّى وسط الغابات في محجر السرخس. كنتُ أعتقدُ أنَّ الجِنَّ لا بُدَّ قد لوَّنوها لأنَّها كانت بديعة جدًّا، وكنتُ أظنُّ أيضًا أنَّ الملك فروست لا بُدَّ وأنَّه يملكُ جِرارًا وآنية، تحوي كنوزًا ثمينة؛ لأنَّني كنتُ أعرفُ أنَّ ملوكًا آخرين منذُ عهدٍ بعيد كانوا يملكون كنوزًا، ولأنَّ مُعلِّمتي أخبرتني أنَّ الأوراق طُلِيَت بالياقوت وبالزُّمرُّد وبالذَّهب، وباللون القُرمزيِّ والبُنِّيِّ؛ لهذا تخيَّلتُ أنَّ الطِلاء لا بُدَّ وأنَّه كان عبارة عن أحجار ذائبة. كنتُ أعلمُ أنَّها لا بُدَّ تجعلُ الأطفال سُعداء؛ لأنَّها كانت جميلة جدًّا، وقد جعلني سعيدةً للغاية، حين فكَّرتُ بأنَّ الأوراق كانت فاتنة جدًّا وأنَّ الأشجار كانت كذلك ألِقة، رغم أنَّني لم يكن باستطاعتي أن أراها.

كنتُ أظنُّ أنَّ كل النَّاس عندهم نفس التصوُّر بخصوص أوراق الأشجار، لكنَّني لستُ الآن أدري. تفكَّرتُ كثيراً في الأخبار المحزنة عندما ذهبت مُعلِّمتي إلى الطبيب، لم تكن موجودة على العَشاء، وإني لأفتقدُها.

* * *

لا أشـعر أنَّ بوسـعي أن أضيـف مزيـدًا مـن أيِّ شيء مـن شـأنه أن يكـون ذا نفـع. إنَّ قلبـي أيضًـا "يغـضُّ بالدُّمـوع" عندمـا أتذكَّـرُ كيـف كانـت تُعـاني تلميـذتي الصغـيرة العزيـزة، عندمـا علمـت "أنَّ النـاس ظنُّـوا أنَّنـا كُنَّـا لئيمتَـين ومُزيِّفتَـيْن، حيـث أنَّنـي إنَّني أعـرف حقًّـا أنَّهـا" تحـبُّ الصِّـدق الجميـل بـكلِّ قلبهـا وعقلهـا".

المخلِصة لك

آنّ م. ساليـڤـان.

لقـد ظهـر الكثـير في العـدد التـذكاريِّ لمعمـل ومكتـب ڤـولتا. خِطـابُ السـيد أناجنـوس الآتي مُعـادٌ طَبعُـه مـن عـدد شـهر أبريـل لعـام 1892 لدوريَّــة The American Annals of the Deaf.

معهد بيركِنس ومدرسة ماساتشوستس للمكفوفين

جنوب بوسطن، 11 مارس، 1892.

إلى مُحرِّر دوريةThe Annals

سـيِّدي: اسـتجابةً لرغبتكـم، أُقـدِّمُ البيـان التـالي بخصـوص قِصـة هيلـين كِيلَـر "الملـك فروسـت". لقـد أُرسِـلَت إليَّ القِصَّـةُ كهديـةٍ لي بمناسـبة عيـد ميـلادي في السـابع مـن نوفمـبر، أُرسَـلت إليَّ مـن توسـكامبيا، ألاباما. ولأنَّنـي أعـرفُ قُـدُرات هيلـين الاسـتثنائيَّة خـير معرفـة؛ لم أتـردَّد في قَبولها باعتبـاره صَنيعتَهـا، ولا أنـا اليـوم أُشـكِّكُ أنَّهـا قـادرةٌ تمـامَ المقـدرة عـلى كتابـةٍ إنشـائيَّةٍ كهـذه. بُعيـدَ ظُهورهـا منشـورةً، آلــمَني أن أعـرفَ مـن خـلال جريـدة Goodson أنَّ جانبًـا مـن القِصَّـة (نحـو ثمـاني فقـراتٍ أو تسـعًا) هـي نُسـخة طِبـق الأصـل أو نُسـخة مُقتَبَسَـة مـن قِصَّـة الآنسـة كانبـاي "جِـنُّ الصَّقيـع". ففتحـتُ مـن فـوري تحقيقًـا كي أتثبَّـتَ مـن وقائـع القضيَّـة. لا أحـد مـن مُعلِّمينـا أو موظَّفينـا مِمَّـن اعتـادوا التحـاور مـع

هيلين، لا أحدَ منهم مُطلقًا قد عرفَ أو سمِع بكتاب الآنسة كانباي، ولا حتَّى والدَي الطِّفلة وأقارِبها في البيت على أيِّ علمٍ به. أبوها، السيِّد كِيلَر، كاتَبني بما يلي فيما يتعلَّقُ بهذا الموضوع:

"إنَّني أُبادِرُ وأؤكِّدُ لك على أنَّ هيلين لم تتلقَّ أيَّة أفكارٍ بخصوص القِصَّة من أيِّ أحدٍ من أقارِبها أو من أصدقائها هنا، لا أحد مِمَّن يستطيعون التواصلَ معها بيُسرٍ بما يكفي كي يطبعَ في ذِهنها تفاصيل قِصَّةٍ من هذا النَّوع".

بناءً على طلبي؛ إحدى المعلمات في قِسم البنات، اختبرت هيلين بخصوص بِنية القِصَّة. وشهادتها بخصوص الموضع هي كما يلي:

"لقد حاولتُ التثبُّتَ في البداية مِمَّا قد أوحى لعقل هيلين تلك الخيالات الخاصَّة، التي جعلت قِصَّتها تبدو وكأنَّها نُسخة مُعادَة من القِصَّة التي ألَّفتها الآنسة مارغرت كانباي. أخبرتني هيلين أنَّها كانت تُفكِّرُ في چاك فروست على أنَّه ملِك، بسبب الكنوز الكثيرة التي كان يحتكمُ عليها. وينبغي لتلك الكنوز الثمينة أن تُحفَظَ في مكانٍ آمِن؛ ولهذا تخيَّلَتها وقد حُفِظَت في آنيةٍ وجِرارٍ في قِسمٍ واحد من القصر الملَكِيِّ. قالت إنَّه، ذات يومٍ خريفيٍّ، كانت مُعلِّمتُها وهما تتمشَّيان معًا وسط الغابات، تحكي لها عن الألوان الكثيرة الجميلة لأوراق الأشجار، وقد كانت تعتقدُ أنَّ جمالًا كهكذا جمال لا بُدَّ وأنَّه يجعل النَّاس سُعداء جدًّا، ومُمتَنِّين للملك فروست. سألتها أيَّ قَصصٍ كانت قد قرأتها عن چاك فروست. إجابةً عن سؤالي، ألقَت جُزءًا من قصيدة بعنوان: "مُسوخ فروست"، وأشارت إلى جُزءٍ قصير يتحدَّثُ عن الشِّتاء، القصيدة موجودة في أحد كُتب القراءة المدرسيَّة. لم يكن باستطاعتها أن تتذكَّر أنَّ أيَّ إنسانٍ قد قرأ لها أيَّ قصصٍ عن الملك فروست على الإطلاق، لكنَّها قالت إنَّها كانت قد تحدَّثَت مع مُعلِّمتها عن چاك فروست، وعن الأشياء العجيبة التي كان يأتيها".

الشخصُ الوحيد الذي نفترضُ أنَّه ربَّما من الممكن قد قرأ القِصَّة لهيلين كان صديقتها؛ مدام هوبكنز، حيث كانت هيلين في زيارةٍ لها في ذلك الوقت ببريوِسْتر. طلبتُ من الآنسة ساليڤان أن تذهب من فورها إلى مدام هوبكنز، وتتأكَّدَ من وقائع هذا الأمر. ونتيجةُ تحرِّيها مُجسَّدةٌ في الملحوظة المطبوعة في المرفقات[1].

يصعب أن أشكَّ بأنَّ كتاب الآنسة كانباي قد قُرِئ لهيلين بواسطة مدام هوبكنز، في صيف 1888. لكنَّ الطِّفلة ليست تملكُ أيَّ ذِكرى عن أيِّ شيء بخصوص تلك الواقعة. لدى عودة الآنسة ساليڤان إلى بريوستر، قرأت لهيلين قِصَّة "السيِّد فونتليوري الصغير"، وقد ابتاعتها من بريوستر مخصوصًا لهذا الغرَض. ولقد استغرَقت الطِّفلةُ من فورها بالقِصَّة وفُتِنَت بها، وواضح أنَّها تركَت أثرًا عميقًا على ذِهنها أكثر من أيِّ شيءٍ قُرِئ لها قبلًا- كما هو ظاهرٌ من الإشارة المتكرِّرة عن ذلك، سواء في حواراتها وخِطاباته، ولعدةِ أشهرٍ فيما بعد. لا بُدَّ أنَّ اهتمامَها الشديد بفونتليوري قد طَمرَ جميع ذكريات جِنِّ فروست، وعندما اكتسبَت معرفةً واستخدامًا أكثر كمالًا للُغَة، بعد ما يزيد عن ثلاث سنوات، وحُكِيَ لها عن چاك فروست، وعن عمله، أثمَرت البذرةُ التي كانت مطمورةً لوقتٍ طويل، وصارت أفكارًا وخيالاتٍ جديدة. ربَّما يُفسِّرُ ذلك السببَّ في أنَّ هيلين، تزعمُ بإصرارٍ أنَّ "الملك فروست" إنَّما هي قِصَّتُها. يبدو أنَّ ما تعرفه عن الفوارقِ بين الكتابة الإنشائيَّة المبتكَرَة والكتابة المقتبَسَة ضئيلٌ جدًّا. لم تكن تعرفُ معنى كلمة "سَرِقة أدبيَّة"، حتَّى وقتٍ قريب؛ حين شُرِحَ لها معنى الكلمة. هي قَطعًا صادِقة. إنَّ الصِّدْقَ هو أكبرُ مَزيَّةٍ بارزة في شَخصيَّتِها. لقد كانت مذهولَة وحزينة جدًّا حين قيل لها بأنَّ كِتابَتها كانت عبارة عن إعادةِ صياغةٍ بتصرُّف لقِصَّة الآنسة كانباي "جِنُّ الصَّقيع". لم تستطِع أن تكتمَ

(1) تلك الملحوظة عبارة عن اعتذار، وتقرير لحقائق خالصة، وقد أدرجها السيد أناجنوس في تقاريره لمعهد بيركنس.

دموعهـا، ويبـدو أنَّ السـببَ الأسـاسيَّ لبكائهـا، هـو خشـيتها أن يتشـكَّكَ النـاس في أمانتِهـا. كانـت تقـول وفي نفسـها تعتمـلُ مشـاعر الحُرقـة: "إنَّنـي أحـبُّ الصِّـدْقَ الجميـل". خضعـت الطِّفلـةُ لتحقيـقٍ صـارم إلى أقـصى الحـدود مُـدَّةَ سـاعتين تقريبًـا، وفيـه كان هنـاك ثمانيـةُ أشـخاصٍ حاضريـن، واسـتجوَبوها طارحـين عليهـا كلَّ صنـوف الأسـئلة بمُطلَـقِ الحُريَّـة، وخـابَ مَسـعاهُم في انتـزاع أيِّ شـهادة مُقنِعـة بمحاولتهـا أو حتـى نيَّتهـا بممارسـة الخِـداع، سـواء بالنسـبة لمعلِّمتهـا عـلى الأقـل، أو بالنسـبة لأيِّ شـخصٍ آخـر.

حـين أسـتعرضُ تلـك الوقائـع، ليـس في وسـعي التفكـير سـوى في أنَّ هيلـين، عندمـا كانـت تكتـب "الملـك فروسـت" كانـت غـيرَ واعيـةٍ كُليَّـةً بـأنَّ قصـة "جِـنُّ الصَّقيـع" قـد قُرِئـت لهـا مـن قبـل، وأنَّ ذاكرتهـا كانـت مصحوبـةً بمثـل هـذا الفقـدان في الارتباطـات الذِّهنيـة؛ مـا جعلهـا هـي نفسـها صِدقًـا تؤمـنُ أنَّ كتابتهـا هـي الكتابـةُ الأصليَّـة. إنَّ تلـك النظريـة مُتَّفَـقٌ عليهـا مـن جانِـب أشـخاصٍ كثيريـن مِمَّـن يعرفـون الطِّفلـة تمامًـا حَـقَّ المعرفـة، وهُـم قـادرون عـلى أن يتسـامَوا فـوق غشـاوات تعصُّـبٍ رَجعـيٍّ.

المخلِص لكم جدًّا

م. أناجنوس

مدير معهد بيركِنس ومدرسة ماساتشوستس للمكفوفين

كان لتلـكَ الحادِثـةِ أثـرٌ قامِـعٌ عـلى هيلـين كِيلَـر، وعـلى الآنسـة ساليـﭬـان، حيـث كانـت تخـشى إن هـي سَـمَحت بعـادةِ المحـاكاةِ تلـك -والتي هـي في الحقيقـة مـا جعـل الآنسـة كِيلَـر كاتبـة- أن تشـطَحَ هيلـين بذهنهـا وتذهـبَ بعيـدًا أكـثر مِـمَّا ينبغـي. حتـى اليـوم، حينـما تنظِـمُ عبـارةً حَسَـنَةً، تقـول الآنسـة ساليـﭬـان بنـبرةٍ يائسـةٍ مازِحـة: "أتسـاءَل، أيـن وقعـت عـلى هـذه الجملـة؟". لكنَّهـا الآن تُـدرِك -بمـا أنَّهـا قـد درسَـت مـع تلميذتهـا في الكُليَّـة معضـلاتِ الكتابـةِ الإنشـائيَّة، تحـت إشراف السـيد

تشارلز ت. كوبلاند- بأنَّ أسلوب كلِّ كاتب -وبالطَّبع كلِّ إنسان- جاهلًا كان أو متعلِّمًا، هو عبارة عن ذِكريات مُركَّبة من كلِّ الأشياء التي قد قرأها أو سَمِعها. أمَّا بالنسبة لحصيلةِ مُفرداته -في الشَّطر الأكبر منها- يكون الكاتبُ غيرَ منتبِهٍ لها، تمامًا كما حاله في اللحظة التي يكون فيها قد أكلَ طعامًا، ويصيرُ ذاك الطعام مساهمًا في تشكيل نُتفةٍ من ظُفر إبهامِه. يحدثُ معنا جميعًا أن تتمازجَ الإسهاماتُ [المعرفيَّة] من مصادرَ مختلِفة، وتتهجَّن وتختلِط. من الممكِن بالنسبة لطفلٍ لا يملكُ سوى مصادرَ قليلة، أن يجعله ذلك يُبقي على ما يستقيه من كلٍّ من تلك المصادر مُستقِلًّا. في حالتنا هذه، احتفظت هيلين كِيلَر في ذاكرتها بكلمات قِصَّةٍ كانت قد قُرِئت لها ذات مرَّة، قصَّة لم تكن تستوعبها بشكلٍ كامل، حفظتها تقريبًا غير مَنقوصة، وغير مختلطةٍ مع أفكارٍ أخرى. ولا ينبغي أن تكون أهميةُ هذه الملاحظة أمرًا مبالَغًا فيه. فهي تُظهرُ كيف يكنزُ عقلُ الطِّفلِ داخله الكلمات التي يترامى إليه خبرها، وكيف أنها تندَسُّ هناك، مُتأهِّبةً متربِّصة، إلى أن تنبجِسَ حين يُمَسُّ المفتاح الذي يُطلِقُ العنان للنَّبع. وسببُ أنَّنا لا نُلاحظُ تلك العملية في الطِّفل العادي، هو أنَّنا نادرًا ما نلاحظها على الإطلاق، ولأنَّ عقولهم تتغذَّى على الكثير جدًّا من المصادر، لدرجة أنَّ الذاكرة تُصابُ بالتشوُّش وتكون هدَّامةً على نحوٍ مُتبادَل. رغم ذلك، فقصَّة "الملك فروست" لم تخرج من عقل هيلين كِيلَر البِكر، إنَّما اتَّخذَت لنفسها قالَبًا حسب مِزاج الطِّفلة، وتستمِدُّ مُفرداتٍ، كانت، إلى حدٍّ ما، تُزوَّدُ بها عن طريقٍ سُبلٍ أخرى. فأسلوب نُسختها من القِصَّة، هو من بعض النَّواحي أفضل من أسلوب قصة الآنسة كانباي. إنَّ بها من براعة التصوير وسرعة التصديق التي تُميِّزُ حكايةً شعبيةً بدائيَّةً، بينما قِصَّةُ الآنسة كانباي واضح أنَّها مرويَّةٌ للأطفال من قِبَلِ شخصٍ يكبرهم سِنًّا؛ يتبنَّى في السَّرد أسلوبَ حكايةٍ خرافيَّة، ولا يستطيعُ أن يسترَ صيغةَ النَّاضج الذي يُصرِّحُ بهكذا عباراتٍ ذات نبرةٍ تعليميَّة

كهاتِـه: "چـاك فروسـت، كـما يُدعـى أحيانًـا"، "وقـت الظهـيرة؛ وهـو الوقـت الـذي تكـون فيـه السـيدة شـمس في أَوْجِ قُوَّتهـا". سـوف يشـعرُ أغلـبُ النـاس بالطَّابَـع الابتـكاريِّ الراقـي في الفقـرة الافتتاحيَّـة مـن قصـة هيلـين كِيلَـر. مـن المؤكَّـد أنَّ الكاتـب يلزمـه أن يكـون كطفـلٍ صغـير كي يـرى الأشـياء مـن نفـس هـذا المنظـور. إنَّ جملـة "اثنـا عـشر دبًـا، عليهـم مخايـلُ الجنـود" لهـي ضربـةٌ مـن عبقـريٍّ، وفي الإيقـاع السـردي جـمالٌ يتخلَّـلُ روايـةَ الطِّفلـة. إنهـا قصـةٌ مُبتَكَـرةٌ، تجـري عـلى نفـس النَّهـج الـذي تكـون فيـه نُسـخةُ شـاعرٍ مـن قِصَّـةٍ قديمـة، مُنتجًـا مُبتكـرًا.

تسـتدعي تلـك القصـةُ القصـيرة جميـع صنـوف إشـكالات لغـة وفلسـفة الأسـلوب. ربمَّـا تُـورَدُ هنـا بعـضُ الاسـتنتاجات عـلى نحـوٍ موجَـز.

يسـتخدمُ الجميـعُ اللغـة عـن طريـق نَسَـقِ المحـاكاة، وإنَّ أسـلوبَ المـرء ليتخلَّـقُ مـن جميـع الأسـاليب التـي يتعـرَّضُ لهـا.

السـبيلُ لكتابـة إنجليزيَّـةٍ جيِّـدة هـي أن تقرأهـا وتسـمعها. وعـلى هـذا النحـو يمكـن لأيِّ طفـل أن يتعلَّـم الاسـتخدام الصحيـح للإنجليزيَّـة، مـن خـلال عـدم السَّـماح لـه بقـراءة أو بسـماعِ أيِّ صِنـفٍ آخـر. في حالـة الطفـل، أن يتخـيَّرَ الأحسـن مـن الأسـوأ هـو فعـلٌ غـيرُ واعٍ؛ فالطِّفـلُ تابِـعٌ لتجربتـه اللغويـة الذِّهنيَّـة.

لـن يتحـرَّرَ الإنسـانُ العـاديُّ أبـدًا مـن مُغالَطـةِ أنَّ الكلـمات تمثِـلُ للفِكـر، بحيـثُ أنَّ المـرءَ يُفكِّـرُ أوَّلًا ثـمَّ تتبعُ العبـاراتُ بعـد ذلـك. لا بُـدَّ أن توجـدَ أوَّلًا -وهـذه حقيقـة- النيَّـة المسـبَقَة، الرَّغبـة في التفـوُّهِ بـشيءٍ مـا، لكـنَّ الفِكـرةَ لا تكـونُ غالبًـا مُحـدَّدَة، لا تتَّخِـذُ شَـكلًا حتَّـى تُصـاغَ في عبارة، مـن المؤكَّـد أنَّ الفِكـرة تكـونُ شـيئًا مُغايِـرًا بمزيَّـةِ كونهـا مُصاغـةً في عبـارة. الكلـماتُ غالبًـا مـا تصنـعُ الفِكـرة، ومَـن يُتقِـن اسـتخدام الكلـمات سـوف يقـولُ أشـياء تفـوقُ عظَمـةً مـا في نفسِـه. يوجـد مِثـالٌ لافـتٌ للانتبـاه؛ فقـرة مـن كتابـة الآنسـة كِيلَـر، المنشـورة في **Youth's Companian**.

وهـي تتحـدَّثُ عـن تلـك اللحظـة التـي أدركَـت فيهـا أنَّ كلَّ شيءٍ يملـكُ اسـمًا، تقـول: "قابلنـا المربِّيـة وهـي تحمـلُ ابنـة عمـي الصَّغـيرة، وتهجَّـت لي معلِّمتـي وقالـت "رضيـع". وللمـرَّةِ الأولى كنـتُ مأخـوذةً بصِغَـرِ حجـم الرضيـع وبكـون ألَّا حيلـةَ لـه، وتآلَفـتُ مـع فكـرة أنَّـه يوجـد نُسـخ مـن كائنـاتٍ أُخـرى مثـلي، وكنـتُ سـعيدة بأنَّنـي كنـتُ مَـن هـي أنـا، وأنَّنـي لم أكـن طفلـةً رضيعـةً". كانـت هـي كلمـة واحـدة مـا تسـبَّبت في خلـق تلـك الأفـكار في ذِهنهـا. إذن فمَـن يُتقِـنْ اسـتخدامَ الكلـمات يُتقِـنْ الأفـكارِ التـي تخلقهـا الكلـمات، ويقـولُ أشـياءَ أكـثر عظمَـةً، خِلافًـا لِـما باسـتطاعته أن يُـدرك. كانـت هيلـين كِيلَـر، وهـي تكتـبُ "الملـك فروسـت" تُشـيِّدُ شـيئًا أفضَـل مِـمَّا كانـت تُـدرِك، وتقـولُ أكـثرَ مِـمَّا كانـت تقصـد.

أيُّ إنسـانٍ يسـبِكُ جملـةً مـن كلـماتٍ تكـونُ شـيئًا لا يُفصِـحُ عـن حِكمَتِـه الشـخصية؛ إنَّمـا هـي تفصـحُ عـن حِكمـة السُّـلالةِ التـي تتجسَّـدُ حياتهـا في تلـك الكلـمات، رغـم أنَّـه لم يحـدث أن اجتمـع المنتسـبون لتلـك السـلالة أبـدًا مـن قبـل. فالإنسـانُ الـذي يسـتطيعُ أن يكتـبَ قَصَصًـا يفكِّـرُ في قَصـصٍ كي يكتبهـا. ويبعـثُ الوسـيطُ الحيـاةَ في الـشيء الـذي يُنبِـئُ بـه، وكلَّـما كان الوسـيط جليـلَ الشـأن، كلَّـما كانـت الأفـكارُ أكـثر عُمقًـا.

إنَّ الإنسـان الراقـي هـو الشـخصُ الـذي تُظهـرُ ألفاظُـه أنَّـه إنسـانٌ مُتعلِّـم. مـادَّةُ الفِكـر الخـام هـي اللغـة، واللغـة هـي شيءٌ تُعلِّمُـه للطفـل الأصـم ولأيِّ طفـلٍ آخـر. دَعـه يكتسـب اللغـةَ وسيكتسـبُ كلَّ اللـوازم الصحيحـة المؤلَّفـةِ منهـا اللغـة؛ أيْ: الفكـر والخـبرة الذهنيـة لبنـي جِنسـه. فاللغـة لا بـدَّ أن تكـون نِتـاج اسـتخدام أمَّـةٍ واحـدة، وليـس شـيئًا مُسـتعارًا مُفتعَـلًا. فالڤـولابوك[1] لا تكـون سـوى تناقُـضٍ، مـا لم يكـن المـرء يعـرفُ الفرنسـية أو الإنجليزيَّـة أو الألمانيَّـة أو أيَّ لغـةٍ أخـرى تكـون قـد نشـأت بـين ظهـرانَيْ أمَّـةٍ مـا. الطِّفـلُ الأصـمُّ الوحيـد الـذي يعـرف لغـة الإشـارة

(1) Volapük: هـي لغـة اصطناعيـة، اخترعهـا القـس الكاثوليـكي الألمـاني الأصـل يوهـان مارتـن شـيلر 1839-1912 كمـشروع لغـة اتصـال دوليـة في سـنة 1879. (المترجـم)

"دى ليـپـى" هـو المثقَّـف فيليـب نـولان، وهـو غريـبٌ عـن كلِّ الأجنـاس، وأفـكارُه ليســت أفـكار امـرئٍ إنجليـزيٍّ، أو فرنـسيٍّ، أو إسـبانيٍّ. فدُعـاءُ الله باسـتخدامِ الإشـارات ليـس كدعـاء الله باسـتخدامِ الإنجليزيَّـة.

في مقالتِـه عـن الأسـلوب، يقـول تومـاس دي كوينـسي إنَّـه يمكـن التحصُّـل عـلى أفضـل إنجليزيَّـةٍ مـن خطابـات المـرأة الراقيـة المتعلِّمـة؛ لأنَّهـا تكـون قـد قـرأت قليـلًا مـن الكتـب النافعـة فحسـب، ولم يُفسَـد ذوقُهـا بأسـلوب الصُّحـفِ وبرَطانَـة الشـارع والسُّـوق والمجالِـس.

تلـك الظـروف الظاهريَّـة تُفـسِّرُ بدقَّـةٍ اسـتخدامَ هيلـين كِيلَـر للإنجليزيَّـة. ففـي سـنواتها الأولى مـن تعليمهـا، كانـت تقـرأ فقـط أشـياءً نافِعـة، بعضهـا كان في الحقيقـةِ أشـياءَ تافِهَـةً وليسـت راقيـةَ الأسـلوب، لكنَّهـا لم تكـن قَطعًـا أشـياء رديئـة الطَّابـع أو المحتـوى. لقـد كان هـذا الوضـعُ الهانِـئُ متحقِّقًـا خـلال مسـار حياتهـا. فقـد كانـت تُغـذَّى عـلى الأدب المثـير للمخيِّلـة، وكانـت تكنِـزُ منـه في ذاكرتهـا الحـادَّةِ الحافِظـة، أسـاليبَ الكُتَّـاب العظـماء. "كلمـة جديـدة تفتـح لي قلبهـا"، هكـذا تكتـبُ في أحـد خطاباتهـا، وعندمـا تسـتخدمُ الكلمـة يكـون قلبهـا مـا يـزال منفتِحًـا. عندمـا كانـت في الثانيـة عـشرة مـن عمرهـا، سُئلَت: أيَّ الكتُـب قـد تصطحبهـا معهـا في رحلـةٍ طويلـةٍ بالقطـار؟ "الفِـردَوس المفقـود"، هكـذا أجابَـت، وقـد قـرأت هـذا الكتـاب عـلى مـتن القِطـار.

حتـى العـام المـاضي أو العامَـيْن الماضيـين، لم تكـن هـي المسـيطرةَ على أسـلوبها الكتـابيّ؛ إنَّمـا بالأحـرى، كان أسـلوبها هـو المسـيطرُ عليهـا. فـما كادت تتنـاولُ الكتابـةَ الإنشـائية بدراسـةٍ أكـثرَ وعيًـا، حتَّـى كَفَّـت عـن كونهـا مُتيَّمـةً بالعبـارة، إنَّهـا لحسـن الطَّالـع، صـارت المتيَّمـةُ المحظوظـة بالعبـارة الآسِرة.

في عـام 1892، عندمـا اسـتُحِثَّت لأجـل أن تكتـبَ سردًا عـن حياتهـا لصالـح مجلـة **Youth Companian**، أمـلًا في أنَّ ذلـك قـد يعيـدُ إلى

نفسـها الطمأنينـة ويجعلهـا تتعـافى مـن آثـار واقعـة "الملـك فروسـت"، أنتجَـت قِطعـةً إنشـائيَّة، هـي أكـثر مـن كونهـا قطعـةً اسـتثنائيَّة، إنمـا هـي في جَوهرهـا مُمتِعـةٌ في بعـض النِّقـاط أكـثر مـن جُـزء المراسـلات مـن قِصَّتهـا، الواقـع في هـذا الكِتـاب. عندمـا عزمـت إعـادةَ روايـة قِصَّتهـا في صـورةٍ أكـثر كـمالًا، كانـت أصـداء العبـارات التـي قـد سـطَّرتها قبـل تسـعةِ أعـوامٍ مضـت مـا تـزالُ ماثلـةً في ذِهنهـا. هـي لم تـرَ حتَّـى الآن مـا كتبتـه في **Youth Companian** منـذ أن كتبَتـه، باسـتثناء فقرتـين اثنتـين، قرأتهـما لهـا الآنسـة ساليـڤـان؛ كي تُذكِّرهـا بأشـياء ينبغـي أن تـأتي عـلى ذِكرهـا في سـيرتها الذاتيَّـة، وكي تُظهـر لهـا، كيـف أنَّ مـا فعلتـه وهـي بنـت صغـيرة -عندمـا كانـت طريقـةُ صياغتهـا للـكلام تُسـبِّب لهـا الانزعـاج- كان أكـثرَ جـودةً.

أقتبِـسُ مـن مُسَـوَّدَةِ كتابتهـا الأولى بضـع فقـرات، يبـدو لي -دون إيـلاء الفـارق الزمنـي الكثـير مـن الاعتبـار- أنهـا تُماثِـلُ في الجـودةِ تقريبًـا أيَّ شيءٍ قـد كتبتـه مـن حينهـا:

لقـد اكتشـفتُ الطريقـة الصحيحـة للمـشي لـمَّا كان عمـري سـنة، وخـلال أيَّـام الصَّيـف الوَقَّـادة التـي تلـت ذلـك لم أكـن أبقـى سـاكنةً أبـدًا ولـو لدقيقـة...

ثـم عندمـا يعـود أبي في المسـاء، كنتُ لأجـري ناحيـة البوَّابة كي أسـتقبِلَه، وكان هـو يرفعنـي بـين ذراعيـه القويَّتَـين ويُعيـد عقصـات شـعري المضفَّـر المائـل عـلى وجهـي خلـف رأسي، ويقبِّلنـي مـراتٍ كثـيرة وهـو يقـول: "مـاذا كانـت تفعـلُ اليـوم سـيِّدتي الصغـيرة؟".

لكـنَّ الصيـف الأكـثر وهجًـا يحظـى بشـتاءٍ يـأتي مـن بعـده. في شـهر فبرايـر البـارد الكئيـب، عندمـا كان عمـري تسـعةَ عـشر شـهرًا، أصابنـي مـرضٌ خطـير. مـا تـزالُ عنـدي ذكريـاتٌ مُشوَّشـةٌ عـن هـذا المـرض. كانـت أمـي تجلـسُ بجـوار سريـري الصَّغـير وتحـاولُ أن تهـدِّئ أنَّـاتي المحمومـة،

وقلبها المضطرِم كان يدعو: "أبانا الذي في السَّماء، تغمَّد حياةَ رضيعتي بالرَّحمة!". لكنَّ الحُمَّى كانت تزدادُ حِدَّتُها حتى ألهَبَت عينَيَّ، وطوال عِدَّة أيَّامٍ، ظلَّ طبيبي الطَّيِّبُ يعتقدُ أنَّني سوف أموت.

لكن ذات صباحٍ باكر، بارَحتني الحُمَّى على نحوٍ غامضٍ وغيرِ مُتوقَّعٍ كما أصابتني، وهويتُ مُستغرِقةً في نومٍ هادئ. ثمَّ أدركَ والديَّ أنَّني سوف أنجو وأحيا، وكانا جِدَّ سعيدَين لهذا. بعد تعافيَّ، ظلَّا لا يُدرِكان لبعض الوقت أنَّ تلك الحمى الشَّنيعةَ قد سَلَبَتني سَمعي وبصَري، سَلَبَت كلَّ النور والنَّغمَ والسَّعادة من حياتي القصيرة.

غَيرَ أنَّني كنتُ صغيرةً جدًّا على أن أُدرِكَ ما قد حدث. فعندما كنتُ أصحو وأجدُ أنَّ كلَّ شيءٍ مُظلمٌ وساكِن، كنتُ أفترِضُ أنَّ الوقت ليل، ولا بُدَّ أنِّي كنتُ أتساءل لماذا كان النَّهار يستغرقُ طويلًا حتَّى يأتي. رغم ذلك، اعتدتُ تدريجيًّا على الصَّمت والعَتَمَة اللَّذيْن كانا يُحيطان بي، ونسيتُ إطلاقًا أنَّه كان هناك من قبلُ نهار.

لقد نسيتُ كلَّ شيءٍ كان إلَّا محبَّةَ والدتي المؤنِسة. سَريعًا ما أُسكِتَ حتَّى صوتي الطفوليُّ؛ لأنَّني انقطَعتُ عن سماع أيِّ صوت.

لكن لم يضِع كلُّ شيء! رغم كلِّ ذلك، فليس السَّمعُ والبصرُ سوى نِعمتَين رائعتين قد وهَبَني إيَّاهما الله. إنَّما أغلى وأبْدَع نِعَمِه ما زالت مِلكي. فقد ظلَّ عقلي صافيًا ويعمل بنشاط، "حتى ولو هرب النور إلى الأبد".

ما أن استرددتُ قوَّتي، حتَّى بدأتُ الاهتمام بما كان يفعله الناسُ من حولي. كنتُ أتشبَّثُ بفستان أمِّي وهي بسبيلها لأداء المهام المنزلية، وكانت يداي الصَّغيرتان تتحسَّسان كلَّ شيءٍ وتلاحظان أيَّ حركة، وبهذه الطريقة تعلَّمتُ قدرًا عظيمًا من الأمور.

حينما كبرتُ قليلًا أحسستُ بالحاجةِ لوسيلةٍ ما لأجل أن أتواصلَ مع أولئك الذين حولي، وبدأتُ أصدرُ إشاراتٍ بسيطة كان يفهمها

بسهولةٍ والديَّ وأصدقائي، بيدَ أنِّي كثيرًا ما لا أكون قادرةً على التعبير عن أفكاري على نحوٍ مفهوم، وفي مثل تلك الأوقات، أُفسِحُ الطريقَ تمامًا أمام مشاعري السَّاخطة...

قضت معي معلِّمتي نحو أسبوعين تقريبًا، وقد تعلَّمتُ ثمانيَ عشرةَ كلمةً أو عشرين، قبلها لمعت في ذِهني فِكرة، بينما كانت الشمسُ تبزغُ على الجزء الغافي من العالم، وفي لحظة التنوير تلك، كُشِفَ لي سِرُّ اللغة، وفُزتُ بلمحةٍ خاطفة على الوطن الجميل الذي كنتُ على وشك أن أستكشِفَه.

كانت مُعلِّمتي تحاولُ طوال فترة الصَّباح أن تجعلني أفهم أنَّ الكوب واللبن الموجود في الكوب لهما اسمان مختلفان، لكنَّني كنتُ بليدةَ العقل، وواصلتُ تهجئة كلمة لبن إشارةً عن الكوب، وكلمة كوب إشارةً عن اللبن، حتَّى أنَّ معلِّمتي لا بُدَّ قد فقدت الأمل في جعلي أدركُ خطئي. وفي النهاية قامت من مكانها، أعطتني الكوب، وعبرنا من الباب قاصدين بيت مضخَّات الماء. كان ثمَّة شخصٌ يصبُّ الماء من المضخَّة، وبينما كان دَفقُ الماء البارد المنعِش يتدفَّق، جعلتني مُعلِّمتي أضعُ الكوب تحت الفوهة وتهجَّت لي "م-ا-ء". ماء!

تلك الكلمةُ أدهشت روحي، وقد استيقَظَت، تفيضُ بحيويَّة الصَّباح، ممتلِئةً بالبهجة وتغريدِ نشوان. كان ذِهني حتى ذلك اليوم مثل حُجرةٍ قد أُظلِمَت، في انتظار الكلمات كي تلِجَ وتُنيرَ القِنديل؛ والذي هو الفِكر...

في ذاك اليوم تعلَّمتُ كلماتٍ كثيرة. لا أتذكَّرُ ماذا كانت كلُّ تلك الكلمات، إلَّا أنِّي أعرفُ أنَّ من بينها كانت كلمات: أمِّي، أبي، أختي، مُعلِّمة. كان من الصعب أن يكون هناك طفلٌ أسعد منِّي كما كنتُ أنا في تلك الليلة حين أويتُ إلى فراشي، وتأمَّلتُ البهجة التي قد واتتني، ولأوَّل مرَّةٍ، كنتُ أتوق إلى مجيء يومٍ جديد.

استيقظتُ في الصَّباح التالي وقلبي عامرٌ بالفرح. كلُّ شيءٍ كنتُ ألمسهُ كان يبدو لي أنَّه ينبضُ بالحياة؛ ذلك لأنَّني كنتُ أرى كلَّ شيءٍ بعون البَصَرِ الجديد، البصر الغريب، البصر الجميل الذي قد وُهِبتُه. لم أعُد غاضبةً من بعد ذلك، فقد كنتُ أفهمُ ما كان يقولُه لي أصدقائي، وكنتُ مشغولةً جدًّا بتعلُّمِ الكثير من الأمور المدهشة. لم أبقَ ساكِنةً أبدًا خلال الأيَّام السعيدة الأولى من حُرِّيَّتي. كنتُ أمارسُ التهجئة على نحوٍ متواصل، وأمثِّلُ الكلمات بينما أتهجَّاها. كنتُ أجري، أثِب، أقفز وأتمايل، ليس مهمًّا أين تصادَفَ أن أكون. كلُّ شيءٍ كان يتبرعمُ ويُزهِر. كان زهر العسلَة يتدلَّى في أكاليلَ طويلَةٍ، شَذِيًّا على نحوٍ لذيذ، ولم تكن الورودُ فاتنةً أبدًا هكذا من قبل. مُعلِّمتي وأنا كُنَّا مقيمتين خارج أبواب البيت بدءًا من الصَّباح حتى الليل، وكنتُ أنعمُ أشدَّ ما يكون بالنور الذي كان منسيًّا، وآنستُ ضوءَ الشمس مجدَّدًا...

استيقظتُ في الصباح الذي تلا وصولنا مبكِّرًا وأنا مبتهجة. لقد انبلجَ فجرُ يومٍ صيفيٍّ جميل، يومٌ كان عليَّ فيه أن أتعرَّفَ إلى صديقٍ غامضٍ وحزين. صحوت، ارتديتُ ملابسي على عجَلٍ وهرعتُ نازلةً إلى الطابق الأسفل. قابلتُ معلمتي في طريقي إلى الصالة، وتوسَّلتُ إليها أن تأخذني إلى البحر في الحال. "لم يحِن الوقتُ بعد"، هكذا ردَّت عليَّ وهي تضحك. "لا بُدَّ أن نتناول الإفطار أوَّلًا". ما إن انتهينا من تناول الفطور حتى أسرعتُ إلى الشاطِئ. كان مسارُنا يقودنا عبر تلالٍ رمليَّةٍ منخفِضة، وبينما كُنَّا نحثُّ الخُطى، كانت قدمي تعلَقُ في العُشب الحَرَش، وزَلَلتُ ووقعت في الرِّمال الدافئة المتلألئة وأنا أضحك. كان الهواءُ الدَّافئ الحلو يعبقُ بأريجٍ مُميَّز، ولاحظتُ أنَّه يزدادُ برودةً ويصيرُ مُنعِشًا أكثر بينما كُنَّا نمضي.

وفجأةً توقَّفنا، وأدركتُ، دون أن يُخبرني أحد، أنَّ البحر كان من تحت قدميَّ. لقد أدركتُ كذلك أنَّه.. شاسِع! مَهيب! ولوهلة، بدا أنَّ بعضًا من ضوء الشَّمس قد بارَحَ النَّهار. لكن لا أظنُّ أنِّي كنتُ خائفة،

حيث أنَّني، فيما بعد، عندما ارتديتُ بدلة السِّباحة، والأمواجُ الصغيرةُ ترتفعُ فوق صفحة الشاطئ، وتَلثِمُ قَدَمَيَّ، صِحتُ من البهجة، وألقيتُ بنفسي دونما خوفٍ وسط زبَدِ البحر. لكن، لسوء الحظ، ارتطمَت قدمي بصخرةٍ، وسقطتُ إلى الأمام في الماء البارد.

ثمَّ استحوذَ عليَّ شعورٌ غريبٌ مخيفٌ بالخطَر، شعورٌ أخافَني. كان الماءُ المالِحُ يملأ عينيَّ، وكتمَ نفسي، ورفعَتني موجةٌ عظيمة وقد ألقَت بي على الشاطئ بيُسرٍ كما لو كنتُ قطعة حصاةٍ صغيرة من البلور الصخري. لعِدَّةِ أيَّامٍ بعد ذلك، ظللتُ فِزعةً جدًّا، وكاد أن يكون من العسير على الإطلاق إقناعي بالولوجِ إلى الماء، لكن عاودَتني شجاعتي شيئًا فشيئًا، وقبل أن ينتهي الصيف تقريبًا، كنت أرى أنَّ أعظمَ متعةٍ هي أن يُتلاطِمَ جسدي موجُ البحر...

* * *

لستُ أدري أيُّهما لافتٌ للنَّظر أكثر: هل الفرقُ أو التشابه في طريقة صياغة العبارات، بين صياغة الطِّفلة التي كانتها، أم صياغة المرأة التي صارَتْها. فالقِصَّةُ الأوَّليَّةُ أكثر بساطة، وتُظهرُ براعةً أقلَّ افتعالًا، وإن كانت الآنسة كِيلَر وقتئذٍ واعيةً مُسبَقًا بأسلوب الكتابة، لكنَّ البراعة التي تسِمُ السَّردَ اللاحق، كما في الفقرة التي تتحدَّثُ عن البحر، أو الفقرة التي تتحدَّثُ عن رَصِيعة هوميروس، هي يقينًا، تحقيقٌ للالتزام بالقصَّة الأولى. حدَث أن كاتَبها دكتور هولمز في تلك الأيَّام الأولى يقول: "إنَّني مسرورٌ بأسلوبِك في كتابة الخِطابات. فليس يعتوره حذلقة. وكما تنبعثُ تلك الخِطاباتُ مباشرةً من قلبك؛ فهي تصلُ مباشرةً إلى قلبي".

في تلك السنوات التي كانت تكبرُ مُبارِحةً عهد الطفولة، فقدَ أُسلوبُها بساطتَه الأوَّليَّة وصار أُسلوبًا جافًّا، أو كما تقول هي: "كشعرٍ مُستعار". في تلك السنوات، راود الخوفُ الآنسة ساليفان مرَّاتٍ كثيرة؛

كانـت تخـشى توقُّـفَ نجـاح الطِّفلـةِ عنـد حَـدٍّ مرحلـة الطفولـة. ففـي بعـض الأحيـان، كان يبـدو أنَّ الآنسـة كِيلَـر تعوِزُهـا المرونـة؛ فأفكارها كانت تتدفَّـقُ عـلى نَسَـقٍ عبـاراتٍ ثابتـة، وكان يبـدو ألَّا طاقـة بهـا لتنقيحهـا أو إعـادةِ النَّظـر فيهـا بأسـاليبَ جديـدة.

ثـمَّ حـان وقـتُ العمـل في الكليـة -حيـث يتطلَّـبُ الأمـرُ كتابـةَ مواضيـع مبتكَـرة، ذات أفـكارٍ جديـدة في الكتابـة الإنشـائية- أو عـلى الأقـل، طرائـق جديـدة توحـي بتلـك التصـوُّرات. بـدأت الآنسـة تُذلِّـلُ ودِّيًّـا مُحـدِّد المهامِّ خاصَّتهـا؛ العِبـارة. هـذا الكتـاب، وهـو تجربتهـا الناضجـة الأولى في الكتابـة، يحسـمُ قضيَّـة قُدرتهـا عـلى الكتابـة.

يتجـلَّى أسـلوبُ الكتـاب المقـدَّس في كلِّ موضـعٍ مـن كتابـات الآنسـة كِيلَـر، تمامًـا كـما هـو حـالُ أسـلوب مُعظِـم الكُتَّـاب الإنجليـز العِظـام. ستيـڤِـنسن، الـذي يـروق الآنسـة ساليـڤـان أن تقرأ مـن كتاباتِـه لتلميذتها واعتـادَت ذلـك، هـو أحـد المؤثِّـرات الأخـرى اللافتـة للنَّظـر عـلى أسـلوبها. ففـي سـيرتها الذَّاتيَّـة توجد اقتباسـاتٌ كثيرة، خصوصًـا من الكتـاب المقدَّس ومـن كلام ستيـڤِـنسن، إمَّـا مُتمايِـزة عـن السِّـياق أو مغزولـة فيـه، وهـو حقًّـا نسـيجٌ مـن تصميمهـا الخـاصِّ بالإجـمال. مخـزون مُفرداتهـا يحـوي عِبـاراتٍ شـائعة يسـتخدمها بقيـةُ النـاس، ويسـتلزمُ شرحهـا وتعليلهـا أن يكـون واضحًـا في تلـك الحالـة. ليـس هنـاك من سـببٍ يدعوها لأن تشـطبَ كلَّ الكلـمات المرتبطـة بالصَّـوت والرؤيـة مـن مفرداتِهـا. عنـد الكتابـة إلى الأشـخاص الآخريـن، في كثـيرٍ مـن الحـالات، يتعـيَّنُ عليهـا مـن بـاب أولى أن تكـون وفيَّـةً للواقِـع الخارجـيِّ أكـثر منـه لتجربتهـا الشـخصيَّة؛ لـذا فكلَّـما تَواصَـل اسـتخدامُها للكلـمات عـلى النحـو الصَّحيـح؛ فسـوفُ يُسـبَغُ عليهـا بحُظـوة اسـتخدامها بطلاقـة، ولـن يُتوقَّـع منهـا أن تُقيِّـدَ نفسـها بمفـرداتٍ توافـقُ عوزهـا للسَّـمع والإبصـار. بالنسـبة لأسـلوب هيلـين الكتـابي -كـما هـو قائـمٌ فيـما تكتـب عنـه- ينبغـي أن نمنـحَ لطابِـع الفنـان الـذي فيهـا مـا نُنكِـرُه عـلى طابـع كاتـبِ السـيرة الذاتيَّـة. يجـبُ أن ننـوّه أيضًـا بـأنَّ الفِعـل

ينظُر والفِعل يرى، يُستخدمان من جانب المكفوفين، والفعل يسمع يُستخدَمُ من جانب الصُّمِّ، عِوضًا عن الفِعل يُدرِك؛ فهي كلماتٌ بسيطة ومناسِبة على نحوٍ أفضل. وحده النَّاظِرُ بموضوعيَّةٍ في الأمر يستطيعُ التفكُّرَ في تشبُّث المكفوفين بالوعي الحِسِّي أو الوعي العقلي، حيث أنَّ استخدامَ فِعل الرؤية والسَّماع أيسرُ كثيرًا، وعلاوةً على ذلك، يستطيع أن يتبيَّنَ في كلام جميع البشر، مفهوم الإدراك العقلي، بالإضافةِ إلى الإدراك من طريق حاسَّة البَصر[1]. عندما تتفحَّصُ الآنسة كِيلَر تمثالًا، تقول بطريقتها العفويَّة، بينما أصابعُ يدها تتلمَّسُ التمثال الرُّخاميَّ: "إنَّها تُشبِه رأس فلورا".[2]

على الجانب الآخر، صحيح أنَّها في تشبيهاتِها المرسومة، من وجهةِ نظرٍ فنِّيَّة، هي الأفضل عندما تكون مُخلِصةً لأحاسيسها الذاتيَّة، وهذه بالضَّبط هي حقيقةُ كلِّ الفنَّانين.

تدرُّبُها مؤخَّرها علَّمها أن تتخلَّى عن قدرٍ كبيرٍ من تقليديَّتِها، وأن تكتبَ عن تجارب في حياتها تكون مُميَّزَةً بالنسبة لها، تجارب تكون، كما العاصفة التي تنزلُ بشجرة الكرزِ البريَّة؛ تعني لها الكثير، وتقتضي أصدق تعبير. إنَّها تتعلَّمُ أكثر وأكثر أن تتخلَّى عن الأسلوب الذي

---

(1) الإدراك الحِسيُّ: هو الاستجابات الكلية للمنبِّهات الحسِّيَّة الصادرة عن المثيرات الخارجية المختلفة، والتي يستقبلها الإنسان عن طريق الأعصاب الموجودة في الأعضاء الحسية. أمَّا الإدراك العقلي فهو إدراك المفاهيم، والمسلَّمات، والحقائق، والمعاني الكلية العامة، كمفاهيم الحياة والمنطق، وهو من أعمال العقل والدماغ. (المترجم)

(2) ربمَّا اشترك عاملان اثنان في ارتجال هذا التشبيه ذُكِر مَفادُهما آنفًا، الأول: هو غرامها بالورود، بالربيع، وبالطَّبيعة بوجهٍ عام، والثاني: هو غرامها بالأساطير اليونانية والرومانية، حيث فلورا هي إلهة الورد والربيع في الميثولوجيا الرومانيَّة. وهي مذكورةٌ في قصيدة لأوفيد بعنوان: تقويم الأيَّام الخمسة، نقلها إلى الإنجليزية جيمس فريزر، الأبيات (193-212): "لذا تحدَّثتُ، وهكذا أجابت الإلهةُ عن سؤالي، وبينما كانت تتحدَّث، كان ينبعثُ من بين شَفَتيها نفسٌ يعبقُ بورودٍ ربيعيَّة: (أنا التي أُسمَّى الآن فلورا، كنتُ أُدعى قَبلًا كلوراتس: فقد صُحِّفَ حرفٌ من اسمي باليونانية، حين نُقِلَ إلى اللاتينيَّة. كلوراتس كنتُ، حوريَّة الحقول الهانِئة أنا، والتي فيها، قديمًا، كما قد سمِعْتَ، كان يقطن المَغْبُوطون)". (المترجِم)

اسـتعارَته مـن الكتـب، والـذي كانـت تحـاولُ اسـتخدامه؛ لأنَّهـا أرادَت أن تكتـبَ مثـل الآخريـن، فلقـد أدرَكَـت أنَّهـا تكـون في أفضـل أحوالهـا، عندمـا "تشـعرُ" بالليالِـك وهـي تتمايـل، حـين تـترك الـورود تنضغـطُ في يديهـا، وتتحـدَّثُ عـن الحـرارة، التـي بالنسـبة إليهـا، هـي النـور.

تتضمَّـنُ السـيرةُ الذاتيَّـة للآنسـة كِيلَـر تقريبًـا كلَّ شيءٍ كانـت تنـوي دومًـا أن تنـشره. يبـدو لي أنَّـه مـن الجديـر بالاهتـمام رغـم ذلـك، أن نقتبِـسَ بعضًـا مـن شـذراتها الكِتابيَّـة العابـرة، والتـي لا هـي ذاتُ صِبغـةٍ رسـميَّةٍ كـما خِطاباتهـا، ولا مؤلَّفـةٌ برَويَّـةٍ كـما قِصـة حياتهـا. هـذه المقتطفـات مأخـوذة مـن تمريناتهـا في مـادة الإنشـاء، حيـث أثبتـت نفسـها في بدايـة حياتهـا بالكليَّـة دون منـازِعٍ بـين أقرانِهـا. قـال لي السـيد تشـارلز ت. كوپـلاند، أسـتاذ اللغـة الإنجليزيَّـة، والمحـاضِر في الأدب الإنجليـزي في هارڤـارد ورادكليـف: "لقـد أظهَـرَت في بعـض كتاباتهـا أنَّهـا تسـتطيعُ أن تكتـبَ أفضـلَ مـن أيِّ تلميـذٍ درَّسـتُه عـلى الإطـلاق، رجـلًا كان أو امـرأة. إنهـا تملـك (أُذنًـا) ممتـازة فيـما يتعلَّـقُ بانسـيابيَّة الجُمَـل".

وفيما يلي، المقتطفات:

"لقـد قُرِئَـت لي بعـضُ أبيـاتٍ مـن شِـعرِ عُمَـر الخيَّـام، وأشـعرُ كـما لـو أنِّي قـد قضيـتُ نصـفَ السَّـاعة الأخـيرةِ في حـضرةِ ضريـحٍ جليـل. نعـم، إنَّـه لَحْـدٌ، يرقُـدُ فيـه الأمـل، والبهجـة، وترقُـدُ فيـه اسـتطاعةُ الإنسـان إتيـانَ النَّبيـل مـن الأعـمال، وقـد وُوريَـت الـتُّراب. فـكلُّ توصيـفٍ بديـع، كلُّ فِكـرةٍ عميقـةٍ، تنسـابُ غـير مُكترِثـةً في ذاتِ الترنيمـةِ الكئيبـة، التـي تتغنَّـى بِقِـصَرِ العُمـرِ، وفنـاء كلِّ الحوائـج الأرضيَّـة وتفسُّـخها المتثاقِـل. إنَّ ذكريـات الشـاعر اللامعـة الهائمـة بالحُـب، بالشـباب، بالجـمال، ليسـت سـوى مشـاعِل جنائزيَّـة؛ تسـكبُ ضياءهـا عـلى قـبره، أو إن عدَّلـتُ التشـبيه بعـض الـشيء: إنهـا الـورودُ التـي تزهـرُ فوقَـه، تُـروى بمـاء دَمعـه، وتَطعَـمُ مـن قلبِـه النَّـازِف. وهنـاك مـن جانـب القـبر تجلـسُ رُوحٌ قلِقـة،

روحٌ لا ترضى بمباهِج الماضي ولا باحتمالات المستقبَل، إنَّما، تنشُدُ العزاءَ في النِّسيان. فعبثًا هي هُتافاتُ البحرِ المُلهِم بتلكَ الرُّوح الذَّاوية، عبثًا تكافِحُ السماواتُ عجزَها: فما زالت تثابرُ على النَّدم، وتنشدُ في السُّلوانِ ملاذًا من وخزاتِ الكرْب الآنيِّ. في أحيانٍ، تقبضُ على بعض أصداءَ واهِنَةٍ آتيَةٍ من العالم الحقيقيِّ، ذلك العالم الفرِح الذي ينبض بالحياة؛ إنه سَنا كمالٍ كما ينبغي أن يكون، وبينما هي فرِحة بخلاصِها من قنوطه، تشعر بقدرتها على استنباطِ تصوُّرٍ سامٍ، حتَّى من باطن الحاضِر البائِس، الحاضر المزري الملجوم الذي فيه تقبع، غير أنَّه، في لحظةٍ، يُبارِحُها الوحي، فتتلاشى الرؤيا، وتلك الروح الجليلة، المثقلة بالعذاب، تغشَّاها ظُلمةُ القنوط واللايقين مجدَّدًا.

مدهشٌ هو مقدار الزَّمنِ الذي يصرِفه الصَّالحون في مُجابَهَةِ الشَّيطان. لو أنَّهم فقط ينفقون المقدار نفسه من الطَّاقة في محبَّةِ إخوتِهم من البشر؛ لهلَكَ الشيطان في مسالِكه من الضَّجر.

لطالما كنتُ على قناعةٍ بأنَّ الأفكار الرائعة لتتسبَّب كثيرًا في إحراج معظم البشر، كما هو الحال عند التواجدِ صحبة رجالٍ عظماء. إنَّهم ليُعظِّمون إلى حَدٍّ بعيدٍ في الكُتبِ وفي أحاديثِ النَّاس على نحوٍ خليقٍ أكثر مِمَّا هو الحال عند تناولهم بالحديث في غرفةِ استقبال الضيوف، أو على طاولة الطَّعام. أنا لا أُشيرُ طبعًا إلى المشاعر الرقيقة، إنَّما إلى الحقائق الأسمى، التي ترتبطُ بكلِّ يومٍ من أيَّام الحياة. قليلون هم أولاء الذين أعرفهم، مِمَّن يبدو أنَّهم يتوقَّفون حتَّى ولو لوهلةٍ، كي يتأمَّلوا في عجبٍ شذرات الحقيقة الفاتنة التي قد حصَّلوها خلال سِنِي دراستهم. ففي الغالب، عندما أتحدَّثُ بحماسٍ عن شيءٍ ما يتعلَّقُ بالتاريخ أو بالشِّعر، لا ألقى استجابة، وأشعرُ أنَّه ينبغي عليَّ أن أغيِّرَ الموضوع، أو أعاودَ الحديث عن المواضيع الأكثر شيوعًا؛ كحالة الطَّقس، خياطة الملابس، الألعاب الرياضية، المرض، (الأحزان) و(الهموم). وحتَّى أكون على يقينٍ من هذا، أتناولُ بالحديثِ من

أيِّ أمرٍ أكثرَ موضوعٍ يثير حماسة واهتمام أولئك المحيطين بي، إنَّه الموضوع عينُه الذي يجعل من العسير عليَّ مواصلة محاورةٍ مع بعض النَّاس، الذين لن يتحدَّثوا ويقولوا ما يشغل تفكيرهم، غير أنَّني ينبغي ألَّا آسَفَ حين أجدُ المزيد من الأصدقاءِ على استعدادٍ للتكلُّمِ معي بين حينٍ وأُخرى عن الأشياء المدهشة التي أقرأُ أنا عنها. لسنا في حاجةٍ لأن يكون حالنا كما في (النِّساء العالِمات)((1))، إنمَّا يجدُرُ أن يكون في جَعْبَتِنا شيءٌ ما بوسعنا قوله، بشأن ما نتعلَّمه، تمامًا كما هو الحال فيما يلزمُنا فِعلُه، وبشأنِ ما يقولُه أساتذتنا الجامعيين أو كيف يقيِّمون أفكارنا.

تناولتُ الغداء اليوم مع فصل القادمين الجُدد إلى رادكليف. كانت تلك تجربتي الواقعيَّة الأولى في حياة الكُلِّيَّة، ويا لها من تجربةٍ مبهجةٍ كانت! فللمرَّة الأولى منذ دخولي إلى رادكليف، حظيتُ بالفرصة كي أعقِدَ صداقاتٍ مع جميع زملائي بالفصل، وبمعرفة أنَّهم يعتبرونني فردًا منهم غمرتني النشوة- عوضًا عن تفكيرهم فِيَّ على أنَّني أعيشُ مُنفصِلةً عنهم، وأنَّني ليس عندي أيُّ اهتمامٍ بالتُّرَّهات اليوميَّة التي تشغل حياتِهم، لأنَّني كنتُ أخشى أحيانًا أنهم كانوا يفكِّرون على هذا النَّحو. لطالما كنتُ أُدهَشُ لدى سماعي بهذا الرأي حين يُصرَّحُ به -أو بالأحرى حين يُلمَّحُ إليه- من قِبل فتياتٍ من مثل سِنِّي، وحتَّى من أشخاصٍ متقدِّمين في العُمر. كتب إليَّ أحدُهم ذات مرَّةٍ يقول بأنَّ الصورة الذهنية التي لديه عنِّي هي أنَّني "محبوبة ومُخلِصة"، مُرَكِّزًا تفكيره على ما هو جيِّد، وحصيف، ومثير للاهتمام فحسب- كما لو كان يعتقد بأنَّني واحدة من أولئك القِدِّيسين المضجِرين الذين يمتلِئُ العالم بالكثير منهم ويفيض! دائمًا ما أضحكُ من تلك التنويهات الحمقاء، وأؤكِّدُ لأصدقائي بأنَّه: يحسُنُ كثيرًا أن يكون عندك بضعة أخطاء، وأن تكون مستبشرًا ومتجاوبًا مع الآخرين رغم كلِّ أشكال

---

(1) مسرحية للأديب الفرنسي موليير. (المترجِم)

الحِرمـان، عـلى أن يعتـزلَ المـرءُ العالَـم في قوقعتِـه، يُدلّـلُ بلـواه، يُغلّفهـا بغـلافٍ مـن القَدَاسـة، ثـمَّ يُنصِّـبُ المـرءُ ذاتَـه كمَعْلَـمٍ عـلى الصَّـبر، عـلى الفضيلـة، عـلى الخـير وكلِّ تلـك الأشـياء المعتـبَرة، لكـن، حتَّـى وأنـا أضحـكُ مـن هـذا أشـعرُ بوخـز ألمٍ في قلبـي؛ لأنَّـه بالأحـرى يصعـبُ عـليَّ كـما يبـدو، أن يتصـوَّر أيُّ شـخصٍ بأنَّنـي لا أشـعرُ بـأواصِرِ الألفـة التـي تربطنـي بأخـواتي اليافعـات- حيـث أنَّ مشـاعر التعاطـف تلـك تنبـعُ مِـمَّا نتشـاركه معًـا؛ كالشـباب، والأمـل، وموقفنـا مـن الحيـاة التـي تواجهنـا، موقفنـا الـذي، نِصفُـه تَـوَّاقٌ، ونِصفُـه هَيَّـابٌ، وفـوق كلِّ شيء: امتيـاز البتوليَّـة.

يقـول سـانت بـوف(1): (سـيكون هنـاك عـصٌر، لـن يُسـتطاعُ فيـه كتابة المزيـد). كان ذاك هـو التلميـحَ الوحيـدَ الـذي قرأتـه باحتماليَّـة أنَّ مصـادر الأدب -المتعـدِّدة واللانهائيَّـة كـما تبـدو الآن- ربَّمـا يـأتي عليهـا يـومٌ وتكـون قـد استُنفدَت. يُدهشـني أن أتبـيَّن أنَّ فكـرةً كهـذه قـد مـرَّت عـلى بـال إنسـان، خاصَّـةً عـلى عقـل ناقـدٍ موهـوبٍ مـن طـرازٍ رفيـع. فالحقيقـةُ الخالِصـة بـأنَّ القـرن التاسـع عـشر لم يُنتِـج عـددًا مـن الكُتَّـاب، يمكـن للعـالم أن يضمَّهـم إلى عِـداد الكُتَّـاب الأعظـم عـلى مَـرِّ العصـور، لا تـبرِّرُ في رأيـي الملاحظـة التـي تفيـد (بأنَّـه سـيأتي عـلى النَّـاس زمـانٌ يكـفُّ النَّـاسُ فيـه عـن الكتابـة).

أوَّلًا: إنَّ ينابيـعَ الأدب تُغـذَّى مـن عالَمَـين رَحبَـيْن: عالَـم الفِعـل، وعالَـم الفِكـر، بتنـاوُبٍ بـين عمليـات الإبـداع في واحـدٍ والتبـدُّلات في العالَـم الآخـر. فالتَّجـارب والحـوادِثُ الجديـدةُ تلِـدُ أفـكارًا جديـدة، وتسـتحِثُّ البـشَر كي يطرحـوا أسـئلةً لم يُفكِّـروا مـن قبـل فيهـا، ويلتمسـوا في أعـماق المعرفـة الإنسـانيَّة إجابـاتٍ قاطِعـةً.

---

(1) كاتـب وناقـد فرنـسي، درس البلاغـة والفلسـفة. ارتبـط بصداقـةٍ مـع ڤـولتير. والاقتبـاس الآتي مكتـوب في الأصـل بالفرنسـيَّة. (المترجـم)

ثانيًـا: لـو صحيـحٌ أنَّـه لا بُـدَّ مـن مـرور قـرونٍ قبـل أن يبلُـغَ العالَـمُ مرحلـةَ الكـمال، كـما مـرَّت قبـل أن يصـيرِ مـا هـو عليـه اليـوم، فـإنَّ الأدبَ يقينًـا سـينالهُ مـن الـثراء بفعـل التغـيُّرات والـمُكتَسَبات والتطـوُّرات الهائلة التـي لـن يتعـذَّر حدوثهـا في المسـتقبل البعيـد. إنْ ظلَّـت العبقريَّـةُ خامِـدةً طـوال قَـرنٍ مـن الزمـان، فليـس معنـى ذلـك أنَّـه لا نفـع يُرتَجـى منهـا. على العَكـس؛ فقـد ظلَّـت تُراكِـمُ مـوادَّ خـامٍ نقيَّـةً، ليسـت مجمَّعـةً فقـط مـن المـاضي السَّـحيق، إنَّـما كذلـك مـن عصـور التقـدُّم والتطـوُّر، وربَّـما سـوف يشـهدُ القـرنُ الجديـدِ فَـوَرات العظَمَـة في جميـع أفـرُع الأدب المتعـدِّدة. إنَّ العـالم في الوقـت الحـالي يمـرُّ بثـورةٍ شـاملة، وفي خِضـمِّ الأنظمـة والإمبراطوريَّـات المتهاويـة، والنظريـات والعقائـد المتصارِعـة، والاكتشـافات والاختراعـات، فإنَّهـا لمعجـزة أن يسـتطيع أحدهـم إنتـاج أيِّ أدبٍ عظيـم يكـون ذا أثـرٍ عـلى الجميـع. فهـذا هـو عـصر العُـمَّال، لا المفكِّريـن. إنَّ أُنشـودة اليـوم هـي:

دعِ الماضي الفاني يَدْفِنْ موتاه،

اشتَغِل وانتَفِع بالحاضِر القائم؛

ففُؤادُكَ بين جَنبَيك كائِنٌ، والله من فوقِك موجود.

بعـد مـرورٍ وقـتٍ قصـير فيـما بعـد، بعـد أن تكـون حُمَّـى الإنجـازات واندفاعهـا قـد هـدأت، يمكننـا الـشروعُ في انتظـار ظهـور بـشرٍ عظـماء، يحتفـون بمآثِـر وانتصـارات القُـرون القليلـة الأخـيرة، عـبر شِـعرٍ ونَـثرٍ مجيديـن.

أن يراقـب المـرء نَبتـةً تنمـو لهـو أمـرٌ مثـير كثـيرًا للتأمُّـل؛ إنَّـه يُشـبه المشـاركةَ في فِعـل الخَلـق. فعندمـا يصـيرُ كلُّ مـا بالخـارج بـاردًا ومكسـوًّا بالبيـاض، حيـث يكـون أطفـال الغـاب الصِّغـار قـد ذهبـوا إلى حضاناتهـم في باطـن الأرض الدافئـة، والأعشـاشُ الخاويـةُ فـوق الأشـجار تمتلِـئُ بالجليـد، تتألَّـقُ نافـذتي عـلى الحديقـة وتبتسِـم، جاعلـةً الجـوَّ صيفًـا في الداخـل،

بينما بالخارج هو شِتاء. كم هو مدهشٌ رؤيةُ الزهور تتفتَّحُ وهي وسط عاصفةٍ جليديَّةٍ! لقد تحسَّستُ بُرعمةً تخلعُ على استحياءٍ قلنسوتها الخضراء، وتتفتَّحُ في انبثاقٍ ناعم، بينما الأصابع الثلجيَّةُ للجليد تنقُرُ ألواح النافذة الزجاجيَّة. إنِّي لأتساءلُ في عجَب: أيُّ قوًى خفيَّة تلك التي تُحدِثُ معجزة تفتُّح الزهور هذه؟ أيُّ قوى غامضة تهدي الفسيلةَ للخروج من ظلمة الأرضِ عاليًا نحو النُّور، عبر ورقةٍ وساقٍ وبُرعمٍ، حتَّى اكتمال الإنجازِ الجليل ببزوغ زهرةٍ كاملة؟ مَن كان باستطاعته أن يحلم بأنَّ جمالًا كهذا المتواري داخل باطن الأرض المظلمة، كان كامنًا في تلك البذرة الدقيقة التي نغرِس؟ أيَّتها الزهور البهيَّة، لقد علَّمتِني أن أتبيَّن سبيلًا صغيرةً تؤدِّي إلى القلب الخبيء في الأشياء. إنَّني أُدرِكُ الآن أنَّ الظُّلمةَ أينما وُجِدَت، فلعلَّها تحملُ في طيَّاتِها من الممكنات ما يفوقُ آمالي.

ترجمة بتصرُّف من شعر هوراس

الكتاب الثاني، البيت 18.

إنَّني لستُ واحدًا من أولئك الذين يتعطَّفُ عليهم الحظُّ ويبتسِم. فمَأواي ليس يتلألأ بالعاج ولا بالذَّهب، ولا هو مُزخرفٌ بأقواسٍ من المرمر التي تستكينُ على عُمُدٍ بهيَّة الجمال قد أُتِيَ بها من محاجر أفريقيا النَّائية. لا أملكُ من الغزَّالين المقتصدين مَن ينسِجُ لي حُللًا من البنفسج. ولم تَؤُلْ إليَّ تركةٌ بممالِكَ كان يحكمها أمير، ولا حظيتُ بسُلطانٍ أو بألقاب، إنَّما أحتكمُ على شيءٍ تنساقُ إليه الرغباتُ أكثر من جميع الكنوز على وجه البسيطة- ألا وهو: محبَّةُ أقراني، وسُمعةٌ مُشرِّفَةٌ، نِلتُها بكَدِّي واجتهادي. وإنِّي رغم فقري، فقد فُزتُ بحظوة وجودي صحبة الغني القدير. إنَّني ممتنٌّ أعظَمَ ما يكون على جميع

تلـك النِّعـم، وإنِّي لبهـا مُسـتكفٍ عـن سـؤال الأمـراء أو الآلهـةِ المزيـد. إنَّ مزرعتـي الصغـيرة سـابين هـي قُـرَّةُ عينـي، أقـضي فيهـا هـا هُنـا أسـعدَ أيَّامـي؛ فهـي نائيـةٌ عـن الضجيـج والخصومـات الدائـرة في هـذا العـالم.

أيـا مَـن تحيـا غارِقًـا في الـتَّرَف، تكـدُّ في البحـث عـن قطـع المرمـر كي تبنـي بهـا دُورًا جديـدة، تفـوق تلـك القديمـةَ في فخامتهـا، ولم يخطـر عليـك بأحلامـك مُطلقًـا أنَّ ظـلال الـردَى تتسـكَّعُ فـوق ردهـات قصـورك. إنَّـكَ تُـرسي أُسسـها، متناسـيًا القـبر. وفي سـعيكَ المجنـون إلى المتعـةِ تسـلبُ البحرَ شـاطِئَه، وتسـتبيحُ الأرض المقدَّسـة. ومـن خُبثِـك ترتكـبُ مـن الفظائـع أكـثر، فتُغـير عـلى البيـوت المسـالمة لموكِّليـكَ ولهـا تضعضِـع! ودون أدنى حِـسٍّ مـن تأنيـب الضَّمـير تُهَجِّـرُ الأبَ عـن أرضِـه، فيرحـل وهـو يحتضـنُ أهـلَ بيتِـه وأطفالَـه شِـبْهَ العرايـا إلى صـدره.

وتنـسى أنَّ المـوتَ يـأتي الغنـيَّ كـما يـأتي الفقـير، ويأتينـا جميعًـا في العُمـر مـرَّةً، لكـن، ألَا فلتتذكَّـرْ: لم يحـدث أن رُشِيَ أخـيرون بالذَّهـب حتَّـى ينقـل بروميثيـوس الماكِـر عـلى ظهـر قـارِب، عائـدًا بـه إلى العـالم الـذي تُنيره الشـمس. وكـذا تانتاليـوس، الـذي كان كـما هـو، متسـاميًا عـن جميـع الحوائـج المحكومـة بالفنـاء؛ فقـد نـزل إلى مملكـةِ المـوتى، وأبـدًا لم يعُـد. وكذلـك فلتتذكَّـر: رغـم أنَّ المـوت لا يرحـم، فإنَّـه مُقسِـط؛ فهـو يجـزي الأغنيـاء بطلاحِهـم، ويهـبُ للفقـراء مـن كَربِهـم ونَصَبِهـم راحـةً سَرمديَّـةً.

****

آه! يـا لتلـك المقالـب والألاعيـب التـي تمارسـها علينـا نِكسـيَّاتُ[1] أرض الأحـلام ونحـن نائمـون! إنَّـه ليُخيَّـلُ إليَّ أنَّ تلـك الكائنـات إنمـا هُـنَّ بمثابـة (المهرِّجـين في بـلاط السـماء). وبـين حـينٍ وأخـرى يتَّخِـذن أشـكال الأفـكار التـي تأتينـي في النهـار كي يهـزأن بي، يـسِرن في تبختُرٍ عـلى مِنصـة النـوم

(1) الأرواح، أو الحوريات اللاتي يسكُنَّ في الماء والأنهار. (المترجم)

"كأنَّهـنَّ عـذراواتٌ جاهـلات، يكتفـين بـأن يشـغلن أيديهُـنَّ بحمـل دفاتـر قـد أُحسِـن تشـذيبُ حوافِّهـا، عِـوض أن يحملـن مصابيـح خاويـة"[1]. في أحايـينَ أخـرى، يختبرننـي ويمعـنَّ في امتحـاني في كل المـواد الدراسـية التـي درسـتها، ويطرحـن علـيَّ أسـئلةً عـلى نحـوٍ متواصـل، أسـئلة تسـهل الإجابـة عليهـا، كهـذا: (مـا هـو اسـم الفـأر الأول، الـذي قَـضَّ مضجـع فـرس النهـر، مرزبـان كيمـبردج، التَّابـع لأسـتياجيس[2]، جَـدِّ قـورش الكبـير[3]؟)، فأنتبـه مـن نومـي وأنـا أنتفـض مصعوقـة مـن الرعـب، والكلـمات مـا تـزال تـرنُّ وتـتردَّد في أُذنيَّ، (أعطينـا إمَّـا إجابـةً وإمَّـا حياتَـك!).

مثـل تلـك الأُخيلـة المشـوَّهة هـي مـا يحـوم في سـماء عقـل امـرئٍ يـدرس في الكُليَّـة، ويحيـا كـما أحيـا؛ وسـط محيـطٍ مـن الأفـكار، مـن المفاهيـم وشـذرات الأفـكار، وأشـباه المشـاعر التـي تنتفـضُ وتتصـادم مـع بعضهـا البعـض، حتـى يُصـاب المـرء تقريبًـا بالجنـون. نـادرًا مـا راودتنـي أحـلامٌ لا تكـون عـلى صِلَـةٍ بمـا أفكـر فيـه وأشـعر بـه عـلى وجـه الحقيقـة، لكـن ذات ليلـة، بـدا أنَّ طبيعتـي المجـرَّدة قـد تبدَّلَـت، وقـد وقفـتُ مواجِهـةً العالَـمَ كإنسـانٍ قديـرٍ مرعـب. إنننـي بفِطـرتي مُحِبَّـةٌ للسـلام وأبغـضُ الحـربَ وأكـره كلَّ مـا يتَّصـل بالحـرب، ولا أرى شـيئًا يدعـو إلى الإعجـاب في مهنـة ناپـوليون التـي لا رحمـة فيهـا، وُقينـا شَرَّ خاتمِتِـه. وعـلى الرغـم مـن ذلـك، حـدث في ذلـك الحلـم أن.. أن تلبَّثتنـي روح ذَبَّـاحِ البشـر هـذا؛ ذلـك الـذي ليـس في قلبـه رحمـة! لـن أنـسَى أبـدًا كيـف كانـت ضراوة

(1) مـن الواضـح أنهـا مـن بـين "الأُخيلـة المشـوّهة"، تتداخـل فيهـا قصـة العـذارى العـشر، مـن إنجيـل متّـى (25 - 13:1)، خمـسٌ منهـنّ حكيـمات؛ أخـذن زيتًـا لمصابيحـنّ في آنيتهـنّ، تحسُّـبًا لتأخُّـر العريـس، أمّـا الخمـس الجاهـلات فلـم يحتَطـن لهـذا الاحتـمال، فبعـد أن نفـذ زيـت مصابيحـنّ، ذهـبن ليبتعـن المزيـد، حينئـذٍ وصـل العريـس، " وَالْمُسْـتَعِدَّاتُ دَخَلْـنَ مَعَـهُ إِلَى الْعُـرْسِ، وَأُغْلِـقَ الْبَـابُ". (المترجـم)

(2) أسـتياجيس: آخـر ملـوك الإمبراطوريـة الميديـة (الميديُّـون: جماعـة اسـتوطنوا جبـال زاجـروس)، وخلفـه الملـك قـورش الأكـبر ملـك فـارس. (المترجـم)

(3) قورش الكبير: أول ملوك دولة فارس 560-529 ق. م. (المترجم)

الحـرب تتدفّـق في عروقـي، وقـد خُيِّـلَ إليَّ أنَّ نبـضَ قلبـي الهائـج سـوف يوقِـف نَفَـسي مـن فـرط تسـارُعه. امتطيتُ فرسًـا محمومًـا- باسـتطاعتي أن أشـعرَ باصطـدام رأسـه بي وهـو نافـد الصبر، وبالرعشـة التـي كانـت تـسري بجسـده لـدى أول هديـرِ مدفـع.

ومـن فـوق ذروةِ التـلّ، حيـث كنـتُ أقـف، رأيـتُ جيـشي يصطخـب، منتـشرًا فـوق سـهلٍ مشـمس، ويمـورُ كأمـواج متكـسرة غاضبـة، وبينـما هـم سـائرون، كنـتُ أُطالـعُ الأخـضر مـن الحقـول، كأنها أغـوارٌ في قلـب موجـاتٍ مـن الدخـان، وبـوقٌ يعـزف وبـوقٌ يـرُدُّ، عـلى إيقـاع ضرب الطبـول المنتظـم، يتزامـن صوتهـا مـع رتـم الحشـود الزّاحفـة. نخسـتُ جَـوادي اللاهـث وأنـا ألـوِّحُ بسـيفي عاليًـا وأنـا أصيـح: (أنـا قادمـة! انظـروا أيهـا المقاتلـون، إنهـا أوروبـا!)، وغُصـتُ وسـط أمـواج الحشـود المقبِلـة كـما يُلقـي غـوَّاصٌ عتيـد بنفسـه وسـط موجـة متكـسِّرة، وعجبًـا! فقـد تبيَّنـتُ أنَّ السـيف في الحقيقـة، كان عمـود السريـر!

أنـا الآن نـادرًا مـا أنـام دون أن أحلـم، غـير أنـه قبـل أن تأتينـي الآنسـة ساليـڤـان، كنـت قليـلًا مـا أحلـم، وكانـت الأحـلام تواتينـي عـلى فـتراتٍ متباعـدة، مُجـرَّدةً مـن المنطـق ومـن الترابـط- إلَّا مـن تلـك الأحـلام التـي تكـون ذات طبيعـة حِسِّـيَّة عـلى نحـوٍ جَـلِيٍّ. في أحلامـي، كان هنـاك دومًـا شيء مـا يهـوي، ثقيـلًا وعـلى حـين غِـرَّة، ويبـدو أنَّ مُرَبِّيتـي في تلـك الأحـلام كانـت تعاقبنـي عـلى سـلوكي الفَـظِّ معهـا في نهـار اليـوم، وتـردُّ لي ركلاتي لهـا وقرصـاتي، وتكيـلُ لي كـما يكيـلُ مُـرابٍ. كنـتُ لأفيـق مـن نومـي، وأنـا أُسرِعُ وأُناضـلُ كي أفـرَّ مـن جَـلَّادي. لقـد كنـتُ جِـدَّ مُتيَّمـةٍ بفاكهـة المـوز، وذات ليلـة، حلمـتُ بأنَّنـي قـد وقعـتُ عـلى فـرعٍ طويـلٍ مـن المـوز، موجـود في غرفـة الطعـام، بجانـب الصُّـوان، جميـع حبَّـات المـوز كانـت مُقشَّرةً، وناضجـةً تجعـلُ اللُّعـابَ يسـيل، وكلُّ مـا كان عـليَّ فعلـه، هـو أن أقـفَ أسـفل الفـرع، وأطعَـمَ منـه قـدرَ مـا أسـتطيع.

بعد أن أتتني الآنسة ساليڤان، صار الأمر كلما تعلَّمتُ المزيد، كلَّما زاد حدوث الأحلام، غير أنه أثناء يقظتي الذهنية، كانت تطاردني خيالاتٌ كئيبة وأهوالٌ غامضة، كانت تقضُّ مضجعي وتؤرِّقني لوقتٍ طويل. كنتُ أخشى الظُّلمة وتستهويني النارُ الموقَدَة. إنَّ لمستها الدافئة لشبيهةٌ بتربيتةٍ حانيةٍ من بَشَريٍّ، لقد كنتُ أحسبُ فعلًا أنَّها كائنٌ يملكُ إحساسًا، قادرٌ على أن يُحبَّني ويحميني. ذاتَ ليلةٍ شتويَّةٍ باردة، كنتُ وحدي في الحجرة، وكانت الآنسة ساليڤان قد أطفأت النور ومضَت، وهي تظنُّ أنني فيما يبدو قد رُحتُ في النوم. وفجأةً شعرتُ بسريري يهتزُّ، وتراءى لي ذئبٌ وقد قفز عليَّ وزمجرَ في وجهي. لقد كان مَحْضَ حُلْمٍ، بَيْدَ أنَّني كنتُ أظنُّه حقيقة، وقد سقط قلبي في قدمي من الفزع. لم أجرؤ على الصُّراخ، ولم أكن أجرؤ على البقاء في السرير. ربما كانت تلك الخيالات هي ذكريات مُشوَّشة أعاد ذهني تركيبها، عن قصة "ذات الرداء الأحمر" التي سمعتُ بها منذ وقتٍ ليس ببعيد. على كل حال، انسللتُ فارَّةً من السرير وآويتُ قُربَ النَّار التي لم تتصاعد ألسنتُها بعد. في اللحظة التي استشعرتُ فيها دِفئها سكَنَت نفسي واطمأنَّت، وجلستُ لوقتٍ طويل، أُراقبُها وهي تصَّاعد أعلى فأعلى صانعةً أمواجًا متوهِّجة. وفي النهاية، باغتني النوم. وحين عادت الآنسة ساليڤان وجدتني ملفوفة ببطانية بجانب المدفأة.

حين أحلم، تمرُّ الأفكار بعقلي في الغالب كأنَّها أشباحٌ مُقَلْنَسَة، صامتةً ونائية، ومن ثَمَّ تتلاشى. ربَّما هي عفاريتُ الأفكار عينُها التي كانت تردعُ عقل أحد الأسلاف ذاتَ مرَّةٍ. في أحيانٍ أُخرى، تلك الأشياء التي قد تعلَّمتُها والأشياء التي عُلِّمتُها تسقطُ مني، كما تذِرُّ العظاءةُ جلدها، وعندها، أُعاينُ روحي كما ينظرُ إليها الله. مرَّت بي كذلك الكثير من اللحظات الفاتنة والنادرة، كنتُ أستطيع فيها أن أرى وأن أسمع وأنا في أرض الأحلام. ماذا لو حدث في ساعات صَحوي، أن.. رنَّ صوتٌ خلال قاعات السَّمع الصامتة تلك؟ ماذا لو.. برقَ شعاعٌ من

النـور في أرجـاء تلـك الحجـرات المظلمـة مـن روحـي؟ (مـاذا لـو.. حـدث)، إنَّنـي لأسـأل نفـسي عــن ذاك الكثـير والكثـير مــن المـرات. هــل الجهــد الواقـع عـلى وَتَـرِ الحيـاة ساعتها سـيجعل القـوسَ.. ينطـلِق؟ هـل القلـبُ المغمـورُ بالغِبطـة المفاجئـة سـيتوقَّفُ عــن النَّبـض، مـن فـرط السـعادة الغامـرة؟".

مكتبة
t.me/soramnqraa

ملحق الصور

أيَّتها الزهور البهيَّة، لقد علَّمتِني أن أتبيَّن سبيلًا صغيرةً تؤدِّي إلى القلب الخبيء في الأشياء.

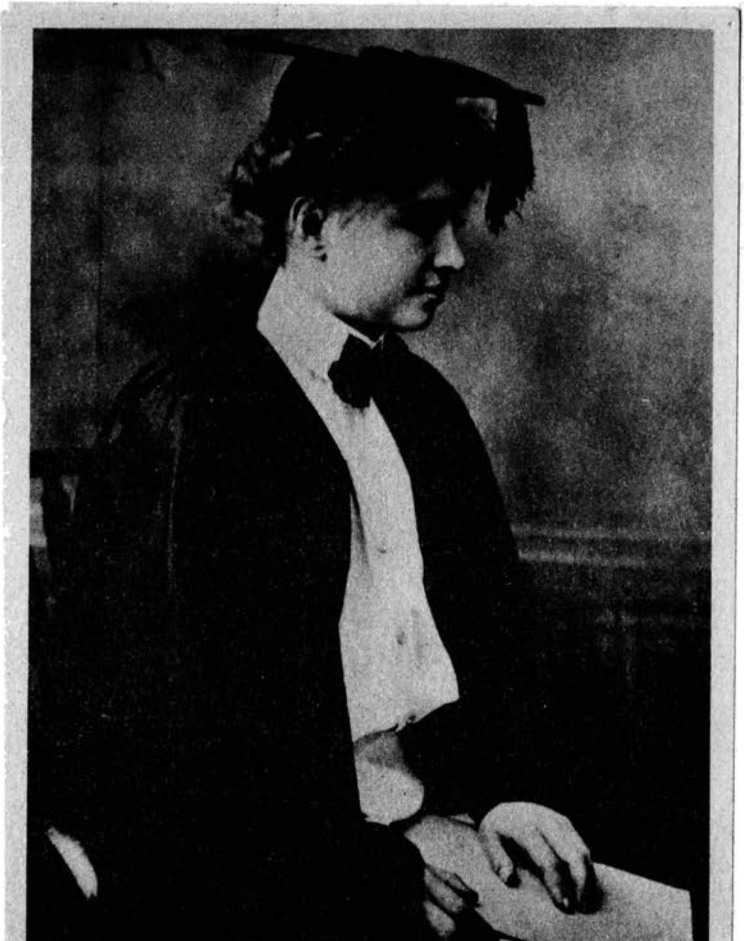

الكلية ليست هي أثينا الكونيَّة كما ظننتُ أنها كذلك.

لولا عبقريَّةَ الآنسة ساليـڤـان، وإخلاصها ومثابرتها التي لا تكِلُّ؛ ما كنتُ أحرزتُ تقدُّمًا، وصولًا إلى التحدُّث بشكلٍ طبيعيٍّ بقدر ما فعلتُه.

روحي لتبتهج لرباطة جأش ڤـينوس وبتلمُّس تضاريس جسدها السَّخيَّة.

عندما شُفيتُ وعدتُ إلى سَجِيَّتيَ البشرية، كبُرَت كلٌّ مِنَّا؛ أنا وميلدريد، في قلب الأخرى، حيث كُنَّا نذهبُ في سعادةٍ يدًا بِيَدٍ أينما تقودنا نزوتنا.

أنا أحبُ مارك توين- ومَن ليس يحبُّه؟ إنَّ الآلهة هي الأخرى تحبُّه، ولقد وَضَعَت في قلبه كلَّ صنوف الحكمة.

بيلّي؛ كلبتُنا، حاولتُ جاهدةً أن أُعلِّمها لغتي؛ لغة الإشارة، لكنَّها كانت بليدةً وغير مستجيبة.

هيلين وأليكسندر جرهام بل

أيُّ قوى غامضة تهدي الفسيلةَ للخروج من ظلمة الأرضِ عاليًا نحو النُّور،
عبر ورقةٍ وساقٍ وبُرعمٍ، حتَّى اكتمال الإنجازِ الجليل ببزوغ زهرةٍ كاملة؟

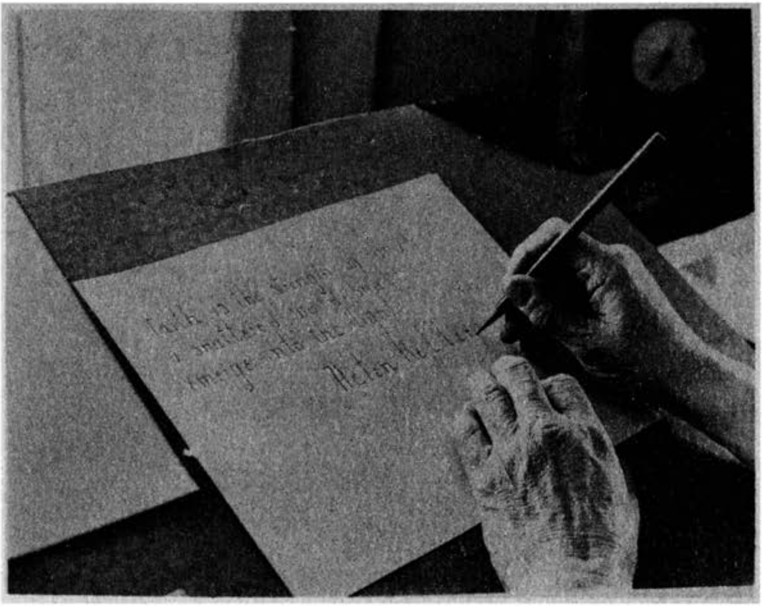

كنتُ أشعرُ بإحساسٍ من البهجة في عملية الإنشاء والتأليف. كانت الكلماتُ والتشبيهاتُ تأتيني وهي تمشي بخِفَّةٍ إلى أطراف أصابع يديَّ.

هيلين مع طه حسين

أيدي هؤلاء الذين ألتقيهم تكون فصيحةً الإبانةِ على نحوٍ صامت. هناك آخرون تنبعث من أيديهم أشعَّةٌ شمسيَّة؛ لهذا فقبضتُهم تُدَفِّئُ قَلبي.

لديَّ الكثير من الأصدقاء الأشجار في رينتهام. شجرةٌ منها؛ شجرة سنديان جليلة، عزيزةٌ على قلبي على وجه الخصوص. إنَّني آخذ جميع أصدقائي الآخرين وأُريهم تلك الشجرة الملكة.

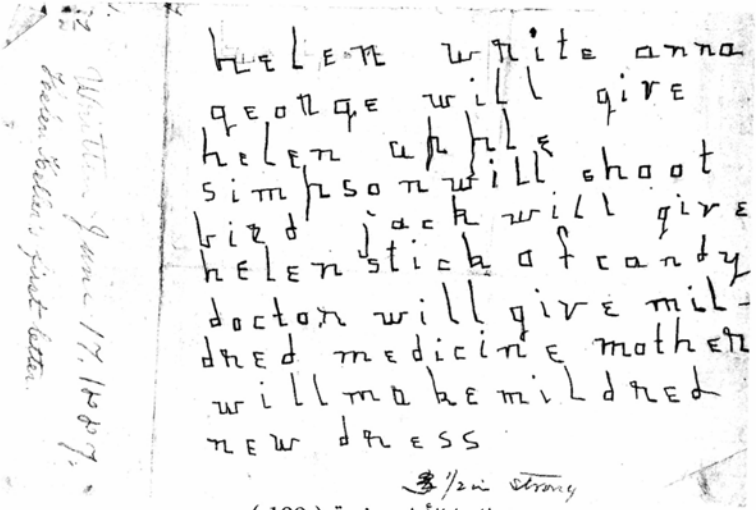

helen write anna
george will give
helen apple
simpson will shoot
bird jack will give
helen stick of candy
doctor will give mil-
dred medicine mother
will make mildred
new dress

Written June 17, 1887.
Helen Keller's first letter.

خطابها الأول صفحة (199)

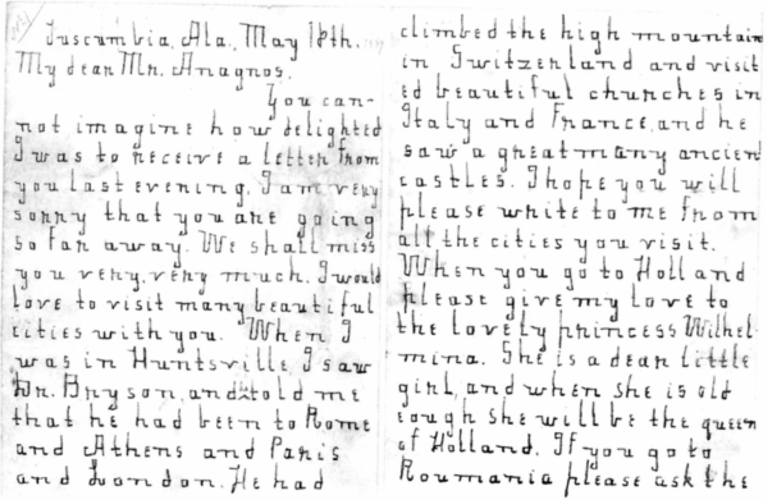

Tuscumbia, Ala., May 18th.
My dear Mr. Anagnos.

You cannot imagine how delighted I was to receive a letter from you last evening. I am very sorry that you are going so far away. We shall miss you very, very much. I would love to visit many beautiful cities with you. When I was in Huntsville I saw Mr. Bryson, and he told me that he had been to Rome and Athens and Paris and London. He had climbed the high mountain in Switzerland and visited beautiful churches in Italy and France, and he saw a great many ancient castles. I hope you will please write to me from all the cities you visit. When you go to Holland please give my love to the lovely princess Wilhelmina. She is a dear little girl, and when she is old enough she will be the queen of Holland. If you go to Roumania please ask the

our pictures taken while we were in Huntsville. I will send you one. The roses have been beautiful. mother has a great many fine roses The La France and the Lamarque are the most fragrant but the Marechal Neil, Solfaterre, Jacqueminot, Niphetos, Etoile De Lyon, Papa Gontier, Gabrielle Drevet and the Perle Des Jardines are all lovely roses. Please give the little boys and girls

every day and I love dearly in my heart you come home fro[m] ... pe I hope you will well and very hap[py] get home again. Do[n't] forget to give my lo[ve] Miss Calliope Kehar[] Mr. Francis Demetrios ... pothakes.

Lovingly your friend,

Helen Adams

good queen Elizabeth about her little invalid brother and tell her that I am very sorry that her darling little girl died. I should like to send a kiss to Vittorio, the little Prince of Naples, but teacher says, she is afraid you will not remember so many messages. When I am thirteen years old I shall visit them all myself. I thank you very much for the beautiful story about Lord Fauntleroy and so does teacher. I am so glad that

Eva is coming to stay with me this summer. We will have fine times together. Give Howard my love and tell him to answer my letter. Thursday we had a picnic. It was very pleasant out in the shady woods and we all enjoyed the picnic very much. Mildred is out in the yard playing and mother is picking the delicious strawberries. Father and uncle Frank are down town. Simpson is coming

أصدقائي الكلاب يبدو أنَّهم يتفهَّمون مظاهر إعاقتي، ودائمًا ما يظلُّون بقُربي عندما أكون وحيدة.

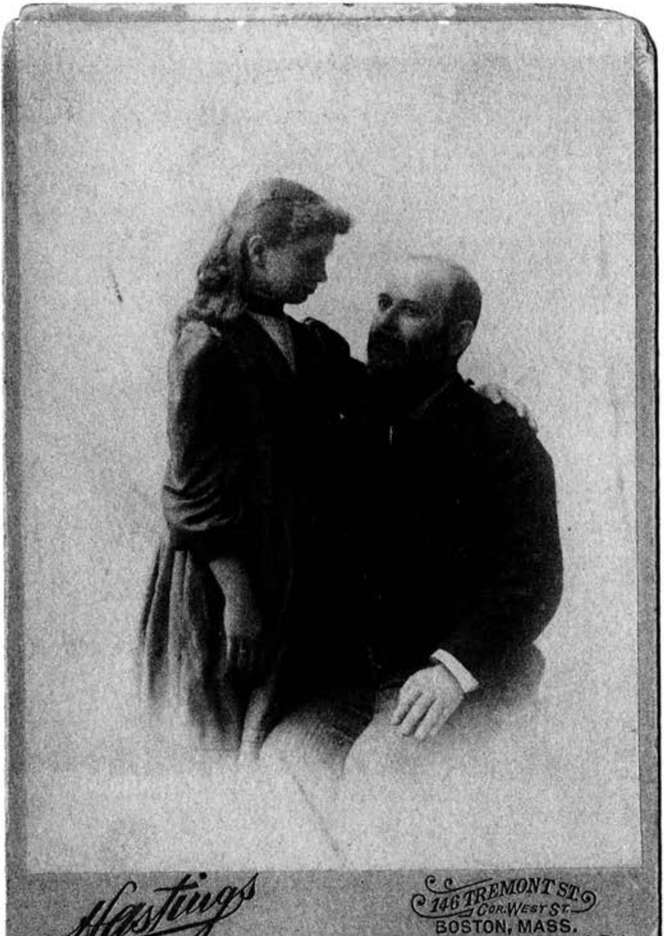

هيلين ومايكل أناجنوس

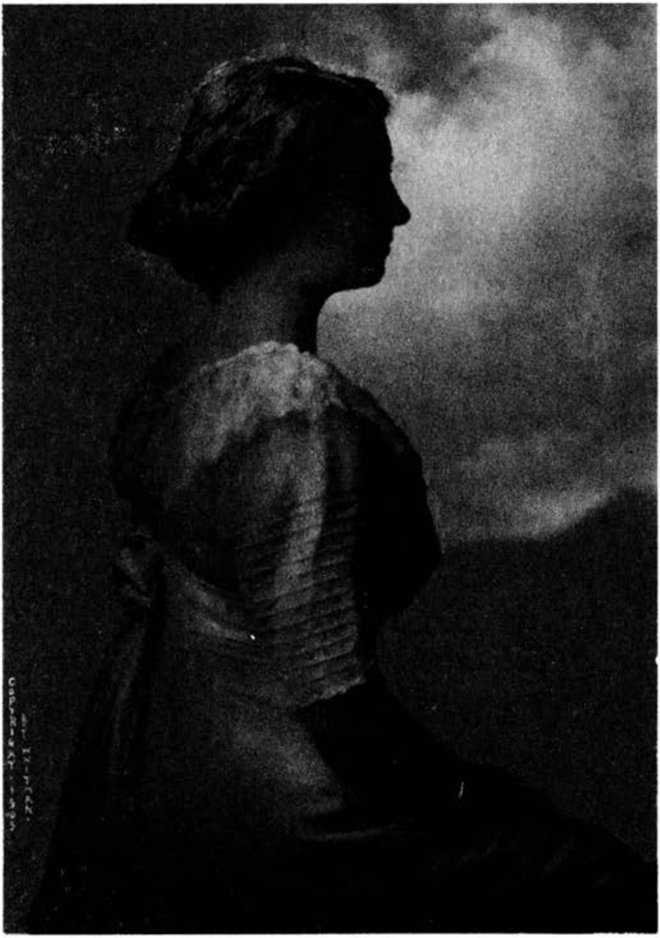

إنَّني أُدركُ الآن أنَّ الظُّلمةَ أينما وُجِدَت، فلعلَّها تحملُ في طيَّاتِها من الممكنات ما يفوقُ آمالي.

أكثرُ وقتٍ يُدركُ فيه أحد أصدقاء الآنسة كِيلَر أنَّها مكفوفةُ البصر بشكلٍ بَيِّن، يحدث حين يأتيها على حين غرَّةٍ وهي تجلس في الظَّلام، ويسمعُ حفيفَ أصابعها وهي تمرُّ فوق الصَّفحات.

الآنسة ساليـڤـان. إنَّني أشعرُ بأنَّ كيانها ليس منفصلًا عنِّي، فخطواتي التي أخطوها في حياتي تماثلُ خُطاها. وكلُّ مناقِبي إنما تعودُ إليها.

قابلتُ عديدًا من البشر، كانوا يتحدَّثون إليَّ بأن يتلفَّظوا الكلمات في يدي، وفكرةٌ تتقافز في انسجامٍ بهيجٍ لتلتقي فكرَةً، وبعدها، انظُروا! لقد حدثت معجزة! تلك الأصقاع القاحلةُ التي كانت تحولُ بين عقلي وعقول الآخرين قد أزهَرَت وردًا.

هيلين مع جون ألبرت ماسي

نبذة عن المترجم

باسم محمود

كاتب. ومترجم، من مصر. مواليد 23 أبريل، 1990. تخرّج في كليّة الصيدلة. نَشر عددًا من المقالات والترجمات في دوريّات ثقافية، منها: أخبار الأدب، مجلة الدوحة الثقافية، مجلة الإمارات الثقافية، الرافد، الفيصَل، ساسة بوست، المنصّة، مجلة رُمّان.

صدر له في الترجمة:

- "قِصّتي"- مذكّرات مارلين مونرو، عن دار المدى 2017.

قصة حياتي

الأدب هو يوتوبياي. في صحبته، لا أكون محرومةً من الإدلاء بصوتي. لا حوائل من الحواس تمنعني عن المحادثة المؤنسة الفاتنة مع أصدقائي الكتب. إنهم يتحدَّثون إليَّ دونما ارتباكٍ أو حَرَج. إنَّ الأشياء التي قد تعلَّمتُها، والأشياء التي قد عُلِّمتُها تبدو أقلّ أهمِّيَةً على نحوٍ يبعثُ على الضّحك، إذا ما قورنَت بما تهبُه الكتب من "صِلات محبّةٍ عظيمةٍ وهِباتٍ سَماويّة"."المعرفةُ قُوَّة". إنّما بالأحرى؛ المعرفةُ سعادة، فأن تحوزَ المعرفة، يعني أن تَميزَ الحقيقيَّ من الزّائف، والأشياءَ السّاميةَ من تلك الوَضيعة. أن تعرف الأفكار والصنائع التي وَسَمَت مسيرةَ البَشريّ يعني أن تشعرَ بالقلب النّابض للإنسانية على مَرِّ القُرون، وإن لم يستشعر المرءُ في تلك النّبضات السَّعيَ نحو الأعالي؛ فلا بدَّ وأنَّه قد حَجَبَ وَقْرٌ سَمْعَه عن تناغمات الحياة.

telegram @soramnqraa

الغلاف:
عبد الرحمن الصواف

ISBN 978-977-313-825-7

مركز المحروسة للنشر و الخدمات الصحفية و المعلومات